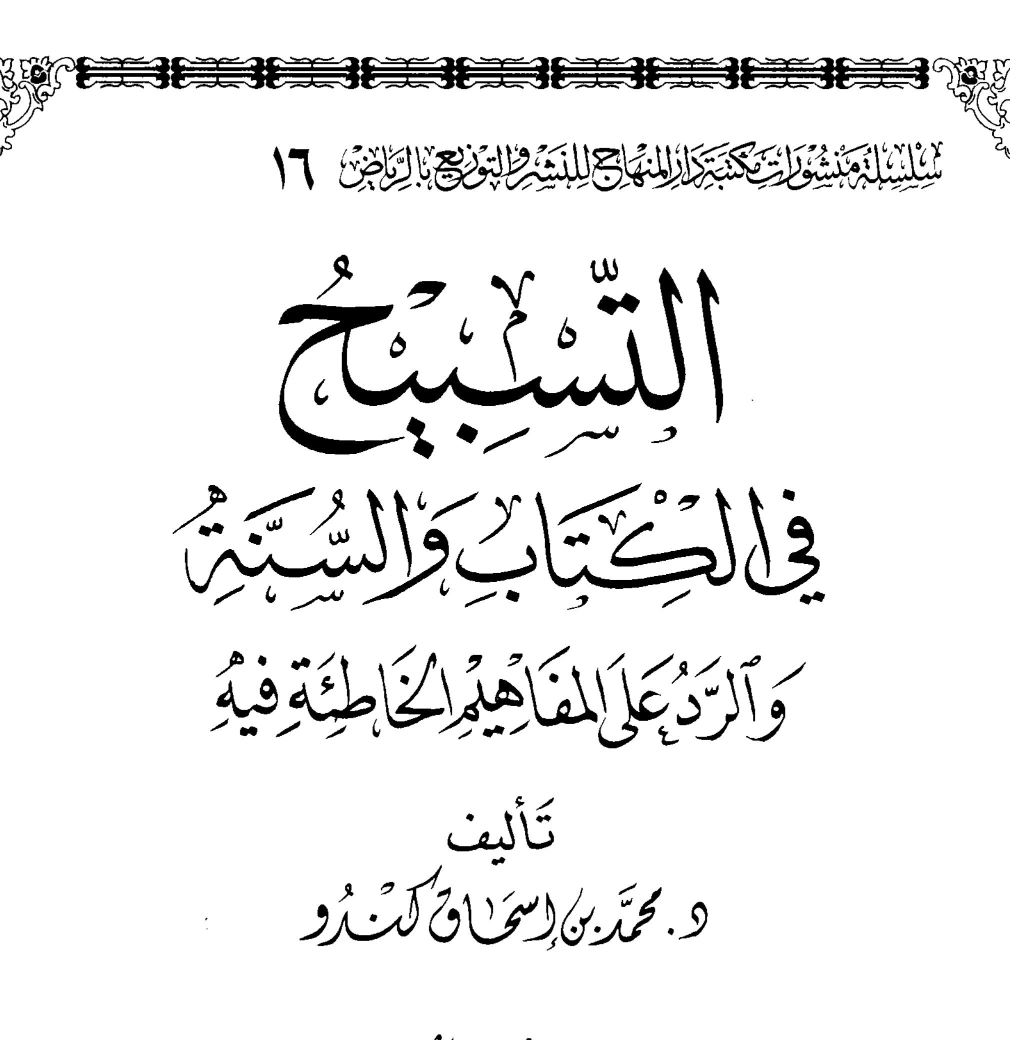


سلسلة منشورات مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع بالرياض ١٦

التسبيح في الكتاب والسنة

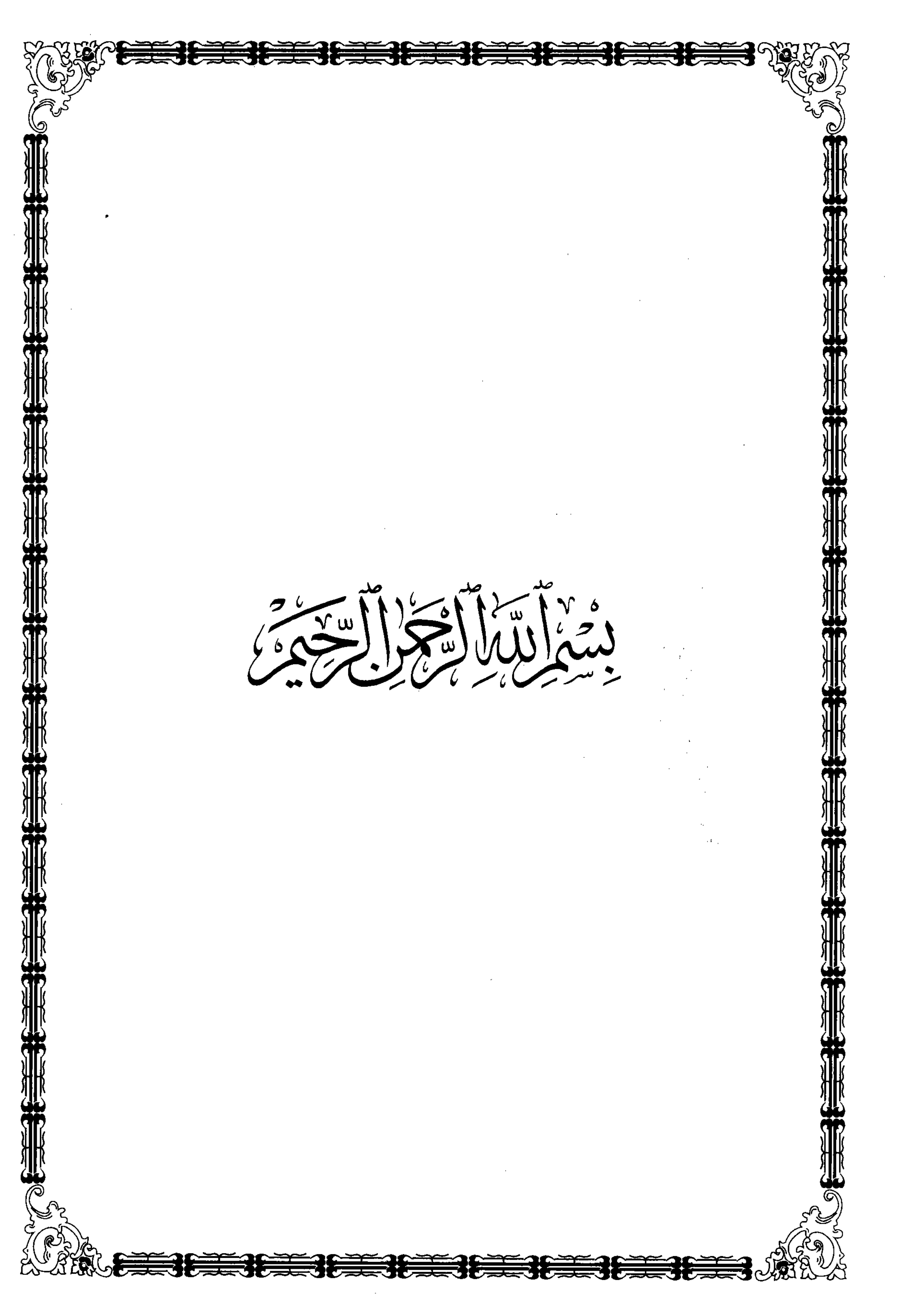
والرد على المفاهيم الخاطئة فيه

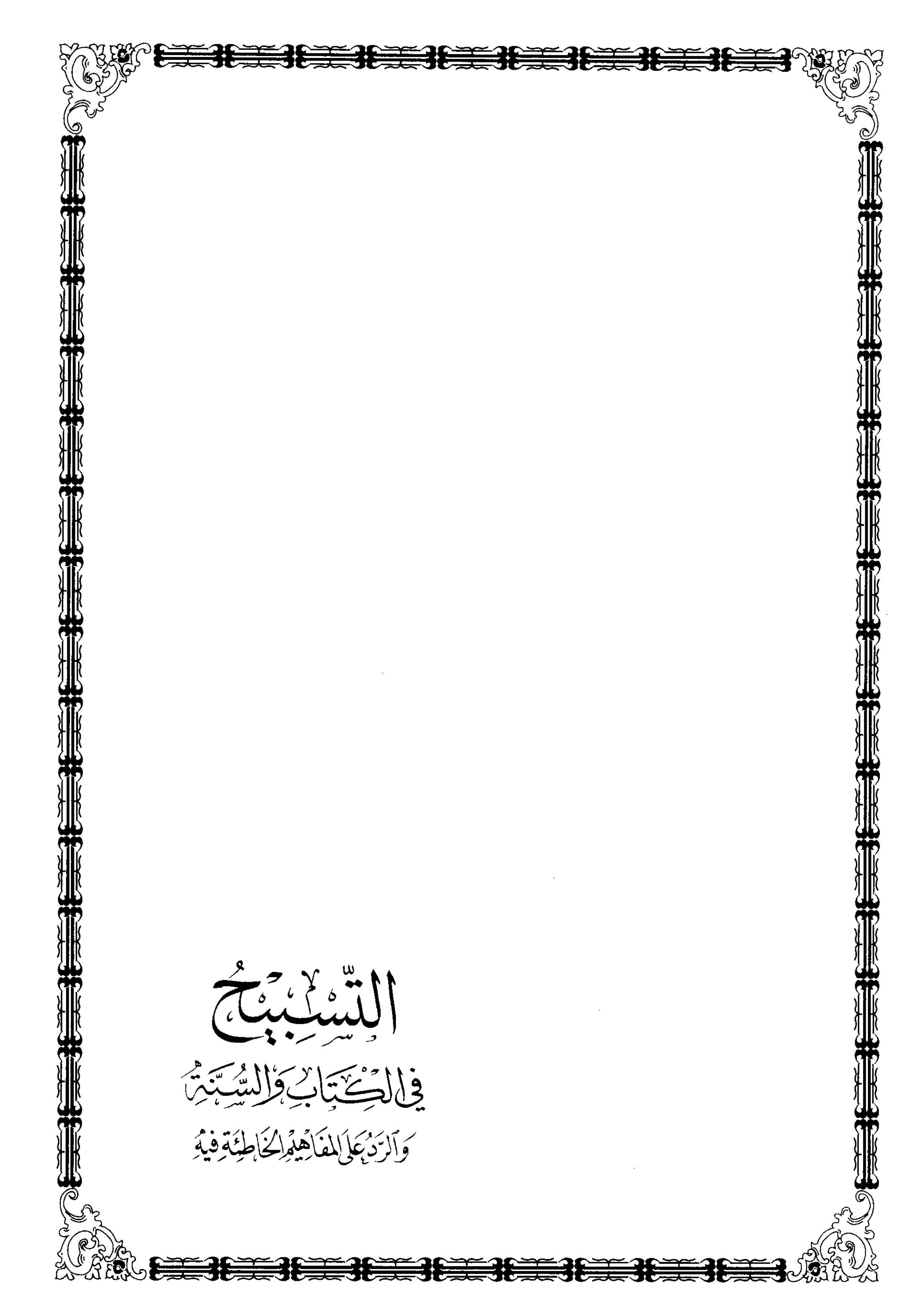
تأليف
د. محمد بن إسحاق كندو

تقديم فضيلة الشيخ
أ. د. عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر
الأستاذ في قسم العقيدة بالجامعة الإسلامية
بالمدينة النبوية

المجلد الأول

مكتبة دار المنهاج
للنشر والتوزيع بالرياض


بسم الله الرحمن الرحيم



التسبيح

في الكتاب والسنة

والرد على المفاهيم الخاطئة فيه

ح مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع، ١٤٢٥هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
كندو، محمد إسحاق
التسبيح في الكتاب والسنة والرد على المفاهيم الخاطئة فيه. /
محمد إسحاق كندو.- الرياض، ١٤٢٥هـ
٢مج.
ردمك: ١ـ ٦ ـ ٩٥٥٧ ـ ٩٩٦٠ (مجموعة)
X ـ ٧ ـ ٩٥٥٧ ـ ٩٩٦٠ (ج١)
١ ـ العقيدة الإسلامية ٢ ـ الأدعية والأوراد أ ـ العنوان
ديوي ٢٤٠ ١٤٢٥/٧٢٦٢

الطبعة الأولى

١٤٢٦هـ

مكتبة دار المنهاج
للنشر والتوزيع
المملكة العربية السعودية . الرياض
المركز الرئيسي: طريق الملك فهد / شمال الجوازات
هاتف ٤٠٦٥٥٥٣ - فاكس ٤٠٨٣٦٩٨ - ص.ب ٩٩٢٩ الرياض ١١٥٥٣
الفروع: طريق خالد بن الوليد (إنكاس سابقا) ت ٢٣٢٢٠٩٥
مكة المكرمة . الشامية هاتف ٥٧٣٠٩٨٠

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، ذي الجلال والكمال، والعظمة والكبرياء، المتّصف بالصفات الحسنى الكاملة، والمنزّه عن كل نقص، جلّ شأنه، وعظم سلطانه، وتعالى جدّه.

وأصلي وأسلّم على محمد عبد الله ورسوله، خير من نزّه الله وسبّحه وقدّسه وأطاعه وعبده، وعلى آله الأخيار، وأصحابه الأطهار، وعلى المؤمنين جميعهم أهل الجنة الأبرار.

وبعد: فإنّ من الأصول العظيمة والأسس المتينة في توحيد الأسماء والصفات تنزيه الله جلّ وعلا عمّا لا يليق بجلاله وينافي كماله من صفات النقص، كالسِّنة والنوم واللغوب والولد والوالد وغيرها، وعن أن يشبهه أحد من خلقه، أو أن يشبه هو أحداً من خلقه، تعالى وتقدّس وتنزّه عن الشبيه والنظير والمثال، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

وإن من أدلّ النصوص على هذا الأصل العظيم قول الله تعالى - في مواضع عديدة من القرآن الكريم -: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ أي: أنزّه الله، وأجلّ الله، وأبرّئ الله عما لا يليق به.

ومن هذا قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾ [الصافات: ١٨٠ - ١٨٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في مقدمة «العقيدة الواسطية»:

(فسبّح نفسه عمّا وصفه به المخالفون للرسل، وسلّم على المرسلين، لسلامة ما قالوه من النقص والعيب، وهو قد جمع فيما وصف وسمّى به نفسه بين النفي والإثبات، فلا عدول لأهل السنّة والجماعة عما جاء به المرسلون، فإنّه الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين).

والتسبيح هو التنزيه، فأصل هذه الكلمة من السّبح وهو البُعد، قال الأزهري في «تهذيب اللغة»: (ومعنى تنزيه الله من السوء: تبعيده منه، وكذلك تسبيحه تبعيده، من قولك: سبحتُ في الأرض إذا أبعدتَ فيها، ومنه قوله جلّ وعزّ: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠]، وكذلك قوله: ﴿وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ۝٣﴾ [النازعات: ٣])[١].

فالتسبيح هو إبعاد صفات النقص من أن تضاف إلى الله، وتنزيه الربّ سبحانه عن السوء وعمّا لا يليق به، (وأصل التسبيح لله عند العرب التنزيه له من إضافة ما ليس من صفاته إليه، والتبرئة له من ذلك)[٢].

وقد ورد هذا المعنى في تفسير التسبيح في حديث يُرفع إلى النبي ﷺ إلّا أنّ في إسناده كلاماً، فقد روى الحاكمُ في المستدرك عن عبد الرحمٰن بن حمّاد، ثنا حفص بن سليمان، ثنا طلحة بن يحيى بن طلحة، عن أبيه، عن طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ عن تفسير سبحان الله، فقال: «هو تنزيه الله عن كلّ سوء». قال الحاكم: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، وتعقبه الذهبي في تلخيصه للمستدرك بقوله: (بل لم يصح فإن طلحة منكر الحديث، قاله

---

(١) تهذيب اللغة (٤/٣٢٨).

(٢) جامع البيان، لابن جرير (١/٢١١).

البخاري، وحفص واهي الحديث، وعبد الرحمٰن قال أبو حاتم: منكر)[١].

وروي الحديث من وجه آخر مرسلاً.

وورد في هذا المعنى آثار عديدة عن السلف ـ رحمهم الله ـ، روى جملة منها الطبري في تفسيره، والطبراني في كتابه «الدعاء» في باب: تفسير سبحان الله[٢]، وغيرهما من أهل العلم، منها:

ما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: (سبحان الله تنزيه الله عز وجل عن كل سوء).

وعن عبد الله بن بريدة أن رجلاً سأل علياً رضي الله عنه عن سبحان الله فقال: (تعظيم جلال الله).

وجاء عن مجاهد أنه قال: (التسبيح انكفاف الله من كل سوء). قال ابن الأثير في النهاية: (أي: تنزيهه وتقديسه).

وعن ميمون بن مهران قال: (سبحان الله اسم يعظّم الله به، ويحاشى به من السوء).

وعن أبي عبيدة معمر بن المثنّى قال: (سبحان الله: تنزيه الله وتبرئته).

وعن محمد بن عائشة قال: (تقول العرب إذا أنكرت الشيء وأعظمته سبحان الله، فكأنه تنزيه الله عز وجل عن كل سوء، لا ينبغي أن يوصف بغير صفته).

والآثار في هذا المعنى عن السلف كثيرة.

---

(١) المستدرك (١/ ٥٠٢).

(٢) الدعاء، للطبراني (٣/ ٥٩١ وما بعدها).

ونقل الأزهري في كتابه «تهذيب اللغة» عن غير واحد من أئمة اللغة تفسير التسبيح بالمعنى السابق، وقال: (وجماع معناه: بُعده تبارك وتعالى عن أن يكون له مثلٌ أو شريك أو ضدٌّ أو ندٌّ)(١).

وبهذه النقول المتقدمة يتبيّن معنى التسبيح والمراد به، وأنّه تنزيه الله ﷻ عن كلّ نقص وعيب، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: (والأمر بتسبيحه يقتضي تنزيهه عن كل عيب وسوء، وإثبات المحامد التي يُحمد عليها، فيقتضي ذلك تنزيهه وتحميده وتكبيره وتوحيده)(٢).اهـ كلامه رَحِمَهُ اللَّهُ.

وبه يتبيّن أن تسبيح الله إنما يكون بتبرئة الله وتنزيهه عن كلِّ سوء وعيب، مع إثبات المحامد وصفات الكمال له سبحانه، على وجهٍ يليق به، أمّا ما يفعله المعطّلة من أهل البدع كالمعتزلة وغيرهم من تعطيل للصفات وعدم إثبات لها وجحد لحقائقها ومعانيها بحجة أنهم يسبّحون الله وينزّهونه، فهو في الحقيقة ليس من التسبيح في شيء، بل هو إنكارٌ وجحودٌ، وضلالٌ وبهتانٌ، ولذا يقول ابن هشام النحوي في كتابه مغني اللبيب: (ألا ترى أن تسبيح المعتزلة اقتضى تعطيل كثير من الصفات)(٣).

ويقول ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ في معنى قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ [النصر: ٣]، أي: (سبّحه بما حمد به نفسه، إذ ليس كل تسبيح بمحمود، كما أن تسبيح المعتزلة يقتضي تعطيل كثير من الصفات)(٤).

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (إذ ليس كل تسبيح بمحمود) كلام في غاية الأهمية والدقة، إذ إنّ تسبيح الله بإنكار صفاته وجحدها وعدم إثباتها أمرٌ لا يُحمد عليه فاعله، بل يُذمُّ غاية الذم، ولا يكون بذلك من المسبّحين

(١) تهذيب اللغة (٤/ ٣٣٩).
(٢) دقائق التفسير، لابن تيمية (٥/ ٥٩).
(٣) مغني اللبيب (١/ ١٤٠) مع أنه وقع في بعض ذلك، غفر الله له ورحمه.
(٤) تفسير سورة النصر (ص٧٣).

بحمد الله، بل يكون من المعطلين المنكرين الجاحدين، من الذين نزّه الله نفسه عن قولهم ووصفهم بقوله: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾ [الصافات: ١٨٠ ـ ١٨٢]، فسبّح الله نفسه عمّا وصفه به المخالفون للرسل، وسلّم على المرسلين لسلامة ما قالوه في الله من النقص والعيب.

إن تسبيح الله وتنزيهه وتقديسه وتعظيمه يجب أن يكون وفق الضوابط الشرعية، وعلى ضوء الأدلة النقليّة، ولا يجوز بحال أن يبنى ذلك على الأهواء المجردة، أو الظنون الفاسدة، أو الأقيسة العقلية الكاسدة كما هو الشأن عند أرباب البدع المعطلين لصفات الربّ سبحانه، ومن كان يعتمد في باب التعظيم على هواه بغير هدى من الله، فإنه يزلّ في هذا الباب ويقع في أنواع من الباطل وصنوف من الضلال. جاء عن عبد الرحمٰن بن مهدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ وقد ذُكر عنده أن الجهمية ينفون أحاديث الصفات، ويقولون: الله أعظم من أن يوصف بشيء من هذا ـ أنه قال: (قد هلك قوم من وجه التعظيم فقالوا: الله أعظم من أن ينزل كتاباً أو يرسل رسولاً، ثم قرأ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١]، ثم قال: هل هلكت المجوس إلا من جهة التعظيم؟ قالوا: الله أعظم من أن نعبده، ولكن نعبد من هو أقرب إليه منا، فعبدوا الشمس وسجدوا لها، فأنزل الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣])[١].

وفي كلامه هذا رَحِمَهُ ٱللَّهُ إشارة إلى أن التعظيم والتنزيه إن لم يكن على هدي الكتاب والسنّة فإنّه يكون غاية التعطيل، ومنتهى الجحود، والعياذ بالله، ومن يتأمل حال الطوائف الضالة والفرق المنحرفة التي سلكت في التنزيه والتعظيم هذا الطريق يجد أنهم لم يستفيدوا من ذلك سوى التنقّص

(١) ذكره التيمي في الحجة في بيان المحجة (١/ ٤٤٠).

لربّ العالمين وجحد صفات كماله ونعوت جلاله، حتى آل الأمر ببعضهم في التنزيه إلى الاعتقاد بأنه ليس فوق العرش إلٰه يُعبد، ولا ربّ يصلى له ويُسجد، تعالى الله عما يقولون، وسبحان الله عما يصفون.

ومن هنا كانت العناية بفهم التنزيه على أساس صحيح ومنهج سليم أمراً عظيماً وأصلاً متيناً، يجب العناية والاهتمام به، وخير سبيل إلى ذلك هو التفقه في قول الله جلّ وعلا: ﴿سُبْحَانَ ٱللَّهِ﴾، وعقل مراده بها، وفهمها فهماً صحيحاً سليماً بعيداً عن الشوائب والمكدرات.

هذا، وقد سمت همّة الأخ المفضال، والباحث الموقر، الشيخ محمد بن إسحاق كندو، من دولة «بوركينافاسو» للكتابة في هذا الموضوع الجليل، ولمّ أطرافه، وجمع شمله في سفر واحد، وقبل مشكوراً إشارتي عليه بالكتابة فيه، وقدّمه موضوعاً لأطروحته العلمية في مرحلة «العالمية العالية» بقسم العقيدة في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، بعنوان: (التسبيح في الكتاب والسنة والرّدّ على المفاهيم الخاطئة فيه)، وكنت مشرفاً عليه في إعداده، فألفيته ـ حفظه الله ووفقه وبارك فيه ـ باحثاً محقّقاً، قد أجاد وأفاد في تحرير مسائله، وتقرير دلائله، وتجلية جوانبه، وجمع أطرافه، ومناقشة المخالفين فيه، بأسلوب رصين، وكلام واضح، وعرض شيّق، وتقرير محكم، هكذا أحسبه ولا أزكي على الله أحداً، وأسأل الله الكريم أن يثيبه على هذا التسبيح في هذا السفر المليح، وأن يكتبه في موازين حسناته يوم يلقى الله ﷻ ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾، وأن يجعله مباركاً أينما كان، إنه سبحانه سميع مجيب، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

كتبه

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

في ١٤٢٥/٣/١٣هـ

المقدمة

الحمد لله حمداً كثيراً طيّباً مباركاً فيه، وسبحان الله عدد خلقه وزنة عرشه ورضا نفسه ومداد كلماته، ولا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كلّ شيء قدير، والله أكبر كبيراً، له الأمر كلّه، وله الملك كلّه، الخير كلّه في يديه، والشرّ ليس إليه، تفرّد بالكمال المطلق من كلّ وجه، وتنَزّه عن النقائص والعيوب من كلّ وجه، لا يحصي أحد من خلقه ثناء عليه وإن استوعب جميع الأوقات بكلّ أنواع الثناء، بل ثناؤه أعظم من ذلك فهو كما أثنى على نفسه.

والصلاة والسلام الأتمّان الأكملان على خاتم أنبيائه ورسله، وخير عباده وخلقه، محمد بن عبد الله وآله، ومن اقتفى أثره، وتمسك بسنّته إلى لقاء ربّه.

أما بعد: فإنّ الله تبارك وتعالى قد جعل لهذه الملّة الحنيفيّة شرائع وعبادات، ومسالك وطاعات، وأقوالاً وأعمالاً واعتقادات، يتفقّه العبد بتعلّمها، ويتنعّم بالتعبّد لله تعالى بها، ويترقّى في مدارج الكمال البشريّ بقدر ما علم وأتى به منها.

وإنّ من أجلّ ما عُلم من ذلك وأهمّه تسبيح الله ﷻ وتنْزيهه وتعظيمه، فما من مسلم إلا وهو يسبّح لله تعالى في يومه وليلته مرّات وكرّات قد يصعب ضبط عددها، مما يعني أنّ التّسبيح من أوفر الأذكار حظّاً في الإسلام، وأولاها بالعناية تفهّماً لمعناه، وتعقّلاً لمدلوله، وتحقّقاً به اعتقاداً وقولاً وعملاً.

وإذا كان جلّ المسلمين يدركون عظم شأن التّسبيح باعتباره ذكراً من الأذكار المشروعة في الإسلام، فإنّ حظّ كثير منه هو ترداده باللسان مع الجهل بمدلوله ومعناه الصحيح.

ولا شكّ أن هذا الصنف من المسلمين يثابون ـ بإذن الله ـ على نطقهم بالتسبيح بحسب نيّاتهم، ولكن يفوتهم خير كثير بسبب جهلهم لمعنى التّسبيح ومدلوله، وربّما كان المسلم ـ بسبب هذا الجهل ـ مسبّحاً لله بلسانه، وهو مناقض له باعتقاده وقوله وعمله.

ولهذا كان على أهل العلم وعلى طلاب العلم أن يبذلوا جهوداً في دراسة ألفاظ الذكر المشروعة في الإسلام، وإبراز معانيها الصّحيحة ودلالتها العظيمة بالأسلوب الذي ينتفع به المسلمون ويزدادون به علماً وإيماناً بتوفيق الله تعالى. ومن هنا تأتي فكرة اختيار هذا الموضوع ودراسته في رسالة علميّة بعنوان:

(التسبيح في الكتاب والسنة
والرد على المفاهيم الخاطئة فيه)

❑ أهمّية الموضوع:

ولهذا الموضوع أهمية خاصّة يمكن إجمالها فيما يلي:

أولاً: أنّه مرتبط بذكر من أشهر الأذكار التي شرع للمسلم أن يأتي بها أكثر من مرة في اليوم والليلة.

ثانياً: أنّ فيه إبرازاً للعلاقة الوثيقة بين ألفاظ الذكر المشروعة ـ ممثلة في التّسبيح ـ وبين عقيدة المسلم، وأن هذه الأذكار لم تشرع لمجرّد ألفاظها، بل لكي يتفهّمها المسلم ويعتقد دلالاتها ويتعبّد بها لله تعالى تعبّداً صحيحاً وكاملاً قولاً واعتقاداً وعملاً.

ثالثاً: أنّ مسألة التنْزيه ـ الذي هو مدلول التسبيح ـ تعدّ من المسائل الأساسيّة في العقيدة الإسلامية.

وقد تنازعت الفرق الكلامية المبتدعة مفهومه، وادّعى كلّ فرقة أنّها تسبّح الله وتنَزّهه بما ابتدعته من مقالات في العقيدة، مما سبّب اشتباها والتباساً على كثير من المسلمين في المفهوم الصحيح للتسبيح والتنْزيه.

فكان تناول موضوع التّسبيح بالدراسة من الناحية العقدية في ضوء الكتاب والسنة، مع التنبيه على المفاهيم الخاطئة التي أحدثتها الفرق المبتدعة فيه، كان ذلك من المطالب المهمة في الدين، لما ينتج عنه ـ بإذن الله ـ من الفوائد العامة والخاصة.

❑ أسباب اختيار الموضوع:

وهناك أسباب دفعت الباحث لاختيار هذا الموضوع ـ بالإضافة إلى ما سبق ذكره من الأهمية ـ وهذه الأسباب هي:

أوّلاً: أنّه على الرّغم من أهمية هذا الموضوع فإنّه لم ينل حقّه من العناية لدى الباحثين، ولا سيما في مجال العقيدة، فإنني لم أقف ـ بحسب اطّلاعي ـ على بحث علميّ أو كتاب مؤلّف في هذا الموضوع بالطريقة التي خطّطت له في هذه الرسالة.

ثانياً: أنّ بعض مشايخنا الأفاضل ـ نفع الله بهم ـ قد حبّذوا هذا الموضوع واستحسنوه، وشحذوا همّتي للبحث فيه.

ثالثاً: أنّ هذا الموضوع يتّصف بالسعة وتعدّد المسائل، مما يتيح للباحث الاطلاع على أنواع المعارف الربانية التي تزيد من قوته العلمية والعملية بتوفيق الله تعالى.

رابعاً: أنّ هذا الموضوع يرجى له ـ إذا ما تمّ بحثه ونشره ـ أن

ينال قبولاً لدى المسلمين، لحاجة كلّ مسلم إلى معرفة المعنى الصحيح لهذا الذكر الهام في الإسلام، ومدلولاته ومناسباته العقدية.

خامساً: أن هذا الموضوع فيه إضافة علمية تسهم ـ بإذن الله ـ في ترسيخ العقيدة الصحيحة وتفنيد المفاهيم الخاطئة فيها.

❐ خطة البحث:

وقد قسمت البحث في هذا الموضوع إلى مقدمة، وخمسة أبواب، وخاتمة، على التفصيل التالي:

ـ المقدمة/ واشتملت على:

١ ـ الافتتاحية.

٢ ـ بيان فكرة الموضوع.

٣ ـ بيان أهمية الموضوع.

٤ ـ بيان أسباب اختيار الموضوع.

٥ ـ بيان خطة البحث.

٦ ـ بيان منهج البحث.

٧ ـ الشكر والتقدير.

* **الباب الأول**: معاني التّسبيح وأنواعه، وفيه فصلان:

الفصل الأول: معاني التّسبيح، وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: التّسبيح في اللغة، وفيه سبعة مطالب:

المطلب الأول: بناء لفظ التسبيح.

المطلب الثاني: معنى التسبيح.

المطلب الثالث: أصل التسبيح.

المطلب الرابع: تعدية التسبيح.

المطلب الخامس: ماهية (سبحان).

الفصل الثاني: أنواع التّسبيح، وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: أنواع التّسبيح باعتبار معناه، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: تسبيح الله تعالى عن النقائص، وفيه ثلاث مسائل:

١ ـ التعريف بالنقائص في اللغة.

٢ ـ التعريف بالنقائص التي يسبح الله وينزه عنها.

٣ ـ أنواع النقائص.

المطلب الثاني: تسبيح الله تعالى عن التمثيل، وفيه أربع مسائل:

١ ـ التعريف بالتمثيل في اللغة.

٢ ـ التعريف بالتمثيل الذي ينزه الله تعالى عنه.

٣ ـ الفرق بين التمثيل والتشبيه.

٤ ـ أنواع التمثيل.

المطلب الثالث: تلازم نوعي التسبيح.

المبحث الثاني: أنواع التّسبيح باعتبار صيغه، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: صيغة الإفراد.

المطلب الثاني: صيغة القران، وفيه سبع مسائل:

١ ـ قرن التسبيح بالتحميد.

٢ ـ قرن التسبيح بالتهليل.

٣ ـ قرن التسبيح بالتكبير.

٤ ـ قرن التسبيح بأسماء الله وصفاته.

٥ ـ قرن التسبيح بالاستغفار.

٦ ـ قرن التسبيح بالدعاء.

٧ ـ قرن التسبيح بالسلام على المرسلين.

المبحث الثالث: أنواع التسبيح باعتبار فاعله، وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: تسبيح الله لنفسه المقدسة.

المطلب الثاني: تسبيح الملائكة لله تعالى.

المطلب الثالث: تسبيح صالحي البشر لله تعالى، وفيه:

أ ـ تسبيح الأنبياء عليهم السلام لله تعالى.

١ ـ تسبيح يونس عليه السلام.

٢ ـ تسبيح موسى عليه السلام.

٣ ـ تسبيح داود عليه السلام.

٤ ـ تسبيح زكريا عليه السلام.

٥ ـ تسبيح عيسى عليه السلام.

٦ ـ تسبيح خاتم النبيين محمد ﷺ.

ب ـ تسبيح المؤمنين أتباع الأنبياء.

المطلب الرابع: تسبيح الكائنات كلها لله تعالى.

المطلب الخامس: تسبيح أهل الجنة فيها لله تعالى.

* **الباب الثاني: حكم التسبيح وفضله ومنزلته في العقيدة، وفيه ثلاثة فصول:**

الفصل الأول: حكم التسبيح، وفيه مبحثان:

المبحث الأول: حكم تسبيح الله تعالى، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: حكم تسبيح الله من حيث القول.

المطلب الثاني: حكم تسبيح الله من حيث الاعتقاد.

المبحث الثاني: حكم تسبيح غير الله تعالى، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: حكم تسبيح غير الله من حيث القول.

المطلب الثاني: حكم تسبيح غير الله من حيث الاعتقاد.

الفصل الثاني: فضل التسبيح، وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: الفضل المختص بالتسبيح، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: ما ورد في كتاب الله تعالى من الفضل المختص بالتسبيح.

المطلب الثاني: ما ورد في سنة رسول الله ﷺ من الفضل المختص بالتّسبيح.

المطلب الثالث: أفضل صيغ التسبيح.

المبحث الثاني: الفضل المشترك للتسبيح.

المبحث الثالث: المفاضلة بين التسبيح وبين التحميد والتهليل والتكبير.

الفصل الثالث: منزلة التسبيح في العقيدة، وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: التسبيح دال على وصف لله تعالى.

المبحث الثاني: التسبيح من شواهد الإيمان بالله تعالى.

المبحث الثالث: التسبيح من أصول توحيد الله تعالى.

المبحث الرابع: التسبيح من دلائل حسن العقيدة الإسلامية.

* **الباب الثالث: المواضع التي يشرع فيها التسبيح ومناسباتها العقدية، وفيه ثلاثة فصول:**

الفصل الأول: مواضع يشرع فيها التسبيح في الصلاة ومناسباتها العقدية، وفيه تمهيد وستة مباحث:

المبحث الأول: التسبيح في افتتاح الصلاة.

المبحث الثاني: التسبيح عند قراءة آية فيها تسبيح الله تعالى.

المبحث الثالث: التسبيح بدلاً من القراءة لمن لا يحسن شيئاً من القرآن.

المبحث الرابع: التسبيح في الركوع والسجود.
المبحث الخامس: التسبيح في الصلاة لأمر طارئ.
المبحث السادس: التسبيح دبر الصلاة.

الفصل الثاني: مواضع يشرع فيها التسبيح مفرداً ومناسباتها العقدية، وفيه خمسة مباحث:

المبحث الأول: التسبيح عند الهبوط في الأماكن المنخفضة.
المبحث الثاني: التسبيح عند سماع الرعد.
المبحث الثالث: التسبيح عند التعجب، وفيه خمسة مطالب:
المطلب الأول: التسبيح عند التعجب مما ينافي الاعتقاد الصحيح في الله تعالى.
المطلب الثاني: التسبيح عند التعجب من المنكر.
المطلب الثالث: التسبيح عند العجائب الدالة على عظمة الله تعالى.
المطلب الرابع: التسبيح عند التعجب من الأشياء المهولة.
المطلب الخامس: التسبيح عند مطلق التعجب.
المبحث الرابع: التسبيح في الأوقات المخصوصة.
المبحث الخامس: التسبيح مطلقاً في الأحوال والأوقات.

الفصل الثالث: مواضع يشرع فيها التّسبيح مقروناً ومناسباتها العقدية، وفيه عشرة مباحث:

المبحث الأول: التّسبيح والتحميد والتكبير عند النوم.
المبحث الثاني: التّسبيح والتحميد والتكبير والحوقلة والاستغفار والدعاء عند الانتباه من النوم.
المبحث الثالث: التّسبيح والتحميد والتهليل والاستغفار عند الفراغ من الوضوء.

المبحث الرابع: التّسبيح والتحميد والتهليل والتكبير والاستغفار عند الاستواء على المركوب.

المبحث الخامس: التّسبيح والتحميد والتكبير عند الإهلال بحج أو عمرة.

المبحث السادس: التّسبيح والتحميد والتهليل والتكبير والاستغفار والدعاء داخل الكعبة في نواحيها.

المبحث السابع: التّسبيح والتحميد والتكبير قبل الدعاء.

المبحث الثامن: التّسبيح والتحميد والتهليل والتكبير والدعاء عند الكسوف.

المبحث التاسع: التّسبيح والتهليل والتحميد عند الكرب.

المبحث العاشر: التّسبيح والتحميد والتهليل والاستغفار في ختم المجلس.

* **الباب الرابع**: المفهوم الصحيح في تسبيح الله تعالى، وفيه مدخل وثلاثة فصول:

الفصل الأول: طريقة القرآن والسنة في تسبيح الله تعالى، وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: الإجمال في التنزيه غالباً.

المبحث الثاني: التفصيل في الإثبات.

المبحث الثالث: التفصيل في التنزيه وأسبابه.

المبحث الرابع: إثبات المثل الأعلى لله ﷻ.

الفصل الثاني: تسبيح الله تعالى في أسمائه وصفاته، وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: الإثبات مع التنزيه.

المبحث الثاني: النفي مع إثبات كمال الضدّ.

المبحث الثالث: السكوت عما لم يعلم في الكتاب والسنة إثباته أو نفيه.

المبحث الرابع: ما تجب مراعاته في الإثبات والنفي في حق الله تعالى، وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: التفريق بين ما تسمّى الله به مفرداً وما تسمى به مقروناً بما يقابله.

المطلب الثاني: التفريق بين ما أطلق على الله تعالى في الكتاب والسنة مطلقاً وما أطلق على الله تعالى مقيداً.

المطلب الثالث: التفريق بين ما يطلق على الله تعالى في باب الأسماء والصفات وما يطلق عليه في باب الإخبار.

المطلب الرابع: التوقير والتعظيم لأسماء الله تعالى وصفاته لفظاً ومعنى ظاهراً وباطناً.

الفصل الثالث: تسبيح الله تعالى في أقواله وأفعاله، وفيه تمهيد وثلاثة مباحث:

المبحث الأول: تسبيح الله عن العبث في أقواله وأفعاله.

المبحث الثاني: تسبيح الله تعالى عن الظلم في أقواله وأفعاله.

المبحث الثالث: تسبيح الله تعالى عن نسبة الشر إليه.

* **الباب الخامس: الرد على المفاهيم الخاطئة في التسبيح، وفيه مدخل وسبعة فصول:**

الفصل الأول: الردّ على تسبيح المشركين بالله تعالى في العبادة، وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: التعريف بالشرك وبيان أنواعه، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: التعريف بالشرك في اللغة والشرع.

المطلب الثاني: أنواع الشرك في الشرع.

المبحث الثاني: مفهوم التسبيح عند المشركين.

المبحث الثالث: إبطال تسبيح المشركين بالله تعالى.

الفصل الثاني: الردّ على تسبيح الممثلة، وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: التعريف بالممثلة.

المبحث الثاني: مفهوم التّسبيح عند الممثلة.

المبحث الثالث: إبطال ما ادَّعته الممثلة من التّسبيح.

الفصل الثالث: الردّ على تسبيح المعطّلة، وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: التعريف بالمعطّلة.

المبحث الثاني: مفهوم التّسبيح عند المعطلة.

المبحث الثالث: إبطال ما ادّعته المعطلة من التّسبيح.

الفصل الرابع: الردّ على تسبيح القدريّة، وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: التعريف بالقدريّة.

المبحث الثاني: مفهوم التّسبيح عند القدريّة.

المبحث الثالث: إبطال تسبيح القدرية.

الفصل الخامس: الردّ على تسبيح الجبرية، وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: التعريف بالجبرية.

المبحث الثاني: مفهوم التّسبيح عند الجبرية.

المبحث الثالث: إبطال تسبيح الجبرية.

الفصل السادس: الردّ على تسبيح الوعيدية، وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: التعريف بالوعيدية.

المبحث الثاني: مفهوم التّسبيح عند الوعيدية.

المبحث الثالث: إبطال تسبيح الوعيدية.

الفصل السابع: الردّ على تسبيح الصوفية، وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: التعريف بالصوفية.

المبحث الثاني: مفهوم التّسبيح عند الصوفية.

المبحث الثالث: إبطال تسبيح الصوفية.

* **الخاتمة، وفيها ملخص عامّ للبحث.**



منهج البحث

وقد اتّبعت في إعداد هذا البحث المنهج التالي:

١ ـ تناولت موضوع التّسبيح من جوانب متعدّدة بغية إبرازه في صورة علمية متكاملة حسب الإمكان، ولهذا تضمن البحث مسائل في التفسير، والحديث، والفقه، واللغة، إلى جانب العقيدة التي هي أساس البحث في هذا الموضوع.

٢ ـ قمت باستقراء الآيات القرآنية التي ورد فيها لفظ التسبيح بجميع مشتقاته اللفظية بحيث احتوى البحث على جميع تلك الآيات.

٣ ـ جمعت ما أمكن من الأحاديث النبوية التي لها صلة بموضوع التّسبيح، ولا سيما في بيان المواضع التي يشرع فيها التّسبيح، وكان جلّ اعتمادي في ذلك على الكتب الستة، بالإضافة إلى مسند الإمام أحمد بن حنبل، والأدب المفرد، للإمام البخاري، وعمل اليوم والليلة، للإمام النسائي، وكتاب الدعاء، للإمام الطبراني، مع الاستغناء عن الأحاديث التي ثبت ضعفها وعدم وجود ما يقوّيها.

٤ ـ قسمت البحث إلى أبواب وفصول ومباحث ومطالب ـ في بعض المباحث ـ، وفقاً لمعطيات المادة العلمية التي أمكن جمعها في هذا الموضوع.

٥ ـ اعتمدت في التعليق على الآيات القرآنية الواردة في التسبيح على كتب التفسير، وفي مقدمتها: تفسير الطبري، وتفسير القرآن العظيم، للحافظ ابن كثير، وتيسير الكريم الرحمن، للشيخ عبد الرحمن

السعدي. ولم أهمل الاستفادة من كلام بعض العلماء المحققين في ذلك، كشيخ الإسلام ابن تيمية، والعلامة ابن قيم الجوزية.

٦ ـ اعتمدت في التعليق على الأحاديث على أهمّ شروح الحديث المتداولة، ولا سيما شرح صحيح مسلم، للنووي، وفتح الباري، لابن حجر العسقلاني وغيرهما.

٧ ـ حرصت ـ عند بيان المواضع التي شرع فيها التسبيح ـ على إبراز المناسبة العقدية للتسبيح في كل موضع.

٨ ـ حرصت على دراسة مسألة تنزيه الله تعالى وبيان أسسها الصحيحة، في ضوء عقيدة أهل السنة والجماعة، مع التنبيه على المفاهيم الخاطئة في هذا الباب والرد عليها بالحجج الصحيحة.

واستفدت في ذلك كثيراً من كتب شيخ الإسلام ابن تيمية، وكتب العلامة ابن قيم الجوزية، وغيرها من كتب علماء أهل السنة والجماعة.

٩ ـ عزوت الآيات القرآنية الواردة في البحث إلى مواضعها في القرآن الكريم، بذكر اسم السورة، ورقم الآية.

١٠ ـ عزوت الأحاديث النبوية الواردة في البحث إلى مصادرها المعتمدة، فإذا كان الحديث في الصحيحين أو في أحدهما، اكتفيت في العزو إليهما أو إلى أحدهما. وإذا كان الحديث في غير الصحيحين، عزوته إلى أهم مصادره ـ كالسنن الأربعة، ومسند الإمام أحمد ـ بأيسر طريقة ممكنة، مع الاهتمام بنقل ما اطلعت عليه من كلام أهل العلم في بيان درجته.

١١ ـ وثّقت الموادّ العلمية الأخرى المنقولة في البحث، فإذا كان النقل بالنص جعلته بين قوسين مزدوجين صغيرين، مع الإشارة إلى مصدره في الهامش. وإذا كان النقل بالمعنى أو بتصرف ـ ولو قليلاً ـ

لم أجعله بين قوسين، بل أشير إلى مصدره في الهامش مسبوقاً بقولي: انظر.

كما أنني أجعل النصوص المقتبسة بين قوسين، وأشير إلى المصدر المقتبس منه في الهامش.

١٢ ـ شرحت الألفاظ الغريبة الواردة في صلب البحث.

١٣ عرّفت بالفرق والطوائف الوارد ذكرها في صلب البحث.

١٤ ـ ترجمت للأعلام المذكورين في صلب البحث، عند أوّل موضع يرد فيه ذكر العلم، إلا قليلاً ممن رأيت أنهم في غنية عن التعريف، كالعبادلة من الصحابة، والأئمة الأربعة، وابن تيمية، وابن القيم، وابن كثير، وابن حجر العسقلاني، والشوكاني، وغيرهم.

١٥ ـ ذيّلت البحث بفهارس لتيسير الاستفادة منه، وهي:

أ ـ فهرس الآيات القرآنية، مرتبة حسب السور.

ب ـ فهرس الأحاديث النبويّة، مرتبة على الحروف، بحسب أطراف الأحاديث.

جـ ـ فهرس الأعلام المترجم لهم، مرتبين على الحروف، باعتبار شهرة العلم.

د ـ فهرس المصادر والمراجع، مرتبة على الحروف.

هـ ـ فهرس الموضوعات.



الشكر والتقدير

وفي ختام هذه المقدمة أحمد الله تعالى حق حمده على أن يسّر لي كتابة هذا البحث وإخراجه للمسلمين، ولقد بذلت فيه جهداً حاولت به إبراز التسبيح في صورة علمية تجلّي حقيقته وتوضّح دلالته ومناسباته المختلفة في الكتاب والسنة، وتصفيه من المفاهيم الخاطئة التي ألصقها به أصحاب الأهواء من أهل الكلام والتصوف.

وهذا الجهد في النهاية جهد عبد ضعيف قصير الباع قليل العلم، ومع هذا فأرجو الله تعالى أن يجعله جهداً مباركاً مقبولاً، وأن يغفر لي ويعفو عني ما وقعت فيه من خطأ أو زلل أو قصور.

ولا يسعني في هذا المقام إلّا أن أتوجّه بالشكر الجزيل والثناء الجميل للقائمين على الجامعة الإسلامية المباركة على رعايتهم الحميدة للعلم وأهله وطلّابه، وعلى إتاحتهم الفرصة لي ولأمثالي من أبناء المسلمين في أنحاء المعمورة لتعلّم العقيدة الصحيحة والتفقه في دين الله تعالى في طيبة الطيبة على ساكنها أفضل الصلاة وأتم التسليم.

وأتقدم بوافر الشكر وبالغ التقدير لفضيلة شيخي الأستاذ الدكتور عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر الذي كان المشير الأول لي باختيار هذا الموضوع، ثم تكرّم بالإشراف عليه، وأولاني والموضوع من عنايته اللطيفة ومتابعته الدقيقة ما كان له أكبر الأثر ـ بتوفيق الله تعالى ـ في إتمام البحث وتذليل ما واجهني في أثنائه من صعوبات، فالله تعالى

أسأل أن يجزل له المثوبة، وأن يبارك في علمه وعمره، وأن ينفع به طلاب العلم والمسلمين إنه تعالى ولي ذلك والقادر عليه.

ثم أتقدم بالشكر والتقدير لصاحبي الفضيلة عضوي المناقشة لهذه الرسالة: فضيلة الشيخ الدكتور يوسف بن محمد السعيد، الأستاذ المشارك بقسم العقيدة في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، ورئيس القسم فيها. وفضيلة الشيخ الدكتور إبراهيم بن عامر الرحيلي، الأستاذ المشارك بقسم العقيدة في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة. اللذين تحملا عناء قراءة هذه الرسالة وأبديا فيها ملحوظاتهما واستدراكاتهما التي أفاد منها الباحث كثيراً، جعل الله ذلك في موازين حسناتهما ونفع بعلمهما وجهدهما.

كما أشكر كلّ من أسهم في إنجاز هذا البحث من طابع ومشير برأي ومعير لكتاب وغير ذلك من أوجه المساعدة، جزى الله الجميع خير الجزاء، ووفقني وإياهم للعلم النافع والعمل الصالح والعاقبة الحميدة، وصلى الله على نبينا محمد وآله وسلم، ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.



الباب الأول

معاني التسبيح وأنواعه

وفيه فصلان:

الفصل الأول: معاني التسبيح

الفصل الثاني: أنواع التسبيح



الفصل الأول

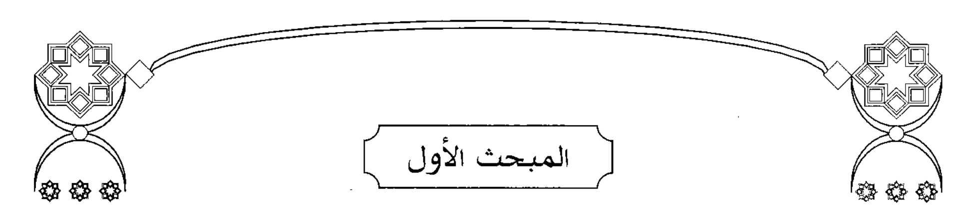
معاني التسبيح

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: التسبيح في اللغة

المبحث الثاني: التسبيح في الشرع

المبحث الثالث: الألفاظ الدالة على معنى التسبيح



التسبيح في اللغة

❑ تمهيد:

التسبيح في اللغة يتناول لفظين عليهما مدار الكلام في هذا المبحث، وهما:

أ ـ لفظ (تسبيح) الذي يستعمل منه الفعل والوصف بأنواعهما.

ب ـ لفظ (سبحان) الذي يستعمل مضافاً تعبيراً عن التسبيح.

وتتعلق بكل من هذين اللفظين مباحث لغوية سيتمُّ بحثها ـ إن شاء الله ـ في المطالب الآتية:

المطلب الأول: بناء لفظ التسبيح.

المطلب الثاني: معنى التسبيح.

المطلب الثالث: أصل التسبيح.

المطلب الرابع: تعدية التسبيح.

المطلب الخامس: ماهية (سبحان).

المطلب السادس: استعمالات (سبحان).

المطلب السابع: إعراب (سبحان).

وإليك تفصيلها مطلباً مطلباً:

❖ المطلب الأول ❖

بناء لفظ التسبيح

(التسبيح) مبني على وزن (التفعيل)، وهذا البناء مقياس لمصادر الأفعال الرباعية المبنية على وزن (فعّل) بتضعيف العين[(١)].

فالتسبيح مصدر قياسي للفعل (سبّح) بتشديد الباء، على وزن (فعّل).

وأغلب الأفعال المبنية على وزن (فعّل) هي في الأصل أفعال ثلاثية بنيت على هذا الوزن ـ بتضعيف عين الفعل منها ـ لإفادة معنى من المعاني، منها:

١ ـ تكثير الفعل وتكريره والمبالغة فيه، كقوله تعالى ـ في المنافقين ـ: ﴿أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦١].

فـ (قتلوا) ـ بتشديد التاء ـ أشد مبالغة من (قتلوا) إذا خففته[(٢)].

٢ ـ تعدية الفعل إلى المفعول، كقوله تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾ [الإسراء: ٧٠].

فالفعل (كرّم) بني على وزن (فعّل) لتعديته إلى المفعول (بني آدم)، وأصله (كرم) بالتخفيف، وهو فعل لازم لا يتعدى.

---

(١) قال ابن هشام الأنصاري: «لا بد لكل فعل غير ثلاثي من مصدر مقيس، فقياس (فعل) بالتشديد ـ إن كان صحيح اللام ـ (التفعيل)، كالتسليم، والتكليم، والتطهير» [أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك: ص ١١٢].

(٢) انظر: مجاز القرآن، لأبي عبيدة معمر بن المثنى التيمي، تحقيق محمد فؤاد سزكين: ٢/ ١٤١.

وكذا الفعل (فضّل) ومصدره (تفضيلاً)، تعدى الفاعل إلى المفعول ببنائه على وزن (فعّل)، وأصله (فضل) ـ بالتخفيف ـ لازم.

٣ ـ معنى الفعل المجرد، كقوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤] فإن (كلّم) على وزن (فعّل)، ومصدره (تكليما)، ولم يرد به التكثير والمبالغة، ولا التعدية، بل أريد به إثبات وقوع خطاب الله تعالى لموسى عليه السلام، وهذه اللفظة الرباعيّة، وليس لها ثلاثيّ نقلت عنه إلى الرباعيّ(١).

٤ ـ اختصار حكاية الكلام، نحو: أيَّه، أي: قال: (يا أيها الرجل)(٢). وحَمَّد، أي: قال: الحمد لله.

ولبناء (فعّل) معان أخرى ليس هذا موضع ذكرها(٣)، وإنما ذكرت هذه المعاني الأربعة لصلتها بمعنى (سبّح) الآتي ذكره.

ويجمع لفظ (التسبيح) على تسبيحات، وعلى تسابيح(٤).

---

(١) انظر: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، لضياء الدين ابن الأثير، تحقيق الدكتور أحمد الحوفي، والدكتور بدوي طبانه: ٢/ ٢٥٥، ٢٥٦.

(٢) انظر: القاموس المحيط، للفيروز آبادي: مادة (أيه): ص ١٦٠٤.

(٣) انظر هذه المعاني ـ إن شئت ـ في: شرح شافية ابن الحاجب، لرضي الدين الاستراباذي: ١/ ٩٢ ـ ٩٦، وتسهيل الفوائد وتكميل المقاصد، لابن مالك الأندلسي، تحقيق محمد كامل بركات: ص ١٩٨، وهمع الهوامع في شرح جمع الجوامع، لجلال الدين السيوطي، تحقيق الدكتور عبد العال سالم مكرم: ٦/ ٢٣ ـ ٢٤. وتعرض لبعضها الإمام قوام السنة أبو القاسم التيمي، في «الحجة في بيان المحجة وشرح عقيدة أهل السنة»، تحقيق الدكتور محمد بن ربيع هادي المدخلي: ١/ ٣٠٥.

(٤) انظر: أساس البلاغة، للزمخشري: ١/ ٤١٨.

❖ المطلب الثاني ❖

معنى التسبيح

يتبين من معاجم اللغة العربية، ومن كتب غريب القرآن، وكتب غريب الحديث أن للتسبيح معنيين في اللغة:

أحدهما: التنزيه والتبرئة من السوء. تقول: سبحت الله تسبيحاً، أي: نزهته تنزيهاً، وبرأته تبرئة من كل سوء.

وهذا المعنى قد أطبق على ذكره أهل اللغة في تفسيرهم للفظ (التسبيح)[1].

وقال أبو إسحاق الزجاج[2]: «لا اختلاف بين أهل اللغة في معنى التسبيح أنه: التبرئة لله ﷻ»[3].

---

(١) انظر ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ: كتاب العين، للخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق الدكتور مهدي المخزومي، وآخر: ٣/ ١٥١، وتهذيب اللغة، لأبي منصور الأزهري، تحقيق الأستاذ عبد الكريم العزاوي: ٤/ ٣٣٨، ومقاييس اللغة، لابن فارس، تحقيق عبد السلام محمد هارون: ٣/ ١٢٥، والصحاح، للجوهري، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار: ١/ ٣٧٢، ولسان العرب، لابن منظور: ٢/ ٤٧١، وتاج العروس من جواهر القاموس، لمحمد مرتضى الزبيدي، تحقيق الدكتور حسين نصار: ٦/ ٤٤٤، ٤٤٧، والمعجم الوسيط: ١/ ٤١٢، كلها في مادة (سبح).

(٢) هو إبراهيم بن محمد بن السري، أبو إسحاق الزجاج، البغدادي، الإمام، نحوي زمانه، كان يخرط الزجاج فنسب إليه، وله تآليف جمة، منها: معاني القرآن، وكتاب الاشتقاق، وكتاب النوادر، وغيرها، وتوفي سنة (٣١١هـ)، رحمه الله. انظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي: ١٤/ ٣٦٠، وبغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، لجلال الدين السيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم: ١/ ٤١١ ـ ٤١٣.

(٣) معاني القرآن وإعرابه، تحقيق الدكتور عبد الجليل عبده شلبي: ٢/ ٢٧٨.

والمعنى الآخر: قول: (سبحان الله). يقال: سبّح الرجل تسبيحاً، أي: قال: سبحان الله.

وهذا المعنى ذكره كثير من أهل اللغة[١]، وظن بعضهم أن التسبيح مخصوص بهذا المعنى[٢]، حتى قال ابن عطية[٣]: «و(سبح) إنما معناه: قال: سبحان الله، فلم يستعمل (سبح) إلا إشارة إلى (سبحان)» اهـ[٤].

ولا اختلاف ـ في الحقيقة ـ بين المعنيين المذكورين، فإن هذا المعنى الثاني آيل إلى المعنى الأول؛ لأن أهل اللغة متفقون على أن

---

(١) انظر ـ على سبيل المثال ـ: المحكم والمحيط الأعظم في اللغة، لابن سيده، تحقيق الدكتورة عائشة بنت الشاطئ: ٣/ ١٥٤، والمخصص، له: ١٦/ ١٦٣، والمغرب، لأبي الفتح ناصر الدين المطرزي، تحقيق محمود فاخوري، وآخر: ١/ ٣٧٩، ولسان العرب، لابن منظور: ٢/ ٤٧١، والمصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، لأحمد بن محمد الفيومي، تحقيق الدكتور عبد العظيم الشناوي ص٢٦٣، والقاموس المحيط، للفيروزابادي: ص ٢٨٤ ـ ٢٨٥، ومعجم متن اللغة، للشيخ أحمد رضا: ٣/ ٩١، والمعجم الوسيط: ١/ ٤١٢، كلها في مادة (سبح).

(٢) انظر: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، لمحمود الألوسي: ١٥/ ٣.

(٣) هو عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن عطية المحاربي، أبو محمد الغرناطي، القاضي، كان فقيهاً عالماً بالتفسير والحديث والنحو وغيرها من العلوم، ولي القضاء بمدينة المرية، وكان غاية في الدهاء والذكاء، وله مؤلفات من أشهرها تفسيره المسمى «المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز»، وتوفي سنة (٥٤٦هـ)، وقيل غير ذلك، رحمه الله. انظر: الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، لابن فرحون المالكي، تحقيق الدكتور محمد الأحمدي أبو النور: ٢/ ٥٧ ـ ٥٨، وطبقات المفسرين، للسيوطي، تحقيق علي محمد عمر: ص٦٠ ـ ٦١.

(٤) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ١٠/ ٢٥٦.

قول القائل: (سبحان الله) معناه: تنزيه الله وبراءة الله من السوء[١]. قال المبرد[٢]: «فأما قولهم: سبحان الله، فتأويله: براءة الله من السوء»[٣].

وقال الزجاج: «ومعنى (سبحان الله) في اللغة: تنزيه الله عن السوء»[٤].

وقال نفطويه[٥]: «وقول القائل: سبحان الله عن هذا، أي: برأته من هذا براءة، ونزهته تنزيهاً» اهـ[٦].

لكن الذي ينبغي أن يعلم هنا هو أن التسبيح إذا جاء على المعنى الأول ـ وهو التنزيه والتبرئة من السوء ـ كان مدلوله معنوياً، وكان الفعل منه متعدياً. ويحتمل في هذه الحالة أن يكون بناؤه على التفعيل للتعدية فحسب، أو لإفادة المبالغة مع ذلك، أو لمعنى (فعل) المجرد على ما تقدم ذكره من المعاني التي يفيدها هذا البناء اللفظي في اللغة.

---

(١) انظر: المصادر اللغوية السابقة.

(٢) هو محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الأزدي، أبو العباس المبرد البصري، إمام العربية ببغداد في زمانه، كان علامة أخباريًّا صاحب نوادر وظرافة، وله تصانيف كثيرة، منها: معاني القرآن، والكامل في اللغة والأدب، والمقتضب، وغيرها، وتوفي سنة (٢٨٥هـ)، وقيل: بعدها، رَحِمَهُ اللهُ. انظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي: ١٣/ ٥٧٦ ـ ٥٧٧، وبغية الوعاة للسيوطي: ١/ ٢٦٩ ـ ٢٧١.

(٣) المقتضب، تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة: ٣/ ٢١٧ ـ ٢١٨.

(٤) معاني القرآن وإعرابه: ٣/ ٢٢٥.

(٥) هو إبراهيم بن محمد بن عرفة بن سليمان العتكي الأزدي، أبو عبد الله الواسطي، المشهور بنفطويه، الإمام العلامة النحوي الأخباري، سكن بغداد، وكان متضلعاً من العلوم، ذا سنة ومروءة وحسن خلق، وصنف من الكتب: غريب القرآن، وكتاب المقنع في النحو، ومسألة سبحان، وغيرها. وتوفي سنة (٣٢٣هـ)، رَحِمَهُ اللهُ. انظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي: ١٥/ ٧٥ ـ ٧٧.

(٦) مسألة سبحان، تحقيق الأخ جمال عزون: ص٢٩.

ولكل من هذه الاحتمالات الثلاثة المذكورة وجه، سيأتي بيانها قريباً.

وإذا جاء التسبيح على المعنى الثاني ـ وهو قول: سبحان الله ـ كان مدلوله قولياً لفظياً. وهو حينئذٍ من باب اختصار حكاية الكلام، على غرار (حمّد) إذا قال: الحمد لله، و(كبّر) إذا قال: الله أكبر. ويكون فعله في هذه الحالة لازماً غير متعد[١].

وربما اختصرت حكاية قول: (سبحان الله) على بناء (فعلل)، فيقال: سبحل، أي: قال: سبحان الله[٢]. والمصدر منه: السبحلة[٣]. وهذا الاختصار جار على عادة العرب في بعض العبارات التي تتكرر على ألسنتهم، وهي من لفظتين فما فوق، فإنهم يختصرونها ليسهل تكررها، وذلك بإسقاط حرف أو أكثر من كل لفظة، وضم بقية الحروف إلى بعض، لتتألف منها لفظة واحدة، مثل: البسملة، والحمدلة[٤].

---

(١) انظر: المنصف شرح ابن جني لكتاب التصريف، لأبي عثمان المازني، تحقيق إبراهيم مصطفى، وآخر: ١/ ٩١.

(٢) انظر: المعجم الوسيط: ١/ ٤١٢.

(٣) قال ابن القطاع: «السبحلة: أن تكثر من قول: سبحان الله» [كتاب الأفعال: ٢/ ١٧٢].

(٤) ويعرف هذا ـ في علم الاشتقاق ـ بالنحت، وهو: أخذ كلمة من كلمتين أو أكثر مع المناسبة بين المأخوذ والمأخوذ منه في اللفظ والمعنى معاً، ثم تعطى هذه الكلمة المنحوتة حكم الأسماء إن كانت اسماً، أو حكم الأفعال إن كانت فعلاً. وذكر بعض العلماء أن الكلمات المنحوتة في اللغة العربية لا تكاد تتجاوز ستين كلمة. ومن أشهرها: (بسمل) في بسم الله، و(هلل) في لا إله إلا الله، و(سبحل) في سبحان الله، و(حوقل) في لا حول ولا قوة إلا بالله. وانظر ـ في مباحث النحت ـ: المزهر في علوم اللغة وأنواعها، للسيوطي، بشرح وضبط محمد أحمد جاد المولى، وآخرين: ١/ ٤٨٢ ـ ٤٨٥، والاشتقاق، لعبد الله أمين: ص٣٩١ ـ ٣٩٣.

❖ المطلب الثالث ❖

أصل التسبيح

التسبيح ـ من حيث الاشتقاق اللغوي[(١)] ـ مأخوذ من مادة «سبح» المؤلفة من حروف ثلاثة، هي: السين المهملة، والباء، والحاء المهملة.

وجميع المعاجم اللغوية أوردت التسبيح في هذه المادة، كما أنها ذكرت لهذه المادة اللغوية عدة معان[(٢)]، أهمها:

١ ـ البعد، تقول: سبحت في الأرض: إذا أبعدت، أو تباعدت فيها[(٣)]، والسبح: الإبعاد في السير[(٤)].

واشتق التسبيح من السبح بهذا المعنى، فمعنى (سبحت الله): بعدته عن السوء. والتسبيح التبعيد، أي: تبعيد الله ﷻ عن السوء[(٥)].

---

(١) الاشتقاق: هو أخذ صيغة من أخرى مع اتفاقهما في المعنى وفي الحروف الأصلية وترتيبها، ليدل بالثانية على معنى الأصل بزيادة مفيدة لأجلها اختلفا في الهيئة، كضارب من (ضرب)، وحذر من (حذر). وهذا هو الاشتقاق الأصغر المحتج به لغة، وهنالك أيضاً الاشتقاق الأوسط والاشتقاق الأكبر، وأشهرها الأصغر، وهو المراد عند الإطلاق. وانظر في هذا: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٧/ ٢٣١ ـ ٢٣٢، والمزهر في علوم اللغة وأنواعها، للسيوطي: ١/ ٣٤٦ ـ ٣٤٧.

(٢) انظر: لسان العرب، لابن منظور: ٢/ ٤٧٠ ـ ٤٧٥، وتاج العروس، لمحمد مرتضى الزبيدي: ٦/ ٤٤٣ ـ ٤٥٤، وهما أكثر المعاجم إيراداً للمعاني في هذه المادة.

(٣) انظر: تهذيب اللغة، للأزهري: ٤/ ٣٣٧، ٣٣٨.

(٤) انظر: تاج العروس، للزبيدي: ٦/ ٤٥١.

(٥) انظر: تهذيب اللغة، للأزهري: ٤/ ٣٣٨، وشأن الدعاء، لأبي سليمان الخطابي، تحقيق أحمد يوسف الدقاق: ص١٤٣، ومدارك التنزيل وحقائق =

٢ ـ الجري والمر السريع، ومنه قوله تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠]، أي يجرون[١].

وقال بعض العلماء: إن التسبيح متشق من السبح بمعنى الجري. قال: «فالمسبح جار في تنزيه الله وتبرئته من السوء»[٢]. وقال بعضهم: أصل التسبيح المر السريع في عبادة الله[٣].

٣ ـ العوم، وهو السير على الماء منبسطاً. يقال: سبح بالماء وفيه، يسبح، سبحاً وسباحة: إذا عام فيه، فهو سابح وسبوح[٤]. قال بعض العلماء: اشتقاق التسبيح من السباحة؛ لأن الذي يسبح يباعد ما بين طرفيه، فيكون فيه معنى التبعيد[٥].

= التأويل، لأبي البركات النسفي، تحقيق يوسف علي بديوي: ٣/ ٤٣٢، والدر المصون في علوم الكتاب المكنون، للسمين الحلبي، تحقيق الدكتور أحمد محمد الخراط: ١/ ٢٥٩، وإرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، للقاضي أبي السعود العمادي: ١/ ٨٣، وأضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للشيخ محمد الأمين الشنقيطي، باعتناء الشيخ صلاح الدين العلايلي: ٥/ ٢٥١.

(١) انظر: تفسير الطبري (جامع البيان في تأويل القرآن)، لابن جرير الطبري: ١٠/ ٤٤٣.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي: ١/ ٢٧٦.

(٣) انظر: مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني، تحقيق صفوان عدنان داوودي: ص٣٩٢، وتفسير التحرير والتنوير، للشيخ محمد الطاهر ابن عاشور: ١/ ٤٠٥.

(٤) انظر: جمهرة اللغة، لابن دريد: ١/ ٢٢١، ٢٢٢، والمحكم والمحيط الأعظم في اللغة، لابن سيده: ٣/ ١٥٣، والقاموس المحيط، للفيروز آبادي: ص٢٨٤.

(٥) انظر: تفسير السمرقندي المسمى (بحر العلوم)، لأبي الليث نصر بن محمد السمرقندي، تحقيق علي محمد معوض، وآخرين: ١/ ١٠٩.

وقال بعضهم: «إن التسبيح تفعيل من السبح، وكأن المسبح سبح بقلبه في بحار ملكوته[١]»[٢].

وقال آخرون: «إن أصل التسبيح من مادة «سبح»، والسباحة والتسبيح مشتركان في أصل المادة، فبينهما اشتراك في أصل المعنى، والسباحة في الماء ينجو بها صاحبها من الغرق، وكذلك المسبح لله والمنزه له ينجو من الشرك ويحيى بالذكر والتمجيد لله تعالى» اهـ[٣].

فهذا اشتقاق التسبيح وما قيل من المناسبة بين معناه ومعنى المادة الأصلية التي اشتق منها.

ويظهر بالتأمل في المعاني السابقة لمادة «سبح» أنها كلها ترجع إلى معنى البعد والإبعاد، فإن المعنى الثاني الذي هو الجري والمر السريع، فيه هذا المعنى، لأنه إذا جرى أو مر سريعاً أبعد، وصار بعيداً[٤]. وكذا المعنى الثالث الذي هو العوم والسباحة في الماء، فقد سبق آنفاً أن الذي يسبح في الماء يباعد ما بين طرفيه، فيكون فيه معنى التبعيد[٥]. ولهذا أشار بعض أهل العلم باللغة إلى أن أصل المادة الدلالة على البعد[٦]. وهذا يتفق مع تفسير أهل اللغة للتسبيح بالتنزيه؛

---

(١) أي: ملكوت الله تعالى، والملكوت: مبني على وزن (فعلوت) من الملك، وهو مختص بملك الله ﷻ. انظر: مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني: ص٧٧٥.

(٢) الدعاء المأثور وآدابه، لأبي بكر الطرطوشي، تحقيق الدكتور محمد رضوان الداية: ص١٦٤.

(٣) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (تتمته للشيخ عطية سالم): ٥/ ٢٦٧.

(٤) انظر: أضواء البيان، للشيخ محمد الأمين الشنقيطي: ٥/ ٢٥١.

(٥) انظر: ص٤٢.

(٦) انظر: عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، للسمين الحلبي، تحقيق محمود محمد السيد: ص٢٢٩.

لأن أصل التنزيه في اللغة: البعد[١]، إذ هو مأخوذ من النزهة، وهي البعد، ويقال: رجل نزيه، أي: بعيد من السوء[٢].

قال الأزهري[٣]: «ومعنى تنزيه الله من السوء: تبعيده منه، وكذلك تسبيحه تبعيده»[٤]. وقال أبو شامة[٥]: «فقولك: سبحت الله، أي: نزهته وبرأته مما لا يليق به، أي: جعلته بمعزل منها، متباعداً عنها تباعد المنزلة والرتبة»[٦].

---

(١) انظر: معاني القرآن الكريم، لأبي جعفر النحاس، تحقيق محمد علي الصابوني: ١/ ٥٢٦.

(٢) انظر: حروف المعاني، لأبي القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي، تحقيق الدكتور علي توفيق الحمد: ص١٨، والقاموس المحيط، للفيروزآبادي: ص١٦١٩.

(٣) هو محمد بن أحمد بن الأزهر بن طلحة الأزهري، أبو منصور الهروي الشافعي، العلامة اللغوي، كان رأساً في اللغة والفقه، ثبتاً ديناً، صنف «تهذيب اللغة»، وغيره من الكتب، وتوفي سنة (٣٧٠هـ) عن ثمان وثمانين سنة، رحمه الله، انظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي: ١٦/ ٣١٥ ـ ٣١٧، ومعجم الأدباء، لياقوت الحموي: ١٧/ ١٦٤.

(٤) تهذيب اللغة: ٤/ ٣٣٨.

(٥) هو عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم، شهاب الدين، أبو القاسم وأبو محمد المقدسي ثم الدمشقي، الشافعي، المعروف بأبي شامة، لشامة كبيرة كانت فوق حاجبه الأيسر. ولد بدمشق سنة (٥٩٩هـ)، وبرع في فنون العلم حتى بلغ في عصره مكانة جليلة، وقيل: بلغ رتبة الاجتهاد. وله تصانيف عديدة في أنواع العلوم، وتوفي سنة (٦٦٥هـ) رحمه الله. انظر: طبقات الشافعية الكبرى، للسبكي، تحقيق الدكتور عبد الفتاح الحلو، وآخر: ٨/ ١٦٥ ـ ١٦٨، والبداية والنهاية، للحافظ ابن كثير، تحقيق الدكتور أحمد أبو ملحم، وآخرين: ١٣/ ٢٦٤ ـ ٢٦٥.

(٦) نور المسرى في تفسير آية الإسراء، تحقيق الدكتور علي حسين البواب: ص٣٦.

وعلى هذا فتفسير التسبيح بالتنزيه، وتفسيره بالتبعيد، وكذا تفسيره بالتبرئة، كل ذلك سواء في المعنى.

ولما كان أصل المادة «سبح» بمعنى أبعد، وهو لازم غير متعدّ، بني التسبيح على وزن التفعيل للتعدية، فتقول: سبّحت الله، أي: بعّده عن السوء. إلا أن بعض علماء اللغة أثبت ورود (سبح) مخففاً متعدّياً بمعنى نزّه[١]، فيكون (سبّح) المضعّف قد نقل من صيغة الثلاثي المجرد إلى صيغة الرُّباعيّ ـ بتضعيف عين الفعل ـ لإفادة المبالغة في المعنى[٢]. ففي التسبيح معنى المبالغة في التبعيد والتنزيه عن السوء.

لكن من العلماء من صرّح بأنه لم يُسْتعمل (سبح) مخففاً متعدّياً بمعنى نزه، وأنه لم يُستعمل في هذا المعنى إلا (سبّح) المضعّف[٣].

وعلى هذا القول يكون التسبيح بني على وزن التفعيل لإفادة معنى (فعل) المجرد، كما استعملوا (كلّم) بالتضعيف في معنى (فعل) المجرد. وإذا لُوحظ هنا أن المثبت مقدم على النافي، لما عنده من

---

(١) انظر: المحكم والمحيط الأعظم في اللغة، لابن سيده: ٣/ ١٥٤، والدر المصون، للسمين الحلبي: ١/ ٢٦٥، والقاموس المحيط، للفيروز آبادي: ص٢٨٤، وإرشاد العقل السليم، لأبي السعود: ٣/١٦٨، تاج العروس، للزبيدي: ٦/٤٤٦، ٤٤٧.

(٢) انظر: إرشاد العقل السليم، لأبي السعود: ١/ ١٥٠.

(٣) انظر: المقتضب للمبرد: ٣/ ٢١٧، والمحرر الوجيز، لابن عطية: ١٠/ ٢٥٦، وشرح المفصل، لابن يعيش: ١/ ٣٧، ١١٩، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ١٠/ ٢٠٤، وغرائب التفسير وعجائب التأويل، لتاج القراء محمود بن حمزة الكرماني، تحقيق الدكتور شمران سركال العجلي: ١/ ٦١٩، والإتقان في علوم القرآن، لجلال الدين السيوطي، بتعليق الدكتور مصطفى ديب البغا: ١/ ٥١٧، وتفسير التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١/ ٤٠٥ و٦/ ٥٨، ومعجم متن اللغة، للشيخ أحمد رضا: ٣/ ٩١.

زيادة علم، يكون القول بأن التسبيح بني على وزن التفعيل لإفادة المبالغة في المعنى أولى بالصواب، والله تعالى أعلم.

- وذهب بعض العلماء إلى أن التسبيح مشتق من لفظ (سبحان)، ولذلك بني على وزن التفعيل(١). وهذا صحيح بأحد اعتبارين:

الاعتبار الأول: أن يكون (سبحان) مصدراً للفعل الثلاثي المجرد، اشتق منه التسبيح على وزن التفعيل للتعدية أو لإفادة المبالغة في المعنى، كما سبق آنفاً، وكما سيأتي بيانه - إن شاء الله - عند الكلام على لفظ (سبحان)(٢).

الاعتبار الثاني: أن يكون التسبيح بمعنى قول: سبحان الله، كما سبق ذكره في معنى التسبيح(٣)، فبني على وزن التفعيل لاختصار حكاية هذا القول، وهو (سبحان الله). ويعد هذا نوعاً من الاشتقاق عند بعض علماء اللغة(٤).

فبكل من هذين الاعتبارين يصح أن يقال: إن التسبيح مشتق من (سبحان). ويكفي ما بين اللفظين - لفظ (تسبيح) ولفظ (سبحان) - من التناسب في اللفظ والمعنى دليلاً على اشتقاق أحدهما من الآخر(٥).

❖ المطلب الرابع ❖

تعدية التسبيح

سبق عند الكلام على معنى التسبيح أنه إذا كان بمعنى التنزيه

---

(١) انظر: شرح المفصل، لابن يعيش: ١/ ٣٧، ١٢٠، وتفسير التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١/ ٤٠٥.

(٢) انظر: ص٥٥.

(٣) انظر: ص٣٨.

(٤) انظر: ما سبق ذكره ص٤٠.

(٥) انظر مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٧/ ٢٣١.

والتبرئة، فإن الفعل منه يكون متعدياً. ويتعدى فعل التسبيح بنفسه بدون واسطة حرف غالباً، ويتعدى باللام تارة، ويتعدى بالباء تارة أخرى. فله من حيث التعدية ثلاث حالات، كلها واردة في القرآن الكريم.

ـ الحالة الأولى: أن يتعدى بنفسه بدون واسطة حرف، كقوله تعالى: ﴿لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾﴾ [الفتح: ٩]. وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ﴿٤٠﴾﴾ [ق: ٤٠]. وقوله سبحانه: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾﴾ [الأعلى: ١].

وذكر أهل العلم أن تعديه بنفسه هو الأصل؛ لأن معناه ـ كما تقدم ـ: نزه، وبعد، وبرأ[١]. وعلى هذا فتعديه باللام أو الباء لمعنى زائد، كما سيأتي بيانه، إن شاء الله.

ـ الحالة الثانية: أن يتعدى باللام، كقوله تعالى؛ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النور: ٤١]. وقوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الحديد: ١].

واختلف أهل العلم في المعنى الذي تفيده اللام في هذه الحالة على أقوال:

ـ القول الأول: أن فعل التسبيح يتعدى باللام كما يتعدى بنفسه، «وذلك أن العرب تقول: فلان يسبح الله ويقدسه، ويسبح لله ويقدس له، بمعنى واحد»[٢]. وعلى هذا فتعديه بنفسه وتعديه باللام لغتان للعرب، كقولهم: نصحه ونصح له، وشكره وشكر له[٣].

---

(١) انظر: تفسير النسفي: ٣/ ٤٣٢، وفتح القدير، للشوكاني، تحقيق أبي حفص سيد إبراهيم: ٥/ ٢٣٦.
(٢) مقتبس من: تفسير الطبري: ١/ ٢٤٩.
(٣) انظر: تفسير النسفي: ٣/ ٤٣٢، وأضواء البيان، للشيخ محمد الأمين الشنقيطي: ٥/ ٢٥١.

ـ القول الثاني: أن اللام مزيدة للتأكيد، بمنزلة اللام في «نصحت لزيد» تقول: سبحت الله، كما تقول: نصحت زيداً. فإذا أردت التأكيد قلت: سبحت لله. فجئت باللام لتقوية وصول الفعل إلى المفعول(١).

ـ القول الثالث: أن اللام مزيدة للتعليل. فقوله: سبح لله، أي: أحدث التسبيح لأجل الله سبحانه، أي: ابتغاء وجهه تعالى(٢).

ـ القول الرابع: أن اللام للاختصاص، وذلك أن فعل التسبيح إذا أريد به مجرد الفعل، تعدى بنفسه. وإذا أريد به مع ذلك بيان القصد والإخلاص، تعدى باللام، فاللام تبين كمال الإرادة من الفاعل المسبِّح، وكمال الاستحقاق من المسبَّح، وهو الله ﷻ(٣).

ـ القول الخامس: أن التسبيح إذا أريد به التنزيه والذكر المجرد دون معنى آخر، تعدى بنفسه. وإذا أريد به السجود والخضوع والطاعة، تعدى باللام، كما قال تعالى؛ ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٥]، وقال تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الحديد: ١]، والمراد: التسبيح الذي هو السجود والخضوع والطاعة.

ولهذا قال سبحانه ـ لما جمع بين التسبيح والسجود ـ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾﴾ [الأعراف: ٢٠٦]، فتعدى فعل التسبيح بنفسه لما ذكر السجود باسمه الخاص، فصار التسبيح ذكرهم له وتنزيههم إياه(٤).

---

(١) انظر: البحر المحيط، لأبي حيان الأندلسي، تحقيق مجموعة من الأساتذة: ٨/ ٢١٧، وفتح القدير، للشوكاني: ٥/ ٢٣٦.

(٢) انظر المصدرين السابقين، وأضواء البيان، للشنقيطي: ٥/ ٢٥١.

(٣) انظر: شرح العقيدة الواسطية، للشيخ محمد بن صالح العثيمين: ١/ ٣٦٠، وأحكام من القرآن الكريم، له أيضاً، جمع أبي خالد عبد الكريم المقرن: ص١٥٦.

(٤) انظر: بدائع الفوائد، لابن قيم الجوزية، تحقيق بشير محمد عيون: ١/ ٢٣.

فهذه خمسة أقوال في معنى اللام إذا تعدى بها فعل التسبيح، وهذه الأقوال بعضها قريب من بعض، والمعاني المذكورة كلها صحيحة ـ إن شاء الله ـ ، وتحتملها الآيات، والله تعالى أعلم.

ـ الحالة الثالثة: أن يتعدى بالباء، كقوله تعالى ـ حكاية عن الملائكة ـ: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠].

ولم يرد في القرآن الكريم تعدية فعل التسبيح بالباء إلا مقروناً بلفظ «حمد»، أو لفظ «اسم». والباء في ذلك دائرة بين كونها للمصاحبة أو للسببية أو للاستعانة أو صلة زائدة، على خلاف بين العلماء سيأتي بيانه عند الكلام على قرن التسبيح بالحمد، وقرنه باسم من أسماء الله تعالى، فيما سيأتي بحثه من أنواع التسبيح باعتبار الصيغة، إن شاء الله تعالى.

❖ المطلب الخامس ❖

ماهية سبحان

تقدم عند الكلام على معنى التسبيح أن (سبحان الله) معناه: تنزيه الله وبراءته من السوء[١].

فهو إذا كلمة تنزيه وتبرئة لله ﷻ عن كل ما لا ينبغي أن يوصف به[٢]. ولا خلاف بين أهل اللغة في أن هذا هو معناه في اللغة، ولكنهم اختلفوا في حقيقة لفظ (سبحان): ما هو؟

وخلافهم في ذلك يدور في: هل هو مصدر أو اسم مصدر[٣]؟

---

(١) انظر: ص٣٩.

(٢) انظر: كتاب العين، للخليل بن أحمد الفراهيدي: ٣/ ١٥١.

(٣) المصدر واسم المصدر: كلاهما يدل على الحدث مجرداً عن الزمان =

فجماعة من العلماء يرون أن (سبحان) مصدر وليس اسم مصدر، إلا أنهم يختلفون في نوع مصدريته:

- فيرى بعضهم أنه مصدر قياسي للفعل (سبح) بتخفيف الباء، فيكون كـ (غفران) مصدر غفر، و(شكران) مصدر شكر، و(كفران) مصدر كفر[١].

ومن أصحاب هذا الرأي من قال: إن فعله - وهو (سبح) المخفف - غير مستعمل، وأنه من المصادر التي أميتت أفعالها[٢].

= والمكان. وبينهما فرقان: لفظي ومعنوي. أما اللفظي، فإن المصدر هو الجاري على فعله الذي هو قياسه، كالإفعال من أفعل، والتفعيل من فعّل، والانفعال من انفعل، والتفعلل من تفعلل، وبابه. واسم المصدر غير جار على فعله، كقولك: تكلم كلاماً، واغتسل غسلاً، وسلم سلاماً، ونحو ذلك مما فعله متجاوز الثلاثة وهو بزنة مصدر الثلاثي.

وأما المعنوي، فهو أن المصدر دال على الحدث وفاعله، فإذا قلت: تكلم، وتسليم، وإكرام، ونحو ذلك، دل على الحدث ومن قام به، فيدل التكلم - مثلاً - على الكلام والمتكلم. وأما اسم المصدر فإنما يدل على الحدث وحده، فالكلام والسلام لا يدل لفظه على متكلم ولا مسلم، بخلاف التكلم والتسليم. انظر: بدائع الفوائد، لابن القيم: ١/ ٣٧٧، وأوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، لابن هشام الأنصاري: ص١٠٨.

(١) انظر: مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني: ص٣٩٣، والمحكم والمحيط والأعظم في اللغة، لابن سيده: ٣/ ١٥٤، والمخصص، له: ١٦/ ١٦٣، وغرائب التفسير، لتاج القراء الكرماني: ١/ ٦١٩، وشرح المفصل، لابن يعيش: ١/ ١١٩، والدر المصون، للسمين الحلبي: ١/ ٢٦٥، وتفسير أبي السعود: ١/ ٨٥، و٣/ ١٦٨، وروح المعاني، لمحمود الآلوسي: ١/ ٢٢٦، وتاج العروس، للزبيدي: ٦/ ٤٤٧، وفتح البيان في مقاصد القرآن، لصديق حسن خان القنوجي، بعناية عبد الله بن إبراهيم الأنصاري: ٧/ ٣٤٧، وتفسير التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١/ ٤١٣، ومعجم متن اللغة، لأحمد رضا: ٣/ ٩١.

(٢) انظر: المخصص، لابن سيده: ١٦/ ١٦٣، وغرائب التفسير، للكرماني: =

ومنهم من رد على ذلك بأن فعله مسموع[١]، وأنه فعل مشهور أورده أرباب الأفعال وغيرهم[٢]، فلا اعتداد بقول من قال: إنه أميت الفعل منه[٣].

ـ ويرى بعضهم أن (سبحان) مصدر سماعي للفعل (سبّح) بتشديد الباء، فهو كالتسبيح. تقول: سبحت الله تسبيحاً وسبحاناً، كما تقول: كفرت عن يميني تكفيراً وكفراناً[٤].

ورد هذا الرأي بأن كون (سبحان) مصدراً لـ (سبّح) ـ بالتشديد ـ بعيد عن القياس؛ لأنه لا نظير له، بخلاف كونه مصدراً لـ (سبح) ـ بالتخفيف ـ، فإنه كثير، وإن كان غير مقيس[٥].

وذلك أن (سبّح) المشدد مصدره (التسبيح)؛ لأنه على وزن (فعّل) وفعّل يجيء المصدر منه على وزن (التفعيل) ـ كما سبق بيانه[٦] ـ، ولا

= ١/ ٦١٩، وشرح المفصل، لابن يعيش: ١/ ١١٩، والإتقان في علوم القرآن، للسيوطي: ١/ ٥١٧.

(١) انظر المحكم والمحيط الأعظم في اللغة، لابن سيده: ٣/ ١٥٤، والدر المصون، للسمين الحلبي: ١/ ٢٦٥، وتفسير أبي السعود: ٣/ ١٦٨.

(٢) انظر: تاج العروس، للزبيدي: ٦/ ٤٤٦.

(٣) انظر: المصدر السابق: ٦/ ٤٤٧.

(٤) انظر: شأن الدعاء، للخطابي: ص١٤٣، والمحكم والمحيط الأعظم في اللغة، لابن سيده: ٣/ ١٥٤، والبيان في غريب إعراب القرآن، لأبي البركات ابن الأنباري، تحقيق دكتور طه عبد الحميد طه: ١/ ٧٢، والنهاية في غريب الحديث والأثر، لمجد الدين ابن الأثير، تحقيق محمود الطناحي، وآخر: ٢/ ٣٣١، وتاج العروس، للزبيدي: ٦/ ٤٤٦، وفتح البيان، للقنوجي: ٧/ ٣٤٧.

(٥) انظر: تاج العروس، للزبيدي: ٦/ ٤٤٦.

(٦) انظر: ص٣٥.

يجيء على وزن (فعلان) الذي بني عليه (سبحان)[(١)].

وجماعة أخرى من العلماء يرون أن (سبحان) ليس بمصدر أصلاً، بل هو اسم مصدر أقيم مقام المصدر، فالمصدر التسبيح، والاسم (سبحان) يقوم مقام المصدر[(٢)].

قالوا: ونظير إقامة (سبحان) مقام التسبيح إقامة العطاء مقام الإعطاء، والكلام مقام التكليم، والسراح مقام التسريح. فكما يقال: أعطيته عطاء، وكلمته كلاماً، وقال تعالى: ﴿وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤٩]، فاستعملت هذه الأسماء في مواضع المصادر، كذلك استعمل (سبحان) في موضع التسبيح[(٣)].

ويحتج هؤلاء العلماء لقولهم: إن (سبحان) اسم مصدر لا مصدر بأمرين:

أحدهما: أن (سبحان) لم يجيء على أبنية مصادر الرباعي[(٤)].

---

(١) انظر: البيان في غريب إعراب القرآن، لابن الأنباري: ١/ ٧٢.

(٢) انظر: المقتضب، للمبرد: ٣/ ٢١٧، وتهذيب اللغة، للأزهري: ٤/ ٣٣٨، وإعراب القرآن، لأبي القاسم إسماعيل بن محمد الأصبهاني، تحقيق الدكتورة فائزة بنت عمر المؤيد: ص٢٧، ١٩٧، والأمالي الشجرية، لهبة الله بن علي العلوي المعروف بابن الشجري: ١/ ٣٤٧، والبيان في غريب إعراب القرآن، لابن الأنباري: ١/ ٧٢، والتفسير الكبير، للفخر الرازي: ٢٥/ ١٠٣، ونور المسرى، لأبي شامة: ص٤٨ ـ ٤٩، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ١٠/ ٢٠٤، والدر المصون، للسمين الحلبي: ١/ ٢٦٥، وشرح المفصل، لابن يعيش: ١/ ٣٧ ـ ٣٨، والبحر المحيط، لأبي حيان الأندلسي: ٦/ ٣٧، وفتح البيان، للقنوجي: ٧/ ٣٤٧، وتفسير التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١/ ٤١٣ و٦/ ٥٨.

(٣) انظر: الأمالي الشجرية، لابن الشجري: ١/ ٣٤٧، ونور المسرى، لأبي شامة: ص٤٩.

(٤) انظر: البيان في غريب إعراب القرآن، لابن الأنباري: ١/ ٧٢، وتفسير التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١/ ٤١٣.

والثاني: أنه لم يجز منه فعل.

وهذان الأمران ليس فيهما حجة للقول المذكور، فإن عدم مجيء (سبحان) على أبنية مصادر الرباعي حجة على من جعله مصدراً للفعل الرباعي ـ وهو (سبح) بتشديد الباء ـ، وليس حجة على من جعله مصدراً للفعل الثلاثي ـ وهو (سبح) بتخفيف الباء ـ، وإن تنوزع في استعمال هذا الفعل؛ لأن بناء (فعلان) وارد في أبنية مصادر الثلاثي[١].

وسبق أن من أهل اللغة من أيد إجراء الفعل من (سبحان)، وأن من نفى ذلك ليس معه دليل على النفي، ومن علم حجة على من لم يعلم[٢]. ثم إن القائلين بأن (سبحان) اسم لا مصدر اختلفوا في نوع اسميته:

ـ فذهب فريق منهم إلى أنه معرفة بالعلمية، يعنون أنه اسم علم للتسبيح[٣]، فهو ـ على هذا ـ علم جنس لمعنى التنزيه[٤].

قال ابن جني[٥]: «وكما جاءت الأعلام في الأعيان، فكذلك أيضاً جاءت في المعاني، نحو قوله:

---

(١) انظر: لامية الأفعال، لابن مالك الأندلسي، بشرح ابنه بدر الدين: ص٣٥ ـ ٣٦.

(٢) انظر: ص٥١ من البحث.

(٣) انظر: الخصائص، لأبي الفتح ابن جني، تحقيق محمد علي النجار: ٢/ ١٩٧، والمفصل، للزمخشري، بشرح ابن يعيش: ١/ ٣٧، ونور المسرى، لأبي شامة: ٥٠٢، وروح المعاني، للآلوسي: ١٥/ ٣، وخزانة الأدب، لعبد القادر البغدادي، تحقيق عبد السلام محمد هارون: ٧/ ٢٣٨، وأضواء البيان، للشيخ محمد الأمين الشنقيطي: ٢/ ٢١١.

(٤) انظر: أضواء البيان، للشنقيطي: ٢/ ٢١١.

(٥) هو عثمان بن جني، أبو الفتح الموصلي، إمام العربية، وصاحب التصانيف، لازم أبا علي الفارسي نحو أربعين سنة، وتصدر مكانه بعد وفاته. وكان أبو الطيب المتنبي الشاعر يقول: «ابن جني أعرف بشعري مني»، من =

أقول لما جاءني فخره سبحان من علقمة الفاخر[(١)]

فسبحان: اسم علم لمعنى البراءة والتنزيه، بمنزلة عثمان وحمران»[(٢)]. وظاهر مذهب هذا الفريق أن (سبحان) معرفة بالعلمية دائماً، في حالة الإفراد ـ كما في البيت ـ، وفي حالة الإضافة، كسبحان الله.

ولكن بعضاً منهم فرق بين الحالتين، فقال: هو معرفة بالعلمية في حالة الإفراد فحسب، كحالته في البيت المذكور. وأما في حالة الإضافة، فهو معرفة بالإضافة، وليس ـ حالتئذٍ ـ علماً؛ لأن الأعلام لا تضاف قياساً[(٣)].

وفي كون (سبحان) معرفة بالعلمية ـ في الحالتين أو في حالة الإفراد فحسب ـ نظر، سيأتي بيانه ـ إن شاء الله ـ عند الكلام على

= أشهر كتبه «الخصائص» و«فقه اللغة»، وتوفي سنة (٣٩٢هـ)، رحمه الله. انظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي: ١٧/ ١٧ ـ ١٩، وبغية الوعاة، للسيوطي: ٢/ ١٣٢.

(١) بيت شعر منسوب إلى الأعشى: ميمون بن قيس، وهو في ديوانه: ص٩٤ ـ طبعة دار صادر ـ، ضمن أبيات له يهجو بها علقمة بن علاثة ـ وهو صحابي، رضي الله عنه، ويمدح ابن عمه عامر بن الطفيل في منافرة جرت بينهما. والشاهد في البيت قوله: «سبحان من علقمة»، حيث جاء لفظ (سبحان) غير منون من دون إضافة، فيكون علماً ممنوعاً من الصرف للعلمية وزيادة الألف والنون. وانظر: كتاب سيبويه، تحقيق عبد السلام محمد هارون: ١/ ٣٢٤، وشرح أبيات سيبويه، للسيرافي، تحقيق الدكتور محمد علي سلطاني: ١/ ١٥٧ ـ ١٥٨، وخزانة الأدب، للبغدادي: ٣/ ٣٩٧ ـ ٣٩٨.

(٢) الخصائص: ٢/ ١٩٧.

(٣) انظر: المقتضب، للمبرد: ٣/ ٢١٧، وشرح المفصل، لابن يعيش: ١/ ٣٧ ـ ٣٨، ١١٩، وتفسير البيضاوي المسمى أنوار التنزيل وأسرار التأويل، للقاضي البيضاوي: ١/ ٥٦٣، والبحر المحيط، لأبي حيان: ٦/ ٥، وروح المعاني، للآلوسي: ١٥/ ٣.

استعمالات اللفظ في لسان العرب[١].

ـ وذهب فريق إلى أن (سبحان) ليس اسم علم، بل هو نكرة معرفة بالإضافة[٢].

فهذا حاصل كلام العلماء في ماهية (سبحان) ـ حسب ما تيسر الوقوف عليه ـ والصواب في ذلك ـ إن شاء الله ـ: أن (سبحان) مصدر باعتبار، واسم مصدر باعتبار.

فباعتبار (سبح) المخفف هو مصدر، لما تقدم أن هذا الفعل الثلاثي مستعمل في كلام العرب، على قول بعض علماء اللغة، وأن بناء (فعلان) وارد في مصادر الأفعال الثلاثية[٣].

وباعتبار (سبّح) المشدد هو اسم مصدر، لما تقرر في علم الصرف أن الاسم الدال على مجرد الحدث، إن كان فعله مزيداً ثلاثياً، وهو على وزن مصدر الثلاثي المجرد، فهو اسم مصدر[٤].

فلا منافاة بين كون (سبحان) مصدراً وكونه اسم مصدر، على ما سبق بيانه هنا.

والصواب كذلك أن (سبحان) نكرة معرفة بالإضافة وليس علماً، كما سيتبين ـ إن شاء الله ـ فيما يلي من استعمالاته.

---

(١) انظر: ص٥٩.

(٢) انظر: المخصص، لابن سيده: ١٦/١٦٣، والأمالي الشجرية، لابن الشجري: ١/٣٤٨، ونور المسرى، لأبي شامة: ص٥٢ وخزانة الأدب، للبغدادي: ٧/ ٢٣٤، ٢٤٣، وروح المعاني، للآلوسي: ١٥/ ٣، ٤.

(٣) انظر: ما سبق بيانه في ص٥٣.

(٤) انظر: أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، لابن هشام الأنصاري: ص١٠٨. وانظر ص٥٠ من هذا البحث.

❖ المطلب السادس ❖

استعمالات (سبحان) في اللغة

استعمل لفظ (سبحان) في كلام العرب على أربع حالات[(١)]:

ـ **الحالة الأولى** ـ استعماله مضافاً إلى ما بعده، نحو: سبحان الله.

وهذه الحالة هي الغالبة، بل هي الأصل في استعمال (سبحان)، ولم يستعمل في القرآن ولا في السنة إلا مضافاً، ولهذا نص عدد من أهل العلم على أنه من الألفاظ الملازمة للإضافة[(٢)].

وقد أضيف في هذه الحالة إلى اسم ظاهر، كقوله تعالى: ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ١٠٨]، وقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٩٣].

وأضيف كذلك إلى اسم مضمر، كقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ﴾ [البقرة: ٣٢]، وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ﴾ [البقرة: ١١٦][(٣)].

وهذا المضاف إليه ـ ظاهراً كان أو مضمراً ـ إما فاعل له تقديراً، وإما مفعول به تقديراً[(٤)].

---

(١) انظر: الكافية الشافية وشرحها، لابن مالك الأندلسي، تحقيق الدكتور عبد المنعم أحمد هريدي: ٢/٩٥٨ ـ ٩٦١، وخزانة الأدب، للبغدادي: ٧/ ٢٣٤.

(٢) انظر: شرح الكافية الشافية، لابن مالك: ٢/٩٥٩، وتهذيب الأسماء واللغات، للنووي: ٣/١٤٢، والدر المصون، للسمين الحلبي: ١/ ٢٦٥، والإتقان في علوم القرآن، للسيوطي: ١/٥١٧، وأضواء البيان، للشيخ محمد الأمين للشنقيطي: ٢/ ٢١٢.

(٣) انظر: الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي: ١/٥١٧.

(٤) انظر: الدر المصون، للسمين الحلبي: ١/٢٦٦، وفتح الباري، للحافظ ابن حجر العسقلاني: ١١/٢٠٦، وروح المعاني، للآلوسي: ١/ ٢٢٦.

وصرح بعض العلماء بأنه فاعل[١]، وعليه فكلمة (سبحان الله) ونحوها بمعنى: تنزه الله، أو تباعد الله عما لا يليق به[٢].

كما صرح بعضهم بأنه مفعول به[٣]، وعليه فكلمة (سبحان الله) ونحوها كقولك: سبحت الله[٤]، بمعنى: نزّهته، أو بعّدته، أو برّأته عما لا يليق به.

وكلا القولين المذكورين صحيح؛ لأن المصدر، وكذا اسم المصدر، يضاف إلى الفاعل تارة، وإلى المفعول تارة[٥]، ولكن إضافة (سبحان) إلى الفاعل - وهو الله ﷻ - أقوى، لأمور:

أحدها: أن المصدر لا بد له من فاعل، إما مذكور وإما مقدر[٦]، وليس هو كذلك مع المفعول.

والثاني: أن (سبحان) المضاف قد عطف عليه فعل (تعالى) في مواضع من القرآن[٧]، مثل قوله ﷻ: ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ﴾

(١) انظر: الدر المصون، للسمين الحلبي: ١/٢٦٦، والكليات، لأبي البقاء الكفوي، تحقيق الدكتور عدنان درويش، وآخر: ص٥١٦.

(٢) انظر: الدر المصون، للسمين الحلبي: ١/٢٦٦، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٤/٢٦، ٥٠، والتسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي الكلبي، ضبط محمد سالم هاشم: ١/٤٨٠، وتفسير أبي السعود: ٣/١٦٨، و٥/١٥٤.

(٣) انظر: تهذيب الأسماء واللغات، للنووي: ٣/١٤٢، والدر المصون، للسمين الحلبي: ١/٢٦٦، وتفسير التحرير والتنوير، لابن عاشور: ٧/٤٠٩.

(٤) انظر: شأن الدعاء للخطابي: ص١٤٤، وتهذيب الأسماء واللغات، للنووي: ٣/١٤٢.

(٥) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٠/٢٣٨.

(٦) انظر: المصدر السابق، الموضع نفسه، وبدائع الفوائد، لابن القيم: ١/٣٧٧.

(٧) عدتها سبعة مواضع.

[الأنعام: ١٠٠]، وقوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [القصص: ٦٨].

وهذا العطف دليل على مناسبة تامة بينهما، فإن (تعالى) فعل ماض، وفاعله مقدر بما أضيف إليه لفظ (سبحان)، فيستفاد منه أن هذا المضاف إليه فاعل في المعنى، وأن قوله: (سبحان الله) كقوله: (تعالى الله)[(١)]، غير أن الفاعل مجرور مع (سبحان) من أجل الإضافة، ومرفوع مع (تعالى)، لأنه فعل. ولهذا فسر قوله ﷻ: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ﴾ [الأنعام: ١٠٠] بمعنى: تنزه الله وتعالى[(٢)]، فظهر في التفسير أنه فاعل.

والثالث: أن قول العبد: (سبحان الله)، إن قدر لفظ الجلالة فيه فاعلاً، كان خبراً عن الله تعالى بأنه تنزه عن كل ما لا يليق به.

وإن قدر مفعولاً به، كان خبراً من العبد عن نفسه بأنه ينزه الله عما لا يليق به.

ولا شك أن كونه خبراً عن الله تعالى أفضل وأبلغ في الثناء، فإن الكلام إما إخبار وإما إنشاء، وأفضل الأخبار ما كان خبراً عن الله تعالى، والخبر عن الله أفضل من الخبر عن غيره ومن الإنشاءات[(٣)].

ـ **الحالة الثانية** ـ استعماله مفرداً غير منون، أي: مقطوعاً عن الإضافة مع ترك تنوينه.

ولم يستعمل (سبحان) على هذه الحالة، إلا نادراً، إذ لم يذكر العلماء له ـ فيما وقفت عليه ـ إلا شاهداً واحداً، وهو قول الشاعر:

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٤/ ٢٦، ٥٠.

(٢) انظر: تفسير الطبري: ٥/ ٢٩٣، والبحر المحيط، لأبي حيان: ٦/ ٣٧ ـ ٣٨، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٣/ ٤٤٤، وتفسير أبي السعود: ٥/ ١٥٤، وتيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للشيخ عبد الرحمن السعدي، تحقيق عبد الرحمن اللويحق: ص٣٦٠، ٤٥٨، ٧٢٩.

(٣) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٢٢/ ٣٧٦.

«أقــول لــمــا جــاءنــي فــخــره   سبحان من علقمة الفاخر»[١].

وبهذا البيت استدل من ذهب من العلماء إلى أن (سبحان) اسم علم للتسبيح[٢]، قالوا: إن الشاعر ترك تنوينه؛ لأنه ممنوع من الصرف للعلمية وزيادة الألف والنون[٣].

وقد رد هذا القول كثير من العلماء، وقالوا: إن (سبحان) ليس اسم علم، وإن الشاعر لم يترك تنوينه في البيت المذكور لكونه علماً، بل ترك تنوينه لأنه مضاف إلى محذوف مقدر الثبوت، والأصل: سبحان الله من علقمة، فحذف المضاف إليه لضرورة الشعر، للعلم به، وأبقى (سبحان) على فتحه بغير تنوين مراعاة لأغلب أحواله، وهو التجرد عن التنوين[٤].

ـ **الحالة الثالثة** ـ استعماله مفرداً منوناً.

واستعمل (سبحان) على هذه الحالة نادراً، كما في قول الشاعر:

«سبحانه ثم سبحانا يعود له   وقبلنا سبح الجودي والجمد»[٥]

---

(١) سبق ذكر هذا البيت وتخريجه في ص٥٤.

(٢) انظر: ما سبق في ص٥٤، بالإضافة إلى: المحكم والمحيط الأعظم في اللغة، لابن سيده: ٣/ ١٥٤.

(٣) انظر: الأمالي الشجرية: ١/٣٤٨، وشرح المفصل، لابن يعيش: ١/١١٩، ونور المسرى، لأبي شامة: ص٥١، وعمدة الحفاظ، للسمين الحلبي: ص٢٢٨، وروح المعاني، للآلوسي: ١/ ٢٢٦ و٣/١٥، وخزانة الأدب، للبغدادي: ٧/ ٢٤٣، ٢٤٤.

(٤) انظر: مسألة سبحان، لنفطويه: ص٢٩ ـ ٣٠، وشرح الكافية الشافية، لابن مالك: ٢/ ٩٥٩ ـ ٩٦٠، وشرح رضي الدين الاستراباذي لكتابه الكافية في النحو لابن الحاجب: ٢/ ١٣٣، وخزانة الأدب، للبغدادي: ٣/ ٣٩٧ و٧/ ٢٣٤ ـ ٢٣٥، وأضواء البيان، للشيخ محمد الأمين الشنقيطي: ٢/ ٢١٢.

(٥) وقع اضطراب في نسبة هذا البيت وفي رواياته، فقد نسبه سيبويه إلى أمية بن =

ويروى أيضاً:

«سبحان ذي العرش سبحانا يدوم له ... رب البرية فرد واحد صمد»[(١)]

وهذا يدل على أن (سبحان) مصدر أو اسم مصدر، وليس علماً؛ لأن الشاعر نونه - في قوله: (ثم سبحانا) - عند ما لم يضفه لفظاً ولا تقديراً.

والذين زعموا أن (سبحان) علم، قالوا: إن الشاعر نونه في هذا البيت لضرورة الشعر[(٢)].

ولم يقم دليل على علميته - كما سبق بيانه -، فلا معنى لحمل تنوينه على الضرورة، بل التنوين دليل على أنه نكرة[(٣)]، وإذا أضيف كان معرفة بالإضافة.

= أبي الصلت [كتاب سيبويه: ١/ ٣٢٦]، وهو في ديوان أمية، جمع وتحقيق الدكتور عبد الحفيظ السطلي: ص٣٧٦. ونسبه السيرافي إلى زيد بن عمرو بن نفيل [شرح أبيات سيبويه: ١/ ١٩٤]. ونسبه البغدادي إلى ورقة بن نوفل [خزانة الأدب: ٣/ ٣٨٨ - ٣٨٩]. ويروى شطره الأول: «سبحانه ثم سبحانا نعود له»، ويروى أيضاً: «ثم سبحانا نعوذ به». وانظر اختلاف هذه الروايات مع شرحها في: شرح أبيات سيبويه، للسيرافي: ١/ ١٩٤ - ١٩٥، ونور المسرى، لأبي شامة: ص٥٨ - ٦٠، وخزانة الأدب، للبغدادي: ٣/ ٣٨٨ - ٣٩٣ و٧/ ٢٤٢.

(١) ذكر هذا البيت أبو شامة، ونسبه إلى زيد بن عمرو بن نفيل [نور المسرى: ص٥٨].

(٢) انظر: المقتضب، للمبرد: ٣/ ٢١٧ - ٢١٨، وشرح أبيات سيبويه، للسيرافي: ١/ ١٩٤، وشرح المفصل، لابن يعيش: ١/ ٣٧ - ٣٨، والدر المصون، للسمين الحلبي: ١/ ٢٦٥، وتفسير أبي السعود: ١/ ٨٥، وخزانة الأدب، للبغدادي: ٣/ ٣٨٨ و٧/ ٢٣٦ - ٢٣٧.

(٣) انظر: المحكم والمحيط الأعظم في اللغة، لابن سيده: ٣/ ١٥٤، والأمالي الشجرية، لابن الشجري: ١/ ٣٤٨، ونور المسرى، لأبي شامة: ص٥٦، وعمدة الحفاظ، للسمين الحلبي: ص٢٢٩، وتاج العروس، للزبيدي: ٦/ ٤٤٧.

ـ **الحالة الرابعة** ـ استعماله محلى بأل.

واستعمل (سبحان) محلى بأل، وذلك نادر أيضاً، كما في قول الراجز: «سبحانك اللهم ذا السبحان»(١).

واستعماله على هذه الحالة دليل آخر على أنه ليس علماً، حيث جاء معرفاً بأل، والأعلام لا تعرف لأنها معرفة(٢).

ـ ويتلخص مما سبق الكلام فيه في هذا المطلب: أن (سبحان) أكثر ما يستعمل في كلام العرب مضافاً، واستعمل مقطوعاً عن الإضافة نادراً في الشعر خاصة للضرورة. وجاء في حال عدم الإضافة منوناً مرة، وغير منون مرة، ومحلى بأل مرة أخرى.

فتبين أن (سبحان) ليس معرفة بالعلمية، بل هو معرفة بالإضافة لفظاً أو تقديراً، أو بأل، وإلا فهو نكرة، والله تعالى أعلم.

❖ المطلب السابع ❖

إعراب سبحان

من متممات الكلام على لفظ (سبحان) في اللغة بيان إعرابه، كما سبق بين ماهيته وحالات استعماله.

---

(١) لم أقف على هذا الرجز منسوباً في شيء من المصادر التي أوردته، وقد ورد في: الأمالي الشجرية، لابن الشجري: ٣٤٨/١، والكافية الشافية وشرحها، لابن مالك: ٩٥٨/٢ ـ ٩٦١، وشرح الرضي لكتاب الكافية في النحو لابن الحاجب: ١٣٣/٢، وخزانة الأدب، للبغدادي: ٢٤٣/٧، وأضواء البيان، للشيخ محمد الأمين الشنقيطي: ٢١٢/٢.
و(ذا) في الرجز بمعنى صاحب، منصوب لأنه تابع للهم على المحل [خزانة الأدب: ٢٤٣/٧].

(٢) انظر: خزانة الأدب، للبغدادي: ٢٤٣/٧.

وقد تبين مما سبق أن (سبحان) يستعمل منصوباً في جميع حالاته، ما عدا حالة واحدة استعمل فيها مجروراً بالإضافة، وهي حالة استعماله محلى بأل، كقول الراجز:

«سبحانك اللهم ذا السبحان»(١)، حيث وقع السبحان مجروراً بإضافة (ذا) إليه، فـ (ذا) - بمعنى صاحب -: مضاف، والسبحان: مضاف إليه.

ونص بعض العلماء على أن (سبحان) من الأسماء اللازمة النصب(٢)، معتبرين مجيئه بالجر في الرجز السابق شاذا(٣)، لكونه مخالفاً لأكثر الاستعمال.

وذكر بعضهم أن (سبحان) لا يجري بوجوه الإعراب لقلة تمكنه(٤)، كأنهم يذهبون إلى أنه اسم علم ممنوع من الصرف، للعلمية وزيادة الألف والنون، كما قال بذلك جماعة من العلماء. وقد تقدم أن هذا القول ضعيف، وأن (سبحان) ليس علماً، بل هو نكرة تعرف بالإضافة، أو بأل(٥).

وجمهور أهل الإعراب على أن (سبحان) منصوب على

---

(١) سبق في ص٦١. وانظر: تفسير التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١/ ٤١٤.

(٢) انظر: شرح المفصل، لابن يعيش: ١/ ١١٩، وغرائب التفسير، للكرماني: ١/ ٦١٩، والدر المصون، للسمين الحلبي: ١/ ٢٦٥، وتاج العروس، للزبيدي: ٦/ ٤٤٧.

(٣) قال ابن مالك: «وشذ قول راجز رباني: سبحانك اللهم ذا السبحان» [الكافية الشافية بشرحها: ٢/ ٩٥٨].

(٤) انظر: المصادر السابقة، والمحرر الوجيز، لابن عطية: ١٠/ ٢٥٦، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ١٠/ ٢٠٤.

(٥) انظر: ما سبق في ص٦٠.

المصدرية[١]، أي: على المفعولية المطلقة[٢]. وعلى أن ناصبه فعل مقدر متروك إظهاره[٣]، ولكنهم اختلفوا في تقدير هذا الفعل:

فقدره بعضهم: سبح ـ بتخفيف الباء ـ الله سبحاناً[٤]، أي: تنزه الله وتباعد عن السوء تنزهاً وتباعداً[٥].

وقدره بعضهم: أسبح الله سبحاناً، أي: تسبيحاً[٦]، بمعنى: نزهته عن السوء تنزيهاً.

وقدره آخرون فعلاً من معناه لا من لفظه، فالتقدير عندهم:

---

(١) انظر: معاني القرآن، للفراء، تحقيق محمد علي النجار: ٢/ ١٠٥، ومعاني القرآن وإعرابه، للزجاج: ٣/ ٢٢٥، ومسألة سبحان، لنفطويه: ص٢٩، وإعراب القرآن، لأبي جعفر النحاس، تحقيق الدكتور زهير غازي زاهد: ص١٦٠، ومشكل إعراب القرآن، لمكي بن أبي طالب، تحقيق الدكتور حاتم صالح الضامن: ١/ ٨٦، وإعراب القرآن، لقوام السنة التيمي: ص١٩٧، والمغرب، للمطرزي: ١/ ٣٧٨.

(٢) انظر: نور المسرى، لأبي شامة: ص٦١، وتاج العروس، للزبيدي: ٦/ ٤٤٥، وتفسير التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١/ ٤١٤، وأضواء البيان، للشيخ محمد الأمين الشنقيطي: ٢/ ٢١١.

(٣) انظر: تفسير البيضاوي: ١/ ٥٦٣، والدر المصون للسمين الحلبي: ١/ ٢٦٦، والعلم الهيب في شرح الكلم الطيب، لبدر الدين محمود بن أحمد العيني، تحقيق أبي المنذر خالد بن إبراهيم المصري: ص١٠٠، وتفسير أبي السعود: ١/ ١٥٠ و٣/ ١٦٨، وأضواء البيان، للشيخ محمد الأمين الشنقيطي: ٢١١٢، وتفسير النسفي: ٢/ ٢٤٤.

(٤) انظر: شرح المفصل، لابن يعيش: ١/ ١١٩.

(٥) انظر: الدر المصون للسمين الحلبي: ١/ ٢٦٦.

(٦) انظر: كتاب سيبويه: ١/ ٣٢٢، وتفسير النسفي: ٢/ ٢٤٤، وتفسير أبي السعود: ١/ ١٥٠ و٣/ ١٦٨، وتاج العروس، للزبيدي: ٦/ ٤٤٥، وأضواء البيان، للشيخ محمد الأمين الشنقيطي: ٢١١٢.

أنزه الله تنزيهاً، وأبرئه تبرئة، فوقع (سبحان) مكان (تنزيهاً، وتبرئة)[(١)].

وإنما قدره هؤلاء هكذا لزعمهم أن (سبحان) لم يجر من لفظه فعل، فهو على هذا مثل: قعد القرفصاء[(٢)]، واشتمل الصماء[(٣)(٤)].

والذين قدروه (سبح) ـ بتخفيف الباء ـ أصوب طريقة، لما سبق أن (سبحان) مصدر ورد من لفظه فعل ثلاثي مجرد[(٥)].

ومن قدره أسبّح، أو سبّح، فليس ببعيد عن الصواب؛ لأن (سبحان) يكون ـ حينئذ ـ اسم مصدر لهذا الفعل الرباعي، كما سبق بيانه[(٦)].

وأما من قدره فعلاً من معناه فحسب، فقد أبعد، إذ لا حاجة لذلك مع ورود الفعل من لفظه، والله أعلم.

---

(١) انظر: كتاب سيبويه: ١/ ٣٢٤، والمحرر الوجيز، لابن عطية: ١٠/ ٢٥٦، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ١٠/ ٢٠٤، وفتح البيان، لصديق حسن القنوجي: ٧/ ٣٤٧.

(٢) القرفصاء ـ بضم القاف، وسكون الراء أو ضمها على الاتباع ـ: نوع من الجلوس، وهو أن يجلس على أليتيه، ويلصق فخذيه ببطنه، ويحتبي بيديه يضعهما على ساقيه. أو يجلس على ركبتيه منكباً، ويلصق بطنه بفخذيه، ويتأبط كفيه [القاموس المحيط، للفيروزآبادي/ مادة (قرفص): ص٨٠٨ ـ ٨٠٩].

(٣) اشتمل الصماء: أن يرد الكساء من قبل يمينه على يده اليسرى وعاتقه الأيسر، ثم يرد ثانيه من خلفه على يده اليمنى وعاتقه الأيمن، فيغطيهما جميعاً. أو الاشتمال بثوب واحد ليس عليه غيره، ثم يرفعه من أحد جانبيه فيضعه على منكبه، فيبدو منه فرجه [القاموس المحيط/ مادة (صمم): ص١٤٥٩].

(٤) انظر: المحرر الوجيز، لابن عطية: ١٠/ ٢٥٦، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ١٠/ ٢٠٤، وفتح البيان، لصديق بن حسن القنوجي: ٧/ ٣٤٧.

(٥) انظر: ص٥١.

(٦) انظر: ص٥٥.

كما اختلفوا من وجه آخر في الفعل المقدر: هل يجوز أن يقدر أمراً، أو يلزم أن يقدر خبراً؟

ووقفت في كلام لأبي شامة المقدسي على جواب لهذه المسألة، يقول فيه: «ثبت أن (سبحان الله) حيثما جاء منصوباً نصب [على] المفعول المطلق اللازم إضمار فعله، وفعله إما أمر أو خبر، وهو في هذه السورة[١] محتمل للأمرين، أي: سبحوا الذي أسرى بعبده، أو أسبح الذي أسرى بعبده، على أن يكون ابتداء ثناء من الله تعالى على نفسه، كقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة: ٢].

وفي قوله تعالى: ﴿فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ﴾ [الروم: ١٧] يظهر أن المقدر فعل أمر، ولا سيما إذا جعلنا المعنى فيه: الأمر بالصلاة في هذه الأوقات، فيكون كقوله تعالى: ﴿فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ [محمد ﷺ: ٤]، أي: اضربوها ضرباً» اهـ[٢].

وعند التأمل في كلمة (سبحان الله) وما تدل عليه من التنزيه لله تعالى عما لا يليق بجلاله وعظمته، يتبين أن تقدير الفعل خبراً أرجح من تقديره أمراً، لكون الخبر أمكن في الدلالة، وأنسب بالمقام من الإنشاء، والله تعالى أعلم.

واتفق المعربون على أن الفعل المقدر ـ خبراً كان أو أمراً ـ لا يجوز إظهاره، بل يجب إضماره، لأن (سبحان) قد نزل منزلته، فسد مسده، وصار بدلاً من اللفظ به[٣]، كما كان قولهم: (مرحباً) بدلاً من

(١) يعني سورة الإسراء التي أولها: ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾.

(٢) نور المسرى في تفسير آية الإسراء: ص٦١ ـ ٦٢. وانظر: المصدر نفسه: ص٩٧.

(٣) انظر: كتاب العين، للخليل بن أحمد الفراهيدي: ٣/ ١٥١، وكتاب سيبويه: ١/ ٣٢٢، ٣٢٧، ومعاني القرآن، للأخفش: ١/ ٢٢٠، وتهذيب اللغة، =

رحبت بلادك[١].

وقيل ـ في إعراب (سبحان) ـ: إنه منصوب على النداء، فتقديره: يا سبحان الله[٢].

ويعزى القول بهذا الإعراب إلى أبي عبيدة[٣]، والكسائي[٤].

وأبى جمهور العلماء هذا الإعراب؛ لأنه لا معنى له[٥]، والله تعالى أعلم.

= للأزهري: ٤/ ٣٣٨، والعلم الهيب، للعيني: ص١٠٠، وتاج العروس، للزبيدي: ٦/ ٤٤٥، وفتح البيان، للقنوجي: ٧/ ٣٤٧.

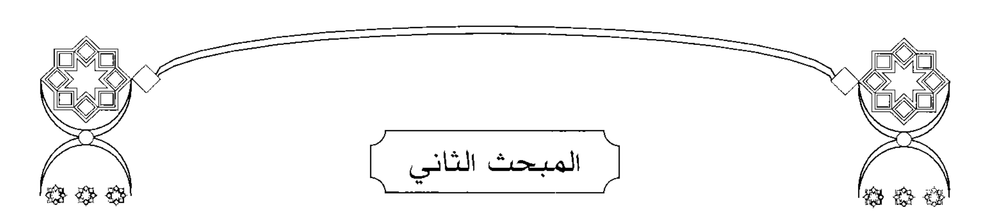
(١) انظر: كتاب سيبويه: ١/ ٣٢٧.

(٢) انظر: إعراب القرآن، لأبي جعفر النحاس: ص١٦٠، ومشكل إعراب القرآن، لمكي بن أبي طالب: ٢/ ٢٤، وإعراب القرآن، لأبي القاسم التيمي: ص١٩٨، والدر المصون للسمين الحلبي: ١/ ٢٦٦.

(٣) هو معمر بن المثنى، أبو عبيدة التيمي مولاهم، البصري، الحافظ اللغوي الأخباري، من مصنفاته «مجاز القرآن»، وتوفي سنة (٢٠٨هـ)، وقيل: بعد ذلك، وقد قارب المائة، رحمه الله، انظر: تذكرة الحفاظ، للذهبي: ١/ ٣٧١ ـ ٣٧٢، وتقريب التهذيب، لابن حجر العسقلاني: ٢/ ٢٧١.

(٤) هو علي بن حمزة بن عبد الله بن بهمن الأسدي مولاهم، أبو الحسن الكوفي، الملقب بالكسائي، لكساء أحرم فيه، وقيل: كان يلتف به. كان إمام أهل الكوفة في النحو، واختار قراءة اشتهرت وصارت إحدى السبع، وله تصانيف عدة. توفي سنة (١٨٩هـ) رحمه الله. انظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي: ٩/ ١٣١ ـ ١٣٤، وبغية الوعاة، للسيوطي: ٢/ ١٦٢ ـ ١٦٥.

(٥) انظر: إعراب القرآن، لأبي القاسم التيمي: ص١٩٨، والمحرر الوجيز، لابن عطية: ١٠/ ٢٥٦، ونور المسرى، لأبي شامة: ص٦٢، والدر المصون، للسمين الحلبي: ١/ ٢٦٦.



التسبيح في الشرع

❑ توطئة:

تكرر في الكتاب والسنة ذكر التسبيح في مواضع كثيرة، بعبارات مختلفة، لمناسبات متعددة.

ويعد التسبيح من الألفاظ الشرعية التي اشتهرت في الشرع أكثر من اشتهارها في اللغة(١)، ولهذا كان له في الشرع مفهوم واسع، حيث استعمل في معان متعددة، كما سيتضح ـ إن شاء الله ـ في المطالب السبعة التالية:

المطلب الأول: المعنى الأصلي للتسبيح في الشرع.

المطلب الثاني: دلالة التسبيح على التعظيم.

المطلب الثالث: إطلاق التسبيح على الصلاة.

المطلب الرابع: إطلاق التسبيح على الذكر عموماً.

المطلب الخامس: إطلاق التسبيح على الاستثناء.

---

(١) من غريب ما قيل في هذا ما ذكره ابن عاشور في بعض كلامه على التسبيح، حيث قال: «هو من المعاني الدينية، فالأشبه أنه منقول إلى العربية من العبرانية» [تفسير التحرير والتنوير: ٣٠/ ٢٧٣]. فزعمه أنه منقول من العبرانية مردود، وما سبق بحثه في التسبيح من حيث اللغة كاف في رد هذا القول، وبيان بعده عن الصواب.

المطلب السادس: إطلاق التسبيح على العبادة.

المطلب السابع: تسمية التسبيح دعاء.

* * *

❖ المطلب الأول ❖

المعنى الأصلي للتسبيح في الشرع

ورد عن النبي ﷺ بيان معنى التسبيح في عدة أحاديث، كما ورد في بيان معناه آثار كثيرة عن بعض الصحابة والتابعين ـ رضي الله عنهم ورحمهم ـ، وأقوال وافرة لأهل العلم من المتقدمين والمتأخرين.

فأما الأحاديث الواردة عن النبي ﷺ في بيان معنى التسبيح، فثلاثة، أحدها مسند[١]، والآخران مرسلان[٢]، وهي:

١ ـ حديث طلحة بن عبيد الله[٣] رضي الله عنه قال: «سألت رسول الله ﷺ

(١) المسند ـ في اصطلاح المحدثين ـ: هو ما يضيفه الصحابي إلى النبي ﷺ، بسند متصل إليه في الظاهر. وله عندهم تعريف غير هذا، ولكن هذا هو المشهور في الاستعمال. وانظر: علوم الحديث، للحافظ ابن الصلاح، تحقيق الدكتور نور الدين عتر: ص٣٩ ـ ٤٠، وفتح الباري، للحافظ ابن حجر العسقلاني: ٩/ ٦٠ ـ ٦١.

(٢) المرسل ـ في اصطلاح المحدثين ـ: هو ما يضيفه التابعي إلى النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير، دون ذكر للواسطة بينه وبين النبي ﷺ. وهذا أيضاً هو المشهور في تعريف المرسل عندهم. وانظر: النكت على كتاب ابن الصلاح، للحافظ ابن حجر العسقلاني، تحقيق الدكتور ربيع بن هادي عمير: ٢/ ٥٤٠ ـ ٥٤٦، وفتح الباري، للحافظ ابن حجر أيضاً: ٩/ ٦٠.

(٣) هو طلحة بن عبيد الله بن عثمان بن عمرو بن كعب القرشي التيمي، أبو محمد المدني، أحد العشرة المبشرين بالجنة، وأحد الثمانية السابقين إلى الإسلام، وأحد الستة أصحاب الشورى الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راض، استشهد يوم الجمل، سنة (٣٦هـ)، رضي الله عنه. انظر: سير أعلام النبلاء، =

عن تفسير (سبحان الله)؟ فقال: **«هو تنزيه الله تبارك وتعالى من السوء»**[(١)].

= للذهبي: ١/ ٢٣ ـ ٤٠، والإصابة في تمييز الصحابة، للحافظ ابن حجر العسقلاني، تحقيق علي محمد البجاوي: ٣/ ٥٢٩ ـ ٥٣٣.

(١) أخرجه البزار في «البحر الزخار المعروف بمسند البزار»، تحقيق الدكتور محفوظ الرحمن زين الله: ٣/ ١٦٤، برقم (٩٥٠)، والطبراني في «كتاب الدعاء»، تحقيق الدكتور محمد سعيد البخاري: ٣/ ١٥٩١، برقم (١٧٥١)، والحاكم في «المستدرك على الصحيحين»، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا: ١/ ٦٨٠، برقم (١٨٤٨)، والبيهقي في «الأسماء والصفات»، تحقيق عبد الله بن محمد الحاشدي: ١/ ١٠٥، برقم (٥٩). كلهم من طرق عن عبد الرحمن بن حماد، عن طلحة بن يحيى بن طلحة بن عبيد الله، عن أبيه، عن جده.
وفي إسناد كل من الطبراني والحاكم والبيهقي زيادة رجل بين عبد الرحمن بن حماد وطلحة بن يحيى هو حفص بن سليمان.
وأخرج الخطيب البغدادي الحديث في «الكفاية في علم الرواية»: ص٣٣٦، بالإسناد نفسه، بزيادة حفص بن سليمان مرة، وبإسقاطه من الإسناد مرة أخرى.
وأشار إلى ما يدل على أن المحفوظ هو عدم ذكر حفص في الإسناد.
والحديث قال فيه البزار ـ عقب إخراجه ـ: «وهذا الحديث لا نعلمه يروى عن طلحة متصلاً إلى من هذا الوجه بهذا الإسناد». وقال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد»، وتعقبه الذهبي بقوله: «بل لم يصح، فإن طلحة ـ يعني ابن يحيى ـ منكر الحديث، قاله البخاري. وحفص ـ يعني المزيد في الإسناد ـ واهي الحديث. وعبد الرحمن ـ يعني ابن حماد ـ قال أبو حاتم: منكر الحديث» اهـ. قلت: طلحة بن يحيى الأقوال فيه متباينة جرحاً وتعديلاً، كا في «تهذيب التهذيب»، للحافظ ابن حجر: ٥/ ٢٧ ـ ٢٨. وأما عبد الرحمن بن حماد، فكما قال أبو حاتم. وانظر: الجرح والتعديل، لابن أبي حاتم: ٥/ ٢٢٦، وميزان الاعتدال، للذهبي: ٢/ ٥٥٧.
ـ وأخرج الطبراني الحديث بإسناد آخر في «كتاب الدعاء»: ٣/ ١٥٩١، برقم (١٧٥٢) من طريق موسى بن طلحة بن عبيد الله، عن أبيه رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، مثل اللفظ السابق. وفي الإسناد من لا يعرف، وهو سليمان بن =

٢ ـ حديث موسى بن طلحة[١]، قال: «سئل رسول الله ﷺ عن التسبيح؟ فقال: **(هو إنزاهه عن السوء)**»[٢].

= عيسى الراوي عن موسى بن طلحة، ويروي عنه ابنه أيوب بن سليمان، وقد ذكره ابن أبي حاتم في «الجرح والتعديل»: ٢/ ٢٤٨، ولم يذكر فيه جرحاً ولا تعديلاً. ويروي عنه ابنه سليمان بن أيوب، قال فيه الحافظ ابن حجر: «صدوق يخطئ» [تقريب التهذيب: ١/ ٣١١]، ويروي عنه شيخ الطبراني: يحيى بن عثمان، وهو السهمي مولاهم، قال فيه الحافظ ابن حجر: «صدوق رمي بالتشيع، ولينه بعضهم لكونه حدث من غير أصله» [تقريب التهذيب: ٢/ ٣٦١].
فحديث طلحة هذا ـ بكلا إسناديه ـ ضعيف.

(١) هو موسى بن طلحة بن عبيد الله القرشي التيمي، أبو عيسى وأبو محمد المدني، نزيل الكوفة، تابعي ثقة جليل كثير الحديث، من وجوه آل طلحة، ومن أجلاء المسلمين، يقال: إنه ولد في عهد النبي ﷺ، وتوفي سنة (١٠٣هـ) على الصحيح، رحمة الله عليه. انظر: تهذيب التهذيب، للحافظ ابن حجر: ١٠/ ٣٥٠ ـ ٣٥١، وتقريب التهذيب، له: ٢/ ٢٨٩.

(٢) رواه عبد بن حميد ـ ذكر روايته بإسنادها شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى: ١٦/ ١٢٦ ـ، وابن جرير الطبري في تفسيره: ٨/ ٣، والطبراني في «كتاب الدعاء»: ٣/ ١٥٩١ ـ ١٥٩٢، برم (١٧٥٣، ١٧٥٤)، والبيهقي في «الأسماء والصفات»: ١/ ١٠٤ ـ ١٠٥، برقم (٥٨). كلهم من طرق عن عثمان بن عبد الله بن موهب، عن موسى بن طلحة، عن النبي ﷺ مرسلاً.
قال الطبراني ـ عقب روايته ـ: «لم يجاوز به عثمان بن عبد الله بن موهب موسى بن طلحة». وقال البيهقي: «هذا منقطع» يعني: مرسل.
ورجال الإسناد في جميع هذه الطرق ثقات، ما عدا الطريق الثاني عند الطبراني، برقم (١٧٥٤)، ففي بعض رواته كلام، لكنهم توبعوا في الطرق الأخرى.
وروي الحديث بإسناد آخر عن موسى بن طلحة، عن أبيه طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه مسنداً، أخرجه الطبراني في «كتاب الدعاء»، كما سبق ذكره، ولكن إسناده لا يصح، كما بين في الحديث الأول. ولهذا رجح الحافظ الدارقطني المرسل على المسند، كما في كتابه «العلل الواردة في الأحاديث النبوية»، تحقيق محفوظ الرحمن زين الله: ٤/ ٢٠٨.

٣ ـ حديث إبراهيم بن يزيد التيمي[١]، عن النبي ﷺ قال: **«سبحان الله: إنكاف الله[٢] ﷻ عن كل سوء»**[٣].

وهذه الأحاديث تنتهض ـ بمجموعها ـ للاحتجاج، وإن كان الأول منها ضعيفاً، فإن الأخيرين قويان، إلا أنهما مرسلان.

والحديث المرسل إذا اعتضد بمجيئه من وجه آخر مسند أو مرسل، كان ذلك دليلاً على صدقه، وقوي الاحتجاج به[٤].

ويشهد لما تضمنته هذه الأحاديث من تفسير التسبيح في الشرع

---

(١) هو إبراهيم بن يزيد بن شريك التيمي، أبو أسماء الكوفي، تابعي ثقة من العباد، إلا أنه كان يرسل ويدلس. توفي سنة (٩٢هـ)، وقيل: بعدها، ولم يبلغ الأربعين، رحمه الله. انظر: تهذيب التهذيب، لابن حجر: ١/ ١٧٦، وتقريب التهذيب، له: ١/ ٦٠.

(٢) إنكاف الله: تنزيهه وتقديسه. يقال: نكفت من الشيء، واستنكفت منه، أي: أنفت منه. وأنكفته، أي: نزهته عما يستنكف منه. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير: ٥/ ١٦٦، والقاموس المحيط، للفيروزآبادي: مادة (نكف): ص١١٠٩.

(٣) أخرجه الطبراني في «كتاب الدعاء»: ٣/ ١٥٩٢، برقم (١٧٥٥)، ورجال إسناده ثقات غير المختار بن فلفل، فهو صدوق له أوهام، كما في «تقريب التهذيب»، للحافظ ابن حجر: ٢/ ٢٤١.

(٤) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٣/ ٣٤٧ ـ ٣٥٠، وفتح الباري، للحافظ ابن حجر العسقلاني: ١/ ٢٥٧، ٢٩٣.

وهناك نزاع كثير بين العلماء من المحدثين وغيرهم في قبول الحديث المرسل ورده. وانظر ـ إن شئت ـ في ذلك: جامع التحصيل في أحكام المراسيل، للحافظ صلاح الدين العلائي، تحقيق حمدي السلفي: ص٣٣ ـ ٨٨، والنكت على كتاب ابن الصلاح، للحافظ ابن حجر: ٢/ ٥٤٦ ـ ٥٧١. ولشيخ الإسلام ابن تيمية كلام لطيف في قبول الحديث المرسل، في كتابه «منهاج السنة النبوية»، تحقيق الدكتور محمد رشاد سالم: ٧/ ٤٣٥.

بتنزيه الله تعالى ما ثبت من حديث حذيفة بن اليمان[١] رضي الله عنه: «أنه صلى مع النبي ﷺ ذات ليلة، فكان ـ عليه الصلاة والسلام ـ يقرأ مترسلاً[٢]، إذ مر بآية فيها تسبيح سبح» الحديث[٣].

وفي رواية: «إذ مر بآية فيها تنزيه الله عز وجل سبح»[٤].

فجعل تنزيه الله عز وجل ـ في الرواية الثانية ـ مكان التسبيح ـ في الرواية الأولى ـ، فكان كالتفسير له.

وأما الآثار الواردة في بيان معنى التسبيح فكثيرة، ومنها:

١ ـ أثر ابن عباس رضي الله عنهما، ورد عنه في ذلك عدة روايات:

إحداها ـ عن الضحاك بن مزاحم[٥] عن ابن عباس: «سبحان الله،

---

(١) هو حذيفة بن اليمان بن جابر العبسي، حليف الأنصار، صحابي جليل من السابقين، وكان صاحب سر رسول الله ﷺ. سكن الكوفة، واستعمله عمر رضي الله عنه على المدائن، فلم يزل بها حتى توفي في أول خلافة علي رضي الله عنه سنة (٣٦هـ)، رضي الله عنه. انظر: الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر العسقلاني: ٢/ ٤٤ ـ ٤٥.

(٢) أي: متأنياً. يقال: ترسل في قراءته: اتأد. والترسل: الرفق والتؤدة. انظر: القاموس المحيط، للفيروزآبادي: مادة (رسل): ص١٣٠٠.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه: ١/ ٥٣٦، برقم (٧٧٢) بلفظ طويل، ذكرت منه محل الشاهد فقط.

(٤) أخرجه ابن ماجه في سننه ـ ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي ـ ١/ ٤٢٩، برقم (١٣٥١)، وأحمد في مسنده: ٥/ ٣٨٤، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه: ١/ ٤٠١، برقم (١١١٩).

(٥) هو الضحاك بن مزاحم الهلالي، أبو القاسم أو أبو محمد الخراساني، المفسر، وثقه أحمد وابن معين وأبو زرعة وغيرهم. ويقال: إنه لم يلق ابن عباس، وإنما لقي سعيد بن جبير فأخذ عنه التفسير، وتوفي سنة (١٠٥هـ) أو (١٠٦) هـ، رحمه الله. انظر: ميزان الاعتدال، للذهبي: ٢/ ٣٢٥ ـ ٣٢٦، وتهذيب التهذيب، لابن حجر العسقلاني: ٤/ ٤٥٣ ـ ٤٥٤.

قال: تنزيه الله»[١].

وثانيتها ـ عن عكرمة[٢] عن ابن عباس: «سبحان الله، قال: تنزيهه»[٣].

وثالثتها ـ عن ابن أبي مليكة[٤] عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «سبحان الله: تنزيه الله عز وجل عن كل سوء»[٥].

---

(١) رواه الطبراني في كتاب الدعاء: ٣/ ١٥٩٣، برقم (١٧٥٩)، وفي إسناده بشر بن عمارة، وقد تكلم فيه. وانظر: ميزان الاعتدال، للذهبي: ١/ ٣٢١، وتهذيب التهذيب، لابن حجر: ١/ ٤٥٥.

(٢) هو عكرمة بن عبد الله البربري، أبو عبد الله المدني، مولى ابن عباس، ثقة ثبت، عالم بالتفسير، لا يثبت عنه بدعة. قال محمد بن نصر المروزي: «قد أجمع عامة أهل العلم بالحديث على الاحتجاج بحديث عكرمة، واتفق على ذلك رؤساء أهل العلم بالحديث من أهل عصرنا». وذكره الحافظ ابن حجر من ثقات رواة التفسير عن ابن عباس. وتوفي بالمدينة، سنة (١٠٧هـ) وقيل قبل ذلك، رحمه الله. انظر: تهذيب التهذيب، للحافظ ابن حجر: ٧/ ٢٦٣ ـ ٢٧٣، وتقريب التهذيب، له: ٢/ ٣٥، والعجاب في بيان الأسباب، له أيضاً، تحقيق عبد الحكيم محمد الأنيس: ١/ ٢٠٣ ـ ٢٠٦.

(٣) رواه عبد بن حميد. ونقل الرواية بإسنادها شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى: ١٦/ ١٢٦ ورجاله ثقات، غير شبيب ـ وهو ابن بشر البجلي ـ، قال فيه الحافظ ابن حجر: «صدوق يخطئ» [تقريب التهذيب: ١/ ٣٣٣].

(٤) هو عبد الله بن عبيد الله بن أبي مليكة ـ بالتصغير ـ زهير بن عبد الله القرشي التّيمي، أبو بكر وأبو محمد المكي الأحول، كان إماماً فقيهاً ثقة حجة كثير الحديث، وكان قاضي مكة زمن ابن الزبير، وتوفي سنة (١١٧هـ)، رحمه الله. انظر: تذكرة الحفاظ، للذهبي: ١/ ١٠١ ـ ١٠٢، وتقريب التهذيب، لابن حجر: ١/ ٤٠٧.

(٥) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره ـ تفسير القرآن العظيم، تحقيق أسعد محمد الطيب ـ: ١/ ٨١ و٤/ ١١٢٣ ـ ١١٢٤، والطبراني في كتاب الدعاء: ٣/ ١٥٩٢، برقم (١٧٥٧). وفي إسناده حجاج بن أرطأة، وهو صدوق كثير =

٢ ـ أثر مجاهد[١]، فقد جاء عنه قوله: «سبحان الله: إنكاف لله»[٢]. وفي رواية أخرى عنه قال: «التسبيح: إنكاف»[٣].

٣ ـ أثر أبي عبيدة معمر بن المثنى، قال: «سبحان الله: تنزيه الله وتبرئته»[٤].

٤ ـ أثر ابن عائشة[٥]، قال: «تقول العرب إذا أنكرت الشيء، وأعظمته: سبحان الله، فكأنه تنزيه الله ﷻ عن كل سوء لا ينبغي أن يوصف بغير صفته»[٦].

= الخطأ والتدليس، كما في «تقريب التهذيب»، لابن حجر: ١/ ١٥٥، وبقية رجال الإسناد ثقات.

(١) هو مجاهد بن جبر المخزومي مولاهم، أبو الحجاج المكي، أحد الأعلام الأثبات، لزم ابن عباس مدة، وقرأ عليه القرآن، وكان ثقة حافظاً، إماماً في التفسير وفي العلم، وتوفي سنة إحدى أو اثنتين أو ثلاث أو أربع ومائة من الهجرة، وله ثلاث وثمانون سنة، رحمه الله. انظر: تذكرة الحفاظ، للذهبي: ١/ ٩٢، وتقريب التهذيب، لابن حجر ٢/ ٢٣٧.

(٢) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره: ٨/ ٤، من طريق ابن أبي نجيح عنه. وقد قال الحافظ ابن حجر: إن ما يروى من التفسير عن مجاهد من طريق ابن أبي نجيح قوي. وانظر: العجاب في بيان الأسباب: ١/ ٢٠٤.

(٣) رواه الطبراني في كتاب الدعاء: ٣/ ١٥٩٤، برقم (١٧٦٣)، وفي إسناده راو ضعيف.

(٤) رواه الطبراني في كتاب الدعاء: ٣/ ١٥٩٤، برقم (١٧٦٦).

(٥) هو عبيد الله بن محمد بن حفص التيمي، أبو عبد الرحمن البصري، المعروف بابن عائشة، وبالعائشي، والعيشي، نسبة إلى عائشة بنت طلحة؛ لأنه من ذريتها، وكان ثقة عالماً جواداً من سادات أهل البصرة، وتوفي سنة (٢٢٨هـ)، رحمه الله. انظر: تهذيب التهذيب، لابن حجر: ٧/ ٤٥ ـ ٤٦، وتقريب التهذيب، له ١/ ٤٩٩ ـ ٥٠٠.

(٦) رواه الطبراني في كتاب الدعاء: ٣/ ١٥٩٤، برقم (١٧٦٧).

ـ وما تضمنته هذه الأحاديث والآثار من معنى التسبيح هو الذي قال به السلف عامة في معناه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ بعد ذكر قول ابن عباس في معنى التسبيح ـ: «وقد جاء عن غير واحد من السلف مثل قول ابن عباس، أنه: تنزيه نفسه من السوء، وروي في ذلك حديث مرسل[(١)]» اهـ[(٢)].

وعلى هذا المعنى أيضاً تطابقت أقوال أهل العلم من الخلف في تفسير التسبيح، واشتمل بعض تلك الأقوال على مزيد إيضاح لمفهوم التسبيح في الشرع، كقول العلامة الشوكاني ـ في تفسير قوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ﴾ [النور: ٣٦، ٣٧] ـ حيث بين أن التسبيح في الآية فسر بالصلاة. ثم قال: «وقيل: المراد بالتسبيح هنا معناه الحقيقي، وهو تنزيه الله سبحانه عما لا يليق به في ذاته، وصفاته، وأفعاله» اهـ[(٣)].

فاشتمل قوله هذا على بيان متعلق التسبيح، وهو ذات الله تعالى، وأسماؤه وصفاته، وأفعاله.

فإن التسبيح يتضمن تنزيه ذاته ﷻ من كل نقص وعيب، وتنزيه صفاته من كل سوء وذم، ومن مماثلة صفات المخلوقين، وتنزيه أفعاله من العبث والظلم والشر وخلاف الحكمة.

وكقول أبي السعود[(٤)]: «التسبيح: تنزيه الله تعالى وتبعيده ـ اعتقاداً

---

(١) لعله يعني مرسل موسى بن طلحة، أو مرسل إبراهيم التيمي، وكلاهما سبق تخريجهما في ص (٧٠، ٧١).

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٦/١٢٥ ـ ١٢٦.

(٣) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير: ٤/٥١، ٥٨.

(٤) هو محمد بن محمد بن مصطفى العمادي، أبو السعود الحنفي، كان فقيهاً أصولياً، ومفسراً لغوياً، وتولى منصب القضاء والفتيا، وصنف كتباً، منها: =

وقولاً وعملاً ـ عما لا يليق بجنابه سبحانه» اهـ[(١)].

فاشتمل قوله هذا على بيان طريقة تسبيح الله تعالى شرعاً، وهي أن يكون اعتقاداً بالقلب، وقولاً باللسان، وعملاً بالجوارح.

ونحوه قول ابن عاشور[(٢)]: «التسبيح: التنزيه عن النقائص بالاعتقاد، والعبادة، والقول» اهـ[(٣)].

وهذا يبين أن التسبيح الشرعي ليس مجرد قول باللسان، بل لا بد أن يكون مع القول اعتقاد يطابقه، وعمل يصدقه.

ـ فحاصل المعنى الأصلي للتسبيح في الشرع هو: تنزيه الله ﷻ في الاعتقاد والقول والعمل، عما لا يليق به سبحانه في ذاته وأسمائه وصفاته، وأقواله وأفعاله.

وما تقدم بيانه ـ في المبحث الأول ـ من المعنى اللغوي للتسبيح موافق لهذا المعنى الشرعي المذكور هنا، وبذلك يكون تفسير التسبيح بأنه «تنزيه الله تعالى عن السوء» مجمعاً عليه لغة وشرعاً.

وقد سبق إلى بيان هذا الإجماع أبو إسحاق الزجاج، حيث قال:

= «إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم» في تفسير القرآن، وتوفي سنة (٩٨٢هـ)، رحمه الله. انظر: البدر الطالع، للشوكاني: ١/ ٢٦١، ومعجم المؤلفين، لعمر رضا كحالة: ٣/ ٦٩٣.

(١) تفسير أبي السعود (إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم): ١/ ٨٣.

(٢) هو محمد الطاهر بن عاشور التونسي، ولد سنة (١٢٩٦هـ)، وكان رئيس المفتين المالكيين، وشيخ جامع الزيتونة وفروعه بتونس، وله تصانيف عديدة، منها: التحرير والتنوير في تفسير القرآن، ومقاصد الشريعة الإسلامية. وتوفي سنة (١٣٩٣هـ)، رحمه الله. انظر: الأعلام، للزركلي: ٦/ ١٧٤، ومعجم المؤلفين، لعمر رضا كحالة: ٣/ ٣٦٣.

(٣) تفسير التحرير والتنوير: ٢٩/ ١٥١.

«جاء عن النبي ﷺ أن قوله: (سبحان الله): تنزيه الله من السوء. وأهل اللغة كذلك يقولون، من غير معرفة بما فيه عن النبي ﷺ، ولكن تفسيره يجمعون عليه» اهـ[(١)].

وبين ذلك أيضاً الواحدي[(٢)] ـ فيما نقله عنه الإمام النووي ـ أنه قال: «أجمع المفسرون وأهل المعاني على أن معنى (تسبيح الله تعالى): تنزيهه وتبرئته من السوء»[(٣)].

وبهذا يعلم أن التسبيح هو والتنزيه شيء واحد، إذ يقصد بكل منهما تجريد ما لا يليق نسبته إلى الله ﷻ ـ من وصف، أو سمة، أو قول، أو فعل ـ مما هو لائق بكماله، فيثبت له ما يليق به، وينزه عما لا يليق به[(٤)].

ومن هنا فسر بعض أهل العلم التسبيح بقوله: «سبحان الله: تنزيه لله عن كل ما لا ينبغي أن يوصف به»[(٥)].

وفسر بعضهم التنزيه بقوله: «وتنزيه الله عزّ اسمه: ألّا يوصف بوصف لا يليق به»[(٦)].

---

(١) معاني القرآن وإعرابه: ٢/ ٣٧٤، وانظر: المصدر نفسه: ٥/ ١١٨ ـ ١١٩.

(٢) هو علي بن أحمد بن محمد بن علي بن متويه الواحدي، أبو الحسن النيسابوري، كان أوحد عصره في التفسير، وصنف فيه التفاسير الثلاثة: البسيط، والوسيط، والوجيز. وله أيضاً: أسباب النزول. وقد رزق السعادة في تصانيفه، وأجمع الناس على حسنها، وتوفي سنة (٤٦٨هـ)، رحمه الله. انظر: البداية والنهاية، لابن كثير: ١٢/ ١٢١، وطبقات المفسرين، للداوودي: ١/ ٣٨٧ ـ ٣٩٠.

(٣) المجموع شرح المهذب: ٣/ ٣٥٥.

(٤) انظر كلاماً حول هذا المعنى في: مدارج السالكين، لابن قيم الجوزية، تحقيق محمد المعتصم بالله البغدادي: ١/ ٤٩٨.

(٥) كتاب العين، للخليل بن أحمد الفراهيدي: ٣/ ١٥١.

(٦) تفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني، تحقيق أبي بلال غنيم بن عباس: ٦/ ٢٠٦.

فالتسبيح هو التنزيه، غير أن لفظ التسبيح هو الوارد في الكتاب والسنة، بخلاف التنزيه، فلا أعلم له ذكراً فيهما، سوى ما في التفسير النبوي للتسبيح، في الأحاديث الثلاثة المتقدم ذكرها[(١)].

وكثير من الناس لا يدركون تمام الإدراك ما بين التسبيح والتنزيه من الاتحاد في المعنى، كما أن بعض الناس ليس عندهم تصور صحيح لمعناهما على الصورة التي سبق بيانها. وهذا الموضع لم يتخلص فيه - في الحقيقة - إلا أهل السنة والجماعة الذين تلقوا علمهم وعقيدتهم من نصوص الوحيين الكتاب والسنة، وفق فهم السلف الصالح من الصحابة والتابعين والعلماء السائرين على نهجهم في كل عصر.

وضل فيه أهل البدع والأهواء الذين تلقوا علومهم وعقائدهم من أفكار الناس وقوانين البشر، ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣].

❖ المطلب الثاني ❖
دلالة التسبيح على التعظيم

ما سبق بيانه من المعنى الأصلي للتسبيح في الشرع هو ما يدل عليه لفظ التسبيح بالمطابقة[(٢)]. وقد يظن أن ذلك المعنى المطابقي نفي

---

(١) انظر: ص٦٨ - ٧١.

(٢) اللفظ من حيث الوضع له ثلاث دلالات، هي: دلالة المطابقة، ودلالة التضمن، ودلالة الالتزام.
فدلالة المطابقة: هي دلالة اللفظ على تمام المعنى الموضوع له اللفظ، كدلالة الرجل على الإنسان الذكر، ودلالة المرأة على الإنسان الأنثى.
وسميت مطابقة لتطابق الوضع والفهم، فالمفهوم من اللفظ هو عين المعنى الموضوع له اللفظ.
- ودلالة التضمن: هي دلالة اللفظ على جزء مسماه في ضمن كله، ولا =

محض، أو سلب مجرد، وأنه لا يتضمن معنى ثبوتياً.

ومعلوم أن التسبيح جاء في الكتاب والسنة في سياق المدح لله ﷻ، وتنزيهه عن كل وصف لا يليق بجلاله وعظمته. والمدح إنما يكون بالأمور الموجودة لا بالأمور المعدومة، والنفي أو السلب إنما يكون مدحاً إذا تضمن أمراً وجودياً هو كمال، وإلا فالنفي المحض أو السلب المجرد لا مدح فيه ولا كمال(١).

ولهذا لزم أن يعلم أن التسبيح وكل تنزيه لله تعالى في الكتاب والسنة، أنه ليس نفياً محضاً ولا سلباً مجرداً، بل هو نفي يتضمن إثباتاً، وسلب يستلزم إيجاباً.

وبيان ذلك: أن التسبيح لما دل على تنزيه الله تعالى عن النقائص والعيوب، استلزم اتصافه بالكمال المطلق الذي لا نقص ولا عيب فيه بوجه من الوجوه؛ لأن التنزيه ـ الذي دل عليه التسبيح ـ مقصوده نفي ما يناقض الكمال، فإذا نفي النقيض الذي هو النقص والعيب، لزم ثبوت النقيض الآخر الذي هو الكمال والمدح(٢).

= تكون إلا في المعاني المركبة، كدلالة الأربعة على الواحد ربعها، وعلى الاثنين نصفها. وسميت تضمناً؛ لأن الجزء يفهم في ضمن الكل.
ـ ودلالة الالتزام: هي دلالة اللفظ على خارج عن مسماه لازم له لزوماً ذهنياً، بحيث يلزم من فهم المعنى المطابقي فهم ذلك الخارج اللازم، كدلالة الأربعة على الزوجية، وهي: الانقسام إلى متساويين.
انظر: آداب البحث والمناظرة، للشيخ محمد الأمين الشنقيطي (القسم الأول): ص١٣ ـ ١٦.

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٠/ ٢٥٠.

(٢) انظر: المنهاج في شعب الإيمان، للحليمي؛ تحقيق حلمي محمد فوده: ١/ ١٩٧، والأسماء والصفات، للبيهقي: ١/ ١٠٧ ـ ١٠٨، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٦/ ٩٩.

ولما تنزه ﷻ عن صفات النقص كلها، واتصف بصفات الكمال كلها، وجبت له العظمة والجلال[١]، وهي كونه تعالى متصفاً بجملة أوصاف الكمال[٢]. فكان التسبيح ـ بهذا ـ دالاً على التعظيم والمدح والثناء في حق الله ﷻ.

وفي بيان دلالة التسبيح على التعظيم قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ بعد كلام له ـ: «والمقصود هنا أن صفات الكمال إنما هي في الأمور الموجودة، والصفات السلبية إنما تكون كمالاً إذا تضمنت أموراً وجودية، ولهذا كان تسبيح الرب يتضمن تنزيهه وتعظيمه جميعاً، فقول العبد: (سبحان الله) يتضمن تنزيه الله وبراءته من السوء، وهذا المعنى يتضمن عظمته في نفسه، ليس هو عدماً محضاً لا يتضمن وجوداً، فإن هذا لا مدح فيه ولا تعظيم. وكذلك سائر ما تنزه الرب عنه من الشركاء، والأولاد، وغير ذلك، كقوله تعالى: ﴿أَفَأَصْفَنكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء: ٤٠ ـ ٤٤].

وقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾﴾ [الصافات: ١٨٠، ١٨١]، وغير ذلك» اهـ[٣].

ولشيخ الإسلام ابن تيمية كلام في هذه المسألة في مواضع متعددة، بين فيها أن التسبيح يتضمن مع نفي صفات النقص عن الله

---

(١) انظر: المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، لأبي العباس القرطبي، تحقيق محيي الدين مستو، وآخرين: ٧/ ٥٩.

(٢) انظر: بدائع الفوائد، لابن قيم الجوزية: ١/ ١٧٦، ١٧٧.

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٧/ ١٤٣ ـ ١٤٤.

تعالى إثبات ما يلزم ذلك من عظمته جل وعلا، ففي التسبيح تنزيه الله من العيوب والنقائص، وفيه تعظيمه سبحانه وتعالى[(١)].

وقد جاء في الأحاديث النبوية، والآثار السلفية، وأقوال كثير من أهل العلم ما يقرر دلالة التسبيح على التعظيم والمدح والثناء في حق الله تعالى، فمن ذلك:

١ ـ حديث النعمان بن بشير[(٢)] رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«الذين يذكرون من جلال الله من تسبيحه وتحميده وتكبيره وتهليله، يتعاطفن[(٣)] حول العرش، لهن دوي[(٤)] كدوي النحل، يذكرن بصاحبهن. ألا يحب أحدكم أن لا يزال له عند الله شيء يذكر به؟»**[(٥)].

---

(١) انظر المصدر السابق: ١٧/ ١١٢، ودرء تعارض العقل والنقل، له أيضاً: ٦/ ١٧٧.

(٢) هو النعمان بن بشير بن سعد بن ثعلبة الأنصاري الخزرجي، أبو عبد الله، صحابي مشهور، ابن صحابي، ويقال: إنه أول مولود في الإسلام من الأنصار بعد الهجرة بأربعة عشر شهراً، وكان من أخطب الناس، وتوفي بالشام سنة (٦٥هـ)، رضي الله عنه.
انظر: الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر العسقلاني: ٦/ ٤٤٠.

(٣) يتعاطفن: يتمايلن ويتحركن، من العطف، وهو الميل. وانظر: القاموس المحيط، للفيروزآبادي: مادة (عطف): ص١٠٨٣.

(٤) يعني يسمع لهن صوت كدوي النحل، ودوي النحل: حفيفها، وهو صوتها. وانظر: القاموس المحيط: مادة (دوي): ص١٦٥٧، ومادة (حفف): ص١٠٣٤.

(٥) أخرجه أحمد في مسنده: ٤/ ٢٦٨، واللفظ له، وابن ماجه بنحوه في سننه: ٢/ ١٢٥٢، برقم (٣٨٠٩)، والحاكم في المستدرك: ١/ ٦٨٢، برقم (١٨٥٥)، وقال: «هذا حديث على شرط مسلم»، ووافقه الذهبي. وقال البوصيري ـ في زوائد ابن ماجه ـ: «إسناده صحيح، رجاله ثقات». وصححه الألباني في «مختصر العلو للعلي الغفار»: ص٩٦، برقم (٣٢).

فأخبر ﷺ أن التسبيح من جلال الله، أي: من عظمته[١]، فمن سبح الله تعالى فقد أجله وعظمه.

٢ ـ وحديث ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**ألا وإني نهيت أن أقرأ القرآن راكعاً أو ساجداً، فأما الركوع فعظموا فيه الرب عز وجل، وأما السجود فاجتهدوا في الدعاء فقمن**[٢] **أن يستجاب لكم**»[٣].

فأمر ﷺ بتعظيم الرب عز وجل في الركوع، وجاء في أحاديث أخرى ما يبين أن هذا التعظيم يكون بالتسبيح، لأنه هو المشروع في الركوع لا غير، كما سيأتي بيانه في موضعه، إن شاء الله تعالى[٤].

٣ ـ وأثر عبد الله بن بريدة[٥]: «أن رجلاً سأل علياً رضي الله عنه عن (سبحان الله)، فقال: (تعظيم جلال الله)»[٦].

---

(١) يقال: جل جلالا، أي: عظم، فهو جليل. وأجله، أي: عظمه. انظر: القاموس المحيط، للفيروزآبادي: مادة (جلل): ص١٢٦٤.

(٢) (قمن) بفتح الميم وكسرها، لغتان. فهو بالفتح مصدر، فلا يثنى ولا يجمع ولا يؤنث. وهو بالكسر وصف، فيثنى ويجمع ويؤنث. ومعناه: خليق وجدير، ومثله: القمين. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير: ٤/ ١١١.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه: ١/ ٣٤٨، برقم (٤٧٩).

(٤) انظر: مبحث «التسبيح في الركوع والسجود» في ص (٥٣٤). وانظر أيضاً: شرح صحيح مسلم، للنووي: ٤/ ١٩٧.

(٥) هو عبد الله بن بريدة بن الحصيب الأسلمي، أبو سهل المروزي، قاضيها، ثقة، توفي سنة (١٠٥هـ)، وقيل: سنة (١١٥هـ)، رحمه الله. انظر: تقريب التهذيب، لابن حجر العسقلاني: ١/ ٣٨٣ ـ ٣٨٤.

(٦) أخرجه الطبراني في كتاب الدعاء: ٣/ ١٥٩٣ ـ ١٥٩٤، برقم (١٧٦٢)، ورجال إسناده ثقات غير محمد بن دينار، فهو صدوق سيئ الحفظ، كما في «تقريب التهذيب»، لابن حجر: ٢/ ١٦٩.

٤ ـ وأثر النضر بن عربي[١]، قال: «سأل رجل ميمون بن مهران[٢] عن (سبحان الله)، فقال: (اسم يعظم الله به، ويحاشى به من السوء)»[٣]. ـ وفي رواية، قال: «سبحان الله: تعظيم الله وحاشا»[٤].

٥ ـ وقول الزجاج: «التسبيح في اللغة: تعظيم الله وتنزيهه عن السوء»[٥] وقوله أيضاً: «التسبيح: تمجيد الله وتنزيهه من السوء»[٦].

٦ ـ وقول ابن دريد[٧]: «سبح الرجل تسبيحاً: عظم الله ومجده»[٨].

٧ ـ وقول نفطويه: «ومعنى (سبحان): التنزيه والتعظيم والتكبير

(١) هو النضر بن عربي الباهلي مولاهم، أبو روح، ويقال: أبو عمر، الحراني، لا بأس به، توفي سنة (١٦٨هـ)، رحمه الله. انظر: ميزان الاعتدال، للذهبي: ٤/ ٢٦١، وتقريب التهذيب، لابن حجر العسقلاني: ٢/ ٣٠٧.

(٢) هو ميمون بن مهران الجزري، أبو أيوب الرقي، كوفي الأصل، ثقة فقيه من أجلاء التابعين وزهادهم، ولي الجزيرة لعمر بن عبد العزيز، وتوفي سنة (١١٧هـ)، رحمه الله. انظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي، ٥/ ٧١ ـ ٧٢، تقريب التهذيب، لابن حجر: ٢/ ٢٩٦.

(٣) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره (تفسير القرآن العظيم)، جمع أسعد محمد الطيب: ٤/ ١١٢٤، برقم (٦٣١٥)، وإسناده حسن.

(٤) رواه الطبراني في كتاب الدعاء: ٣/ ١٥٩٤، برقم (١٧٦٤)، وإسناده حسن.

(٥) معاني القرآن وإعرابه: ٥/ ٢٢.

(٦) المصدر السابق: ٥/ ١٢١.

(٧) هو محمد بن الحسن بن دريد بن عتاهية الأزدي، أبو بكر البصري، اللغوي النحوي الشاعر، ولد سنة (٢٢٣هـ)، وكان من أعلم الناس في زمانه باللغة والشعر وأيام العرب وأنسابها، ومن مصنفاته: جمهرة اللغة، وغيره، وتوفي سنة (٣٢١هـ)، رحمه الله.
انظر: ميزان الاعتدال، للذهبي: ٣/ ٥٢٠، والبداية والنهاية، للحافظ ابن كثير: ١١/ ١٨٨، ومعجم الأدباء، لياقوت الحموي: ١٨/ ١٢٧.

(٨) جمهرة اللغة: ١/ ٢٢٢.

والإبعاد»[١].

٨ ـ وقول الماوردي[٢]: «التسبيح ـ في كلامهم ـ: التنزيه من السوء على جهة التعظيم»[٣].

ـ وقوله أيضاً ـ في بيان اشتقاق التسبيح ـ: «وهو من السبح في التعظيم، وهو الجري فيه إلى أبعد الغايات»[٤]، ومعنى قوله هذا: أن المسبح لله تعالى جار في تعظيمه إلى أبعد الغايات.

٩ ـ وقول أبي المظفر السمعاني[٥]: «سبحان: تنزيه الله من كل سوء. وحقيقته: تعظيم الله بوصف المبالغة، ووصفه بالبراءة من كل نقص»[٦]. وقوله أيضاً: «تسبيح الله: تعظيم له على وجه ينفي عنه كل

---

(١) مسألة سبحان: ص٢٩.

(٢) هو علي بن محمد بن حبيب البصري، أبو الحسن الماوردي، القاضي، شيخ الشافعية في وقته، كان صدوقاً في نفسه، ولكنه وافق المعتزلة في بعض المسائل فاتهم بالاعتزال. وله تصانيف كثيرة، منها: الحاوي الكبير في فقه الشافعية، والأحكام السلطانية، وأدب الدين والدنيا، وغيرها، وتوفي سنة (٤٥٠هـ)، رحمه الله. انظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي: ١٨/ ٦٤ ـ ٦٨، وميزان الاعتدال، له: ٣/ ١٥٥، والبداية والنهاية، لابن كثير: ١٢/ ٨٥ ـ ٨٦.

(٣) النكت والعيون (تفسير الماوردي)، بتعليق السيد بن عبد المقصود: ١/ ٩٦.

(٤) المصدر السابق: ٣/ ٢٢٤.

(٥) هو منصور بن محمد بن عبد الجبار بن أحمد التميمي، أبو المظفر السمعاني، المروزي، الحنفي ثم الشافعي، كان وحيد عصره فضلاً وطريقة وزهداً، انتصر لأهل السنة وكان شوكاً في أعين المخالفين، من مصنفاته: تفسير القرآن، وقواطع الأدلة، توفي سنة (٤٨٩هـ)، رحمه الله. انظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي: ١٩/ ١١٤، والبداية والنهاية، لابن كثير: ١٢/ ١٦٤.

(٦) تفسير القرآن، تحقيق أبي تميم ياسر بن إبراهيم، وأبي بلال غنيم بن عباس: ٣/ ٢١٢.

سوء»[١]. وقوله كذلك: «التسبيح: هو الثناء على الله بالتبرئة والتنزيه من العيوب»[٢].

١٠ ـ وقول الإمام ابن قيم الجوزية: «ومعنى هذه الكلمة ـ يعني (سبحان الله) ـ تنزيه الرب تعالى وتعظيمه وإجلاله عما لا يليق به»[٣]. وقوله أيضاً: «التسبيح: ثناء عليه سبحانه يتضمن التعظيم والتنزيه»[٤].

ـ فهذه مما جاء في بيان دلالة التسبيح على التعظيم والمدح والثناء في حق الله تعالى من الأحاديث والآثار وأقوال العلماء.

وبيان هذه الدلالة للتسبيح يزيد في العلم بحقيقة التسبيح في الشرع، وما يتضمنه من معاني الجمال ودلائل الكمال في حق الله ﷻ، وأنه ليس نفياً مجرداً عن إثبات، بل هو نفي متضمن إثباتاً، فهو نفي بدلالة لمطابقة، وهو إثبات بدلالة الالتزام؛ لأنه يدل على انتفاء النقائص والعيوب عن الله تعالى، وهذا المعنى يستلزم ثبوت الكمالات له سبحانه على التمام بحيث لا يلحقه فيها نقص ولا عيب بوجه من الوجوه.

فيعلم ـ بهذا ـ أن كل نفي في حق الله تعالى إذا لم يتضمن إثبات كمال في حقه جل وعلا، فليس تسبيحاً ولا تنزيهاً؛ لأنه لا تعظيم فيه ولا مدح ولا ثناء، ولا يليق بجلال الله وعظمته. «ولهذا إنما يصف الله نفسه بصفات التنزيه ـ لا السلبية العدمية ـ، لتضمنها أموراً وجودية تكون كمالاً يتمدح سبحانه بها»[٥]، ويعظمه بها عباده المؤمنون، ويثنون عليه بها.

---

(١) المصدر السابق: ٤/٣٣٨.
(٢) المصدر نفسه: ٣/١٥٦.
(٣) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح، تحقيق الدكتور السيد الجميلي: ص٤٥٢.
(٤) المنار المنيف في الصحيح والضعيف، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة: ص٣٦.
(٥) مقتبس من «مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية»: ١٧/١٤٢.

وهذا الموضع مما يجب الاعتناء بفهمه على هدي كتاب الله تعالى وسنة رسول الله ﷺ، ليحصل به الفرقان بين تنزيه الرسل وأتباعهم القائم على نفي ما يناقض كمال الله وعظمته وتوحيده، وتنزيه المخالفين لهم القائم على نفي صفات الكمال التي وصف الله بها نفسه، ووصفه بها رسوله ﷺ[١]، والله والموفق والهادي إلى سواء السبيل.

❖ المطلب الثالث ❖

إطلاق التسبيح على الصلاة

ومن المعاني التي يراد بها لفظ التسبيح في الشرع: تسمية الصلاة تسبيحاً.

فقد كثر في القرآن الكريم وفي الحديث النبوي إطلاق التسبيح على الصلاة[٢]. أما القرآن، ففي الأثر عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كل تسبيح في القرآن هو الصلاة»[٣]. وعن سعيد بن جبير[٤] مثله[٥].

ولا بد من حمل هذين الأثرين على إرادة أغلب المواضع في

---

(١) انظر: الروح، للإمام ابن قيم الجوزية: ص٣٨٧.

(٢) انظر: نور المسرى، لأبي شامة المقدسي: ص٢٨، والنهاية في غريب الحديث، لابن الأثير ٢/ ٣٣٢، وفتح الباري، للحافظ ابن حجر: ٢/ ٥٧٥، وأضواء البيان، للشنقيطي: ٢/ ١١١.

(٣) ذكره الحافظ ابن كثير في تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٣٠٥.

(٤) هو سعيد بن جبير الأسدي مولاهم، الكوفي، أحد الأعلام، ثقة ثبت فقيه، قتله الحجاج بن يوسف، سنة (٩٥هـ)، ولم يكمل خمسين سنة، رحمه الله. انظر: تذكرة الحفاظ، للذهبي: ١/ ٧٦ ـ ٧٧، وتقريب التهذيب، لابن حجر: ١/ ٢٨٤.

(٥) رواه الفراء في معاني القرآن: ٢/ ١٢٥.

القرآن، أو ما جاء من التسبيح بصيغة الأمر في القرآن، لما تقدم أن التسبيح قد استعمل في الشرع في معان متعددة، منها الصلاة وغيرها.

ومن إطلاق التسبيح على الصلاة في القرآن:

١ ـ قول الله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾﴾ [طه: ١٣٠].

قال ابن العربي[١]: «لا خلاف أن المراد بقوله تعالى ها هنا ـ: ﴿سَبِّحْ﴾: صلّ؛ لأنه غاية التسبيح وأشرفه» اهـ[٢].

ويؤيد كون المراد بالتسبيح ـ في هذه الآية ـ الصلاة حديث جرير بن عبد الله[٣] رضي الله عنه قال: «كنا عند النبي ﷺ، إذ نظر إلى القمر ليلة البدر، فقال: «**أما إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون[٤] في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع**

---

(١) هو محمد بن عبد الله بن محمد الإشبيلي، المعروف بابن العربي، العلامة الحافظ القاضي المالكي، كان من حفاظ علماء الأندلس، وبقي يفتي أربعين سنة، وله تآليف كثيرة دالة على سعة علمه، منها: أحكام القرآن، وعارضة الأحوذي في شرح جامع الترمذي، والعواصم من القواصم، وغيرها، وتوفي سنة (٥٤٣هـ)، رحمه الله. انظر: تذكرة الحفاظ، للذهبي: ٤/ ١٢٩٤ ـ ١٢٩٧، وشجرة النور الزكية، للشيخ محمد مخلوف: ص١٣٦ ـ ١٣٨.

(٢) أحكام القرآن، تحقيق محمد عبد القادر عطا: ٣/ ٢٦٠.

(٣) هو جرير بن عبد الله بن جابر البجلي الأحمسي، أبو عمرو، وقيل: أبو عبد الله، اليماني، الكوفي، صحابي مشهور، توفي سنة(٥١هـ)، وقيل: بعدها، رضي الله عنه. انظر: تهذيب الأسماء واللغات، للنووي: ١/ ١٤٧، وتقريب التهذيب، لابن حجر العسقلاني: ١/ ١٣٢.

(٤) لا تضامون: يروى بتشديد الميم وتخفيفها. فبالتشديد معناه: لا ينضم بعضكم إلى بعض وتزدحمون وقت النظر إليه. ويجوز في التاء الضم والفتح، =

الشمس وقبل غروبها فافعلوا». ثم قرأ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ [طه: ١٣٠]»[١].

وفي رواية زيادة: «يعني العصر والفجر»[٢].

وتعددت أقوال المفسرين في الصلاة المعنية بهذا التسبيح في الآية، فقال بعضهم: إن الآية في بيان الصلوات المكتوبة.

وقال آخرون: إنها في بيان الصلوات النافلة.

وقال غيرهم: إنها في بيان المكتوبات والنوافل[٣].

وكون الآية في بيان النوافل فقط دون المكتوبات بعيد، لما جاء من التصريح بإرادة العصر والفجر في بعض روايات الحديث السابق.

٢ ـ وقوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾﴾ [ق: ٣٩، ٤٠].

وهذه الآية نظير الآية السابقة، وقد وقع في بعض روايات حديث

= على (تفاعلون) و(تتفاعلون). وبتخفيف الميم معناه: لا ينالكم ضيم في رؤيته، فيراه بعضكم دون بعض. والضيم: الظلم. انظر: النهاية في غريب الحديث، لابن الأثير: ٣/ ١٠١.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ٢/ ٥٢، برقم (٥٧٣) ومسلم في صحيحه: ١/ ٤٣٩، برقم (٦٣٣).

(٢) هذه الزيادة عند مسلم في روايته المشار إليها.

(٣) انظر هذه الأقوال في: تفسير الطبري: ٨/ ٤٧٧ ـ ٤٨٨، وتفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني: ٣/ ٣٦٣، وأحكام القرآن، لابن العربي: ٣/ ٢٦٠، والمحرر الوجيز، لابن عطية: ١١/ ١١٥ ـ ١١٦، وزاد المسير في علم التفسير، لابن الجوزي: ٥/ ٣٣٣ ـ ٣٣٤، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٣/ ١٧٨ ـ ١٧٩.

جرير بن عبد الله رضي الله عنه ذكر هذه الآية بدل تلك الآية[١]، ولعل ذلك تصرف من بعض الرواة نظراً لاتحاد دلالة الآيتين.

وقد ذكر المفسرون في معنى هذه الآية والصلاة المقصودة بلفظ التسبيح فيها نحو ما ذكروه في الآية السابقة[٢].

٣ ـ وقوله تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الروم: ١٧، ١٨].

جاء في الأثر أن نافع بن الأزرق[٣] سأل ابن عباس رضي الله عنهما: «هل تجد الصلوات الخمس في القرآن؟»، فقال ابن عباس رضي الله عنهما: «نعم، ثم قرأ عليه: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ﴾ قال: صلاة المغرب. ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ قال: صلاة الصبح. ﴿وَعَشِيًّا﴾ قال: صلاة العصر. ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ قال: صلاة الظهر. ثم قرأ: ﴿وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ﴾ [النور: ٥٨]»[٤].

وجاء في أثر آخر عن ابن عباس أيضاً رضي الله عنهما قال: «جمعت هاتان الآيتان مواقيت الصلاة ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ﴾ قال: المغرب والعشاء. ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ الفجر. ﴿وَعَشِيًّا﴾ العصر. ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾

---

(١) انظر: صحيح البخاري ـ مع الفتح ـ ٢/٣٣، حديث رقم (٥٥٤)، و٨/٥٩٧، حديث رقم (٤٨٥١).

(٢) انظر: تفسير الطبري: ١١/٤٣٥ ـ ٤٣٦، وتفسير البغوي: ٧/٣٦٤ ـ ٣٦٥.

(٣) هو نافع بن الأزرق الحروري، من رؤوس الخوارج، قتل سنة (٦٥هـ). انظر: ميزان الاعتدال، للذهبي: ٤/٢٤١، والبداية والنهاية، لابن كثير: ٨/٢٦٤.

(٤) رواه عبد الرزاق الصنعاني في تفسيره، بتحقيق الدكتور مصطفى مسلم محمد: ٢/١٠٣، وابن جرير الطبري في تفسيره: ١٠/١٧٤، والحاكم في المستدرك: ٢/٤٤٥، برقم (٣٥٤١) وصححه، ووافقه الذهبي.

الظهر»[١].

فهذا بعض ما جاء من إطلاق التسبيح على الصلاة في القرآن الكريم. وأما إطلاق التسبيح على الصلاة في الحديث النبوي، فوقع كثيراً، ومن ذلك:

١ ـ حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لعلكم ستدركون أقواماً يصلون الصلاة لغير وقتها، فإن أدركتموهم فصلوا الصلاة لوقتها، وصلوا معهم واجعلوها سبحة»**[٢].

وفي رواية: قال لي رسول الله ﷺ: **«كيف بكم إذا أتت عليكم أمراء يصلون الصلاة لغير ميقاتها؟»** قلت: فما تأمرني إن أدركني ذلك، يا رسول الله؟ قال: **«صل الصلاة لميقاتها، واجعل صلاتك معهم سبحة»**[٣].

قال الخطابي[٤]: «والسبحة: ما يصليه المرء نافلة من الصلوات»[٥].

---

(١) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره: ١٠/ ١٧٤.

(٢) أخرجه النسائي في سننه: ٢/ ٤١٠، برقم (٧٧٨)، وابن ماجه في سننه: ١/ ٣٩٨، برقم (١٢٥٥)، وهو صحيح، كما في صحيح سنن النسائي، للألباني: ١/ ٢٥٨، برقم (٧٧٨). وأخرجه مسلم في صحيحه ـ بنحوه مطولاً ـ: ١/ ٣٧٨ ـ ٣٧٩، برقم (٥٣٤)، وليس فيه تصريح برفعه إلى النبي ﷺ.

(٣) أخرجه أبو داود في سننه: ١/ ٣٠٠، برقم (٤٣٢)، وهو صحيح، كما في صحيح سنن أبي داود، للألباني: ١/ ١٢٧ ـ ١٢٨ برقم (٤٣٢).

(٤) هو حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي، أبو سليمان البستي، الإمام الحافظ، والعلامة المجتهد اللغوي، له مصنفات مفيدة، منها: أعلام السنن ـ في شرح صحيح البخاري ـ، ومعالم السنن ـ في شرح سنن أبي داود ـ، وشأن الدعاء. وتوفي سنة (٣٨٨هـ) رحمه الله. انظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي: ٧/ ٢٣ ـ ٢٨، والبداية والنهاية، لابن كثير: ١١/ ٣٤٦.

(٥) معالم السنن: ١/ ١١٧.

٢ ـ وحديث عبد الله بن عمر ﵄ قال: «كان رسول الله ﷺ يسبح على الراحلة قبل أي وجه توجه، ويوتر عليها، غير أنه لا يصلي عليها المكتوبة»[(١)].

قال الحافظ ابن حجر: «قوله: (يسبح) أي: يصلي النافلة»[(٢)].

٣ ـ وحديث ابن عمر أيضاً ﵄ قال: «جمع النبي ﷺ بين المغرب والعشاء بجمع[(٣)]، كل واحدة منهما بإقامة، ولم يسبح بينهما ولا على إثر كل واحدة منهما»[(٤)].

قال الحافظ ابن حجر: «قوله: (ولم يسبح بينهما) أي: لم يتنفل»[(٥)].

٤ ـ وحديث عائشة أم المؤمنين ﵂ قالت: «ما سبح رسول الله ﷺ سبحة الضحى قط، وإني لأسبحها، وإن كان رسول الله ﷺ ليدع العمل وهو يحب أن يعمل به خشية أن يعمل به الناس فيفرض عليهم»[(٦)].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ٢/ ٥٧٥، برقم (١٠٩٨)، ومسلم في صحيحه: ١/ ٤٨٧، برقم (٧٠٠).

(٢) فتح الباري: ٢/ ٥٧٥.

(٣) جمع ـ بإسكان الميم ـ مكان معروف بالمزدلفة، وهو اسم المشعر الحرام. وقيل: هو المزدلفة نفسها، سميت بذلك لاجتماع الناس فيها. انظر: تهذيب الأسماء واللغات، للنووي: ٣/ ٥٩، وهدي الساري، للحافظ ابن حجر العسقلاني: ص٩٩.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ٣/ ٥٢٣، برقم (١٦٧٣).

(٥) فتح الباري: ٣/ ٥٢٣.

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ٣/ ١٠، برقم (١١٢٨)، ومسلم في صحيحه: ١/ ٤٩٧، برقم (٧١٨)، وأبو داود في سننه: ٢/ ٦٤، برقم (١٢٩٣) واللفظ له.

ففي هذه الأحاديث وغيرها من الأحاديث ذكر التسبيح بمعنى الصلاة، ولكن يلاحظ أن إطلاق التسبيح على الصلاة في هذه الأحاديث جاء مختصاً بالصلاة النافلة دون المكتوبة.

ولعل هذا هو الذي جعل بعض العلماء يخصون النافلة من الصلوات باسم التسبيح، كما قال الخطابي: «كل صلاة يتطوع بها فهي تسبيح وسبحة»[١].

وقال ابن فارس[٢]: «السبحة، وهي الصلاة، ويختص بذلك ما كان نفلاً غير فرض»[٣].

وبالغ الحافظ ابن حجر فقال: «وأما اختصاص ذلك بالنافلة فهو عرف شرعي»[٤].

ومن ثم علل هو وغيره هذا الاختصاص بأن التسبيح في صلاة الفريضة نافلة، فقيل لصلاة النافلة: سبحة؛ لأنها كالتسبيح في الفريضة، في أنه غير واجب[٥].

وفي هذا كله نظر؛ لأن التسبيح ورد في القرآن إطلاقه على صلاة الفريضة، كما في الآيات التي سبق ذكرها وغيرها.

---

(١) معالم السنن: ١/ ١١٧.

(٢) هو أحمد بن فارس بن زكريا القزويني، أبو الحسين الرازي، اللغوي، كان رأساً في الأدب، بصيراً بفقه مالك، مناظراً متكلماً على طريقة أهل الحق، من مصنفاته: مجمل اللغة، ومقاييس اللغة، وتفسير أسماء النبي ﷺ، وتوفي سنة (٣٩٥هـ)، رحمه الله. انظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي: ١٧/ ١٠٣ ـ ١٠٦، وبغية الوعاة، للسيوطي: ١/ ٣٥٢.

(٣) مقاييس اللغة: ٣/ ١٢٥.

(٤) فتح الباري: ٢/ ٥٧٥.

(٥) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير: ٢/ ٣٣١، وفتح الباري، لابن حجر العسقلاني: ٣/ ٥٥ ـ ٥٦.

فيظهر أن تخصيص النافلة بإطلاق التسبيح عليها كان عرفاً عند الناس في وقت من الأوقات، وليس ذلك عرفاً شرعياً كما ذهب إليه الحافظ ابن حجر. ولذا كان الحافظ ابن عبد البر[١] أدق في التعبير حيث قال: «إن أهل العلم لا يوقعون اسم (سبحة) إلا على النافلة دون الفريضة، لقوله ﷺ: (واجعلوا صلاتكم معهم سبحة)[٢] أي: نافلة»[٣].

فجعل تخصيص النافلة باسم (سبحة) عرفاً لأهل العلم لورود ذلك في الحديث، ولم يجعله عرفاً شرعياً؛ لأنه ليس مطرداً في نصوص الشرع وإن وقع كثيراً في الأحاديث، كما سبق، والله تعالى أعلم.

وقد أشار شيخ الإسلام ابن تيمية إلى سبب تخصيص النافلة بلفظ التسبيح حيث قال: «ولفظ (التسبيح) يراد به: جنس الصلاة. وقد يراد: النافلة خصوصاً، فإن الفرض لما كان له اسم يخصه جعل هذا اللفظ للنافلة» اهـ[٤].

ـ فبين أن إطلاق التسبيح على النافلة هو من باب تمييزها عن الفريضة في التسمية، ولا يعني ذلك أن التسبيح في الصلاة نافلة، خلافاً لمن علل التسمية بذلك.

---

(١) هو يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري، أبو عمر القرطبي، الإمام الحافظ والعلامة المتقن، كان ثقة ديناً، صاحب سنة واتباع، له تصانيف بديعة نافعة، منها: التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، والاستيعاب بمعرفة الأصحاب، وجامع بيان العلم وفضله، وغيرها. وتوفي سنة (٤٦٣هـ) رحمه الله. انظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي: ١٨/ ١٥٣ ـ ١٦٣، وشجرة النور الزكية، للشيخ محمد مخلوف: ص١١٩.

(٢) هو جزء من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، سبق تخريجه في ص (٩٠).

(٣) التمهيد: ٨/ ١٣٤.

(٤) قاعدة حسنة في الباقيات الصالحات، تحقيق وتعليق أبي محمد أشرف بن عبد المقصود: ص٥٣.

وأما حكم التسبيح في صلاة الفريضة، وهل هو واجب أو غير واجب؟ فسيأتي البحث فيه في موضعه[(١)]، إن شاء الله تعالى.

وإذا ثبت أن التسبيح يطلق في الشرع على الصلاة ـ فرضاً أو نفلاً ـ، فإن للعلماء في سبب تسمية الصلاة تسبيحاً أقوالاً:

أحدها: أن الصلاة سميت تسبيحاً من باب تسمية الشيء باسم جزئه، أو من باب إطلاق اسم البعض على الكل، تنبيهاً على فضل ذلك الجزء أو البعض وأهميته، لاشتمال الصلاة على التسبيح في الركوع والسجود، وفي غيرهما[(٢)].

وثانيها: أن الصلاة سميت تسبيحاً لأن التسبيح: تعظيم الله تعالى وتبرئته من السوء، والصلاة يوحد الله ﷻ فيها، ويحمد ويعظم، ويوصف بكل ما يبرئه من السوء، فسميت لذلك سبحة وتسبيحاً[(٣)].

وثالثها: أن الصلاة سميت تسبيحاً لأن المصلي منزه لله تعالى بإخلاص العبادة له وحده، والتسبيح: التنزيه، فسميت الصلاة به، لما يلزم من الصلاة المخلصة لله وحده من التنزيه[(٤)].

---

(١) في الكلام على حكم تسبيح الله تعالى من حيث القول، وانظر: ص (٣٩٠ ـ ٤٠٢).

(٢) انظر: تفسير الماوردي (النكت والعيون): ٤/ ٣٠٣، ونور المسرى، لأبي شامة المقدسي: ص٣٨، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ١٤/ ١٥، وإحكام الأحكام على عمدة الأحكام، لابن دقيق العيد، بحاشيته العدة للصنعاني: ٢/ ١٩٥، وعمدة الحفاظ، للسمين الحلبي: ص٢٢٩، والإعلام بفوائد عمدة الأحكام، لابن الملقن، تحقيق عبد العزيز بن أحمد المشيقح: ٢/ ٤٧٨ ـ ٤٧٩، وفتح الباري، لابن حجر العسقلاني: ٢/ ٥٧٥.

(٣) انظر: معاني القرآن وإعرابه، للزجاج: ١/ ٤٠٩، وأحكام القرآن، للجصاص: ٥/ ٢٩٣ ـ ٢٩٤، ومشارق الأنوار على صحاح الآثار، للقاضي عياض اليحصبي: ١/ ٢٠٣، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٤/ ٨٢.

(٤) انظر: إحكام الأحكام، لابن دقيق العيد، بحاشيته العدة: ٢/ ١٩٦، والإعلام =

ورابعها: أن الصلاة سميت تسبيحاً لأن المصلي معظم لله تعالى بصلاته وخضوعه وخشوعه فيها لله ﷻ، فهو مسبح لله بصورة حاله[١].

وهذه الأقوال وإن بدت مختلفة في عباراتها، فهي متفقة في معانيها، وكلها تشترك في بيان الوجه المصحح لإطلاق التسبيح على الصلاة، وفي إظهار المناسبة بين الصلاة والتسبيح، ليعلم العبد حقيقة الصلاة الشرعية، وأنها تتضمن غاية التنزيه، ومنتهى التعظيم لله رب العالمين[٢].

ويتجلى هذا المعنى فيما قاله الإمام محمد بن نصر المروزي[٣]، من أنه «لا عمل بعد توحيد الله أفضل من الصلاة لله؛ لأنه افتتحها بالتوحيد والتعظيم لله بالتكبير، ثم الثناء على الله، وهي قراءة فاتحة الكتاب، وهي حمد لله وثنا عليه وتمجيد له ودعاء، وكذلك التسبيح في الركوع والسجود، والتكبيرات عند كل خفض ورفع، كل ذلك توحيد لله وتعظيم له، وختمها بالشهادة له بالتوحيد، ولرسوله بالرسالة، وركوعها وسجودها خشوعاً له وتواضعاً، ورفع اليدين عند الافتتاح والركوع ورفع الرأس تعظيماً لله وإجلالاً له، ووضع اليمين على الشمال بالانتصاب لله تذللاً له وإذعاناً بالعبودية»[٤].

= بفوائد عمدة الأحكام، لابن الملقن: ٢/ ٤٧٩، وفتح الباري، لابن حجر العسقلاني: ٢/ ٥٧٥.

(١) انظر: نور المسرى، لأبي شامة: ص٣٩، وتهذيب الأسماء واللغات، للنووي: ٣/ ١٤٢.

(٢) انظر: أضواء البيان، للشيخ محمد الأمين الشنقيطي: ٢/ ١١١.

(٣) هو محمد بن نصر المروزي، أبو عبد الله الفقيه، الثقة الحافظ، إمام أهل الحديث في عصره بلا مدافعة، من تصانيفه: تعظيم قدر الصلاة، والقسامة. وتوفي سنة (٢٩٤هـ) رحمه الله تعالى. انظر: تذكرة الحفاظ، للذهبي: ٢/ ٦٥٠ ـ ٦٥٣، وتقريب التهذيب، لابن حجر العسقلاني: ٢/ ٢٢٢.

(٤) تعظيم قدر الصلاة، تحقيق الدكتور عبد الرحمن الفريوائي: ١/ ٢٦٨.

وفيما قاله الإمام ابن قيم الجوزية من «أن الصلاة قد اشتملت على عبودية جميع الجوارح والأعضاء مع عبودية القلب، فلكل عضو منها نصيب من العبودية، فجميع أعضاء المصلي وجوارحه متحركة في الصلاة عبودية لله وذلاً له وخضوعاً» اهـ[١].

ولاشتمال الصلاة على هذه المعاني القدسية والمظاهر التعبدية كانت أعظم عبادات الإسلام العملية، وأفضل أعمال العباد البدنية[٢].

❖ المطلب الرابع ❖

إطلاق التسبيح على الذكر عموماً

المراد بالذكر هنا: الألفاظ التي ورد في الشرع الترغيب في قولها والثناء على الله تعالى بها وتوحيده بها، مثل: أسماء الله سبحانه وصفاته وأحكامهما. ومثل: التسبيح، والتحميد، والتهليل، والتكبير، والحوقلة، والبسملة، والحسبلة، والاستعاذة، والاستغفار، ونحو ذلك[٣].

فالتسبيح ـ بمعنى قول: سبحان الله ـ واحد من الألفاظ التي يراد بها لفظ الذكر في الكتاب والسنة.

---

(١) بدائع الفوائد: ١/ ٤٢٩. وانظر كلاماً ضافياً في أسرار الصلاة وفوائدها في: شفاء العليل، لابن قيم الجوزية: ٢/ ١٦٦ ـ ١٧٠.

(٢) انظر: دقائق التفسير الجامع لتفسير الإمام ابن تيمية، جمع وتحقيق الدكتور محمد السيد الجليند: ٢/ ٣٥٧، والوابل الصيب من الكلم الطيب، لابن قيم الجوزية، تحقيق محمد عبد الرحمن عوض: ص١٢٤، وصفوة الآثار والمفاهيم من تفسير القرآن العظيم، للشيخ عبد الرحمن بن محمد الدوسري: ٢/ ٧٧ ـ ٧٨.

(٣) انظر: الوابل الصيب من الكلم الطيب، لابن قيم الجوزية: ص١١٨، وفتح الباري، للحافظ ابن حجر العسقلاني: ١١/ ٢٠٩.

وقد يطلق التسبيح ويراد به جميع ألفاظ الذكر التي سبق بيانها[١]، وذلك من باب تسمية العام باسم الخاص.

قال الأخفش[٢]: «لأن الذكر كله تسبيح وصلاة، تقول: قضيت سبحتي من الذكر والصلاة»[٣].

وقال الإمام ابن جرير الطبري: «وكل ذكر لله عند العرب فتسبيح وصلاة يقول الرجل منهم: قضيت سبحتي من الذكر والصلاة»[٤].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «ويراد بالتسبيح جنس ذكر الله تعالى. يقال: فلان يسبح، إذا كان يذكر الله، ويدخل في ذلك التهليل والتحميد، ومنه سميت السباحة للأصبع التي يشير بها، وإن كان يشير بها في التوحيد» اهـ[٥].

ومن شواهد التسبيح بمعنى الذكر في القرآن الكريم: قول الله تعالى ـ في قصة نبيه زكريا عليه السلام ـ: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُواْ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾﴾ [مريم: ١١].

قال الإمام ابن جرير الطبري ـ في تفسير هذه الآية ـ: «وقد يجوز

(١) انظر: النهاية في غريب الحديث، لابن الأثير: ٢/ ٣٣١، وفتح الباري، لابن حجر: ١١/ ٢٠٦.

(٢) هو سعيد بن مسعدة البلخي المجاشعي ولاء، أبو الحسن، المعروف بالأخفش الأوسط، كان عالماً بالنحو واللغة والعروض، من مصنفاته: معاني القرآن، وكتاب العروض، وكتاب القوافي. وتوفي سنة (٢١٠هـ) أو(٢١٥هـ) أو (٢٢١هـ) على خلاف، رحمه الله.
انظر: بغية الوعاة، للسيوطي: ١/ ٥٩٠ ـ ٥٩١.

(٣) معاني القرآن، تحقيق الدكتور عبد الأمير محمد أمين الورد: ١/ ٢١٩.

(٤) تفسير الطبري: ١/ ٢٤٧.

(٥) قاعدة حسنة في الباقيات الصالحات: ص٥٤.

في هذا الموضع أن يكون عنى به التسبيح الذي هو ذكر الله، فيكون أمرهم بالفراغ لذكر الله في طرفي النهار بالتسبيح. ويجوز أن يكون عنى به الصلاة، فيكون أمرهم بالصلاة في هذين الوقتين»[١].

وقال نفطويه ـ في معنى الآية ـ: «أي: اذكروا الله بأسمائه»[٢].

ومن شواهد ذلك في الحديث: حديث عبد الله بن عمرو ﵄ قال: «رأيت رسول الله ﷺ يعقد التسبيح[٣]»[٤].

فالمراد بالتسبيح هنا ألفاظ الذكر، لا خصوص لفظ التسبيح، فقد جاء في رواية أخرى عنه ﵁ ذكر التسبيح والتحميد والتكبير في دبر كل صلاة، ثم قال: «فأنا رأيت رسول الله ﷺ يعقدها بيده»[٥].

وإنما ساغ إطلاق التسبيح على الذكر كله؛ لأن التسبيح ـ كما سبق ـ: تنزيه الله ﷿ على وجه التعظيم والثناء الحسن، فكان كل لفظ تضمن تنزيه الله تعالى وتعظيمه والثناء عليه بما هو أهله تسبيحاً وتقديساً، وكان كل من ذكر الله سبحانه بما ورد من ألفاظ الذكر المشروعة مسبحاً لله تبارك وتعالى.

---

(١) تفسير الطبري: ٨/ ٣١٤.
(٢) مسألة سبحان: ص٤٦.
(٣) يعقد التسبيح، أي: يحسب التسبيح ويضبط عدده بيده. انظر: القاموس المحيط، للفيروزآبادي: مادة (عقد): ص٣٨٣، وحاشية السندي بهامش سنن النسائي: ٣/ ٨٣.
(٤) أخرجه أبو داود في سننه: ٢/ ١٧٠، برقم (١٥٠٢)، والترمذي في سننه: ٥/ ٤٤٦، برقم (٣٤١١)، والنسائي في سننه: ٣/٨٨، برقم (١٣٥٤). قال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب»، وصححه الذهبي في تلخيص المستدرك. انظر: مستدرك الحاكم ـ مع التلخيص ـ: ١/ ٧٣١ ـ ٧٣٢، برقم (٢٠٠٥)، وكذا صححه الألباني في صحيح سنن أبي داود: ١/ ٤١١، برقم (١٥٠٢).
(٥) سيأتي هذا الحديث بنصه كاملاً مع تخريجه في ص (٥٨٤).

قال نفطويه: «فكل من عظم الله وكبره، ودعاه بأسمائه، فهو مسبح له»[(١)].

وقال الواحدي: «كل من أثنى على الله وبعده عن السوء فقد سبح الله»[(٢)].

وقال أبو بكر الطرطوشي[(٣)]: «فإذا ثبت أن التسبيح هو التنزيه، وقد أمر الله سبحانه عباده بالتسبيح، فكل كلام تضمن تنزيه الله سبحانه وتقديسه عما لا يجوز في صفته فهو تسبيح لله سبحانه.

فإذا قلت: (لا إله إلا الله)، نفيت ما لا يجوز في صفته من شريك في عبادته، مع الإقرار بأنه الإله وحده، فهذا من أعظم التسبيح لله سبحانه»[(٤)].

وقال الإمام ابن قيم الجوزية: «فكل صفة عليا واسم حسن وثناء جميل، وكل حمد ومدح وتسبيح وتنزيه وتقديس وجلال وإكرام، فهو لله ﷻ على أكمل الوجوه وأتمها وأدومها، وجميع ما يوصف به ويذكر به ويخبر عنه فهو محامد له وثناء وتسبيح وتقديس» اهـ[(٥)].

---

(١) مسألة سبحان: ص٥١.

(٢) الوسيط في تفسير القرآن المجيد: ١/ ١١٥.

(٣) هو محمد بن الوليد بن خلف القرشي الفهري، أبو بكر الأندلسي، المعروف بابن رندقه، أو أبي رندقه الطرطوشي، العلامة، شيخ المالكية، كان عالماً فاضلاً، وإماماً زاهداً، له تآليف مفيدة، منها: البدع والحوادث، وكتاب الزهد، والعمد في الأصول، وغيرها. وتوفي سنة (٥٢١هـ) أو التي قبلها، رحمه الله.
انظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي: ١٩/ ٤٩٠ ـ ٤٩٦، وشجرة النور الزكية، لمحمد مخلوف: ص١٢٤.

(٤) الدعاء المأثور وآدابه: ص١٧٨.

(٥) طريق الهجرتين وباب السعادتين، ضبط وتعليق عمر بن محمود أبو عمر: ص٢٣٠ ـ ٢٣١.

❖ المطلب الخامس ❖

إطلاق التسبيح على الاستثناء

ومن المعاني التي ورد بها لفظ التسبيح في القرآن الكريم: الاستثناء[1]، وهو تعليق الأمر بمشيئة الله تعالى، بقول: إن شاء الله مثلاً[2]. والأصل في ورود التسبيح بمعنى الاستثناء قوله تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [القلم: ١٧ ـ ٢٩].

فقوله: ﴿لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾، قال جمهور المفسرين: معنى التسبيح ههنا الاستثناء[3]، أي: هلا تستثنون فتقولوا: إن شاء الله. أنكر عليهم ترك الاستثناء في قولهم ﴿لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾[4].

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ٨/٣، والزاهر في معاني كلمات الناس، لأبي بكر الأنباري: ١/١٤٤، وتهذيب الأسماء واللغات، للنووي: ٣/١٤٢.

(٢) قال الراغب الأصفهاني: «الاستثناء: إيراد لفظ يقتضي رفع بعض ما يوجبه عموم لفظ متقدم، أو يقتضي رفع حكم اللفظ عما هو.
فمما يقتضي رفع بعض ما يوجبه عموم اللفظ قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾ [الأنعام: ١٤٥]. وما يقتضي رفع ما يوجبه اللفظ فنحو قوله: والله لأفعلن كذا، إن شاء الله، وامرأته طالق إن شاء الله، وعبده عتيق إن شاء الله. وعلى هذا قوله تعالى: ﴿لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾﴾ [مفردات ألفاظ القرآن: ص١٧٩].

(٣) انظر: معاني القرآن وإعرابه، للزجاج: ٥/٢٠٨، وزاد المسير، لابن الجوزي: ٨/٣٣٨، ونور المسرى، لأبي شامة: ص٣٩.

(٤) انظر: المصادر السابقة، وتفسير الطبري: ١٢/١٩٤، وتفسير البغوي: ٨/١٩٦.

ويدل على هذا التفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ ۝١٨﴾ أي: ولا يقولون: إن شاء الله[١]. قال أبو شامة: «وليس قولهم ـ بعد ذلك ـ: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ بمناقض لما قاله أهل التفسير، فلا يظن أنهم امتثلوا قول أوسطهم، فسبحوا حينئذٍ، وإنما اعترفوا بالمعصية، ونزهوا الله تعالى عن أن يكون ظالماً بما فعل، وأقروا على أنفسهم بالظلم، خلافاً لما كانوا قالوه أولاً: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ۝٢٧﴾ [القلم: ٢٧]»[٢].

وقال بعض المفسرين: كان استثناؤهم في ذلك الزمان التسبيح. فعن مجاهد ـ في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ [القلم: ٢٨] ـ قال: «يقول: تستثنون، فكان التسبيح فيهم الاستثناء» اهـ[٣]. يعني: أنهم كانوا يقولون: (سبحان الله) مكان قولنا: (إن شاء الله)[٤].

وعلى هذا يكون قولهم ـ بعد ذلك ـ: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ﴾ استثناء استدركوا به ما تركوه عند قولهم: ﴿لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾، ولكن بعد ما وقع العذاب على جنتهم[٥].

ومناسبة ورود التسبيح بمعنى الاستثناء تظهر من وجهين:

الوجه الأول: أن في الاستثناء تعظيما لله ﷻ، وتنزيهاً له عن أن يكون شيء إلا بمشيئته، وإقراراً بأنه لا يقدر أحد أن يفعل شيئاً إلا

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ٨/٣، و١٢/١٨٩، ومفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني: ص٣٩٣.

(٢) نور المسرى في تفسير آية الإسراء: ص٣٩.

(٣) رواه الطبري في تفسيره: ١٢/١٩٤، وانظر: زاد المسير، لابن الجوزي: ٨/ ٣٣٨.

(٤) انظر: تفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني: ٦/٢٦، وتفسير البغوي: ٨/ ١٩٦، والدر المنثور، للسيوطي: ٦/٣٩٧.

(٥) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للشيخ عبد الرحمن السعدي: ص٨٨٠.

بمشيئة الله تعالى[(١)]، فسمي الاستثناء لذلك تسبيحاً؛ لأن التسبيح ـ كما علم ـ: تنزيه الله تعالى عن كل نقص، فلو وقع شيء في الوجود على خلاف إرادة الله سبحانه لكان ذلك يوجب نقصاً في قدرة الله تعالى، والاستثناء يزيل هذا النقص، فكان تسبيحاً[(٢)].

والوجه الثاني: أن الاستثناء ذكر لله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ [الكهف: ٢٣ ـ ٢٤][(٣)].

فقوله: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ معناه: إذا نسيت الاستثناء فاستثن عند ذكرك له[(٤)]، فسمى الاستثناء ذكراً للرب تعالى، وقد تقدم أن التسبيح يطلق على جميع ألفاظ الذكر، لتضمنها التنزيه والتعظيم لله تعالى والثناء عليه[(٥)]، والله الموفق.

---

(١) انظر: معاني القرآن وإعرابه، للزجاج: ٥/ ٢٠٨ ـ ٢٠٩، وتفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني: ٦/ ٢٥ ـ ٢٦، وتفسير البغوي: ٨/ ١٩٦، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي ١٨/ ٢٤٤، وتفسير النسفي: ٣/ ٥٢٢.

(٢) انظر: التفسير الكبير، للفخر الرازي: ٣٠/ ٩٠.

(٣) قال الإمام ابن القيم: «وتفسير الآية عند جماعة المفسرين: أنك لا تقل لشيء أفعل كذا وكذا حتى تقول: إن شاء الله، فإذا نسيت أن تقولها، فقلها متى ذكرتها. وهذا هو الاستثناء المتراخي الذي جوزه ابن عباس، وتأول عليه الآية، وهو الصواب» [مدارج السالكين: ٢/ ٤٠٣].

وقال الحافظ ابن كثير: «ومعنى قول ابن عباس أنه يستثني ولو بعد سنة، أي: إذا نسي أن يقول في حلفه وفي كلامه: إن شاء الله، وذكر ولو بعد سنة، فالسنة له أن يقول ذلك، ليكون آتياً بسنة الاستثناء حتى ولو كان بعد الحنث» [تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٨٣].

(٤) انظر: تفسير الطبري: ٨/ ٢٠٨، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٣/ ٨٣.

(٥) انظر: ص(٩٨) من هذا البحث.

❖ المطلب السادس ❖

إطلاق التسبيح على العبادة

وذكر بعض العلماء في معاني التسبيح أنه يطلق عاماً على العبادة قولاً كانت أو فعلاً أو نية[(١)].

وحمل على هذا المعنى قول الله تعالى ـ عن نبيه يونس عليه السلام ـ: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ۝١٤٣﴾ [الصافات: ١٤٣].

ففي رواية عن وهب بن منبه[(٢)] ـ في تفسير هذه الآية ـ قال: «من العابدين. قال: فذكر لعبادته»[(٣)].

وفي تفسير الآية أقوال أخرى سيأتي بيانها ـ إن شاء الله ـ عند الكلام على تسبيح نبي الله يونس عليه السلام[(٤)].

وإذا أطلق التسبيح على العبادة فإما أن يراد به العبادة بمعنى التعبد، وهو التذلل للمعبود محبة له وتعظيماً، فيكون من باب إطلاق الشيء على مقتضاه ولازمه؛ لأن التسبيح هو التنزيه والتعظيم لله تعالى، وهذا المعنى يقتضي التذلل والمحبة لله عز وجل ويستلزمهما. وإما أن يراد

---

(١) انظر: مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني: ص٣٩٢، وعمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، للسمين الحلبي: ص٢٢٩.

(٢) هو وهب بن منبه بن كامل اليماني الصنعاني، أبو عبد الله الأبناوي، عالم أهل اليمن، كان تابعياً ثقة واسع العلم، وكان ينظر بكعب الأحبار في زمانه، وعنده من علم أهل الكتاب شيء كثير، وكان على قضاء صنعاء، وتوفي سنة (١١٤هـ)، رحمه الله. انظر: تذكرة الحفاظ، للذهبي: ١/ ١٠٠ ـ ١٠١، وتقريب التهذيب، لابن حجر: ٢/ ٣٤٥.

(٣) رواه عبد الرزاق الصنعاني في تفسير القرآن: ٢/ ١٥٦. وانظر: تفسير البغوي: ٧/ ٦٠.

(٤) انظر: ص(٢٩٣ ـ ٣٠١) من هذا البحث.

به العبادة بمعنى المتعبد به، وهو كل ما يتعبد به لله تعالى، من قول أو فعل أو اعتقاد[١]، فيكون من باب إطلاق جزء الشيء على كله، لإبراز منزلة هذا الجزء من الكل، فإن العبادة شاملة للتسبيح وغيره من القربات.

وهناك مناسبة أخرى لورود التسبيح بمعنى العبادة، وهي أن كل عبادة من العبادات وإن كانت مشروعة بأصلها، فشرط تحقق التعبد بها لله تعالى أن يخلص العبد نيته فيها لله وحده لا شريك له، كما قال سبحانه: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥].

وقد قال الزجاج: «كل من عمل عملاً قصد به الله فقد سبح» اهـ[٢]، وذلك لأن التسبيح ـ كما سبق تقريره ـ: تنزيه الله تعالى اعتقاداً وقولاً وعملاً عما لا يليق به سبحانه[٣].

فالعبادة ـ قولاً كانت أو فعلاً أو اعتقاداً ـ وإن لم تشتمل على قول (سبحان الله)، فإن إخلاصها لله سبحانه تنزيه له ﷻ عن أن يكون له شريك في العبادة، أو أن يستحق العبادة أحد غير الله تعالى[٤]، فكل عبادة تسبيح بهذا المعنى، لأنها تنزيه لله سبحانه عن كون العبد يصرفها لغيره تبارك وتعالى[٥].

---

(١) انظر في معنى العبادة: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٠/١٤٩، ١٥٣، وتقريب التدمرية، للشيخ محمد بن صالح العثيمين، باعتناء سيد بن عباس الحليمي: ص١١٣.

(٢) معاني القرآن وإعرابه: ١/ ١١٠.

(٣) انظر: ص(٧٦) من هذا البحث.

(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي: ص٦٣٨.

(٥) انظر: المصدر السابق: ص٧٣٢.

❖ المطلب السابع ❖

تسمية التسبيح دعاء

ومما يتصل بمعاني التسبيح في الشرع: تسمية التسبيح دعاء، كما في قول الله تعالى: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ [يونس: ١٠]، حيث أخبر تعالى أن التسبيح بلفظ: (سبحانك اللهم) هو دعوى أهل الجنة فيها[١]، و(الدعوى) مثل الدعاء، يقال: دعاه دعاء ودعوى[٢].

وكما في حديث سعد[٣] رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**دعوة ذي النون[٤] إذ دعا بها وهو في بطن الحوت: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾** [الأنبياء: ٨٧] **لم يدع بها رجل مسلم في شيء قط إلا استجاب الله له**»[٥]. فسمى ﷺ القول المشتمل على

---

(١) انظر: الكلام على تسبيح أهل الجنة فيها في ص(٣٧١ ـ ٣٨٥).

(٢) انظر: لسان العرب، لابن منظور: مادة (دعو): ١٤/ ٢٥٧.

(٣) هو سعد بن أبي وقاص: مالك بن وهيب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب الزهري، أبو إسحاق، أحد العشرة المبشرين بالجنة، وأول من رمى بسهم في سبيل الله، ومناقبه كثيرة، توفي سنة (٥٥هـ) على المشهور، وهو آخر العشرة وفاة، رضي الله تعالى عنه وأرضاه. انظر: الإصابة، لابن حجر: ٣/ ٧٣ ـ ٧٧، وتقريب التهذيب، له: ١/ ٢٨٢.

(٤) النون: الحوت، جمعه نينان وأنوان [القاموس المحيط، للفيروزآبادي: مادة (نون): ص١٥٩٦]. وذو النون: لقب نبي الله يونس بن متى عليه السلام، كما يقال له: صاحب الحوت؛ لأن الحوت التقمه، كما ذكر الله تعالى ذلك في القرآن الكريم. وانظر: تفسير الطبري: ٩/ ٧٣، وزاد المسير، لابن الجوزي: ٥/ ٣٨١، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٣/ ٢٠١.

(٥) أخرجه الترمذي في سننه: ٥/ ٤٩٥، برقم (٣٥٠٥)، والنسائي في سننه الكبرى، تحقيق الدكتور عبد الغفار البنداري، وسيد كسروي: ٦/ ١٦٨، برقم (١٠٤٩٢)، وصححه الحاكم في المستدرك: ١/ ٦٨٤، برقم (١٨٦٢)، ووافقه الذهبي، كما صححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٣٣٨٣).

التهليل والتسبيح دعوة، و(الدعوة) هي المرة الواحدة من الدعاء[١].

ومثل تسمية التسبيح دعاء: تسمية التحميد دعاء في قول رسول الله ﷺ: «**أفضل الدعاء الحمد لله**»[٢]، وتسمية ما يقال عند الكرب دعاء، كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان النبي ﷺ يدعو عند الكرب، يقول: «**لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السماوات ورب الأرض ورب العرش الكريم**»»[٣]. وكان السلف يدعون بهذا الدعاء، ويسمونه دعاء الكرب[٤].

وقد استشكل بعضهم تسمية التسبيح وغيره من أنواع الذكر والثناء دعاء، بدعوى أن الدعاء طلب، والذكر والثناء ليس فيه - فيما يظهر - طلب، فكيف يسمى دعاء؟!

وذلك مثل ما جاء في الأثر عن الحسين بن الحسن المروزي[٥]

---

(١) انظر: لسان العرب، لابن منظور: مادة (دعو): ١٤/ ٢٥٨.

(٢) جزء حديث أخرجه الترمذي في سننه: ٥/ ٤٣١، برقم (٣٣٨٣)، وابن ماجه في سننه: ٢/ ١٢٤٩، برقم (٣٨٠٠)، والنسائي في سننه الكبرى: ٦/ ٢٠٨، برقم (١٠٦٦٧)، وصححه الحاكم في المستدرك: ١/ ٦٧٦، برقم (١٨٣٤)، و١/ ٦٨١ - ٦٨٢، برقم (١٨٥٢)، ووافقه الذهبي، وحسنه الألباني في صحيح الجامع، برقم (١١٠٤).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه - مع الفتح -: ١١/ ١٤٥، برقم (٦٣٤٦)، ومسلم في صحيحه: ٤/ ٢٠٩٢، برقم (٢٧٣٠).

(٤) انظر: المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، لأبي العباس القرطبي: ٧/ ٥٦، والجامع لأحكام القرآن، لأبي عبد الله القرطبي: ٨/ ٣١٤.

(٥) هو الحسين بن الحسن بن حرب السلمي، أبو عبد الله المروزي، نزيل مكة، صدوق، توفي سنة (٢٤٦هـ)، رحمه الله. انظر: تهذيب التهذيب، لابن حجر: ٢/ ٣٣٤، وتقريب التهذيب، له: ١/ ١٧٥.

قال: «سألت ابن عيينة[(١)] عن الحديث الذي فيه: «أكثر ما كان يدعو به النبي ﷺ بعرفة: **لا إله إلا الله وحده لا شريك له**» الحديث[(٢)]. فقلت له: هذا ثناء وليس بدعاء! فقال: هو ذكر وليس فيه دعاء، ولكن قال النبي ﷺ عن ربه ﷻ: «**من شغله ذكري عن مسألتي ـ وفي رواية: إذا شغل عبدي ثناؤه علي عن مسألتي ـ أعطيته أفضل ما أعطي السائلين**»[(٣)].

---

(١) هو سفيان بن عيينة بن أبي عمران ميمون الهلالي، أبو محمد الكوفي ثم المكي، الإمام الحجة الحافظ الفقيه شيخ الإسلام، كان ثقة في الحديث، واسع العلم، كبير القدر، وتوفي سنة (١٩٨هـ)، وله إحدى وتسعون سنة، رحمه الله تعالى. انظر: تذكرة الحفاظ، للذهبي: ١/ ٢٦٢ ـ ٢٦٥، وتقريب التهذيب، لابن حجر: ١/ ٣٠٣.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده: ٢/ ٢١٠، بزيادة: «له الملك وله الحمد، بيده الخير، وهو على كل شيء قدير»، والترمذي بنحوه في سننه: ٥/ ٥٣٤، برقم (٣٥٨٥)، كلاهما من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ﵄، وفي إسنادهما محمد بن أبي حميد الملقب بحماد، وهو ضعيف في الحديث، كما في ميزان الاعتدال، للذهبي: ٣/ ٥٣١، وتقريب التهذيب، لابن حجر: ٢/ ١٦٦. وللحديث شاهد من حديث طلحة بن عبيد الله بن كريز مرفوعاً، أخرجه مالك في الموطأ: ١/ ٣٣٧، كتاب الحج، برقم (٢٤٦)، وإسناده صحيح إلا أنه مرسل. وله شاهد آخر من حديث علي ﵁، أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه: ١٠/ ٣٧٣ ـ ٣٧٤، برقم (٩٧٠٥) وفي إسناده قيس بن الربيع، وفيه مقال، وانظر: ميزان الاعتدال للذهبي: ٣/ ٣٩٣ ـ ٣٩٦، وتهذيب التهذيب، لابن حجر: ٨/ ٣٩١ ـ ٣٨٥، وبهذين الشاهدين يكون الحديث حسناً لغيره، وانظر: السلسلة الصحيحة، للألباني، برقم (١٥٠٣).

(٣) أخرجه البخاري في خلق أفعال العباد ـ ضمن عقائد السلف، لعلي النشار ـ ص٢٠٥، من حديث عمر بن الخطاب ﵁، وفي إسناده ضرار ـ وهو ابن صرد ـ متكلم فيه، كما في ميزان الاعتدال، للذهبي: ٢/ ٣٢٧. وفيه أيضاً: صفوان بن أبي الصهباء، قال فيه الحافظ ابن حجر: «مقبول» [تقريب التهذيب: ١/ ٣٥١].

=

قال: وقال أمية بن أبي الصلت[١] - حين أتى ابن جدعان[٢] يطلب فضله ونائله -:

أأطلب حاجتي أم قد كفاني ... حياؤك إن شيمتك الحياء
إذا أثنى عليك المرء يوماً ... كفاه من تعرضك الثناء[٣]

ثم قال سفيان: يا حسين، هذا مخلوق حين نسب إلى الكرم اكتفى بالثناء عليه عن مسألته، فكيف بالخالق جل وعز؟!» اهـ[٤].

= وأخرجه الترمذي بنحوه في سننه: ١٦٩/٥، برقم (٢٩٢٦)، من حديث أبي سعيد الخدري، وقال: «حديث حسن غريب»، وفي إسناده محمد بن الحسن بن أبي يزيد الهمداني، وهو ضعيف، كما في ميزان الاعتدال، للذهبي: ٣/ ٥١٤ - ٥١٥، وتقريب التهذيب، لابن حجر: ٢/ ١٦٤، وذكر الذهبي الحديث في ترجمته وقال: «حسنه الترمذي فلم يحسن». والحديث ضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة، برقم (١٣٣٥).

(١) هو أمية بن أبي الصلت عبد الله بن ربيعة بن عوف الثقفي، شاعر جاهلي من أهل الطائف، كان يتعبد في الجاهلية، وينبذ عبادة الأوثان، وينشد في أبياته الشعر المليح، وأدرك الإسلام ولم يسلم، وقال النبي ﷺ - لما سمع بعض أبياته -: (إن كاد ليسلم في شعره)، كما رواه مسلم في صحيحه: ٤/ ١٧٦٧، برقم (٢٢٥٥). وانظر: تهذيب الأسماء واللغات، للنووي: ١/ ١٢٦، والأعلام، للزركلي: ٢/ ٢٣.

(٢) هو عبد الله بن جدعان التيمي، أحد الأجواد المشهورين في الجاهلية، أدرك النبي ﷺ قبل النبوة، ويذكر في حكام العرب في الجاهلية. انظر: الأعلام، للزركلي: ٤/ ٧٦.

(٣) انظر: ديوان أمية بن أبي الصلت: ص١٧.

(٤) هذا الأثر أورده الخطابي في شأن الدعاء: ص٢٠٦ - ٢٠٧، وابن عبد البر في التمهيد: ٦/ ٤٣ - ٤٤، والقرطبي في تفسيره (الجامع لأحكام القرآن): ٨/ ٣١٤، وشيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع فتاواه: ١٠/ ٢٤٥، والإمام ابن قيم الجوزية في مطالع السعد بكشف مواقع الحمد: ص٨٨ - ٩٠، والحافظ ابن حجر في فتح الباري: ١١/ ١٤٧.

واستشكال تسمية التسبيح وغيره من الذكر دعاء ناشئ عن القصور في العلم بحقيقة الدعاء في الكتاب والسنة، فإن الدعاء فيهما ليس خاصاً بالطلب والمسألة، بل هو أعم من ذلك. قال ابن جرير الطبري: «والدعاء لله: يكون بذكره وتمجيده والثناء عليه قولاً وكلاماً، وقد يكون بالعمل له بالجوارح الأعمال التي كان عليهم فرضها، وغيرها من النوافل التي ترضي عن العامل له عابده بما هو عامل له»(١).

وقال الزجاج: «معنى الدعاء لله ﷻ على ثلاثة أضرب: فضرب منها توحيده والثناء عليه، كقولك: يا الله، لا إله إلا أنت. وكقولك: ربنا لك الحمد، إذا قلته فقد دعوته بقولك: ربنا، ثم أتيت بالثناء والتوحيد. ومثله قوله: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى﴾ [غافر: ٦٠] أي: عن توحيدي والثناء علي، فهذا ضرب من الدعاء.

والضرب الثاني: مسألة الله العفو والرحمة وما يقرب منه، كقولك: اللهم اغفر لنا.

والضرب الثالث: مسألة الحظ من الدنيا، كقولك: اللهم ارزقني مالاً وولداً، وما أشبه ذلك» اهـ(٢).

وما ذكره الزجاج هنا راجع في الحقيقة إلى نوعين؛ لأن الضرب الثاني والثالث يشتركان في أنهما مسألة لحظّ العبد في الدنيا أو في الآخرة، فهما نوع واحد، مع الضرب الأول، فصار نوعين.

وحاصل ما سبق في كلام ابن جرير الطبري والزجاج أن الدعاء لله تعالى ثلاثة أنواع:

أحدها: ذكر الله ﷻ وتمجيده والثناء عليه.

---

(١) تفسير الطبري: ٢٠٣/٥ ـ ٢٠٤.
(٢) معاني القرآن وإعرابه: ٢٥٥/١.

والثاني: العمل لله سبحانه بالجوارح بفعل العبادات الواجبة والمندوبة.

والثالث: مسألة الله تعالى ما ينفع العبد الداعي في دنياه وأخراه.

وقد ذكر الإمام ابن قيم الجوزية أن دعاء الله بأسمائه الحسنى يتناول هذه الأنواع الثلاثة، وهي: دعاء المسألة، ودعاء الثناء، ودعاء التعبد[1].

وقد ترد هذه الأنواع المذكورة إلى نوعين، وهما: دعاء المسألة، ودعاء العبادة[2].

فدعاء المسألة كما ذكر، ودعاء العبادة شامل لذكر الله تعالى الذي هو دعاء الثناء، ولفعل القربات العملية الذي هو دعاء التعبد، وهو أشرف النوعين؛ لأنه حق الرب سبحانه ووصفه، ودعاء المسألة حظ العبد ومصلحته[3].

والمقصود هنا أن الدعاء في الكتاب والسنة يتناول الطلب والسؤال، والتسبيح ونحوه من ألفاظ الذكر والثناء، كما يتناول سائر العبادات الظاهرة والباطنة.

وسمي التسبيح دعاء وإن كان ثناء محضاً؛ لأن الدعاء هو قصد

---

(١) انظر: مدارج السالكين: ١/ ٤٢٠ ـ ٤٢١.

(٢) وهذان النوعان قد ذكرهما شيخ الإسلام ابن تيمية في عدة مواضع من مؤلفاته، وكذا تلميذه الإمام ابن قيم الجوزية، وغيرهما من العلماء. وانظر ـ مثلاً ـ: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١/ ٦٩ و٢/ ٤٥٦، و١٠/ ٢٣٧ ـ ٢٣٨، ٢٥٨ و١٥/ ١٠ و٢٢/ ٤٩٨. وبدائع الفوائد، لابن القيم: ٢/ ٣، وزاد المعاد، له: ١/ ٢٣٥، ومدارج السالكين، له أيضاً: ٢/ ٤٠٦، والقواعد الحسان لتفسير القرآن، للشيخ عبد الرحمن السعدي: ص١٢٦.

(٣) انظر: الدعاء المأثور وآدابه، للطرطوشي: ص١٤٥، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٠/ ٢٦٣، وبدائع الفوائد، لابن القيم: ١/ ٤٢٩ ـ ٤٣٠.

المدعو تارة لذاته، وتارة لمسألته أمراً منه[١]، والمثني على ربه تعالى بتسبيحه أو بتحميده أو بتوحيده داع له بالاعتبارين، فإنه طالب منه، طالب له، فهو أحق أن يسمى داعياً من السائل الطالب من ربه حاجة ما، فنفس التسبيح والثناء متضمن لأعظم الطلب، فهو دعاء حقيقة، بل هو أحق باسم الدعاء من غيره من أنواع الطلب الذي دونه[٢].

وبهذا البيان يزول الإشكال الوارد على تسمية التسبيح دعاء، إذ تبين أن التسبيح دعاء حقيقة، وهو دعاء ثناء وذكر وعبادة لله ﷻ متضمن طلب القبول والرضا والثواب منه سبحانه.

وهذا أحسن مما قيل: إن الثناء ـ كالتسبيح ونحوه ـ سمي دعاء لما تضمنه من تعرض المثني للنوال، وإن لم يكن مصرحاً بالسؤال، كما سبق في الأثر عن الحسين بن الحسن المروزي.

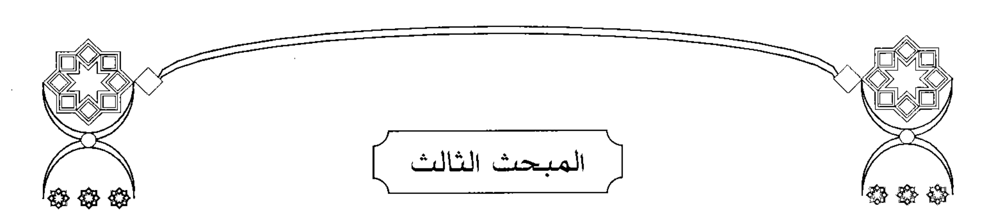
وأحسن كذلك مما قيل: إن الثناء سمي دعاء؛ لأن الداعي يفتتح دعاءه بالثناء على الله تعالى، ويقدمه أمام مسألته، فسمي الثناء دعاء إذ كان مقدمة له وذريعة إليه، من باب تسمية الشيء باسم سببه[٣].

وأحسن أيضاً مما قيل: إن الثناء سمي دعاء؛ لأنه بمنزلة الدعاء في استيجاب ثواب الله وجزائه[٤].

فهذه الأقوال كلها حسنة، لكن ما سبق بيانه من أن الثناء نفسه دعاء حقيقة أحسن وأولى بدلالة الكتاب والسنة، والله تعالى أعلم.

---

(١) انظر: بيان تلبيس الجهمية، لشيخ الإسلام ابن تيمية: ٢/٤٥٣.
(٢) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٥/١٩، وبدائع الفوائد، لابن القيم: ٢/١٢، مطالع السعد بكشف مواقع الحمد، له: ص٩٠.
(٣) انظر: معاني القرآن وإعرابه، للزجاج: ١/٢٥٥، وشأن الدعاء، للخطابي: ص٢٠٦، والمفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، للقرطبي: ٧/٥٦ ـ ٥٧، وفتح الباري، لابن حجر العسقلاني: ١١/١٤٧،
(٤) انظر: النهاية في غريب الحديث، لابن الأثير: ٢/١٢٢.



الألفاظ الدالة على معنى التسبيح

❑ **توطئة:**

تقدم أن كل لفظ دل على الثناء على الله تعالى وتعظيمه فهو تسبيح[1]؛ لأن فيه تنزيهاً لله سبحانه إما بالمطابقة أو التضمن أو الالتزام.

ولا شك أن الألفاظ الدالة على معنى التسبيح ـ بهذا المفهوم ـ كثيرة جداً، ولا سبيل إلى الإحاطة بها في هذا المبحث، ولا هي المقصودة هنا، وإنما المقصود هنا: الألفاظ الواردة في الكتاب والسنة دالة بالمطابقة على تنزيه الله تعالى، وهي ـ حسب ما تبين لي ـ تتمثل في الألفاظ التالية:

١ ـ التقديس، ومنه (القدوس) من أسماء الله الحسنى.

٢ ـ السلام، من أسماء الله الحسنى.

٣ ـ تعالى، مسنداً إلى الله ﷻ.

٤ ـ حاش لله.

٥ ـ النفي الوارد في حق الله تعالى.

* * *

(١) انظر: ما سبق من الكلام على التسبيح بمعنى الذكر عموماً: في ص (٩٨).

فهذه الألفاظ ـ فيما يظهر من كلام أهل العلم ـ ترادف التسبيح في الدلالة على التنزيه والتعظيم لله ﷻ، فكان بيانها في مباحث التسبيح مهما، وذلك في المطالب الآتية:

❖ المطلب الأول ❖

التقديس

التقديس: على وزن التفعيل كالتسبيح، وهو كذلك مصدر كالتسبيح، من الفعل: قدّس، يقدّس، تقديساً. وأصل مادته (قدس)، ومعناه: الطهر.

قال ابن فارس: «القاف والدال والسين أصل صحيح، وأظنه من الكلام الشرعي الإسلامي(١)، وهو يدل على الطهر»(٢).

وقال ابن القيم: «أصل الكلمة من الطهارة والنزاهة. ومنه: بيت المقدس(٣)؛ لأنه مكان يتطهر فيه من الذنوب، ومن أمّه لا يريد إلا الصلاة فيه رجع من خطيئته كيوم ولدته أمه(٤). ومنه سميت الجنة

---

(١) يعني أن هذا اللفظ لم يشتهر استعماله إلا في الإسلام، وهو في ذلك كلفظ التسبيح، كما سبق ذكره، في (ص٦٧).

(٢) مقاييس اللغة: ٥/ ٦٣.

(٣) بيت المقدس ـ بفتح الميم، وسكون القاف، وتخفيف الدال وكسرها ـ: المسجد الأقصى وهو مسجد كبير متسع الأقطار، في وسط مدينة كبيرة تسمى المقدس، وهي القدس في فلسطين. انظر: مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، لصفي الدين البغدادي، تحقيق علي محمد البجاوي: ٣/ ١٢٩٦، والروض المعطار في خبر الأقطار، لمحمد بن عبد المنعم الحميري: ص٥٥٦ ـ ٥٥٧.

(٤) جاء ذلك في حديث عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً، أخرجه النسائي في سننه: ٢/ ٣٦٤، برقم (٦٩٢) وابن ماجه في سننه: ١/ ٤٥١ ـ ٤٥٢، برقم =

حظيرة القدس[(١)]، لطهارتها من آفات الدنيا. ومنه سمي جبريل روح القدس[(٢)]؛ لأنه طاهر من كل عيب» اهـ[(٣)].

فالتقديس: معناه التطهير، يقال: قدّسه، أي طهره[(٤)]. ومعناه ـ في حق الله تعالى ـ: تنزيه الله ﷻ[(٥)]. ومنه اسمه تعالى (القدوس)، كما سيأتي الكلام فيه قريباً إن شاء الله.

وقد جاء التقديس مقروناً بالتسبيح في قول الله سبحانه ـ حكاية عن الملائكة ـ: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠].

واختلف أهل العلم في معنى كل من التسبيح والتقديس في هذه الآية، حيث قرن بينهما:

فجعل بعضهم التسبيح على أصله، وجعلوا التقديس راجعاً إلى الملائكة، فقالوا: معنى ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ أي: ونطهر أنفسنا لك، أي:

= (١٤٠٨). وإسناد النسائي رجاله ثقات كلهم، والحديث صححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه: ١/ ٤٢١، برقم (١١٦٤).

(١) جاء تسمية الجنة حظيرة القدس في حديث أبي أمامة ؓ أخرجه أحمد في مسنده: ٥/ ٢٥٧، بإسناد ضعيف. انظر: مجمع الزوائد، للهيثمي: ٥/ ٦٩. وجاء في حديث أنس ؓ، أخرجه البزار ـ كشف الأستار (٣/ ٣٥٩)، برقم (٢٩٣٩) و٣/ ٣٨٠ ـ ٣٨١، برقم (٣٠٠٢)، وقال الهيثمي: «فيه شعيب بن بيان، قال الذهبي: صدوق. وضعفه الجوزجاني والعقيلي، وبقية رجاله ثقات» [مجمع الزوائد: ٥/ ٧٦].

(٢) كما في قول الله تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [النحل: ١٠٢].

(٣) شفاء العليل: ٢/ ٦٤ ـ ٦٥.

(٤) انظر: مسألة سبحان، لنفطويه: ص٣٠، وإعراب القرآن، لقوام السنة أبي القاسم الأصبهاني: ص٢٨، والنهاية في غريب الحديث، لابن الأثير: ٤/ ٢٣.

(٥) انظر: لسان العرب، لابن منظور: مادة (قدس): ٦/ ١٦٨.

نطهر أفعالنا من المعاصي، وقلوبنا من الالتفات إلى غيرك[١].

ويترتب على هذا القول حذف مفعول (نقدس) من دون دليل يدل عليه، ولهذا لم يرتضه الإمام ابن القيم، فقال ـ بعد حكايته ـ: «وهذا ليس بشيء»[٢].

وقال بعضهم: التسبيح: التسبيح ـ يعني على أصله ـ، والتقديس: الصلاة[٣].

وعكس غيرهم فقالوا: التسبيح: الصلاة، والتقديس: التطهير والتعظيم[٤].

وذهب آخرون إلى أن التسبيح: هو التنزيه والتبرئة، على أصله. والتقديس: هو التنزيه والتعظيم ونسبته تعالى إلى ما هو من صفاته من الطهارة[٥].

قال ابن جرير الطبري: «فمعنى قول الملائكة إذاً: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾، ننزهك ونبرئك مما يضيفه إليك أهل الشرك بك، ونصلي لك. ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾، ننسبك إلى ما هو من صفاتك من الطهارة من الأدناس وما أضاف إليك أهل الكفر بك»[٦].

---

(١) انظر: معاني القرآن وإعرابه، للزجاج: ١/ ١١٠، وتفسير البغوي: ١/ ٧٩، وزاد المسير، لابن الجوزي: ١/ ٦١، والبحر المحيط، لأبي حيان: ١/ ٢٩١، والدر المصون، للسمين الحلبي: ١/ ٢٥٧.

(٢) شفاء العليل: ٢/ ٦٥.

(٣) انظر: تفسير الطبري: ١/ ٢٤٨، ٢٤٩، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ١/ ٢٧٧، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ١/ ٧٥.

(٤) انظر: تفسير الطبري: ١/ ٢٤٨ ـ ٢٤٩.

(٥) انظر: شفاء العليل، لابن القيم: ٢/ ٦٥.

(٦) تفسير الطبري: ١/ ٢٤٨، وانظر: تفسير البغوي: ١/ ٧٩.

قال: «وأما قول من قال: إن التقديس: الصلاة أو التعظيم، فإن معنى قوله ذلك راجع إلى المعنى الذي ذكرناه من التطهير، من أجل أن صلاتها لربها تعظيم منها له، وتطهير مما ينسبه إليه أهل الكفر به» اهـ[(١)].

وهذا الذي قرره ابن جرير الطبري هو الصواب في تفسير الآية إن شاء الله تعالى. وبه يتبين التقارب بين التقديس والتسبيح في المعنى، وحسن عطف أحدهما على الآخر لاختلاف لفظيهما، وعليه يكون قول الملائكة: ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ توكيداً لقولهم: ﴿نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾، والله تعالى أعلم.

ومن أسماء الله تعالى الحسنى: القدوس، وهو ثابت بالكتاب والسنة. أما الكتاب، ففي قول الله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ﴾ [الحشر: ٢٣] وقوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ﴾ [الجمعة: ١].

وأما السنة، ففي حديث أبي بن كعب[(٢)] ـ رضي الله عنه ـ قال: «كان رسول الله ﷺ إذا سلم في الوتر قال: **(سبحان الملك القدّوس)**»[(٣)].

والقدّوس: على وزن (فعّول)، مأخوذ من التقديس[(٤)]، وهو من

---

(١) المصدر السابق: ١/ ٢٤٩.

(٢) هو أبي بن كعب بن قيس الأنصاري الخزرجي النجاري، أبو المنذر، وأبو الطفيل، أحد القراء الكبار، وأحد فضلاء الصحابة الكرام، شهد بدراً وغيرها من المشاهد مع رسول الله ﷺ، وكتب له الوحي، وتوفي بالمدينة ودفن بها، واختلف في سنة وفاته اختلافاً كثيراً ما بين (١٩ ـ ٣٢هـ)، رضي الله عنه وأرضاه. وانظر: الإصابة، لابن حجر: ١/ ٢٧ ـ ٢٨، وتقريب التهذيب: له، ١/ ٦٢.

(٣) أخرجه أبو داود في سننه: ٢/ ١٣٧، برقم (١٤٣٠)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود: ١/ ٢٦٨، برقم (١٢٦٧).

(٤) انظر: تفسير غريب القرآن، لابن قتيبة، تحقيق السيد أحمد صقر: ص٨، وبيان تلبيس الجهمية، لشيخ الإسلام ابن تيمية: ٢/ ٥٣٧.

أبنية المبالغة[١]، وفيه لغتان: ضم القاف، وفتحها، والضم أكثر وأفصح في الكلام، والفتح أقيس في الأسماء[٢].

وللعلماء في معنى هذا الاسم الكريم أقوال:

أحدها: أن معناه: الطاهر من كل عيب ونقص، البليغ في النزاهة عن كل ما يستقبح[٣].

والثاني: أن معناه: المقدس، أي: المنزه عن النقائص الموصوف بصفات الكمال[٤].

والثالث: أن معناه: المستحق للتطهير[٥].

والرابع: أن معناه: الممدوح بالفضائل والمحاسن[٦].

---

(١) انظر: النهاية في غريب الحديث، لابن الأثير: ٤/ ٢٣.

(٢) انظر: معاني القرآن وإعرابه، للزجاج: ٥/ ١٥٢، والزاهر في معاني كلمات الناس، لأبي بكر الأنباري: ١/ ١٤٨، والمحكم والمحيط الأعظم في اللغة، لابن سيده: ٣/ ١٥٤ ـ ١٥٥، وإعراب القرآن، لأبي القاسم الأصبهاني: ص٢٨، والنهاية في غريب الحديث، لابن الأثير: ٤/ ٢٣، وتاج العروس، للزبيدي: ٦/ ٤٤٧ ـ ٤٤٨.

(٣) انظر: معاني القرآن وإعرابه، للزجاج: ٥/ ١٥٠، ١٥٢، وكتاب التوحيد، لابن منده، تحقيق الدكتور علي بن محمد بن ناصر الفقيهي: ٢/ ٦٦، والاعتقاد، للبيهقي، بتعليق أحمد عصام الكاتب: ص٥٤، وتفسير البغوي: ٨/ ٨٧، وتفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني: ٥/ ٤٠٨، والنهاية في غريب الحديث، لابن الأثير: ٤/ ٢٣، وشفاء العليل، لابن القيم: ٢/ ٦٤، والعلم الهيب، لبدر الدين العيني: ص٢٨٤.

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٤/ ٣٨٨.

(٥) انظر: إعراب القرآن، لأبي القاسم الأصبهاني: ص٢٧.

(٦) انظر: المنهاج في شعب الإيمان، للحليمي، ١/ ١٩٧، والأسماء والصفات، للبيهقي: ١/ ١٠٧.

والخامس: أن معناه: المبارك الذي كثرت بركته[١].

وهذه الأقوال كلها متفقة في المعنى، وإنما اختلفت في العبارة فقط، وكلها معان صحيحة.

وكما قرن بين التسبيح والتقديس في الآية المتقدم ذكرها، جاء في السنة القرن بين اسم الله تعالى (السبوح) واسمه تعالى (القدوس)، وذلك فيما روته عائشة أم المؤمنين ﵂: «أن رسول الله ﷺ كان يقول في ركوعه وسجوده: (**سبوح قدوس رب الملائكة والروح**)»[٢].

وسيأتي الكلام على (السبوح) عند بيان منزلة التسبيح في العقيدة، إن شاء الله تعالى[٣].

وقد تبين بما سبق أن التقديس كالتسبيح وزنا ومعنى، وكذلك القدوس والسبوح في الوزن والمعنى.

وذهب الحليمي[٤] في كلام له إلى أن التقديس هو إثبات المدائح له تعالى المتضمن نفي المذام عنه سبحانه، وأن التسبيح هو نفي المذام عن الله سبحانه المتضمن إثبات المدائح له تعالى، فقولنا: هو كذا، ظاهره التقديس، وقولنا: ليس بكذا، ظاهره التسبيح.

فالتسبيح موجود في ضمن التقديس، والتقديس موجود في ضمن

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ١٢/ ٥١ ـ ٥٢، ومعاني القرآن وإعرابه، للزجاج: ٥/ ١٥٢، وشأن الدعاء، للخطابي: ص٤٠، وتفسير الخازن: ٤/ ٤٧٧.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه: ١/ ٥٣، برقم (٤٨٧).

(٣) انظر: ص(٤٧٩ ـ ٤٨١) من هذا البحث.

(٤) هو الحسين بن الحسن بن محمد بن حليم البخاري، أبو عبد الله الحليمي الشافعي، كان علامة متفننا، سيال الذهن مناظراً، طويل الباع في الأدب والبيان، وله مصنفات نفيسة، منها: المنهاج في شعب الإيمان، وتوفي سنة (٤٠٣هـ)، ﵀ ـ انظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي: ١٧/ ٢٣١ ـ ٢٣٣.

التسبيح. قال: «وقد جمع الله تبارك وتعالى بينهما في سورة الإخلاص، فقال ﷻ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾، فهذا تقديس. ثم قال: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾، فهذا تسبيح. والأمران معاً راجعان إلى إفراده وتوحيده، ونفي الشريك والتشبيه عنه» اهـ[1].

ومفاد كلامه هذا أن التقديس إيجاب يتضمن سلباً، وأن التسبيح سلب يتضمن إيجاباً، وأن صفات الله تعالى المثبتة داخلة في معنى التقديس، وصفات الله تعالى المنفية داخلة في معنى التسبيح، وهذا تقرير جيد لمعنى التقديس والتسبيح، وما بينهما من المناسبة، والله تعالى أعلم.

❖ المطلب الثاني ❖

السلام

السلام اسم من أسماء الله تعالى الحسنى الثابتة بالكتاب والسنة. قال الله ﷻ: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ﴾ [الحشر: ٢٣]. وفي حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في التشهد أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله هو السلام**»[2].

وعن ثوبان[3] رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ إذا انصرف من

---

(١) المنهاج في شعب الإيمان: ١/ ١٩٧.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ ٢/ ٣١١، برقم (٨٣١)، ومسلم في صحيحه: ١/ ٣٠١، برقم (٤٠٢).

(٣) هو ثوبان بن بجدد ـ بوحدة مضمومة ثم جيم ساكنة ثم دال مهملة مكررة الأولى مضمومة ـ، ويقال: ابن جحدر، أبو عبد الله، ويقال: أبو عبد الرحمن، الهاشمي مولى النبي ﷺ، صحبه ولازمه، ونزل ـ بعده ـ الشام، وتوفي بحمص سنة (٥٤هـ)، رضي الله عنه. انظر: تهذيب الأسماء واللغات، =

صلاته استغفر ثلاثاً، وقال: «**اللهم أنت السلام، ومنك السلام، تباركت ذا الجلال والإكرام**»[١].

والسلام في الأصل مصدر بمعنى السلامة. يقال: سلم، سلاماً وسلامة، كما يقال: رضع، رضاعاً ورضاعة[٢]. ويكون السلام اسم مصدر للفعل (سلّم) الذي مصدره التسليم[٣]، كما يكون (سبحان) اسم مصدر للفعل (سبّح) الذي مصدره التسبيح[٤].

ومعنى السلام والسلامة: البراءة والخلاص والنجاة من الشرور والعيوب الظاهرة والباطنة، وعلى هذا المعنى تدور تصاريف هذه اللفظة[٥]. ومن ذلك تسمية الجنة بدار السلام، كما في قول الله تعالى: ﴿لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [الأنعام:

= للنووي: ١/ ١٤٠ ـ ١٤١، وتهذيب التهذيب، لابن حجر: ٢/ ٣١، وتقريب التهذيب، له: ١/ ١٢٥.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه: ١/ ٤١٤، برقم (٥٩١).

(٢) انظر: تفسير غريب القرآن، لابن قتيبة: ص٦، وشأن الدعاء، للخطابي: ص٤١، والنهاية في غريب الحديث، لابن الأثير: ٢/ ٣٩٢، وفتح الباري، لابن حجر: ٢/ ٣٤.

(٣) انظر: المخصص، لابن سيده: ١٦/ ١٣٦، وأحكام أهل الذمة، لابن قيم الجوزية، تحقيق أبي براء يوسف البكري وأبي أحمد شاكر العاروري: ١/ ٤١٣.

(٤) انظر: ما سبق تقريره في ص(٥٥).

(٥) انظر: عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، للسمين الحلبي: ص٢٤٧، وبدائع الفوائد، لابن قيم الجوزية: ١/ ٣٧٣.
وانظر ما قيل في معنى تسمية الجنة بدار السلام في: تفسير غريب القرآن، لابن قتيبة: ص٦ ـ ٧، وتفسير الطبري: ٥/ ٣٤٢، و٦/ ٥٤٨، وشأن الدعاء، للخطابي: ص٤١، والنهاية في غريب الحديث، لابن الأثير: ٢/ ٣٩٢، وبدائع الفوائد، لابن القيم: ١/ ٣٧٤.

١٢٧]. ومن ذلك أيضاً تحية المسلمين بعضهم لبعض بقول: (السلام عليكم)[١].

وفي الحديث عن أنس بن مالك ﷺ قال: قال النبي ﷺ: «**إن السلام اسم من أسماء الله تعالى وضعه الله في الأرض، فأفشوا السلام بينكم**»[٢].

وأما السلام الذي هو اسم من أسماء الله تعالى الحسنى، فاختلف العلماء في أصله على ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه من باب النسبة، فالسلام يعني: ذو السلام، على حذف المضاف[٣]، كقولهم: رجل مال، أي: ذو مال[٤].

والثاني: أنه من باب استعمال المصدر بمعنى اسم الفاعل، فالسلام يعني: السالم. كما سميت ليلة القدر سلاماً في قول الله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ هِيَ﴾ [القدر: ٥] أي: سالمة من كل شر، بل هي خير لا

---

(١) انظر أقوال العلماء في معنى هذه التحية في: تفسير غريب القرآن، لابن قتيبة: ص٦ ـ ٧، ومعاني القرآن وإعرابه، للزجاج: ٢/ ٢٥٢ ـ ٢٥٣، وشأن الدعاء، للخطابي: ص٤٣ ـ ٤٥، وتهذيب الأسماء واللغات، للنووي: ٣/ ١٥١، وبدائع الفوائد، لابن القيم: ١/ ٣٨٠ ـ ٣٨٣، وفتح الباري، لابن حجر العسقلاني ٢/ ٣١٤، والعلم الهيب، لبدر الدين العيني: ص٣١٤ ـ ٣١٥.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ـ بتخريجات وتعليقات الألباني ـ: ص٣٥٧، برقم (٩٨٩)، وإسناده حسن. وانظر: فتح الباري، لابن حجر: ١١/ ١٣، والسلسلة الصحيحة، للألباني: رقم (١٨٤)، و(١٦٠٧).

(٣) انظر: معاني القرآن وإعرابه، للزجاج: ٢/ ٢٥٣، وشأن الدعاء، للخطابي: ص٤١، والمخصص، لابن سيده: ١٦/ ١٣٦، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ١٨/ ٤٦، والعلم الهيب، لبدر الدين العيني: ص٣١٤.

(٤) انظر: شأن الدعاء، للخطابي: ص٤١.

شر فيها[1].

والثالث: أنه من باب وضع المصدر موضع الاسم لإفادة المبالغة، لكون معناه غالباً على المسمى به مكرراً منه[2]. ومن عادة العرب أنهم يضعون المصادر موضع الأسماء ويصفون الشيء بها إذا أرادوا المبالغة[3]، كقولهم: رجل صوم، وعدل، وزور، وبابه[4].

وهذا القول الثالث أقوى وأقيس في العربية[5]، وعليه فنفس السلام من أسماء الله تعالى، ووصفه تعالى به أبلغ من وصفه بالسالم، أو بذي السلام، والله تعالى أعلم[6].

وكذلك للعلماء في معنى هذا الاسم الكريم في حق الله تعالى أقوال عديدة، منها:

١ ـ أن السلام: هو الذي يملك السلام الذي هو تخليص العباد من المكروه[7]. وهذا التفسير راجع إلى القول بأن السلام أصله: ذو السلام، فالسلام هنا هو حظ العبد فيما يطلبه من السلامة من الآفات والمهالك، والله تعالى هو مالك ذلك[8].

---

(١) انظر: بدائع الفوائد، لابن القيم: ١/ ٣٧٧.
(٢) انظر: بدائع الفوائد، لابن القيم: ١/ ٣٧٧، وفتح الباري، للحافظ ابن حجر: ٢/ ٣١٤، والعلم الهيب، للعيني: ص٣١٤.
(٣) انظر: العلم الهيب، للعيني: ٣١٤.
(٤) انظر: بدائع الفوائد، لابن القيم: ١/ ٣٧٨.
(٥) انظر: المصدر السابق: ١/ ٣٧٧.
(٦) انظر: المصدر السابق، الموضع نفسه، وشفاء العليل، لابن القيم أيضاً: ٢/ ٦٥.
(٧) انظر: معاني القرآن وإعرابه، للزجاج: ٢/ ٢٥٣، وتهذيب الأسماء واللغات، للنووي: ٣/ ١٥١.
(٨) انظر: فتح الباري، لابن حجر العسقلاني: ٢/ ٣١٤ و١٣/ ٣٦٦.

٢ ـ أن السلام: هو المسلم لعباده[١]، أي: منه السلامة لعباده[٢].

٣ ـ أو هو الذي سلم الخلق من ظلمه[٣].

٤ ـ أو هو الذي سلم المؤمنون من عقوبته[٤].

٥ ـ أو هو الذي يسلم من عذابه من لم يستحقه[٥].

وهذه الأقوال كالقول الأول، وإنما اختلفت في العموم والخصوص، وهي كلها أقوال صحيحة في ذاتها؛ لأنها من باب تفسير الاسم ببعض لوازمه وآثاره، وهو منهج معروف عن السلف الصالح في تفسير القرآن[٦]، ولكن المقصود هنا تفسير اسم الله (السلام) باعتباره دالاً على وصف قائم بذاته سبحانه، كالشأن في جميع أسماء الله تعالى الحسنى[٧]، وقد غاير الرسول ﷺ بين السلام الذي هو اسم الله تعالى ووصفه، والسلام الذي هو ملكه في قوله ﷺ: «**اللهم أنت السلام،**

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ١٨/٤٦، وفتح الباري، لابن حجر: ١١/١٣.

(٢) انظر: فتح الباري، لابن حجر: ١٣/٣٦٦.

(٣) انظر: تفسير الطبري: ١٢/٥٢، ومعاني القرآن وإعرابه، للزجاج: ٥/١٥٠، وشأن الدعاء، للخطابي: ص٤١، والمخصص، لابن سيده: ١٦/١٥٧، وتفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني: ٥/٤٠٩، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ١٨/٤٦، وتهذيب الأسماء واللغات، للنووي: ٣/١٥١، وفتح الباري، لابن حجر: ١٣/٣٦٦.

(٤) انظر: تهذيب الأسماء واللغات، للنووي: ٣/١٥١، وفتح الباري، لابن حجر: ١٣/٣٦٦.

(٥) انظر: المخصص، لابن سيده: ١٦/١٣٧.

(٦) انظر: مقدمة التفسير ـ ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٣/٣٣٧.

(٧) انظر: القواعد الحسان لتفسير القرآن، للشيخ عبد الرحمن السعدي: القاعدة الثلاثون: ص٨٩.

ومنك السلام»[١]، فأخبر ﷺ أنّ السلام لله تعالى وصفاً وملكاً[٢]، فالسلام الذي هو وصفه غير السلام الذي هو ملكه. وهذه المعاني المذكورة هي من السلام الذي هو ملكه، وهو من موجبات اسمه السلام وآثاره، لا عين معناه.

٦ ـ أن السلام: هو المسلِّم على أوليائه[٣]، كما سلَّم عليهم في كتابه حيث قال: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ﴾ [الصافات: ٧٩]، وقال: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾﴾ [الصافات: ١٠٩]، وقال: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ [النمل: ٥٩].

٧ ـ أنّ السلام: هو المسلِّم على عباده في الجنة، كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾ [يس: ٥٧، ٥٨][٤].

وهذان القولان يدلان على ثنائه تعالى على أوليائه بالقول السلام في الدنيا، وتحيّته لهم بالقول السلام في الجنة، وليس شيء من ذلك معنى للسلام الذي هو اسمه ووصفه ﷻ، بل ذلك من الآثار المتعلقة باسمه السلام.

٨ ـ أنّ السلام: هو الذي سلم من جميع العيوب والنقائص، وبرئ من كلّ آفة يلحق المخلوقين[٥]. وهذا المعنى ـ في تفسير اسمه

---

(١) سبق تخريجه من حديث ثوبان رضي الله عنه في ص (١٢٠).
(٢) انظر: بدائع الفوائد، لابن القيم: ١/٤٢٦، والعلم الهيب، للعيني: ص٣١٤.
(٣) انظر: تهذيب الأسماء واللغات، للنووي: ٣/١٥١، وفتح الباري، لابن حجر: ١١/١٣.
(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ١٨/٤٦، وفتح الباري، لابن حجر: ١٣/٣٦٦.
(٥) انظر: تفسير غريب القرآن، لابن قتيبة: ص٦، وشأن الدعاء، للخطابي: =

السلام ـ دالّ على صفة ذاته، وأنّه ﷻ سمى نفسه بهذا الاسم الكريم لسلامته من كل عيب ونقص من كل وجه، فهو السلام الحق بكل اعتبار، والمخلوق سلام بالإضافة(١).

وهذا القول الأخير هو الأصل في تفسير اسم الله تعالى (السلام)، وبه يتبين أن السلام كالقدوس، وهما من أسماء التنزيه التي تتضمن كل ما ينزه عنه تبارك وتعالى(٢).

قال الإمام ابن قيم الجوزية:

«هذا ومن أوصافه القدوس ذو التـ ـنزيه بالتعظيم للرحمن
وهو السلام على الحقيقة سالم من كل تمثيل ومن نقصان»(٣)

ومن الأقوال الجميلة في معنى السلام في حق الله تعالى ما حكاه الإمام ابن منده(٤) عن ابن عباس ﵄ أنه قال: «ومعنى السلام: أن

= ص٤١، وتفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني: ٥/ ٤٠٩، وتفسير البغوي: ٨/ ٨٧، والنهاية في غريب الحديث، لابن الأثير: ٢/ ٣٩٢، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ١٨/ ٤٦، وتهذيب الأسماء واللغات، للنووي: ٣/ ١٥١، وشفاء العليل، لابن القيم: ٢/ ٦٥، وأحكام أهل الذمة، له: ١/ ٤١٣، وعمدة الحفاظ، للسمين الحلبي: ص٢٤٧، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٤/ ٣٦٧، وفتح الباري، لابن حجر: ٢/ ٣١٤، و١١/ ١٢، ١٣ و١٣/ ٣٦٦، والعلم الهيب، للعيني: ص٣١٤.

(١) انظر: بدائع الفوائد، لابن القيم: ١/ ٣٧٥.

(٢) انظر: المصدر السابق: ١/ ١٧٦، ٣٧٦.

(٣) الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية ـ القصيدة النونية ـ، بعناية عبد الله بن محمد العمير: ص٢٤٧.

(٤) هو محمد بن إسحاق بن محمد بن يحيى بن منده العبدي مولاهم، أبو عبد الله الأصبهاني، الإمام الحافظ محدث الإسلام، صاحب التصانيف المفيدة في اعتقاد أهل السنة، منها: كتاب الإيمان، وكتاب التوحيد، وغيرهما، وتوفي سنة (٣٩٥هـ)، ﵀. انظر سير أعلام النبلاء، للذهبي: ١٧/ ٢٨ ـ ٤٢.

ذات الله ﷻ خلصت بانفراد الوحدانية من كل شيء، وبانت عن كل شيء، وأخلصت به القلوب إلى توحيد الله ﷻ وسلمت» اهـ[١].

وقد تضمن هذا القول الرد على أهل الباطل القائلين بأن الله تعالى في كل مكان بذاته، أو أنه يحل في خلقه أو في بعضهم، فالله ﷻ بائن من خلقه، سالم من كل ما يلحق الخلق من العيوب والنقائص والآفات، ليس كمثله شيء.

❖ المطلب الثالث ❖

تعالى

تعالى: على وزن (تفاعل)، فعل ماض، ومصدره (التعالي)، وهو تفاعل من العلو[٢]، بمعنى: ترفع أو ارتفع. ومنه قولهم: تعالى النهار، إذا ارتفع، والتعالي: الارتفاع[٣].

وقد جاء هذا الفعل مسنداً إلى الله ﷻ في ثلاثة عشر موضعاً في القرآن الكريم[٤]، في أربعة منها أسند إلى اسمه الظاهر، كقوله سبحانه: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾﴾ [الأعراف: ١٩٠].

وفي بقية المواضع أسند إلى الضمير المقدر العائد إلى الله جل

---

(١) كتاب التوحيد: ٢/٦٨.

(٢) انظر: تفسير غريب القرآن، لابن قتيبة: ص١٠، وتفسير الطبري: ٥/٢٩٣.

(٣) انظر: لسان العرب، لابن منظور: مادة (علا): ١٥/٨٣، ٩٠.

(٤) وهي المواضع التالية: سورة الأنعام، الآية: ١٠٠، وسورة الأعراف، الآية: ١٩٠، وسورة يونس، الآية: ١٨، وسورة النحل، الآية: ١، والآية: ٣، وسورة الإسراء، الآية: ٤٣، وسورة طه، الآية: ١١٤، وسور المؤمنون، الآية: ٩٢، والآية: ١١٦، وسورة النمل، الآية: ٦٣، وسورة القصص، الآية: ٦٨، وسورة الروم، الآية: ٤٠، وسورة الزمر، الآية: ٦٧.

وعلا، كقوله عز من قائل: ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [المؤمنون: ٩٢].

وجاء مسنداً إلى (جد ربنا) في قوله سبحانه ـ حكاية عن الجن ـ: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾﴾ [الجن: ٣].

وجاء هذا الفعل في السنة مسنداً إلى الضمير البارز العائد إلى الله سبحانه، في حديث علي بن أبي طالب ﷺ فيما كان يقوله رسول الله ﷺ إذا قام إلى الصلاة، وفيه: «**أنا بك وإليك، تباركت وتعاليت، أستغفرك وأتوب إليك**»[1].

وإذا أسند هذا الفعل إلى الله ﷻ كان معناه تنزيهه سبحانه عما لا يليق بكماله وعظمته وعلوه على كل شيء، ولهذا ورد هذا الفعل مقروناً بلفظ (سبحان) في أكثر الآيات التي ذكر فيها مسنداً إلى الله جل وعلا، وذلك لما بين اللفظين من المناسبة في المعنى، وإنما افترقا من جهة أن (سبحان) يكون مضافاً إلى لفظ الجلالة أو إلى ضميره، لكونه مصدراً. و(تعالى) يكون مسنداً إلى لفظ الجلالة أو إلى ضميره لكونه فعلاً[2].

قال ابن جرير الطبري: «وأما قوله: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٠]، فتنزيه من الله تبارك وتعالى نفسه، وتعظيم لها عما يقول فيه المبطلون ويدعون معه من الآلهة والأوثان»[3].

ومن هذا الباب اسم الله (المتعالي)، فإنه اسم فاعل من (تعالى)، وقد وصف الله ﷻ نفسه بهذا الاسم في قوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾﴾ [الرعد: ٩].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه: ١/ ٥٣٤ ـ ٥٣٦، برقم (٧٧١) في حديث طويل.
(٢) انظر: ما سبق ذكره في ص(٥٨) من هذا البحث.
(٣) تفسير الطبري: ١٤٨/٦.

قال الأزهري: «وأما المتعالي، فهو الذي جل عن إفك المفترين، وتنزه عن وساوس المتحيرين. وقد يكون المتعالي بمعنى العالي»[١].

وقال الخطابي: «المتعالي: هو المتنزه عن صفات المخلوقين، تعالى أن يوصف بها، وارتفع عن مساواتهم في شيء منها. وقد يكون بمعنى العالي فوق خلقه» اهـ[٢].

ومنه أيضاً اسما الله (العلي والأعلى) اللذان وصف الله ﷻ بهما نفسه في كتابه، فقال تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ [الأعلى: ١].

فإن هذه الأسماء ـ المتعالي، والعلي، والأعلى ـ يقرب بعضها من بعض في الاشتقاق والمعنى[٣]، وهي دالة على العلو المطلق لله ﷻ من جميع الوجوه: علو القدر، وعلو القهر، وعلو الذات.

قال قوام السنة أبو القاسم الأصبهاني[٤]: «وقد أجمع المسلمون أن الله هو العلي الأعلى، ونطق بذلك القرآن في قوله: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ [الأعلى: ١]. وزعموا[٥] أن ذلك بمعنى علو الغلبة لا علو

---

(١) تهذيب اللغة: ٣/ ١٨٦. (٢) شأن الدعاء: ص٨٩.

(٣) انظر: تهذيب اللغة، للأزهري: ٣/ ١٨٦.

(٤) هو إسماعيل بن محمد بن الفضل بن علي القرشي التيمي، أبو القاسم الأصبهاني، الملقب بقوام السنة، كان إماماً حافظاً متقناً حسن الاعتقاد، وله تصانيف نافعة، منها: الحجة في بيان المحجة وشرح عقيدة أهل السنة، وتوفي سنة (٥٣٥هـ)، رحمه الله تعالى، انظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي: ٢٠/ ٨٠ ـ ٨٨، والبداية والنهاية، لابن كثير: ١٢/ ٢٣٣.

(٥) يعني نفاة علو الذات عن الله تعالى، كالجهمية والمعتزلة والأشاعرة ومن وافقهم.

الذات. وعند المسلمين أن لله ﷻ علو الغلبة، والعلو من سائر وجوه العلو؛ لأن العلو صفة مدح، فثبت أن لله تعالى علو الذات، وعلو الصفات، وعلو القهر والغلبة» اهـ[١].

والعلو بجميع معانيه يدل على أن الله ﷻ عال عن كل عيب ونقص، وعن كل مثيل وشريك، وأنه سبحانه متصف بجميع صفات الكمال، منزه عما ينافيها من صفات النقص، وعن أن يكون له مثل في شيء من صفات الكمال، وأنه لا إله إلا هو ولا رب سواه[٢].

❖ المطلب الرابع ❖

حاش لله

ورد هذا اللفظ مرتين في القرآن الكريم، في قصة نبي الله يوسف عليه السلام مع النسوة، حيث قال الله تعالى: ﴿وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ [يوسف: ٣١]، وقال تعالى أيضاً: ﴿قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾ [يوسف: ٥١].

وذكر أهل العلم أن معنى (حاش لله) مثل معنى (سبحان الله)[٣]، أي: التنزيه لله[٤]، وبراءة لله[٥].

---

(١) الحجة في بيان المحجة: ٢/ ١١٤.

(٢) انظر مزيد بيان لهذا الموضوع في: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٦/ ١١٩ ـ ١٢٤.

(٣) انظر: النكت والعيون، للماوردي: ٣/ ٣٣، وتفسير التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٤/ ١٨٢.

(٤) انظر: مجاز القرآن، لأبي عبيدة: ١/ ٣١٠، وتفسير الطبري: ٧/ ٢٠٦، وتفسير النسفي: ٢/ ١٠٧ ـ ١٠٨.

(٥) انظر: المخصص، لابن سيده: ١٦/ ١٦٣، وتفسير النسفي: ٢/ ١٠٨، ولسان العرب، لابن منظور: مادة (حشا): ١٤/ ١٨١.

وذكر بعضهم أن معناه: الاستثناء[١]، أي: الاستثناء من الشر[٢]، وهذا المعنى موافق للمعنى الأول.

وجاء عن مجاهد: أن معناه: معاذ الله[٣].

وحكى أهل العلم في هذا اللفظ عدة لغات[٤]:

إحداها: (حاشى لله).

والثانية: (حاشا لله) بألف بعد الشين.

والثالثة: (حشا لله) بحذف الألف الأولى بعد الحاء.

والرابعة: (حاشاً لله) بالتنوين على الشين.

والخامسة: (حاشى الله) بحذف لام الجر من لفظ الجلالة.

والسادسة: (حشى الله) بحذف الألف الأولى، مع حذف لام الجر.

والسابعة: (حاش الله) بتسكين الشين مع الألف.

فهذه أقصى ما حكي من لغات لهذا اللفظ، فيما اطلعت عليه.

وتبعاً لهذه اللغات اختلف أهل اللغة في حقيقة (حاش) على خمسة أقوال:

القول الأول: أنه حرف من حروف الخفض، ولذلك جاء ما بعده

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ٧/٢٠٦، ومعاني القرآن وإعرابه، للزجاج: ٣/١٠٧، وتهذيب اللغة، للأزهري: ٥/١٤٠ ـ ١٤١.

(٢) انظر: مجاز القرآن، لأبي عبيدة: ١/٣١٠.

(٣) انظر: تفسير الطبري: ٧/٢٠٦، والنكت والعيون، للماوردي: ٣/٣٣.

(٤) انظر: تفسير الطبري: ٧/٢٠٥ ـ ٢٠٦، وتهذيب اللغة، للأزهري: ٥/١٤٠ ـ ١٤١، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٩/١٨١، ومغني اللبيب، لابن هشام الأنصاري: ص١٦٥.

مخفوضاً في بعض اللغات المحكية فيه[١].

ورد هذا القول من وجهين: من صحة إثبات الألف في آخره وحذفها، والحرف لا يحذف منه شيء. ومن وقوع حرف الجر ـ اللام ـ بعده، والحرف لا يدخل على الحرف[٢].

والقول الثاني: أنه فعل، بدليل تصرفهم فيه بالحذف، وإدخالهم إياه على الحرف[٣].

ورد هذا القول أيضاً بأن الدليل المذكور له إنما ينافي الحرفية، ولا يثبت الفعلية[٤].

والقول الثالث: أنه متردد بين الحرفية والفعلية، فإن جر فهو حرف، وإن نصب أو وقع بعده حرف جر فهو فعل[٥].

وهذا القول جمع بين القولين السابقين، ويرد عليه ما ورد عليهما من الرد.

القول الرابع: أنه اسم فعل، بمعنى: أتبرأ، أو برئت، بدليل بنائه وعدم تصرفه[٦].

ورد هذا القول كذلك بوروده معرباً في بعض اللغات[٧]، كما تقدم.

---

(١) انظر: تهذيب اللغة، للأزهري: ٥/ ١٤١، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٩/ ١٨١، وتفسير النسفي: ٢/ ١٠٧.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٩/ ١٨١، والدر المصون، للسمين الحلبي: ٦/ ٤٨٢، ومغني اللبيب، لابن هشام: ص١٦٥.
(٣) انظر: المصادر السابقة، المواضع نفسها.
(٤) انظر: مغني اللبيب، لابن هشام: ص١٦٥.
(٥) انظر: الدر المصون، للسمين الحلبي: ٦/ ٤٨١.
(٦) انظر: مغني اللبيب، لابن هشام: ١٦٥.
(٧) انظر: المصدر السابق.

القول الخامس: أنه اسم صريح مرادف للتنزيه والبراءة، بدليل تنوينه في إحدى اللغات[١]، وإنما ترك تنوينه في بعض اللغات لأنهم أبدلوا التنوين ألفاً كما يبدلونه في الوقف، ثم إنهم أجروا الوصل مجرى الوقف، كما فعلوا ذلك في مواضع كثيرة[٢]، وقد يحذفون الألف المبدلة من التنوين كما حذفوا الألف في مواضع أخرى[٣].

وقيل: إنما ترك تنوينه في بعض اللغات لبنائه، تشبيهاً له بحاشا الحرفية[٤]، وما سبق بيانه آنفاً من سبب ترك التنوين أولى من هذا.

والقول باسمية (حاش) قوي ـ في نظري ـ، إلا إذا وقع بعده اسم منصوب به، فيقوى حينئذٍ كونه فعلاً، إذ لا وجه للنصب غير الفعلية.

والخلاصة: أن (حاش) في قول العلماء متردد بين الاسمية والفعلية والحرفية، وأيا كان، فكلمة (حاش لله) مرادف لكلمة (سبحان الله) في الدلالة على التنزيه والتبرئة لله تعالى من كل سوء.

وأما اللام الداخلة على لفظ الجلالة، فمن قال: إن (حاش) اسم، جعل اللام متعلقة بمحذوف على سبيل البيان، كاللام في قولهم: (سقيا لك، ورعيا لزيد). ومن قال: إن (حاش) فعل، جعل اللام متعلقة بالفعل نفسه. وادعى بعضهم أن اللام زائدة[٥]، والله تعالى أعلم.

---

(١) انظر: الدر المصون، للسمين الحلبي: ٦/ ٤٨٣، ومغني اللبيب، لابن هشام: ص١٦٥، ٨٩٣.
(٢) انظر: الدر المصون، للسمين الحلبي: ٦/ ٤٨٤.
(٣) انظر: تفسير الطبري: ٧/ ٢٠٦.
(٤) انظر: الدر المصون، للسمين الحلبي: ٦/ ٤٨٣، ٤٨٤، ومغني اللبيب، لابن هشام: ص١٦٥، ٨٩٣.
(٥) انظر: الدر المصون، للسمين الحلبي: ٦/ ٤٨٤ ـ ٤٨٨.

❖ المطلب الخامس ❖

النفي الوارد في حق الله تعالى

النفي: مصدر نفى، ينفي، وهو ضد الإثبات. ويأتي بمعنى الإبعاد، والتنحية، والإنكار، والجحود[(١)].

ويستعمل للنفي ـ في لغة العرب ـ ألفاظ تعرف بأدوات النفي، وأشهرها: ليس، ولا، ولم، ولن، وما[(٢)].

أما ليس، ففعل لا يتصرف، وأما الأربعة الباقية فحروف.

وقد ورد النفي بهذه الأدوات المذكورة في حق الله تعالى في الكتاب والسنة، لإفادة تنزيهه سبحانه عما نفي عنه، وأنه مما لا يليق بكماله وجلاله وعظمته، ولهذا كان النفي الوارد في حق الله تعالى بإحدى هذه الأدوات دالاً على معنى التسبيح من التنزيه لله ﷻ والتعظيم له.

وأمثلة هذا النفي في الكتاب والسنة كثيرة جداً لا يمكن استقصاؤها في هذا المطلب، ولكن يمكن ذكر بعض منها، وهو:

❑ أولاً ـ النفي الوارد في حق الله تعالى بـ (ليس):

ورد النفي بـ (ليس) في حق الله تعالى في مواضع، منها:

١ ـ قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّامٖ لِّلۡعَبِيدِ ١٨٢﴾ [آل عمران: ١٨٢، والأنفال: ٥١].

وفي هذه الآية نفي الظلم عن الله تعالى، وذلك في سياق التقريع والتوبيخ للكفار، وأن ما حل بهم من العذاب والعقاب ليس بظلم

---

(١) انظر: لسان العرب، لابن منظور: مادة (نفى): ١٥/٣٣٦ ـ ٣٣٨، والقاموس المحيط، للفيروزآبادي: مادة (نفى)، ص١٧٢٦، والمعجم الوسيط: ٢/٩٤٣.
(٢) انظر: المعجم الوسيط: ٢/٩٤٣.

من الله تعالى، بل لاستحقاقهم العذاب بما عملته أيديهم، فإن الله سبحانه لكمال عدله وحكمته ليس ظلاماً أحداً من خلقه؛ لأن الظلم لا يليق به سبحانه وتعالى[(١)].

٢ ـ قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]. فـ (ليس كمثله شيء) نفي للمثل عن الله تعالى، فلا يماثله شيء من خلقه، كما أنه لا رب سواه، ولا إله غيره.

وقد اختلف في إعراب هذه الجملة على وجوه:

أحدها: أن الكاف صلة زيدت للتأكيد، و(مثله) خبر ليس مقدم، و(شيء) اسمها مؤخر. والمعنى: ليس مثله شيء[(٢)].

والثاني: أن (مثل) زائد لتوكيد الكلام؛ لأنه والكاف بمعنى واحد، وعلى هذا فالمعنى: ليس كهو شيء، أو ليس هو كشيء[(٣)].

وهذا الوجه بعيد؛ لأن (مثل) اسم، والكاف حرف، والقول بزيادة الحرف للتأكيد أولى من القول بزيادة الاسم[(٤)].

والثالث: أنه ليس ثم زيادة أصلاً، بل هذا من باب قولهم: مثلك لا يفعل كذا، أي: أنت لا تفعله، وأتي بـ (مثل) للمبالغة. وقالوا ـ في

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ٣/ ٥٣٨ و٦/ ٢٦٨. وانظر: مبحث تسبيح الله تعالى عن الظلم في أقواله وأفعاله: (٢/ ٢٥٥) من البحث.

(٢) انظر: تفسير الطبري: ١١/ ١٣٣، وإعراب القرآن، لأبي القاسم التيمي: ص١٥، وشرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز الدمشقي، بتحقيق الدكتور عبد الله التركي، وشعيب الأرناؤوط: ١/ ١٢١ ـ ١٢٢.

(٣) انظر: تفسير الطبري: ١١/ ١٣٣، وشرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز: ١/ ١٢٤.

(٤) انظر: مغني اللبيب، لابن هشام الأنصاري: ص٢٣٨، وشرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز: ١/ ١٢٤.

معنى المبالغة هنا ـ: أي ليس لمثله مثل لو فرض المثل، فكيف ولا مثل له[١].

وهذا الوجه أبعد من سابقه؛ لأن فيه إثبات مثل لله سبحانه، ثم نفي الشبه عن ذلك المثل، وهذا ـ كما ترى ـ شرك بالله تعالى[٢].

وما ادعي فيه من المبالغة لا يصح؛ لأن المبالغة لا يتوصل إليها بمعنى فاسد، ولا سيما في حق الله ﷻ.

فالصواب في إعراب (ليس كمثله شيء) هو الوجه الأول ـ أن الكاف صلة زيدت للتأكيد ـ، وهو وجه قوي حسن معروف في لغة العرب[٣]، والله تعالى أعلم.

□ ثانياً ـ النفي الوارد في حق الله تعالى بـ (لا):

وللنفي بـ (لا) في حق الله تعالى مواضع كثيرة في القرآن الكريم، ومنها:

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾.

وهذه آية الكرسي[٤]، ولها شأن عظيم، فقد صح أنها أعظم آية

---

(١) انظر: شرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز: ١/ ١٢٤، والإتقان في علوم القرآن، للسيوطي: ١/ ٥٣١ ـ ٥٣٢.

(٢) انظر: إعراب القرآن، لأبي القاسم التيمي: ص١٥.

(٣) انظر: شرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز: ١/ ١٢٢، وشرح العقيدة الواسطية، للشيخ محمد خليل هراس، بضبط علوي السقاف: ص٦٩.

(٤) انظر: سميت بذلك لذكر الكرسي فيها.

في كتاب الله تعالى، كما في حديث أبي بن كعب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**يا أبا المنذر، أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟**» قال: قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «**يا أبا المنذر، أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟**» قال: قلت: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾، قال: فضرب في صدري، وقال: «**ليهنك العلم**(١) **أبا المنذر**»(٢).

وقد اشتملت الآية الكريمة على خمسة من النفي بـ (لا) في حق الله تعالى، وهي:

١ - ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ وهذه الجملة هي كلمة التوحيد التي دعا إليها جميع الرسل - عليهم الصلاة والسلام -، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥]، ومن أجلها خلق الجن والإنس، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦]، أي: إلا ليوحدون(٣). وهي دالة بصدرها (لا إله) على نفي الإلهية عن كل ما سوى الله ﷻ، ودالة بعجزها (إلا هو) على إثبات الإلهية لله تعالى وحده، فـ (لا إله إلا هو) تنزيه لله سبحانه عن كل شرك في الإلهية، وإخبار بأنه المنفرد بالإلهية لجميع الخلائق(٤).

---

(١) أي: ليكن العلم هنيئاً لك.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه: ١/ ٥٥٦، برقم (٨١٠).

(٣) انظر: صحيح البخاري - مع الفتح -: ٨/ ٥٩٨، وتأويل مشكل القرآن، لابن قتيبة، تحقيق السيد أحمد صقر: ص٣٧٣.

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ١/ ٣١٦، وشرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز الدمشقي: ١/ ٧٢، وتيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد، للشيخ سليمان بن عبد الله آل الشيخ: ص٧٧، وشرح العقيدة الواسطية، للشيخ محمد خليل هراس: ص٥٦.

٢، ٣ ـ ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ فيه نفي السنة والنوم عن الله تعالى، نفاهما معاً؛ لأن السنة ـ وهي النعاس ـ مقدمة النوم، والنوم أقوى من السنة وأثقل(١).

وفي هذا النفي تنزيه لله سبحانه عن الآفات التي تعتري المخلوق، وهو من تمام حياته وقيوميته(٢).

٤ ـ ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ بين الله تعالى في هذا أن العباد لا يعلمون شيئاً من علمه تعالى إلا ما علمهم إياه. وفي هذا النفي تنزيه لله تعالى عن أن يعلم أحد شيئاً إلا بتعليم الله، كما قالت الملائكة: ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ [البقرة: ٣٢]، وذلك لأن الله تعالى هو ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢﴾ [العلق: ١، ٢]، وهو ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [العلق: ٤، ٥](٣).

٥ ـ ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾ قال الحافظ ابن كثير: «أي: لا يثقله ولا يكرثه حفظ السموات والأرض ومن فيهما ومن بينهما، بل ذلك سهل عليه يسير لديه»(٤).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «هذا النفي تضمن كمال قدرته، فإنه مع حفظه للسموات والأرض لا يثقل ذلك عليه، كما يثقل على من في قوته ضعف» اهـ(٥)، ففيه تنزيه الله تعالى عن الضعف.

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ٣/٨، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ١/٣١٦.
(٢) انظر: تفسير الطبري: ٣/٩، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٧/١٠٩، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ١/٣١٦.
(٣) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٧/١١٠.
(٤) تفسير القرآن العظيم: ١/٣١٨.
(٥) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٧/١١٠.

فهذا ما تضمنته آية الكرسي من النفي في حق الله تعالى، مع ما تضمنته أيضاً من إثبات صفات الكمال لله تعالى، ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «ليس في القرآن آية واحدة تضمنت ما تضمنته آية الكرسي»[١]، يعني: من صفات الله الثبوتية والتنزيهية.

□ ثالثاً ـ النفي الوارد في حق الله تعالى بـ (لم):

ومن النفي بـ (لم) في حق الله تعالى: قوله ﷻ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾. وهذه سورة الإخلاص التي ثبت في أحاديث صحيحة أنها تعدل ثلث القرآن[٢]، بل ثبت في فضلها أحاديث أخرى كثيرة[٣]، حتى قال الإمام الدارقطني[٤]: «لم يصح في فضل سورة أكثر مما صح في فضلها»[٥].

وقد اشتملت السورة على ثلاثة من النفي بـ (لم) في حق الله تعالى، وهي:

---

(١) المصدر السابق: ١٧/ ١٣٠.

(٢) ثبت ذلك في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عند البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ٩/ ٥٨ ـ ٥٩، برقم (٥٠١٣)، ورقم (٥٠١٥)، وفي حديث أبي الدرداء رضي الله عنه عند مسلم في صحيحه: ١/ ٥٥٦، برقم (٨١١)، وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند مسلم في صحيحه: ١/ ٥٥٧، برقم (٨١٢).

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، للحافظ ابن كثير: ٤/ ٦٠٤ ـ ٦٠٩.

(٤) هو علي بن عمر بن أحمد بن مهدي البغدادي، أبو الحسن الدارقطني، كان حافظ زمانه، وإمام وقته، وفريد عصره، انتهى إليه علم الأثر والمعرفة بالعلل والرجال، مع الصدق والثقة وحسن الاعتقاد، صنف السنن، وعلل الأحاديث، وغيرهما من المصنفات، وتوفي سنة (٣٨٥هـ)، رحمه الله. انظر: تذكرة الحفاظ، للذهبي: ٣/ ٩٩١ ـ ٩٩٥.

(٥) نقله شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى: ١٧/ ٢٠٦.

١ ـ قوله تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ أي: لم يتفرع عنه شيء[١] ففيه تنزيهه تعالى عن الولد[٢]. وقيل: فيه تنزيهه عن الفناء؛ لأنه لا شيء يلد إلا وهو فان بائد[٣]، وهذا لازم عن المعنى الأول.

٢ ـ وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ أي: ولم يتفرع هو عن شيء[٤]، فليس له والد[٥]، وليس بمحدث لم يكن فكان؛ لأن كل مولود فإنما وجد بعد أن لم يكن، وحدث بعد أن كان غير موجود، ولكنه سبحانه أزلي لم يزل، ودائم لا يبيد ولا يزول ولا يفنى[٦].

٣ ـ وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ أي: ليس شيء من الأشياء كفوا له في شيء من الأشياء[٧]. والكفو: هو المثل والشبيه والنظير. وفسر أيضاً بالصاحبة[٨].

فتضمنت هذه السورة العظيمة تنزيه الله تعالى عن الأصول والفروع والنظراء، وهذه الثلاثة هي جماع ما ينسب إليه المخلوق من الآدميين والجن والملائكة والبهائم، بل والنبات، ونحو ذلك، فإنه ما من شيء من المخلوقات إلا ولا بد أن يكون له شيء يناسبه: إما أصل، وإما فرع، وإما نظير، أو اثنان من ذلك، أو ثلاثة[٩].

---

(١) انظر: شرح العقيدة الواسطية، للشيخ محمد خليل هراس: ص٨٣.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم: لابن كثير: ٤/ ٦١٠.
(٣) انظر: تفسير الطبري: ١٢/ ٧٤٤.
(٤) انظر: شرح العقيدة الواسطية: لهراس: ص٨٣.
(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٤/ ٦١٠.
(٦) انظر: تفسير الطبري: ١٢/ ٧٤٤.
(٧) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٧/ ٢٣٨.
(٨) انظر: تفسير الطبري: ١٢/ ٧٤٥.
(٩) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٢/ ٤٣٨ ـ ٤٣٩، و١٧/ ١٠٩.

كما تضمنت السورة أيضاً وصف الله تعالى بالأحدية الدالة على انفراده المطلق، وبالصمدية الدالة على كماله المطلق[١].

ولهذا سميت بسورة الإخلاص؛ لأنها أخلصت الخبر عن الله تعالى وعن أسمائه وصفاته، فهي نسب الرحمن وصفته، ولأنها خلصت قارئها المؤمن بها من الشرك العلمي الاعتقادي[٢].

ولهذا أيضاً عدلت هذه السورة ثلث القرآن؛ لأن القرآن الكريم اشتملت على ثلاثة مقاصد أساسية:

أولها: الأوامر والنواهي المتضمنة للأحكام.

والثاني: القصص والأخبار المتضمنة لأحوال الوعد والوعيد.

والثالث: الخبر عن الله تعالى وما يجب على العباد من معرفته بأسمائه وصفاته.

وسورة الإخلاص قد اشتملت على هذا المقصد الثالث إجمالاً، فحق لها أن تعدل ثلث القرآن[٣].

وقد كان الأئمة يعتمدون على هذه السورة في التوحيد، وإذا أرادوا أن يذكروا ما يستحقه الله تعالى من التنزيه ذكروا هذه السورة، وأنها مستوفية كل ما ينفى في هذا الباب[٤].

---

(١) انظر: المصدر السابق: ١٧/ ١٠٧، ٣٢٥، وزاد المعاد، لابن القيم: ١/ ٣١٦.

(٢) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٧/ ١٣٤، وزاد المعاد، لابن القيم: ١/ ٣١٦ ـ ٣١٧.

(٣) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٧/ ١٠٣، ١٣٤، ٢٠٧.

(٤) انظر: المصدر السابق: ٢/ ٤٣٨، وبيان تلبيس الجهمية، لشيخ الإسلام أيضاً: ٢/ ٥٧ ـ ٥٨.

❑ رابعاً ـ النفي الوارد في حق الله تعالى بـ (لن):

ومن الأمثلة على النفي بـ (لن) في حق الله تعالى:

١ ـ قوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ١٧٧].

نفى سبحانه إمكان وقوع الضرر عليه؛ لأن ذلك دليل على النقص والعجز، وهو سبحانه يتعالى عن ذلك، فإنه لا تضره معصية العاصين، ولا تنفعه طاعة الطائعين، لكمال غناه عن عباده، كما في حديث أبي ذر[1] رضي الله عنه عن النبي ﷺ، فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال ـ الحديث بطوله ـ وفيه: «**يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني**»[2].

٢ ـ وقوله تعالى: ﴿وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ [الحج: ٤٧].

نفى سبحانه عن نفسه خلف الوعد؛ لأن ذلك يعد لؤماً ومنقصة، وهو تعالى كامل الصدق والكرم والعلم والقدرة، فلا يقع منه مع هذا الكمال خلف الوعد.

❑ خامساً ـ النفي الوارد في حق الله تعالى بـ (ما):

ورود النفي بـ (ما) في حق الله تعالى في مواضع كثيرة من كتاب الله تعالى، ومنها:

---

(١) أبو ذر، صحابي مشهور، اختلف في اسمه وفي اسم أبيه، والأصح أنه: جندب بن جنادة، أبو ذر الغفاري، من السابقين إلى الإسلام، كان زاهداً متقللاً من الدنيا، وكان صادق اللهجة، قوالاً بالحق، ومناقبه كثيرة جداً، وتوفي بالربذة ـ قرية قرب المدينة ـ في خلافة عثمان، سنة (٣٢هـ)، رضي الله عنه. انظر: الإصابة، لابن حجر: ٤/ ٧٠٥ ـ ٧٠٦، وتقريب التهذيب، له: ٢/ ٤٢٠.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه: ٤/ ١٩٩٤ ـ ١٩٩٥، برقم (٢٥٧٧).

١ ـ قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٧٤، ٨٥، ١٤٠، ١٤٩، وآل عمران: ٩٩].

نفى سبحانه عن نفسه الغفلة، وهي: ترك الشيء على وجه السهو عنه والنسيان له. وهذا إخبار للعباد أنه سبحانه ليس غافلاً عن أعمالهم، ولا ساه عنها، بل هو لها محص ولها حافظ، وسيجازي كلا بعمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر(١).

٢ ـ وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [إبراهيم: ٣٨].

نفى سبحانه عن نفسه خفاء شيء عليه في الأرض أو في السماء، وفي ذلك تنزيه له عن الجهل مطلقاً، وإثبات لكمال علمه وإحاطته بكل شيء؛ لأنه خالقه ومدبره، فلا يخفى عليه منه شيء(٢).

٣ ـ وقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الأنبياء: ١٦].

نفى سبحانه أن يكون خلقه للسموات والأرض على وجه اللعب، واللعب: هو العبث واللهو وضد الجد، واللاعب: هو العابث الذي لا يقصد بفعله غاية محمودة يريد سوق الوسائل إليها، فإن هذا فعل الجاد الذي يجيء بالحق، فالذي يأتي بالحق خلاف اللاعب(٣).

ولهذا نفى سبحانه أن يكون خلق الخلق لاعباً؛ لأن ذلك لا يليق

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ١/ ٤٠٩، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ١/ ١٩٤، ٣٩٥، وانظر: (٢/ ١٤٦) من البحث.

(٢) انظر: تفسير الطبري: ٧/ ٤٦٦، وتفسير القرآن العظيم: ٢/ ٥٦١.

(٣) انظر: جامع الرسائل، لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق الدكتور محمد رشاد سالم: ١/ ١٩ ـ ٢٢.

به، لكمال حكمته، فلا يخلق شيئاً عبثاً، بل لحكمة وغاية محمودة[(١)].

وبهذه المواضع السابقة يتبين أن النفي الوارد في حق الله تعالى بأدوات النفي المعروفة يشترك مع التسبيح في الدلالة على تنزيه الله تعالى وتعظيمه والثناء عليه بنفي ما لا يليق بجلاله وكماله وعظمته.

ـ **تنبيه**: وينبغي أن يعرف أن النفي في حق الله تعالى قد يرد في صورة استفهام، وهو الاستفهام الإنكاري الإبطالي الذي يقتضي أن ما بعده غير واقع[(٢)]، ومن ذلك:

١ ـ قوله تعالى ـ في تعديد آيات ربوبيته ـ: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ [النمل: ٦٠ و٦٤]، «أي: أفعل هذه إله مع الله؟! والمعنى: ما فعلها إلا الله»[(٣)].

وفي هذا تنزيه لله تعالى عن أن يكون معه شريك في العبادة، لكونه تعالى المستقل المتفرد بالخلق والرزق والتدبير، فكيف يكون معه ـ والحالة هذه ـ إله يعبد؟ بل هو المستحق للعبادة وحده[(٤)].

٢ ـ وقوله تعالى ـ في آية الكرسي ـ: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

فـ (من) هنا هي (من) الاستفهامية أشربت معنى النفي[(٥)].

والمعنى: لا أحد يشفع عنده بدون إذنه له في الشفاعة[(٦)].

---

(١) انظر: مبحث تسبيح الله تعالى عن العبث في أقواله وأفعاله. (٢/ ٢٣٧) من البحث.
(٢) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٤/ ٦٣، ومغني اللبيب، لابن هشام الأنصاري: ص٢٤، والكليات، لأبي البقاء الكفوي: ص٩٩.
(٣) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٤/ ٦٣.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٣/ ٣٨٢.
(٥) انظر: مغني اللبيب، لابن هشام الأنصاري (ص٤٣١).
(٦) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ١/ ١٣٦، وتيسير الكريم الرحمن، =

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فنفي الشفاعة بدون إذنه مستلزم لكمال ملكه، إذ كل من شفع إليه شافع بلا إذنه فقبل شفاعته كان منفعلاً عن ذلك الشافع، فقد أثرت شفاعته فيه فصيرته فاعلاً بعد أن لم يكن، وكان ذلك الشافع شريكاً للمشفوع إليه في ذلك الأمر المطلوب بالشفاعة، إذ كانت بدون إذنه، لا سيما والمخلوق إذا شفع إليه بغير إذنه فقبل الشفاعة، فإنما يقبلها لرغبة أو لرهبة: إما من الشافع أو من غيره، وإلا فلو كانت داعيته من تلقاء نفسه تامة مع القدرة لم يحتج إلى شفاعة، والله تعالى منزه عن ذلك كله» اهـ[1].

٣ ـ وقوله تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥].

«أي: هل تعلم لله مسامياً ومشابهاً ومماثلاً من المخلوقين[2].

وهذا استفهام بمعنى النفي[3]، المعلوم بالعقل، أي: لا تعلم له مسامياً ولا مشابهاً؛ لأنه الرب وغيره مربوب، الخالق وغيره مخلوق، الغني من جميع الوجوه، وغيره فقير بالذات من كل وجه، الكامل الذي له الكمال المطلق من جميع الوجوه، وغيره ناقص ليس فيه من الكمال إلا ما أعطاه الله تعالى، فهذا برهان قاطع على أن الله هو المستحق لإفراده بالعبودية، وأن عبادته حق، وعبادة ما سواه باطل»[4].

فهذه الأمثلة المذكورة ونحوها من جملة ما ورد من النفي في حق الله تعالى للدلالة على تنزيهه سبحانه عما لا يليق بكماله وجلاله وعظمته.

= للشيخ عبد الرحمن السعدي: ص١١٠.

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٧/١٠٩ ـ ١١٠.

(٢) انظر: مجاز القرآن، لأبي عبيدة: ٢/٩، وتفسير الطبري: ٨/٣٦١ ـ ٣٦٢.

(٣) انظر: مغني اللبيب، لابن هشام الأنصاري: ٤٥٩.

(٤) مقتبس من: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للشيخ عبد الرحمن السعدي: ص٤٩٨.

الفصل الثاني

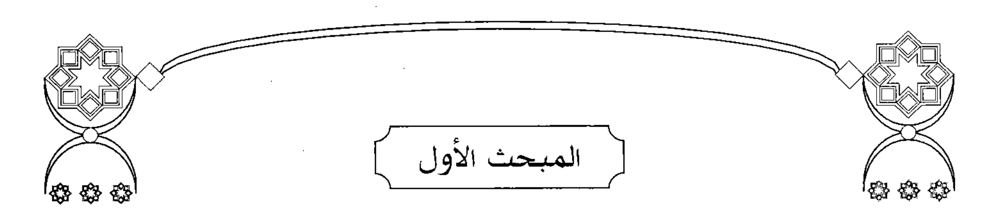
أنواع التسبيح

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: أنواع التسبيح باعتبار معناه

المبحث الثاني: أنواع التسبيح باعتبار صيغه

المبحث الثالث: أنواع التسبيح باعتبار فاعله



أنواع التسبيح باعتبار معناه

❑ **توطئة:**

تقرر أن المعنى الأصلي للتسبيح هو: تنزيه الله ﷻ عما لا يليق به في ذاته وأسمائه وصفاته وأقواله وأفعاله.

وهذا المعنى يجمعه أمران عليهما مدار تنزيه الله تعالى:

أحدهما: تنزيه الله تعالى عن النقائص والعيوب.

والآخر: تنزيه الله تعالى عن التمثيل والتشبيه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «والتنزيه الذي يستحقه الرب يجمعه نوعان:

أحدهما: نفي النقص عنه.

والثاني: نفي مماثلة شيء من الأشياء فيما يستحقه من صفات الكمال»(١).

وقال الإمام ابن قيم الجوزية ـ وهو يعدد الطرق النقلية الدالة على علو الله تعالى ـ:

«هذا وثامن عشرها تنزيهه سبحانه عن موجب النقصان

(١) منهاج السنة النبوية: ٢/١٨٦ ـ ١٨٧. وانظر أيضاً: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٥/٣٢٩، و١٦/٩٨، ٣٦٣، و١٧/١٠٨.

وعن العيوب وموجب التمثيل والتّـ شبيه جل الله ذو السلطان»[1]

فأشار في هذين البيتين إلى تنزيه الله سبحانه عن النقصان والعيوب، وتنزيهه سبحانه عن التمثيل والتشبيه.

ومن هنا يعرف أن التسبيح يتنوع ـ باعتبار معناه ـ إلى هذين النوعين اللذين جمعا التنزيه الذي يستحقه الله تعالى. وهما نوعان متلازمان، لا يحصل التسبيح على التمام إلا باجتماعهما، ولا يحقق العبد تسبيح الله تعالى ـ وفق معناه الشرعي ـ إلا بمعرفة نوعيه على التفصيل، ومعرفة ما بينهما من التلازم، وذلك هو موضوع هذا المبحث المشتمل على المطالب الثلاثة الآتية:

المطلب الأول: تسبيح الله تعالى عن النقائص.

المطلب الثاني: تسبيح الله تعالى عن التمثيل.

المطلب الثالث: تلازم نوعي التسبيح.

* * *

❖ المطلب الأول ❖

تسبيح الله تعالى عن النقائص

الكلام على هذا النوع في ثلاث مسائل:

المسألة الأولى: التعريف بالنقائص في اللغة:

النقائص: جمع، مفردها: نقيصة، وهي فعيلة من النقص، وتطلق ـ في اللغة ـ على عدة معان[2]:

---

(١) الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية (القصيدة النونية): ص١٣٥.

(٢) انظر: جمهرة اللغة، لابن دريد: ٣/ ٨٥، وتهذيب اللغة، للأزهري: ٨/ ٣٧٣، والصحاح، للجوهري: ٣/ ١٠٥٩، ولسان العرب، لابن منظور: =

أحدها: الخصلة الدنيئة في الإنسان.

والثاني: العيب.

والثالث: الضعف.

والرابع: الخسران في الحظ.

والخامس: الوقيعة في الناس، يقال: فلان يتنقص فلاناً، أي: يقع فيه ويثلبه.

ويتبين بهذا أن معاني النقائص ـ في اللغة ـ تدور على الذم وعدم الكمال. كما يتبين أن النقائص والعيوب مترادفتان، فكل نقيصة عيب، وكل عيب نقيصة[١].

المسألة الثانية: التعريف بالنقائص التي يسبح الله تعالى وينزه عنها:

وإذا علم المراد بالنقائص في اللغة، فينبغي أن يعلم أن النقائص التي يتعالى عنها الرب ﷻ، ويسبح عنها وينزه هي: ما يوجب النقص والعيب والذم في حق الله سبحانه، من الأسماء والصفات والأفعال والأقوال. وهو كل ما ينافي ويضاد ما علم من أوصاف الكمال الثابتة لله تعالى في الكتاب والسنة، وكل ما يستلزم تعطيل أسمائه وصفاته عن مقتضياتها وآثارها[٢].

= ٧/ ١٠١، والقاموس المحيط، للفيروز آبادي: ص٨١٧، وتاج العروس، للزبيدي: ١٨/ ١٨٨ ـ ١٨٩.

(١) انظر: معارج القبول، للشيخ حافظ الحكمي، بضبط وتعليق عمر بن محمود: ١/ ٧٤.

(٢) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٦/ ٤٢٥، والتدمرية، له: ص١٣٨، وشفاء العليل، لابن قيم الجوزية: ٢/ ١٢٩، ١٩١، ومدارج السالكين: له: ١/ ٤١٨ ـ ٤١٩، والتوضيح المبين لتوحيد الأنبياء والمرسلين، =

فالنقائص التي يتضمن التسبيح تنزيه الله تعالى عنها تكون إما مناقضة لأسماء الله الحسنى وصفاته العليا الواردة في الكتاب والسنة، وإما مستلزمة تعطيلها عما تقتضيه من الأقوال والأفعال. وكل ما كان كذلك ـ من اسم أو صفة، أو قول أو فعل ـ فالتسبيح يشمله في المعنى نفياً لهذا الجنس، وتنزيهاً لله تعالى عنه؛ لأن هذا الجنس يوجب نقصاً وعيباً وذماً في حقه سبحانه، وهو منزه عن كل نقص وعيب وذم، موصوف بكل كمال وحمد ومدح.

وبيان ذلك: أنه قد علم أن الله تعالى حي، والموت ضد الحياة، فهو منزه عنه، وكذلك النوم والسنة ضد كمال الحياة، فإن الحي اليقظان أكمل من النائم والوسنان، والله ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وعلم أنّه سبحانه وصف نفسه بالعلو[١]، وهو من صفات المدح والكمال والتعظيم له، فلا يوصف بضد العلو، وهو السفول، بل هو منزه عن ذلك.

وعلم أيضاً أنه تعالى (الصمد)، ومن معاني الصمد: المصمت الذي لا جوف له، ولا يأكل ولا يشرب، ولا يخرج منه شيء[٢].

فإن الأكل والشرب ونحو ذلك من الأمور فيه افتقار إلى موجود غيره، كما أن الاستعانة بالغير والاعتضاد به يتضمن الافتقار والاحتياج

= للشيخ عبد الرحمن السعدي، بتصحيح الشيخ محمد بن سليمان آل بسام: ص١٢٥.

(١) انظر: ما سبق بيانه من معاني العلو في حق الله تعالى، في ص(١٢٨ ـ ١٢٩).

(٢) هذا بعض ما جاء عن السلف في معنى اسمه (الصمد). وانظر: تفسير الطبري: ١٢/٧٤١ ـ ٧٤٤، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٧/ ٢١٤ ـ ٢٣٤.

إليه، وكل من يحتاج إلى من يحمله أو يعينه على قيام ذاته، أو أفعاله، فو مفتقر إليه ليس مستغنياً بنفسه، فكيف من يأكل ويشرب؟! والآكل والشارب أجوف، والمصمت الصمد أكمل من الآكل الشارب.

وبهذا يعلم تنزيهه عن الذوق، والكبد، والطحال، ونحو ذلك من آلات الأكل والشرب؛ لأن هذه الآلات لا يوصف بها إلا من يأكل ويشرب، والله الغني المنزه عن الأكل والشرب منزه عن آلات ذلك، بخلاف اليد، فإنها للعمل والفعل، وهو سبحانه موصوف بالعمل والفعل، إذ ذلك من صفات الكمال، فمن يقدر أن يفعل أكمل ممن لا يقدر على الفعل.

وكذلك علم أنه سبحانه مدح نفسه بأنه العظيم، والعليم، والقدير، والعزيز، والحليم، والحكيم، والسميع، والبصير، فعلم أنه منزه عن أضداد هذه الأوصاف، فلا يجوز أن يوصف بضد العظمة وهو الحقارة، ولا بضد العلم وهو الجهل، ولا بضد القدرة وهو العجز، ولا بضد العزة وهو الذل، ولا بضد الحلم وهو السفه، ولا بضد الحكمة وهو العبث، ولا بضد السمع وهو الصمم، ولا بضد البصر وهو العمى، بل هو سبحانه منزه عن هذه النقائص المنافية لصفات الكمال الثابتة له.

ومن هذا الباب أيضاً: أنه سبحانه موصوف بالكلام دون البكم، وبالضحك دون البكاء، وبالفرح دون الحزن، وبالعدل دون الظلم، وبأنه يأمر بالعدل والإحسان، ولا يأمر بالفحشاء والمنكر، ويحب المحسنين، ولا يحب المفسدين، ونحو ذلك مما يطول المقام بذكره دون استيفائه[1].

---

(١) انظر: فيما سبق من الأمثلة: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٦/ ٩٣ و١٦/ ٩٧ ـ ٩٨، والتدمرية، له: ص١٤١ ـ ١٤٤.

وبالجملة، فالنقائص هي أضداد صفات الكمال المعلوم ثبوتها لله تعالى في الكتاب والسنة.

فيتبين بهذا أن حقيقة النقائص التي ينزه عنها الله تعالى راجعة إلى سلب صفات الكمال عنه سبحانه، فمجرد سلب هذه الصفات نقص ينزه الله تعالى عنه، ولهذا قال الإمام ابن قيم الجوزية:

«ما النقص غير السلب حسب وكل نقـ ... ص أصله سلب وهذا واضح التبيان
فالجهل سلب العلم وهو نقيصة ... والظلم سلب العدل والإحسان
متنقص الرحمن سالب وصفه ... حقاً تعالى الله عن نقصان»[١]

المسألة الثالثة: أنواع النقائص.

وإذا تبين أن مسمى النقائص يصدق على أشياء متعددة غير منحصرة، فقد ذكر بعض أهل العلم أن جميع ما ينزه الله تعالى عنه من النقائص والعيوب على نوعين:

النوع الأول: تنزيه الله تعالى عن النقائص المتصلة.

والنقائص المتصلة: هي صفات النقص التي من شأنها أن تكون متصلة بالموصوف بها، قائمة به، غير منفصلة عنه.

ويشمل هذا النوع صفات النص المحضة، كالموت، والجهل، والنسيان، والعجز، والتعب، والكذب، والظلم، والخيانة، والبخل، والخوف، والذل، والافتقار، والقبح، ونحو ذلك من الصفات المجردة عن الكمال.

ويشمل هذا النوع كذلك الكمال النسبي المستلزم للنقص، وهو ما يكون كمالاً بالنسبة إلى المخلوق، ولكنه كمال مستلزم لنقص المخلوق وحاجته، كالأكل والشرب ـ مثلاً ـ، فإن الصحيح الذي يشتهي الأكل

---

(١) الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية (القصيدة النونية): ص٢٢٩.

والشرب من الحيوان أكمل من المريض الذي لا يشتهي الأكل والشرب؛ لأن قوامه بالأكل والشرب، فإذا قدر غير قابل له، كان ناقصاً عن القابل لذلك، لكن الأكل والشرب يستلزمان حاجة الآكل والشارب إلى غيره، وهو ما يدخل فيه من الطعام والشراب، وما لا يحتاج إلى دخول شيء فيه أكمل مما يحتاج إلى ذلك، وما يتوقف كماله على غيره أنقص مما لا يحتاج في كماله إلى غيره.

وبهذا يعلم أن من النقائص التي ينزه الله تعالى عنها ما يكون بالنسبة إلى المخلوق كمالاً، وهو بالنسبة إلى الخالق تعالى نقص؛ لأنه ليس كمالاً محضاً، بل هو كمال مقرون بالنقص والحاجة والافتقار، والرب الخالق منزه عن ذلك.

إذا، ليس كل كمال في المخلوق يجوز أن يكون كمالاً للخالق، كما أنه ليس كل كمال في الخالق ﷻ يعد كمالاً في المخلوق المربوب، فمثلاً: التعالي والتكبر والثناء على النفس كمال محمود من الرب الخالق تبارك وتعالى، وهو نقص مذموم من المخلوق المربوب.

فالله تعالى مستحق للكمال الذي لا نقص فيه بوجه من الوجوه، منزه عن صفات النقص المحضة، وعن الكمال النسبي المستلزم للنقص.

وهذا ما يتعلق بتنزيه الله تعالى عن النقائص المتصلة[١].

النوع الثاني: تنزيه الله تعالى عن النقائص المنفصلة.

والنقائص المنفصلة: هي ما افتراه الجاهلون ونسبوه إلى الله تعالى

---

(١) انظر فيما سبق من الكلام على ذلك ـ: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٦/ ٨٧، ١٣٧، وشرح القصيدة النونية، لهراس: ٢/ ٥٧، وشرح العقيدة الواسطية، للشيخ ابن عثيمين: ١/ ١٤٣، ١٦٨.

من الأشياء المنفصلة التي توجب نسبتها إلى الله النقص في حقه سبحانه، وليست من قبيل الصفات القائمة بالموصوف.

وذلك مثل: نسبة بعض الجهال الولد، والوالد، والصاحبة إلى الله تعالى. وافتراء بعضهم الشريك، والظهير مع الله تعالى، أو الشفيع بغير إذنه، أو الولي من دونه.

فهذه الأمثلة المذكورة أشياء منفصلة افتراها جهال العباد، وزعموا وجودها، وهي اعتقادات باطلة لا حقيقة لها، ولا تليق بكمال الله ووحدانيته، بل الله تعالى منزه عن هذه الافتراءات كلها.

أما الولد والوالد والصاحبة، فمنفيون عن الله تعالى مطلقاً، كما قال سبحانه: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص: ١ ـ ٤]، وقال سبحانه: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾﴾ [الجن: ٣].

وأما الشريك والظهير ـ وهو المعاون ـ، فمنفيان أيضاً عن الله تعالى مطلقاً، كما قال ﷻ: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [سبأ: ٢٢].

وأما الشفيع بغير إذن الله، فمنفي بقوله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٣].

ونفى الله تعالى الولي من دونه في قوله سبحانه: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾﴾ [البقرة: ١٠٧].

وهذا ما يتعلق بتنزيه الله تعالى عن النقائص المنفصلة.

وفي بيان نوعي النقائص المتصل والمنفصل يقول الإمام ابن قيم الجوزية:

«سلب النقائص والعيوب جميعها عنه هما نوعان معقولان
سلب لمتصل ومنفصل هما نوعان معروفان أما الثاني
سلب الشريك مع الظهير مع الشـ ـفيع بدون إذن المالك الديان
وكذاك سلب الزوج والولد الذي نسبوا إليه عابدو الصلبان
وكذاك نفي الكفء أيضاً والولي لنا سوى الرحمن ذي الغفران
والأول التنزيه للرحمن عن وصف العيوب وكل ذي نقصان
كالموت والإعياء والتعب الذي ينفي اقتدار الخالق المنان
والنوم والسنة التي هي أصله وعزوب شيء عنه في الأكوان
وكذلك العبث الذي تنفيه حكـ ـمته وحمد الله ذي الإتقان
وكذاك ترك الخلق إهمالاً سدى لا يبعثون إلى معاد ثان
كلا ولا أمر ولا نهي عليـ ـهم من إله قادر ديان
وكذاك ظلم عباده وهو الغني فما له والظلم للإنسان
وكذاك غفلته تعالى وهو علا م الغيوب فظاهر البطلان
وكذاك النسيان جل إلهنا لا يعتريه قط من نسيان
وكذاك حاجته إلى طعم ورز ق وهو رزاق بلا حسبان»[1]

❖ المطلب الثاني ❖

تسبيح الله تعالى عن التمثيل

والكلام على هذا النوع في أربع مسائل:

المسألة الأولى: التعريف بالتمثيل في اللغة:

التمثيل: مصدر مثّل يمثّل، وهو تفعيل من المثل.

---

(١) الكافية الشافية (القصيدة النونية) ص٢٣٨ ـ ٢٣٩.

والميم والثاء واللام أصل لغوي صحيح يدل على مشابهة الشيء للشيء، ومناظرته له[١].

يقال: هذا مثل هذا، أي: شبهه ونظيره.

ومِثْل، ومَثَل، ومَثِيل: كشِبْه، وشَبَه، وشَبِيه[٢].

ويقال: مثّل الشيء بالشيء، أي: سوّاه وشبّهه به، وجعله مثله وعلى مثاله[٣]. ومصدر ذلك هو التمثيل.

فالتمثيل إذا: هو التسوية والتشبيه.

ويقال أيضاً: مثل ـ بالتشديد والتخفيف ـ، أي: صور مثالاً.

والتمثيل: الاسم منه. وظل كل شيء: تمثاله[٤].

ومن ذلك حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **«أشد الناس عذاباً يوم القيامة: رجل قتله نبي، أو قتل نبياً، وإمام ضلالة، وممثل من الممثلين»**[٥].

فقوله: (وممثل من الممثلين) أي: مصور من المصورين[٦].

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، لابن فارس: ٥/ ٢٩٦.

(٢) انظر: المصدر السابق، ولسان العرب، لابن منظور: ١١/ ٦١٠.

(٣) انظر: تهذيب اللغة، للأزهري: ١٥/ ٩٨، والنهاية في غريب الحديث، لابن الأثير: ٤/ ٢٩٥، ولسان العرب، لابن المنظور: ١١/ ٦١٣.

(٤) انظر: النهاية في غريب الحديث، لابن الأثير: ٤/ ٢٩٥.

(٥) أخرجه أحمد في مسنده: ١/ ٤٠٧، بإسناد رجاله ثقات، غير عاصم ـ وهو ابن أبي النجود ـ فإنه صدوق له أوهام، كما في (تقريب التهذيب، لابن حجر: ١/ ٣٦٠)، والحديث حسنه الألباني في صحيح الجامع، برقم (١٠٠٠). وانظر: السلسلة الصحيحة، له: رقم (٢٨١).

(٦) انظر: النهاية في غريب الحديث، لابن الأثير: ٤/ ٢٩٥.

ويعلم ـ بما سبق ـ أن التمثيل في اللغة يكون بمعنى: التشبيه والتسوية والتصوير.

المسألة الثانية: التعريف بالتمثيل الذي يسبح الله تعالى وينزه عنه:

والتمثيل الذي يسبح الله تعالى عنه وينزه هو: أن يشارك سبحانه المخلوقات في شيء من خصائصها، وأن يشاركه المخلوق في شيء من خصائصه ﷻ[(١)].

فالمشاركة في الخصائص بين الله تعالى ومخلوقاته هي التمثيل الممتنع في حق الله تعالى، وهي التي يكون تنزيه الله تعالى عنها داخلاً في معنى التسبيح.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «التشبيه الذي يجب نفيه عن الرب تعالى: اتصافه بشيء من خصائص المخلوقين، كما أن المخلوق لا يتصف بشيء من خصائص الخالق، وأن يثبت للعبد شيء يماثل فيه الرب» اهـ[(٢)].

وهذا يعني أن كل ما يثبت لله تعالى من الوجود، والأسماء والصفات، والأقوال والأفعال، فهو مختص به، لا يجوز أن يشركه فيه مخلوق، سواء كان ما ثبت له مما لا يثبت منه شيء للمخلوق، كوجوب الوجود، وربوبية العباد، والغنى المطلق، والإلهية، ونحو ذلك، أو كان مما يثبت منه نوع للمخلوق، كالسمع والبصر، والعلم والقدرة، والرضا والغضب، والاستواء، والنزول، فالذي يثبت لله تعالى من هذه المعاني هو أكمل وأعظم مما يثبت من ذلك للمخلوق، بحيث

---

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٦/ ١٢٢، والتدمرية، له: ص٣٩ ـ ٤٠.

(٢) بيان تلبيس الجهمية: ١/ ٥٨٨.

لا يقاربه المخلوق في هذه المعاني فضلاً عن أن يماثله فيها[١].

ومن هنا يعلم أن الاتفاق في بعض الأسماء والصفات بين الخالق ﷻ والمخلوق لا يوجب التمثيل الممتنع في حق الله تعالى، للعلم القطعي أنه سبحانه ليس من جنس المخلوقات، فلا يجوز أن تكون حقيقته كحقيقة شيء من المخلوقات، ولا حقيقة شيء من أسمائه وصفاته كحقيقة شيء من أسماء المخلوقات وصفاتهم[٢].

قال الإمام أبو نصر السجزي[٣]: «والأصل الذي يجب أن يعلم: أن اتفاق التسميات لا يوجب اتفاق المسميين بها، فنحن إذا قلنا: إن الله موجود، رؤوف، واحد، حي، عليم، سميع، بصير، متكلم. وقلنا: إن النبي ﷺ كان موجوداً، حياً، عالماً، سميعاً، بصيراً، متكلماً، لم يكن ذلك تشبيها، ولا خالفنا به أحداً من السلف والأئمة، بل الله موجود لم يزل، واحد حي قديم قيوم عالم سميع بصير متكلم فيما لم يزل، ولا يجوز أن يوصف بأضداد هذه الصفات، والموجود منا إنما وجد عن عدم، وحيي بمعنى حله، ثم يصير ميتاً بزوال ذلك المعنى، وعلم بعد أن لم يعلم، وقد ينسى ما علم، وسمع وأبصر وتكلم بجوارح قد تلحقها الآفات، فلم يكن فيما أطلق للخلق تشبيه بما أطلق للخالق ﷻ، وإن اتفقت مسميات هذه الصفات» اهـ[٤].

---

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٦/ ١٣٩ ـ ١٤٠ و١٧/ ٣٢٥.

(٢) انظر: التدمرية، لشيخ الإسلام ابن تيمية: ص١٤٤ ـ ١٤٥.

(٣) هو عبيد الله بن سعيد بن حاتم بن أحمد الوائلي، أبو نصر، السجزي، الإمام الحافظ المجود، شيخ السنة وعلمها، وصاحب التصانيف المفيدة، ومنها: الإبانة في مسألة القرآن، والرد على من أنكر الحرف والصوت، وغيرهما، وتوفي سنة (٤٤٤هـ)، رحمه الله. انظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي: ١٧/ ٦٥٤ ـ ٦٥٧، وشذرات الذهب، لابن العماد: ٣/ ٢٧١ ـ ٢٧٢.

(٤) الإبانة في مسألة القرآن، بواسطة درء تعارض العقل والنقل، لشيخ الإسلام =

ومن المعلوم بالضرورة أن بين كل موجودين قدراً مشتركاً وقدراً مميزاً[١]، فالقدر المشترك: هو مسمى اللفظ عند الإطلاق[٢]، وهو مطلق كلي لا يختص بأحدهما دون الآخر[٣]، ولا يوجد في الخارج إلا معيناً مقيداً[٤]. والقدر المميز: هو مسمى اللفظ عند التقييد، فإذا قيد اللفظ بأحد المحلين تقيد به[٥]، وامتنع اشتراكهما فيما يختص به أحدهما؛ لأن الدال على ما به الاشتراك وحده لا يستلزم ما به الامتياز[٦].

ومثال ذلك: اسم العلم، فإنه يستعمل مطلقاً، ويستعمل مضافاً إلى العبد، كقول الله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ [آل عمران: ١٨]. ويستعمل مضافاً إلى الله تعالى، كقوله سبحانه: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾ [النساء: ١٦٦].

فإذا أضيف العلم إلى المخلوق، اختص به، ولم يصلح أن يدخل فيه علم الخالق سبحانه، ولم يكن علم المخلوق كعلم الخالق.

وإذا أضيف العلم إلى الخالق، اختص به، ولم يصلح أن يدخل فيه علم المخلوقين، ولم يكن علمه تعالى كعلمهم.

= ابن تيمية: ٢/ ٨٩ ـ ٩٠. وكتاب الإبانة، لأبي نصر السجزي لا أعلمه مطبوعاً.

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٥/ ٢٠٢.

(٢) انظر: المصدر السابق، الموضع نفسه.

(٣) انظر: التدمرية، لشيخ الإسلام ابن تيمية: ص١٢٦.

(٤) انظر: المصدر السابق: ص١٢٨.

(٥) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٥/ ٢٠٢.

(٦) انظر: المصدر السابق، الموضع نفسه.

وإذا قيل: العلم مطلقاً، أمكن تقسيمه، فيقال: العلم ينقسم إلى العلم القديم الأزلي، والعلم المحدث، فلفظ العلم عام فيهما متناول لهما بطريق الحقيقة[١].

ولهذا سمى الله تعالى نفسه بأسماء، وسمى صفاته بأسماء، فكانت تلك الأسماء مختصة به إذا أضيفت إليه، لا يشركه فيها غيره، وسمى بعض مخلوقاته بأسماء مختصة بهم مضافة إليهم، توافق تلك الأسماء التي سمى بها نفسه المقدسة إذا قطعت عن الإضافة والتخصيص[٢] ولم يلزم من هذه الموافقة في الأسماء المماثلة في الخصائص والحقائق[٣]، وإنما دلت الموافقة على أن بين المسميين قدراً مشتركاً فقط[٤]، وليس في ذلك ما يدل على شيء من خصائص المخلوقين، كما لا يدل على شيء من خصائص الخالق[٥]. وكل ما يثبت لله تعالى من الأسماء والصفات دال على القدر المشترك الذي تتوافق فيه المسميات[٦]؛ لأن أسماء الله وصفاته تعالى غيب، والغيب لا يفهم إن لم يعبر عنه بالأسماء المعلومة معانيها في الشاهد، ويعلم بها ما في الغائب بواسطة العلم بما في الشاهد، مع العلم بالفارق المميز، وأن ما اختص الله تعالى به، وامتاز عن خلقه أعظم ممّا يخطر بالبال، أو يدور في الخيال[٧].

ومن هنا كانت أسماء الله وصفاته تعالى معلومة باعتبار معانيها

---

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٥/ ٢٠٠.
(٢) انظر: التدمرية، لشيخ الإسلام ابن تيمية: ص٢١.
(٣) انظر: المصدر السابق، الموضع نفسه.
(٤) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٥/ ٢٠٢.
(٥) انظر: التدمرية: ص١٢٦.
(٦) انظر: المصدر السابق: ص٤٢.
(٧) انظر: التدمرية: ص٤٣، ٩٧.

التي دلت عليها ظواهر ألفاظها، ومجهولة باعتبار كيفياتها التي هي عليها[١]، والتي بها باين الله تعالى مخلوقاته وامتاز عنهم.

وبهذا يتبين أن المماثلة فيما هو مستحق لله تعالى من الكمال، وأن يشركه شيء من الأشياء فيما هو من خصائص هو حقيقة التمثيل الذي دل التسبيح وسائر أدلة الكتاب والسنة على أنه سبحانه منزه عنه.

فمن جوز على الله تعالى أن يتصف بخصائص المخلوقين، أو جوز على المخلوق أن يتصف بشيء من خصائص الله تعالى، فقد وقع في التمثيل الممنوع شرعاً وعقلاً.

ومن أثبت لله تعالى الأسماء والصفات كما يليق بكماله وجلاله وعظمته، ونفى عنه خصائص المخلوقين، وأفرده بالربوبية والألوهية، فقد حقق التوحيد المطلوب شرعاً وعقلاً.

وإنما احتاج التعريف بالتمثيل إلى شيء من البسط؛ لأنه مقام غلط فيه كثير من أهل الكلام، مما أدى بهم إلى الخطأ والضلال في توحيد الله تعالى[٢].

وللإمام ابن قيم الجوزية كلام جامع في هذا الباب، بين فيه أن الأسماء والصفات التي تطلق على الله تعالى وعلى العباد، كالحي والسميع والبصير والعليم والقدير والملك ونحوها، لها ثلاثة اعتبارات:

الاعتبار الأول: اعتبارها من حيث هي، مع قطع النظر عن تقييدها، بالرب تعالى أو بالعبد.

---

(١) انظر: القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى، للشيخ ابن عثيمين: ص٤٣.

(٢) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٥/٢٠٦، والتدمرية، له: ص١٢٧.

الاعتبار الثاني: اعتبارها مضافة إلى الرب تعالى مختصة به.

الاعتبار الثالث: اعتبارها مضافة إلى العبد مقيدة به.

فما لزم الاسم أو الصفة من هذا النوع لذاته وحقيقته كان ثابتاً للرب والعبد، وللرب منه ما يليق بكماله، وللعبد منه ما يليق به. وهذا كاسم (السميع) الذي يلزمه إدراك المسموعات، و(البصير) الذي يلزمه رؤية المبصرات، والعليم والقدير وسائر الأسماء، فإن شرط صحة إطلاقها حصول معانيها وحقائقها للموصوف بها، فما لزم هذه الأسماء والصفات لذاتها، فإثباته للرب تعالى لا محذور فيه بوجه، بل تثبت له على وجه لا يماثله فيه خلقه، فمن نفاه عنه لأجل أنه يطلق على المخلوق، فقد ألحد في أسمائه، وجحد صفات كماله. ومن أثبته له على وجه يماثل فيه خلقه، فقد مثله بخلقه. ومن أثبته له على وجه لا يماثل فيه خلقه، بل كما يليق بجلاله وعظمته، فقد برئ من التعطيل والتمثيل، وهذا طريق أهل السنة والجماعة.

وما لزم الاسم أو الصفة لإضافته إلى العبد، وجب نفيه عن الله تعالى، كما يلزم حياة العبد من النوم والسنة والحاجة إلى الغذاء ونحو ذلك. وكذلك ما يلزم إرادته من حركة نفسه في جلب ما ينتفع به ودفع ما يتضرر به. وكذلك ما يلزم علوه من احتياجه إلى ما هو عال عليه، وكونه محمولاً به مفتقراً إليه محاطاً به. كل هذا يجب نفيه عن الله تعالى.

وما لزم الاسم أو الصفة من جهة اختصاص الله تعالى به، فإنه لا يثبت للمخلوق بوجه، كعلمه تعالى الذي يلزمه القدم والوجوب والإحاطة بكل معلوم، وقدرته وإرادته وسائر صفاته، فإن ما يختص به منها لا يمكن إثباته للمخلوق[1].

---

(١) بدائع الفوائد: ١/ ١٨١ ـ ١٨٢، بتصرف.

قال ابن القيم: «فإذا أحطت بهذه القاعدة خبراً، وعقلتها كما ينبغي، خلصت من الآفتين اللتين هما أصل بلاء المتكلمين: آفة التعطيل، وآفة التشبيه، فإنك إذا وفيت هذا المقام حقه من التصور، أثبت لله الأسماء الحسنى والصفات العلى حقيقة، فخلصت من التعطيل، ونفيت عنها خصائص المخلوقين ومشابهتهم، فخلصت من التشبيه. فتدبر هذا الموضع، واجعله جنتك التي ترجع إليها في هذا الباب، والله الموفق للصواب» اهـ[١].

المسألة الثالثة: الفرق بين التمثيل والتشبيه:

التشبيه ـ من حيث اللغة كالتمثيل وزنا ومعنى، كما سبق في التعريف بالتمثيل في اللغة.

وقال الإمام أبو القاسم التيمي الأصبهاني: «وأما التشبيه: فهو مصدر شبه، يشبه، تشبيهاً. يقال: شبهت الشيء بالشيء، أي: مثلته به، وقسته عليه، إما بذاته، أو بصفاته أو بأفعاله. قال أهل اللغة: أشبه الشيء الشيء، وشابهه، أي صار مثله. وهذا الشيء شبه هذا، وشبيهه، وشبهه، ومشابهه» اهـ[٢].

ووقع في كلام بعض أئمة السلف استعمال التشبيه بمعنى التمثيل الذي يجب تنزيه الله تعالى عنه[٣]، كقول الإمام نعيم بن حماد الخزاعي[٤]: «من

(١) المصدر السابق: ١/ ١٨٢.
(٢) الحجة في بيان المحجة: ١/ ٣٠٦.
(٣) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٤/ ١٥٣.
(٤) هو نعيم بن حماد بن معاوية بن الحارث الخزاعي، أبو عبد الله، المروزي، الفرضي، الإمام العلامة الحافظ، يقال: إنه أول من جمع المسند في الحديث، وكان شديد الرد على الجهمية وأهل الأهواء، وتوفي سنة (٢٢٨هـ)، رَحِمَهُ اللهُ. انظر: تذكرة الحفاظ، للذهبي: ٢/ ٤١٨ ـ ٤٢٠، وتهذيب التهذيب، لابن حجر: ١٠/ ٤٥٨.

شبه الله بخلقه فقد كفر، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر، وليس ما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيهاً» اهـ[(١)].

وظاهر هذا كله أن التمثيل والتشبيه سيان في اللغة وفي باب العقيدة.

وذكر بعض أهل العلم أنه قد يفرق بينهما: بأن التمثيل هو التسوية في كل الصفات، فيقتضي المساواة من كل وجه.

والتشبيه هو التسوية في أكثر الصفات، فيقتضي المساواة من بعض الوجوه لا من كل وجه[(٢)].

ومهما قيل من التسوية بين التمثيل والتشبيه في المعنى، أو التفريق بينهما، فإن التعبير بنفي التمثيل في حق الله تعالى أولى من التعبير بنفي التشبيه، لوجوه ثلاثة[(٣)]:

الوجه الأول: أن التمثيل هو الذي ورد نفيه في القرآن الكريم، كما قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

وقد ورد في القرآن الكريم أيضاً نفي التمثيل عن الله تعالى بلفظ (الند)، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]. قال الإمام ابن جرير الطبري: «والأنداد: جمع ند، والند: العدل والمثل»[(٤)].

---

(١) رواه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، تحقيق الدكتور أحمد سعد حمدان: برقم (٩٣٦)، وهو صحيح. انظر: مختصر العلو، للشيخ الألباني: ص١٨٤، برقم (٢١٧).
(٢) انظر: القواعد المثلى، للشيخ ابن عثيمين: ص٣٦، وفتح رب البرية بتلخيص الحموية، له: ضمن القواعد الطيبات في الأسماء والصفات: ص١٠٧.
(٣) انظر: القول المفيد على كتاب التوحيد، للشيخ ابن عثيمين: ٣/٩٦.
(٤) تفسير الطبري: ١/١٩٨.

وبلفظ (السمي)، كما قال تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]، وتقدم بيان معنى هذه الآية عند الكلام على النفي الوارد في حق الله تعالى[(١)].

وبلفظ (الكفؤ)، كما قال تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص: ٤]، وتقدم بيان معنى ذلك أيضاً[(٢)].

وأما لفظ (التشبيه)، فلم يرد في الكتاب ولا في السنة نفيه في حق الله تعالى، فكان التعبير بالألفاظ الشرعية في هذا الباب أولى من التعبير بلفظ ليس في كتاب الله تعالى ولا في سنة رسوله ﷺ[(٣)].

والوجه الثاني: «أنه ما من شيئين موجودين إلا وبينهما تشابه من بعض الوجوه، واشتراك في المعنى من بعض الوجوه»[(٤)]، كما سبق بيانه قريباً في المسألة الثانية.

وهذا التشابه من بعض الوجوه أو الاشتراك في المعنى من بعض الوجوه لا يصح نفيه مطلقاً، كما يصح نفي التمثيل مطلقاً؛ لأن ذلك يفضي إلى التعطيل التام، وهو تعطيل وجود كل موجود[(٥)].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وأما التشبيه ـ في اللغة ـ فإنه قد يقال بدون التماثل في شيء من الحقيقة، كما يقال للصورة المرسومة في الحائط: إنها تشبه الحيوان. ويقال: هذا يشبه هذا في كذا وكذا، وإن كانت الحقيقتان مختلفتين.

---

(١) انظر: ص١٤٤. (٢) انظر: ص١٣٩.

(٣) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٣/ ١٦٦.

(٤) مقتبس من: القول المفيد على كتاب التوحيد، للشيخ ابن عثيمين: ٣/ ٩٦ ـ ٩٧.

(٥) انظر: التدمرية، لشيخ الإسلام ابن تيمية: ص١٢٦، ١٢٧، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٣/ ٩٩.

ولهذا كان أئمة أهل السنة ومحققو أهل الكلام يمنعون من أن يقال: لا يشبه الأشياء بوجه من الوجوه، فإن مقتضى هذا كونه معدوماً، ومنهم طوائف يطلقون هذا، لكن من هؤلاء من يريد بنفي التشابه: نفي التماثل، فلا يكون بينهما خلاف معنوي، إذ هم متفقون على نفي التماثل بوجه من الوجوه، كما دل على ذلك القرآن» اهـ[١].

الوجه الثالث: أن لفظ (التشبيه) قد دخله الإجمال والاشتراك بسبب اختلاف الاصطلاحات فيه، فقد يراد به التمثيل الذي دل الكتاب والسنة على نفيه عن الله تعالى، كما وقع في كلام بعض علماء أهل السنة والجماعة. وقد يراد به نفي الحق الذي دل الكتاب والسنة على إثباته في حق الله تعالى، كما يقع كثيراً في كلام أهل البدع والأهواء الذين يجعلون إثبات صفات الله تعالى أو بعضها تشبيهاً، ويسمون كل من أثبت لله تعالى ما يستحقه من صفات الكمال مشبهاً[٢].

ولهذا صار استعمال هذا اللفظ موهماً، بخلاف لفظ (التمثيل) الذي دل عليه القرآن ونفى موجبه عن الله ﷻ[٣].

المسألة الرابعة: أنواع التمثيل:

والتمثيل الممتنع على الله تعالى نوعان[٤]:

---

(١) بيان تلبيس الجهمية: ١/ ٤٧٧.

(٢) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٤/ ١٥٠، وبيان تلبيس الجهمية: ١/ ١٠٩، ٤٧٦ ـ ٤٧٧، والتدمرية، له: ص١١٧، وشرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز الدمشقي: ١/ ٥٧، والقول المفيد على كتاب التوحيد، للشيخ ابن عثيمين: ٣/ ٩٧.

(٣) انظر: بيان تلبيس الجهمية، لشيخ الإسلام ابن تيمية: ١/ ١٠٩.

(٤) انظر: شرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز: ١/ ٢٥٩، وطريق الوصول إلى العلم المأمول، للشيخ عبد الرحمن السعدي: ص٢٢٧، والتنبيهات السنية =

النوع الأول: تمثيل الخالق بالمخلوق.

وهو أن يثبت لله تعالى في ذاته أو صفاته أو أفعاله من الخصائص على حد ما يثبت للمخلوق من ذلك[١].

كمن قال: لله تعالى علم كعلم المخلوق، أو قوة كقوة المخلوق، أو حب كحب المخلوق، أو يدان كيدي المخلوق، أو استواء كاستواء المخلوق، أو نحو ذلك[٢].

وهذا النوع من التمثيل ممتنع على الله تعالى، لامتناع مشاركته المخلوقات في شيء من خصائصها، كما سبق بيانه، سواء كانت تلك الخاصة شاملة لجميع المخلوقات أو مختصة ببعضها[٣].

ولهذا لما كان الله سبحانه موصوفاً بأن له يدين، وصفت كلتا يديه باليمين، دفعا لتوهم النقص عن يده الأخرى، كما هي الحال في أيدي المخلوقين، فإن يسار أحدهم أنقص من يمينه في القوة والفعل[٤].

ومما جاء في إثبات اليدين لله تعالى ووصفهما باليمين:

١ ـ حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن عز وجل، وكلتا يديه يمين: الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا**»[٥].

= على العقيدة الواسطية، للشيخ عبد العزيز الناصر الرشيد: ص٢٥، والكواشف الجلية، للشيخ عبد العزيز السلمان: ص٨٩.

(١) انظر: فتح رب البرية، للشيخ ابن عثيمين ـ ضمن القواعد الطيبات ـ: ١٠٩.

(٢) انظر: التدمرية، لشيخ الإسلام ابن تيمية: ص٣٠، والمصدر السابق قبله.

(٣) انظر: درء تعارض العقل والنقل، لشيخ الإسلام ابن تيمية: ٤/ ١٤٤.

(٤) تأويل مختلف الحديث، لابن قتيبة، تحقيق عبد القادر أحمد عطا: ص١٩٠.

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه: ٣/ ١٤٥٨، برقم (١٨٢٧).

٢ ـ وحديث أبي هريرة رضي الله عنه في خلق آدم عليه السلام، وفيه أنه قال: «**اخترت يمين ربي وكلتا يدي ربي يمين مباركة**»[(١)].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وقد جاء ذكر اليدين في عدة أحاديث ويذكر فيها أن كلتيهما يمين، مع تفضيل اليمين. قال غير واحد من العلماء: لما كانت صفات المخلوقين متضمنة للنقص، فكانت يسار أحدهم ناقصة في القوة، ناقصة في الفعل، بحيث تفعل بمياسرها كل ما يذم ـ كما يباشر بيده اليسرى النجاسات والأقذار ـ بين النبي ﷺ أن كلتا يمين الرب مباركة، ليس فيها نقص ولا عيب بوجه من الوجوه، كما في صفات المخلوقين، مع أن اليمين أفضلهما» اهـ[(٢)].

وكذا لما كان الله سبحانه موصوفاً بالنزول ـ كما ثبت في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**ينزل ربنا كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر، فيقول: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له**»[(٣)] ـ، لم يكن نزوله كنزول المخلوقين، لا نزول الآدميين ولا غيرهم، «فالمخلوق إذا نزل من علو إلى أسفل زال وصفه بالعلو، وتبدل إلى وصفه بالسفول،

---

(١) جزء من حديث طويل أخرجه الترمذي في سننه: ٥/ ٤٢٢ ـ ٤٢٣، برقم (٣٣٦٨)، والحاكم في المستدرك: ١/ ١٣٢ ـ ١٣٣، برقم (٢١٤)، وقال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه»، وذكر له طريقاً أخرى. وقال الحاكم: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم»، وذكر له طريقاً أخرى أيضاً، ووافقه الذهبي على تصحيح الحديث، وقد صححه الألباني أيضاً في صحيح الجامع، برقم (٥٢٠٩). وانظر: السنة، لابن أبي عاصم، ومعه ظلال الجنة، للألباني: ص٩١، برقم (٢٠٦).

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٧/ ٩٢ ـ ٩٣.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ٣/ ٢٩، برقم (١١٤٥)، ومسلم في صحيحه: ١/ ٥٢١ ـ ٥٢٣، برقم (٧٥٨).

وصار غيره أعلى منه. والرب تعالى لا يكون شيء أعلى منه قط، بل هو العلي الأعلى، ولا يزال هو العلي الأعلى مع أنه يقرب إلى عباده ويدنو منهم، وينزل إلى حيث شاء، ويأتي كما شاء، وهو في ذلك العلي الأعلى، الكبير المتعالي، علي في دنوه، قريب في علوه.

فهذا وإن لم يتصف به غيره، فلعجز المخلوق أن يجمع بين هذا وهذا، كما يعجز أن يكون هو الأول والآخر، والظاهر والباطن»[١].

فتمثيل الخالق بالمخلوق جهل عظيم بعظمة الخالق ﷻ وبما لا يليق أن يتصف به من خصائص المخلوقين.

النوع الثاني: تمثيل المخلوق بالخالق.

وهو إثبات شيء للمخلوق مما يختص به الخالق، من الأسماء والصفات، والأفعال، والحقوق[٢].

فتمثيل المخلوق بالخالق في الأسماء والصفات: هو أن يسمى المخلوق أو يوصف بما لا يصلح إلا للخالق سبحانه، وهذا يقع أحياناً ممن يغلو في مدح بعض المخلوقين، كما قال أبو الطيب المتنبي[٣] يمدح أحد الأعيان ـ:

«فكن كما أنت يا من لا شبيه له ... أو كيف شئت فما خلق يدانيكا»[٤]

---

(١) مقتبس من: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٦/ ٤٢٤.

(٢) انظر: فتح رب البرية، للشيخ ابن عثيمين ـ ضمن القواعد الطيبات ـ: ص١٠٨.

(٣) هو أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الله الجعفي، أبو الطيب، الكوفي، الشاعر الأديب الشهير بالمتنبي، ولد سنة (٣٠٣هـ) وقيل: (٣٠٦هـ)، وطلب الأدب حتى فاق أهل زمانه فيه، وبلغ الذروة في النظم، وله ديوان شعر سار في الآفاق، وتوفي سنة (٣٥٤هـ). انظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي: ١٦/ ١٩٩ ـ ٢٠١، والبداية والنهاية، لابن كثير: ١١/ ٢٧٣ ـ ٢٧٦.

(٤) البيت في (ديوان أبي الطيب المتنبي) ـ بشرح أبي البقاء العكبري ـ، ضبط =

فإن هذا القول لا يصلح أن يقال لمخلوق؛ لأن الله وحده هو الموصوف بأنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، وأنه لا يدانيه شيء في كماله.

وتمثيل المخلوق بالخالق في الأفعال: هو الشرك في توحيد الربوبية؛ لأن توحيد الربوبية: هو توحيد الله تعالى بأفعاله، كالخلق والرزق والإحياء والإماتة وتدبير الكون.

فمن زعم أن لغير الله تعالى شيئاً من هذه الأفعال ونحوها مما لا يقدر عليه أحد إلا الله، فقد مثل المخلوق بالخالق في الفعل، وأشرك مع الله في الربوبية.

وتمثيل المخلوق بالخالق في الحقوق: هو الشرك في توحيد الألوهية؛ لأن الحقوق: هي العبادات التي يجب إخلاصها لله تعالى وعدم صرفها لغيره، كالدعاء، والسجود، والخوف، والرجاء، والصوم، والحج، والصدقة، والذبح، والتوبة، والإنابة، ونحوها. فمن صرف منها شيئاً لمخلوق، فقد مثله بالخالق الذي لا يستحق العبادة أحد سواه.

وقد وقع أبو الطيب المتنبي في هذا التمثيل أيضاً، حين قال ـ يخاطب أحد ممدوحيه ـ:

«يا من ألوذ به فيما أؤمله ... ومن أعوذ به مما أحاذره
لا يجبر الناس عظما أنت كاسره ... ولا يهيضون عظما أنت جابره»[1]

قال الحافظ ابن كثير ـ بعد إيراد هذين البيتين للمتنبي ـ: «وقد

= وتصحيح مصطفى السقا، وآخرين: ٢/ ٣٧٩، ضمن أبيات يمدح بها عبد الله بن يحيى البحتري.

(١) في (ديوانه): ٢/ ٢٢٥، ضمن أبيات يمدح بها جعفر بن كيغلغ.

بلغني عن شيخنا العلامة، شيخ الإسلام أحمد ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ أنه كان ينكر على المتنبي هذه المبالغة في مخلوق، ويقول إنما يصلح هذا لجناب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وأخبرني العلامة شمس الدين ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ أنه سمع الشيخ تقي الدين المذكور يقول: ربما قلت هذين البيتين في السجود أدعو الله بما تضمناه من الذل والخضوع» اهـ[(١)].

وذلك لأن البيت الأول تضمن الدعاء واللياذ والعياذ، فاللياذ: يكون لطلب جلب الخير، والعياذ: لطلب دفع الشر[(٢)].

والبيت الثاني تضمن وصف الممدوح بالقدرة النافذة على قدرات الناس. ولا يصلح شيء مما ذكر للمخلوق، بل ذلك كله مما يختص به الخالق عَزَّوَجَلَّ.

وكذلك وقع البوصيري[(٣)] ـ صاحب قصيدة البردة، في مدح النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ في كثير من المبالغات التي فيها تمثيل المخلوق بالخالق، كقوله:

«يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به ... سواك عند حلول الحادث العمم
ولن يضيق ـ رسول الله ـ جاهك بي ... إذا الكريم تحلى باسم منتقم
فإن من جودك الدنيا وضرتها ... ومن علومك علم اللوح والقلم»[(٤)]

---

(١) البداية والنهاية: ١١/ ٢٧٥.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ١/ ١٦.

(٣) هو محمد بن سعيد بن حماد الصنهاجي الدلاصي، شرف الدين، أبو عبد الله، البوصيري. ولد سنة (٦٠٨هـ)، وكان صوفياً من أهل الطرق، نظم قصائد في مدح النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأشهرها: الكواكب الدرية في مدح خير البرية، وهي المعروفة بقصيدة البردة، وتوفي سنة (٦٩٤هـ). انظر: معجم المؤلفين، لعمر رضا كحالة: ٣/ ٣١٧ ـ ٣١٨.

(٤) قصيدة البردة ـ ضمن مجموع مهمات المتون ـ: ص٦٣.

فقد اشتملت هذه الأبيات على تمثيل المخلوق بالخالق في الألوهية، والربوبية، والصفات.

فالبيت الأول فيه دعاء المخلوق واللياذ به عند الشدائد، وهذا شرك في العبادة.

وقوله: «فإن من جودك الدنيا وضرتها» يعني: أن الدنيا والآخرة من جود رسول الله ﷺ، وهذا شرك في الربوبية.

وقوله: «ومن علومك علم اللوح والقلم» لم يبق شيئاً من علم الغيب والشهادة إلا وجعله من علم الرسول ﷺ، وهذا شرك في الصفات، فإن الله وحده الذي عنده علم اللوح والقلم، وأما المخلوق، فكما قال الله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال تعالى - لنبيه ﷺ -: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [الأنعام: ٥٠].

ولو تأمّل إنسان هذه الآية لوجدها رداً تامّاً على الأبيات المذكورة، وسبحان الله وتعالى عن أن يكون المخلوق مماثلاً له في شيء من الخصائص والحقوق.

وقد تقاسمت اليهود والنصارى نوعي التمثيل: فاليهود تشبّه الخالق بالمخلوق في صفات النقص، والنصارى تشبّه المخلوق بالخالق في صفات الكمال، ولهذا أنكر القرآن على كلّ من الطائفتين ما وقعت فيه من ذلك[1].

ووقعت طوائف من بني آدم في هذين النوعين من التمثيل، غير أنّ تمثيل المخلوق بالخالق هو الواقع في الأمم كثيراً، وهو أصل شرك

(١) انظر: درء تعارض العقل والنقل، لشيخ الإسلام ابن تيمية: ٧/ ٩٥.

العالم وعبادة الأصنام[١]، «فكل من جعل مخلوقاً مثلاً للخالق في شيء من الأشياء، فأحبّه مثل ما يحب الخالق، أو وصفه بمثل ما يوصف به الخالق فهو مشرك، سوّى بين الله وبين المخلوق في شيء من الأشياء، فعدل بربّه»[٢]، والله تعالى منزَّه عن ذلك، فلا مثل له، ولا شريك له، ولا إله غيره.

❖ المطلب الثالث ❖

تلازم نوعي التسبيح

وينبغي أن يُعلم أنَّ تنوّع التسبيح من حيث المعنى إلى تسبيح الله تعالى عن النقائص والعيوب، وتسبيحه عن التمثيل والتشبيه، لا يعني تباين هذين النوعين، بل هما نوعان متلازمان، وإذا ورد التسبيح في الكلام مجملاً تناولهما معاً، وإن كان عند التفصيل قد يختص بأحدهما.

ومعرفة ما بين نوعي التسبيح من التلازم مهمّة في باب تنزيه الله تعالى عمّا لا يليق به، وبيان ذلك كما يلي:

أولاً: أن هذين النوعين جمعا التنزيه الذي يستحقّه الله تعالى وفق ما دلّ عليه الكتاب والسنة، فإنّ النصوص الشرعيّة واردة بتنزيهه سبحانه عن النقائص والعيوب، وبتنزيهه ﷻ عن التمثيل والتشبيه، فلا يكون تنزيه الله تعالى على مقتضى الشرع إلا بالجمع بين النوعين.

ولهذا بيَّن شيخ الإسلام ابن تيمية أنّه «كما يجب تنزيه الربّ عن كلّ نقص وعيب، يجب تنزيهه عن أن يماثله شيء من المخلوقات في

(١) انظر: إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، لابن قيم الجوزية، تحقيق خالد عبد اللطيف السبع العلمي: ٢/ ٢٧٥.
(٢) مقتبس من: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٣/ ١٦٣.

شيء من صفات الكمال الثابتة له» قال: «وهذان النوعان يجمعان التنزيه الواجب لله» اهـ[١].

ثانياً: أنه لا يكفي ـ في باب تنزيه الله تعالى ـ مجرّد نفي التمثيل أو التشبيه بمعزل عن نفي النقائص والعيوب، إذ لو كان مجرّد نفي التشبيه كافياً، لجاز أن يوصف الله تعالى بما هو ممتنع عليه من النقائص والعيوب مع نفي التشبيه عنه، كما لو وصف الله تعالى مفتر عليه بالبكاء والحزن والجوع والعطش مع نفي التشبيه، ويزعم أنّ هذه الصفات تجوز على الله سبحانه كما يليق بشأنه.

وكما لو قال المفتري: إنّه تعالى يأكل لا كأكل العباد، ويشرب لا كشربهم، ويتعب لا كتعبهم، ونحو ذلك مما يتعالى الله ﷻ عنه.

فهذه الصفات المذكورة ونحوها من النقائص ممتنعة على الله ﷻ؛ لأنّها مناقضة لما علم من صفاته الكاملة، فلا ينبغي أن يوصف بشيء منها، ولا ينبغي أن يقال ـ في شيء منها ـ: إنّه يجوز عليه كما يليق بشأنه؛ لأنّ هذا الجنس يوجب نقصاً في كماله[٢]، كما سبق بيانه في معنى النقائص التي يُسبَّح الله تعالى عنها ويُنَزَّه[٣].

فالاعتماد على مجرّد نفي التشبيه فيما يُنفى عن الرّبّ تعالى ويُنَزَّه عنه ـ كما يفعله كثير من المتكلّمين ـ خطأ كبير في باب التنزيه[٤]، بل لا بدّ في هذا الباب من الاعتماد على نفي النقائص والعيوب، مع نفي التمثيل والتشبيه، كما سبق بيانه.

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٧/ ٣٢٥.
(٢) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٦/ ٤٢٥، والتدمرية، له: ص١٣٦ ـ ١٣٧.
(٣) انظر: ص١٤٩.
(٤) انظر: التدمرية: ص١٢٤، ١٣١، وإغاثة اللهفان، لابن القيم: ٢/ ٢٧٦.

ثالثاً: أنّ تسبيح الله تعالى عن التمثيل والتشبيه ما هو في الحقيقة إلّا تنزيه له عن النقص؛ لأنّ التمثيل ـ كما سبق التعريف به ـ: هو مشاركة الخالق تعالى المخلوقين في خصائصهم، أو مشاركة المخلوقين الخالق في خصائصه(١)، وكلّ ما اختصّ به المخلوق فهو من النقائص التي يجب تنزيه الخالق سبحانه عنها(٢)؛ لأنّ مشابهة الناقص في صفات النقص نقص مطلق(٣)، كما أنّ اعتقاد مشاركة المخلوق للخالق في شيء من خصائصه تنقيص للخالق سبحانه؛ لأنّ الاشتراك نقص بكلّ من المشتركين، وليس الكمال المطلق إلّا في الوحدانية(٤).

وبهذا يكون مفهوم التمثيل ـ عند التحقيق ـ داخلاً في مفهوم النقائص التي يُسبَّح الله تعالى تنزيهاً له عنها.

ولهذا قال الإمام ابن قيم الجوزية ـ في بيان ما يقتضي النقص في حقّ الله تعالى ـ:

«النقص في أمرين سلب كماله   أو شِرْكةٍ بالواحد الرحمن»(٥)

فبيّن أنّ النقص في حق الله تعالى يرجع إلى أمرين: إمّا سلب كماله، وهو نفي صفاته، وإمّا اعتقاد شركة فيه سبحانه، وهو التمثيل(٦).

وهذا يؤكّد ما سبق بيانه من أنّ مجرد نفي التشبيه لا يفيد في

---

(١) انظر: ص١٥٦

(٢) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٧/ ٣٢٥.

(٣) انظر: التدمرية، لشيخ الإسلام ابن تيمية: ص١٤١.

(٤) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٦/ ١٢٥ و١٧/ ١٤٥.

(٥) الكافية الشافية (القصيدة النونية): ص٢٢٩.

(٦) انظر: توضيح الكافية الشافية، للشيخ عبد الرحمن السعدي: ص١١٢، وشرح القصيدة النونية، للشيخ محمد خليل هراس: ٢/ ٣٨.

باب التنزيه ما لم يكن الاعتماد فيه على نفي النقص والعيب عن الله تعالى.

كما يتبيّن بهذا أنّ ما لا يقتضي النقص ولا يستلزمه في حقّ الله تعالى لا يتناوله مفهوم التمثيل أو التشبيه الذي يجب نفيه عن الله تعالى، وهذه النكتة خفيت على كثير من أهل الكلام مما أوقعهم في اضطراب وغلط كبير في باب الصفات.

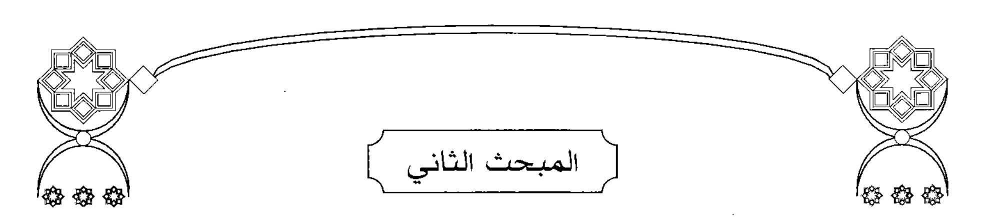
رابعاً: أنّ هذين النوعين بهما يتحقّق إفراد الله تعالى بالكمال المطلق، فإنّ تسبيح الله عن النقائص والعيوب يستلزم ثبوت الكمال له، وتسبيحه عن التمثيل والتشبيه يقتضي وحدانيّته، وهو من تمام الكمال، فإنّ ما له نظير قد انقسمت صفات الكمال وأفعال الكمال فيه وفي نظيره، فحصل له بعض الكمال لا كلّه، فالمنفرد بجميع صفات الكمال وأفعال الكمال أكمل ممّن له شريك يقاسمه إيّاها[(١)].

فمن أثبت لله تعالى صفات الكمال، ونفى عنه النقائص والتمثيل، فقد أفرده بالكمال المطلق الذي لا يشركه فيه شيء من الأشياء.

وهكذا يتبيّن تلازم نوعي التسبيح، وأنّ تنزيه الله تعالى لا يتمّ على الوجه الصحيح إلّا بهما، وبالله التوفيق.

---

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٧/ ١٤٤.



أنواع التسبيح باعتبار صيغه

❏ توطئة:

المتتبع للفظ التسبيح في موارده في الكتاب والسنة يجد أنه ورد بصيغ متنوعة، فتارة يرد التسبيح في الكلام مفرداً، أي: مجرّدًا عن غيره من ألفاظ الذكر والثناء على الله تعالى، وتارة يرد التسبيح في الكلام مقروناً ببعض ألفاظ الذكر الأخرى، كالتحميد والتهليل والتكبير، ونحو ذلك كالاستغفار والدعاء.

ولا شك أن ورود التسبيح بهذه الصيغ المتنوعة له دلالات بليغة في مقام تنزيه الله تعالى وتعظيمه تجدر العناية بتدبرها وتفهم مقاصدها، لما في ذلك من مزيد المعرفة بأسرار التسبيح في الكتاب والسنة.

وفي هذا المبحث بيان لأنواع التسبيح باعتبار صيغه المتنوعة في الكتاب والسنة، وذلك في مطلبين:

المطلب الأول: صيغة الإفراد في التسبيح.

المطلب الثاني: صيغة القران في التسبيح.

* * *

❖ المطلب الأول ❖

صيغة الإفراد في التسبيح

ورد التسبيح في مواضع من الكتاب والسنة مفرداً غير مقرون بلفظ آخر من ألفاظ التعظيم والثناء على الله تعالى، وورود التسبيح بهذه الصورة هو المعني بصيغة الإفراد هنا.

وتبلغ المواضع التي ورد فيها التسبيح بصيغة الإفراد في كتاب الله تعالى ستة عشر موضعاً، وهي:

١ ـ قول الله تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ١١٦﴾ [البقرة: ١١٦].

وهذه الآية في تنزيه الله تعالى عن اتخاذ الولد، والرد على من ادعى الولد لله تعالى، وقد ذكر فيها التسبيح مفرداً في قوله تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥۖ﴾، وهو نص صريح في تنزيه الله ﷻ وتسبيحه عما قالوا[1].

قال أبو حيان الأندلسي[2] ـ في تفسير هذه الآية ـ: «ولما كانت هذه المقالة من أفسد الأشياء وأوضحها في الاستحالة، أتى باللفظ الذي يقتضي التنزيه والبراءة من الأشياء التي لا تجوز على الله تعالى قبل أن يضرب عن مقالتهم ويستدل على بطلان دعواهم، وكان ذكر

---

(١) انظر: أضواء البيان (تتمته)، للشيخ عطية محمد سالم: ٦/ ١٨٠.

(٢) هو محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان النفزي ـ نسبة إلى (نفزة) بكسر النون وسكون الفاء، قبيلة من البربر ـ، أثير الدين، أبو حيان، الأندلسيّ الغرناطي، ثم المصري، كان متفنناً في العلوم، مبرزاً في العربية وآدابها، صنف ودرس، ومن أشهر كتبه: البحر المحيط في تفسير القرآن، وتوفي بالقاهرة آخر سنة (٧٤٤هـ) رحمه الله. انظر: ذيل تذكرة الحفاظ: ص٢٣ ـ ٢٦، وشذرات الذهب، لابن العماد: ٦/ ١٤٥ ـ ١٤٧، ومعجم المؤلفين، لعمر رضا كحالة: ٣/ ٧٨٤ ـ ٧٨٥.

التنزيه أسبق؛ لأن فيه ردعاً لمدعي ذلك، وأنهم ادعوا أمراً تنزه الله عنه وتقدس» اهـ[(١)].

٢ ـ وقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴿١٧١﴾﴾ [النساء: ١٧١].

وهذه الآية في الرد على أهل الكتاب من النصارى في زعمهم أن الآلهة ثلاثة ـ وهو التثليث عندهم ـ، وفي دعواهم الولد لله تعالى بقولهم في نبي الله عيسى عليه السلام: إنه ابن الله، وجاءت الإشارة إلى هذه العقائد النصرانية في بداية هذه الآية، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ﴾ «أي: هو المنفرد بالألوهية، الذي لا تنبغي العبادة إلا له»[(٢)]. وقال تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ﴾ أي: تنزه وتقدس عن أن يكون له ولد[(٣)]. وقد جاء التسبيح هنا مفرداً أيضاً.

٣ ـ وقول الله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ﴾ الآية [المائدة: ١١٦].

وهذه الآية فيها تقريع وتوبيخ للنصارى الذين اتخذوا عيسى وأمه مريم عليهما السلام إلهين من دون الله تعالى، وقالوا: إن الله ثالث ثلاثة، كما سبقت الإشارة إليه في الآية قبلها. فيقول الله تعالى هذا الكلام لعيسى عليه السلام، إذ إن النصارى يزعمون أنهم تلقوا ذلك منه، فيتبرأ

(١) البحر المحيط: ١/ ٥٣٢.
(٢) مقتبس من: تيسير الكريم الرحمن، للشيخ عبد الرحمن السعدي: ص٢١٦.
(٣) انظر: تفسير الطبري: ٤/ ٣٧٥، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ١/ ٦٠٥.

منهم عليه السلام ومن مقولتهم الكفرية، وينزه الله تعالى عن ذلك بالتسبيح له[١]، فيقول: ﴿سُبْحَانَكَ﴾. وهذا تسبيح مفرد أتى به نبي الله عيسى عليه السلام تعظيماً لربه عز وجل وتنزيهاً له عما لا يليق به مما نسبه إليه الجاهلون.

وسيأتي ـ إن شاء الله ـ مزيد بيان لهذه الآية عند الكلام على تسبيح الأنبياء عليهم السلام لله تعالى[٢].

٤ ـ وقول الله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف: ١٠٨].

وهذه الآية خطاب من الله تعالى لنبيه محمد ﷺ يأمره فيه أن يخبر عن دعوته التي يدعو هو وأتباعه من المؤمنين الناس إليها، ويأمره كذلك بأن يعلن عن تنزيه الله تعالى بقوله: ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾، وهو تسبيح مفرد دال على عموم التنزيه لله تعالى وتعظيمه[٣].

وسيأتي ـ إن شاء الله ـ مزيد بيان لهذه الآية وما تتضمنه من دلالات وفوائد متعلقة بالتسبيح في مواضع أخرى من هذا البحث[٤].

٥ ـ وقول الله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [النحل: ٥٧].

وهذه الآية رد على المشركين الذين أضافوا إلى الله تعالى البنات مع كرههم لهن، ولا ينبغي أن يكون لله تعالى ولد ذكر ولا أنثى،

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ٥/١٣٨، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٢/١٢٤، وتيسير الكريم الرحمن، للشيخ عبد الرحمن السعدي: ص٢٤٩.
(٢) انظر: ص(٣٠٨ ـ ٣١٠) من البحث.
(٣) انظر: تفسير الطبري: ٧/٣١٤ ـ ٣١٥، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي: ص٤٠٦.
(٤) انظر: ص(٣١١، ٤٢٦، ٥٠١) و(٢/١٢٢) من البحث.

ولهذا عقب مقالتهم بقوله: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ﴾، وهو تسبيح مفرد يفيد تنزيه الله تعالى وتبرئته مما أضافوه إليه من البنات.

وقوله: ﴿وَلَهُم مَّا يَشۡتَهُونَ﴾ «ما» اسم موصول قصد به البنون، وهو إما في محل نصب عطفاً له على البنات، فيكون المعنى: ويجعلون لله البنات ولهم البنين الذين يشتهون. وإما في محل رفع على أنه مبتدأ، فيكون المعنى: ويجعلون لله البنات، ولهم البنون[١].

فهؤلاء المشركون لم يرضوا ـ بجهلهم إذ أضافوا إلى الله تعالى ما لا ينبغي إضافته إليه ـ أن يضيفوا إليه ما يشتهونه لأنفسهم ويحبونه لها من البنين، ولكنهم أضافوا إليه ما يكرهونه لأنفسهم ولا يرضونه لها من البنات[٢]، ولهذا قال تعالى في موضع آخر ـ منكراً عليهم هذه القسمة ـ: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلۡأُنثَىٰ ۝٢١ تِلۡكَ إِذٗا قِسۡمَةٞ ضِيزَىٰٓ ۝٢٢﴾ [النجم: ٢١، ٢٢]، أي: هذه القسمة جائرة غير منصفة[٣]؛ لأنها تقتضي تفضيل العبد المخلوق على الخالق، تعالى عن قولهم علواً كبيراً[٤].

وهذا الذي عابه الله تعالى على من جعل الملائكة بناته من المشركين، مع كراهتهم أن يكون لهم بنات، له نظير في النصارى، فإنهم يجعلون لله ولداً، وينزهون أكابر أهل دينهم عن أن يكون لأحدهم صاحبة أو ولد، فيجعلون لله تعالى ما يكرهونه لأكابر دينهم، سبحانه وتعالى عن إفكهم وافترائهم[٥].

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ٧/٥٩٩.
(٢) انظر: المصدر السابق، الموضع نفسه.
(٣) انظر: تفسير الطبري: ١١/٥٢١ ـ ٥٢٢.
(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن، للشيخ عبد الرحمن السعدي: ص٨٢٠.
(٥) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٢/٤٤١.

٦ ـ وقول الله تعالى: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٣].

وهذا خطاب من الله تعالى لنبيه محمد ﷺ ليجيب به مشركي قريش الذين اقترحوا عليه ثماني آيات ـ ذكرها الله تعالى قبل هذا الخطاب ـ وجعلوها شرطاً لإيمانهم به، وهم في الحقيقة متعنتون باقتراحهم هذه الآيات التي ليس من شأن البشر الإتيان بمثلها، ولهذا أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يجيبهم بهذا القول المذكور. فقوله: ﴿سُبْحَانَ رَبِّي﴾ تسبيح مفرد، معناه: تنزيهاً لربي جل وعلا عن كل ما لا يليق به، ومنه تنزيهه تعالى عن العجز عن فعل ما اقترحتم من الآيات، فهو قادر على كل شيء لا يعجزه شيء، ولو أراد لفعل ما طلبتم، ولكنه سبحانه لا يأتي بالآيات على ما يقترحه الناس، ولا تكون أفعاله وأحكامه تابعة لأهواء الناس[(١)].

وقوله: ﴿هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ قال الإمام ابن جرير الطبري: «يقول: هل أنا إلا عبد من عبيده من بني آدم، فكيف أقدر أن أفعل ما سألتموني من هذه الأمور، وإنما يقدر عليها خالقي وخالقكم، وإنما أنا رسول أبلغكم ما أرسلت به إليكم، والذي سألتموني أن أفعله بيد الله الذي أنا وأنتم عبيد له، لا يقدر على ذلك غيره» اهـ[(٢)].

٧ ـ وقول الله تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُوا بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾﴾ [الإسراء: ١٠٧، ١٠٨].

---

(١) انظر: تفسير البغوي: ٥/ ١٣٠، وتيسير الكريم الرحمن، للشيخ عبد الرحمن السعدي: ص٤٦٧، وأضواء البيان، للشيخ محمد الأمين الشنقيطي: ٢/ ٣٢٨.

(٢) تفسير الطبري: ٨/ ١٤٩.

وهذا خبر عن مؤمني أهل الكتاب الذين أوتوا العلم قبل بعثة رسول الله محمد ﷺ، وأنهم يسجدون لله تعالى عند ما يتلى عليهم القرآن، ويقولون: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ﴾ وقولهم هذا تسبيح مفرد، قالوه تنزيهاً لله تعالى وتعظيماً له على إتمام وعده ببعثة خاتم النبيّين محمد ﷺ الذي جاء ذكره في الكتب المنزلة قبل القرآن، ولهذا قالوا: ﴿إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾[1].

وسيأتي ـ إن شاء الله ـ مزيد بيان لهذا الأمر عند الكلام على تسبيح المؤمنين أتباع الأنبياء[2].

٨ ـ وقول الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍۖ سُبْحَٰنَهُۥٓۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾﴾ [مريم: ٣٥].

ذكرت هذه الآية بعد قصة نبي الله عيسى عليه السلام، وكيف حملته أمه مريم ووضعته من غير أب آية من آيات الله تعالى.

ومعلوم أن النصارى أعظموا الفرية على الله تعالى بدعواهم أن عيسى ابن الله. ولهذا عقب تعالى قصة ولادة عيسى ابن مريم عليهما السلام بقوله: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍۖ﴾ أي: ما ينبغي لله تعالى أن يتخذ ولداً، ولا يصلح ذلك له، ولا يكون[3]؛ لأنه الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

وقوله: ﴿سُبْحَٰنَهُۥٓۚ﴾ هو محل الشاهد هنا، فهو تسبيح مفرد يدل على تأكيد ما قبله من تنزيه الله تعالى عن اتخاذ الولد، وعلى مطلق التنزيه لله تعالى عن كل ما لا يليق بكماله وعظمته.

---

(١) انظر: زاد المسير، لابن الجوزي: ٥/ ٩٨، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٣/ ٧٢.

(٢) انظر: ص(٣١٨ ـ ٣١٩) من البحث. (٣) انظر: تفسير الطبري: ٨/ ٣٤٢.

وقوله: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ حجة لإثبات تنزيهه عن اتخاذ الولد. قال الإمام ابن قيم الجوزية: «وتقرير هذه الحجة: أن من كانت قدرته تعالى كافية في إيجاد ما يريد إيجاده بمجرد أمره وقوله: ﴿كُن﴾، فأي حاجة به إلى ولد، وهو لا يتكثر به من قلة، ولا يتعزز به، ولا يستعين به، ولا يعجز عن خلق ما يريد خلقه؟! وإنما يحتاج إلى الولد من لا يخلق ولا إذا أراد شيئاً قال له: كن، فيكون، وهذا المخلوق العاجز المحتاج الذي لا يقدر على تكوين ما أراد» اهـ[١].

٩ ـ وقول الله تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأنبياء: ٢٦].

وفي هذه الآية أيضاً حكاية لفرية من نسب إلى الله الولد، مع بيان تنزيه الله تعالى عن ذلك بلفظ التسبيح ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾، وهو تسبيح مفرد. وقوله: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ إضراب لإبطال مقولتهم[٢]، ولبيان أن هؤلاء الذين قيل فيهم إنهم أولاد لله هم عباد له لا أولاد، ولكنهم عباد مكرمون عند الله تعالى قد أكرمهم بما خصهم به من الفضائل والتطهير من الرذائل[٣]، والذين قالوا: اتخذ الله ولداً، جعلوه إما من الملائكة وإما من الآدميين كالمسيح عيسى ابن مريم والعزير، وهؤلاء جميعاً عباد مكرمون[٤]، فغلا فيهم الجاهلون حتى جعلوهم أولاداً لله تعالى وتقدس عن ذلك.

١٠ ـ وقول الله تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ

---

(١) بدائع الفوائد: ٢/ ٤٥٤.

(٢) انظر: مغني اللبيب، لابن هشام: ص١٥١ ـ ١٥٢، والإتقان في علوم القرآن، لجلال الدين السيوطي: ١/ ٥٠٥.

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، للشيخ عبد الرحمن السعدي: ص٥٢٢.

(٤) انظر: جامع الرسائل، لشيخ الإسلام ابن تيمية: ١/ ٢٢.

إِلَٰهٍۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المؤمنون: ٩١].

وهذه الآية تتضمن نفي اتخاذ الولد عن الله تعالى، ونفي وجود إله آخر يستحق العبادة معه، وتتضمن كذلك برهاناً عقلياً لتقرير توحيد الله في الربوبية والألوهية، كما تضمنت تنزيه الله تعالى بلفظ التسبيح عن كل وصف مناقض لكماله وانفراده باستحقاق العبادة وحده لا شريك له.

فقوله تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾ نفي لاتخاذ الولد عن الله تعالى، كما في أكثر الآيات السابقة.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ﴾ أي: ليس مع الله تعالى إله آخر يستحق العبادة، بل الله تعالى هو الإله المستحق للعبادة وحده.

وقوله تعالى: ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ﴾ جواب لمحذوف اجتزئ عنه بدلالة ما ذكر عليه، أي: لو كان معه آلهة أخرى لذهب كل إله بما خلق، ولعلا بعضهم على بعض(١).

وفي هذا القول تقرير لبرهان التوحيد بأحسن تقرير وأوجزه وأبلغه(٢)، حيث تضمن لازمين كل منهما يدل عى انتفاء الملزوم(٣):

أحدهما: قوله: ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ﴾ أي: لو قدر تعدد الآلهة لانفرد كل منهم بما خلق(٤)، فإن الإله الحق لا بد أن يكون

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ٩/ ٢٤٠.
(٢) انظر: المصدر السابق، والصواعق المرسلة، لابن القيم: ٢/ ٤٦٢.
(٣) انظر: درء تعارض العقل والنقل، لشيخ الإسلام ابن تيمية: ٩/ ٣٥٩.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٣/ ٢٦٤.

خالقاً فاعلاً مستقلاً لا يحتاج إلى غيره[١]، وحينئذٍ يلزم أن لا يكون العالم منتظماً متسقاً، والمشاهد أن العالم العلوي والسفلي منتظم ومرتبط بعضه ببعض في غاية الكمال، وأنه جار على نظام محكم لا يختلف ولا يفسد[٢]، فهذا أدل دليل على أن خالقه ومدبره واحد لا إله غيره ولا رب سواه؛ لأنه كما يستحيل أن يكون للعالم خالقان متكافئان، يستحيل أن يكون له إلهان معبودان[٣].

والثاني: قوله: ﴿وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي: ولكان كل إله منهم يطلب قهر الآخر ومغالبته وحينئذٍ يعلو بعضهم على بعض، ويغلب القوي منهم الضعيف؛ لأن القوي لا يرضى أن يشركه الضعيف، وذلك يمنع إلهية المغلوب فإن الضعيف لا يصلح أن يكون إلهاً[٤]، والقاهر الغالب يكون هو وحده الإله الحق، والآخرون مقهورون تحت حكمه وتصرفه[٥]. فبين الله تعالى في هذه الآية: أن كل واحد من ذهاب كل إله بما خلق، ومن علو بعضهم على بعض، برهان قاض بأنه ليس مع الله تعالى إله آخر يستحق العبادة[٦]. ولهذا قال تعالى بعد ذلك ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾، وهذا تسبيح مفرد يفيد تقرير ما قبله،

---

(١) انظر: درء تعارض العقل والنقل، لشيخ الإسلام ابن تيمية: ٩/ ٣٥٩، والصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، لابن القيم، تحقيق الدكتور علي بن محمد الدخيل الله: ٢/ ٤٦٣.

(٢) انظر: الصواعق المرسلة، لابن القيم: ٢/ ٤٦٤، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٣/ ٢٦٤.

(٣) انظر: الصواعق المرسلة، لابن القيم: ٢/ ٤٦٤.

(٤) انظر: تفسير الطبري: ٩/ ٢٤٠، ودرء تعارض العقل والنقل، لشيخ الإسلام ابن تيمية: ٩/ ٣٦١، وتفسير القرآن العظيم: ٣/ ٣٦٤.

(٥) انظر: الصواعق المرسلة، لابن القيم: ٢/ ٤٦٤.

(٦) انظر: درء تعارض العقل والنقل، لشيخ الإسلام ابن تيمية: ٩/ ٣٥٩.

وأن الله تعالى منزه عما وصفه به الظالمون المعتدون من أن له ولداً، أو أن معه إلهاً يعبد، تقدس وتعالى عن ذلك علواً كبيراً[(١)].

١١ ـ وقول الله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾﴾ [النور: ١٦].

وهذه الآية وردت ضمن الآيات التي في تبرئة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها من الإفك الذي رميت به. والشاهد هنا قوله: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ فهو تسبيح مفرد وقع معترضاً بين قوله: ﴿مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾ وقوله: ﴿هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾، وهذا التسبيح ها هنا يفيد التعجب والتنزيه معاً، كما سيأتي ـ إن شاء الله ـ بيانه في مبحث التسبيح عند التعجب[(٢)].

١٢ ـ وقول الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾﴾ [الفرقان: ١٧، ١٨].

وفي هاتين الآيتين يخبر الله عز وجل عن حال المشركين الذين عبدوا غير الله، وما سيقع عليهم من تقريع وتوبيخ يوم القيامة، يوم يحشرهم الله جميعاً ويحشر معهم معبوداتهم التي كانوا يعبدونها من دون الله في الدنيا. وقد اختلف المفسرون في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، فقيل: الملائكة. وقيل: الملائكة وعيسى وعزير. وقيل: الملائكة وعيسى وعزير والإنس والجن. وقيل: الأصنام والأوثان. وقيل: عام في كل معبود من دون الله[(٣)]، وهذا

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ٩/ ٢٤٠، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٣/ ٣٦٤.
(٢) انظر: انظر: ص٢/ ٢٤ ـ ٢٦ من البحث.
(٣) انظر في هذه الأقوال: تفسير الطبري: ٩/ ٣٧٢، وتفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني: ٤/ ١١، وزاد المسير، لابن الجوزي: ٦/ ٧٨، والجامع لأحكام =

القول الأخير أشمل، ويدخل فيه جميع ما قيل قبله.

وقوله تعالى: ﴿فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ﴾ سؤال يخاطب الله تعالى به المعبودين من دونه على وجه التقريع لعابديهم[1]، «أي: فيقول تبارك وتعالى للمعبودين: أأنتم دعوتم هؤلاء إلى عبادتكم من دوني أم هم عبدوكم من تلقاء أنفسهم من غير دعوة منكم لهم؟»[2].

ثم حكى الله تعالى جواب المعبودين فقال: ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ قال الإمام ابن قيم الجوزية: «وهذا الجواب إنما يحسن من الملائكة والمسيح وعزير، ومن عبدهم المشركون من أولياء الله» اهـ[3].

يعني: أن هؤلاء عباد صالحون عبدوا من دون الله تعالى بدون رضاهم ولا بدعوة منهم لعابديهم إلى عبادة غير الله سبحانه، حاشاهم.

ولهذا بدأوا جوابهم بتسبيح الله تعالى. قال ابن عباس رضي الله عنهما: «نزهوا الله وعظموه أن يكون معه إله»[4].

ثم قالوا: ﴿مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ أي: ليس للخلائق كلهم أن يعبدوا أحداً سواك، لا نحن ولا هم[5]، وهذا يؤيد إنكار هؤلاء المعبودين لعبادة غير الله تعالى أيا كان.

= القرآن، للقرطبي: ١٣/ ١٠، وإغاثة اللهفان، لابن القيم: ٢/ ٢٩٠، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٣/ ٣٢٤.

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، للشيخ عبد الرحمن السعدي: ص٥٨٠.

(٢) مقتبس من: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٣/ ٣٢٤.

(٣) إغاثة اللهفان: ٢/ ٢٩١.

(٤) ذكره ابن القيم في المصدر السابق، الموضع نفسه.

(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٣/ ٣٢٤.

ولهذا قالوا - في بيان سبب ضلال المشركين بعبادة غير الله تعالى -: ﴿وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا﴾ أي: متعتهم بالصحة والمال في الدنيا حتى نسوا ما أنزلته إليهم على ألسنة رسلك من الدعوة إلى عبادتك وحدك لا شريك لك، وكانوا قوماً هالكين فاسدين لا خير فيهم[(١)].

١٣ - وقول الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ [سبأ: ٤٠، ٤١].

وهاتان الآيتان أيضاً في ذكر حال المشركين ومعبوديهم من دون الله تعالى يوم القيامة، ولكن وقع التصريح هنا بالمعبودين، وهم الملائكة، ولهذا سيأتي بيان هاتين الآيتين - إن شاء الله - عند الكلام على تسبيح الملائكة لله تعالى[(٢)]، والمقصود هنا قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ﴾، فإنه تسبيح مفرد، لم يقرن بغيره من ألفاظ التعظيم والثناء على الله تعالى.

١٤ - وقول الله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٥٨، ١٥٩].

وفي هاتين الآيتين يخبر الله تعالى عن افتراء المشركين عليه سبحانه، حيث جعلوا بينه وبين الجنة نسباً.

والصحيح من أقوال أهل العلم أن الجنة هنا: الجن[(٣)]، كما قال تعالى: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ٦].

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ٩/ ٣٧٣، وإغاثة اللهفان، لابن القيم: ٢/ ٢٩٥، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٣/ ٣٢٤، وتيسير الكريم الرحمن، للشيخ عبد الرحمن السعدي: ص٥٨٠.

(٢) انظر: ص(٢٨٣) من البحث.

(٣) انظر: حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح، لابن القيم: ص١٢٧ - ١٢٨.

والنسب الذي جعلوه بين الله والجن: هو زعمهم أن الملائكة بنات الله، وأن أمهاتهن من الجن، كما جاء عن مجاهد وغيره من مفسري السلف[(١)]، فعقد هؤلاء المشركون بين الله تعالى وبين الجن نسباً بهذا الإيلاد، وجعلوا هذا النسب متولداً بينه وبين الجن[(٢)].

وأما قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾، فالصحيح أيضاً أن الضمير فيه يرجع إلى الجنة[(٣)]، أي: والحال أن الجنة قد علمت أنهم سيحضرون بين يدي الله تعالى للحساب يوم القيامة، فلو كان بينهم وبين الله تعالى نسب لم يكونوا محضرين للحساب[(٤)]، فجعل سبحانه عقوبتهم بذنوبهم وإحضارهم للعذاب مبطلاً لدعوى المشركين الكاذبة[(٥)]. ولا شك أنّ هذا التقدير في الآية أبلغ في إبطال قولهم من تقدير من جعل الضمير في قوله: ﴿إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ راجعاً إلى مدعي هذا القول من المشركين[(٦)]. ولهذا قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ وهذا تسبيح مفرد، يعني: تنزّه الله وتقدس عما يضيفه إليه المشركون ويفترون عليه من أن له بنات، وأن له صاحبة، سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً[(٧)].

١٥ ـ وقول الله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الطور: ٤٣].

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ١٠/٥٣٥، وتفسير البغوي: ٧/٦٣، والدر المنثور في التفسير بالمأثور، للسيوطي: ٥/٥٤٨.
(٢) انظر: حادي الأرواح، لابن القيم: ص١٢٨.
(٣) انظر: المصدر السابق، الموضع نفسه.
(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن، للشيخ عبد الرحمن السعدي: ص٧٠٨.
(٥) انظر: حادي الأرواح، لابن القيم: ص١٢٨.
(٦) انظر: تفسير الطبري: ١٠/٥٣٦، وحادي الأرواح، لابن القيم: ص١٢٨.
(٧) انظر: تفسير الطبري: ١٠/٥٣٦، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٤/٢٦.

وهذه الآية إنكار على المشركين عبادتهم غير الله تعالى، وتنزيه لله تعالى عن شركهم به.

فـ (أم) في هذه الآية: هي المنقطعة، وهي هنا تتضمن استفهاماً إنكارياً[١]، ومعنى الآية ـ كما قال الإمام ابن جرير الطبري ـ: «أم لهم معبود يستحق عليهم العبادة غير الله فيجوز لهم عبادته؟ يقول: ليس لهم إله غير الله الذي له العبادة من جميع خلقه. ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ يقول: تنزيهاً لله عن شركهم وعبادتهم معه غيره» اهـ[٢].

١٦ ـ وقول الله تعالى: ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [القلم: ٢٩].

وهذه الآية حكاية لقول أصحاب الجنة الذين ذكر الله تعالى قصتهم في السورة نفسها قبل هذه الآية، فقولهم: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ﴾ تسبيح مفرد. وقد قيل: إن تسبيحهم هذا كان استثناءاً، كقولنا: إن شاء الله. وقيل: كان تنزيهاً لله تعالى عن أن يكون ظلمهم بإحراق جنتهم، كما سبق بيان ذلك كله في مبحث معاني التسبيح شرعاً، عند الكلام على إطلاق التسبيح على الاستثناء[٣].

فهذه الآيات التي سبق ذكرها في هذا المطلب قد سيقت فيها كلمة التسبيح بصيغة الإفراد دون أن تقرن بغيرها من ألفاظ الثناء على الله تعالى.

وهذه التسبيحات المفردة في كتاب الله تعالى أكثرها وارد

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ١٧/ ٧١، ٧٦، ومغني اللبيب، لابن هشام الأنصاري: ص٦٦، وفتح القدير، للشوكاني: ٥/ ١٤٠.

(٢) تفسير الطبري: ١١/ ٤٩٧.

(٣) انظر: ص(١٠٠ ـ ١٠٢) من البحث.

بتنزيه الله ﷻ عن اتخاذ الولد رداً على من اعتقد ذلك وادعاه على الله تعالى افتراء وكذباً عليه سبحانه.

وبعضها وارد بتنزيه الله تعالى عن الشرك في الألوهية، وبعضها وارد في مقام التعظيم والثناء على الله تعالى بالتنزيه العام له.

والمواضع التي ورد فيها التسبيح بصيغة الإفراد في السنة النبوية كثيرة، ولا سبيل إلى حصرها في هذا المقام، ومن ذلك:

١ ـ حديث ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «**قال الله تعالى: كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فزعم أني لا أقدر أن أعيده كما كان، وأمّا شتمه إياي فقوله: لي ولد، فسبحاني أن أتخذ صاحبة أو ولدا**»(١).

فقوله ـ في هذا الحديث القدسي ـ: (فسبحاني) تسبيح مفرد نزه تعالى نفسه المقدسة عن اتخاذ الصاحبة أو الولد.

٢ ـ حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**سبحان الله، إن المؤمن لا ينجس**»(٢).

٣ ـ قوله ﷺ: «**من نابه شيء في صلاته فليقل: سبحان الله**»(٣).

وهذا أمر بالتسبيح بصيغة الإفراد لمن نابه شيء في صلاته، كما سيأتي بحثه إن شاء الله تعالى(٤).

وستأتي أمثلة أخرى للتسبيح بصيغة الإفراد من السنة النبوية عند

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ٨/ ١٦٨، برقم (٤٤٨٢).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ١/ ٣٩٠، برقم (٢٨٣)، ومسلم في صحيحه: ١/ ٢٨٢، برقم (٣٧١).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ٣/ ٨٧، ٨٨، برقم: ١٢١٨.

(٤) في ص٥٥٨.

بيان المواضع التي يشرع فيها التسبيح مفرداً[(١)].

❖ المطلب الثاني ❖

صيغة القران في التسبيح

صيغة القران في التسبيح تعني: ورود التسبيح ـ في مقام الذكر والثناء على الله تعالى ـ مقروناً بغيره من ألفاظ الذكر والثناء والدعاء لله ﷻ.

وقد ورد التسبيح بهذه الصيغة في الكتاب والسنة في مواضع كثيرة جداً تفوق المواضع التي ورد فيها بصيغة الإفراد أضعافاً كثيرة.

وتتنوع صيغة القران في التسبيح بحسب ما قرن به لفظ التسبيح من الألفاظ الأخرى، فقد قرن التسبيح بالتحميد، وبالتهليل، وبالتكبير، وببعض أسماء الله تعالى وصفاته، وقرن بالاستغفار، وبالدعاء، وبالسلام على المرسلين، فهذه من أنواع صيغة القران في التسبيح التي تم ضبطها في الكتاب والسنة.

وقد أشار الحافظ ابن رجب الحنبلي[(٢)] إلى الحكمة في ورود التسبيح مقروناً، فقال: «والتسبيح: هو تنزيه الله عن النقائص والعيوب والآفات، والإثبات أكمل من السلب، لهذا لم يرد التسبيح

---

(١) هو موضوع الفصل الثاني من الباب الثالث.

(٢) هو عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسين بن محمد البغدادي ثم الدمشقي، أبو الفرج، زين الدين، الشهير بابن رجب الحنبلي، كان ماهراً في علوم الحديث والفقه، وكان على منهج السلف في العقيدة والسلوك، وله تصانيف كثيرة بديعة مفيدة، منها: جامع العلوم والحكم، وشرح علل الترمذي، والقواعد الفقهية. وتوفي سنة (٧٩٥هـ)، رحمه الله. انظر: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، للحافظ ابن حجر العسقلاني: ٢/٤٢٨ ـ ٤٢٩، وشذرات الذهب، لابن العماد: ٦/٣٣٩ ـ ٣٤٠.

مجرداً[١]، لكن مقروناً بما يدل على إثبات الكمال، فتارة يقرن بالحمد، كقول: سبحان الله وبحمده، وسبحان الله والحمد لله. وتارة باسم من الأسماء الدالة على العظمة والجلال، كقوله: سبحان الله العظيم» اهـ[٢].

ولكن لا ينبغي أن يفهم من هذا أن التسبيح إذا ورد مفرداً مجرداً لم يدل على إثبات الكمال، فقد تقدم عند الكلام على معاني التسبيح في الشرع بيان دلالته على التعظيم والمدح والكمال بما فيه مقنع[٣] ـ ولله الحمد والمنة ـ، وإذا ورد التسبيح مقروناً كانت له دلالة أخرى في إثبات الكمال لله تعالى والثناء عليه والتعبد له ﷻ، كما سيتم ـ بإذن الله ـ بيانه عند الكلام على كل نوع من أنواع صيغة القران في التسبيح، وذلك في المسائل الآتية:

المسألة الأولى: قرن التسبيح بالتحميد:

ولهذه المسألة شأن عظيم يسترعي النظر ويستدعي الانتباه، وذلك لأن قرن التسبيح بالتحميد هو الأكثر وروداً في نصوص الشرع، وجاء في كتاب الله تعالى الأمر بقرن التسبيح بالتحميد في سبعة مواضع، حيث قال تعالى ـ في أربعة مواضع منها ـ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ [طه: ١٣٠، غافر: ٥٥، ق: ٣٩، الطور: ٤٨]، وقال تعالى ـ في موضعين ـ: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ [الحجر: ٩٨، والنصر: ٣]، وقال في ـ موضع ـ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الفرقان: ٥٨].

كما جاء في كتاب الله تعالى الخبر عن قرن التسبيح بالتحميد في

---

(١) هذا محمول على أغلب المواضع، وإلا فقد ورد التسبيح مجرداً غير مقرون في مواضع أيضاً، كما سبق بيانه في صيغة الإفراد في التسبيح.
(٢) جامع العلوم والحكم: ١٨/٢.
(٣) انظر: ص(٧٨ ـ ٨٦) من البحث.

مواضع متعددة، مثل قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [السجدة: ١٥]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [الشورى: ٥]، ونحو ذلك من الآيات[(١)].

وأما السنة النبوية فورد فيها قرن التسبيح بالتحميد في أحاديث كثيرة تفوق الحصر، ومن ذلك:

حديث أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**إن أحب الكلام إلى الله: سبحان الله وبحمده**»[(٢)].

وحديث أبي مالك الأشعري[(٣)] رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن ـ أو تملأ ـ ما بين السماوات والأرض**» الحديث[(٤)].

وسيأتي ـ إن شاء الله ـ ذكر أمثلة كثيرة للتسبيح المقرون بالتحميد في الأحاديث النبوية عند الكلام على فضل التسبيح[(٥)]، وعند بيان

---

(١) انظر: سورة البقرة، الآية: ٣٠، وسورة يونس، الآية: ١٠، وسورة الرعد، الآية: ١٣، وسورة الروم، الآية: ١٧، وسورة الصافات، الآيات: ١٨٠ ـ ١٨٢، وسورة الزمر، الآية: ٧٥، وسورة غافر، الآية: ٧.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه: ٤/ ٢٠٩٣ ـ ٢٠٩٤، برقم (٢٧٣١).

(٣) هو الحارث بن الحارث الأشعري الشامي، صحابي يكنى أبا مالك، تفرد بالرواية عنه أبو سلام ممطور الحبشي، وفي الصحابة اثنان آخران غير هذا يكنى كل منهما أبا مالك الأشعري، ويكثر الاشتباه بينهم، رضي الله عنهم أجمعين. انظر: تهذيب التهذيب، لابن حجر العسقلاني: ٢/ ١٣٧ ـ ١٣٨ و١٢/ ٢١٨ ـ ٢١٩، وتقريب التهذيب، له: ١/ ١٤٣.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه: ١/ ٢٠٣، برقم (٢٢٣).

(٥) انظر: ص(٤٢١) من البحث.

المواضع التي يشرع فيها التسبيح[١].

ولما كان هذا حال التسبيح مع التحميد في الكتاب والسنة، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «والتحميد مقرون بالتسبيح وتابع له»[٢]. وقال أيضاً: «فالتسبيح قرين التحميد»[٣].

وله رَحِمَهُ اللَّهُ رسالة لطيفة بعنوان: «قاعدة حسنة في الباقيات الصالحات وبيان اقتران التهليل بالتكبير والتسبيح بالتحميد»[٤]. وبين في رسالته هذه أن «التسبيح والتحميد يجمع النفي والإثبات: نفي المعايب وإثبات المحامد، وذلك يتضمن التعظيم»[٥].

وقال: «التسبيح يتضمن التنزيه المستلزم للتعظيم. والحمد يتضمن إثبات المحامد المتضمن لنفي نقائصها» اهـ[٦].

وقال الحافظ ابن كثير ـ في تفسير قول الله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾ [الصافات: ١٨٠، ١٨٢] ـ: «ولمّا كان التسبيح يتضمن التنزيه والتبرئة من النقص بدلالة المطابقة، ويستلزم إثبات الكمال، كما أن الحمد يدل على إثبات صفات الكمال مطابقة، ويستلزم التنزيه من النقص، قرن بينهما في هذا الموضع وفي مواضع كثيرة من القرآن» اهـ[٧].

وهذا الكلام موافق لما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية، وبكلامهما يتبين سبب اقتران التسبيح بالتحميد في أكثر المواضع من الكتاب

---

(١) هو موضوع الباب الثالث الآتي في ص(٥٠٩).
(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٠/ ٢٥١.
(٣) المصدر السابق: ٢٤/ ٢٣١.
(٤) طبعت هذه الرسالة حديثاً بتحقيق أبي محمد أشرف بن عبد المقصود.
(٥) قاعدة حسنة في الباقيات الصالحات: ص٢٢.
(٦) المصدر السابق: ص٢٣.
(٧) تفسير القرآن العظيم: ٤/ ٢٨.

والسنة، ويتبين أيضاً أن كلا من التسبيح والتحميد يستلزم معنى الآخر إذا أفرد، وعند الاقتران يعطى كل خاصيته، ويدلان حينئذٍ على إثبات الكمالات ونفي النقائص في حق الله تعالى على الإجمال والتمام.

وبهذا يعلم ما في صيغة التسبيح المقرون بالتحميد من دلالة عظيمة في عقيدة التوحيد، وما في الجمع بين التسبيح والتحميد من الأهمية في ذكر الله تعالى، كما أشار بعض المفسرين ـ عند تفسير قول الله تعالى: ﴿فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الروم: ١٧، ١٨] ـ إلى أن الله تعالى ذكر الحمد معترضاً بين أوقات التسبيح للاعتناء بشأنه، والإشعار بأن حقهما أن يجمع بينهما[١].

وإذا علم هذا، فإن الجمع بين التسبيح والتحميد يكون بالاعتقاد وبالقول. أما الجمع بينهما في الاعتقاد، فيتم باعتقاد معناهما مع تطبيق ذلك واقعاً بإثبات صفات الكمال لله تعالى وتنزيهه عن النقائص والتمثيل، كما سيأتي تفصيله ـ إن شاء الله ـ عند بيان المفهوم الصحيح في تسبيح الله تعالى[٢].

وأما الجمع بينهما في القول، فيحصل إما بصيغة: «سبحان الله والحمد لله» وإما بصيغة: «سبحان الله وبحمده» أو «سبحانك وبحمدك»، ونحو ذلك مما وردت به السنة والآثار.

ومع هذا، فإن العلماء مختلفون في توجيه ما جاءت به الآيات والأحاديث من صيغة التسبيح المقرون بالتحميد، وفي بيان المراد بها على أقوال عديدة.

---

(١) انظر: تفسير أبي السعود: ٧/ ٥٤، وفتح القدير، للشوكاني: ٤/ ٣٠٦.
(٢) وهو موضوع الباب الرابع، في (٢/ ١١٧).

ويرجع اختلافهم في ذلك إلى أربعة أمور:

أحدها: الاختلاف في لفظ التسبيح: هل يراد به معناه الأصلي ـ وهو التنزيه قولاً واعتقاداً ـ، أو يراد به الصلاة، أو الذكر، أو الحمد نفسه؟

والثاني: الاختلاف في لفظ الحمد: هل يراد به الثناء، أو التوفيق والإنعام، أو الرضا، أو الأمر؟

والثالث: الاختلاف في الباء الداخلة على لفظ الحمد: هل هي للمصاحبة، أو الاستعانة، أو السببية، أو هي صلة زائدة؟

والرابع: الاختلاف في الواو في نحو (سبحان الله وبحمده): هل هي للعطف، أو الحال، أو المعية، أو هي صلة زائدة؟

وقد نتج عن الاختلاف المتعلق بلفظ التسبيح، ولفظ الحمد، والباء الجارة بدون الواو عشرة أقوال ـ حسب ما اطلعت عليه بالبحث ـ وهي:

القول الأول: أن كلا من التسبيح والتحميد يراد به معناه الأصلي، والباء للمصاحبة بمعنى (مع)[1]. وعليه فالمراد بقوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ الجمع بين التسبيح والتحميد لفظاً بقول: سبحان الله وبحمده، أو سبحان الله والحمد لله[2]. ومعنًى بتنزيه الله تعالى عما لا

---

(١) انظر: نور المسرى، لأبي شامة المقدسي: ص٤٢، والدر المصون، للسمين الحلبي: ٢٥٦، ومغني اللبيب، لابن هشام الأنصاري: ص١٤٠، وتفسير سورة النصر، لابن رجب الحنبلي ـ ضمن مجموعة رسائل له، جمع عادل العزازي: ص٢١٣.

(٢) انظر: الوسيط في تفسير القرآن المجيد، للواحدي: ١/ ١١٥، وتفسير البغوي: ٦/ ٩١، والمحرر الوجيز، لابن عطية: ٦/ ١٦٤، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ١/ ٢٧٧، والبحر المحيط، لأبي حيان: ٦/ ٢٦٨، والتسهيل، لابن جزي: ٢/ ٢٩.

يليق به من النقائص والتمثيل، وإثبات ما يليق به من المحامد وصفات الكمال[١].

وربما جعل بعضهم التسبيح خاصاً باعتقاد القلب، والتحميد خاصاً بقول اللسان الموافق لاعتقاد القلب[٢].

القول الثاني: أن التسبيح يراد به معناه الأصلي، والتحميد يراد به التوفيق والإنعام، والباء للسببية. فقوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ معناه: سبح بتوفيق ربك لك وإنعامه عليك، أي: بسبب ذلك[٣].

وحقيقة هذا المعنى أن الحمد هو الثناء، والثناء ناشئ عن التوفيق للخير والإنعام على المثني، فنزل الناشئ عن السبب منزلة السبب[٤]. ولكن ليس في هذا المعنى ما يدل على الجمع بين التسبيح والتحميد لفظاً ومعنى، وإنما يدل على أن العبد يأتي بالتسبيح لفظاً ومعنى من أجل توفيق الله له وإنعامه عليه.

القول الثالث: أن التسبيح يراد به معناه الأصلي، والتحميد يراد به الرضا، وذلك كما قال نفطويه: «وأما قوله: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠]، فقولهم: ﴿نُسَبِّحُ﴾ أي: ننزهك ونباعد عنك ما وصفت به من خلاف صفاتك. وقوله: ﴿بِحَمْدِكَ﴾ أي: برضاك ورضانا بذلك» اهـ[٥].

---

(١) انظر: نور المسرى، لأبي شامة: ص٤٢، والبحر المحيط، لأبي حيان: ٦/ ٢٦٨، ومغني اللبيب، لابن هشام الأنصاري: ص١٤٠، وتفسير سورة النصر، لابن رجب: ص٢١٣.

(٢) انظر: البحر المحيط، لأبي حيان: ٦/ ٤٦٥.

(٣) انظر: التفسير الكبير، للفخر الرازي: ٣٢/ ١٦١، والدر المصون، للسمين الحلبي: ١/ ٢٥٦، والبحر المحيط، لأبي حيان: ١/ ٢٩١.

(٤) انظر: البحر المحيط، لأبي حيان: ١/ ٢٩١.

(٥) مسألة سبحان: ص٣٠.

وهذا المعنى يفيد الجمع بين التسبيح ـ لفظاً ومعنى ـ وبين الرضا، وهو من أعمال القلوب؛ لأنه ضد السخط والكراهة[١]، ولهذا يكون تفسير الحمد بالرضا تفسيراً له بجزء مدلوله[٢]؛ لأن الحمد يتضمن الرضا وزيادة، فحقيقة الحمد: الإخبار عن محاسن المحمود مع حبه وإجلاله والرضا به[٣]، فتضمن الثناء والمحبة والإجلال والرضا.

القول الرابع: أن التسبيح يراد به معناه الأصلي، والتحميد يراد به الأمر. فقوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ معناه: سبح بأمر ربك[٤].

ولهذا التفسير توجيهان أشار إليهما شيخ الإسلام ابن تيمية:

التوجيه الأول: أن قوله: (بحمد ربك) أي: بكونه محموداً، يعني المحمود على التسبيح، حيث كان هو الذي أمر بذلك وشرعه، فإذا سبحنا سبحنا بحمده[٥].

والتوجيه الثاني: أن «يكون القائل الذي قال: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي: بأمره، أراد المأمور به، أي: سبحه بما أمرك أن تسبحه به. فيكون المعنى: سبح التسبيح الذي أمرك به»[٦].

وعلى كلا التوجيهين، لا يكون قوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ دالاً على الجمع بين التسبيح والتحميد في اللفظ والمعنى؛ لأنه ـ على

---

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٠/ ٤٣، والقاموس المحيط، للفيروزآبادي: مادة (رضي): ص١٦٦٢.
(٢) انظر: بدائع الفوائد، لابن قيم الجوزية: ١/ ٣٣٣.
(٣) انظر: المصدر السابق، الموضع نفسه، والوابل الصيب، للمؤلف نفسه: ص١١٩.
(٤) انظر: زاد المسير، لابن الجوزي: ٧/ ٢٠٢.
(٥) انظر: قاعدة حسنة في الباقيات الصالحات، لشيخ الإسلام ابن تيمية: ص٥٠ ـ ٥١.
(٦) المصدر السابق: ص٥١.

التوجيه الأول ـ تكون الباء للسببية، بمعنى: سبح بسبب أن الله أمرك بذلك وهو المحمود عليه.

وعلى التوجيه الثاني تكون الباء للاستعانة، بمعنى: سبح بما أمرك الله أن تسبحه به.

القول الخامس: أن التسبيح يراد به التنزيه، وقوله: (بحمد ربك) الباء للاستعانة، والحمد مضاف إلى الفاعل، فمعنى ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾: نزهه بما حمد به نفسه من الأسماء والصفات[١].

وهذا التفسير قريب في المعنى مما قبله، بحسب التوجيه الثاني له.

والظاهر أن أصحاب هذا القول أرادوا التنبيه بهذا التفسير على أن تنزيه الله تعالى لا بد أن يكون منضبطاً بما جاء به الكتاب والسنة من إثبات صفات الكمال لله تعالى مع نفي النقائص والتمثيل عنه، فهذا هو التنزيه المحمود؛ لأنه تنزيه لله تعالى بما حمد به نفسه خلافاً لمن نفى صفات الله تعالى أو نفى بعضها بدعوى التنزيه، فهذا تنزيه مذموم، لمخالفته الكتاب والسنة[٢].

القول السادس: أن التسبيح يراد به الصلاة، والتحميد يراد به الثناء، والباء للاستعانة، فقوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ معناه: صل بثنائك على ربك[٣].

---

(١) انظر: نور المسرى، لأبي شامة: ص٤٢، ومغني اللبيب، لابن هشام: ص١٤٠، وتفسير سورة النصرة، لابن رجب: ص٢١٣.

(٢) انظر: المصادر السابقة، المواضع نفسها، ومسألة سبحان، لنفطويه: ص٤٢ ـ ٤٣.

(٣) انظر: تفسير الطبري: ٨/٤٧٦، وزاد المسير، لابن الجوزي: ٨/٢٣، وقاعدة حسنة في الباقيات الصالحات، لشيخ الإسلام ابن تيمية: ص٤٩.

وقد تقدم ـ عند بيان معاني التسبيح في الشرع ـ أن التسبيح جاء بمعنى الصلاة في مواضع كثيرة من الكتاب والسنة، مع بيان مناسبة ذلك[١].

ولا ريب أن الثناء على الله تعالى بالحمد له ركن في الصلاة، فإنها لا تتم إلا بالفاتحة التي نصفها الأول حمد لله وثناء عليه وتمجيد له، وقد شرع قبل ذلك الاستفتاح، وشرع التسبيح في الركوع والسجود، وشرع في الصلاة غير ذلك من أنواع الثناء على الله تعالى[٢].

فالمصلي إذا حمد ربه في القيام، وسبح في الركوع والسجود، فقد جمع بين التسبيح والتحميد، فسبح بحمد ربه، فالصلاة الشرعية تسبيح بحمد الله تعالى[٣].

القول السابع: أن التسبيح يراد به الصلاة، والتحميد يراد به الأمر. فقوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾: معناه: صل بأمر ربك[٤].

وفي هذا التفسير أيضاً التوجيهان المذكوران في القول الرابع مما سبق، فإما أن يكون المراد صل بأمر ربك، أي: بكونه المحمود على ذلك، حيث كان هو الذي شرع الصلاة وأمر بها.

وإما أن يكون المراد: صل بأمر ربك، أي: صل الصلاة المأمور بها التي أمرك بها ربك[٥].

---

(١) انظر: ص(٨٦ ـ ٩٦) من البحث.
(٢) انظر: قاعدة حسنة في الباقيات الصالحات: ص٥٠.
(٣) انظر: المصدر السابق: ص٥٦.
(٤) انظر: تفسير البغوي: ٤/٣٩٧، وقاعدة حسنة في الباقيات الصالحات: ص٥٠ ـ ٥١.
(٥) انظر: قاعدة حسنة في الباقيات الصالحات: ص٥٠ ـ ٥١.

وقد علم أن الصلاة المأمور بها في الشرع تتضمن الجمع بين التسبيح والتحميد، وغير ذلك من الثناء على الله تعالى.

القول الثامن: أن التسبيح يراد به الذكر، والتحميد يراد به الثناء، والباء للاستعانة. فقوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ معناه: اذكر ربك بالتحميد والشكر، أي: ليكن ذكرك بالحمد والشكر لربك[(١)].

وهذا المعنى لا يدل ضرورة على الجمع بين التسبيح والتحميد، بل يدل على أن يكون ذكر الله بالتحميد والشكر له.

وتفسير التسبيح بجنس ذكر الله تعالى سبق بيانه في معاني التسبيح في الشرع[(٢)].

القول التاسع: أن التسبيح يراد به الحمد نفسه، والتحميد يراد به الثناء، والباء للاستعانة. فقوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ معناه: احمده، أي سبحه بواسطة أن تحمده.

وذلك لأن الحمد يقوم مقام التسبيح، لما تضمنه الحمد من معنى التسبيح، فإن الحمد معناه: الثناء على الله والشكر له، وهذا تنزيه له واعتراف بأنه أهل لأن ينزه ويعظم ويثنى عليه؛ لأنه لا يكون مستحقاً للثناء إلا إذا كان منزهاً عن النّقص، فحمد الحامد لله تسبيح له[(٣)].

وبناء على هذا التفسير لا تكون الآيات التي وردت في هذا الباب

---

(١) انظر: معاني القرآن، للأخفش: ١/ ٢١٩ و٢/ ٧٤٥، وتفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني: ٦/ ٢٩٦.

(٢) انظر: ص(٩٦) من البحث.

(٣) انظر: الوسيط في تفسير القرآن المجيد، للواحدي: ١/ ١١٥، والدعاء المأثور وآدابه، للطرطوشي: ص١٦٤، والتفسير الكبير، للرازي: ٣٢/ ١٦٠، ونور المسرى، لأبي شامة: ص٤٦، وفتح الباري، لحافظ ابن حجر العسقلاني: ٢/ ٢٩٩.

دالة على الجمع بين التسبيح والتحميد في اللفظ والمعنى، وهذا فيه نظر، وكون الحمد يتضمن معنى التسبيح لا يقتضي أن يقوم مقامه، لا سيما عند الاقتران، فقد تقدمت الإشارة إلى أن كلا من التسبيح والتحميد يستلزم معنى الآخر إذا أفردا، وعند الاقتران يعطى كل خاصيته، فلا سبيل إلى تفسير التسبيح بالحمد نفسه في هذه الآيات، والله تعالى أعلم.

القول العاشر: أن التسبيح يراد به التنزيه والتطهير، والتحميد يراد به الثناء، والباء صلة زائدة؛ لأن العرب تدخل الباء أحياناً في التسبيح، وتحذفها أحياناً، فتقول: سبح بحمد ربك، وسبح حمد ربك، كما قال الله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ [الواقعة: ٧٤ و٩٦، والحاقة: ٥٢]، وقال في موضع آخر: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ [الأعلى: ١].

فقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ تقديره: سبح حمد ربك[(١)].

وفي المراد بذلك احتمالات:

أحدها: أن معناه: اختر لربك أطهر المحامد وأزكاها.

الثاني: طهر محامد ربك عن الرياء والسمعة، وعن التوسل بذكرها إلى الأغراض الدنيوية.

الثالث: طهر محامد ربك عن أن تقول جئت بها كما يليق به[(٢)].

وهذا التفسير بجميع ما فيه من الاحتمالات قائم على أن الفعل (سبح) مسلط على لفظ (حمد ربك)، بمعنى: طهر حمد ربك، ثم لهذا التطهير الاحتمالات المذكورة، وليس فيها ما يدل على الجمع بين التسبيح والتحميد لفظاً ومعنى.

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ١١/ ٣٥، والدعاء المأثور وآدابه، للطرطوشي: ص١٦٤، والتفسير الكبير، للرازي: ٣٢/ ١٦١.
(٢) انظر: التفسير الكبير: ٣٢/ ١٦١.

وهذه الأقوال العشرة السابقة معظمها صحيح في نفسها، ولكن الشأن هنا في بيان ما جاء به الكتاب والسنة من القرن بين التسبيح والتحميد لفظاً ومعنى، قولاً واعتقاداً. وأوضح هذه الأقوال دلالة على ذلك هو القول الأول.

وقد دلت السنة على أن المراد بقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ الجمع بين التسبيح والتحميد لفظاً ومعنى، وقولاً واعتقاداً، كما في حديث عائشة رضي الله عنها قالت: «كان النبي ﷺ يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: «**سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي**»، يتأول القرآن»[(١)].

فقولها: «يتأول القرآن» أي: يفعل ما أمره الله به في القرآن، تعني قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝﴾ [النصر: ٣][(٢)].

وأما (الواو) في قوله: (سبحانك اللهم وبحمدك) ونحوه، كـ (سبحان الله وبحمده) فاختلف فيها العلماء على أربعة أقوال:

القول الأول: أن الواو للعطف، والكلام جملتان:

أولاهما: جملة (سبحانك اللهم) أو (سبحان الله)، وهي الجملة المعطوف عليها. والثانية: جملة (بحمدك) أو (بحمده)، وهي الجملة المعطوفة[(٣)].

والباء في هذه الجملة الثانية متعلقة بمحذوف اختلفوا في تقديره:

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ ٢/ ٢٩٩، برقم (٨١٧)، ومسلم في صحيحه: ١/ ٣٥٠، برقم (٤٨٤).

(٢) انظر: شرح صحيح مسلم، للنووي: ٤/ ٢٠١.

(٣) انظر: المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، للقرطبي: ٧/ ٥٢، ومغني اللبيب، لابن هشام: ص١٤٠، وفتح الباري، لابن حجر العسقلاني: ١٣/ ٥٤١، وتحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، للمباركفوري: ٩/ ٣٩٢ ـ ٣٩٣.

فقدره بعضهم مقدماً، وتقديره: وأثني عليك بحمدك، أو وأثني عليه بحمده، أي: بذكر صفات كماله وجلاله، كما يقال: سبحان الله والحمد لله[(١)].

أو تقديره: وأحمدك بحمدك، وأحمده بحمده[(٢)]. أو وأتلبس بحمدك، وأتلبس بحمده[(٣)].

وقدره بعضهم مؤخراً، وتقديره: وبحمدك سبحتك، وبحمده سبحته، أو وبحمدك تسبيحنا، وبحمده تسبيحنا[(٤)].

والذين قدروا المحذوف هكذا مؤخراً فسروا قوله: (بحمدك) بمعنى: بمعونتك وتوفيقك ونعمتك التي توجب علي حمداً سبحتك، لا بحولي وقوتي، أو نحو هذا من الكلام[(٥)].

فيؤخذ منه أن المراد بالحمد لازمه، وهو ما يوجب الحمد، فيكون مما أقيم فيه السبب مقام المسبب[(٦)]، كما تقول: فعلت هذا

---

(١) انظر: المفهم، للقرطبي: ٧/ ٥٣، والتنقيح في حديث التسبيح، لابن ناصر الدين: ص٨٧، وفتح الباري، لابن حجر العسقلاني: ١٣/ ٥٤١.

(٢) انظر: العلم الهيب في شرح الكلم الطيب، لبدر الدين العيني: ص١٠٠، ٢٦٢.

(٣) انظر: فتح الباري، لابن حجر العسقلاني: ١٣/ ٥٤١.

(٤) انظر: شأن الدعاء، للخطابي: ص١٤٣، والمغرب، لأبي الفتح المطرزي: ١/ ٣٧٩، وشرح صحيح مسلم، للنووي: ٤/ ٢٠٢، ومغني اللبيب، لابن هشام: ص١٤٠، والتنقيح في حديث التسبيح، لابن ناصر الدين: ص٨٧، والعلم الهيّب، للعيني: ص٢٦٢.

(٥) انظر: شأن الدعاء، للخطابي: ص١٤٤، وشرح صحيح مسلم، للنووي: ٤/ ٢٠٢، والتنقيح في حديث التسبيح، لابن ناصر الدين: ص٨٦ ـ ٨٧.

(٦) انظر: مغني اللبيب، لابن هشام الأنصاري: ص١٤٠، وفتح الباري، لابن حجر: ١٣/ ٥٤١،

بحمد الله، أي: بتوفيقه وفضله الذي يستحق الحمد عليه[١].

القول الثاني: أن الواو بمعنى (مع)، والكلام جملة واحدة، فقوله: (سبحانك اللهم وبحمدك) تقديره: أسبحك اللهم مع التلبس بحمدك[٢].

القول الثالث: أن الواو للحال، والكلام جملة واحدة أيضاً، فقوله: (سبحان الله وبحمده) تقديره: أسبح الله متلبساً بحمدي له من أجل توفيقه[٣]. وقوله: (سبحانك وبحمدك) تقديره: أسبح حامداً لك[٤].

القول الرابع: أن الواو صلة زائدة[٥]، والكلام جملة واحدة كذلك. فقوله: (سبحانك اللهم وبحمدك) تقديره: سبحتك بحمدك[٦]، أي: سبحتك بما حمدت به نفسك[٧]. فالباء ـ على هذا التقدير ـ للاستعانة.

وقدره بعضهم: أسبحك تسبيحاً متلبساً ومقترناً بحمدك، فتكون الباء ـ على هذا التقدير ـ للملابسة[٨].

والأقوال الثلاثة الأول أرجح من هذا القول الأخير؛ لأن الأصل أن تكون الواو لمعنى مقصود، وليست زائدة.

---

(١) انظر: قاعدة حسنة في الباقيات الصالحات، لشيخ الإسلام ابن تيمية: ص٥١.
(٢) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، للمباركفوري: ٢/ ٤٧.
(٣) انظر: فتح الباري، لابن حجر العسقلاني: ١٣/ ٥٤١.
(٤) انظر: تحفة الأحوذي، للمباركفوري: ٩/ ٣٩٣.
(٥) شأن الدعاء، للخطابي: ص١٤٤، ومغني اللبيب، لابن هشام: ص١٤٠.
(٦) انظر: شأن الدعاء، للخطابي: ص١٤٤.
(٧) انظر: نور المسرى، لأبي شامة: ص٤٦.
(٨) انظر: تحفة الأحوذي، للمباركفوري: ٢/ ٤٧.

ثم إن هذه الأقوال لا يظهر فيها ـ عند التأمل ـ اختلاف حقيقي في المعنى، وإن كان القول الأول ـ في الجملة ـ أحسن بياناً للمعنى المقصود بالواو في هذه الصيغة من التسبيح، وبه تكون صيغة (سبحان الله وبحمده) مثل صيغة (سبحان الله والحمد لله).

وعلى كل، فإن صيغة التسبيح المقرون بالتحميد من أكمل صيغ الثناء على الله تعالى، وأدلها على استغراق الثناء عليه سبحانه بكل كمال؛ لأن التسبيح دال على تنزيهه عن كل ما لا يليق به من النقائص والعيوب والأمثال والشركاء، والتحميد دال على إثبات ما يليق به من المحامد والفضائل وصفات الكمال، فإذا سبح العبد بحمده، جمع له بين هذا وهذا[(١)]، فنفى بـ (سبحان الله) كل نقص عن الله تعالى؛ لأن ترك التقييد فيه مشعر بالتعميم، وأثبت بـ (حمده) كل وصف كمال وجلال ثابت لله ﷻ؛ لأنه مضاف إلى معرفة، فتعم جميع المحامد[(٢)]. فكان في قوله: (سبحان الله وبحمده) و(سبحان الله والحمد لله) ونحوه، إثبات تنزيهه وتعظيمه وتحميده وإلهيته[(٣)]، وبالله التوفيق.

المسألة الثانية: قرن التسبيح بالتهليل

ورد التسبيح مقروناً بالتهليل في مواضع من الكتاب والسنة، وذلك مثل:

١ ـ قول الله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ

---

(١) انظر: منهاج السنة النبوية، لشيخ الإسلام ابن تيمية: ٥/١٠٤ ـ ١٠٥، وأضواء البيان، للشيخ محمد الأمين الشنقيطي: ٢/١١١.

(٢) انظر: ملحة الاعتقاد، لعز الدين بن عبد السلام، تحقيق حسن السماحي: ص٣٥ ـ ٣٦، وفتح الباري، لابن حجر العسقلاني: ١٣/٥٤١، وأضواء البيان: ٢/١١١.

(٣) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٠/٢٥٣.

إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١]. فقوله: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ تهليل. وقوله: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ تسبيح.

٢ ـ وقوله تعالى ـ مخبراً عن نبيه يونس عليه السلام ـ: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الأنبياء: ٨٧]. فقوله: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾ تهليل. وقوله: ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾ تسبيح.

٣ ـ وحديث عائشة رضي الله عنها قالت: «افتقدت النبي ﷺ ذات ليلة، فظننت أنه ذهب إلى بعض نسائه، فتحسست، ثم رجعت، فإذا هو راكع أو ساجد يقول: «**سبحانك وبحمدك، لا إله إلا أنت**». فقلت: بأبي أنت وأمي، إني لفي شأن، وإنك لفي آخر»[١]. ففي هذا الذكر الذي كان يقوله ﷺ تسبيح مقرون بالتحميد والتهليل.

٤ ـ وحديث يسيرة[٢] رضي الله عنها قالت: قال لنا رسول الله ﷺ: «**عليكن بالتسبيح والتهليل والتقديس، ولا تغفلن فتنسين التوحيد**»[٣].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه: ١/ ٣٥١ ـ ٣٥٢، برقم (٤٨٥).

(٢) هي يسيرة ـ بالتصغير ـ، ويقال: أسيرة ـ بهمزة ـ بنت ياسر، ويقال: أم ياسر، وتكنى أيضاً: أم حميضة، صحابية من الأنصار، وقيل: من المهاجرات، عرفت بروايتها لهذا الحديث المذكور، رضي الله عنها. انظر: الإصابة، للحافظ ابن حجر: ٨/ ١٦٣، وتقريب التهذيب، له: ٢/ ٥٣١.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه: ٥/ ٥٣٣، برقم (٣٥٨٣)، والحاكم في المستدرك: ١/ ٧٣٢، برقم (٢٠٠٧)، واللفظ له، وعند الترمذي: (الرحمة) بدل (التوحيد). وأخرجه أبو داود ـ بنحوه ـ في سننه: ٢/ ١٧٠، برقم (١٥٠١). قال الألباني: وهو حديث حسن، وصححه الحاكم والذهبي، وحسنه النووي والعسقلاني، وله شاهد عن عائشة موقوف. انظر: سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة: ١/ ١٨٦، في الكلام على حديث رقم (٨٣). وكذا حسنه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٤٠٨٧).

ففي هذا الحديث أمر بملازمة التسبيح والتهليل، وهو دليل على مشروعية القرن بينهما في الذكر، كما يشرع إفرادهما في الذكر أيضاً. وقد ثبت في السنة قرن التسبيح بالتهليل في مواضع عديدة، سيأتي ذكرها ـ إن شاء الله ـ عند بيان المواضع التي يشرع فيها التسبيح مقروناً[١].

ولصيغة التسبيح المقرون بالتهليل دلالة عظيمة في مقام الثناء على الله تعالى وتوحيده، فإن التهليل صريح في نفي الإلهية عن كل ما سوى الله ﷻ، وإثباتها له وحده لا شريك له، فلا إله إلا الله، أي: لا معبود بحق إلا الله[٢]. والتسبيح صريح في تنزيه الله تعالى عن النقائص والأمثال.

فمنطوق التهليل توحيد، ومفهومه تنزيه؛ لأن الإلهية الحقة تقتضي انتفاء النقائص والأمثال.

ومنطوق التسبيح تنزيه، ومفهومه توحيد؛ لأن تنزهه عن النقائص والأمثال يقتضي اختصاصه بالإلهية، وأن لا يستحق العبادة أحد سواه سبحانه[٣].

فإذا قرن التسبيح بالتهليل كان التسبيح تقريراً لمعنى التهليل، وتحقيقاً لتنزيه الله تعالى وتوحيده.

المسألة الثالثة: قرن التسبيح بالتكبير

ورد التسبيح مقروناً بالتكبير في مواضع من السنة، ولم يرد مثل

---

(١) انظر: (٦٣/٢) من البحث.

(٢) انظر: تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد، للشيخ سليمان بن عبد الله: ص٧٣، ومعارج القبول، للشيخ حافظ الحكمي: ٤١٦/٢، وشرح العقيدة الواسطة، للشيخ محمد خليل هراس: ص٥٦.

(٣) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٢٣/١٦ ـ ١٢٤، وفتح الباري، لابن حجر العسقلاني: ٢٠٧/١١.

ذلك في القرآن الكريم، ومن أمثلة التسبيح المقرون بالتكبير:

ما جاء في حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: «بينما نحن نصلي مع رسول الله ﷺ إذ قال رجل من القوم: (الله أكبر كبيراً، والحمد لله كثيرا، وسبحان الله بكرة وأصيلا). فقال رسول الله ﷺ: «**من القائل كلمة كذا وكذا؟**» فقال رجل من القوم: أنا، يا رسول الله. قال: «**عجبت لها فتحت لها أبواب السماء**». قال ابن عمر: فما تركتهن منذ سمعت رسول الله ﷺ يقول ذلك»[(١)].

فهذا الذكر ـ وهو (الله أكبر كبيراً، والحمد لله كثيراً، وسبحان الله بكرة وأصيلاً) ـ قرن فيه التسبيح بالتكبير والتحميد.

وما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «أن فقراء المهاجرين أتوا رسول الله ﷺ، فقالوا: ذهب أهل الدثور بالدرجات العلى والنعيم المقيم، فقال: (**وما ذاك؟**) قالوا: يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون ولا نتصدق، ويعتقون ولا نعتق. فقال رسول الله ﷺ: «**أفلا أعلمكم شيئاً تدركون به من سبقكم، وتسبقون به من بعدكم، ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من صنع مثل صنعكم؟**»، قالوا: بلى، يا رسول الله. قال: «**تسبحون وتكبرون وتحمدون دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين مرة**»»[(٢)].

ففي هذا الحديث إرشاد إلى التسبيح مقروناً بالتكبير والتحميد في دبر كل صلاة.

وسيأتي ـ إن شاء الله ـ بيان هذا الحديث والذي قبله في مباحث

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه: ١/ ٤٢٠، برقم (٦٠١).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ٢/ ٤٢٥، برقم (٨٤٣)، ومسلم في صحيحه: ١/ ٤١٦ ـ ٤١٧، برقم (٥٩٥)، واللفظ له.

التسبيح في الصلاة[١]، كما سيأتي ـ إن شاء الله ـ أمثلة أخرى للتسبيح المقرون بالتكبير في المواضع التي يشرع فيها التسبيح مقروناً[٢].

وكلمة التكبير (الله أكبر) تقتضي تفضيل الله تعالى على كل شيء فيما توصف به الأشياء من الكمالات، وفيما تنزه عنه من النقائص[٣]؛ لأنها أفعل تفضيل يدل على أنه سبحانه أكبر من كل شيء بجميع الاعتبارات[٤]، فهو ﷻ أكبر من كل شيء ذاتا وقدراً ومعنى وعزة وجلالة، أكبر من كل شيء في أسمائه وصفاته وأقواله وأفعاله، كما هو فوق كل شيء، وعال على كل شيء، وأعظم من كل شيء، وأجل من كل شيء في ذاته وأسمائه وصفاته وأقواله وأفعاله، فلا يساويه شيء في شيء من ذلك[٥].

وهذا المعنى العظيم الذي دل عليه التكبير إذا تأملته وجدت بينه وبين التسبيح مناسبة تامة، فكل منهما يتضمن التعظيم والإجلال لله تبارك وتعالى، ولأن التسبيح دال على أنه سبحانه منزه عن النقائص كلها، وعن الأمثال بأنواعها، وهذه الدلالة تتضمن أيضاً أنه تعالى أكبر من كل شيء، وأنه لا مثل له؛ لأن كل شيء غيره لا بد أن يكون فيه نقص، ولا بد أن يكون له مثل، والله تعالى وحده الذي له الكمال المطلق الذي لا يلحقه نقص بوجه من الوجوه، وليس كمثله شيء في

---

(١) انظر: الفصل الأول من الباب الثالث: ص٥١٦، ٥٧٨.
(٢) انظر: الفصل الثالث من الباب الثالث: (٢/٦٣).
(٣) انظر: قاعدة حسنة في الباقيات الصالحات، لشيخ الإسلام ابن تيمية: ص٢٥، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٥/٢٣٩.
(٤) انظر: الصواعق المرسلة، لابن قيم الجوزية: ٤/١٣٧٨.
(٥) انظر: المصدر السابق: ٤/١٣٧٩، وقاعدة حسنة في الباقيات الصالحات، لشيخ الإسلام ابن تيمية: ص٢٣.

ذاته ولا في أسمائه وصفاته، ولا في أقواله وأفعاله تبارك وتعالى.

وإذا قرن بين التسبيح والتحميد والتكبير، نشأت من اقتران الثلاثة دلالة أخرى؛ لأن التسبيح يتضمن نفي النقائص والعيوب، والتحميد يتضمن إثبات صفات الكمال التي يحمد عليها، والتكبير تفصيل لما تضمنه التسبيح والتحميد من النفي والإثبات، فإن كل ذلك إما أن يكون مختصاً به، أو ليس كمثله شيء فيه[١].

وتجدر الإشارة هنا إلى ورود التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير مقترنة، كما في حديث أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لأن أقول: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، أحب إلي مما طلعت عليه الشمس**»[٢].

وقد أوضح شيخ الإسلام ابن تيمية أن هذه الكلمات شطران:

فالتحميد مقرون بالتسبيح وتابع له، والتكبير مقرون بالتهليل وتابع له[٣]، ثم إن كلا من الكلمتين يتضمن معنى الكلمتين الأخريين إذا أفردتا، وعند الاقتران تعطى كل كلمة خاصيتها[٤].

كما أن هذه الكلمات الأربع تتضمن معاني أسماء الله الحسنى وصفاته العليا، ففيها كمال المدح وتمام الثناء على الله تعالى[٥].

وجاء في كلام للعلامة عز الدين بن عبد السلام[٦] بيان اندراج

---

(١) انظر: قاعدة حسنة في الباقيات الصالحات: ص٢٦، ٣١.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه: ٤/ ٢٠٧٢، برقم (٢٦٩٥).
(٣) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٠/ ٢٥١ و٢٤/ ٢٣١، ٢٣٢، وقاعدة حسنة في الباقيات الصالحات، له: ص١٨.
(٤) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٠/ ٢٥٢، ٢٥٣ ـ ٢٥٤.
(٥) انظر: المصدر السابق: ١٠/ ٢٥٤.
(٦) هو عبد العزيز بن عبد السلام بن القاسم بن الحسن السلمي، عز الدين، =

أسماء الله تعالى في هذه الكلمات الأربع، حيث بين أن ما كان من أسماء الله تعالى سلبا، فهو مندرج تحت كلمة (سبحان الله)، كالقدوس، والسلام. وما كان من أسمائه إثباتاً، فهو مندرج تحت كلمة (الحمد لله)، كالعليم، والسميع، البصير. وما كان من أسمائه مدحاً فوق ما يعرفه البشر ويدركونه، فهو مندرج تحت كلمة (الله أكبر)، كالأعلى، والمتعالي. وما كان من أسمائه جامعاً لجميع هذه المعاني على الإجمال، فهو مندرج تحت كلمة (لا إله إلا الله)، كالواحد، والأحد، وذي الجلال والإكرام؛ لأن الألوهية ترجع إلى استحقاق العبودية، ولا يستحق العبودية إلا من اتصف بجميع أوصاف الكمال ونعوت الجلال، وهو الله وحده سبحانه وتعالى[(١)].

ولهذا كانت لهذه الكلمات الأربع فضائل كثيرة في الكتاب والسنة، منفردة ومشتركة، كما سيأتي بيانه ـ إن شاء الله ـ عند الكلام على فضل التسبيح[(٢)].

المسألة الرابعة: قرن التسبيح بأسماء الله تعالى وصفاته

ولهذه المسألة أيضاً أهمية خاصة؛ لأن لفظة التسبيح (سبحان) لازمة الإضافة في الكلام، كما سبق بيانه عند بحث استعمالاته في

= أبو محمد، الدمشقي، الشافعي، الملقب بسلطان العلماء، كان عالماً بارعاً، وفقيهاً ناسكاً، أماراً بالمعروف نهاء عن المنكر، درس وأفتى وصنف، ومن مصنفاته: قواعد الأحكام في مصالح الأنام، وتوفي سنة (٦٦٠هـ)، رحمه الله. انظر: البداية والنهاية، لابن كثير: ١٣/٢٤٨ ـ ٢٤٩، وشذرات الذهب، لابن العماد: ٥/٣٠١ ـ ٣٠٢.

(١) انظر: ملحة الاعتقاد: ص٣٥ ـ ٣٧.

(٢) انظر: الفصل الثاني من الباب الثاني: ص٤٤٤ ـ ٤٦٧.

اللغة[١]، والغالب أن تضاف إلى لفظ الجلالة، مثل: (سبحان الله)، أو إلى لفظ (رب)، مثل: (سبحان ربي)، أو إلى ضمير عائد إلى الله تعالى، مثل: (سبحانك) و(سبحانه).

فالتسبيح حيث وقع في الكتاب أو السنة فهو مضاف إلى اسم من أسماء الله تعالى أو ضمير عائد إليه سبحانه.

وكثيراً ما يأتي التسبيح ـ مع الاسم أو الضمير المضاف إليه ـ مقروناً باسم آخر أو أكثر من أسماء الله تعالى الحسنى، أو مقروناً بصفة فأكثر من صفاته العليا.

وقد جاء في كتاب الله تعالى الأمر بالتسبيح باسم الله، كما قال تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ [الواقعة: ٧٤، ٩٦، والحاقة: ٥٢]، والأمر بتسبيح اسمه، كما قال تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾﴾ [الأعلى: ١].

وفي هذه الآيات دليل على قرن التسبيح بأسماء الله تعالى وصفاته، غير أن العلماء مختلفون في تفسير هذه الآيات، بناء على اختلافهم في الباء من قوله: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ هل هي أصلية أو صلة؟.

حيث ذهب فريق من العلماء إلى أن الباء صلة زائدة[٢]، وأنها داخلة على المفعول، كالباء في قوله: ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ [مريم: ٢٥]، أي: وهزي إليك جذع النخلة[٣].

وذهب فريق آخر من العلماء إلى أن الباء أصلية وليست زائدة،

---

(١) انظر: ص٥٦.

(٢) انظر: تفسير البغوي: ٨/ ٢٧، والدعاء المأثور وآدابه، للطرطوشي: ص١٦٤، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ١٧/ ٢٣٤، وأضواء البيان، للشيخ محمد الأمين الشنقيطي: ٥/ ٢٤٩.

(٣) انظر: أضواء البيان، للشيخ محمد الأمين الشنقيطي: ٥/ ٢٤٩.

وأنها للملابسة[١]، أو المصاحبة[٢]، أو أنها للاستعانة[٣].

وقال بعضهم: إنها للتعدية؛ لأن الفعل (سبح) يتعدى بنفسه تارة، كقوله: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾. ويتعدى بحرف الجر (الباء) تارة، كقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾[٤].

كما اختلف العلماء أيضاً في لفظ (اسم) في هذه الآيات: هل هو صلة لا معنى له، أو هو بمعنى المسمى، أو بمعنى التسمية، أو يراد به الاسم الذي هو اللفظ الدال على المسمى؟

وإذا كان بمعنى اللفظ الدال على المسمى، فهل هو للجنس، أو هو واحد مقصود؟.

وقد نتج عن هذه الاختلافات ـ في قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾، وقوله: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾﴾ ـ سبعة أقوال[٥]:

القول الأول: أن الاسم صلة[٦]، بمعنى أنه زائد لا معنى له[٧]،

---

(١) انظر: الدر المصون، للسمين الحلبي: ١٠/ ٢٣٣، وروح المعاني، للآلوسي: ١٤/ ١٥١، وفتح القدير، للشوكاني: ٥/ ٢٣١.

(٢) انظر: تفسير التحرير والتنوير، لابن عاشور: ٢٩/ ١٥١.

(٣) انظر: روح المعاني: للآلوسي: ١٤/ ١٥١.

(٤) انظر: الدر المصون، للسمين الحلبي: ١٠/ ٢٣٣، وفتح القدير، للشوكاني: ٥/ ٢٣١.

(٥) هذا العدد بحسب ما اطلعت عليه من الأقوال في تفسير هذه الآيات.

(٦) انظر: النكت والعيون، للماوردي: ٦/ ٢٥١، وتفسير البغوي: ٨/ ٣٩٩، والدعاء المأثور وآدابه، للطرطوشي: ص١٦٤، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٢٠/ ١٣، وتفسير البيضاوي: ١/ ٦، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٦/ ١٩٩، والتسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي: ٢/ ٥٦٢.

(٧) انظر: تفسير الطبري: ١٢/ ٥٤٣، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٦/ ١٩٩.

أو ذكر لقصد تعظيم المسمى[١]؛ لأن التعظيم إذا وجب للمعظم، فقد تعظم ما هو متعلق به، كما يقال: سلام على الحضرة العالية، والمجلس الكريم، ونحو ذلك من العبارات[٢].

فمعنى قوله: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ وقوله: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾: سبح ربك، أي: نزهه عما لا يليق به[٣].

ويترتب على هذا القول أن الباء والاسم كليهما زائد، ولا معنى لهما.

ولا شك أن القول بزيادة الباء أهون من القول بزيادة لفظ (اسم)؛ لأن زيادة باء الجر معهودة في كلام العرب، لقصد التوكيد، ولذلك شواهد في كتاب الله تعالى[٤].

وأما زيادة الاسم فتفتقر إلى دليل، والأصل عدم الزيادة، وما استدل به بعضهم ـ على زيادة لفظ (اسم) في الكلام ـ من قول الشاعر:

«إلى الحول ثم اسم السلام عليكما ... ومن يبك حولاً كاملاً فقد اعتذر»[٥]

---

(١) انظر: النكت والعيون، للماوردي: ٦/ ٢٥١، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٢٠/ ١٣، وروح المعاني: للآلوسي: ١٥/ ١٣٠.
(٢) انظر: بدائع الفوائد، لابن قيم الجوزية: ١/ ٢١.
(٣) انظر: تفسير القرطبي: ١٢/ ٥١٣، وتفسير البغوي: ٨/ ٣٩٩، والتسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي: ٢/ ٥٦٢.
(٤) انظر: مغني اللبيب، لابن هشام الأنصاري: ص١٤٤ ـ ١٥٠، والإتقان في علوم القرآن، للسيوطي: ١/ ٥٠٤ ـ ٥٠٥.
(٥) البيت من شعر لبيد بن ربيعة العامري، وهو في ديوانه: ص٧٩ ـ ٨٠، وانظر: النكت والعيون، للماوردي: ٦/ ٢٥١، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٢٠/ ١٣، وتفسير البيضاوي: ١/ ٦، وفتح الباري، لابن حجر العسقلاني: ١١/ ١١٤.

لا يسلم لهم هذا الاستدلال؛ لأن للعلماء في لفظ الاسم في هذا البيت توجيهات عديدة، وكلها منافية للقول بزيادته، ولا مجال هنا لذكر هذه التوجيهات[١].

القول الثاني: أن الاسم بمعنى المسمى، أي: الذات[٢]، فقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ وقوله: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ بمعنى: سبح ربك[٣]؛ لأن أحداً لا يقول: سبحان اسم الله، أو سبحان اسم ربنا، وإنما يقول: سبحان الله، وسبحان ربنا. فالمسبح هو المسمى، وهو الله، وذلك دليل على أن الاسم هو المسمى، ولا فرق بينهما[٤].

وهذا القول فيه نظر، للأمور الآتية:

١ ـ أن مجيء الاسم بمعنى المسمى لا يعرف له شاهد صحيح، لا من كلام فصيح ولا غير ذلك[٥]، بل الاسم هو اللفظ الموضوع على الشيء للتمييز[٦]، ولهذا يقال: الاسم دليل على المسمى، وعلم على المسمى، ونحو ذلك[٧]. ويقال: ما اسم هذا؟ فيقال: زيد ـ مثلاً ـ،

---

(١) انظر هذه التوجيهات في: تفسير الطبري: ١/ ٨٠ ـ ٨٢، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٦/ ٢٠٢، وبدائع الفوائد، لابن قيم الجوزية: ١/ ٢٣ ـ ٢٤.

(٢) انظر: الدعاء المأثور وآدابه، للطرطوشي: ص١٦٤، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ١٧/ ٢٣٤ و٢٠/ ١٤، وفتح القدير، للشوكاني: ٥/ ٢٣١.

(٣) انظر: تفسير البغوي: ٨/ ٣٩٩، والمحرر الوجيز، لابن عطية: ١٦/ ٢٨٠، والتسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي: ٢/ ٥٦٢.

(٤) انظر: تفسير البغوي: ٨/ ٣٩٩، وتفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني: ٦/ ٤٣، ٢٠٦، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٢٠/ ١٤، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٦/ ١٩٠.

(٥) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٦/ ١٩٦.

(٦) انظر: القاموس المحيط، للفيروزآبادي: مادة (سمو): ص١٦٧٢.

(٧) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٦/ ٢٠٩.

فيجاب باللفظ، ولا يقال: ما اسم هذا؟ فيقال: هو هو[(١)].

٢ ـ أن لفظ (اسم) ـ في الآيات المذكورة ـ لو كان بمعنى المسمى، لكان يكفي قوله: (فسبح بربك العظيم) و(سبح ربك الأعلى)، فإن نفس الاسم عندهم هو نفس الرب، فكان هذا تكريراً من دون فائدة تذكر[(٢)].

٣ ـ أن الذي يقول: سبحان الله، وسبحان ربنا، إنما نطق بالاسم الذي هو لفظ (الله) ولفظ (ربنا)، فتسبيحه وقع على الاسم، لكن مراده هو المسمى بهذا الاسم. فهذا يبين أن المسبح ينطق باسم المسمى، ويريد به تسبيح المسمى، لا يريد به تسبيح مجرد الاسم.

وهذا لا ريب فيه، لكن هذا لا يدل على أن لفظ «اسم» يراد به المسمى، بل يدل على أن أسماء الله تعالى ـ مثل: الله، ربنا، ربي الأعلى، ونحو ذلك ـ يراد بها المسمى، مع أنها في نفسها ليست هي المسمى، لكن يراد بها المسمى[(٣)].

ويتبين ـ بهذا ـ أن هؤلاء القائلين: الاسم هو المسمى، إنما يسلم لهم أن أسماء الأشياء إذا ذكرت في الكلام، أريد بها مسمياتها، وهذا لا ينازع فيه أحد من العقلاء، لا أن لفظ (اسم) هو الذات[(٤)].

«وهذا هو الذي أراده من قال من أهل السنة: إن الاسم هو المسمى[(٥)]. أرادوا به أن الاسم إذا دعي وذكر يراد به المسمى، فإذا

---

(١) انظر: المصدر السابق: ٥/ ١٩٢. (٢) انظر: المصدر نفسه: ٦/ ١٩٣.

(٣) انظر: المصدر نفسه: ٦/ ١٩٢، ١٩٦ ـ ١٩٧، ٢٠٠ ـ ٢٠١ و١٦/ ٣٢٣.

(٤) انظر: المصدر نفسه: ٦/ ٢٠٢.

(٥) قال به بعض العلماء من أهل السنة بعد الأئمة، منهم: أبو القاسم الطبري، وأبو القاسم اللالكائي، وأبو محمد البغوي، وغيرهم. وانظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٦/ ١٨٧ ـ ١٨٨.

قال المصلي: (الله أكبر)، فقد ذكر اسم ربه، ومراده المسمى.

لم يريدوا به أن نفس اللفظ هو الذات الموجودة في الخارج، فإن فساد هذا لا يخفى على من تصوره، ولو كان كذلك كان من قال: (ناراً) احترق لسانه، وبسط هذا له موضع آخر»[١].

القول الثالث: أن الاسم بمعنى التسمية، فقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ وقوله: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ بمعنى: سبح تسمية ربّك، أي: نزه تسميتك ربك وذكرك إياه أن تذكره إلا وأنت له خاشع معظم، ولذكره محترم[٢].

والمراد بالتسمية ـ عند أصحاب هذا القول ـ: اللفظ الذي هو نفس الاسم، كلفظ الجلالة (الله)، و(الرحمن) و(الرحيم)، وغيرها من أسماء الله تعالى[٣].

وهذا الذي جعله هؤلاء تسمية هو الاسم عند الناس جميعهم، وليس هو التسمية، بل التسمية: مصدر (سمى، يسمي، تسمية): إذا جعل للشيء اسماً، فالتسمية نطق بالاسم وتكلم به، وليست هي الاسم نفسه[٤].

ومنشأ الغلط في هذا القول والذي قبله هو الخلط بين الاسم والمسمى والتسمية، وعدم التفريق بينها، وهي ثلاث حقائق يجب التفريق بينها.

---

(١) مقتبس من: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٦/ ٣٢٣.
(٢) انظر: تفسير الطبري: ١٢/ ٥٤٣، وتفسير البغوي: ٨/ ٤٠٠، والدعاء المأثور وآدابه، للطرطوشي: ص١٦٤، والمحرر الوجيز، لابن عطية: ١٦/ ٢٨١، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٢٠/ ١٤.
(٣) انظر: المحرر الوجيز، لابن عطية: ١٦/ ٢٨٠ ـ ٢٨١، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٦/ ١٨٩.
(٤) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٦/ ١٩٢، ١٩٥.

فالاسم: عبارة عن اللفظ الدال على المسمى.

والمسمى: عبارة عن الشيء الموجود في الأعيان أو الأذهان.

والتسمية: عبارة عن فعل المسمي ووضعه الاسم للمسمى[١].

ولا سبيل إلى جعل لفظين من هذه الثلاثة مترادفين على معنى واحد، لتباين حقائقها، وإذا جعل الاسم هو المسمى أو التسمية بطل واحد من هذه الحقائق الثلاثة ولا بد[٢].

القول الرابع: أن الاسم هو اللفظ، فقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ وقوله: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ أمر بتسبيح اسم الله، أي: بتنزيهه، فنفس الاسم مقصود بالذكر في هذه الآيات[٣]، لأنه كما يجب تنزيه ذاته سبحانه وصفاته عن النقائص، يجب تنزيه الألفاظ الموضوعة لها عن سوء الأدب وعن كل ما لا يليق بها[٤].

ثم ذكر هؤلاء لتنزيه أسماء الله تعالى أوجهاً، منها:

١ ـ تنزيه أسماء الله عن أن يسمى بها شيء سواه، وعن إطلاقها على غيره بزعم أنهما فيها سواء[٥].

---

(١) انظر: البحر المحيط، لأبي حيان: ١/١٢٧، وبدائع الفوائد، لابن قيم الجوزية: ١/١٨ ـ ١٩، ومعتقد أهل السنة والجماعة في أسماء الله الحسنى، للدكتور محمد بن خليفة التميمي: ص٢٤٩.

(٢) انظر: بدائع الفوائد، لابن القيم: ١/٢٠.

(٣) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي: ٢/٥٦٢، وأضواء البيان، للشيخ محمد الأمين الشنقيطي: ٥/٢٥٠.

(٤) انظر: تفسير البيضاوي: ١/٦، وروح المعاني، للآلوسي: ١٤/١٥١، وأضواء البيان، للشيخ محمد الأمين الشنقيطي: ٥/٢٥٠.

(٥) انظر: تفسير الطبري: ١٢/٥٤٢ ـ ٥٤٣، والنكت والعيون، للماوردي: ٦/ ٢٥١، والمحرر الوجيز، لابن عطية: ١٦/٢٨١، ونور المسرى، لأبي شامة: =

٢ ـ تنزيه أسماء الله عن غير ما سمى به نفسه، وعن ذكرها في غير موضعها، وعن استعمالها في غير ما أذن في استعمالها فيه[(١)].

٣ ـ تنزيه أسماء الله عن الإلحاد[(٢)] فيها بالتأويلات الفاسدة والمعاني الباطلة، كالتشبيه والتعطيل[(٣)][(٤)].

٤ ـ تنزيه أسماء الله عن أن تذكر في حال الغفلة دون خشوع، وعن اللهو واللعب بها، كالتلفظ بها في حالة تنافي الخشوع والإجلال[(٥)].

٥ ـ تنزيه أسماء الله عن الأماكن غير الطاهرة، ومنه صيانة الأوراق المكتوبة من الابتذال[(٦)] صوناً لاسم الله تعالى[(٧)].

= ص٤١، وتفسير البيضاوي: ٢/ ٥٨٩، والتسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي: ٢/ ٥٦٢.

(١) انظر: مسألة سبحان، لنفطويه: ص٤١، ونور المسرى، لأبي شامة: ص٤١، وأضواء البيان (تكملته)، للشيخ عطية سالم: ٦/ ٢٧.

(٢) الإلحاد: مصدر ألحد، إلحاداً، أي: مال، وعدل، وماري، وجادل. وانظر: القاموس المحيط، للفيروزآبادي: مادة (لحد): ص٤٠٤.

(٣) التشبيه: هو التمثيل، كما سبق في أنواع التسبيح باعتبار معناه: ص١٦٢، والتعطيل: هو نفي معاني أسماء الله وإنكار قيامها بذاته سبحانه. وانظر: ٢/ ٣٩١ من البحث.

(٤) انظر: تفسير البيضاوي: ٢/ ٥٨٩، والتسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي: ٢/ ٥٦٢، وأضواء البيان، للشيخ محمد الأمين الشنقيطي: ٥/ ٢٥٠.

(٥) انظر: التسهيل، لابن جزي: ٢/ ٥٦٢، وأضواء البيان (تكملته) للشيخ عطية سالم: ٦/ ٢٧.

(٦) الابتذال: ضد الصيانة [القاموس المحيط، للفيروزآبادي: مادة (بذل): ص١٢٤٧].

(٧) انظر: روح المعاني، للآلوسي: ١٥/ ١٣٠، وأضواء البيان (التكملة)، للشيخ عطية سالم: ٦/ ٢٨.

فهذه أهم أوجه التنزيه التي ذكرها الذين جعلوا التسبيح واقعاً على الاسم نفسه في قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ وقوله: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾.

ولا شك أن هذه الأوجه المذكورة صحيحة كلها، وهي مما تستحقه أسماء الله تعالى من التنزيه[١]، لكن هذه الأوجه تابعة للمراد الأصلي بهذه الآيات، وليست هي المقصودة بها القصد الأول[٢].

القول الخامس: أن الاسم هو اللفظ، وقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ يحتمل أن يكون الاسم هنا واحداً مقصوداً، ويكون (العظيم) صفة له، فكأنه تعالى أمر عبده أن يسبحه باسمه الأعظم، وإن كان لم ينص عليه[٣].

وهذا القول أشار إليه ابن عطية هكذا احتمالاً، ولا أعلم له وجهاً يسانده، بل هو ضعيف؛ لأن (العظيم) ليس بمعنى (أعظم)، وهو ـ في الآية ـ صفة للرب، وليس صفة للاسم، كما سيأتي بيانه من السنة قريباً.

القول السادس: أن الاسم هو اللفظ الدال على المسمى، وقوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ و﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾﴾ بمعنى: سبح ذاكراً اسم ربك العظيم والأعلى ناطقاً به[٤].

---

(١) انظر: مطلب (التوقير والتعظيم لأسماء الله وصفاته لفظاً ومعنى وظاهراً وباطناً) في ٢/ ٢٢١ من البحث.

(٢) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٦/ ١٩٩.

(٣) انظر: المحرر والوجيز، لابن عطية: ١٥/ ٣٩٥.

(٤) انظر: تفسير الطبري: ١١/ ٥٦٧ و١٢/ ٢٢٤، والمحرر الوجيز: لابن عطية: ١٥/ ٣٩٥، ونور المسرى، لأبي شامة: ص٤١، وتفسير البيضاوي: ٢/ ٤٦٣، والتسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي: ٢/ ٥٦٢، وروح المعاني، =

والاسم هنا للجنس، أي: بأسماء ربك[1]، فيعم كل ما هو معلوم من أسماء الله الحسنى.

وهذا المعنى ذكره وأشار إليه كثير من المفسرين، وهو صريح في أن ذكر الله تعالى والثناء عليه بالتسبيح يكون مقروناً بأسمائه الحسنى المتضمنة لصفاته العليا.

وقد أوضح ذلك الإمام ابن قيم الجوزية في جواب له عن تعلق الذكر والتسبيح المأمور به بالاسم، حيث قال: «الجواب الصحيح أن الذكر الحقيقي محله القلب؛ لأنه ضد النسيان، والتسبيح نوع من الذكر، فلو أطلق الذكر والتسبيح لما فهم منه إلا ذلك، دون اللفظ باللسان، والله تعالى أراد من عباده الأمرين جميعاً، ولم يقبل الإيمان وعقد الإسلام إلا باقترانهما واجتماعهما، فصار معنى الآيتين: سبح ربك بقلبك ولسانك، واذكر ربك بقلبك ولسانك، فأقحم الاسم تنبيهاً على هذا المعنى، حتى لا يخلو الذكر والتسبيح من اللفظ باللسان؛ لأن ذكر القلب متعلقه المسمى المدلول عليه بالاسم، دون ما سواه، والذكر باللسان متعلقه اللفظ مع مدلوله؛ لأن اللفظ لا يراد لنفسه، فلا يتوهم أحد أن اللفظ هو المسبح دون ما يدل عليه من المعنى.

وعبر لي شيخنا أبو العباس ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ عن هذا المعنى بعبارة لطيفة وجيزة، فقال: المعنى: سبح ناطقاً باسم ربك متكلماً به. وكذا ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ المعنى: سبح ربك ذاكراً اسمه.

وهذه الفائدة تساوي رحلة، لكن لمن يعرف قدرها، فالحمد لله

= للآلوسي: ١٤/ ١٥١، وتفسير التحرير والتنوير، لابن عاشور: ٢٩/ ١٥١ و٣٠/ ٢٧٢ ـ ٢٧٤، وتيسير الكريم الرحمن، للشيخ عبد الرحمن السعدي: ص٩٢٠.

(١) انظر: تفسير الطبري: ١١/ ٦٦٨، والمحرر الوجيز، لابن عطية: ١٥/ ٣٩٥.

المنان بفضله، ونسأله تمام نعمته» اهـ[١].

القول السابع: أن التسبيح في قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ۝٧٤﴾ وقوله: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ بمعنى الصلاة.

ولأصحاب هذا القول تعبيرات في معنى هذه الآيات، منها:

- المعنى: صل بذكر ربك، أي: صل وأنت له ذاكر، ومنه وجل خائف[٢].

- المعنى: صل بذكر ربك، بأن تفتتح به الصلاة، وأن تكون ذاكراً له بقلبك في نيتك للصلاة[٣].

- المعنى: صل بأسماء الله، لا كما يصلي المشركون بالمكاء[٤] والتصدية[٥][٦].

وهذه التعبيرات متفقة على أن الأمر بالتسبيح في الآيات المذكورة تعني الصلاة بذكر الله تعالى، وهذا التفسير لا يختلف عما سبق؛ لأن الصلاة مشتملة على التسبيح باسم الله تعالى لفظاً في الركوع والسجود، ولأن الصلاة بأقوالها وأفعالها تسبيح لله تعالى في المعنى، ولهذا

---

(١) بدائع الفوائد: ١/ ٢١ ـ ٢٢.

(٢) انظر: تفسير الطبري: ١٢/ ٥٤٣، وتفسير البغوي: ٨/ ٢٧، وتفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني: ٦/ ٢٠٦، وفتح القدير، للشوكاني: ٥/ ٢٣١.

(٣) انظر: النكت والعيون، للماوردي: ٦/ ٢٥٢.

(٤) المكاء: الصفير بالفم، أو أن يشبك بأصابعه وينفخ فيها. انظر: مجاز القرآن، لأبي عبيدة: ١/ ٢٤٦، والقاموس المحيط، للفيروزآبادي: مادة (مكو): ص١٧٢١.

(٥) التصدية: التصفيق بالأكف. انظر: مجاز القرآن، لأبي عبيدة: ١/ ٢٤٦، والقاموس المحيط، للفيروزآبادي: مادة (صدي): ص١٦٧٩.

(٦) انظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٢٠/ ١٥.

سميت الصلاة تسبيحاً، كما تقدم بيان ذلك[١].

وللإمام ابن قيم الجوزية كلام في هذا الباب فرق فيه بين قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ وقوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾، بسبب دخول الباء في الأول دون الثاني، حيث قال: «فإن قيل: فما الفائدة في دخول الباء في قوله: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ ولم تدخل في قوله: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾﴾؟ قيل: التسبيح يراد به التنزيه والذكر المجرد دون معنى آخر، ويراد به ذلك مع الصلاة، وهو ذكر وتنزيه مع عمل، ولهذا تسمى الصلاة تسبيحاً.

فإذا أريد التسبيح المجرد فلا معنى للباء؛ لأنه لا يتعدى بحرف جر، لا تقول: سبحت بالله. وإذا أردت المقرون بالفعل ـ وهو الصلاة ـ أدخلت الباء تنبيهاً على ذلك المراد، كأنك قلت: سبح مفتتحاً باسم ربك، أو ناطقاً باسم ربك، كما تقول: صل مفتتحاً أو ناطقاً باسمه» اهـ[٢].

ومهما قيل في تفسير هذه الآيات فقد دلت السنة على أن المراد بها النطق بالتسبيح مقروناً باسم الله تعالى، وذلك لما جاء في حديث عقبة ابن عامر[٣] رضي الله عنه قال: «لما نزلت: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾، قال رسول الله ﷺ: «**اجعلوها في ركوعكم**». فلما نزلت: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾﴾، قال: «**اجعلوها في سجودكم**»»[٤].

---

(١) انظر: ص٨٦ ـ ٩٦ من البحث. (٢) بدائع الفوائد: ١/ ٢٣.

(٣) هو عقبة بن عامر بن عبس بن عمرو الجهني، صحابي مشهور، اختلف في كنيته، وأشهرها: أبو حماد. كان قارئاً كاتباً، وفقيهاً شاعراً، فصيح اللسان، شهد الفتوح، وولي إمرة مصر لمعاوية مدة، وتوفي قرب سنة (٦٠هـ)، رضي الله عنه. انظر: الإصابة، لابن حجر العسقلاني: ٤/ ٥٢٠ ـ ٥٢١، وتقريب التهذيب، له: ٢/ ٣١.

(٤) أخرجه أبو داود في سننه: ١/ ٥٤٢، برقم (٨٦٩)، وابن ماجه في سننه: =

. . . .

= ١/ ٢٨٧، برقم (٨٨٧)، وأحمد في مسنده: ٤/ ١٥٥، والحاكم في المستدرك: ١/ ٣٤٧، برقم (٨١٨) و٢/ ٥١٩ ـ ٥٢٠، برقم (٣٧٨٣). وقال الحاكم ـ في الموضع الأول ـ: «هذا حديث حجازي صحيح الإسناد، وقد اتفقا على الاحتجاج برواته غير إياس بن عامر، وهو عم موسى بن أيوب القاضي ومستقيم الإسناد»، وتعقبه الذهبي فقال: «إياس ليس بالمعروف». وقال الحاكم ـ في الموضع الثاني ـ: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي فقال: «الحديث صحيح». وقال الألباني ـ في التعليق على هذا الحديث في مشكاة المصابيح: ١/ ٢٧٧، برقم (٨٧٩) ـ: «إسناده محتمل للتحسين، رجاله ثقات كلهم غير الراوي عن عقبة، وهو إياس بن عامر، قال العجلي: لا بأس به، وذكره ابن حبان في الثقات. قال الحافظ: وصحح له ابن خزيمة، ومن خط الذهبي في تلخيص المستدرك: ليس بالقوي. قلت: وتناقض الذهبي، فإن الحاكم لما أخرج الحديث (٢/ ٤٧٧) وقال: صحيح الإسناد، وافقه الذهبي» اهـ.

ولا بد من التنبيه هنا على أن قول الذهبي في إياس هو: (ليس بالمعروف)، كما سبق في الموضع الأول الذي أخرج الحاكم فيه الحديث.

ثم إن الألباني ضعف الحديث في إرواء الغليل: ٢/ ٤٠ ـ ٤١، برقم (٣٣٤)، بسبب إياس هذا، حيث رجح قول الذهبي فيه: إنه ليس بالمعروف. قال الألباني: «وهذا الذي يقتضيه علم المصطلح، أنه غير معروف، لأنه لم يرو عنه غير ابن أخيه موسى بن أيوب» اهـ.

فحصل للألباني موقفان من هذا الحديث، كما حصل للذهبي قبله، وهذا الموضع يحتاج إلى بيان، وهو أن إياس بن عامر وإن كان لم يرو عنه إلا واحد ـ وهو ابن أخيه موسى بن أيوب ـ، إلا أنه قد وجد فيه تعديل معتبر، بقول العجلي فيه: «لا بأس به» [معرفة الثقات، بتحقيق عبد العليم عبد العظيم البستوي: ١/ ٢٣٩]، وقولهم في الراوي: لا بأس به، في مرتبة (صدوق). وانظر: [فتح المغيث شرح ألفية الحديث، للسخاوي، تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان: ١/ ٣٣٨].

وذكر يعقوب الفسوي إياساً في ثقات التابعين من أهل مصر، وساق له هذا الحديث بإسناده: انظر: [كتاب المعرفة والتاريخ بتحقيق الدكتور أكرم ضياء =

فهذا الجعل المأمور به في الحديث هو قول: (سبحان ربي العظيم) في الركوع، وقول: (سبحان ربي الأعلى) في السجود، كما ثبت في حديث حذيفة رضي الله عنه: «أنه صلى مع النبي ﷺ، فكان يقول في ركوعه: «**سبحان ربي العظيم**»، وفي سجوده: «**سبحان ربي الأعلى**» الحديث[1].

= العمري: ٢/ ٤٨٧، ٥٠٢].

وكذلك ذكره ابن حبان في الثقات : (٤/ ٣٣)، وقال في صحيحه: «عم موسى بن أيوب، اسمه: إياس بن عامر، من ثقات المصريين» [الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان، لابن بلبان، تحقيق شعيب الأرنؤوط: ٥/ ٢٢٦]. وقال الحافظ ابن حجر: «إياس بن عامر الغافقي ـ بالغين المعجمة ـ، المصري، صدوق، من الثالثة» [تقريب التهذيب: ١/ ٩٧].

ويتبين ـ بهذا التعديل من الأئمة المذكورين ـ أن إطلاق القول بأن إياس بن عامر ليس بالمعروف، فيه نظر، وأن رد روايته لذلك فيه نظر أيضاً؛ لأن مدار الجهالة في الراوي هو أن لا يعرف فيه تعديل ولا تجريح معين [انظر: نزهة النظر، للحافظ ابن حجر ـ ومعه النكت، لعلي بن حسن الحلبي ـ ص١١٧]، أما إن وجد في الراوي تعديل من إمام معتبر، فإن روايته مقبولة، ولو لم يرو عنه إلا واحد. قال الذهبي ـ في ترجمة أسفع بن أسلع ـ : «ما علمت روى عنه سوى سويد بن حجير الباهلي، وثقه مع هذا يحيى بن معين، فما كل من لا يعرف ليس بحجة، لكن هذا الأصل» [ميزان الاعتدال: ١/ ٢١١]. وقال الحافظ ابن حجر: «فإن سمي الراوي وانفرد راو واحد بالرواية عنه فهو مجهول العين، كالمبهم، فلا يقبل حديثه إلا أن يوثقه غير من ينفرد عنه على الأصح، وكذا من ينفرد عنه إذا كان متأهلاً لذلك» [نزهة النظر: ص١٣٥].

وبناء على هذا البيان يكون الصواب في حديث عقبة هذا أنه محتمل للتحسين، بل هو حسن ـ إن شاء الله ـ، وقد حسنه النووي في [المجموع شرح المهذب، بتحقيق محمد نجيب المطيعي: ٣/ ٣٨٦]، واحتج به كثير من أهل العلم في تقرير حكم التسبيح في الركوع والسجود، كما سيأتي في موضعه، إن شاء الله.

(١) أخرجه أبو داود في سننه: ١/ ٥٤٣، برقم (٨٧١)، والترمذي في سننه: =

ويتبين ـ بهذين الحديثين ـ أن أولى الأقوال بالصواب في تفسير قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ وقوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾﴾ هو قول من قال: إن معنى ذلك: سبح ذاكراً اسم ربك ناطقاً به.

وهذا المعنى يتضمن أن يكون التسبيح مقروناً باسم الله تعالى قولاً باللسان، واعتقاداً بالقلب.

ولما كان التسبيح بالقول لا يتأتى إلا بإجراء اسم الله ﷻ على اللسان، أوقع التسبيح في هذه الآيات على الاسم ـ مباشرة مرة، وبواسطة الباء مرة أخرى ـ، كما أوقع الذكر على الاسم في آيات أخرى، مثل قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾﴾ [المزمل: ٨]، وقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾﴾ [الإنسان: ٢٥].

وهذا هو حقيقة التسبيح الذي أثنى الله تعالى به على نفسه، وأثنى به عليه رسوله ﷺ، فإنه يكون دائماً مقروناً بأسماء الله تعالى الحسنى وصفاته العليا التي بها استحق الثناء بالجميل والتنزيه عن القبيح.

ومن الأمثلة على قرن التسبيح بأسماء الله تعالى وصفاته في الكتاب والسنة ما يلي:

١ ـ قول الله تعالى: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ [يونس: ١٠]. فـ ﴿سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ تسبيح مقرون بلفظ الجلالة مزيداً فيه الميم المشددة المفتوحة، وللعلماء في هذه الميم المزيدة في (اللهم) ثلاثة أقوال:

= ٢/ ٤٨، برقم (٢٦٢)، والنسائي في سننه: ٢/ ٥٣٤ ـ ٥٣٥، برقم (١٠٤٥)، وقال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح». وأخرجه مسلم بنحوه مطولاً في صحيحه: ١/ ٥٣٦ ـ ٥٣٧، برقم (٧٧٢).

أحدها: أنها عوض عن جملة محذوفة، والتقدير: (يا الله أمنا بخير) أي: اقصدنا بخير، ثم حذف الجار والمجرور (بخير)، وحذف المفعول، وهو الضمير من (أمنا)، فبقي في التقدير: (يا الله أم) ثم حذفوا الهمزة، لكثرة دوران هذا الاسم في الدعاء، فبقي (ياللهم)[(١)].

وهذا القول ضعيف لفظاً ومعنى:

أما لفظاً، فلأن الأصل عدم الحذف، وتقدير هذه المحذوفات الكثيرة خلاف الأصل، ولا دليل عليها، ولا يقتضيها القياس، فلا يصار إليها بغير دليل.

وأما معنى، فلأنه لا يحسن في الدعاء أن يقول العبد: اللهم أمني بكذا؛ لأن مثل هذا الكلام يقال لمن يعرض له الغلط والنسيان، فلا يقال ذلك للرب سبحانه؛ لأنه لا يضل ولا ينسى.

وهناك أوجه أخرى تبين ضعف هذا القول، ذكرها الإمام ابن قيم الجوزية[(٢)].

والثاني: أنها عوض عن حرف النداء، فـ (اللهم) معناه: (ياالله)، ولذلك لا يجمع بينهما في اختيار الكلام، فلا يقال: (يا اللهم) إلا فيما ندر، وهذا قول أقطاب اللغة[(٣)].

والثالث: أنها زيدت للتعظيم والتفخيم؛ لأن الميم - في كلام العرب - دالة على الجمع، مقتضية له في الغالب، فكان لحوقها في

---

(١) انظر: جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على خير الأنام، لابن قيم الجوزية، تحقيق مشهور حسن آل سلمان: ص٢٣٧.

(٢) انظر: المصدر السابق: ص٢٣٨ - ٢٣٩.

(٣) انظر: كتاب سيبويه: ١/ ٢٥ و٢/ ١٩٦، ومعاني القرآن وإعرابه، للزجاج: ١/ ٣٩٤، والبحر المحيط، لأبي حيان: ٢/ ٤٣٦، وجلاء الأفهام، لابن القيم: ص٢٣٦.

آخر لفظ الجلالة إيذاناً بجمع الأسماء والصفات، فإذا قال العبد: (اللهم إني أسألك)، كأنه قال أدعو الله الذي له الأسماء الحسنى والصفات العليا بأسمائه وصفاته[١].

وهذا المعنى أحسن وأولى بلفظ (اللهم) مما قبله، وقد جاء ما في معناه عن غير واحد من السلف، كقول الحسن البصري[٢]: «اللهم مجمع الدعاء»[٣].

وقول النضر بن شميل[٤]: «من قال: اللهم، فقد دعا الله بجميع أسمائه»[٥].

---

(١) انظر: جلاء الأفهام، لابن القيم: ص٢٤٢ ـ ٢٤٨، وبدائع الفوائد، له: ١/ ٤٣٢.

(٢) هو الحسن بن أبي الحسن يسار البصري، أبو سعيد الأنصاري مولاهم، أحد الأئمة من التابعين، نشأ بالمدينة، وكان ثقة فاضلاً، فقيه النفس، كبير الشأن، مليح التذكير، بليغ الموعظة، رأساً في أنواع الخير، وتوفي سنة (١١٠هـ)، وقد قارب التسعين، رحمه الله. انظر: تذكرة الحفاظ، للذهبي: ١/ ٧١ ـ ٧٢، وتقريب التهذيب، لابن حجر: ١/ ١٦٦.

(٣) هذا الأثر نقله أبو عبد الله القرطبي في تفسيره (الجامع لأحكام القرآن: ٤/ ٥٤)، وأبو حيان الأندلسي في تفسيره (البحر المحيط: ٢/ ٤٣٦)، وابن قيم الجوزية في جلاء الأفهام: ص٢٥١.

(٤) هو النضر بن شميل المازني، أبو الحسن النحوي، نزيل مرو، كان إماماً في العربية والحديث، ثقة ثبتاً، حافظاً علامة، صاحب سنة، وألف كتباً كثيرة لم يسبق إليها، وولي قضاء مرو، وتوفي آخر يوم من سنة (٢٠٣هـ)، ودفن في أول يوم من سنة (٢٠٤هـ)، رحمه الله. انظر: تذكرة الحفاظ، للذهبي: ١/ ٣١٤ ـ ٣١٥، وتقريب التهذيب، لابن حجر: ٢/ ٣٠٦.

(٥) هذا الأثر أورده أبو عبد الله القرطبي في تفسيره (الجامع لأحكام القرآن: ٤/ ٥٤)، وأبو حيان الأندلسي في تفسيره (البحر المحيط: ٢/ ٤٣٦)، وابن قيم الجوزية في جلاء الأفهام: ص٢٥١.

وإذا علم هذا، تبين ما في صيغة (سبحانك اللهم) من المعاني والدلالات العظيمة، فـ (سبحانك) تنزيه له عن النقائص والعيوب، والأمثال والأنداد.

و(اللهم) إثبات لإلهيته الجامعة لأسمائه الحسنى وصفاته العليا التي تقتضي تنزيهه وتعظيمه وعبادته وحده لا شريك له.

٢ ـ وقوله تعالى: ﴿قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلۡغَنِيُّۖ﴾ [يونس: ٦٨]. فقرن تعالى التسبيح باسمه الغني، ليبرهن على تنزهه عن اتخاذ الولد؛ لأن ذلك مناف لكمال غناه، فلا يتخذ أحد ولداً إلا لنقص في غناه، والله تعالى هو الغني الذي له الغنى التام بكل اعتبار من جميع الوجوه، فلأي شيء يتخذ ولداً، وليس به حاجة إلى شيء؟[1]، وكل شيء سواه فقير إليه، وهو الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد.

٣ ـ وقوله تعالى: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأنبياء: ٢٢]. ومعنى هذه الآية: أنه لو كان في السموات والأرض آلهة ـ أي: معبودات ـ يستحقون العبادة غير الله تعالى، لفسدتا، أي: لفسدت السموات والأرض في ذاتهما، وفسد من فيهما من المخلوقات[2]. وذلك أن قوام السموات والأرض والخليقة جميعاً بأن تؤله الإله الحق، فلو كان فيهما إله آخر غير الله تعالى لم يكن إلهاً حقاً؛ لأن الإله الحق لا يكون إلا واحداً لا شريك له ولا مثل له، ولو تألهت الخليقة غيره لفسدت كل الفساد، بانتفاء ما به صلاحها، إذ صلاحها بتأله الإله الحق، كما أنها لا وجود لها إلا

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، للشيخ عبد الرحمن السعدي: ص٣٦٩.

(٢) انظر: تفسير الطبري: ١٥/٩، وتفسير البغوي: ٣١٤/٥، وتيسير الكريم الرحمن، للشيخ عبد الرحمن السعدي: ص٥٢١.

باستنادها إلى الرب الخالق الواحد، ويستحيل أن تستند في وجودها إلى ربين خالقين متكافئين، فكذلك يستحيل أن تستند في بقائها وصلاحها إلى إلهين متساويين[١]. فجماع صلاح الخليقة وسعادتها في أن يكون الله ﷻ هو معبودها الذي تنتهي إليه إرادتهم ومحبتهم، ويكون ذلك غاية الغايات ونهاية النهايات[٢]. ولهذا ختمت الآية الكريمة بتسبيح الله تعالى عما يصفه به المشركون من وجود آلهة أخرى معه، وقرن هذا التسبيح بربوبيته مضافة إلى العرش. والربوبية تتضمن معاني ترجع إلى كونه تعالى الخالق الموجد لجميع المخلوقات، والمالك لها المتصرف فيها بمشيئته وقدرته، وأن كل شيء له ومنه وإليه[٣].

ولذا يأتي اسمه (الرب) في الغالب مضافاً إلى عموم المخلوقات، مثل: (رب العالمين). أو إلى بعض المخلوقات تخصيصاً وتشريفاً، مثل: (رب العرش). وفي قوله: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ إشارة إلى موجب تسبيحه وتنزيهه عن كل نقص وعن كل شرك، لكماله وعظمته وربوبيته لكل شيء؛ لأنه رب العرش الذي هو سقف المخلوقات وأوسعها وأعظمها، فربوبيته لما دونه من باب أولى[٤].

٤ ـ وقوله تعالى: ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [النمل: ٨]. وهنا قرن التسبيح بربوبيته المضافة إلى عموم المخلوقين؛ لأن (العالمين) بمعنى

---

(١) انظر: طريق الهجرتين، لابن قيم الجوزية: ص١٠٣، والجواب الكافي، له: ص٢١١.

(٢) انظر: درء تعارض العقل والنقل، لشيخ الإسلام ابن تيمية: ٩/ ٣٧٢ ـ ٣٧٣.

(٣) انظر: مقاييس اللغة، لابن فارس: مادة (رب): ٢/ ٣٨١ ـ ٣٨٣، وشرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز: ١/ ١١٦، وتجريد التوحيد المفيد، للعلامة أحمد بن علي المقريزي، تحقيق علي بن محمد العمران: ص٤٣.

(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن، للشيخ عبد الرحمن السعدي: ص٥٢١.

المخلوقين[١]، وهو كل موجود سوى الله ﷻ[٢]. وقد جاء هذا التسبيح ضمن ما نادى الله تعالى به نبيه موسى عليه السلام عند كلامه تعالى معه لأول مرة، كما سيأتي بيانه ـ إن شاء الله ـ عند ذكر تسبيح الله تعالى لنفسه المقدسة[٣].

٥ ـ وقوله تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [يس: ٨٣]. وهذا تسبيح مقرون بصفة من صفات الله تعالى، حيث أضيف فيه لفظ (سبحان) إلى الاسم الموصول (الذي) المقصود به الله ﷻ. وصلته (بيده ملكوت كل شيء) وفيها إثبات اليد لله تعالى كما يليق بجلاله وعظمته، وإثبات ملكه تعالى لكل شيء؛ لأن (ملكوت) فعلوت من الملك، وهو مختص بملك الله تعالى[٤]، وصيغة (الفعلوت) من صيغ المبالغة[٥]. قال الحافظ ابن كثير: «ومعنى قوله ﷻ: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ كقوله ﷻ: ﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [المؤمنون: ٨٨]، وكقوله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ [الملك: ١]، فالملك والملكوت واحد في المعنى، كرحمة ورحموت، ورهبة ورهبوت، وجبر وجبروت. ومن الناس من زعم أن الملك هو عالم الأجسام، والملكوت هو عالم الأرواح، والصحيح الأول، وهو الذي عليه الجمهور من المفسرين وغيرهم» اهـ[٦].

---

(١) انظر: مجاز القرآن، لأبي عبيدة: ١/ ٢٢.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ١/ ٢٥.
(٣) انظر: ص٢٥٥ ـ ٢٦٣ من البحث.
(٤) انظر: مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني: ص٧٧٥، والعلم الهيب، للعيني: ص٢٨٧.
(٥) انظر: النهاية في غريب الحديث، لابن الأثير: ١/ ٢٣٦، والعلم الهيب، للعيني: ص٢٨٦ ـ ٢٩٧.
(٦) تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٥٩٠.

٦ ـ وقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٨٠﴾ [الصافات: ١٨٠]. وهذا تنزيه لله تعالى عما يصفه به الخلق مما لا يليق بكماله وعظمته، وجاء التسبيح هنا مقروناً باسمه تعالى (الرب) مرتين: مرة مضافاً إلى ضمير المخاطب، وهو النبي ﷺ[1]. ومرة إلى (العزة)، والعزة صفة من صفات الله تعالى العليا، وتتضمن ثلاثة معان هي: الامتناع والقوة والغلبة، وقد كملت كلها لله تعالى من كل وجه[2]، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٦٥]، ومن تمام عزته ﷻ براءته عن كل نقص وعيب، وعن كل مثيل وشريك، فإن ذلك ينافي العزة التامة[3]، وبهذا يظهر سر قرن التسبيح بهذه الصفة الكريمة مع اسمه تعالى الرب في هذه الآية التي نزه الله تعالى فيها نفسه عما يصفه به الجاهلون من عباده، مما لا يليق بكماله وعظمته وعزته التامة.

٧ ـ وقوله تعالى: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ۝٤﴾ [الزمر: ٤]. وهذه الآية نقض لمقولة الذين نسبوا إلى الله تعالى اتخاذ الولد، وتنزيه لله تعالى عن ذلك. قال الحافظ ابن كثير: «بين تعالى أنه لا ولد له كما يزعمه جهلة المشركين في الملائكة، والمعاندون من اليهود والنصارى في العزير وعيسى. فقال تبارك وتعالى: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾، أي: لكان الأمر على خلاف ما يزعمون، وهذا شرط لا يلزم وقوعه ولا جوازه، بل هو محال، وإنما قصد تجهيلهم فيما ادعوه وزعموه، كما قال ﷻ: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ١٠/٥٤٣.

(٢) انظر: التوضيح المبين لتوحيد الأنبياء والمرسلين، للشيخ عبد الرحمن السعدي: ص٦٤ ـ ٦٥، وتوضيح الكافية الشافية، له: ص١١٩.

(٣) انظر: شفاء العليل، لابن قيم الجوزية: ٢/٦٦.

لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٧]، ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [الزخرف: ٨١]، كل هذا من باب الشرط، ويجوز تعليق الشرط على المستحيل لمقصد المتكلم» اهـ[1].

ثم نزه تعالى نفسه فقال: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾، وهذا تسبيح مقرون بثلاثة أسماء من أسماء الله الحسنى، قرن تعالى التسبيح بها ليبين امتناع اتخاذه للولد؛ لأنه تعالى هو الله، أي: المعبود الحق الذي يعبده كل شيء، فلو كان له ولد لم يكن له عبداً[2]. وهو الواحد، «أي: الواحد في ذاته وفي أسمائه وفي صفاته وفي أفعاله، فلا شبيه له في شيء من ذلك ولا مماثل، فلو كان له ولد، لاقتضى أن يكون شبيهاً له في وحدته؛ لأنه بعضه وجزء منه»[3].

وهو القهار الذي قد قهر كل شيء بقدرته وسلطانه، فدانت له الأشياء كلها وذلت وخضعت[4]، فلو كان له ولد لم يكن مقهوراً، ولكان له إدلال على أبيه ومناسبة منه[5].

فألوهيته تعالى ووحدانيته وقهره تمنع أن يكون له ولد، تبارك وتعالى عما يقول الجاهلون علواً كبيراً.

٨ ـ وقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الزخرف: ٨٢]. وهذا تسبيح مقرون باسمه (الرب) مضافاً إلى السموات والأرض، وإلى العرش، وفيه بيان لعظمة الله تعالى المقتضية لتسبيحه وتنزيهه عن كل ما لا يليق به مما وصفه به الظالمون الجاهلون، مما ينافي عظمته وربوبيته وإلهيته ﷻ.

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ٤/ ٤٩ ـ ٥٠. (٢) انظر: تفسير الطبري: ١٠/ ٦١٢.
(٣) مقتبس من: تيسير الكريم الرحمن، للشيخ عبد الرحمن السعدي: ص٧١٩.
(٤) تفسير الطبري: ١٠/ ٦١٢، تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٤/ ٥٠.
(٥) انظر: تيسير الكريم الرحمن، للشيخ عبد الرحمن السعدي: ص٧١٩.

٩ ـ وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾ [الحشر: ٢٢ ـ ٢٤].

وفي هذه الآيات الكريمات أثنى الله تعالى على نفسه بأسمائه الحسنى المتضمنة لصفاته العليا، وقرن ذلك بتسبيحه عن شرك المشركين به في قوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، وأخبر عن تسبيح ما في السموات والأرض له، فبين بذلك سبحانه أنه مستحق للعبادة وحده دون كل ما سواه، لما له من صفات الكمال ونعوت الجلال التي ليست لغيره، وأنه تعالى مستحق للتسبيح والتقديس عن كل ما ينافي كماله وجلاله مما دلت عليه أسماؤه الحسنى التي أثنى بها على نفسه.

١٠ ـ وقول رسول الله ﷺ: «**سبحان الله العظيم**»، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم**»[١].

فقوله: (سبحان الله العظيم) تسبيح مقرون باسم الله تعالى (العظيم) والعظيم دال ـ في حق الله تعالى ـ على جملة أوصاف عديدة لا يختص بصفة معينة[٢]؛ لأنه يوصف به الذات وصفاتها وأفعالها، فعظم الذات شيء، وعظم صفاتها شيء، وعظم أفعالها شيء، والله

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ١١/٢٠٦، برقم (٦٤٠٦)، و١١/٥٦٦، برقم (٦٦٨٢)، ومسلم في صحيحه: ٤/٢٠٧٢، برقم (٢٦٩٤).
(٢) انظر: بدائع الفوائد، لابن قيم الجوزية: ١/١٧٦.

تعالى له العظمة بكل اعتبار ومن كل وجه[1]، فهو العظيم، أي: المتصف بكل صفة كمال، المستحق لكل أنواع التعظيم[2]، الذي يستحق على العباد أن يعظموه غاية التعظيم بقلوبهم وألسنتهم وأعمالهم[3].

ولا تخفى مناسبة قرن التسبيح باسمه (العظيم)؛ لأن من كمال عظمته تعالى تنزهه عن النقائص والعيوب، وتعاليه عن الأمثال والشركاء، ولهذا كان التسبيح دالاً ـ بالالتزام ـ على التعظيم، كما سبق بيانه في معاني التسبيح[4].

١١ ـ وقوله ﷺ: «**سبحان ربي الأعلى**»، كما سبق في حديث حذيفة رضي الله عنه أنه ﷺ كان يقول في سجوده: «**سبحان ربي الأعلى**»[5].

وهذا القول تسبيح مقرون باسم الله (الأعلى)، وهذا الاسم من أسماء الله تعالى دال على علوه سبحانه بجميع معاني العلو، وهي: علو الذات، وعلو القدر، وعلو القهر. فالله هو الأعلى على خلقه، بمعنى: أنه سبحانه مستوٍ على عرشه فوق جميع مخلوقاته مباين لهم. وهو الأعلى عن كل نقص وعيب، بمعنى: أنه تعالى منزه عن ذلك، موصوف بغاية الكمال والجمال. وهو الأعلى على كل شيء، بمعنى:

---

(١) انظر: الصواعق المرسلة، لابن قيم الجوزية: ٤/ ١٣٧٤.

(٢) انظر: بدائع الفوائد، لابن القيم: ١/ ١٧٧، والتوضيح المبين لتوحيد الأنبياء والمرسلين، للشيخ عبد الرحمن السعدي: ص٣٨ ـ ٣٩، وتوضيح الكافية الشافية، له: ص١١٧، وشرح القصيدة النونية، للشيخ محمد خليل هراس: ٢/ ٦٨ ـ ٦٩.

(٣) انظر: التوضيح المبين، للسعدي: ص٣٩، وتوضيح الكافية الشافية، له: ص١١٧.

(٤) انظر: ص٧٩.

(٥) سبق في ص٢٢٧.

أنه ﷻ قاهر لكل شيء، قادر عليه، متصرف فيه. فله سبحانه العلو المطلق من كل وجه، وبكل اعتبار، ليس فيه مثيل ولا نصير ولا شريك(١).

ومن هنا تظهر مناسبة قرن التسبيح بهذا الاسم الكريم الذي يتضمن معنى التسبيح من التنزيه لله تعالى عما لا يليق بكماله وجلاله(٢).

وهذا كما قرن التسبيح بالتعالي في مواضع من القرآن الكريم، مثل: قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٠]، وقوله: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨، والنحل: ١، والروم: ٤٠، والزمر: ٦٧]، وقوله: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾﴾ [الإسراء: ٤٣].

والتعالي كالتسبيح في المعنى، كما سبق بيانه في الألفاظ الدالة على معنى التسبيح(٣).

١٢ ـ وقوله ﷺ: (سبحان الملك القدوس)، كما في حديث أبي ابن كعب رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ إذا سلم في الوتر، قال: «**سبحان الملك القدوس**»»(٤). وهذا تسبيح مقرون باسم الله تعالى (الملك) واسمه (القدوس)، والملك: هو الذي جميع العوالم العلوية والسفلية مماليك وعبيد له، وله السلطان التام عليهم، والتصرف المطلق فيهم، والتدبير لهم كما يشاء(٥).

---

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٦/١١٩، ١٢٣، وتوضيح الكافية الشافية، للشيخ عبد الرحمن السعدي: ص١١٦.
(٢) انظر: ما سبق بيانه في ص١٢٦ ـ ١٢٩ من البحث.
(٣) انظر: ص١٢٦.
(٤) سبق تخريجه في ص١١٦.
(٥) انظر: بدائع الفوائد، لابن القيم: ١/ ٤٩٠ ـ ٤٩٢.

وإضافة لفظ (سبحان) إلى اسم الله (الملك) كإضافته إلى اسمه (الله) وإلى اسمه (الرب)، وبين هذه الأسماء الثلاثة مناسبة تامة، فإن ملكه تعالى من كمال ربوبيته، وإلهيته من كمال ملكه، فربوبيته تستلزم ملكه وتقتضيه، وملكه يستلزم إلهيته ويقتضيها[(١)].

و(سبحان الملك) تنزيه الله تعالى عن كل ما ينافي كمال ملكه وما يقتضيه من الأقوال والأفعال.

والقدوس: من أسماء الله تعالى الدالة ـ بالمطابقة ـ على التنزيه التام عما لا يليق بكماله وعظمته، كما سبق بيانه في الألفاظ الدالة على معنى التسبيح[(٢)]، وقرن التسبيح به للمناسبة التامة بينهما في المعنى.

١٣ ـ وقوله ﷺ: «**سبحان ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة**»، كما في حديث عوف بن مالك الأشجعي[(٣)] رضي الله عنه قال: «قمت مع رسول الله ﷺ ليلة، فقام فقرأ سورة البقرة، لا يمر بآية رحمة إلا وقف فسأل، ولا يمر بآية عذاب إلا وقف فتعوذ. قال: ثم ركع بقدر قيامه يقول في ركوعه: «**سبحان ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة**». ثم سجد بقدر قيامه، ثم قال في سجوده مثل ذلك، ثم قام فقرأ بآل عمران، ثم قرأ سورة سورة»[(٤)].

---

(١) انظر: المصدر السابق: ١/٤٩١ ـ ٤٩٢.

(٢) انظر: ص١١٦ ـ ١١٩.

(٣) هو عوف بن مالك بن أبي عوف الأشجعي الغطفاني، أبو حماد، ويقال في كنيته غير ذلك، صحابي مشهور، شهد فتح مكة، ويقال: كانت معه راية أشجع، ثم نزل الشام، فسكن دمشق، وتوفي سنة (٧٣هـ)، رضي الله عنه. انظر: الإصابة، لابن حجر العسقلاني: ٤/٧٤٢ ـ ٧٤٣، وتقريب التهذيب، له: ٢/٩٦.

(٤) أخرجه أبو داود في سننه: ١/٥٤٤، برقم (٨٧٣)، والنسائي في سننه: ٢/ ٥٧٢ ـ ٥٧٣، برقم (١١٣١)، وصححه النووي في الأذكار: ص١١٤، =

وفي هذا الذكر النبوي إضافة لفظ (سبحان) إلى (ذي) بمعنى صاحب، وإضافة (ذي) إلى (الجبروت، والملكوت، والكبرياء، والعظمة) من باب إضافة الموصوف إلى صفته[(١)]، فإن هذه الأربع صفات من صفات الله تعالى قرن بها التسبيح.

فالجبروت: فعلوت من الجبر، وهو في صفة الله تعالى يتضمن ثلاثة معان:

أحدها: جبر إصلاح، فيجبر الكسر، ويغني الفقير، وييسر العسر، ويجبر القلوب المنكسرة من أجله، ويجبر عبده المؤمن بإصلاح حاله.

والثاني: جبر قهر، فيجبر الخلق ويقهرهم على ما يريد، فإذا أراد شيئاً قال له: كن، فيكون، بحيث لا يمتنع عليه شيء.

والثالث: جبر علو، فقد باين مخلوقاته وعلا عليها، فليس يدانيه شيء منها، لكمال رفعته وجلاله[(٢)].

والملكوت: فعلوت من الملك، وقد تقدم بيان معناه عند الكلام على قوله تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [يس: ٨٣].

والكبرياء: هي الجلال والعظمة والمجد والسلطان[(٣)]. «وقيل:

= والألباني في صحيح سنن أبي داود: ١/ ٢٤٧، برقم (٨٧٣)، وفي صحيح سنن النسائي: ١/ ٣٦٦ ـ ٣٦٧، برقم (١١٣١).

(١) انظر: الصواعق المرسلة، لابن قيم الجوزية: ٤/ ١٣٨١ ـ ١٣٨٢.

(٢) انظر: الكافية الشافية (القصيدة النونية)، لابن قيم الجوزية: ص٢٤٦، وشفاء العليل، له: ١/ ٣١٠ ـ ٣١٢ وتوضيح الكافية الشافية، للشيخ عبد الرحمن السعدي: ص١٢٦، والتوضيح المبين لتوحيد الأنبياء والمرسلين، له: ص١٢٠ ـ ١٢١.

(٣) انظر: تفسير الطبري: ١١/ ٢٦٩، وتيسر الكريم الرحمن، للشيخ عبد الرحمن السعدي: ص٧٧٨.

هي عبارة عن كمال الذات وكمال الوجود، ولا يوصف بها إلا الله تعالى»[١]، كما قال ﷻ: ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣٧﴾ [الجاثية: ٣٧].

والعظمة: تقدم معناها عند الكلام على قوله ﷺ: «**سبحان الله العظيم**»، فإن (العظيم) فعيل من العظمة.

وإذا تبينت معاني هذه الصفات الجليلة تبينت مناسبة قرن التسبيح بها، فإنها مقتضية لتسبيح الله تعالى وتنزيهه عما ينافيها ويضادها. وهكذا الشأن في كل ما قرن به التسبيح من أسماء الله الحسنى وصفاته العليا، فإنها مقتضية أتم الاقتضاء لتسبيحه وتقديسه وتنزيهه عن كل عيب ونقص وتمثيل وشرك ينافي ما دلت عليه أسماؤه وصفاته من الكمال والجلال والجمال.

ومن تدبر ما جاء في الكتاب والسنة من صيغ التسبيح المقرون بأسماء الله وصفاته، انفتحت له ـ بإذن الله ـ أبواب من العلم بالله تعالى وبأسرار كتابه الحكيم وسنة رسوله ﷺ المشرفة.

المسألة الخامسة: قرن التسبيح بالاستغفار

ورد التسبيح مقروناً بالاستغفار في مواضع من كتاب الله تعالى، ومن ذلك:

١ ـ قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [غافر: ٧]. وهذه الآية خبر عن تسبيح حملة العرش واستغفارهم للمؤمنين، وسيأتي ـ إن شاء الله ـ الكلام على هذه الآية عند بحث تسبيح الملائكة لله تعالى[٢].

---

(١) مقتبس من: النهاية في غريب الحديث، لابن الأثير: ٤/ ١٤٠.

(٢) انظر: ص(٢٧٩).

٢ ـ وقوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾﴾ [غافر: ٥٥].

هذه الآية خطاب من الله تعالى لرسوله محمد ﷺ تضمن أمره بالاستغفار مع التسبيح.

٣ ـ وقوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥]. وفي هذه الآية أيضاً خبر عن تسبيح الملائكة واستغفارهم لمن في الأرض من المؤمنين، وسيأتي ـ إن شاء الله ـ بيان ذلك عند الكلام على تسبيح الملائكة(١).

٤ ـ وقوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴿٣﴾﴾ [النصر: ٣]. وهذه الآية أيضاً خطاب للنبي ﷺ، وفيه أمر بالتسبيح مع الاستغفار. وقد دلت هذه الآيات جميعاً على مشروعية الجمع بين التسبيح والاستغفار وأهمية ذلك، وجاءت السنة النبوية مبنية لذلك ومؤكدة له، حيث كان رسول الله ﷺ يكثر من قول: **(سبحان الله وبحمده؛ أستغفر الله وأتوب إليه)**، كما ثبت في الحديث عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها(٢).

وفي الحديث عن عائشة أيضاً رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: «**سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي**»، يتأول القرآن»(٣).

وفي هذين الحديثين دلالة على أن رسول الله ﷺ كان يقرن التسبيح بالاستغفار ويكثر من ذلك، وأن قرن التسبيح بالاستغفار يكون بالصيغتين الواردتين فيهما ونحوهما.

---

(١) انظر: ص٢٨٧ ـ ٢٨٩.
(٢) وهذا الحديث أخرجه مسلم في صحيحه: ١/٣٥١، برقم (٤٨٤).
(٣) سبق تخريجه في ص٢٠٤.

وهناك مناسبة للقرن بين التسبيح والاستغفار، فإن التسبيح فيه نفي النقائص والعيوب عن الله تعالى، والاستغفار فيه طلب الستر لذنوب العبد وعيوبه ووقايته من شرها[1]، فإذا قرن العبد بينهما تضمن ذلك إقراره بكمال الرب ﷻ، وتنزهه عن العيوب والنقائص، مع الإقرار بنقص العبد وتقصيره وافتقاره إلى ربه، وإلى ستره ووقايته وغفرانه.

ولا شك أن هذين الإقرارين من أهم الأمور التي تتحقق بها العبودية لله تعالى علماً وعملاً وحالاً، وبهذا يعرف ما في صيغة التسبيح المقرون بالاستغفار من الدلالات العقدية والمعاني التعبدية، وأن على العبد أن يتحقق بهذه الدلالات والمعاني ويكثر من تسبيح ربه والاستغفار من عيوب نفسه، لينال السعادة بإذن ربه ﷻ وتوفيقه.

المسألة السادسة: قرن التسبيح بالدعاء

ورد قرن التسبيح بالدعاء في قول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٩١﴾ [آل عمران: ١٩١].

وهذه الآية في بيان أوصاف المؤمنين الذين منّ الله تعالى عليهم بالعقل السليم والإيمان الصحيح، فرأوا ببصائر عقولهم وعيونهم عظمة ربهم وكمال صفاته وبراءته من كل نقص وعيب مناف لعظمته وكماله، ولهذا فهم يداومون ذكر الله تعالى في جميع أحوالهم، ويخصصونه بالتسبيح تنزيهاً له وتعظيماً، ويتوجهون إليه وحده بالدعاء طلباً لما ينفعهم، ودفعاً لما يضرهم، كما يتجلى ذلك في قولهم: ﴿سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا

---

(١) انظر: النهاية في غريب الحديث، لابن الأثير: ٣/ ٣٧٣، ونتائج الأفكار في شرح حديث سيد الاستغفار، للسفاريني، بإشراف عبد العزيز بن سليمان الهبدان، وعبد العزيز بن إبراهيم الدخيل: ص٣٣٣.

عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾، حيث قرنوا فيه التسبيح بالدعاء، فـ (سبحانك) تسبيح، و(فقنا عذاب النار) دعاء بالوقاية من عذاب النار.

وفي القرن بين التسبيح والدعاء مناسبات عقدية من أوجه:

أحدها: أن التسبيح يدل على تنزيه الله تعالى عما لا يليق بكماله وعظمته، والدعاء يدل على حاجة العبد وافتقاره، وأنه لا حول له ولا قوة إلا بالله رب العالمين.

والثاني: أن فيه تقديم ذكر الله تعالى والثناء عليه بما هو أهله بين يدي سؤاله، وهذا من أفضل الوسائل وأحبها إلى الله تعالى.

والثالث: أن فيه توجهاً إلى الله تعالى بنوعين من الدعاء، وهما: دعاء الثناء، ودعاء المسألة، وهما من مفهوم الدعاء الذي شرعه الله تعالى لعباده في قوله ﷻ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠][1]، وتقدم بيان ذلك عند الكلام على تسمية التسبيح دعاء[2].

فهذه من المناسبات العقدية لقرن التسبيح بالدعاء، وينبغي للعبد معرفتها والحرص على تحقيقها، ليكون ممن وصفهم الله تعالى في الآية السابقة، وبالله التوفيق.

المسألة السابعة: قرن التسبيح بالسلام على المرسلين

جاءت هذه الصيغة في قول الله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ١٨٠ ـ ١٨٢].

---

(١) انظر: بدائع الفوائد، لابن قيم الجوزية: ٢/٥، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي: ص٧٤٠.

(٢) انظر: ص١١٠ من البحث.

حيث قرن الله تعالى في هذا الموضع بين التسبيح لنفسه والسلام على المرسلين والحمد لنفسه أيضاً.

وقد بين أهل العلم أن الله تعالى بدأ بالتسبيح تنزيهاً لنفسه عما يصفه به الواصفون المفترون. ثم سلم على المرسلين تشريفاً لهم، وتنويهاً بشأنهم، لسلامة ما وصفوه به من النقائص والعيوب، ومن التمثيل والتعطيل، ولسلامة ما قالوه من الإفك والشرك. ثم حمد نفسه ـ بعد ذلك ـ على تفرده بصفات الكمال التي يستحق لأجلها كمال الحمد، والتنزيه عن كل نقص وعيب وتمثيل وشرك(١).

كما أن في قرنه تعالى التسبيح بالسلام على المرسلين إشارة «إلى أنه كما يجب تنزيه الله ﷻ وإبعاده عن كل شائبة نقص وعيب، فيجب اعتقاد سلامة الرسل في أقوالهم وأفعالهم من كل عيب كذلك، فلا يكذبون على الله، ولا يشركون به، ولا يغشون أممهم، ولا يقولون على الله إلا الحق»(٢).

ولهذا قال تعالى ـ في موضع آخر ـ: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾﴾ [الصافات: ١٥٩، ١٦٠]، «فنزه سبحانه نفسه عما يصفه به كل أحد إلا المخلصين من عباده، وهم الرسل ومن تبعهم»(٣)؛ لأنهم لم يصفوا الله تعالى من عند أنفسهم، وإنما وصفوه

---

(١) انظر: العقيدة الواسطية، لشيخ الإسلام ابن تيمية ـ بشرح الدكتور محمد خليل هراس، وضبط علوي السقاف ـ: ص٧٥ ـ ٧٦، والتدمرية، له: ص٩ ـ ١٠، والصواعق المرسلة، لابن قيم الجوزية: ١/ ١٥٣ ـ وجلاء الأفهام، له: ص٢٧٥ ـ ٢٧٦، وتفسير أبي السعود: ٧/ ٢١٢.

(٢) مقتبس من: شرح العقيدة الواسطية، لهراس: ص٧٦.

(٣) مقتبس من: جلاء الأفهام، لابن القيم: ص٢٧٥. وانظر أيضاً: الصواعق المرسلة، له: ١/ ١٥٢ ـ ١٥٣.

سبحانه بما أذن لهم في وصفه به مما تضمنه وحيه المبين من أسمائه الحسنى وصفاته العليا[(١)].

ومن هنا كان في قرنه تعالى التسبيح لنفسه بالسلام على المرسلين حكمة عظيمة أوضحها الإمام ابن قيم الجوزية بقوله: «وفي اقتران السلام عليهم بتسبيحه لنفسه سر عظيم من أسرار القرآن يتضمن الرد على كل مبطل ومبتدع، فإنه نزه نفسه تنزيهاً مطلقاً، كما نزه نفسه عما يقول خلقه فيه، ثم سلم على المرسلين، وهذا يقتضي سلامتهم من كل ما يقول المكذبون لهم المخالفون، وإذا سلموا من كل ما رماهم به أعداؤهم، لزم سلامة كل ما جاؤوا به من الكذب والفساد، وأعظم ما جاؤوا به التوحيد ومعرفة الله ووصفه بما يليق بجلاله مما وصف به نفسه على ألسنتهم.

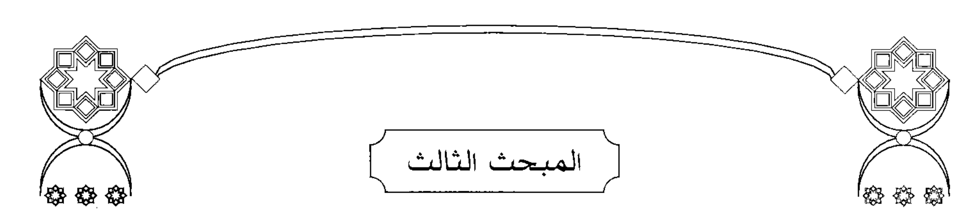
وإذا سلم ذلك من الكذب والمحال والفساد، فهو الحق المحض، وما خالفه هو الباطل والكذب والمحال. وهذا المعنى بعينه في قوله: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَـٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ [النمل: ٥٩]، فإنه يتضمن حمده بما له من نعوت الكمال وأوصاف الجلال والأفعال الحميدة والأسماء الحسنى، وسلامة رسله من كل عيب ونقص وكذب، وذلك يتضمن سلامة ما جاؤوا به من كل باطل.

فتأمل هذا السر في اقتران السلام على رسله بحمده وتسبيحه» اهـ[(٢)]، والله تعالى الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

---

(١) انظر: مدارج السالكين، لابن القيم: ٣/ ٤٨١.

(٢) بدائع الفوائد: ١/ ٤١١.



أنواع التسبيح باعتبار فاعله

❏ **توطئة:**

يتنوع التسبيح باعتبار الفاعل الذي يصدر منه التسبيح إلى أنواع عديدة، فقد سبح الله تعالى نفسه، وسبحته ملائكته المقربون، وسبحه صالحو البشر من الأنبياء وأتباعهم المؤمنين في الدنيا، وسبحه ما في السموات وما في الأرض من الكائنات المختلفة، ويسبحه أهل الجنة وهم فيها في نعيم مقيم.

وجميع هذه الأنواع من التسبيحات ثابتة بأدلة واضحة في كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ وآثار السلف الصالح.

ولما كانت لأنواع التسبيح باعتبار فاعله دلالات عقدية وفوائد تعبدية، كانت حقيقة بالبحث، جديرة بالبيان، وذلك فيما يلي من المطالب، وهي:

المطلب الأول: تسبيح الله تعالى لنفسه المقدسة.

المطلب الثاني: تسبيح الملائكة لله تعالى.

المطلب الثالث: تسبيح صالحي البشر لله تعالى.

المطلب الرابع: تسبيح الكائنات كلها لله تعالى.

المطلب الخامس: تسبيح أهل الجنة فيها لله تعالى.

وإلى تفاصيلها مطلباً مطلباً:

❖ المطلب الأول ❖

تسبيح الله تعالى لنفسه المقدسة

إن أعظم المسبحين لله تعالى هو الله تعالى نفسه، حيث ورد في القرآن الكريم تسبيح الله تعالى لنفسه المقدسة في آيات كثيرة بلغت سبعاً وعشرين آية من تسع عشرة سورة، وهي:

١ - قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [البقرة: ١١٦]. سبح الله تعالى لنفسه المقدسة في هذه الآية تنزيهاً لها عن اتخاذ الولد، وبين أن جميع ما في السموات والأرض مملوك له وعبيد له، ففيه بيان المانع عقلاً من اتخاذه الولد(١).

٢ - وقوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾﴾ [النساء: ١٧١]. سبح الله تعالى لنفسه المقدسة - في هذه الآية - تنزيهاً لها عن الولد أيضاً(٢).

٣ - وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [الأنعام: ١٠٠]. قال الحافظ ابن كثير: «هذا رد على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره وأشركوا به في عبادته، أن عبدوا الجن فجعلوهم شركاء له في العبادة، تعالى الله عن شركهم وكفرهم».

---

(١) انظر: جامع الرسائل، لشيخ الإسلام ابن تيمية: ١/ ٢٢ - ٢٣.

(٢) انظر: ص(١٧٨) من البحث.

وقوله: ﴿وَخَلَقَهُمْ﴾ قال ابن كثير: «أي: وقد خلقهم، فهو الخالق وحده لا شريك له، فكيف يعبد معه غيره؟».

قال: «ومعنى الآية: أنه ﷻ هو المستقل بالخلق وحده، فلهذا يجب أن يفرد بالعبادة وحده لا شريك له» اهـ[(١)].

وأما قوله تعالى: ﴿وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، فقال الزجاج: «معنى (خرقوا): اختلقوا وكذبوا، وذلك لأنهم زعموا أن الملائكة بنات الله، وزعمت النصارى أن المسيح ابن الله، وذكرت اليهود أن عزيراً ابن الله، فأعلم جل ثناؤه أنهم اختلقوا ذلك بغير علم، أي: لم يذكروه عن علم، وإنما ذكروه تكذباً» اهـ[(٢)].

ولهذا قال تعالى: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ﴾ فسبح لنفسه المقدسة تنزيهاً لها عما يصفها به هؤلاء الجهلة من خلقه[(٣)].

٤ - وقوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣١)﴾ [التوبة: ٣١]. وهذه الآية خبر عن اليهود والنصارى أنهم اتخذوا أحبارهم - وهم علماؤهم - ورهبانهم - وهم عبادهم - أرباباً من دون الله، يعني: سادة لهم من دون الله تعالى، يطيعونهم في معاصي الله، فيحلون ما أحلوه لهم مما قد حرمه الله عليهم، ويحرمون ما حرموه عليهم مما قد أحله الله لهم، كما اتخذوا المسيح ﷺ رباً من دون الله تعالى، في حين أنهم لم يؤمروا في كتبهم المنزلة عليهم من التوراة والإنجيل إلا بعبادة رب واحد لا معبود بحق سواه ولا رب غيره، وهو الله ﷻ.

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ٢/ ١٦٥ - ١٦٦.

(٢) معاني القرآن وإعرابه: ٢/ ٢٧٨.

(٣) انظر: تفسير الطبري: ٥/ ٢٩٣.

ولهذا سبح الله تعالى نفسه عن شرك المشركين، فقال: ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: تنزيهاً وتطهيراً لله عما يشرك به في طاعته وربوبيته وإلهيته(١).

٥ ـ وقوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَـٰٓؤُلَآءِ شُفَعَـٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾ [يونس: ١٨].

وفي هذه الآية ينكر الله تعالى على المشركين الذي يعبدون مع الله آلهة أخرى معتقدين فيها النفع والضر وأنها تشفع لهم عند الله تعالى، فنفى سبحانه ما كانوا يعتقدونه، وقال: ﴿قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ﴾ أي: أتخبرون الله بما لا يكون في السموات ولا في الأرض؟ لأن ما لا يعلم الله تعالى أنه موجود أو حادث فهو باطل لا حقيقة له، ولو كان صحيحاً لعلمه سبحانه(٢).

ولهذا سبح تعالى نفسه المقدسة عن شركهم بقوله ﷻ: ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

٦ ـ وقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَـٰنٍۭ بِهَـٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [يونس: ٦٨].

سبح الله تعالى لنفسه المقدسة ـ في هذه الآية ـ تنزيهاً لها عن اتخاذ الولد، كما في بعض الآيات التي سبق ذكرها، وفي هذه الآية برهن تعالى على تنزيه نفسه عن اتخاذ الولد بثلاثة براهين:

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ٦/٣٥٣ ـ ٣٥٥.

(٢) انظر: تفسير الطبري: ٦/٥٤٢، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٦/١٩٥، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٢/٥٨١.

1 ـ أنه هو الغني[1].

2 ـ أن له ما في السموات وما في الأرض.

3 ـ أن الذين ادعوا الولد لله تعالى ليس عندهم حجة على دعواهم، وإنما يقولون على الله تعالى ما لا يعلمون ثبوته، وهذا محض فرية على الرب ﷻ، وهو من أعظم المحرمات[2].

7 ـ وقوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝١﴾ [النحل: 1]. سبح الله تعالى لنفسه المقدسة ـ في هذه الآية ـ تنزيهاً لها عن شرك المشركين به وعبادتهم معه ما سواه من الأوثان والأنداد، بعد أن أخبر أن ما وعد به من قيام الساعة ومحاسبة الناس بمنزلة ما قد أتى، فلا يستعجله المكذبون؛ لأن ما هو آت فإنه قريب[3].

8 ـ وقوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَـٰتِ سُبْحَـٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ۝٥٧﴾ [النحل: 57]. سبح الله تعالى لنفسه المقدسة ـ في هذه الآية ـ تنزيها لها عما نسبه إليه الكفار من أن له البنات، في حين أنهم يشتهون البنين ويكرهون البنات، كما سبق بيانه في صيغة الإفراد في التسبيح[4].

9 ـ وقوله تعالى: ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١﴾ [الإسراء: 1]. في هذه الآية سبح الله لنفسه المقدسة وعظم شأنه، لقدرته على ما لا يقدر عليه أحد سواه، حيث أسرى بعبده

---

(1) انظر: ما سبق في ص(231).

(2) انظر: تفسير الطبري: 6/ 583 ـ 584، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي: ص369.

(3) انظر: معاني القرآن وإعرابه، للزجاج: 3/ 189.

(4) انظر: ص(179).

ورسوله محمد ﷺ في جزء من الليل من المسجد الحرام بمكة، إلى المسجد الأقصى ببيت المقدس، ثم عرج به ﷺ إلى السموات العلى، فرأى من آيات الله الكبرى الدالة على كمال قدرته، وتمام سلطانه، وسعة ملكه، إنه سبحانه هو السميع البصير[(١)].

وذكر أهل العلم لافتتاح حادثة الإسراء بالتسبيح ثلاثة أوجه:

الوجه الأول: أن الله تعالى سبح تنزيهاً لنفسه المقدسة عن تكذيب المشركين الذين كذبوا بحادثة الإسراء والمعراج، ونسبوا النبي ﷺ إلى الكذب. فالتسبيح ـ على هذا ـ خرج مخرج الرد على هؤلاء المكذبين لله تعالى ولرسوله ﷺ[(٢)].

الوجه الثاني: أن الله تعالى سبح تعجباً من إسرائه بعبده محمد ﷺ في جزء من الليل من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى؛ لأن ذلك من العجائب الدالة على عظمته ﷻ[(٣)]؛ ولأن جملة التسبيح في الكلام الذي لم يقع فيه ما يقضي النقص أو التمثيل في حق الله تعالى، يتعين أن تكون مستعملة في أكثر من التنزيه، وذلك هو التعجب من الخبر المتحدث به، ولهذا عبر سبحانه عن نفسه المقدسة بالاسم الموصول دون الاسم العلم، للتنبيه على ما تفيده صلة الموصول من الإيماء إلى وجه هذا التعجب، وهو ذلك الحادث العظيم وتلك العناية الكبرى بالنبي ﷺ[(٤)].

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٣/ ٣.

(٢) انظر: مسألة سبحان، لنفطويه: ص٤٣، وزاد المسير: لابن الجوزي: ٥/ ٤، ونور المسرى، لأبي شامة: ص٩٧.

(٣) انظر: زاد المسير، لابن الجوزي: ٥/ ٤، ونور المسرى، لأبي شامة: ص٩٧، ودرء تعارض العقل والنقل، لشيخ الإسلام ابن تيمية: ٦/ ١٧٧.

(٤) انظر: تفسير التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٥/ ١٠.

والله ﷻ يتعجب من الشيء لخروجه عن نظائره تعظيماً له، كما يعظم ما هو عظيم: إما لعظمة سببه، أو لعظمته في نفسه(١)، والله تعالى يفعل ما يشاء، وهو بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير.

الوجه الثالث: أن التسبيح هنا للأمر، أي: سبحوا الذي أسرى بعبده. والمراد إخبار الناس بهذا الحادث الجليل الذي هو خليق أن يذكر الله تعالى عنده، وينزه عن الشريك في ذاته وصفاته وأفعاله؛ لأنه وحده القادر على ذلك والمقدر له بقدرته(٢).

وهذه الأوجه الثلاثة المذكورة كلها صحيحة، ولا تعارض بينها عند التأمل. فالله تعالى افتتح هذه الآية الكريمة بالتسبيح تنزيهاً لنفسه المقدسة وتعظيماً لها عما يقوله المكذبون لرسوله ﷺ ويصفونه به من النقائص والأمثال ـ وتعجباً من هذه المعجزة العظمى الدالة على قدرة الله تعالى وعلى صدق نبيه ﷺ وتكريم الله تعالى وتأييده له.

وفي هذا تنبيه للعباد إلى عظمة الله تعالى وإلى علو مكانة عبده محمد ﷺ عنده، وأمر لهم بأن يسبحوا الله تعظيماً له وثناء عليه بما له من الصفات الحميدة والأفعال الجميلة والآيات العجيبة.

١٠ ـ وقوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾﴾ [الإسراء: ٤٢، ٤٣]. وهذا أمر من الله تعالى لنبيه محمد ﷺ أن يقول للمشركين الذين جعلوا مع الله آلهة أخرى: ﴿لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «والآية فيها قولان معروفان للمفسرين:

---

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٦/ ١٢٣.

(٢) انظر: نور المسرى، لأبي شامة: ص٩٧.

أحدهما: أن قوله: ﴿لَّابْتَغَوْاْ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ أي: بالتقرب إليه والعبادة والسؤال له.

والثاني: بالممانعة والمغالبة. والأول هو الصحيح» اهـ(١).

والمعنى الأول الذي رجحه شيخ الإسلام هو الذي ذكره الإمام ابن جرير الطبري في تفسير الآية، ولم يذكر غيره، حيث قال: «يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل - يا محمد، لهؤلاء المشركين الذين جعلوا مع الله إلهاً آخر - لو كان الأمر كما تقولون من أن معه آلهة، وليس ذلك كما تقولون، إذن لابتغت تلك الآلهة القربة من الله ذي العرش العظيم، والتمست الزلفة إليه، والمرتبة منه» اهـ(٢).

فالآية مقررة لبرهان توحيد الألوهية أحسن تقرير وأوجزه وأبلغه(٣).

ولهذا سبح الله تعالى لنفسه المقدسة - عقب ذلك - بقوله: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾﴾، فنزه تعالى نفسه عما يقوله المشركون من أن معه آلهة أخرى؛ لأنه هو وحده المعبود بحق، وكل معبود سواه فباطل.

١١ - وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾﴾ [مريم: ٣٥].

سبح الله تعالى لنفسه المقدسة - في هذه الآية - تنزيهاً لها عن اتخاذ الولد، وسبق إيراد هذه الآية مع بيان معناها في صيغة الإفراد

---

(١) انظر: درء تعارض العقل والنقل: ٩/ ٣٥٠.

(٢) تفسير الطبري: ٨/ ٨٤.

(٣) انظر: الصواعق المرسلة، لابن القيم: ٢/ ٤٦٢.

في التسبيح[١].

١٢ ـ وقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأنبياء: ٢٢].

وفي هذه الآية سبح الله تعالى لنفسه المقدسة بعد أن قرر توحيده في الإلهية بأوضح برهان، كما سبق بيانه في صيغة القران في التسبيح، عند الكلام على قرن التسبيح بأسماء الله وصفاته[٢].

١٣ ـ وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَـٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأنبياء: ٢٦].

١٤ ـ وقوله تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَـٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المؤمنون: ٩١].

وهاتان الآيتان مما سبق بيانه في صيغة الإفراد في التسبيح[٣].

١٥ ـ وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨﴾﴾ [النمل: ٨].

وهذه الآية جاءت ضمن قصة موسى عليه السلام، واشتملت على تسبيح الله تعالى لنفسه المقدسة في قوله: ﴿وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾، وهذا التسبيح معطوف على قوله تعالى: ﴿أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾، فهو من ضمن ما نودي به موسى عليه السلام في ذلك الموضع.

وقوله: ﴿نُودِىَ﴾ أي: ناداه الله تعالى[٤].

---

(١) انظر: ص ١٨٢.
(٢) انظر: ص٢٣١ ـ ٢٣٢.
(٣) انظر: ص١٨٣، ١٨٦..
(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ١٥٨/١٣، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي: ص٦٠١.

وقوله: ﴿أَنۢ بُورِكَ﴾ «أن» هذه هي المفسرة؛ لأنها مسبوقة بما فيه معنى القول، وهو قوله: ﴿نُودِيَ﴾. وقيل: هي مخففة من الثقيلة[1].

و«بورك» جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أن معناه: قدس[2].

وقوله: ﴿مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ فسر بأربعة أقوال ـ حسب اطلاعي ـ:

القول الأول: أن الله تعالى عنى بذلك نفسه المقدسة[3]، والمعنى: تقدس من في النار، وهو الله عز وجل[4]؛ لأنه سبحانه نادى موسى عليه السلام منها، وأسمعه كلامه من جهتها[5].

وجاء في هذا المعنى تفاسير مأثورة عن ابن عباس[6] رضي الله عنهما،

---

(١) انظر: معاني القرآن وإعرابه، للزجاج: ٤/ ١٠٩.

(٢) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره: ٩/ ٤٩٦، من طريق معاوية عن علي بن أبي طلحة عنه. وذكره البغوي في تفسيره: ٦/ ١٤٥، وابن الجوزي في زاد المسير: ٦/ ١٥٥، والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ١٣/ ١٥٨ والحافظ ابن كثير في تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٣٦٩.

(٣) انظر: تفسير الطبري: ٩/ ٤٩٦، وتفسير البغوي: ٦/ ١٤٥، وتفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني: ٤/ ٧٨، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ١٣/ ١٥٨.

(٤) انظر: زاد المسير، لابن الجوزي: ٦/ ١٥٥.

(٥) انظر: تفسير البغوي: ٦/ ١٤٥.

(٦) جاء عنه هذا التفسير من ثلاث طرق:

١ ـ من طريق عطية العوفي عنه، رواه ابن جرير الطبري في تفسيره: ٩/ ٤٩٦، وابن أبي حاتم في تفسيره (تفسير القرآن العظيم، جمع أسعد محمد الطيب: ٩/ ٢٨٤٥)، ونقله شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى: ٥/ ٤٦١.

٢ ـ ومن طريق سعيد بن جبير عنه، رواه ابن أبي حاتم في تفسيره أيضاً، وانظر: المصدرين المذكورين في الطريق السابق.

٣ ـ ومن طريق عكرمة عنه، وانظر: المصدرين نفسهما.

وسعيد بن جبير[١]، وعكرمة[٢]، والحسن البصري[٣]، وقتادة[٤]، ومحمد بن كعب[٥] ـ رحمهم الله أجمعين ـ.

القول الثاني: أن المعني بمن في النار الملائكة، فكان في النار ملائكة لهم زجل بالتقديس والتسبيح[٦].

وهذا القول مروي عن السدي[٧] وحده[٨]، فيما أشار إليه شيخ

---

(١) جاء عنه هذا التفسير من طريقين عن عطاء بن السائب عنه ـ رواه ابن جرير الطبري في تفسيره: ٩/ ٤٩٦، وابن أبي حاتم في تفسيره (تفسير القرآن العظيم: ٩/ ٢٨٤٥، ٢٨٤٦)، وانظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٥/ ٤٦١.

(٢) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره (تفسير القرآن العظيم: ٩/ ٢٨٤٥)، وانظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٥/ ٤٦١.

(٣) جاء عنه من طريقين: من طريق معمر عنه، ومن طريق ابن جريج عنه، رواهما ابن جرير الطبري في تفسيره: ٩/ ٤٩٦.

(٤) هو قتادة بن دعامة بن قتادة السدوسي، أبو الخطاب البصري، ثقة ثبت. يقال: ولد أكمه، وتوفي سنة بضع عشرة ومائة، رَحِمَهُ الله. انظر: تقريب التهذيب، لابن حجر العسقلاني: ٢/ ١٢٩ ـ ١٣٠.
جاء عنه هذا التفسير من طريق معمر عنه، رواه ابن جرير الطبري في تفسيره: ٩/ ٤٩٦.

(٥) هو محمد بن كعب بن سليم بن أسد القرظي، أبو حمزة المدني، وكان قد نزل الكوفة مدة، ولد سنة (٤٠هـ) على الصحيح، وتوفي سنة (١٢٠هـ)، رَحِمَهُ الله. انظر: تقريب التهذيب، لابن حجر العسقلاني: ٢/ ٢١٢.
وجاء عنه هذا التفسير من طريق موسى بن عبيدة، رواه ابن جرير الطبري في تفسير: ٩/ ٤٩٧، وابن أبي حاتم في تفسيره: (تفسير القرآن العظيم: ٩/ ٢٨٤٦)، وانظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٥/ ٤٦٢.

(٦) انظر: تفسير البغوي: ٦/ ١٤٤، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ١٣/ ١٥٨.

(٧) هو إسماعيل بن عبد الرحمن بن أبي كريمة السدي، أبو محمد، الكوفي، وهو السدي الكبير، كان عالماً بالتفسير، ولكنه متكلم فيه. وقال الحافظ ابن حجر: «صدوق يهم، ورمي بالتشيع»، وتوفي سنة (١٢٧هـ)، رَحِمَهُ الله. انظر: تهذيب التهذيب، لابن حجر: ١/ ٣١٣ ـ ٣١٤، وتقريب التهذيب، له: ١/ ٨٣.

(٨) جاء عنه هذا التفسير من طريق سفيان الثوري، رواه ابن أبي حاتم في تفسيره =

الإسلام ابن تيمية[١].

القول الثالث: أن المعني بمن في النار موسى عليه السلام.

ولم أقف على هذا القول مروياً عن أحد من السلف، ولكن ذكره بعض أهل التفسير، وقالوا: إن قوله: ﴿أَنْ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ تحية من الله تعالى لموسى عليه السلام بالبركة وتكرمة له، كما حيى تعالى إبراهيم عليه السلام على ألسنة الملائكة حين دخلوا عليه فقالوا: ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ [هود: ٧٣][٢].

ولأصحاب هذا القول تأويلان في الآية:

أحدهما: على معنى: بورك من في قرب النار؛ لأن موسى عليه السلام لم يكن في وسط النار، ولكن كان قريباً منها، كما يقال: بلغ فلان المنزل، إذا قرب منه وإن لم يبلغه بعد[٣].

والثاني: على معنى: بورك من في طلب النار، وهو موسى عليه السلام[٤]. وكلا التأويلين قائم على تقدير محذوف هو المضاف، والنار مضاف إليها، وليس هناك دليل على أن في الآية محذوفاً مقدراً كما قالوا، فالواجب عدم الإقدام على مثل هذا في تفسير كلام الله تعالى، لما يؤدي إليه من سوء الفهم لمراد الله تعالى.

= (تفسير القرآن العظيم: ٩/ ٢٨٤٦).

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٥/ ٤٦٢.

(٢) انظر: الوسيط في تفسير القرآن المجيد، للواحدي: ٣/ ٣٦٩، وتفسير البغوي: ٦/ ١٤٤، وزاد المسير، لابن الجوزي: ٦/ ١٥٥، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ١٣/ ١٥٨.

(٣) انظر: تفسير البغوي: ٦/ ١٤٥، وتفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني: ٤/ ٧٨، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ١٣/ ١٥٨.

(٤) انظر: زاد المسير: لابن الجوزي: ٦/ ١٥٥.

القول الرابع: أن قوله: ﴿بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ معناه: بوركت النار.

وهذا التفسير مروي عن مجاهد[١]، وفي رواية أخرى عنه قال: «كذلك قاله ابن عباس»[٢].

وقد حمل بعض المفسرين هذا التفسير على اعتبار (من) زائدة؛ لأنها قد تكون بمعنى (ما)، و(ما) قد تكون صلة في الكلام[٣].

ولكن لا يلزم من هذا التفسير ـ في نظري ـ اعتبار (من) زائدة، لاحتمال أن يكون المراد بيان أن هذه النار بوركت؛ لأن الله تعالى كلم موسى عليه السلام منها، وليس المراد تفسير الآية بكاملها، وهذا كثير في تفاسير السلف.

وعلى كل فالقول المرضي في معنى قوله تعالى: ﴿بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ هو ما جاء عن ابن عباس، وسعيد بن جبير، وعكرمة، والحسن البصري، وقتادة، ومحمد بن كعب القرظي، كما سبق في القول الأول.

ويؤيده حديث أبي موسى الأشعري[٤] رضي الله عنه قال: «قام فينا

---

(١) روي عنه هذا التفسير من طريق ابن أبي نجيح، رواه ابن جرير الطبري في تفسيره: ٩/ ٤٩٧.

(٢) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره: ٩/ ٤٩٦، وابن أبي حاتم في تفسيره (تفسير القرآن العظيم: ٩/ ٢٨٤٥).

(٣) انظر: تفسير البغوي: ٦/ ١٤٥، وتفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني: ٤/ ٧٨، وزاد المسير، لابن الجوزي: ٦/ ١٥٥.

(٤) هو عبد الله بن قيس بن سليم بن حضار، أبو موسى الأشعري، صحابي جليل مشهور بكنيته، وكان أحد الشجعان الفاتحين، واستعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم على جانب من اليمن، وأمّره عمر ثم عثمان رضي الله عنهما، وتوفي سنة (٥٠هـ)، وقيل: بعدها رضي الله عنه. انظر: الإصابة، لابن حجر العسقلاني: ٤/ ٢١١ ـ ٢١٤، وتقريب التهذيب، له: ١/ ٤١٥.

رسول الله ﷺ بخمس كلمات، فقال: «**إن الله ﷻ لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه**[١]**، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل، حجابه النور ـ وفي رواية: النار ـ، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه**[٢] **ما انتهى إليه بصره من خلقه**»[٣].

وفي رواية أخرى زيادة: «ثم قرأ أبو عبيدة[٤]: ﴿أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [النمل: ٨]»[٥].

---

(١) قوله: (يخفض القسط ويرفعه) المراد بالقسط: الميزان، سمي قسطاً لأن القسط هو العدل، وبالميزان يقع العدل، والمراد بخفضه ورفعه: أنه تعالى يخفض الميزان ويرفعه بما يوزن من أعمال العباد. وقيل: المراد بالقسط: الرزق الذي هو قسط كل مخلوق، يخفضه الله فيقتره، ويرفعه فيوسعه، والله تعالى أعلم. وانظر: إكمال المعلم بفوائد مسلم، للقاضي عياض: ١/ ٥٣٥، وشرح صحيح مسلم، للنووي: ٣/ ١٣.

(٢) انظر: معنى قوله: (سبحات وجهه) في ص ٤٨١ ـ ٤٨٥ من البحث.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه: ١/ ١٦١ ـ ١٦٢، برقم (١٧٩).

(٤) هو الراوي عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه في الحديث السابق. وهو أبو عبيدة ابن عبد الله بن مسعود الهذلي الكوفي، مشهور بكنيته، والأشهر أن لا اسم له غيرها، ويقال: اسمه عامر، وهو ثقة من كبار التابعين، وتوفي سنة (٨٠هـ)، وقيل: بعدها رحمه الله تعالى. انظر: تهذيب التهذيب، لابن حجر العسقلاني: ٥/ ٧٥ ـ ٧٦، وتقريب التهذيب، له: ٢/ ٤٣٩.

(٥) أخرج الحديث بهذه الزيادة ابن ماجه في سننه: ١/ ٧١، برقم (١٩٦) من طريق المسعودي، عن عمرو بن مرة، عن أبي عبيدة. والمسعودي ـ وهو عبد الرحمن بن عبد الله بن عتبة بن مسعود الكوفي ـ وثقه بعض الأئمة، وقال الحافظ ابن حجر: «صدوق»، وقد اختلط قبل موته، إلا أن الراوي عنه هنا هو وكيع بن الجراح، وسماعه منه قديم قبل الاختلاط، فالرواية ثابتة. وانظر: تهذيب التهذيب، لابن حجر العسقلاني: ٦/ ٢١٠ ـ ٢١٢، وتقريب التهذيب، له: ١/ ٤٥٣.

فإن هذا الحديث دليل على أن الله تعالى محتجب بالنور أو النار، وهو المناسبة لقراءة الراوي لهذه الآية عقب الحديث، للإشارة إلى أن هذه النار المذكورة في الآية هي من حجاب الله ﷻ كلم موسى ﷺ من ورائه، كما قال سبحانه: ﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [الشورى: ٥١].

وقد جاء في الأثر عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: «احتجب الله من خلقه بأربع: نار وظلمة، ونور وظلمة»[(١)].

واختلف قول المفسرين في النار التي رآها موسى ﷺ: هل كانت ناراً أو نوراً؟.

والروايات الواردة عن ابن عباس، وسعيد بن جبير، وعكرمة، والحسن والبصري، وقتادة، ومحمد بن كعب، كلها تفيد أن النار كانت نوراً[(٢)]. وقال بعض المفسرين: كانت ناراً لا نوراً[(٣)].

والحق أنها كانت ناراً، وهي أيضاً نور، وقد سبق آنفاً ـ في أثر ابن عمر رضي الله عنهما أن حجب الله تعالى نار ونور.

---

(١) رواه أبو سعيد الدارمي في كتاب الرد على الجهمية ـ ضمن عقائد السلف ـ: ص٢٨٣، وابن أبي زمنين في أصول السنة: ص١٠٨، رقم (٤٢)، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة: ٢/ ٤٢٩، برقم (٧٢٩)، وهو أثر موقوف صحيح، وله حكم الرفع؛ لأن مثل هذا لا يقال بالرأي.

(٢) سبق تخريج هذه الروايات عن المذكورين، وانظر: تفسير الطبري: ٩/ ٤٩٦ ـ ٤٩٧، وتفسير القرآن العظيم، لابن أبي حاتم، جمع أسعد محمد: ٩/ ٢٨٤٥ ـ ٢٨٤٦، والوسيط، للواحدي: ٣/ ٣٦٩، وتفسير البغوي: ٦/ ١٤٤، وتفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني: ٤/ ٧٨، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ١٣/ ١٥٨، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٣/ ٣٦٩.

(٣) انظر: تفسير الطبري: ٩/ ٤٩٧.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «والذي رآه موسى كان ناراً بنص القرآن، وهو أيضاً نور، كما في الحديث[(١)]، والنار هي نور، والله أعلم»[(٢)]، «فإن مثل هذه النار الصافية التي كلم بها موسى يقال لها: نار ونور، كما سمى الله نار المصباح نوراً، بخلاف النار المظلمة، كنار جهنم، فتلك لا تسمى نوراً.

فالأقسام ثلاثة: إشراق بلا إحراق، وهو النور المحض، كالقمر. وإحراق بلا إشراق، وهي النار المظلمة. وما هو نار ونور، كالشمس، ونار المصابيح التي في الدنيا توصف بالأمرين» اهـ[(٣)].

وإذا تبين ما سبق ذكره فإن الكلام في قوله تعالى: ﴿أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ من جنس الكلام في نزوله ﷻ كل ليلة إلى السماء الدنيا، وقربه من عابديه، ودنوه عشية عرفة. وهذا الذي قرره شيخ الإسلام ابن تيمية[(٤)]، والعلم عند الله تعالى. وأما قوله تعالى: ﴿وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾ فيعني: ومن حول النار[(٥)]، وفي المعني بذلك ثلاثة أقوال للمفسرين:

فقيل: الملائكة. وقيل: موسى عليه السلام. وقيل: الملائكة وموسى[(٦)]، وكل ذلك محتمل للصواب، والله تعالى أعلم.

وسبح الله تعالى لنفسه المقدسة بعد ذلك بقوله: ﴿وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي: «عن أن يظن به نقص أو سوء، بل هو الكامل في وصفه

---

(١) يعني حديث أبي موسى الأشعري الذي سبق ذكره.
(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٦/ ٥٨٥.
(٣) المصدر السابق: ٦/ ٣٨٧.
(٤) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٥/ ٢٤٢، ٤٦٠ ـ ٤٦٥.
(٥) انظر: تفسير الطبري: ٩/ ٤٩٧.
(٦) انظر: المصدر السابق، الموضع نفسه، وزاد المسير، لابن الجوزي: ٦/ ١٥٥.

وفعله»[1] «الذي يفعل ما يشاء، ولا يشبهه شيء من مخلوقاته، ولا يحيط به شيء من مصنوعاته، وهو العلي العظيم المباين لجميع المخلوقات، ولا تكتنفه الأرض والسموات، بل هو الأحد الصمد المنزه عن مماثلة المحدثات»[2].

وقد اقتضى المقام شيئاً من البسط في الكلام على هذه الآية لاختلاف الأقوال فيها، وسلوك بعض المفسرين فيها مسلك التأويل المخالف للمأثور عن السلف الصالح والمؤدي إلى تحريف كلام الله تعالى، وسبحان الله وتعالى عن كل وصف لا يليق بكماله وعظمته.

١٦ ـ وقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [القصص: ٦٨].

وفي هذه الآية سبح الله تعالى لنفسه المقدسة تنزيهاً لها عن شرك المشركين به، بعد أن أخبر أنه سبحانه المتفرد بالخلق والاختيار، وأنه ليس له في ذلك منازع ولا معقب، فليس لأحد أن يختار على الله تعالى، بل هو الذي يخلق ما يشاء، ويختار ما يشاء من مخلوقاته وأوامره، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، والأمور كلها خيرها وشرها بيده ومرجعها إليه[3].

وقد ذهب الإمام ابن جرير الطبري إلى أن (ما) في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ اسم موصول بمعنى (الذي)، وأنه في محل نصب مفعول به للفعل (يختار)، وأطال في تقرير ذلك[4].

---

(١) مقتبس من: تيسير الكريم الرحمن، للشيخ عبد الرحمن السعدي: ص٦٠١.

(٢) مقتبس من: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٣/ ٣٦٩.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٣/ ٤٠٨، وتيسير الكريم الرحمن، للشيخ عبد الرحمن السعدي: ص٦٢٢.

(٤) انظر: تفسير الطبري: ١٠/ ٩٥ ـ ٩٦.

ورجح الإمام ابن القيم والحافظ ابن كثير أن (ما) هذه نافية، وأن الوقف التام عند قوله تعالى: ﴿وَيَخْتَارُ﴾. وقوله: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ استئناف لنفي الاختيار الذي اقترحه المشركون بإرادتهم وأهوائهم، ولبيان انفراده تعالى بالخلق والتقدير والاختيار، وأنه لا نظير له في ذلك[1]، ولهذا قال ﷻ: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فنزه نفسه المقدسة عن شرك المشركين، وعما أشركوه به من الأصنام والأنداد التي لا تخلق ولا تختار شيئاً[2].

١٧ ـ وقوله تعالى: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الروم: ١٧، ١٨].

وقال الحافظ ابن كثير ـ في تفسير هذه الآية ـ: «هذا تسبيح منه تعالى لنفسه المقدسة، وإرشاد لعباده إلى تسبيحه وتحميده في هذه الأوقات المتعاقبة الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه، عند المساء ـ وهو إقبال الليل بظلامه ـ، وعند الصباح ـ وهو إسفار النهار بضيائه ـ، ثم اعترض بحمده مناسبة للتسبيح، وهو التحميد، فقال تعالى: ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: هو المحمود على ما خلق في السموات والأرض ـ ثم قال تعالى: ﴿وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾، فالعشاء: هو شدة الظلام، والإظهار: قوة الضياء، فسبحان خالق هذا وهذا» اهـ[3].

وهذا التفسير مبني على أن التسبيح ـ في هذه الآية ـ ابتداء ثناء من الله تعالى على نفسه المقدسة، فيكون خبراً.

---

(١) انظر: شفاء العليل، لابن القيم: ١/ ٩٧ ـ ٩٨، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٣/ ٤٠٨.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٣/ ٤٠٨.

(٣) تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٤٣٨،

وفي الآية وجه آخر في التفسير ـ سبق ذكره عند الكلام على التسبيح بمعنى الصلاة ـ، وهو أن التسبيح ـ في هذه الآية ـ بمعنى الصلاة[١]، وعليه فقوله تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ يقدر أمراً، أي: سبحوا الله، بمعنى صلوا في الأوقات المذكورة[٢].

١٨ ـ وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [الروم: ٤٠].

سبح الله تعالى لنفسه المقدسة ـ في هذه الآية ـ تنزيهاً لها عن شرك المشركين، مبيناً لهم أنه سبحانه هو الذي تفرد بخلقهم فأوجدهم من العدم، ثم رزقهم بعد إيجادهم بما تقوم به حياتهم، ثم يميتهم بعد هذه الحياة الدنيا، ثم يحييهم بعد موتهم ليوم القيامة والحساب. وبين سبحانه أنه ليس من شركاء المشركين الذين عبدوهم من دون الله أحد يفعل شيئاً من هذه الأمور، فكيف يشركون بالله تعالى من ليس له تصرف في أمورهم بوجه من الوجوه؟![٣].

ولهذا نزه نفسه عن شركهم به بقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

١٩ ـ وقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [يس: ٣٦].

سبح الله تعالى لنفسه المقدسة ـ في هذه الآية ـ في معرض ذم

---

(١) انظر: ص٨٩ من البحث.

(٢) انظر: نور المسرى، لأبي شامة: ص٦١ ـ ٦٢.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٣/٤٤٤، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي: ص٦٤٣.

الكفار وتوبيخهم على كفرهم بالله تعالى مع ظهور دلائل توحيده في الكون المشاهد. ولهذا عبر تعالى عن نفسه بالاسم الموصول الدال بصلته على أفعال ربوبيته المستلزمة لتوحيده في العبادة، مبيناً سبحانه أنه الذي خلق أصناف الأشياء كلها مما تنبته الأرض، ومن الناس، ومن مخلوقات شتى لا يعلمهم إلا الله تعالى، وفي هذا دليل على أنه سبحانه المنفرد بالربوبية لكل شيء، فلا ينبغي أن يشرك به في الألوهية[(١)].

ولهذا قيل: إن التسبيح في هذه الآية فيه تقدير الأمر، أي: سبحوه ونزهوه عما لا يليق به[(٢)].

وقيل: إن فيه معنى التعجب، كما سيأتي ـ إن شاء الله ـ عند الكلام على التسبيح عند العجائب الدالة على عظمة الله تعالى[(٣)].

٢٠ ـ وقوله تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [يس: ٨٣][(٤)].

٢١ ـ وقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٥٩][(٥)].

٢١ ـ وقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الصافات: ١٨٠][(٦)].

٢٢ ـ وقوله تعالى: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾﴾ [الزمر: ٤][(٧)].

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ١٥/ ٢٦.
(٢) المصدر السابق، الموضع نفسه. (٣) انظر: ٢/ ٣٤ من البحث.
(٤) وتقدم الكلام عليها في ص ٢٣٣.
(٥) وتقدم الكلام عليها في ص ١٨٨، ٢٤٥.
(٦) وتقدم الكلام عليها في ص ٢٣٤، ٢٤٤.
(٧) وتقدم الكلام عليها في ص ٢٣٤ ـ ٢٣٥.

وهذه الآيات كلها مشتملة على تسبيح الله تعالى لنفسه المقدسة، وتقدم الكلام عليها في مواضع متفرقة من هذا البحث.

٢٤ ـ وقوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزمر: ٦٧].

وهذه الآية فيها تسبيح الله تعالى لنفسه المقدسة عن الشرك، بعد ذكر دلائل عظمته وقدرته التي يعلم بها أنه سبحانه لا شيء مثله، ولا إله غيره، ولذا فإن الكفار الذين أشركوا به ﴿مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ أي: ما عظموه حق عظمته[(١)]؛ لأنهم سووا المخلوق الناقص الضعيف بالرب الخالق العظيم، الذي من عظمته الباهرة وقدرته القاهرة أن ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾[(٢)].

وقد ورد في معنى هذه الآية الكريمة أحاديث عن النبي ﷺ، اتفق أهل العلم عل صحتها وتلقيها بالقبول والتصديق[(٣)]، ومنها:

• حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يقبض الله تبارك وتعالى الأرض يوم القيامة، ويطوي السماء بيمينه، ثم يقول: أنا الملك، أين ملوك الأرض؟**»[(٤)].

• وحديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**يطوي الله عز وجل السموات يوم القيامة، ثم يأخذهن بيده اليمنى، ثم**

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ١١/ ٢٣.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، للسعدي: ص٧٢٩.

(٣) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٥/ ٥٨٢.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ٨/ ٥٥١، برقم (٤٨١٢)، ومسلم في صحيحه: ٤/ ٢١٤٨، برقم (٢٧٨٧).

يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ ثم يطوي الأرضين بشماله، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟»[١].

• وحديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «جاء حبر من الأحبار[٢] إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد، إنا نجد أن الله يجعل السماوات على إصبع، والأرضين على إصبع، والجبال والشجر على إصبع، والماء والثرى على إصبع، وسائر الخلائق على إصبع، ثم يهزهن ويقول: أنا الملك، أنا الملك ـ فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه تعجباً مما قال الحبر، وتصديقاً له، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾»[٣]. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «ففي هذه الآية والأحاديث الصحيحة المفسرة لها المستفيضة التي اتفق أهل العلم على صحتها وتلقيها بالقبول، ما يبين أن السموات والأرض وما بينهما بالنسبة إلى عظمة الله تعالى أصغر من أن تكون مع قبضه لها إلا كالشيء الصغير في يد أحدنا، حتى يدحوها[٤] كما تدحى الكرة» اهـ[٥].

وإذا علم هذا، فما قدر الله تعالى حق قدره من أشرك معه شيئاً

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه: ٤/٢١٤٨، برقم (٢٧٨٨).

(٢) الحبر ـ بفتح الحاء وكسرها، والفتح أفصح، وجمعه الأحبار ـ: هو العالم [شرح صحيح مسلم، للنووي: ١٧/١٢٩] والمراد هنا: عالم من علماء اليهود، كما صرح به في بعض روايات الحديث.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ٨/ ٥٥٠، برقم (٤٨١١) و١٣/ ٣٩٣، برقم (٧٤١٤، ٧٤١٥)، ومسلم في صحيحه: ٤/ ٢١٤٧ ـ ٢١٤٨، برقم (٢٧٨٦).

(٤) دحا الشيء، يدحوه، ويدحاه، دحوا ودحيا: بسطه أو دفعه أو رماه [القاموس المحيط: مادة (دحا): ص ١٦٥٤، والمعجم الوسيط: ص٢٧٤].

(٥) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٨/ ٥٦٢.

آخر في عبادته، أو في أفعاله، أو في أسمائه وصفاته، ولهذا ختم سبحانه هذه الآية بتنزيه نفسه عن الشرك، فقال: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

٢٥ ـ وقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الزخرف: ٨٢][(١)].

٢٦ ـ وقوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الطور: ٤٣][(٢)].

٢٧ ـ وقوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الحشر: ٢٣][(٣)].

وفي هذه الآيات يسبح الله تعالى لنفسه المقدسة تنزيهاً لها عن الشرك، وعن كل وصف لا يليق بجلاله وعظمته، وقد سبق تناول هذه الآيات في مواضع أخرى من البحث.

وجاء في السنة تسبيح الله تعالى لنفسه المقدسة في الحديث القدسي الذي رواه ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «**قال الله: كذبني ابن آدم، ولم يكن له ذلك، وشتمني، ولم يكن له ذلك. فأما تكذيبه إياي فزعم أني لا أقدر أن أعيده كما كان، وأما شتمه إياي، فقوله: لي ولد، فسبحاني أن أتخذ صاحبة أو ولداً**»[(٤)].

فقوله تعالى: (فسبحاني) صريح في تسبيح نفسه، وقد سمى الله

---

(١) وسبق الكلام عليها في ص ٢٣٥.
(٢) وسبق الكلام عليها في ص ١٨٩.
(٣) وسبق الكلام عليها في ص ٢٣٦.
(٤) سبق تخريجه في ص١٩١.

نسبة الولد إليه شتماً ـ في هذا الحديث ـ؛ لأن الشتم: «هو الوصف بما يقتضي النقص، ولا شك أن دعوى الولد لله يستلزم الإمكان المستدعي للحدوث، وذلك غاية النقص في حق الباري ﷻ»[(١)].

وهذه التسبيحات التي سبح الله تعالى بها نفسه المقدسة في كتابه أو فيما ثبت من سنة نبيه ﷺ يستفاد منها معارف ربانية عظيمة، منها:

١ ـ أن هذه التسبيحات داخلة فيما مدح الله تعالى به نفسه وأثنى عليها به. وقد ثبت من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**لا أحد أحب إليه المدح من الله، ولذلك مدح نفسه**»[(٢)].

فالله ﷻ يمدح نفسه ويثني عليها بما فيه إثبات الكمال والجمال والجلال لها، وبما فيه نفي العيوب والنقائص والأمثال عنها، ومن ذلك تسبيحه تعالى لنفسه، فإن التسبيح يتضمن التنزيه والتعظيم كما تقدم تقريره.

والله سبحانه هو الحقيق بأن يمدح نفسه ويثني عليها وينزهها ويقدسها بالتسبيح وبغير التسبيح؛ لأنه تبارك وتعالى قد ثبتت له صفات الكمال كلها على الإطلاق، وانتفت عنه صفات النقص كلها على الإطلاق. ولهذا لا يبلغ أحد ـ مهما أوتي من الفصاحة والبلاغة ـ أن يمدحه ويثني عليه كما ينبغي له، بل هو سبحانه كما مدح نفسه وأثنى على نفسه. وكان رسول الله ﷺ ـ وهو أعرف الناس بالله تعالى وأكثرهم ثناء عليه ـ يقول: «**لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك**»[(٣)].

---

(١) مقتبس من: فتح الباري، للحافظ ابن حجر العسقلاني: ٦/ ٢٩١.
(٢) هو جزء حديث أخرجه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ٨/ ٢٩٥، ٣٠١، برقم (٤٦٣٤، ٤٦٣٧)، ومسلم في صحيحه: ٤/ ٢١١٣، برقم (٢٧٦٠).
(٣) جزء حديث أخرجه مسلم في صحيحه: ١/ ٣٥٢، برقم (٤٨٦).

وأما العبد المخلوق فليس حقيقاً بأن يمدح نفسه، ولا أن ينزهها من العيب والنقص مطلقاً؛ لأنه وإن كان فيه بعض صفات الكمال فالنقص لازم له، ولأن تلك الصفات الحميدة فيه الله واهبه إياها وخالقها فيه فهو أحق بالمدح عليها من العبد، كما أنه تعالى أعلم بالعبد وبصفاته من العبد نفسه، ولهذا قال ﷻ ـ مخاطباً عباده ـ: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾﴾ [النجم: ٣٢]. فنهاهم أن يزكوا أنفسهم، أي: أن يمدحوها ويبرئوها من الذنوب والمعاصي(١).

وهذا النهي يتناول مدح العبد نفسه من باب أولى، ويتناول مدح العبد غيره إلا فيما لا بد منه، ويكون بالضوابط الشرعية، كما في الحديث أن رجلاً أثنى على رجل عند النبي ﷺ، فقال: «**ويلك، قطعت عنق صاحبك، قطعت عنق صاحبك**» ـ مراراً ـ ثم قال: «**من كان منكم مادحاً أخاه لا محالة، فليقل: أحسب فلاناً، والله حسيبه، ولا أزكي على الله أحداً. أحسبه كذا وكذا، إن كان يعلم ذلك منه**»(٢).

٢ ـ ومنها: أن هذه التسبيحات داخلة كذلك فيما تعرف الله تعالى به إلى عباده، فإنه سبحانه قد تعرف إلى عباده ببيان ما يليق به من الأسماء والصفات والأفعال، وما لا يليق به من العيوب والنقائص والأمثال، بحسب ما جاء في كتابه العزيز أو ثبت في سنة نبيه ﷺ،

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ١١/ ٥٣٠، وتفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني: ٢٩٨/٥.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ٥/ ٢٧٤، برقم (٢٦٦٢). ومسلم في صحيحه: ٢٢٩٦/٤، برقم (٣٠٠٠).

على الطريقة التي سار عليها السلف الصالح من وصفه بما يليق به وصفاً سليماً بلا تمثيل ولا تأويل، وتنزيهه عما لا يليق به تنزيهاً سليماً بلا تعطيل.

وتسبيح الله لنفسه فيه تنزيهه عما لا يليق به إجمالاً أو تفصيلاً، كما سبق.

٣ ـ ومنها: أن هذه التسبيحات فيها إرشاد للعباد إلى أن يسحبوه عن كل ما لا يليق بكماله وجماله وجلاله، تسبيحاً لفظياً باللسان، وتسبيحاً معنوياً بالجنان، وتسبيحاً عملياً بالأركان. فإن الله تعالى لما سبح نفسه دل ذلك على أنه يحب التسبيح، ويحب من عباده أن يسبحوه، ولهذا أمر بالتسبيح، ومدح المسبحين، كما سيأتي بيانه إن شاء الله[1]. وبالله التوفيق.

❖ المطلب الثاني ❖

تسبيح الملائكة لله تعالى

الملائكة خلق من خلق الله تعالى، وعالم من عوالم الغيب، جعل الله الإيمان بهم وبما ثبت في حقهم أصلاً من أصول الدين، كما جعل الكفر بهم وبما ثبت في حقهم ضلالاً مخرجاً من الدين.

قال الله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ . . .﴾ الآية [البقرة: ١٧٧].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦].

وقد جاء في كتاب الله تعالى وفي سنة رسوله ﷺ أوصاف عظيمة

---

(١) في بيان حكم التسبيح، وبيان فضله، في الباب الثاني.

للملائكة دالة على صفاء طبيعتهم، وكمال عبوديتهم لله تعالى، وتمام طاعتهم له.

ومن أعظم تلك الأوصاف: تسبيحهم لله تعالى. فقد تكرر في الكتاب والسنة ذكر تسبيح الملائكة في صور متنوعة وبعبارات مختلفة، وبيان ذلك كما يلي:

أولاً: إخبار الله تعالى عن تسبيح الملائكة له على الدوام بلا انقطاع:

وهذا وارد في عدة مواضع من القرآن الكريم، يخبر الله تعالى أن الملائكة يسبحونه تسبيحاً دائماً متواصلاً من غير انقطاع ولا فتور ولا سآمة. وهذه المواضع هي:

١ ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾﴾ [الأعراف: ٢٠٦].

فقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ يعني بهم: الملائكة[١]. وهذه العندية تعني قربهم من الله تعالى ورفعة منزلتهم على غيرهم من المخلوقات. ثم وصفهم الله تعالى ـ في هذه الآية ـ بثلاثة أوصاف: أنهم لا يستكبرون عن عبادة الله تعالى، وأنهم يسبحونه، وأنهم يسجدون له. وهذه الأوصاف دالة على كمال عبوديهم لله تعالى، حيث قد اجتمعت لهم العبادة القلبية والقولية والبدنية.

فعدم الاستكبار عبادة قلبية عنها تنشأ العبادة القولية والبدنية[٢]، والتسبيح هو ذكرهم لله تعالى وتنزيههم إياه عن كل ما لا يليق بجلاله وعظمته[٣]، وهو عبادة كائنة بالقلب ـ وهي اعتقاد التنزيه ـ، وباللسان

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ٦/ ١٦٧.

(٢) انظر: البحر المحيط، لأبي حيان: ٤/ ٤٤٩ ـ ٤٥٠.

(٣) المصدر السابق، الموضع نفسه، وبدائع الفوائد، لابن قيم الجوزية: ١/ ٢٣.

ـ وهي قول: سبحان الله، ونحوه من الذكر ـ، وبالجوارح، كالصلاة ـ مثلاً ـ. والسجود عبادة بدنية تتضمن الخضوع والذل لله العلي العظيم. وتقديم الجار والمجرور في قوله: ﴿وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾ إيذان باختصاص سجودهم لله تعالى وحده دون غيره[(١)].

٢ ـ وقوله تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأنبياء: ١٩، ٢٠]. فقوله ـ هنا ـ: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ﴾ يعني: الملائكة[(٢)]، كما في الآية السابقة. وقد تضمنت هذه الآية بيان أن الملائكة ـ زيادة على عدم استكبارهم عن عبادة الله ـ ﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ أي: لا يتعبون ولا يملون[(٣)]. ولهذا فهم ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ وهذا كالبيان لقوله: ﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾؛ لأن من يحب أمراً ولا يتعب منه، لا يتركه ولا يمل منه بل يواظب عليه[(٤)]، والملائكة كذلك يحبون تسبيح الله تعالى، فهم دائبون عليه ليلاً ونهاراً، لا يلحقهم كلال ولا إعياء، ولا يشغلهم التسبيح عن تدبير ما وكلوا به من أمور الخلق[(٥)].

وفي الأثر: أن ابن عباس رضي الله عنهما سأل كعباً[(٦)] عن قوله تعالى:

---

(١) انظر: البحر المحيط: ٤/ ٤٥٠.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٣/ ١٨٤.

(٣) انظر: المصدر السابق، الموضع نفسه.

(٤) انظر: تفسير التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٧/ ٣٦.

(٥) انظر: بغية المرتاد، لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق الدكتور موسى الدويش: ص٢٢٨ ـ ٢٢٩.

(٦) هو كعب بن ماتع الحميري، أبو إسحاق، المعروف بكعب الأحبار، كان من أوعية العلم، ومن كبار علماء أهل الكتاب، أدرك الجاهلية، وأسلم في خلافة أبي بكر الصديق، وقدم المدينة من اليمن في خلافة عمر بن الخطاب، =

﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ۝٢٠﴾، فقال: «هل يؤودك طرفك؟ هل يؤودك نفسك؟ قال: لا، قال: فإنهم ألهموا التسبيح كما ألهمتهم الطرف والنفس»[(١)].

وفي الأثر أيضاً: عن عبد الله بن الحارث[(٢)] قال: «قلت لكعب الأحبار: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ۝٢٠﴾ أما يشغلهم رسالة أو عمل؟ قال: يا ابن أخي، إنهم جعل لهم التسبيح كما جعل لكم النفس، ألست تأكل وتشرب وتقوم وتقعد وتجيء وتذهب وأنت تنفس؟ قلت: بلى. قال: فكذلك جعل لهم التسبيح»[(٣)].

٣ ـ وقوله تعالى: ﴿فَإِنِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ۩ ۝٣٨﴾ [فصلت: ٣٨].

وهذه الآية في معنى الآيتين السابقتين، فقوله: ﴿لَا يَسۡـَٔمُونَ﴾ كقوله: ﴿لَا يَفۡتُرُونَ﴾[(٤)].

= فأخذ عنه الصحابة وغيرهم، وأخذ هو عن الصحابة الكتاب والسنة، ثم سكن الشام حتى توفي في خلافة عثمان سنة (٣٢هـ)، وقد زاد عمره على المائة، رحمه الله. انظر: تذكرة الحفاظ، للذهبي: ١/ ٥٢، وتهذيب التهذيب، لابن حجر: ٨/ ٤٣٨.

(١) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره: ٩/ ١٤.

(٢) هو عبد الله بن الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب بن هاشم القرشي الهاشمي، أبو محمد، المدني، لقبه (ببه) ـ بموحدتين مفتوحتين، الثانية ثقيلة ـ، ولد على عهد النبي ﷺ، وكان له سنتان عند وفاته ﷺ، اتفقوا على توثيقه، وكان من فقهاء أهل المدينة، كثير الحديث، وولي البصرة لابن الزبير، وتوفي سنة (٨٤هـ)، رحمه الله ورضي عنه. انظر: تهذيب التهذيب، لابن حجر: ٥/ ١٨٠ ـ ١٨١.

(٣) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره: ٩/ ١٤، وذكره الحافظ ابن كثير في تفسير القرآن العظيم: ٣/ ١٨٤.

(٤) انظر: تفسير الطبري: ١١/ ١١٣.

وجميع هذه الآيات دالة على قوة الملائكة وكمال حياتهم، وشدة الداعي القوي منهم إلى تسبيح الله تعالى وملازمته، فلا يلحقهم فيه فتور ولا سآمة، ولا يشغلهم عنه شاغل(١).

□ ثانياً ـ تمدح الملائكة بتسبيحهم لله تعالى:

وكما أخبر الله تعالى عن تسبيح الملائكة له، فإن الملائكة تمدحوا بتسبيحهم لله تعالى، إظهاراً لعبوديتهم له، وإخباراً بفضله وامتنانه عليهم. وقد حكى الله تعالى ذلك عنهم في موضعين من كتابه:

١ ـ في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [البقرة: ٣٠].

فهذا سؤال استخبار من الملائكة بعد قوله تعالى لهم: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، كأنهم قالوا: أتستخلف في الأرض خليفة يكون منه الفساد وسفك الدماء، وحكمتك تقتضي أن لا تفعل ذلك، وإن جعلت فيها خليفة، فتجعل فيها من يسبح بحمدك ويقدس لك، ونحن نفعل ذلك.

فأجابهم تعالى عن هذا السؤال بأن له من الحكمة في جعل هذا الخليفة في الأرض ما لا تعلمه الملائكة، وإن وراء ما زعمتم من الفساد وسفك الدماء مصالح وحكماً لا تعلمونها أنتم(٢).

---

(١) انظر: مدارج السالكين، لابن القيم: ٣/ ٢٤٥، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي: ص٥٢٠ ـ ٥٢١، ٧٥٠.

(٢) انظر: بدائع الفوائد، لابن القيم: ٢/ ٤٣٨، ومدارج السالكين، له: ٢/ ١٩٣، وشفاء العليل، له أيضاً: ٢/ ١١٩، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ١/ ٧٣.

والشاهد: أن قولهم: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ يتضمن تمدحهم بتسبيحهم وتقديسهم لله تعالى[١].

٢ ـ وقوله تعالى ـ حكاية لقول الملائكة ـ: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ [الصافات: ١٦٥، ١٦٦].

وفي هذا تمدح بوقوفهم صفوفاً في السماء لعبادة الله تعالى، وبتسبيحهم لله تعالى. وقد أقسم الله تعالى بهم في قوله سبحانه: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ﴿١﴾﴾ [الصافات: ١]. قال الإمام ابن جرير الطبري: «فأما الصافات: فإنها الملائكة الصافات لربها في السماء» اهـ[٢].

وقولهم: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ قال قتادة: «هذا قول الملائكة يثنون بمكانهم من العبادة»[٣].

وقال الحافظ ابن كثير ـ في تفسير الآيتين ـ: «أي: نصطف فنسبح الرب ونمجده ونقدسه وننزهه عن النقائص، فنحن عبيد له، فقراء إليه، خاضعون لديه» اهـ[٤].

□ ثالثاً ـ تسبيح حملة العرش[٥] والحافين من حوله من الملائكة:

وكما جاء الخبر بتسبيح الملائكة على العموم، جاء الخبر بتسبيح

---

(١) انظر: ما سبق من الكلام على ورود التسبيح في هذه الآية مقروناً بالتقديس ومعنى ذلك، في ص ١١٤ ـ ١١٦ من البحث.
(٢) تفسير الطبري: ١٠/٤٦٧.
(٣) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره: ١٠/٥٣٩.
(٤) تفسير القرآن العظيم: ٤/٢٦.
(٥) تقدم عند الكلام على قوله تعالى: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ ـ ص٢٣٢ من البحث ـ الإشارة إلى أن العرش هو سقف المخلوقات وأوسعها وأعظمها. ويطلق العرش ـ في اللغة ـ على سرير الملك، وسمي =

حملة العرش والحافين من حوله من الملائكة على الخصوص، وذلك في موضعين من القرآن الكريم:

١ - في قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الزمر: ٧٥].

وهذه الآية ذكرت بعد ذكر أحداث يوم القيامة وما يقع فيه من القضاء بين العباد، وتوفية كل نفس ما عملت، وإدخال أهل الجنة وأهل النار كلا في المحل الذي يستحقه ويليق به.

فقوله: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ أي: في ذلك اليوم العظيم[(١)] ﴿حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾ أي: محدقين محيطين بالعرش[(٢)] ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أي: يمجدونه ويعظمونه ويقدسوه وينزهونه عن الجور وعن كل ما لا يليق بجلاله[(٣)]. ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم﴾ أي: بين الخلائق[(٤)] ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بالعدل[(٥)]. ﴿وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وهذا إخبار عن حمد الكون أجمعه ناطقه وبهيمه لله رب العالمين، عقيب قضائه بالحق بين

= بذلك لارتفاعها؛ لأن مقعد الملك يكون عادة أعلى من غيره، وعرش الرحمن هو أعلى المخلوقات، وقد اختصه الله تعالى بالاستواء عليه، وأمر ملائكته بحمله وتعبدهم بتعظيمه والطواف به، كما دل على ذلك كله نصوص عديدة في الكتاب والسنة. وانظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٦/ ٤٠٢، والقاموس المحيط، للفيروزآبادي: مادة (عرش): ص٧٧٠، وفتح الباري، للحافظ ابن حجر العسقلاني: ١٣/ ٤٠٥.

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، للسعدي: ص٧٣١.

(٢) انظر: تفسير البغوي: ٧/ ١٣٤.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٤/ ٧٥.

(٤) انظر: المصدر السابق.

(٥) انظر: تفسير الطبري: ١١/ ٣٦، وتفسير البغوي: ٧/ ١٣٤.

الخلائق. ولهذا حذف فاعل الحمد في قوله: ﴿وَقِيلَ﴾، لإفادة العموم والإطلاق، حتى لا يسمع إلا حامد لله تعالى من أوليائه ومن أعدائه ومن جميع مخلوقاته[١]، كما قال الإمام الحسن البصري: «لقد دخلوا النار وإن حمده لفي قلوبهم، ما وجدوا عليه حجة ولا سبيلاً»[٢].

٢ ـ وفي قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝٧﴾ [غافر: ٧].

وفي هذه الآية ذكر الله تعالى صنفين من ملائكته المسبحة بحمده، وهما: الملائكة الذين يحملون العرش، والملائكة الذين يطوفون حول العرش.

ثم أخبر تعالى عنهم جميعاً بثلاثة أمور:

الأمر الأول: أنهم ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ و«هذا مدح لهم بكثرة عبادتهم لله تعالى، وخصوصاً التسبيح والتحميد، وسائر العبادات تدخل في تسبيح الله وتحميده؛ لأنها تنزيه له عن كون العبد يصرفها لغيره وحمد له، بل الحمد هو العبادة لله تعالى»[٣].

والأمر الثاني: أنهم ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ أي: «يقرون بالله أنه لا إله لهم سواه، ويشهدون بذلك، لا يستكبرون عن عبادته»[٤].

والأمر الثالث: أنهم ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: يستغفرون

---

(١) انظر: الصواعق المرسلة، لابن القيم: ٤/١٤٩٦ ـ ١٤٩٧، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٤/ ٧٥، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي: ص٧٣١.
(٢) ذكره ابن القيم في الصواعق المرسلة: ٤/ ١٤٩٧.
(٣) مقتبس من: تيسير الكريم الرحمن، للسعدي: ص٧٣٢.
(٤) مقتبس من: تفسير الطبري: ١١/ ٤١.

للمؤمنين من أهل الأرض، ممن آمن بالغيب، وأقر بمثل إقرار الملائكة من توحيد الله تعالى والبراءة من كل معبود سواه[١].

وهذا من جملة فوائد الإيمان وفضائله الكثيرة، أن الله تعالى قيض ملائكته المقربين الذين لا ذنوب عليهم يستغفرون لأهل الإيمان من البشر، ويدعون لهم بظهر الغيب، فالمؤمن بإيمانه تسبب لهذا الفضل العظيم[٢].

وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا ...﴾ هو بيان لصفة دعائهم للمؤمنين، وكذا الآيتان المذكورتان بعدها.

وتخصيص هذين الصنفين من الملائكة بالذكر في الموضعين السابقين دليل على ما لهما من شأن عظيم، إذ اختارهم الله تعالى لحمل عرشه العظيم والطواف من حوله، فلا شك أنهم من أكبر الملائكة وأعظمهم وأقواهم وأقربهم منه ﷻ[٣].

وقد وردت روايات عديدة ـ مرفوعة وموقوفة ومقطوعة ـ في بيان عدة حملة العرش والطائفين حوله من الملائكة، وفي بيان أوصافهم، ولكن معظم هذه الروايات في ثبوتها نظر. والمتيقن في هذا الباب ما جاء في قول الله تعالى: ﴿وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ﴾ [الحاقة: ١٧]، حيث أخبر تعالى أن حملة العرش ثمانية، وهذا عددهم يوم القيامة بصريح الآية، والله تعالى أعلم.

---

(١) انظر: المصدر السابق، الموضع نفسه، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٤/ ٧٨.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٤/ ٧٨، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي: ص٧٣٢.

(٣) انظر: تفسير البغوي: ٧/ ١٣٩، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٤/ ٧٧، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي: ص٧٣٢.

❐ رابعاً ـ تسبيح الملائكة لكلام الله تعالى وقضائه:

وإذا كان الملائكة عليهم السلام يسبحون الله تعالى تسبيحاً عاماً في كل وقت على الدوام بلا انقطاع، فإنهم يسبحون الله تعالى ـ مع ذلك ـ تسبيحاً خاصاً إذا قضى الله تعالى بالأمر في السماء وسمعوا كلامه.

وقد جاء في السنة بيان ذلك في حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: «أخبرني رجل من أصحاب النبي ﷺ من الأنصار أنهم بينما هم جلوس ليلة مع رسول الله ﷺ رمي بنجم فاستنار، فقال لهم رسول الله ﷺ: «**ماذا كنتم تقولون في الجاهلية إذا رمي بمثل هذا؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم، كنا نقول: ولد الليلة رجل عظيم، ومات رجل عظيم. فقال رسول الله ﷺ: «**فإنها لا يرمى بها لموت أحد ولا لحياته، ولكن ربنا تبارك وتعالى اسمه إذا قضى أمراً سبح حملة العرش، ثم سبح أهل السماء الذين يلونهم، حتى يبلغ التسبيح أهل هذه السماء الدنيا. ثم قال الذين يلون حملة العرش لحملة العرش: ماذا قال ربكم؟ فيخبرونهم ماذا قال. قال: فيستخبر بعض أهل السموات بعضاً حتى يبلغ الخبر هذه السماء الدنيا، فتخطف الجن السمع، فيقذفون إلى أوليائهم، ويرمون به، فما جاءوا به على وجهه فهو حق، ولكنهم يقرفون[١] فيه ويزيدون**»»[٢].

فهذا الحديث يبين أن الملائكة يسبحون لله تعالى إذا قضى أمراً، أي: إذا تكلم بأمره الذي قضاه مما يكون[٣]، وفي ذلك إشارة إلى أن هذا التسبيح للتنزيه والتعظيم والخضوع لكلام الله تعالى وقضائه بما شاء

---

(١) أي: يخلطون فيه الكذب ـ انظر: شرح صحيح مسلم، للنووي: ١٢/ ٢٢٧.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه: ٤/ ١٧٥٠ ـ ١٧٥١، برقم (٢٢٢٩).
(٣) انظر: تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد، للشيخ سليمان بن عبد الله آل الشيخ: ص٢٦٦.

أن يكون من الأمور، فإنه سبحانه لا يقول إلا الحق، ولا يقضي إلا بالحق.

وقد جاء تأكيد هذا المعنى في حديث آخر عن أبي هريرة ﵁ قال: إن نبي الله ﷺ قال: «**إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله، كأنه سلسلة على صفوان**(١)**، فإذا فزع عن قلوبهم**(٢) **قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا للذي قال: الحق، وهو العلي الكبير....**» الحديث(٣).

وهذا كله يبين أن لكلام الله تعالى بالقضاء أو الوحي وقعاً عظيماً على الملائكة، يخرون لذلك سجداً لله تعالى، ويسبحون تنزيهاً وتعظيماً وخضوعاً له سبحانه.

□ خامساً ـ افتتاح الملائكة كلامهم مع الله تعالى بالتسبيح:

ومن تسبيح الملائكة لله تعالى أيضاً أنهم إذا تكلموا معه سبحانه افتتحوا كلامهم بالتسبيح له وذلك في مقامات دل عليها كتاب الله تعالى، ومن هذه المقامات:

١ ـ قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾﴾ [البقرة: ٣١، ٣٢].

---

(١) أي: كأن الصوت المسموع سلسلة على صفوان، والصفوان: هو الحجر الأملس: انظر: فتح الباري، للحافظ ابن حجر: ٨/٥٣٨، وتيسير العزيز الحميد، للشيخ سليمان بن عبد الله: ص٢٦٦.

(٢) أي: أزيل عن قلوبهم الخوف والغشي. انظر: تيسير العزيز الحميد: ص٢٦٧.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ٨/٥٣٨، برقم (٢٢٢٩).

وهذا مقام بين الله تعالى فيه شرف آدم عليه السلام للملائكة بما فضله به من علم أسماء كل شيء من أصناف المخلوقات[١]، ثم عرض تعالى تلك الأشياء على الملائكة قائلاً: ﴿أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾. وقد علم تعالى أنه لا علم لهم بذلك، وإنما سألهم ليريهم عجزهم، وأنه قد خلق من خلقه من هو أعلم منهم بتعليمه إياه[٢].

فأجاب الملائكة قائلين: ﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾، أي: تنزيهاً لك أن نعلم شيئاً إلا ما علمتنا إياه، فإنك أنت العليم بكل شيء من غير تعليم، وأنت الحكيم في خلقك وأمرك، وفي تعليمك ما تشاء لمن تشاء، لك الحكمة العليا والعدل التام في ذلك[٣].

والشاهد: أنهم بدأوا كلامهم مع الله تعالى في هذا المقام بالتسبيح، وهذا أدب منهم وتعظيم لذي الجلال والإكرام والعظمة المطلقة[٤].

٢ ـ وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ [سبأ: ٤٠، ٤١].

وهذا تقريع للمشركين يوم القيامة على رؤوس الخلائق، حين يحشرهم الله تعالى جميعاً، ثم يسأل الملائكة الذين كان هؤلاء المشركون يتخذونهم آلهة من دون الله، فيقول تعالى للملائكة: ﴿أَهَٰؤُلَاءِ

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ١/ ٧٦.
(٢) انظر: مسألة سبحان، لنفطويه: ص٢٨.
(٣) انظر: تفسير الطبري: ١/ ٢٥٧ ـ ٢٥٨، ومسألة سبحان، لنفطويه: ص٢٨ ـ ٢٩، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ١/ ٧٧.
(٤) انظر: تفسير التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١/ ٤١٣.

﴿إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ أي: أأنتم أمرتم هؤلاء بعبادتكم؟[١].

فيجيب الملائكة ـ متبرئين من عبادة المشركين ـ: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾، افتتحوا جوابهم بالتسبيح لله تعالى، أي: تنزيهاً لك أن يكون معك شريك في العبادة، فنحن عبيدك مفتقرون إلى ولايتك، فلا نتخذ ولياً من دونك، ونبرأ إليك من هؤلاء المشركين[٢].

وهذا يعني أن الملائكة لم يأمروهم بذلك ـ وحاشاهم ـ، وإنما أمرهم بذلك الشياطين من الجن[٣]، ولهذا قالوا: ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ أي: بل كان هؤلاء المشركون يعبدون الجن ـ يعنون الشياطين ـ؛ لأنهم هم الذين زينوا للمشركين عبادة الأوثان وأضلوهم، وأكثر المشركين مصدقون للجن منقادون لهم، فعبادتهم ـ في نفس الأمر ـ وقعت للشياطين، وهم يظنون أنهم يعبدون الملائكة[٤].

وفي بيان ما دلت عليه الآيات السابقة من افتتاح الملائكة كلامهم مع الله تعالى بالتسبيح يقول عبد الرحمن بن زيد بن أسلم[٥]: «إن الله تبارك وتعالى لم يكلم ملكاً قط، فيبدأ فيكلمه حتى يسبحه، فلا يجيبه

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٣/ ٥٥٠.

(٢) انظر: تفسير الطبري: ١٠/ ٣٨٢، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٣/ ٥٥٠، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي: ص٦٨٢.

(٣) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٤/ ١٣٥.

(٤) انظر: الجواب الكافي، لابن قيم الجوزية: ص١٤٨، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٣/ ٥٥٠، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي: ص٦٨٢.

(٥) هو عبد الرحمن بن زيد بن أسلم العمري العدوي مولاهم المدني، كان صاحب قرآن وتفسير، ولم يكن قوياً في الحديث، بل هو ضعيف، وكان في نفسه صالحاً، وتوفي سنة (١٨٢هـ) رحمه الله. انظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي: ٨/ ٣٤٩، وتهذيب التهذيب، لابن حجر العسقلاني: ٦/ ١٧٧ ـ ١٧٩.

حتى يبدأه بالتسبيح، ثم قرأ: ﴿أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ [البقرة: ٣١، ٣٢]، وقرأ: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ [سبأ: ٤٠، ٤١]»[١].

□ سادساً ـ حال الملائكة في تسبيحهم لله تعالى:

وقد يظن ظان من وصف الملائكة بأنهم يسبحون الليل والنهار لا يفترون، وأنهم يلهمون التسبيح كما يلهم الناس النفس أن التسبيح يصدر منهم على وجه العادة بلا شعور ولا اهتمام، وهذا الظن بعيد عن الواقع، فإن الله تعالى قد وصف حال الملائكة في تسبيحهم لله ﷻ فقال: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾ [الرعد: ١٣].

فقوله تعالى: (والملائكة من خيفته) يعني: وتسبح الملائكة من خيفته[٢]. و(من) هنا للتعليل. ومعنى (خيفته): هيبته وإجلاله ورهبته[٣]، وهاء الضمير فيه راجع إلى الله ﷻ[٤]. فدلت هذه الآية على أن الملائكة يسبحون الله تعالى خاشعين له خائفين منه، كما وصفهم سبحانه ـ في آية أخرى ـ بقوله: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾﴾ [النحل: ٥٠]، وبقوله ـ في آية أخرى ـ: ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «يخافون الله وليس كخوف ابن آدم، لا يعرف أحدهم من على يمينه ومن على يساره، ولا يشغله عن عبادة الله شيء»[٥].

---

(١) رواه أبو الشيخ في كتاب العظمة: ٢/ ٤٦٧ ـ ٤٦٨، وإسناده صحيح.
(٢) انظر: تفسير الطبري: ٧/ ٣٦٠، وتفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني: ٣/ ٨٤.
(٣) انظر: تفسير الطبري: ٧/ ٣٦٠، والبحر المحيط، لأبي حيان: ٥/ ٣٦٦.
(٤) انظر: زاد المسير، لابن الجوزي: ٤/ ٣١٤.
(٥) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير: ٤/ ٣١٤.

وأما قوله تعالى ـ في الآية ـ: (ويسبح الرعد بحمده) فمعناه ـ كما قال الطبري ـ: «ويعظم الله الرعد ويمجده، فيثني عليه بصفاته، وينزهه مما أضاف إليه أهل الشرك به، ومما وصفوه به من اتخاذ الصاحبة والولد، تعالى ربنا وتقدس»(١).

وأكثر المفسرين على أن الرعد ملك من الملائكة يزجر السحاب ويجمعه، والمسموع من الصوت تسبيحه(٢).

وقد جاء في ذلك حديث مرفوع عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «أقبلت يهود إلى النبي ﷺ فقالوا: يا أبا القاسم، أخبرنا عن الرعد ما هو؟ قال: «**ملك من الملائكة موكل بالسحاب، معه مخاريق(٣) من نار يسوق بها السحاب حيث شاء الله**». فقالوا: فما هذا الصوت الذي نسمع؟ قال: «**زجره بالسحاب إذا زجره حتى ينتهي إلى حيث أمر**». قالوا: صدقت» الحديث(٤).

وجاء في ذلك أيضاً آثار كثيرة عن ابن عباس رضي الله عنهما(٥)، وعن عدد من التابعين(٦).

---

(١) تفسير الطبري: ٧/ ٣٦٠.

(٢) انظر: تفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني: ٣/ ٨٣، وزاد المسير: ٤/ ٣١٤.

(٣) مخاريق: جمع مخراق، وهو آلة يضرب بها. وانظر: القاموس المحيط، للفيروزآبادي: مادة (خرق): ص١١٣٤.

(٤) أخرجه الترمذي في سننه: ٥/ ٢٧٤، برقم (٣١١٧)، وأحمد في مسنده: ١/ ٢٧٤، وقال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب»، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (١٨٧٢)، وفي صحيح الجامع، برقم (٣٥٥٣).

(٥) انظر: كتاب الدعاء، للطبراني: ٢/ ١٢٦٤، الأثر رقم (٩٩٣)، وتفسير الطبري: ١/ ١٨٥، الأثر رقم (٤٢٥) و(٤٢٦) و(٤٢٧).

(٦) انظر: كتاب الدعاء، للطبراني: ٢/ ١٢٦٤، وتفسير الطبري: ١/ ١٨٥.

وعليه فيكون عطف الملائكة على الرعد من باب عطف العام على الخاص، ويكون ذكره على الانفراد مع ذكر الملائكة بعده لمزيد خصوصية له وعناية به[١]؛ لأن صوته من أعظم الأصوات[٢].

وقيل: إن الرعد هو صوت اصطكاك الأجرام العلوية[٣]، أو هو ريح تختنق تحت السحاب فتصاعد فيكون منه ذلك الصوت[٤]، وعليه فسيأتي ذكره ـ إن شاء الله ـ في الكلام على تسبيح الكائنات[٥].

ومما يبين أيضاً حال الملائكة في تسبيحهم لله تعالى قوله ﷻ: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥﴾ [الشورى: ٥].

ومعنى (تكاد السموات يتفطرن) أي: قاربت السماوات ـ على عظمها وكونها جماداً ـ أن يتشققن ويتصدعن[٦].

ومعنى ﴿مِن فَوْقِهِنَّ﴾ أي: كل سماء تتفطر فوق التي تليها[٧].

وللعلماء في سبب مقاربة السماوات للتفطر ـ في هذه الآية ـ وجهان كلاهما يدل له قرآن:

الوجه الأول: أن المعنى ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ﴾ خوفاً من الله تعالى وهيبة وإجلالاً. ويدل لهذا الوجه قوله تعالى ـ قبله ـ: ﴿وَهُوَ

---

(١) انظر: فتح القدير، للشوكاني: ٣/ ١٠٢، وفتح البيان، للقنوجي: ٧/ ٣٠.
(٢) انظر: زاد المسير: ٤/ ٣١٤.
(٣) انظر: تفسير القرآن، لأبي المظفر: ٣/ ٨٤.
(٤) انظر: تفسير الطبري: ١/ ١٨٦، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ١/ ٢١٧.
(٥) في المطلب الرابع من هذ المبحث: ص٣٣٥.
(٦) انظر: تيسير الكريم الرحمن، للسعدي: ص٧٥٣، وأضواء البيان، للشنقيطي: ٤/ ٤١٣.
(٧) انظر: أضواء البيان: ٤/ ٤١٤.

﴿ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [الشورى: ٤]؛ لأن علوه ﷻ وعظمته سبب للسماوات ذلك الخوف والهيبة والإجلال، حتى كادت تتفطر.

وعلى هذا الوجه فقوله ـ بعده ـ: (والملائكة يسبحون بحمد ربهم) مناسبته لما قبله واضحة؛ لأن المعنى: أن السماوات في غاية الخوف منه تعالى والهيبة والإجلال له، وكذلك سكانها من الملائكة، فهم يسبحون بحمد ربهم ـ أي: ينزهونه عن كل ما لا يليق بكماله وجلاله، مع إثباتهم له كل كمال وجلال ـ خوفاً منه وهيبة وإجلالاً.

الوجه الثاني: أن المعنى (تكاد السموات يتفطرن) من شدة عظم الفرية التي افتراها الكفار على خالق السماوات والأرض جل وعلا من كونه اتخذ ولداً سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً.

وهذا الوجه جاء موضحاً في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ﴿٩٣﴾﴾ [مريم: ٨٨ ـ ٩٣].

وغاية ما في هذا الوجه أن آية الشورى هذه فيها إجمال في سبب تفطر السماوات، وقد جاء ذلك موضحاً في آية مريم المذكورة. وعليه فمناسبة قوله تعالى: (والملائكة يسبحون بحمد ربهم) لما قبله أن الكفار وإن قالوا أعظم الكفر وأشنعه، فإن الملائكة بخلافهم، فإنهم يداومون ذكر الله وطاعته، كما قال تعالى: ﴿فَإِنِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ۩ ﴿٣٨﴾﴾ [فصلت: ٣٨].

وكلا الوجهين المذكورين حق[١]، غير أن الوجه الأول هو

---

(١) ما ذكر من الوجهين والكلام عليهما منقول بتصرف من «أضواء البيان»: ٤/ ٤١٣ ـ ٤١٥.

المقصود هنا، فمنه يتبين حال الملائكة في تسبيحهم لله تعالى، وأنهم لشدة خوفهم من الله وهيبتهم وإجلالهم له يسبحون بحمده على الدوام بلا انقطاع.

وقوله تعالى - في هذه الآية الكريمة -: (**ويستغفرون لمن في الأرض**) يعني لخصوص الذين آمنوا منهم، كما أوضحه الله بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ الآية [غافر: ٧].

وقوله تعالى - في ختام الآية -: (**ألا إن الله هو الغفور الرحيم**) أكد فيه أنه هو وحده المختص بغفران الذنوب وإيجاد الرحمات، وذلك بذكر حرف الاستفتاح (ألا) وحرف التوكيد (إن) المقتضيين للتوكيد، وضمير الفصل (هو) المقتضي للحصر[(١)].

وبجميع ما سبق ذكره في هذا المطلب من الآيات والأحاديث والآثار يتجلى مقام الملائكة في التسبيح، وأنهم في هذه العبادة العظيمة متميزون عن غيرهم من العالمين. وهنا يختلف أهل العلم في معنى تسبيح الملائكة على أقوال:

أحدها: أن تسبيحهم هو الصلاة[(٢)]. وقد يستدل أصحاب هذا القول بما ورد في القرآن من إطلاق التسبيح على الصلاة[(٣)]، ولا يخفى أن ذلك لا يلزم منه كون تسبيح الملائكة بمعنى الصلاة.

الثاني: أن تسبيحهم هو رفع الصوت بالذكر، واستشهد من قال

---

(١) انظر مزيد إيضاح لذلك في: أضواء البيان: ٤/ ٤١٥.

(٢) انظر: زاد المسير، لابن الجوزي: ١/ ٦١ والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ١/ ٢٧٦، والبحر المحيط، لأبي حيان: ١/ ٢٩١، وصفوة الآثار، للدوسري: ٢/ ٧٧.

(٣) انظر: ما سبق بيانه من معاني التسبيح في الشرع.

بذلك بقول جرير[١]:

«قبح الإله وجوه تغلب كلما سبح الحجيج وكبروا إهلالا»[٢]

والاستشهاد بهذا البيت على المعنى المذكور منتقد من وجهين:

الوجه الأول: أن تفسير تسبيح الملائكة بهذا المعنى أو غيره لا يؤخذ من الشعر، بل من الكتاب أو السنة أو الآثار السلفية.

وقد ورد في الكتاب والسنة إطلاق التسبيح على الذكر، من باب تسمية الشيء باسم بعضه؛ لأن التسبيح نوع من الذكر ـ كما تقدم بيانه[٣] ـ ولكن ذلك ليس مقيداً برفع الصوت بالذكر كما ذكر هنا.

وعلى هذا فلو قيل: إن تسبيح الملائكة هو ذكرهم لله لكان معنى صحيحاً.

الوجه الثاني: أن محل الشاهد في البيت ـ وهو قوله: «سبح الحجيج» ـ يظهر أن فيه تصحيفاً[٤]؛ لأن الذي في ديوان جرير هو

---

(١) هو جرير بن عطية بن الخطفي بن بدر بن سلمة بن عوف التميمي، أبو حرزة، الشاعر. ولد باليمامة سنة (٢٨هـ)، وعاش عمره يناضل شعراء زمنه ويساجلهم، وكان أشعرهم وأخيرهم، وقد امتدح يزيد بن معاوية والخلفاء من بعده، وكان هجاء مرا: توفي سنة (١١٠هـ) وقيل: (١١١هـ)، وله ديوان شعر مطبوع. انظر: البداية والنهاية، لابن كثير: ٩/ ٢٧١ ـ ٢٧٧ ومعجم المؤلفين، لكحالة: ١/ ٤٨٤.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ١/ ٢٧٦.

(٣) في تفسير التسبيح شرعاً: انظر: ص٩٦.

(٤) التصحيف: هو تغيير حرف أو حروف بالنسبة إلى النقط مع بقاء صورة الخط في السياق. انظر: نزهة النظر، لابن حجر ـ بتعليقات علي بن حسن الحلبي ـ: ص١٢٧ ـ ١٢٨، وقيل: هو قراءة الشيء على خلاف ما أراد كاتبه، أو على خلاف ما اصطلحوا عليه. كذا في «التعريفات»، للجرجاني: ص٨٢.

«شبح الحجيج» - بالشين المعجمة[١]، ويقال - في اللغة -: شبح الداعي: إذا مد يده للدعاء[٢]. فيكون الشاعر أراد بقوله: «شبح الحجيج» أي: مدوا أيديهم للدعاء.

وعلى هذا فلا يكون في البيت شاهد لمن استشهد به على المعنى المذكور. وعلى فرض أن البيت لا تصحيف فيه، فيمكن حمل قوله: (سبح الحجيج) على معنى الإبعاد في السير والسرعة فيه، وهو من معاني (سبح) الثلاثي في اللغة، كما سبق بيانه عند الكلام على أصل التسبيح[٣].

الثالث: أن تسبيحهم هو التنزيه[٤]. والتنزيه هو معنى التسبيح كما علم، لكن إن قصد قائل هذا القول أن تسبيحهم هو التنزيه اعتقاداً دون أن يكون ذلك بالقول، فلا شك أن قصر تسبيحهم على الاعتقاد دون القول ترده الأدلة.

الرابع: أن تسبيحهم هو التعظيم والحمد[٥]. والتعظيم أيضاً من معنى التسبيح كما سبق بيانه، والقول في هذا كالقول في الذي قبله.

الخامس: أن تسبيحهم هو الخضوع والذل[٦].

والخضوع والذل من لوازم التسبيح وآثاره، وليس هو نفس معنى التسبيح، لا لغة ولا شرعاً.

وكأن من قال بهذا المعنى يريد أن تسبيح الملائكة هو بلسان الحال، وهو خضوعهم لله تعالى وذلهم له، لا بلسان المقال. فإن كان

---

(١) ديوان جرير: ٣٦١.
(٢) انظر: لسان العرب، لابن منظور - مادة (شبح) -: ٢/ ٤٩٥.
(٣) انظر: ص٤١ من البحث.
(٤) انظر: البحر المحيط: ١/ ٢٩١.
(٥) انظر: زاد المسير: ١/ ٦١.
(٦) انظر: المصدر السابق: ١/ ٦١.

هذا هو المراد، فلا شك أنه مخالف للأدلة؛ لأن تسبيح الملائكة ليس بالحال فحسب، بل بالحال والمقال كما يأتي.

السادس: أن تسبيحهم هو تسبيحهم لله تعالى بألسنتهم، بقول: «سبحان الله»، أو «سبحان الله وبحمده»، أو نحو ذلك من التسبيح الثابت عنهم في الأخبار المقبولة(١).

وهذا المعنى هو الذي تدل عليه الأدلة من الكتاب والسنة وآثار السلف مما سبق ذكرها في هذا المطلب وغيرها، كما في حديث أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ سئل: أي الكلام أفضل؟ قال: **«ما اصطفى الله لملائكته أو لعباده: سبحان الله وبحمده»**(٢).

وإذا اتضح ما يتعلق بتسبيح الملائكة لله تعالى فينبغي أن تكون للعلم بذلك فوائد عملية بالنسبة للمؤمن، بأن يقتدي بالملائكة الكرام فيكثر من تسبيح الله تعالى بالليل والنهار على قدر طاقته، فإن إخبار الله سبحانه عنهم في الآيات السابقة، ووصفه إياهم فيها بما وصف «فيه حث للمؤمنين وترغيب لهم في أن يقتدوا بهم فيما ذكر عنهم؛ لأنه إذا كان أولئك ـ وهم معصومون من الذنب والخطأ ـ هذه حالهم في التسبيح والذكر والعبادة، فكيف ينبغي أن يكون غيرهم»(٣).

وإذا كان الله عز وجل قد أعطى الملائكة من القدرة وكمال الحياة ما يفوق ما للبشر من ذلك، فإن المؤمن يجتهد في الاقتداء بهم في حدود طاقته البشرية، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها، وبالله تعالى التوفيق.

---

(١) انظر: المصدر السابق: ١/ ٦١، والجامع لأحكام القرآن: ١/ ٢٧٦، والبحر المحيط: ١/ ٢٩١ وصفوة الآثار: ٢/ ٧٧.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه: ٤/ ٢٠٩٣، برقم (٢٧٣١).

(٣) مقتبس من: فقه الأدعية والأذكار، للأستاذ الدكتور عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر: ص٦٠.

❖ المطلب الثالث ❖

تسبيح صالحي البشر لله تعالى

ويعد التسبيح من أكثر العبادات ذكراً في الكتاب والسنة مسنداً إلى صالحي البشر من الأنبياء وأتباعهم المؤمنين.

وما ورد في القرآن والأحاديث والآثار في ذكر تسبيح صالحي البشر كثير جداً يصعب استقصاؤه في هذا المطلب، ولكن يمكن بيان ما تيسر من ذلك فيما يلي:

◻ أولاً ـ تسبيح الأنبياء عليهم السلام لله تعالى:

الأنبياء عليهم السلام هم صفوة البشر وأكملهم علما وعملاً وخلقاً، وأتمهم تسبيحاً لله تعالى قولاً واعتقاداً وعملاً؛ لأن الله تعالى قد اصطفاهم على الناس برسالاته، وخصهم بوحيه، وجعلهم واسطة بينه وبين عباده في تبليغ دينه، وأقام بهم الحجة على خلقه.

وقد قص الله تعالى في كتابه (القرآن الكريم) من قصص أنبيائه ما يشتمل على بيان تسبيحهم لله تعالى في مختلف الأوقات والأحوال، ومن ذلك:

١ ـ تسبيح يونس عليه السلام لله تعالى:

جاء ذكر تسبيح نبي الله يونس عليه السلام في موضعين من القرآن:

الموضع الأول: في قول الله تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء: ٨٧، ٨٨].

فإن (ذا النون) هو يونس عليه السلام[١] ـ، وهو بمعنى: صاحب الحوت، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ [القلم: ٤٨]، وذلك لأن الحوت التقمه، كما قال سبحانه ـ في قصته في موضع آخر ـ: ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾﴾ [الصافات: ١٤٢].

وهذا التسبيح الذي ذكر في هذه الآية إنما قاله يونس عليه السلام وهو في بطن الحوت، وذلك معنى قوله تعالى: ﴿فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ﴾، فإن الظلمات المذكورة هي جمع ظلمة، والمقصود بها: ظلمات بطن الحوت الذي التقمه؛ لأن في كل جنباته ظلمة، فجمعها لشدة تكاثفها، فكأنها ظلمة مع ظلمة[٢].

وقيل: المقصود بها: ظلمة بطن الحوت، وظلمة البحر، وظلمة الليل[٣].

وقوله تعالى: ﴿أَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ تفسير لما نادى به يونس عليه السلام في الظلمات، فـ (أن) هنا مفسرة[٤]، وما بعدها هو المنادى به، والله تعالى هو المنادى.

والمعنى: أن يونس عليه السلام نادى ربه تعالى في الظلمات بهذا القول المشتمل على التهليل والتسبيح والاعتراف بالذنب.

فـ (لا إله إلا أنت) تهليل، فيه إفراد الإلهية لله وحده، وذلك يوجب أن لا يعبد إلا إياه، وأن لا يسأل غيره[٥].

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ٩/ ٧٣، وزاد المسير، لابن الجوزي: ٥/ ٣٨١.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ١١/ ٣٣٣، والبحر المحيط، لأبي حيان: ٦/ ٣١١.
(٣) انظر: تفسير الطبري: ٩/ ٧٦ ـ ٧٧، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٣/ ٢٠١.
(٤) انظر: أضواء البيان، للشيخ محمد الأمين الشنقيطي: ٤/ ٧٤٧.
(٥) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٠/ ٢٧٦.

و(سبحانك) تسبيح، يتضمن تعظيم الرب وتنزيهه عن السوء.

والمقام يقتضي هذا التنزيه، فإن يونس عليه السلام كان مليماً[١] عندما التقمه الحوت، فهو بهذا التسبيح ينزه الله تعالى عن الظلم وغيره من المعايب، فكأنه يقول: أنت مقدس ومنزه عن ظلمي وعقوبتي بغير ذنب، بل أنا الظالم لنفسي[٢]، ولهذا قال ـ بعده ـ: ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، وهذا اعتراف بالذنب، وهو استغفار؛ لأن هذا الاعتراف يتضمن طلب المغفرة، فهو عليه السلام سأل الله تعالى المغفرة بوصف حاله[٣].

وقد كان التهليل والتسبيح مقدمة بين يدي هذا الاستغفار، وتوسلاً إلى الله عز وجل بتوحيده والثناء عليه، ولهذا استجاب الله تعالى له، كما قال سبحانه: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾.

وفي الحديث عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**دعوة ذي النون إذ دعا وهو في بطن الحوت: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، فإنه لم يدع بها رجل مسلم في شيء قط إلا استجاب الله له**»[٤].

والآية الكريمة شاهدة لهذا الحديث، في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، فإنه وعد وبشارة لكل مؤمن أن الله تعالى ينجيه كما أنجي يونس عليه السلام[٥].

وإنما كانت هذه الدعوة بهذه المكانة؛ لأن «فيها من كمال

---

(١) سيأتي بيان معنى ذلك ـ إن شاء الله ـ في الموضع الثاني.
(٢) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٠/٢٤٨، ٢٥٠.
(٣) انظر: المصدر السابق: ١٠/ ٢٤٤، ٢٥٤.
(٤) سبق تخريجه في ص (١٠٥).
(٥) انظر: تيسير الكريم الرحمن، للسعدي: ص٥٣٠،

التوحيد والتنزيه للرب تعالى، واعتراف العبد بظلمه لنفسه وذنبه ما هو من أبلغ أدوية الكرب والهم والغم، وأبلغ الوسائل إلى الله سبحانه في قضاء الحوائج، فإن التوحيد والتنزيه يتضمنان إثبات كل كمال لله، وسلب كل نقص وعيب وتمثيل عنه، والاعتراف بالظلم يتضمن إيمان العبد بالشرع والثواب والعقاب، ويوجب انكساره ورجوعه إلى الله، واستقالته عثرته والاعتراف بعبوديته وافتقاره إلى ربه.

فها هنا أربعة أمور قد وقع التوسل بها: التوحيد، والتنزيه، والعبودية، والاعتراف»[1].

الموضع الثاني: في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الصافات: ١٣٩ ـ ١٤٤].

وقد ذكر تعالى في هذا الموضع التقام الحوت ليونس عليه السلام، وأنه كان مليماً حينئذٍ، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾﴾ أي: ابتلعه الحوت وحاله أنه مليم، والمليم: اسم فاعل من (ألام)، إذا أتى ما يلام عليه من الأمر، وإن لم يلم[2].

والظاهر أن الأمر الذي أتاه يونس عليه السلام هو ذهابه عن قومه مغاضباً، دون أن يأذن له ربه بالذهاب، وهو الذي عبر الله عنه هنا بقوله تعالى: ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾﴾، فيونس عليه السلام أبق من ربه؛ لأنه ذهب قبل أن يأذن له، ولهذا كان مليماً[3].

---

(١) مقتبس من: زاد المعاد، لابن قيم الجوزية: ٤/٢٠٨.

(٢) انظر: تفسير الطبري: ١٠/٥٢٧.

(٣) انظر: المصدر السابق: ١٠/٥٢٦، وأضواء البيان، للشنقيطي: ٤/٧٤٨.

ثم ذكر تعالى تسبيحه، فقال: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ۝١٤٣ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝١٤٤﴾. وفي هذا بيان أنه عليه السلام كان يكثر التسبيح لله تعالى؛ لأن الوصف باسم الفاعل (المسبحين) يدل على ذلك. وبين تعالى أن تسبيحه كان سبب نجاته، ولولا ذلك لبقي في بطن الحوت إلى يوم القيامة[١].

وعن قتادة ـ في قوله تعالى: ﴿لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝١٤٤﴾ ـ قال: «لصار له بطن الحوت قبراً إلى يوم القيامة»[٢].

والكلام السابق يبين أن قوله: (كان من المسبحين) يعني في بطن الحوت[٣]، وأن تسبيحه هذا هو المذكور في الموضع الأول الذي سبق الكلام عليه في قوله تعالى: ﴿فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧][٤].

وهذا هو الأظهر في معنى قوله تعالى: (فلولا أنه كان من المسبحين) أنه هو تسبيحه عليه السلام وهو في بطن الحوت، وأنه تسبيح اللسان الموافق للجنان، بقول: (لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين)[٥].

وقال بعض العلماء: المراد كونه من المسبحين قبل أن يلتقمه الحوت، فنجاه الله من الشدة بما تقدم له من العمل في الرخاء[٦]، كما في الحديث المرفوع: «**تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة**»[٧].

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ١٥/ ١٢٦.
(٢) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره: ١٠/ ٥٢٩.
(٣) انظر: تفسير البغوي: ٧/ ٦٠.
(٤) وانظر: المصدر السابق، وأضواء البيان: ٦/ ٦٩٦.
(٥) انظر: الجامع لأحكام القرآن: ١٥/ ١٢٧.
(٦) انظر: تفسير الطبري: ١٠/ ٥٢٧، والبداية والنهاية: ١/ ٢١٩.
(٧) جزء من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أخرجه أحمد في المسند: ١/ ٣٠٧ والحاكم =

ومن ثم فسر بعضهم التسبيح هنا بالصلاة، فعن قتادة ـ في قوله تعالى: (فلولا أنه كان من المسبحين) ـ قال: «كان كثير الصلاة في الرخاء، فنجاه الله بذلك. وقد كان يقال في الحكمة: إن العمل الصالح يرفع صاحبه إذا ما عثر، فإذا صرع وجد متكئاً»[(١)].

وفسره بعضهم بالذكر. فعن الضحاك بن قيس[(٢)] قال: «اذكروا الله في الرخاء يذكركم في الشدة، إن يونس كان عبداً لله ذاكراً، فلما أصابته الشدة دعا الله، فقال الله: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾، فذكره الله بما كان منه». قال الضحاك: «فاذكروا الله في الرخاء يذكركم في الشدة»[(٣)].

وفسر التسبيح ـ في هذه الآية ـ أيضاً بالعبادة والطاعة[(٤)].

ولا اختلاف في الحقيقة بين هذه التفسيرات، فالصلاة متضمنة للذكر، وهما من العبادة والطاعة، كما أن التسبيح يطلق على كل من الصلاة، والذكر، والعبادة، وسبق بيان ذلك في التعريف بالتسبيح شرعاً[(٥)].

= في المستدرك: ٣/ ٦٢٤، برقم (٦٣٠٤). وصححه الألباني في صحيح الجامع: ١/ ٥٦٩، برقم (٢٩٦١).

(١) رواه الطبري في تفسيره: ١٠/ ٥٢٧.

(٢) هو الضحاك بن قيس بن خالد بن وهب بن ثعلبة القرشي الفهري، أبو أنيس، مختلف في صحبته، فقيل: أدرك النبي ﷺ وسمع منه قبل البلوغ. وقيل: ولد قبل وفاة النبي ﷺ بنحو ست سنين أو أقل. شهد فتح دمشق وسكنها إلى حين وفاته، قتل رَحِمَهُ الله يوم مرج راهط، سنة (٦٤هـ). انظر: تهذيب التهذيب: ٤/ ٤٤٨ والبداية والنهاية: ٨/ ٢٤٥ ـ ٢٤٧.

(٣) رواه الطبري في تفسيره: ١٠/ ٥٢٨. وانظر: مسألة سبحان، لنفطويه: ص٥٤ ـ ٥٥.

(٤) انظر: تفسير البغوي: ٧/ ٦٠. وانظر: ما سبق في ص١٠٣ ـ ١٠٤.

(٥) انظر: ص٨٦ ـ ١٠٤ من البحث.

وكذلك لا اختلاف في الحقيقة بين القول بأن يونس عليه السلام كان من المسبحين في بطن الحوت، والقول بأنه كان من المسبحين قبل ذلك، بل كلا القولين حق: أما كونه من المسبحين قبل التقام الحوت إياه، فيونس عليه السلام نبي مرسل قبل ذلك، والأنبياء والرسل هم - بلا ريب - أكثر الناس تسبيحاً لله تعالى في جميع الأحوال والأوقات كما سبق ذكره في أول المطلب.

وأما كونه من المسبحين في بطن الحوت، فقد دل عليه قوله تعالى: ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، كما سبق الكلام عليه في الموضع الأول.

ويمكن أن يكون هذا التسبيح المذكور هو المراد في قوله تعالى: ﴿فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ ١٤٣﴾، وهذا هو الأظهر. ويمكن أن يراد بهذه الآية الأخيرة ما كان منه من التسبيح قبل حبسه في بطن الحوت. ولا يبعد القول بإرادة الوجهين معاً في الآية[1]. والله تعالى أعلم.

والخلاصة من الموضعين السابقين في قصة يونس عليه السلام أنه سبح الله التسبيح العظيم فكان تسبيحه سبباً في نجاته ورفع درجاته.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «إن ما تضمنته قصة ذي النون مما يلام عليه كله مغفور بدله الله به حسنات، ورفع درجاته، وكان بعد خروجه من بطن الحوت وتوبته أعظم درجة منه قبل أن يقع ما وقع. قال تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ ٤٨ لَّوۡلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعۡمَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ مَذۡمُومٞ ٤٩ فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٥٠﴾ [القلم: ٤٨ - ٥٠]، وهذا بخلاف حال التقام الحوت، فإنه قال: ﴿فَٱلۡتَقَمَهُ ٱلۡحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٞ ١٤٢﴾ [الصافات: ١٤٢]، فأخبر أنه في

---

(١) وفسر الآية بالوجهين معاً السعدي رحمه الله في: تيسير الكريم الرحمن: ص٧٠٧.

تلك الحال مليم، والمليم: الذي فعل ما يلام عليه، فالملام في تلك الحال لا في حال نبذه بالعراء وهو سقيم[١]، فكانت حاله بعد قوله: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] أرفع من حاله قبل أن يكون ما كان، والاعتبار بكمال النهاية لا بما جرى في البداية، والأعمال بخواتيمها» اهـ[٢].

ولهذا جاء النهي في السنة المطهرة عن تفضيل أحد نفسه على يونس عليه السلام ظاناً أن ما في القرآن الكريم من قصته فيها حط من مرتبته. ففي الصحيح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه «قال ـ يعني الله تبارك وتعالى ـ: **لا ينبغي لعبد لي أن يقول: أنا خير من يونس بن متى** عليه السلام»[٣].

«وهذا اللفظ يدل على العموم، أي: لا ينبغي لأحد أن يفضل نفسه على يونس بن متى»[٤].

وفي رواية أخرى لأبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**من قال: أنا خير من يونس بن متى فقد كذب**»[٥].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ تعليقاً على هذا الحديث ـ: «فمن ظن أنه خير من يونس بحيث يعلم أنه ليس عليه أن يعترف بظلم نفسه،

---

(١) يشير إلى قوله تعالى: ﴿۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾ [الصافات: ١٤٥]. وهذه الآية من تكملات قصة يونس السابق ذكرها في الموضع الثاني.

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٠/ ٢٩٩.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه: ٤/ ١٨٤٦، برقم (٢٣٧٦). وأخرجه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ٦/ ٤٥١، برقم (٣٤١٦)، ولكن وقع عنده غير مضاف إلى الله تبارك وتعالى.

(٤) مقتبس من: شرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز: ١/ ١٦١.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ٨/ ٢٦٧، برقم (٤٦٠٤).

فهو كاذب، ولهذا كان سادات الخلائق لا يفضلون أنفسهم على يونس في هذا المقام[١]، بل يقولون كما قال أبوهم آدم[٢]، وخاتمهم محمد ﷺ[٣]» اهـ[٤].

وقد جاءت الإشارة إلى علة المنع من أن يظن أحد أنه خير من يونس عليه السلام فيما رواه علي رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**قال ـ يعني الله عز وجل ـ: ليس لعبد لي أن يقول: أنا خير من يونس بن متى، قد سبح الله عز وجل في الظلمات**»[٥].

فكان في هذا الحديث بيان للمعنى الذي من أجله منع أن يفضل أحد نفسه على يونس بن متى عليه السلام؛ لأنه سبح الله تعالى في الظلمات بقوله: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

٢ ـ تسبيح موسى عليه السلام لله تعالى:

جاء ذكر تسبيح نبي الله وكليمه موسى عليه السلام في موضعين:

الموضع الأول: في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ

---

(١) يعني مقام الاعتراف بظلم الإنسان نفسه.

(٢) يعني قول آدم عليه السلام فيما حكى الله تعالى: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

(٣) يعني ما ثبت في حديث علي رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ كان إذا قام إلى الصلاة قال: «**وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفا...**» إلخ، وفيه: «**أنت ربي وأنا عبدك، ظلمت نفسي واعترفت بذنبي فاغفر لي ذنوبي جميعاً، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت**» الحديث أخرجه مسلم في صحيحه: ١/ ٥٣٤ ـ ٥٣٦، برقم (٧٧١).

(٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٠/ ٢٥٤.

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه: ١١/ ٥٤٠، وأبو جعفر الطحاوي في شرح معاني الآثار: ٤/٣١٦، وفي شرح مشكل الآثار، تحقيق شعيب الأرنؤوط: ٣/٤٧، برقم (١٠١٣).

قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِىۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ [الأعراف: ١٤٣].

وفي هذه الآية بيان أن موسى عليه السلام طمع في رؤية ربه سبحانه حين كلمه من وراء حجاب، ولم يعنفه الله تعالى على ذلك؛ لأنه سأل ما يجوز(١)، ولكن الله عز وجل أراد أن يرى موسى عليه السلام من كمال عظمته وجلاله ما يعلم به أن القوة البشرية في هذه الدار الدنيا لا تثبت لرؤيته ومشاهدته عياناً(٢)، ولهذا قال له: ﴿لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِىۚ﴾، يعني أن الجبل ـ على صلابته وعظمته ـ لا يستقر مكانه إذا تجلى الله تعالى له، فكيف بالإنسان الضعيف؟!

وقد تبين ذلك لموسى عليه السلام حين رأى الجبل قد صار دكا عندما تجلى له ربه سبحانه أدنى تجل، وسقط موسى مغشياً عليه من هول ما رأى، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًاۚ﴾(٣).

ولما أفاق موسى عليه السلام من غشيته، وثاب إليه فهمه، قال: (سبحانك)، وهذا تسبيح من موسى عليه السلام لربه عز وجل، سبحه في ذلك الموقف الهائل الذي رأى فيه من عظمة ربه وجلاله ما يستدعي التسبيح تعظيماً له سبحانه، وتنزيهاً له عما لا يليق بكماله وعظمته، وعن أن يقوى أحد من الخلق على رؤيته عياناً في هذه الحياة الفانية(٤)، ولهذا

---

(١) انظر: مسألة سبحان، لنفطويه: ص٣٨.
(٢) انظر: مدارج السالكين، لابن القيم: ٣/ ٩٩.
(٣) انظر: تفسير الطبري: ٦/ ٥٣ ـ ٥٤، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٢/ ٢٥٥، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي: ص٣٠٢.
(٤) انظر: تفسير الطبري: ٦/ ٥٥، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي: ص٣٠٢.

قرن تسبيحه بقوله: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: تبت إليك من مسألتي إياك ما سألتك من الرؤية[١]، وأنا أول المؤمنين بأنه لا يراك أحد في الدنيا إلا مات[٢]. وقيل: أول المؤمنين من قومي بما توحيه إلي، كما أن سائر الأنبياء هم أول أقوامهم إيماناً بما يأتيهم من الوحي، ثم يبلغون فيؤمن من يؤمن، ويكفر من يكفر[٣].

الموضع الثاني: في قوله تعالى ـ حكاية عن موسى عليه السلام: ﴿وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾﴾ [طه: ٢٩ ـ ٣٥].

وهذا سؤال من موسى عليه السلام لربه سبحانه أن يجعل أخاه هارون عليه السلام وزيراً له يعينه، وشريكاً له في النبوة وتبليغ الرسالة، ثم ذكر عليه السلام الفائدة في ذلك فقال: ﴿كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾﴾[٤]، وفي هذا ما يدل على أن موسى وأخاه هارون عليهما السلام كانا يكثران من التسبيح والذكر لله عز وجل. كما أن في تقديم التسبيح على الذكر دليلاً على مزيد اهتمامهما بالتسبيح على وجه الخصوص، مع اهتمامهما بالذكر على وجه العموم[٥].

٣ ـ تسبيح داود عليه السلام لله تعالى:

جاء ذكر تسبيح نبي الله داود عليه السلام في ثلاثة مواضع في القرآن الكريم:

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ٦/ ٥٥.

(٢) انظر: الرد على الزنادقة والجهمية، للإمام أحمد بن حنبل ـ ضمن عقائد السلف ـ: ص٦٠، وتفسير الطبري: ٦/ ٥٥.

(٣) انظر: مسألة سبحان، لنفطويه: ص٣٨ ـ ٣٩.

(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن، للسعدي: ص٥٠٥.

(٥) انظر: ما يأتي بيانه في فضل التسبيح، في ص ٤٢٥.

الموضع الأول: في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٩].

وفي هذه الآية يخبر تعالى عما خص به نبيه داود ﷺ من العجائب الدالة على صدق نبوته وعلى عظمة الله تعالى، وهو تسخير الجبال والطير للتسبيح معه إذا سبح.

وذكر بعض المفسرين في معنى تسخير الجبال والطير للتسبيح مع داود ﷺ أنه هو جعلها بحيث تطيعه إذا أمرها بالتسبيح[١].

وذكر بعضهم في معنى ذلك أنه ﷺ كان إذا قرأ سمعه الله تعالى تسبيح الجبال والطير، لينشط في التسبيح ويشتاق إليه[٢].

والصواب في معناه: أنه ﷺ كان إذا سبح الله تعالى وأثنى عليه، سبحت بتسبيحه الجبال والطير، وجاوبته بالذكر والثناء على الله تبارك وتعالى[٣]. يدل على هذا المعنى الموضع الثاني الآتي.

الموضع الثاني: في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ﴾ [سبأ: ١٠].

وفي هذه الآية أخبر الله تعالى أنه أعطى داود ﷺ فضلاً، وهذا الفضل هو النبوة، والكتاب، والملك، والصوت الحسن، وتسخير الجبال والطير للتسبيح معه، وغير ذلك مما أنعم به تعالى عليه[٤]،

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ١١/ ٣٢٠.

(٢) انظر: تفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني: ٣/٣٩٦.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٣/١٩٦، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي: ص٥٢٨.

(٤) انظر: زاد المسير، لابن الجوزي: ٦/ ٤٣٥، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٣/ ٥٣٤، وتفسير أبي السعود: ٧/ ١٢٤.

ولهذا قال: ﴿فَضۡلًاۖ﴾ فجعله نكرة، للدلالة على التعظيم والتفخيم، كما أن قوله: ﴿مِنَّا﴾ لبيان شرف هذا الفضل بإضافته إلى الله تعالى، وأنه وحده المنعم به على عبده ورسوله داود عليه السلام[١].

ثم قال تعالى: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾، وهذا نداء منه تعالى للجبال[٢] وأمر لها بالتأويب مع داود عليه السلام، والتأويب: هو الترجيع[٣]، فـ ﴿أَوِّبِي﴾ بمعنى: رجعي[٤].

وأكثر المفسرين على أن معناه هنا: سبحي ورجعي التسبيح[٥]؛ لأنه متعلق بالظرف ﴿مَعَهُۥ﴾، والضمير فيه عائد إلى داود عليه السلام، فمعنى ﴿أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾ أي: سبحي معه إذا سبح، ورجعي معه التسبيح[٦].

وفي هذا دليل على أن داود عليه السلام كان يسبح الله تعالى، وكانت الجبال والطير تردد التسبيح معه بأمر الله تعالى وتسخيره[٧].

وقد ذكر بعض العلماء أن الله تعالى أعطى داود عليه السلام من الصوت الحسن الذي كان إذا سبح به سبحت معه الجبال الراسيات الصم الشامخات، ووقفت له الطيور السارحات الغاديات والرائحات، وتجاوبه بأنواع اللغات، وترجع بترجيعه التسبيح[٨].

---

(١) انظر: تفسير أبي السعود: ٧/ ١٢٤.
(٢) انظر: معاني القرآن وإعرابه، للزجاج: ٤/ ٢٤٣.
(٣) انظر: القاموس المحيط، للفيروزآبادي: مادة (أوب): ص٧٦.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٣/ ٥٣٤ ـ ٥٣٥.
(٥) انظر: تفسير الطبري: ١٠/ ٣٤٩ ـ ٣٥٠، وتفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني: ٤/ ٣١٩، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٣/ ٥٣٤.
(٦) انظر: تفسير الطبري: ١٠/ ٣٤٩، وزاد المسير، لابن الجوزي: ٦/ ٤٣٥، وأضواء البيان، للشيخ محمد الأمين الشنقيطي: ٣/ ١٥٥.
(٧) انظر: تيسير الكريم الرحمن، للسعدي: ٦٧٦.
(٨) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٣/ ٥٣٤، والبداية والنهاية، له: ٢/ ١٠ ـ ١١.

الموضع الثالث: في قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ۝١٧ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ۝١٨ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ۝١٩﴾ [ص: ١٧ ـ ١٩].

وهذا الموضع موافق للموضعين السابقين، وهنا وصف الله تعالى نبيه داود عليه السلام بوصفين عظيمين دالان على قوته في عبادة ربه سبحانه، وعزيمته في طاعته عز وجل:

أحدهما: أنه ذو الأيد، بمعنى: ذو القوة العظيمة على عبادة الله تعالى، في بدنه وقلبه، وذو البطش الشديد في ذات الله عز وجل[(١)].

والثاني: أنه أواب، بمعنى: مسبح لله تعالى، أو مطيع له، أو رجاع إليه في جميع الأمور بالإنابة والحب والتأله[(٢)].

ولا اختلاف بين هذه المعاني المذكورة، بل كلها معان صحيحة ومتلازمة. وفي هذه المواضع المذكورة دلالة واضحة على أن نبي الله ورسوله داود عليه السلام كان يكثر التسبيح لله تعالى والعبادة له، وعلى أن الله سبحانه قد أعطاه من الفضل والنعمة ما خصه به دون غيره من عباده، كتسخير الجبال والطير للتسبيح معه[(٣)].

وسيأتي ـ بإذن الله ـ كلام أيضاً على هذه الآيات السابقة، عند بيان تسبيح الكائنات كلها لله تعالى[(٤)].

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ١٠/ ٥٦١، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي: ص٧١١.
(٢) انظر: تفسير الطبري: ١٠/ ٥٦١ ـ ٥٦٢، وتيسير الكريم الرحمن: ص٧١١.
(٣) انظر: روح المعاني، للألوسي: ٢٣/ ١٧٤، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي: ص٦٧٦.
(٤) انظر: ص٣٣٥ ـ ٣٤١ من البحث.

٤ ـ تسبيح زكريا عليه السلام لله تعالى:

تسبيح نبي الله زكريا عليه السلام مذكور في ما حكى الله تعالى من دعائه عليه السلام بأن يهبه الله ولداً، وأن الله عز وجل بشره بالولد على لسان الملائكة، وتمام ذلك ما حكاه تعالى من قوله: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾﴾ [آل عمران: ٤١].

فذكر تعالى أن زكريا عليه السلام طلب منه أن يجعل له علامة يستدل بها على وجود الولد منه، فجعل الله تعالى علامة ذلك: أن ينحبس لسانه عن الكلام مع الناس من غير آفة ولا سوء، فلا يستطيع النطق إلا رمزاً، أي: إشارة(١).

ثم أمره الله تعالى بكثرة الذكر والتسبيح في هذه الحال، فقال: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾.

قال ابن عطية: «وقوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ﴾ معناه: قل: سبحان الله. وقال قوم: معناه: صل. والقول الأول أصوب؛ لأنه يناسب الذكر، ويستغرب مع امتناع الكلام مع الناس» اهـ(٢).

وفي هذا دليل على أنه عليه السلام كان يكثر من ذكر ربّه تعالى وتسبيحه، حتى في هذه الأيام الثلاثة التي كان عاجزاً فيها عن الكلام مع الناس، وهذا من الآيات العجيبة: أن يكون ممنوعاً من الكلام الذي يتعلق بالآدميين وخطابهم، وأما التسبيح والتهليل ونحوه، فغير ممنوع منه(٣).

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ١/ ٣٧٠، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي: ص١٣٠.

(٢) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ٣/ ٨١.

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، للسعدي: ص٤٩٠.

وقد أوضح الله تعالى ـ في موضع آخر ـ أن هذا التسبيح الذي أمر به نبيه زكريا عليه السلام قد أمر به زكريا قومه أيضاً، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾﴾ [مريم: ١١].

قال الحافظ ابن كثير: «﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ﴾ أي الذي بشر فيه بالولد ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ﴾ أي: أشار إشارة خفية سريعة ﴿أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ أي: موافقة له فيما أمر به في هذه الأيام الثلاثة زيادة على أعماله شكراً لله على ما أولاه» اهـ(١).

وبهذا يتبين اهتمام نبي الله زكريا عليه السلام بالتسبيح، وحثه لقومه على التسبيح.

٥ ـ تسبيح عيسى عليه السلام لله تعالى:

من تسبيح نبي الله عيسى عليه السلام لله تعالى ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾﴾ [المائدة: ١١٦].

وهذا تقريع وتوبيخ للنصارى الذين اتخذوا عيسى وأمه مريم إلهين من دون الله تعالى، وقالوا: إن الله ثالث ثلاثة. فيقول الله تعالى هذا الكلام لعيسى عليه السلام فيتبرأ عيسى منهم ومن مقولتهم الكفرية، وينزه الله تعالى عن ذلك بالتسبيح له(٢).

واختلف أهل العلم في ما ورد في هذه الآية: هل هو خبر عما

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ٣/ ١١٩.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٢/ ١٢٤، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي: ص٢٣٩.

مضى ـ كما هو ظاهر اللفظ ـ، أو هو خبر عما يستقبل، ولكن عبر عنه بالماضي لتحقق وقوعه؟ قولان:

اختار الأول منهما الإمام ابن جرير الطبري وأيده في تفسيره[١].

واختار جمهور أهل العلم القول الثاني، وهو أن الله تعالى يقول ذلك لعيسى عليه السلام يوم القيامة، لتقريع النصارى وتوبيخهم على رؤوس الأشهاد يوم القيامة؛ لأنهم ادعوا أن عيسى أمرهم باتخاذه إلهاً[٢].

ويؤيد هذا القول أن الله تعالى قال ـ بعد القصة ـ: ﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ الآية [المائدة: ١١٩]، وأن كثيراً من أمور يوم القيامة ذكر في القرآن بلفظ الماضي، ليدل على الوقوع والثبوت[٣].

والمقصود هنا: أن نبي الله عيسى عليه السلام بدأ جوابه بالتسبيح لله تعالى، وذلك لأمرين:

أحدهما: تنزيهاً لله تعالى عما أضيف إليه مما لا يليق به، وبراءة إليه سبحانه مما قالته الكفرة من النصارى فيه وفي أمه، فيعلم من كان يقول ذلك أنه إنما كان يقول باطلاً.

الثاني: تعظيماً لله تعالى وثناء عليه، وخضوعاً له وخوفاً منه، لا إله غيره ولا رب سواه[٤].

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ٥/ ١٣٧ ـ ١٣٨.

(٢) انظر: تفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني: ٢/ ٨٢، والمحرر الوجيز، لابن عطية: ٥/ ٢٣٩، وزاد المسير، لابن الجوزي: ٢/ ٤٦٣، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٦/ ٣٧٤، والبحر المحيط، لأبي حيان: ٤/ ٦٣، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٢/ ١٢٤.

(٣) انظر: تأويل مشكل القرآن، لابن قتيبة: ص٢٩٥، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٢/ ١٢٤.

(٤) انظر: تفسير الطبري: ٥/ ١٣٧ ـ ١٣٨، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٦/ ٣٧٥.

وفي بعض الآثار: أن عيسى عليه السلام أرعدت مفاصله لما سأله الله هذا السؤال، وخشي أن يكون قد قال، ولهذا قال: ﴿سُبْحَٰنَكَ . . .﴾ إلخ[١].

وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «**تلقى عيسى حجته ولقاه الله في قوله**: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؟ قال أبو هريرة ـ عن النبي صلى الله عليه وسلم ـ: **فلقاه الله**: ﴿سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ﴾ **الآية كلها**»[٢].

وقد ظهر في هذه الآية كمال أدب عيسى عليه السلام في خطابه لربه عز وجل، فلم يقل في جوابه: لم أقل شيئاً من ذلك، وإنما أخبر بكلام ينفي عن نفسه أن يقول مقالة تنافي منصبه الشريف، وأن هذا من الأمور المحالة، ونزه ربه عز وجل عن ذلك أتم تنزيه بالتسبيح له، ورد العلم إلى عالم الغيب والشهادة تبارك وتعالى[٣].

٦ ـ تسبيح خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم لله تعالى:

وأما نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فإن شواهد تسبيحه لربه تعالى أشهر من أن تذكر، وأكثر من أن تحصر.

فهو ـ عليه الصلاة والسلام ـ أفضل من سبح الله تعالى ونزه، وأبلغ من دعا إلى التسبيح ونوه.

وقد جاء إعلان ذلك في قول الله تعالى له: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ٥/ ١٣٧.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه: ٥/ ٢٤٣، برقم (٣٠٦٢)، وقال «هذا حديث صحيح».

(٣) انظر: مدارج السالكين، لابن القيم: ٢/ ٣٥٨، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي: ص٢٤٩.

إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف: ١٠٨].

فإن هذه الآية أمر له ﷺ بأن يخبر الناس جميعاً عن سبيله الذي يسلكه في حياته، وعن دعوته التي يدعو إليها الناس(١)، وقد جاء فيها التصريح بالتسبيح في قوله: ﴿وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ﴾، وهو معطوف على قوله: ﴿هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ﴾، بمعنى: قل: هذه سبيلي، وقل: سبحان الله(٢)، فهو أمر له ﷺ بالتسبيح.

ويصح أن يكون معطوفاً على قوله: ﴿أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾، بمعنى: أدعو إلى الله، وأسبح الله، فيكون (سبحان) اسم مصدر جاء بدلاً عن الفعل (أسبح)، للمبالغة، وتقديره: وأسبح الله سبحاناً(٣).

وعلى هذا التقدير فهو أمر له ﷺ بأن يخبر عن نفسه أنه يسبح الله تعالى. والتفسيران متطابقان في المعنى، لا اختلاف بينهما.

وهذا دليل على أن التسبيح من أهم وظائف النبي ﷺ قولاً واعتقاداً وعملاً.

وفي القرآن الكريم آيات كثيرة فيها أمر للنبي ﷺ بالتسبيح في حالات وأوقات مختلفة، منها:

• قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [الحجر: ٩٧ ـ ٩٩].

وفي هذه الآية تسلية للنبي ﷺ عن أقوال المشركين الكفرية التي

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٢/ ٥١٤.
(٢) انظر: تفسير الطبري: ٧/ ٣١٥، والبحر المحيط، لأبي حيان: ٥/ ٣٤٦.
(٣) انظر: تفسير التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٣/ ٦٦.

يضيق منها صدره ﷺ، وأمر له بأن يفزع إلى تسبيح ربه ﷻ مقروناً بحمده، وإلى الصلاة، لكشف ما نابه من الضيق والمكاره التي يلقاها من قومه المشركين[(١)].

وقد كان ﷺ «إذا حزبه[(٢)] أمر صلى»[(٣)]، والصلاة فيها تسبيح لله تعالى وحمد له، وتقرب إليه بالقول والفعل.

• وقوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ۝٥٨﴾ [الفرقان: ٥٨].

وفي هذه الآية أمر له ﷺ بالتوكل على الله تعالى الموصوف بالحياة الكاملة الدائمة التي لا موت معها أبداً، وبالتسبيح بحمده تعالى، فالتوكل يتعلق بالتفويض إليه، والثقة به، والاعتماد عليه في الأمور كلها[(٤)]، والتسبيح بحمده يتعلق بتعظيمه وتنزيهه عن كل ما لا يليق به من النقائص والتمثيل، وتمجيده بالحمد على ما يليق به من صفات الكمال وحسان الفعال.

• وقوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ۝٣٩ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَـٰرَ ٱلسُّجُودِ ۝٤٠﴾ [ق: ٣٩، ٤٠].

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ٧/ ٥٥٣، والمحرر الوجيز، لابن عطية: ١٠/ ١٥٤، وفتح القدير، للشوكاني: ٣/ ٢٠٤، وفتح البيان، للقنوجي: ٧/ ٢٠١.

(٢) حزبه الأمر: نابه، واشتد عليه، أو ضغطه. [القاموس المحيط، للفيروزآبادي: مادة (حزب): ص٩٤].

(٣) ورد من حديث حذيفة رضي الله عنه، أخرجه أبو داود في سننه: ٢/ ٧٨، برقم (١٣١٩)، وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود: ١/ ٢٤٥، برقم (١١٧١).

(٤) انظر: البحر المحيط، لأبي حيان: ٦/ ٤٦٥، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٣/ ٣٣٥.

وفي هاتين الآيتين أمر له ﷺ بالتسبيح في أوقات مخصوصة، كما سيأتي الكلام على ذلك ـ إن شاء الله ـ عند بيان المواضع التي يشرع فيها التسبيح[١].

• وقوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ۝٣﴾ [النصر: ١ ـ ٣].

وهذه السورة هي آخر سورة نزلت كاملة من القرآن، كما ثبت ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما[٢].

وقد فهم بعض الصحابة رضي الله عنهم من هذه السورة دنو أجل رسول الله ﷺ، وأن الله تعالى أمره فيها بالتسبيح والتحميد والاستغفار في هذه الحال ليختم عمله بذكر ربه وتعظيمه وتنزيهه واستغفاره، ويستعد للقاء ربه سبحانه بأفضل الأعمال[٣]. وكان رسول الله ﷺ خلقه القرآن، كما ثبت في الحديث عن عائشة رضي الله عنها[٤]، فكان في حياته مثالاً عالياً يحتذى، وقدوة حسنة تقتفي في كثرة التسبيح لله تعالى في جميع الأحوال والأوقات، كما يتجلى من الأحاديث الآتية:

أولاً: حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: «صليت مع النبي ﷺ ذات ليلة، فافتتح البقرة، فقلت: يركع عند المائة، ثم مضى، فقلت:

---

(١) انظر: ٢/ ٥٤ ـ ٥٥ من البحث.

(٢) انظر: صحيح مسلم: ٤/٢٣١٨، حديث رقم (٣٠٢٤). وانظر: فتح الباري، لابن حجر ٨/ ٧٣٤.

(٣) انظر: صحيح البخاري ـ مع الفتح ـ: ٨/ ٧٣٤ ـ ٧٣٥، حديث رقم (٤٩٠٧)، وتفسير الطبري: ١٢/ ٧٣٠ ـ ٧٣١، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي: ص٩٣٦.

(٤) جاء ذلك ضمن حديث طويل رواه مسلم في صحيحه: ١/ ٥١٣، برقم: ٧٤٦.

يصلي بها في ركعة، فمضى، فقلت: يركع بها، ثم افتتح النساء، فقرأها، ثم افتتح آل عمران، فقرأها. يقرأ مترسلاً، إذا مر بآية فيها تسبيح سبح، وإذا مر بسؤال سأل، وإذا مر بتعوذ تعوذ. ثم ركع، فجعل يقول: «**سبحان ربي العظيم**»، فكان ركوعه نحواً من قيامه. ثم قال: «**سمع الله لمن حمده**»، ثم قام طويلاً قريباً مما ركع. ثم سجد، فقال: «**سبحان ربي الأعلى**»، فكان سجوده قريباً من قيامه»(١).

فهذا الحديث فيه أنه ﷺ كان يسبح إذا قرأ آية فيها تسبيح، وأنه كان يسبح في ركوعه وسجوده قريباً من قيامه الذي قرأ فيه بالبقرة والنساء وآل عمران، مع أن قراءته كانت بترسل، مما يعني أنه كان يكرر التسبيح مرات يصعب ضبط عددها.

ثانياً: حديث ربيعة بن كعب(٢) رضي الله عنه قال: «كنت أبيت عند حجرة النبي ﷺ، فكنت أسمعه إذا قام من الليل يقول: «**سبحان الله رب العالمين**» الهوي(٣)، ثم يقول: «**سبحان الله وبحمده**» الهوي»(٤) ـ وفي رواية ـ قال: «كنت أخدم رسول الله ﷺ، وأقوم له في حوائجه نهاري أجمع، حتى يصلي رسول الله ﷺ العشاء الآخرة، فأجلس ببابه ـ إذا

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه: ١/ ٥٣٦ ـ ٥٣٧، برقم (٧٧٢)، وسبق طرفه الأول، في ص٧٢.

(٢) هو ربيعة بن كعب بن مالك الأسلمي، أبو فراس، المدني، صحابي، من أهل الصفة، وكان يخدم النبي ﷺ، وتوفي سنة (٧٣هـ)، رضي الله عنه: انظر: تقريب التهذيب، لابن حجر: ١/ ٢٤٣.

(٣) الهوي ـ بفتح الهاء، وتشديد الياء ـ: الحين الطويل من الزمان. وقيل: هو مختص بالليل [النهاية في غريب الحديث، لابن الأثير: ٥/ ٢٨٥].

(٤) أخرجه النسائي في سننه: ٣/ ٢٣٠ ـ ٢٣١، برقم (١٦١٧)، وابن ماجه في سننه: ٢/ ١٢٧٦، برقم (٣٨٧٩)، وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي: ١/ ٥٢٧، برقم (١٦١٧).

دخل بيته ـ أقول لعلها أن تحدث لرسول الله ﷺ حاجة، فما أزال أسمعه يقول رسول الله ﷺ: «**سبحان الله، سبحان الله، سبحان الله وبحمده**» حتى أمل، فأرجع أو تغلبني عيني فأرقد» الحديث[(١)].

وهذا الحديث يدل على أنه ﷺ كان يسبح في الليل كثيراً، في غير الصلاة أيضاً.

ثالثاً: حديث أم المؤمنين، أم سلمة[(٢)] رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ في آخر أمره ـ لا يقوم ولا يقعد، ولا يذهب ولا يجيء، إلا قال: «**سبحان الله وبحمده**». فقلت: يا رسول الله، إنك تكثر من (سبحان الله وبحمده)، لا تذهب ولا تجيء، ولا تقوم ولا تقعد، إلا قلت: (سبحان الله وبحمده). قال: «**إني أمرت بها**»، فقال: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ①﴾ إلى آخر السورة»[(٣)].

وهذا الحديث صريح في إكثار النبي ﷺ من التسبيح في جميع الحالات، وفي جميع الأوقات.

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده: ٤/٥٩، بلفظ أطول، والطبراني ـ بنحوه ـ في كتاب الدعاء: ٢/١١٥٨، برقم (٧٧٤) وله عنده طرق عديدة في المصدر نفسه: ٢/ ١١٥٥ ـ ١١٥٨، برقم (٧٦٦ ـ ٧٧٤).

(٢) هي هند بنت أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو القرشية المخزومية، أم سلمة، وأم المؤمنين، تزوجها رسول الله ﷺ سنة أربع من الهجرة ـ على المشهور ـ، وكانت من أجمل النساء، وتوفيت ما بين سنة (٥٩هـ)، وسنة (٦٢هـ) على خلاف، وكان عمرها أربعاً وثمانين سنة، وهي آخر أمهات المؤمنين وفاة، رضي الله عنهن جميعاً. انظر: تهذيب الأسماء واللغات، للنووي: ٢/٣٦١ ـ ٣٦٢، والبداية والنهاية، لابن كثير: ٨/٢١٧، والإصابة، لابن حجر: ٨/ ٢٢١ ـ ٢٢٥، وتقريب التهذيب، له: ٢/ ٥٣٠.

(٣) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره: ١٢/ ٧٣١، برقم (٣٨٢٤٨)، ورجال إسناده كلهم ثقات، ويشهد له حديث عائشة رضي الله عنها المذكور بعده.

رابعاً: حديث عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ يكثر من قول: «**سبحان الله وبحمده، أستغفر الله وأتوب إليه**». قالت: فقلت: يا رسول الله، أراك تكثر من قول: (سبحان الله وبحمده، أستغفر الله وأتوب إليه). فقال: «**خبرني ربي أني سأرى علامة في أمتي، فإذا رأيتها أكثرت من قول: (سبحان الله وبحمده، أستغفر الله وأتوب إليه))، فقد رأيتها**: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١﴾ - **فتح مكة** - ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝٣﴾»[١].

- وهذه الأحاديث المذكورة وغيرها من الأحاديث فيها دلالة واضحة على مقام خاتم النبيين محمد ﷺ في تسبيح الله تعالى، في الصلاة وخارج الصلاة، وفي جميع الأحوال والأوقات، وأنه كان - حقاً - أفضل من قام بهذه العبادة العظيمة كما ينبغي قولاً واعتقاداً وعملاً، تعظيماً لربه سبحانه وتنزيهاً له عن كل ما يليق به في ذاته وفي أسمائه وصفاته وفي أقواله وأفعاله. كما أنه ﷺ دعا أمته إلى التسبيح، ورغبهم فيه، وبين لهم فضائله وآثاره الحميدة، مما سيأتي بيانه في مواضع من هذا البحث، إن شاء الله تعالى.

□ ثانياً: تسبيح المؤمنين أتباع الأنبياء:

ولما كان التسبيح من هدي الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - الذي كثر تعبدهم لله تعالى به ودعوتهم الناس إليه، كان دأب عباد الله المؤمنين، وشغل أوليائه المتقين، اتباعاً لأنبياء الله المرسلين، وتمسكاً بهديهم المستبين.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه: ١/ ٣٥١، برقم (٤٨٤)، وسبقت الإشارة إليه عند الكلام على قرن التسبيح بالاستغفار، في ص٢٤٢.

وقد أخبر الله تعالى عن المؤمنين ومدحهم بتسبيحهم له في مواضع من القرآن الكريم، ومنها:

١ ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١)﴾ [آل عمران: ١٩٠ ـ ١٩١].

ففي هذا الموضع أخبر الله تعالى أن في خلق السموات والأرض آيات دالة على عظمة الخالق وكمال صفاته، لذوي العقول التامة الزكية التي تدرك الأشياء بحقائقها على جلياتها، وهم المؤمنون الموقنون بالله تعالى[١].

وإنما خصهم الله تعالى بذلك؛ لأنهم هم المنتفعون بها في معرفة خالقهم، والإيمان به، وبصفات كماله ونعوت جلاله[٢]، ولهذا فهم يذكرون الله تعالى في جميع أحوالهم، بسرائرهم وضمائرهم وألسنتهم[٣]، ويتفكرون في مخلوقات الله تعالى تفكراً يوصلهم إلى فهم ما فيها من الحكم الباهرة، والآيات الدالة على عظمة الخالق وقدرته وعلمه وحكمته واختياره ورحمته[٤]، فتلهج ألسنتهم ـ عندئذٍ بالتسبيح له ﷻ، تعظيماً وتنزيهاً له عن العبث وخلق الباطل، وعن كل نقص أو تمثيل، وهو قولهم: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ﴾[٥]. وقولهم: ﴿فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ دعاء قرنوا به تسبيحهم، كما سبق بيان ذلك عند

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ١/ ٤٤٧.
(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، للسعدي: ص١٦١.
(٣) انظر: تفسير الطبري: ٣/ ٥٥٠، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ١/ ٤٤٧.
(٤) انظر: المصدرين السابقين.
(٥) انظر: ص٢/ ٢٥١ ـ ٢٥٢ من هذا البحث.

الكلام على قرن التسبيح بالدعاء[١].

٢ ـ وقوله تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾﴾ [الإسراء: ١٠٧ ـ ١٠٩].

وهذا إخبار عن تسبيح مؤمني أهل الكتاب، ابتدأه تعالى بأمر نبيه ﷺ أن يقول للكفار المكذبين بالقرآن الكريم: ﴿ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟﴾ «وهذا من الله ﷻ على وجه التبكيت لهم والتهديد، لا على وجه التخيير»[٢]، «أي: سواء آمنتم به أم لا، فهو حق في نفسه، أنزله الله ونوه بذكره في سالف الأزمان في كتبه المنزلة على رسله»[٣].

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ يعني: «وإن تكفروا به، فإن الذين أوتوا العلم بالله وآياته من قبل نزوله من مؤمني أهل الكتابين إذا يتلى عليهم هذا القرآن يخرون تعظيماً له وتكريماً وعلماً منهم بأنه من عند الله لأذقانهم سجدا بالأرض»[٤].

وقيل: إن الضمير في قوله: (من قبله) يرجع إلى رسول الله ﷺ[٥]. وأن قوله: (إذا يتلى عليهم) يعني: ما أنزل إليهم من عند الله[٦].

والصواب أن المراد في ذلك كله القرآن؛ لأن هذه الآيات في

---

(١) انظر: ص٢٤٣.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن: ١٠/ ٣٤٠.
(٣) تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٧٢. (٤) تفسير الطبري: ٨/ ١٦٣.
(٥) انظر: المصدر السابق: ٨/ ١٦٤، وزاد المسير: ٥/ ٩٧.
(٦) انظر: المصدرين السابقين.

سياق ذكر القرآن الكريم، ولم يجر لغيره من الكتب ذكر فيصرف الكلام إليه[١].

ثم ذكر تعالى تسبيحهم له في قوله: ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ۝١٠٨﴾ أي: ويقول هؤلاء الذين أوتوا العلم من قبل نزول القرآن، إذا خروا للأذقان سجداً لله تعالى عند سماعهم القرآن يتلى عليهم: (سبحان ربنا)[٢]، وهذا تسبيح تنزيه لله تعالى عن تكذيب المكذبين بالقرآن[٣]، وتعظيم وتوقير له ﷻ على قدرته التامة وأنه لا يخلف الميعاد، ولهذا قالوا: (إن كان وعد ربنا لمفعولا)[٤].

لأن الله ﷻ وعد على ألسنة أنبيائه ورسله المتقدمين أن يبعث في آخر الزمان نبياً عظيم الشأن، يملأ الأرض نوراً وهدى، ويظهر دينه على الدين كله، وينشر دعوته في أقطار الأرض، وعلى رأس أمته تقوم الساعة[٥].

«وأهل الكتاب مجمعون على أن الله وعدهم بهذا النبي، فالسعداء منهم عرفوا الحق فآمنوا به واتبعوه. والأشقياء قالوا: نحن ننتظره، ولم يبعث بعد رسولاً. وأولئك لما سمعوا القرآن من الرسول عرفوه أنه الرسول الموعود، فخروا سجداً لله إيماناً به وبرسوله، وتصديقاً بوعده الذي أنجزه فرأوه عياناً، فقالوا: (سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا)»[٦].

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ٨/ ١٦٤ ـ ١٦٥.
(٢) انظر: المصدر السابق.
(٣) انظر: زاد المسير: ٥/ ٩٨.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٧٢.
(٥) انظر: مدارج السالكين، لابن القيم: ٣/ ١٢٣، وهداية الحيارى، له: ص٣٠٠ ـ ٣٠١.
(٦) مقتبس من: هداية الحيارى: ص: ٣٠١.

٣ ـ وقوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾﴾ [النور: ٣٦ ـ ٣٨].

وهذا تنويه بالمؤمنين لتسبيحهم لله تعالى، واعتنائهم به وبغيره من أنواع الذكر والعبادات، ووعد من الله لهم بالجزاء على ذلك وزيادتهم من فضله بلا حساب.

فقوله: (في بيوت) يعني بها المساجد التي هي بيوت الله[(١)].

وقيل: يعني بها البيوت كلها[(٢)]. والتحقيق أنها المساجد[(٣)]، لدلالة ما بعدها[(٤)].

وفي متعلق الجار والمجرور قولان:

أحدهما: أنه متعلق بقوله تعالى ـ في الآية قبلها ـ: ﴿كَمِشْكَوٰةٍ﴾ [النور: ٣٥]. والمعنى: مثل نوره كمشكاة فيها مصباح في بيوت[(٥)]، وذلك أن الله تعالى ضرب بالمشكاة مثلاً لقلب المؤمن وما فيه من الهدى والعلم، وذكر محلها وهي المساجد التي هي أحب البقاع إليه من الأرض، وهي بيوته التي يعبد فيها ويوحد[(٦)].

والثاني: أنه متعلق بـ (يسبح)، ويكون (فيها) تكريراً على التوكيد.

---

(١) انظر: تأويل مشكل القرآن، لابن قتيبة: ص٣٢٩، وتفسير الطبري: ٨/ ٣٢٩، وتفسير القرآن العظيم: ٣/ ٣٠٣، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي: ص٥٦٩.
(٢) انظر: تفسير الطبري: ٨/ ٣٣٠.
(٣) انظر: أضواء البيان: ٤/ ١١٦.
(٤) انظر: تفسير الطبري: ٨/ ٣٣٠.
(٥) انظر: معاني القرآن وإعرابه، للزجاج: ٤/ ٤٥، وتفسير الطبري: ٨/ ٣٢٩.
(٦) انظر: تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٣٠٣.

فيكون المعنى: يسبح لله رجال في بيوت أذن الله أن ترفع[١].

وقوله تعالى: (أذن الله أن ترفع) أي: أمر الله ووصى بأن ترفع[٢].

وفي معنى (أن ترفع) قولان:

أحدهما: أن معناها: أن تبنى[٣]، واختار الطبري هذا المعنى.

الثاني: أن معناها: أن تعظم[٤].

والأولى تفسيرها بالقولين معاً، فيدخل في رفعها بناؤها وعمارتها، وتطهيرها من الدنس والنجاسة والأذى، وصونها عن اللغو والأقوال والأفعال التي لا تليق فيها[٥].

وقوله تعالى: ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ معطوف على قوله: (أن ترفع)، أي: «وأذن لعباده أن يذكروا اسمه فيها»[٦]، و«يدخل في ذلك الصلاة كلها فرضها ونفلها، وقراءة القرآن، والتسبيح والتهليل وغيره من أنواع الذكر، وتعلم العلم وتعليمه والمذاكرة فيها، والاعتكاف، وغير ذلك من أنواع العبادات التي تفعل في المساجد»[٧].

ثم مدح الله تعالى عمارها بالعبادة، فقال: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ

---

(١) انظر: معاني القرآن، للفراء: ٢/ ٢٥٤، ومعاني القرآن وإعرابه، للزجاج: ٤/ ٤٥.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٣/ ٣٠٣، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي: ص٥٦٩.

(٣) انظر: معاني القرآن، للفراء: ٢/ ٢٥٤، ومعاني القرآن وإعرابه، للزجاج: ٤/ ٤٥، وتفسير الطبري: ٨/ ٣٣٠.

(٤) انظر: تفسير الطبري: ٨/ ٣٣٠.

(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٣٠٣ ـ ٣٠٥، وتيسير الكريم الرحمن: ص٥٦٩.

(٦) انظر: تفسير الطبري: ٨/ ٣٣٠.

(٧) تيسير الكريم الرحمن: ص٥٦٩.

﴿وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ﴾[(١)].

وعامة القراء قرأوا (يسبح) بكسر الباء الموحدة المشددة مبنياً للفاعل، وجعله فعلاً للرجال وخبراً عنهم، وترفع به الرجال على الفاعلية.

وبعض القراء قرأوا (يسبح) بفتح الباء الموحدة المشددة مبنياً للمفعول، وعلى هذه القراءة حذف فاعل (يسبح)، ويكون الوقف على قوله: (والآصال) وقفاً تاماً، وابتدأ بقوله: (رجال) وهو مفسر للفاعل المحذوف، كأنه لما قال: (يسبح له فيها)، قيل: ومن يسبح له فيها؟ قال: (رجال)، أي: يسبح له فيها رجال، فيكون رفع رجال ههنا بفعل مضمر، ويظهر بهذا اتفاق القراءتين في المعنى[(٢)].

والتسبيح المسند إلى الرجال في هذه الآية فسر بالصلاة[(٣)]، والصلاة تسمى تسبيحاً كما سبق[(٤)].

وفسر بالتسبيح بالقول، ويدخل فيه التسبيح في الصلاة وغيرها[(٥)].

وخص الوقتين ـ الغدو، وهو أول النهار، والآصال جمع أصيل، وهو آخر النهار ـ لشرفهما ولتيسير السير فيهما إلى الله تعالى[(٦)].

وقوله (رجال) «فيه إشعار بهممهم السامية، ونياتهم وعزائمهم

---

(١) انظر: المصدر السابق.
(٢) انظر: معاني القرآن، للفراء: ٢/ ٢٥٣، ومعاني القرآن وإعرابه، للزجاج: ٤/ ٤٥ ـ ٤٦، وتفسير الطبري: ٨/ ٣٣٠ ـ ٣٣١، وتفسير القرآن العظيم: ٣/ ٣٠٥، وأضواء البيان: ٤/ ١١٦.
(٣) انظر: تفسير الطبري: ٨/ ٣٣١، وتفسير القرآن العظيم: ٣/ ٣٠٥.
(٤) انظر: ما سبق في: ص٨٦.
(٥) انظر: تيسير الكريم الرحمن: ص٥٦٩.
(٦) انظر: المصدر السابق.

العالية التي بها صاروا عماراً للمساجد التي هي بيوت الله في أرضه، ومواطن عبادته وشكره وتوحيده وتنزيهه»[١].

ووصف الله هؤلاء الرجال الذين يسبحون له بالغدو والآصال بأنهم (لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة) أي: «لا تشغلهم الدنيا وزخرفها وزينتها وملاذ بيعها وربحها عن ذكر ربهم الذي هو خالقهم ورازقهم، والذي يعلمون أن الذي عنده هو خير لهم وأنفع مما بأيديهم؛ لأن ما عندهم ينفد وما عند الله باق»[٢]، ولهذا «جعلوا طاعة الله وعبادته غاية مرادهم ونهاية مقصدهم، فما حال بينهم وبينها رفضوه»[٣].

ووصفه تعالى إياهم بهذه الصفات على سبيل مدحهم والثناء عليهم يدل على أنها لا ينبغي التساهل فيها بحال؛ لأن ثناء الله على المتصف بها يدل على أن من أخل بها يستحق الذم الذي هو ضد الثناء، ويوضح ذلك أن الله نهى عن الإخلال بها نهياً جازماً في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾﴾ [المنافقون: ٩].

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَۚ﴾ الآية [الجمعة: ٩]، إلى غير ذلك من الآيات[٤].

وقوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾ ذكر فيه جل وعلا أن الرجال الذين يسبحون له في المساجد بالغدو والآصال

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٣٠٥ ـ ٣٠٦.
(٢) المصدر السابق: ٣/ ٣٠٦.
(٣) تيسير الكريم الرحمن: ص٥٦٩.
(٤) انظر: أضواء البيان: ٤/ ١١٦.

إلى آخر ما ذكر من صفاتهم، أنهم يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار، وهو يوم القيامة، لشدة فزعه، وعظمة أهواله، وإزعاجه للقلوب والأبدان، فلذلك خافوا ذلك اليوم فسهل عليهم العمل وترك ما يشغل عنه[١].

وقوله تعالى ـ في ختام الآيات ـ: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾﴾ اللام فيه متعلقة بقوله: (يسبح له فيها) وما بعده، يعني: أنهم يسبحون له في المساجد بالغدو والآصال، ولا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله، وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطاعوا ربهم مخافة عذابه يوم القيامة، كي يثيبهم الله يوم القيامة بأحسن أعمالهم التي عملوها في الدنيا، وهو ما تقربوا به إلى الله من الواجبات والمستحبات؛ لأن (أحسن) صيغة تفضيل، تدل على أن من أعمالهم حسناً لم يجزوه وهو المباح، فهم يعملون المباحات وغيرها، والثواب لا يكون إلا على العمل الصالح[٢].

ويزيدهم الله على ثوابه إياهم على أحسن أعمالهم التي عملوها في الدنيا من فضله، فيفضل عليهم من عنده بما أحب من كرامته لهم، والله يتفضل على من شاء من طوله وكرامته مما لم يستحقه بعمله ولم يبلغه بطاعته (بغير حساب)، وهذا كناية عن كثرته جداً[٣].

• وجاء التنويه أيضاً بتسبيح عباد الله المؤمنين في السنة النبوية،

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٣٠٧، وتيسير الكريم الرحمن: ص٥٦٩، وأضواء البيان: ٤/ ١٢٢.

(٢) انظر: تفسير الطبري: ٩/ ٣٣٣، وتيسير الكريم الرحمن: ص٥٦٩، وأضواء البيان: ٤/ ١٢٣.

(٣) انظر: تفسير الطبري: ٩/ ٣٣٣، وتيسير الكريم الرحمن: ص٥٦٩.

ومنه: حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«إن لله ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر، فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله تنادوا هلموا إلى حاجتكم، قال: فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا، قال: فيسألهم ربهم عز وجل ـ وهو أعلم منهم ـ: ما يقول عبادي؟ قال: تقول: يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك ويمجدونك. قال: فيقول: هل رأوني؟ قال: فيقولون: لا والله ما رأوك. قال: فيقول: كيف لو رأوني؟ قال: يقولون: لو رأوك كانوا أشد لك عبادة، وأشد لك تمجيداً، وأكثر لك تسبيحاً. قال: يقول: فما يسألوني؟ قال: يسألونك الجنة. قال: يقول: وهل رأوها؟ قال: يقولون: لا والله، يا رب ما رأوها. قال: فيقول: فكيف لو أنهم رأوها؟ قال: يقولون: لو أنهم رأوها كانوا أشد عليها حرصاً، وأشد لها طلباً، وأعظم فيها رغبة. قال: فمم يتعوذون؟ قال: يقولون: من النار. قال: يقول: وهل رأوها؟ قال: فيقولون: لا والله، يا رب ما رأوها. قال: يقول: فكيف لو رأوها؟ قال: يقولون: لو رأوها كانوا أشد منها فراراً، وأشد لها مخافة. قال: فيقول: فأشهدكم أني قد غفرت لهم. قال: يقول ملك من الملائكة: فيهم فلان ليس منهم، إنما جاء لحاجة. قال: هم الجلساء لا يشقى جليسهم»**[1].

وفي هذا الحديث النبوي الشريف ما يشير إلى أن العبد المؤمن يكون ـ أكثر لله تسبيحاً كلما كان أقوى بالله إيماناً وأشد به يقيناً، لقول الملائكة: «لو رأوك كانوا أشد لك عبادة، وأشد لك تمجيداً، وأكثر لك تسبيحاً»، وهذا القول صريح في أن رؤية الله عز وجل مقتضية لكثرة

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ١١/٢٠٨ ـ ٢٠٩، برقم (٦٤٠٨)، ومسلم في صحيحه: ٤/٢٠٦٩ ـ ٢٠٧٠، برقم (٢٦٨٩)، واللفظ للبخاري.

تسبيحه وشدة تمجيده وعبادته، ولهذا لا يبلغ العبد مرتبة الإحسان في الإسلام حتى يعبد الله كأنه يراه، كما قال رسول الله ﷺ «**الإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»[١].

وذكر بعض أهل العلم أن في خصوص سؤال الله الملائكة عن أهل الذكر الإشارة إلى قولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠] فكأنه قيل لهم: انظروا إلى ما حصل منهم من التسبيح والتقديس مع ما سلط عليهم من الشهوات ووساوس الشيطان، وكيف عالجوا ذلك وضاهوكم في التسبيح والتقديس[٢].

وقال بعضهم: إنه يؤخذ من هذا الحديث أن الذكر الحاصل من بني آدم أعلى وأشرف من الذكر الحاصل من الملائكة، لحصول ذكر الآدميين مع كثرة الشواغل ووجود الصوارف وصدوره في عالم الغيب، بخلاف الملائكة في ذلك كله[٣].

ـ ولقد ضرب سلفنا الصالح من الصحابة والتابعين وأتباعهم ـ رضي الله عنهم ورحمهم أجمعين ـ أروع الأمثلة وأسماها في كثرة تسبيحهم لله تعالى، ومن ذلك:

١ ـ تسبيح عثمان بن عفان رضي الله عنه:

قال حسان بن ثابت[٤] رضي الله عنه في رثائه لعثمان بعد مقتله:

---

(١) هو جزء من حديث جبريل الطويل، أخرجه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ١/ ١١٤، برقم (٥٠)، ومسلم في صحيحه: ١/ ٣٦ ـ ٣٨، برقم (٨).
(٢) انظر: فتح الباري، : للحافظ ابن حجر: ١١/ ٢١٣.
(٣) انظر: المصدر السابق: ١١/ ٢١٣.
(٤) هو حسان بن ثابت بن المنذر بن حرام الأنصاري الخزرجي ثم النجاري، =

«ضحوا بأشمط[١] عنوان السجود به   يقطع الليل تسبيحاً وقرآنا»[٢]

فيفهم من هذا البيت أن عثمان بن عفان رضي الله عنه كان كثير التسبيح والتلاوة في الليل.

٢ ـ تسبيح عبد الله بن مسعود رضي الله عنه:

فعن أبي وائل[٣] قال: «غدونا على عبد الله بن مسعود يوماً بعد ما صلينا الغداة، فسلمنا بالباب، فأذن لنا. قال: فمكثنا بالباب هنية. قال: فخرجت الجارية، فقالت: ألا تدخلون؟ فدخلنا، فإذا هو جالس يسبح، فقال: ما منعكم أن تدخلوا وقد أذن لكم؟ فقلنا: لا، إلا أنا ظننا أن بعض أهل البيت نائم. قال: ظننتم بآل ابن أم عبد[٤] غفلة؟ قال: ثم أقبل يسبح حتى ظن أن الشمس قد طلعت، فقال: يا جارية، انظري هل طلعت؟ فنظرت فإذا هي قد طلعت. فقال: الحمد لله الذي أقالنا[٥] يومنا هذا ولم

= أبو الوليد أو أبو عبد الرحمن، المدني، شاعر رسول الله ﷺ، وكان من أشعر العرب، وكان قديم الإسلام، قيل: عاش في الجاهلية ستين سنة، وفي الإسلام ستين سنة، وتوفي في خلافة معاوية وله مائة وعشرون سنة، رضي الله عنه. انظر: الإصابة: ٢/ ٦٢ ـ ٦٤، وتهذيب التهذيب: ٢/ ٢٤٧ ـ ٢٤٨.

(١) الأشمط: المختلط سواد شعره ببياض، وهي شمطاء، والجمع شمط. المعجم الوسيط: مادة شمط: ١/ ٤٩٤.

(٢) ذكره أبو عمر بن عبد البر في ترجمة عثمان بن عفان من كتابه «الاستيعاب»: ٣/ ١٠٤٩. هو في «ديوان حسان بن ثابت»: ١/ ٩٦.

(٣) هو شقيق بن سلمة الأسدي، أبو وائل الكوفي، مخضرم ثقة كثير الحديث، من أصحاب عبد الله بن مسعود، سكن الكوفة وكان من عبادها، وتوفي في خلافة عمر بن عبد العزيز، وله مائة سنة، رحمه الله. انظر: تهذيب التهذيب: ٤/ ٣٦١ ـ ٣٦٣، وتقريب التهذيب: ١/ ٣٤٥.

(٤) ابن أم عبد: هو عبد الله بن مسعود نفسه. وأم عبد هي كنية أمه رضي الله عنها.

(٥) يقال: أقال الله عثرتك، وأقالكها: أي صفح عنه وتجاوز. وانظر: القاموس =

يهلكنا بذنوبنا...» الأثر[١].

وفي هذه الرواية بيان لما كان يقوم به عبد الله بن مسعود ﵁ من التسبيح، من بعد صلاة الصبح إلى أن تطلع الشمس.

٣ ـ تسبيح أبي هريرة ﵁:

فعن عكرمة: «أن أبا هريرة ﵁ كان يسبح كل يوم اثنتي عشرة ألف تسبيحة، يقول: أسبح بقدر ذنبي»[٢]. وإذا كان هذا شأن أبي هريرة ﵁ في التسبيح، مع قلة ذنوبه وكثرة فضائله، فماذا يكون حال من دونه بمراحل؟!.

٤ ـ تسبيح خالد بن معدان[٣]:

فعن سلمة بن شبيب[٤] قال: «كان خالد بن معدان يسبح في اليوم أربعين ألف تسبيحة، سوى ما يقرأ من القرآن، فلما مات ووضع على سريره ليغسل، جعل بأصبعه كذا يحركها، يعني بالتسبيح»[٥].

= المحيط، للفيروزآبادي: مادة (قيل): ص١٣٥٩، والمعجم الوسيط: مادة (قال): ٢/ ٧٧٠.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه: ١/ ٥٦٤، برقم (٧٢٢).

(٢) ذكره الحافظ ابن حجر في ترجمة أبي هريرة من كتابه «الإصابة»: ٧/ ٤٤٢، وقال: أخرجه ابن سعد بسند صحيح.

(٣) هو خالد بن معدان بن أبي كريب الكلاعي، أبو عبد الله الشامي الحمصي، تابعي ثقة من فقهاء الشام بعد الصحابة، ومن خيار عباد الله، وقال: إنه أدرك سبعين من أصحاب النبي ﷺ، وتوفي وهو صائم، سنة (١٠٣هـ)، وقيل: بعدها، رحمه الله تعالى. انظر: سير أعلام النبلاء: ٤/ ٥٣٦ ـ ٥٤٠، وتهذيب التهذيب: ٣/ ١١٨ ـ ١٢٠.

(٤) هو سلمة بن شبيب النيسابوري، أبو عبد الرحمن الحجري المسمعي، نزيل مكة ومحدثها، كان صاحب سنة وجماعة متفقاً على إتقانه وصدقه، وتوفي بمكة سنة (٢٤٧هـ)، ﵀. انظر: تهذيب التهذيب: ٤/ ١٤٦ ـ ١٤٧.

(٥) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء»: ٥/ ٢١٠، وذكره الحافظ الذهبي في ترجمة =

٥ ـ تسبيح عمير بن هانئ[1]:

فعن مسلمة بن عمرو[2] قال: «كان عمير بن هانئ يصلي كل يوم ألف سجدة، ويسبح مائة ألف تسبيحة»[3].

وفي رواية عن سعيد بن عبد العزيز[4] قال: «قلت لعمير بن هانئ: لسانك لا يفتر عن ذكر الله، فكم تسبح كل يوم وليلة؟ قال: مائة ألف إلا أن تخطئ الأصابع»[5].

٦ ـ تسبيح شريح بن عبيد[6]:

فقد كان يقول: «ارتفع إليك ثغاء[7] التسبيح ـ ويروى: ثناء

= خالد بن معدان في «سير أعلام النبلاء»: ٤/ ٥٤٠، وقال: إسناده منقطع. قلت: يعني الانقطاع بين سلمة وخالد.

(١) هو عمير بن هانئ العنسي، أبو الوليد الدمشقي الداراني، تابعي ثقة إمام، يقال: إنه أدرك ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ، وذكر فيمن مات بين سنة مائة وعشر ومائة، رحمه الله. انظر: سير أعلام النبلاء: ٥/ ٤٢١، وتهذيب التهذيب: ٨/ ١٤٩ ـ ١٥١.

(٢) هو مسلمة بن عمرو الدمشقي الشامي، أبو عمرو، ذكره ابن حبان في الثقات، وقال أبو حاتم: مجهول. انظر: تهذيب التهذيب: ١٠/ ١٤٧.

(٣) رواه الترمذي في سننه: ٥/ ٤٤٨، برقم (٣٤١٥).

(٤) هو سعيد بن عبد العزيز بن أبي يحيى التنوخي، أبو محمد وأبو عبد العزيز الدمشقي، يقال: هو لأهل الشام كمالك لأهل المدينة في التقدم والفضل والفقه والأمانة، وتوفي سنة (١٦٧هـ)، رحمه الله. انظر: تهذيب التهذيب: ٤/ ٥٩ ـ ٦١.

(٥) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء»: ٥/ ١٥٧.

(٦) هو شريح بن عبيد بن شريح بن عبد بن عريب الحضرمي المقرائي، أبو الطيب وأبو الصواب الحمصي، تابعي ثقة من أهل حمص، توفي بعد المائة من الهجرة، رحمه الله. انظر: تهذيب التهذيب، لابن حجر: ٤/ ٣٢٨ ـ ٣٢٩، وتقريب التهذيب، له: ١/ ٣٣٦.

(٧) الثغاء ـ بالضم ـ: صوت الغنم والظباء وغيرها عند الولادة. وثغت ـ كدعت ـ: =

التسبيح ـ، وصعد إليك وقار التقديس، سبحانك ذا الجبروت، بيدك الملك والملكوت والمفاتيح والمقادير، وملكك الدنيا والآخرة، تعاليت وتجبرت في مجلس وقار كرسي عرشك، ترى كل عين وعين لا تراك، وتدرك كل شيء وشيء لا يدركك»[١].

٧ ـ تسبيح الحسن البصري:

فقد كان كثيراً ما يقول ـ إذا لم يحدث ولم يكن له شغل ـ: «سبحان الله العظيم»، فذكر ذلك لبعض فقهاء مكة، فقال: إن صاحبكم لفقيه، ما قالها أحد سبع مرات إلا بني له بيت في الجنة[٢].

٨ ـ تسبيح ابن سيرين[٣]:

فقد كان عامة كلامه: «سبحان الله العظيم، سبحان الله وبحمده»[٤].

ـ وبالجملة فتسبيح السلف الصالح لله تعالى مما لا يمكن حصره،

= صوتت. القاموس المحيط: مادة (ثغا): ص١٦٣٥.

(١) رواه أبو الشيخ في «العظمة»: ١/ ٣٩٧، برقم (١٠٧). وذكره ابن قيم الجوزية في «اجتماع الجيوش الإسلامية»: ص٢٦٩، وقال: رواه أبو الشيخ بإسناد صحيح. وكذا ذكره الذهبي في «العلو»، وصححه الألباني في «مختصر العلو»: ص١٢٩، برقم (١٠٠).

(٢) ذكره الحافظ ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» ٢/ ٥١٧.

(٣) هو محمد بن سيرين الأنصاري مولاهم، أبو بكر بن أبي عمرة البصري، مولى أنس بن مالك رضي الله عنه، كان ثقة ثبتاً، مأموناً عالياً، فقيهاً عابداً، إماماً ورعاً، كثير العلم، كبير القدر، وكان يحدث بالحديث على حروفه ولا يرى الرواية بالمعنى، وتوفي سنة (١١٠هـ)، رحمه الله تعالى. انظر: تهذيب التهذيب: ٩/ ٢١٤ ـ ٢١٧، وتقريب التهذيب: ٢/ ١٦٩.

(٤) ذكره الحافظ ابن رجب في «جامع العلوم والحكم»: ٢/ ٥١٧.

وهذه أمثلة منه تدل على شدة اجتهادهم في التسبيح خاصة، وفي سائر الأعمال الصالحة عامة.

❖ المطلب الرابع ❖

تسبيح الكائنات كلّها لله تعالى

ومن أنواع التّسبيح باعتبار الفاعل ما وقع في الكتاب والسنة من إسناد التّسبيح إلى أصناف الكائنات المختلفة، من الحيوانات والنباتات والجمادات، العاقلة وغير العاقلة، والناطقة وغير الناطقة، والنامية والجامدة، وكلّ ما يصدق عليه أنّه شيءٌ مما خلق الله في السموات أو في الأرض أو في ما بينهما من المخلوقات التي لا يُحيط بأنواعها ولا يُحصي عدَدَها إلا اللهُ الخالقُ القديرُ الذي أحاط بكلّ شيءٍ علماً، وأحصى كلّ شيءٍ عدداً.

ففي كتاب الله تعالى نحوُ ثلاث عشرةَ آية من إحدْى عشرةَ سورة[1] أُسند فيها التّسبيح إلى هذه الكائنات مجملةً في بعضها، ومفصّلةً في بعضها الآخر.

● فأما الآيات التي أُسند فيها التّسبيح إلى الكائنات مجملة، فهي:

١ ـ قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ①﴾ [الحديد: ١].

---

(١) هي: سورة الرعد، الآية: ١٣، وسورة الإسراء، الآية: ٤٤، وسورة الأنبياء، الآية: ٧٩، وسورة الأنبياء، الآية: ٧٩، وسورة النور، الآية: ٤١، وسورة سبأ، الآية: ١٠، وسورة ص، الآيتان: ١٨، ١٩، وسورة الحديد، الآية: ١، وسورة الحشر، الآيتان: ١، ٢٤، وسورة الصف، الآية: ١، وسورة الجمعة، الآية: ١، وسورة التغابن، الآية: ١.

٢ ـ وقوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١﴾ [الحشر: ١، والصف: ١].

٣ ـ وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢٤﴾ [الحشر: ٢٤].

٤ ـ وقوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١﴾ [الجمعة: ١].

٥ ـ وقوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١﴾ [التغابن: ١].

وفي هذه الآيات جميعها يخبر الله ﷻ أنّ ما في السموات وما في الأرض سبّح له ويسبّح له.

واللام في قوله: (لله) تقدّم بيان معناها عند الكلام على تعدية التّسبيح، وأنّها تحتمل أوجهاً، أظهرها أنّها للاختصاص، أي: أنّها تفيد كمال الإرادة من الفاعل المسبّح، وكمال الاستحقاق من الله المسبَّح تبارك وتعالى[(١)].

ولفظ (ما) الذي أسند إليه التّسبيح في هذه الآيات اسم موصول بمعنى الذي، ويستوي فيه المذكّر والمؤنّث، والمفرد والمثنّى والجمع، ويستعمل في غير العاقل غالباً، وفي العاقل قليلاً[(٢)]. وذكر المفسّرون أنّه ـ في هذه الآيات ـ متناول للعاقل وغير العاقل، بتغليب غير العاقل لكثرته[(٣)].

---

(١) انظر: ص٤٧ ـ ٤٩ من هذا البحث.
(٢) انظر: مفردات ألفاظ القرآن، للراغب: ص٧٨٤، والإتقان في علوم القرآن، للسيوطي: ١/ ٥٥٧.
(٣) انظر: أضواء البيان، للشيخ محمد الأمين الشنقيطي: ٥/ ٢٥٢.

كما ذكر المفسّرون وغيرهم أنّه من صيغ العموم[١]، فيكون إسناد التّسبيح إليه في هذه الآيات شاملاً لكلّ شيءٍ في نطاق السموات والأرض[٢]، فقوله: (ما في السموات) يعني كلَّ ما في السموات السبع من الملائكة وغيرهم، كالشمس والقمر والنجوم، وغير ذلك[٣]. وجاء لفظ (السموات) مجموعاً في جميع هذه الآيات؛ لأنّ المراد الإخبار عن تسبيح سكّانها على كثرتهم وتباين مراتبهم، فكان لا بدّ من جمع محلّهم[٤].

وقوله: (وما في الأرض) يعني كلَّ ما في الأرضين من الإنس والجنّ، والأنعام والدوابّ، والجبال والأشجار، والنبات والبحار، وغير ذلك[٥].

وكرّر ذكر (ما) مع (الأرض) في هذه الآيات ـ ما عدا آية سورة الحديد ـ لزيادة التقرير والتنبيه على استقلال كلّ من الفريقين (ما في السموات وما في الأرض) بالتّسبيح[٦].

وبالجملة فقد أخبر الله تعالى عن عظمته وجلاله وسعة سلطانه أنّ جميع ما في السموات وجميع ما في الأرض من المخلوقات على كثرة عددها واختلاف أنواعها ينَزّهه عما لا يليق بعظمته وجلاله وسلطانه،

---

(١) انظر: المصدر السابق: ٥/٢٦٨. (٢) انظر: المصدر نفسه والموضع.
(٣) انظر: تفسير الطبري: ١٢/٨٨، والنكت والعيون، للماوردي: ٥/٤٦٨، وتفسير السمرقندي: ٣/ ٣٢١، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ١٧/ ٢٣٥، وتفسير الخازن: ٤/ ٢٤٥.
(٤) انظر: بدائع الفوائد، لابن القيم: ١/ ١٢٧.
(٥) انظر: تفسير الطبري: ١٢/٨٨، وتفسير السمرقندي: ٣/ ٣٢١، وتفسير الخازن: ٤/ ٢٤٥.
(٦) انظر: تفسير أبي السعود: ٨/ ٢٢٤.

ويقدّسه ويمجدّه ويوحّده ﷻ[١].

وقد ختم الله ﷻ كلّ آية من الآيات السابقة ببعض أسمائه الحسنى الدالّة على صفاته العليا المقتضية لتسبيحه، فختم آية الحديد، وآيتي الحشر، وآية الصفّ، بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي: هو الغالب الذي لا يغلبه شيء، الحكيم الذي يضع الأمور في مواضعها، ويوقعها في مواقعها[٢]. فبعزّته قهر كلّ شيء فلا يمتنع عليه شيء، ولا يستعصي عليه مستعصٍ، وبحكمته أحسن كلّ شيء خلقه، فلا يخلق شيئاً عبثاً، ولا يَشرَع ما لا مصلحة فيه[٣]. ومن تمام عزته وحكمته براءتُه عن كلّ سوء وعيب ونقص، فإنّ ذلك ينافي العزّة التامّة والحكمة التامّة[٤].

وختم آية الجمعة بقوله تعالى: ﴿ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾، فذكر مع الاسمين السابقين اسمه الملك، واسمه القدّوس، وقد تقدّم الكلام على هذين الاسمين وبيان مناسبة قرن التّسبيح بهما[٥].

وختم آية التغابن بقوله تعالى: ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: أنه سبحانه المختصّ بالملك كلّه، والحمد كلّه، وكمال القدرة وعمومها.

فهذه الأوصاف العظيمة مما يدعو إلى تسبيحه وعبادته وحده لا شريك له[٦].

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٤/٣٥٣، وتفسير أبي السعود: ٨/ ٢٥٥، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي: ص٨٣٧.
(٢) انظر: أضواء البيان: ٥/٢٥٢.
(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن: ص٨٤٩، ٩٤٥.
(٤) انظر: شفاء العليل، لابن القيم: ٢/٦٦.
(٥) انظر: ص١١٦ ـ ١١٩، ٢٣٨ ـ ٢٣٩ من هذا البحث.
(٦) انظر: تيسير الكريم الرحمن، للسعدي: ص٨٦٢.

ـ وأما الآيات التي أسند فيها التّسبيح إلى الكائنات مفصّلة، فهي:

١ ـ قوله تعالى: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾ [الرعد: ١٣].

وهذه الآية سبق ذكرها في تسبيح الملائكة[١]، وذُكرتْ هنا بناءً على ما قيل في تفسير الرعد من أنّه: صوت اصطكاك الأجرام العلوية[٢]، أو ريح تختنق تحت السحاب فتصّاعد فيكون منه ذلك الصوت[٣]، وعليه فإنّما خصّ الرعد بالتسبيح لأنّه من أعظم الأصوات[٤].

٢ ـ قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٩].

وهذه الآية سبق ذكرها عند الكلام على تسبيح نبيّ الله داود عليه السلام[٥]، وفيها إسناد التّسبيح إلى الجبال والطير، فإنّ قوله ﴿يُسَبِّحْنَ﴾ جملة حاليّة من الجبال، أي: مسبّحات لله تعالى[٦].

وقوله: ﴿وَٱلطَّيْرَ﴾ معطوف على الجبال، أي: وسخّرنا الطير تسبّح مع داود[٧]. وقيل: هو مفعول معه، أي: وسخّرنا الجبال يسبّحن

(١) انظر: ص٢٨٥ من هذا البحث.

(٢) انظر: تفسير القرآن، لأبي المظفر: ٣/ ٨٤، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٢٤/ ٢٦٣ ـ ٢٦٤.

(٣) انظر: تفسير الطبري: ١/ ١٨٦، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ١/ ٢١٧.

(٤) انظر: زاد المسير، لابن الجوزي: ٤/ ٣١٤.

(٥) انظر: ص٣٠٤ من البحث.

(٦) انظر: البحر المحيط، لأبي حيان: ٦/ ٣٠٧، وتفسير النسفي: ٣/ ١٣١.

(٧) انظر: المصدرين السابقين، وأضواء البيان، للشنقيطي: ٣/ ١٥٥.

مع الطير[١].

وقدّم تعالى ذكر الجبال على الطير؛ لأنّ تسخيرها وتسبيحها أعجب وأدخل في الإعجاز؛ لأنّها جماد، بخلاف الطير، فإنّها حيوان لها صوت[٢].

ولهذا قال سبحانه: ﴿وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ أي: فاعلين هذه الأعاجيب من تسخير الجبال والطير لداود ﷺ، وتسبيحهنّ معه[٣]، ففي هذا القول تأكيد لما قبله، والموجب لذلك أن تسخير الجبال والطير وتسبيحهنّ أمر عجب خارق للعادة، مظنّة لأن يكذّب به الكفرة الجهلة[٤].

٣ ـ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ﴾ [سبأ: ١٠].

وهذه الآية كالتي قبلها، سبق ذكرها في تسبيح نبيّ الله داود ﷺ، وفيها أيضاً بيان تسبيح الجبال والطير لله تعالى، فإنّ قوله: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ﴾ أمر للجبال بترجيع التّسبيح مع داود ﷺ كما سبق[٥]. وقوله: ﴿وَٱلطَّيْرَ ۖ﴾ قرئ بالنصب، وفي إعرابه أوجه:

أحدها: أنّه معطوف على (فضلاً)، أي: ولقد آتينا داود منّا فضلاً والطيرَ، ويكون قوله: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ﴾ جملة معترضة[٦]. وهذا الوجه ليس بظاهر في معنى الآية.

---

(١) انظر: المصادر السابقة نفسها.

(٢) انظر: البحر المحيط: ٦/٣٠٨، وتفسير النسفي: ٣/١٣١، والبداية والنهاية، لابن كثير: ٦/٢٩٠.

(٣) انظر: البحر المحيط، لأبي حيان: ٦/٣٠٨.

(٤) انظر: أضواء البيان، للشيخ محمد الأمين الشنقيطي: ٣/١٥٦.

(٥) انظر: ص٣٠٤ ـ ٣٠٥ من البحث.

(٦) انظر: معاني القرآن وإعرابه، للزجاج: ٤/٢٤٣، وروح المعاني، للآلوسي: ٢٢/١١٤.

الثاني: أنّه معطوف على (جبال). وتوجيهه ـ كما قال ابن جرير الطبري ـ: «أن الطيرَ نوديتْ كما نوديتْ الجبالُ، فتكون منصوبة من أجل أنّها معطوفة على مرفوع بما لا يحسن إعادة رافعه عليه، فيكون كالمُصدَّر[١] عن جهته»[٢].

ووجّهه غيره بأنّ العطف هنا على محلّ (جبال)؛ لأنّ كلّ منادى منصوبٌ، ولكنّه إذا كان معرفةً غيرَ مضاف ولا شبيهاً به بُني على ما يرفع به في محلّ نصب[٣]. كأنّه قال: دعونا الجبالَ والطيرَ، فالطير معطوف على محلّ الجبال في الأصل[٤].

الثالث: أنّه مفعول معه، أي: أنّه نصب على معنى (مع)، كما تقول: قمت وزيداً، أي: قمت مع زيدٍ، فالمعنى هنا: يا جبال أوّبي معه مع الطير[٥].

وقد اعْتُرِض على هذا الوجه بأنّه يؤدّي إلى تكرار لفظ (مع).

وأجيب عنه بأنّهما معمولان متغايران، كلّ منهما باب على حدة[٦].

---

(١) أي كالمصروف عن وجهه، حيث عدل به عن الرفع إلى النصب؛ لأنّ حرف النداء لا يدخل على الاسم المحلّى بأل.

(٢) تفسير الطبري: ١٠/ ٣٥٠.

(٣) قال ابن مالك في الألفية:

«وابن المعرَّف المنادَى المفردا على الذي في رفعه قد عهدا»

ألفية ابن مالك في النحو والصرف: ص٤٩. وانظر: شرح ابن عقيل على ألفيّة ابن مالك: ٢/ ٢٥٨.

(٤) انظر: معاني القرآن وإعرابه، للزجاج: ٤/ ٢٤٣، وتفسير النسفي: ٣/ ٤٦٥، وروح المعاني، للآلوسي: ٢٢/ ١١٤.

(٥) انظر: معاني القرآن وإعرابه، للزجاج: ٤/ ٢٤٣.

(٦) انظر: روح المعاني: للآلوسي: ٢٢/ ١١٤.

الرابع: أنّه منصوب بفعل مقدّر مناسب، ثمّ اختلف في الفعل المقدّر: فقدّره بعضهم (سخّرنا)، أي: وسخّرنا له الطير[1].

وقدّره بعضهم (أمرنا)، أي: وأمرنا الطير أن تسبّح معه[2].

وقدّره بعضهم (نادينا)، أي: ونادينا الطير بمثل ذلك من ترجيع التّسبيح معه[3].

وقرئ: (والطيرُ) بالرفع، وفي إعرابه أوجه أيضاً:

أحدها: أنه معطوف على (جبال)، وإن لم يحسن نداؤها بحرف النداء الذي نوديتْ به الجبال[4].

وعند من يقول: إن (جبال) مبني على الضم في محل نصب، يكون العطف هنا على لفظ الجبال، تشبيهاً للحركة البنائية العارضة بالحركة الإعرابية[5].

الثاني: أنه مرفوع على البدل من منادًى محذوف، والتقدير: يا جبال ويا أيها الطير أوِّبي معه[6]، فالطير بدل من (أيّ)، المنادى.

الثالث: أنه معطوف على الضمير في (أوِّبي)، وهو ياء المخاطبة العائدة على الجبال، والمعنى: يا جبال رجِّعي التسبيحَ أنتِ والطيرُ[7].

---

(١) مجاز القرآن، لأبي عبيدة: ٢/ ١٤٣، وتفسير الطبري: ١٠/ ٣٥٠ ـ ٣٥١.
(٢) انظر: تفسير القرآن، لأبي المظفر: ٤/ ٣١٩.
(٣) انظر: أضواء البيان: ٣/ ١٥٥.
(٤) انظر: تفسير الطبري: ١٠/ ٣١٥ وانظر: الوجه الثاني في قراءة النصب.
(٥) انظر: تفسير النسفي: ٣/ ٤٦٥، وتفسير أبي السعود: ٧/ ١٢٤، وروح المعاني: ٢٢/ ١١٤.
(٦) انظر: معاني القرآن وإعرابه: ٤/ ٢٤٣.
(٧) انظر: تفسير الطبري: ١٠/ ٣٥١، ومعاني القرآن وإعرابه: ٤/ ٢٤٣، وروح المعاني: ٢٢/ ١١٤.

وهذه الأوجه الإعرابية المتعلقة بالقراءتين وإن اختلفت إعراباً، فهي متفقة معنى، غير أن بعضها أظهر في الدلالة على المعنى من بعض، فإن في كل وجه من الأوجه المذكورة بيان أن الطير مأمورة بمثل ما أمرت به الجبال من التأويب ـ وهو التسبيح ـ مع داود عليه السلام.

وقد أشار بعض المفسرين إلى ما في هذه الآية من العظمة الإلهية، حيث جعلت الجبال والطير بمنزلة العقلاء الذين إذا أمروا بالطاعة أطاعوا، وإذا دعوا أجابوا، إشعاراً بأنه ما من حيوان ولا جماد إلا هو منقاد لمشيئة الله تعالى[(١)].

٤ ـ قوله تعالى ـ في قصّة نبيّه داود عليه السلام ـ: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾﴾ [ص: ١٨، ١٩].

وأسند التّسبيح هنا أيضاً إلى الجبال والطير، كما في الآيتين السابقتين، ولكن قيّد تسبيح الجبال ـ هنا ـ بوقتي (العشي والإشراق) أي: بآخر النهار وأوّله[(٢)].

كما أخبر عن الطير بأنّها (محشورة) أي: مجموعة من كلّ ناحية[(٣)].

وقيل: محبوسة في الهواء[(٤)]. ولا اختلاف بين المعنيين، وذلك أنّ داود عليه السلام كان إذا سبّح الله تعالى جاوبته الجبال بالتسبيح، واجتمعت إليه الطير السابحة في الهواء، فسبّحت معه، فتكون محبوسة

---

(١) انظر: تفسير النسفي: ٣/ ٤٦٥.
(٢) انظر: تفسير الطبري: ١٠/ ٥٦٢، ومعاني القرآن وإعرابه، للزجاج: ٤/ ٣٢٤، والبداية والنهاية، لابن كثير: ٢/ ١٠.
(٣) انظر: تفسير الطبري: ١٠/ ٥٦٢، تفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني: ٤/ ٤٣٠، وتفسير النسفي: ٤/ ٥٦، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي: ص٧١١.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٤/ ٣٣.

باجتماعها[١]، ولهذا ختم الله تعالى الآية بقوله: ﴿كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾، وللمفسّرين أقوال في بيان المراد بذلك:

فقال بعضهم: يعني بالكلّ: كلّ الطير، وبالضمير في (له) داود ﷺ، و(أوّاب) بمعنى: مطيع رجّاع إلى طاعته وأمره، أي: كلّ الطير لداود مطيع رجّاع إلى طاعته وأمره بالتسبيح معه[٢].

وقال بعضهم: يعني بالكلّ: كلّ واحد من الجبال والطير، واللام في (له) تعليليّة، والضمير لداود ﷺ، و(أوّاب) بمعنى: مسبّح، أي: كلّ من الجبال والطير لأجل داود، أي: لأجل تسبيحه مسبّح رجّاع إلى التّسبيح؛ لأنّها كانت تسبّح لتسبيحه، ويرجّعن التّسبيح معه، فكلما سبّح داود ﷺ سبّحت الجبال والطير معه[٣].

ومِن القائلين بهذا التفسير مَن أشار إلى أنّ الأوّاب وضع موضع المسبّح؛ لأنّ الجبال والطير كانت ترجّع التّسبيح مع داود ﷺ، والمرجّع رجّاع؛ لأنّه يرجع إلى فعله رجوعاً بعد رجوع[٤].

أو لأنّ الأوّاب: هو التوّاب الكثير الرجوع إلى الله تعالى، ومن دأبه أن يُكثر ذكر الله تعالى، ويُديم تسبيحَه وتقديسه[٥].

وقال بعضهم: يعني بالكلّ: كلّ الطير، والضمير في (له) لله

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ١٠/ ٥٦٢، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٤/ ٣٣.

(٢) انظر: تفسير الطبري: ١٠/٥٦٣، وزاد المسير، لابن الجوزي: ٧/ ١١١، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٤/ ٣٣.

(٣) انظر: معاني القرآن وإعرابه، للزجاج: ٤/ ٣٢٤، وتفسير القرآن، لأبي المظفر: ٤/ ٤٣٠، وتفسير النسفي: ٤/ ٥٧، وروح المعاني، للألوسي: ٢٣/ ١٧٦.

(٤) انظر: روح المعاني: ٢٣ ١٧٦.

(٥) المصدر السابق نفسه، وتفسير النسفي: ٤/ ٥٧.

تعالى، و(أوّاب) بمعنى: مسبّح، أي: كلّ الطير لله تعالى مسبّح[١].

وعليه فقوله: (كلّ له أوّاب) استئناف مقرّر لمضمون قوله: (والطير محشورة)، مُصرّح بما فهم منه إجمالاً من تسبيح الطير[٢].

وذكر بعضهم نحو التفسير السابق، ولكنّه جعل المعنيّ بالكلّ: الجبال والطير، أي: كلّ من الجبال والطير لله تعالى مسبّح، وهذا التفسير موافق لقوله تعالى ـ في الآية السابقة ـ: ﴿يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾ [سبأ: ١٠]، فكلّ من الجبال والطير لله تعالى مسبّح أوّاب امتثالاً لذلك[٣].

وآخرون من المفسّرين جعلوا المعنيّ بالكلّ: داود عليه السلام، والجبال، والطير، أي: كلّ من داود والجبال والطير لله تعالى أوّاب، أي: مسبّح مرجّع للتسبيح[٤].

وهذه الأقوال وإن بدتْ متنوّعة، لكنّها ليست متعارضة، وأظهرها دلالة على معنى الآية ـ في نظري ـ التفسيران الأخيران، والله تعالى أعلم.

وقد ظهر في الآيات الثلاث المذكورة إسناد التّسبيح إلى الجبال وإلى الطير، كما ظهر في الآية المذكورة قبل هذه الآيات إسناد التّسبيح إلى الرعد، فهذا مما وقع في كتاب الله تعالى من إسناد التّسبيح إلى الكائنات مفصّلة.

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ١٠/ ٥٦٣، وزاد المسير: ٧/ ١١١.

(٢) انظر: تفسير أبي السعود: ٧/ ٢١٩، وروح المعاني: ٢٣/ ١٧٦.

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن: ص٧١١.

(٤) انظر: معاني القرآن وإعرابه، للزجاج: ٤/ ٣٢٤، وتفسير النسفي: ٤/ ٥٧، وروح المعاني: ٢٣/ ١٧٦.

وهناك آيتان أخريان أسند فيهما التّسبيح إلى الكائنات مجملة ومفصّلة، وهما:

١ ـ قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ [النور: ٤١].

ففي هذه الآية أخبر الله تعالى عن تسبيح جميع من في السماوات والأرض له على العموم، وعن تسبيح الطير له على الخصوص.

وقوله: (ألم تر) الهمزة فيه للتقرير، والرؤية: هي الرؤية القلبيّة المرادفة للعلم[١]، أي ألم تنظر بعين قلبك، فتعلم أنّ الله تعالى يسبّح له من في السموات والأرض[٢] والخطاب هنا للنبيّ ﷺ، والمراد به المكلّفين[٣].

وقوله: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فيه إسناد التّسبيح إلى (من)، وهي كـ (ما) في موصوليّتها، واستوائها في المذكّر والمؤنّث، والمفرد والمثنى والجمع. والغالب استعمالها في العاقل عكس (ما)[٤]، كما سبق[٥].

وقال المفسرون: إن (من) هنا عامة لكل شيء، العاقل وغير العاقل، لكنه لما اجتمع ذلك عبر عنه بـ (من) تغليباً لمن يعقل على ما لا يعقل[٦].

فيكون قوله: (من في السموات والأرض) متناولاً لجميع

---

(١) انظر: روح المعاني: ١٨/ ١٨٧. (٢) انظر: تفسير الطبري: ٩/ ٣٣٦.
(٣) انظر: روح المعاني: ١٨/ ١٨٧.
(٤) انظر: الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي: ١/ ٥٦٥.
(٥) انظر: ص٣٣٢ من هذا البحث.
(٦) انظر: المحرر الوجيز، لابن عطية: ١١/ ٣١٤ ـ ٣١٥، والبحر المحيط، لأبي حيان: ٦/ ٤٢٥.

الكائنات، من الملائكة، والإنس، والجن، والحيوانات، والجمادات[١].

وقوله: (والطير) معطوف على (من). وقيل: مرفوع بفعل مقدر، أي: ويسبح له الطير[٢]، والقولان في المعنى سواء، وهو إسناد التسبيح إلى الطير كما أسند إلى من في السموات والأرض. وأشار بعض المفسرين إلى أن تخصيص الطير بالذكر مع اندراجها في عموم (من في السموات والأرض) لعدم استمرار قرارها في الأرض؛ لأنها إذا طارت تكون بين السماء والأرض، فهي خارجة عن جملة من في السموات والأرض[٣].

وقوله: (صافات) حال من الطير، أي: باسطات أجنحتها في الهواء[٤]. والمعنى: أن الطير تسبح الله تعالى في حال طيرانها وبسطها أجنحتها في جو السماء[٥]. و«قد بين تعالى في غير هذا الموضع أن إمساكه الطير صافات أجنحتها في الهواء وقابضات لها من آيات قدرته، واستحقاقه العبادة وحده، وذلك في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ﴾ الآية [الملك: ١٩].

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [النحل: ٧٩]»[٦].

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ٩/ ٣٣٦، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٣/ ٣٠٨، وتيسير الكريم الرحمن: ص٥٧٠.

(٢) انظر: زاد المسير: ٦/ ٥١، والبحر المحيط: ٦/ ٤٢٥.

(٣) انظر: زاد المسير: ٦/ ٥١، وروح المعاني: ١٨/ ١٨٧.

(٤) انظر: المحرر الوجيز: ١١/ ٣١٥، وزاد المسير: ٦/ ٥١، والبحر المحيط: ٦/ ٤٢٥.

(٥) انظر: تفسير الطبري: ٩/ ٣٣٦.

(٦) مقتبس من: أضواء البيان: ٤/ ١٢٥.

وقوله: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ أي: كل من هذه المخلوقات المذكور المصرح به - كالطير -، والمندرج تحت عموم (من في السموات والأرض)، قد علم صلاته وتسبيحه[١].

وفي المعني بالضمير المستتر في (علم)، وبالضميرين في (صلاته وتسبيحه) ثلاثة أقوال للمفسرين:

القول الأول: أن الضمير المستتر الذي هو فاعل (علم) يعود إلى الله تعالى في قوله: (ألم تر أن الله يسبح له) الآية، والضميران في (صلاته وتسبيحه) يعودان إلى (كل). وعلى هذا فالمعنى: كل من هذه المخلوقات قد علم الله صلاة المصلي منها، وتسبيح المسبح منها[٢]. ويكون هذا إخباراً عن علم الله تعالى بعبادات كل المخلوقات، وإن لم يعلم العباد منها إلا ما أطلعهم الله عليه[٣].

وهذا القول هو الذي رجحه ابن جرير الطبري في تفسيره، وأبو إسحاق الزجاج في معاني القرآن وإعرابه.

القول الثاني: أن الضمير المستتر في (علم)، والضميرين في (صلاته وتسبيحه) جميعها يعود إلى (كل). وعليه فالمعنى: كل من هذه المخلوقات قد علم صلاة نفسه وتسبيح نفسه، أي: قد علم ما كلف من ذلك وألزمه، فهو يثابر عليه[٤].

---

(١) انظر: البحر المحيط، لأبي حيان: ٦/ ٤٢٥، وروح المعاني: ١٨/ ١٨٨، تيسير الكريم الرحمن: ص٥٧٠.

(٢) انظر: تفسير الطبري: ٩/ ٣٣٧، ومعاني القرآن وإعرابه، للزجاج: ٤/ ٤٨ - ٤٩، وأحكام القرآن، للجصاص: ٥/ ١٨٩، والمحرر الوجيز، لابن عطية: ١١/ ٣١٥، وزاد المسير، لابن الجوزي: ٦/ ٥١، وتيسير الكريم الرحمن: ص٥٧٠، وأضواء البيان: ٤/ ١٢٤.

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن: ص٥٧٠.

(٤) انظر: تفسير الطبري: ٩/ ٣٣٧، ومعاني القرآن وإعرابه، ٤/ ٤٨، والمحرر =

وعلى هذا المعنى يكون قوله: (كل قد علم صلاته وتسبيحه) استئنافاً «جيء به لبيان كمال عراقة كل واحد مما ذكر من الطير وما اندرج في عموم (من في السموات والأرض) في التنزيه، ورسوخ قدمه فيه بتمثيل حاله بحال من يعلم ما يصدر عنه من الأفاعيل، فيفعلها عن قصد ونية، لا عن اتفاق بلا روية»[١].

وهذا القول الثاني هو الذي رجحه الحافظ ابن كثير، فإنه لم يذكر في تفسير الآية غيره، حيث قال: «(كل قد علم صلاته وتسبيحه) أي: كل قد رشده إلى طريقته ومسلكه في عبادة الله ﷻ، ثم أخبر أنه عالم بجميع ذلك لا يخفى عليه من ذلك شيء، ولهذا قال: (والله عليم بما يفعلون)»[٢].

ورجح هذا القول أيضاً الشيخ عبد الرحمن السعدي قائلاً ـ في تفسير الآية ـ: «(كل) من هذه المخلوقات (قد علم صلاته وتسبيحه) أي: كل له صلاة وعبادة بحسب حاله اللائقة به، وقد ألهمه الله تلك الصلاة والتسبيح، إما بواسطة الرسل، كالجن والإنس والملائكة، وإما بإلهام منه تعالى، كسائر المخلوقات غير ذلك، وهذا الاحتمال أرجح، بدليل قوله: (والله عليم بما يفعلون)، أي: علم جميع أفعالها، فلم يخف عليه منها شيء، وسيجازيهم بذلك، فيكون على هذا قد جمع بين علمها[٣] بأعمالها، وذلك بتعليمه، وبين علمه

= الوجيز: ١١/ ٣١٥، وزاد المسير: ٦/ ٥٢، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٣/ ٣٠٨، وتيسير الكريم الرحمن: ص٥٧٠، وأضواء البيان: ٤/ ١٢٤.

(١) مقتبس من: روح المعاني: ١٨/ ١٨٨.

(٢) تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٣٠٨.

(٣) في الأصل المطبوع (علمه)، وعلق عليه المحقق في الهامش بقوله: «كذا في ب، وفي أ، علمها». وقد اخترت إثبات ما في «أ» حسب ما أشار إليه المحقق؛ لأنه الصواب ـ فيما يظهر لي ـ، فإن مقصود المؤلف بيان أن الله =

بأعمالهم المتضمن للجزاء»[١].

وكذلك رجحه الشيخ محمد الأمين الشنقيطي، وقال ـ في تقرير ذلك ـ: «قد قدمنا في سورة النحل في الكلام على قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ الآية [النحل: ٩٧] كلام الأصوليين في أن اللفظ إن احتمل التوكيد والتأسيس حمل على التأسيس، وبينا أمثلة لذلك من القرآن العظيم. وإذا علمت ذلك، فاعلم أن الأظهر ـ على مقتضى ما ذكرنا عن الأصوليين ـ أن يكون ضمير الفاعل المحذوف في قوله: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ راجعاً إلى قوله: (كل)، أي: كل من المصلين قد علم صلاة نفسه، وكل من المسبحين قد علم تسبيح نفسه، وعلى هذا القول فقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ تأسيس لا تأكيد، أما على القول بأن الضمير راجع إلى الله، أي: قد علم الله صلاته، يكون قوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ كالتكرار مع ذلك، فيكون من قبيل التوكيد اللفظي.

وقد علمت أن المقرر في الأصول أن الحمل على التأسيس أرجح من الحمل على التوكيد، كما تقدم إيضاحه» اهـ[٢].

القول الثالث: أن الضمير المستتر في (علم) يعود إلى (كل)، والضميران في (صلاته وتسبيحه) يعودان إلى الله تعالى. والمعنى: كل من هذه المخلوقات قد علم صلاة الله وتسبيحه اللذين أمر بهما وهدى إليهما، أي: علم أن ذلك لله تعالى وحده[٣].

= تعالى قد جمع بين علم المخلوقات بأعمالها، وبين علمه تعالى بأعمال المخلوقات، وهذا المقصود لا يظهر إلا بما أثبته، فليتأمل.

(١) تيسير الكريم الرحمن: ص٥٧٠.

(٢) أضواء البيان: ٤/ ١٢٤.

(٣) انظر: تفسير الطبري: ٩/ ٣٣٧، ومعاني القرآن وإعرابه، للزجاج: ٤/ ٤٩، =

وهذا القول ـ في نظري ـ ضعيف؛ لأن الإضافة في (صلاته وتسبيحه) ـ بناء عليه ـ تكون للمفعول، ومعلوم أن (صلاة) اسم مصدر فعل لازم، وهو (صلى، يصلي، صلاة)، فإضافته للمفعول مشكلة في المعنى، ويظهر أنه لضعفه قد أهمل ذكره بعض المحققين من المفسرين فيما تحتمله الآية من الأوجه.

أما القولان الأول والثاني فقويان، وأقواهما القول الثاني، كما تقدم في كلام العالمين المحققين السعدي والشنقيطي، والله تعالى أعلم.

وذكر بعض المفسرين في معنى قوله: (كل قد علم صلاته وتسبيحه) أن الصلاة لبني آدم، والتسبيح لما سواهم من الخلق، وهو مروي عن مجاهد[(١)].

وقد تضمن الكلام السابق بيان معنى قوله تعالى ـ في ختام هذه الآية ـ: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ﴾، وقال ابن جرير الطبري: «يقول تعالى ذكره: والله ذو علم بما يفعل كل مصل ومسبح منهم، لا يخفى عليه شيء من أفعالهم، طاعتها ومعصيتها، محيط بذلك كله، وهو مجازيهم على ذلك كله» اهـ[(٢)].

٢ ـ قوله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء: ٤٤].

= والمحرر الوجيز، لابن عطية: ١١/ ٣١٥، وزاد المسير، لابن الجوزي: ٦/ ٥٢، وروح المعاني: للألوسي: ١٨/ ١٨٨.

(١) انظر: تفسير الطبري: ٩/ ٣٣٦ ـ ٣٣٧، ، ومعاني القرآن وإعرابه: ٤/ ٤٨، والمحرر والوجيز: ١١/ ٣١٥.

(٢) تفسير الطبري: ٩/ ٣٣٧.

وفي هذه الآية أخبر الله تعالى عن تسبيح الكائنات له على التفصيل والإجمال.

فقوله: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ﴾ فيه إسناد التسبيح إلى السموات السبع، وجاء لفظ (السموات) في هذه الآية «مجموعة إخباراً بأنها تسبح له بذواتها وأنفسها على اختلاف عددها، وأكد هذا المعنى بوصفها بالعدد، ولم يقتصر على السماوات فقط، بل قال: (السبع)»[(١)].

وقوله: (والأرض) معطوف على (السموات السبع)، وفيه إسناد التسبيح إلى الأرض أي: وتسبح له الأرض بذاتها كما تسبح له السماوات السبع بذواتها.

وأشار بعض العلماء إلى أن إسناد التسبيح إلى السماوات والأرض هو بما في كل منهن من أفلاك وكواكب وبروج، أو جبال ووهاد وفجاج[(٢)].

وقوله: (ومن فيهن) معطوف على (السموات السبع والأرض)، والضمير فيه يعود إلى السموات والأرض، أي: ويسبح له من في السموات والأرض.

وذهب بعض المفسرين إلى أن (من) في هذه الآية قصد بها العقلاء، من الملائكة والإنس والجن[(٣)].

وجعلها ابن جرير الطبري خاصة في المؤمنين منهم، فقال: «(ومن فيهن) من المؤمنين به من الملائكة والإنس والجن»[(٤)].

---

(١) مقتبس من: بدائع الفوائد: ١/ ١٢٨.
(٢) انظر: أضواء البيان (التكملة): ٥/ ٢٦٨.
(٣) انظر: المحرر الوجيز، لابن عطية: ١٠/ ٣٠٠، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ١٠/ ٢٦٦.
(٤) انظر: تفسير الطبري: ٨/ ٨٤.

وكثير من المفسرين على أن (من) هنا عامة في جميع المخلوقات، العقلاء وغيرهم[(١)]، وعليه فقوله: (ومن فيهن) كقوله - في الآية السابقة -: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ [النور: ٤١]. و(من) وإن كانت للعاقل غالباً، فإنها تستعمل للعاقل وغيره في مواضع، منها: أن يجتمع غير العاقل مع العاقل في الحكم، فيغلب العاقل على غير العاقل لشرفه، كما قد تستعمل في هذه الحالة (ما)، تغليباً لغير العاقل على العاقل لكثرته[(٢)]، مثل قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الحشر: ١، والصف: ١].

وبهذا يكون إسناد التسبيح في قوله: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ شاملاً للسماوات والأرض بذواتهما، ولكل شيء فيهما، عاقل وغير عاقل[(٣)]، والله تعالى أعلم.

وقوله: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ (إن) هنا بمعنى «ما» النافية[(٤)]، و(من) حرف جر صلة. و(شيء) أعم العمومات، فيشمل السماوات والأرض، والملائكة والإنس والجن، والحيوانات والنباتات والجمادات، والشجر والحجر والمدر، والحي والميت، وكل مخلوق لله تعالى[(٥)]، وقد وصلت به (من) لتوكيد العموم[(٦)].

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ٨/ ٨٤، وتفسير السمرقندي: ٢/ ٢٧٠، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٣/ ٤٥، وأضواء البيان: ٥/ ٢٥١.

(٢) انظر: ص٣٣٢ و٣٤٢ من البحث.

(٣) انظر: أضواء البيان: ٥/ ٢٥١، ٢٦٨.

(٤) انظر: زاد المسير: ٥/ ٣٩.

(٥) انظر: تيسير الكريم الرحمن: ص٤٥٩، وأضواء البيان: ٥/ ٢٦٨.

(٦) انظر: مغني اللبيب، لابن هشام: ص٤٢٥.

و(إلا يسبح بحمده) إثبات للتسبيح للأشياء كلها. والمعنى: وما من شيء من المخلوقات إلا يسبح بحمد الله تعالى[١]، يعني تسبيحاً مقروناً بالحمد، على ما سبق بيانه في صيغة القران للتسبيح[٢].

وهذه الآية أكثر شمولاً، وأبلغ عموماً في إسناد التسبيح إلى الكائنات، فإنها تدل بمنطوقها أن كل ما يصدق عليه أنه شيء يسبح بحمد الله ﷻ، وتدل بمفهومها على عدم وجود شيء لا يسبح بحمد الله جل وعلا.

ولكن للمفسرين موقفان حيال هذا العموم الذي دلت عليه هذه الآية: فقد ذهب فريق منهم إلى أن الآية على عمومها، فكل شيء يسبح، حياً أو غير حي، نامياً، أو غير نام، باقياً على أصله أو متغيراً عنه[٣].

وذهب فريق آخر من المفسرين إلى أن الآية من قبيل العام المراد به الخاص[٤]. ثم اختلف هذا الفريق في الخاص المراد به على ثلاثة أقوال:

القول الأول: أنه كل شيء فيه الروح، يعنون كل شيء حي، وأما ما لا حياة فيه فلا يسبح، إنما يسبح ما كان فيه روح[٥].

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ٨/ ٨٤، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٣/ ٤٥.
(٢) انظر: ص١٩٣ من هذا البحث.
(٣) انظر: تفسير الطبري: ٨/ ٨٤ ـ ٨٥، ومعاني القرآن وإعرابه، للزجاج: ٣/ ٢٤٢، والنكت والعيون، للماوردي: ٣/ ٢٤٥، وتفسير القرآن، لأبي المظفر: ٣/ ٢٤٤، وتفسير البغوي: ٥/ ٩٦، والمحرر الوجيز، لابن عطية: ١٠/ ٣٠٠، وزاد المسير: ٥/ ٣٩، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ١٠/ ٢٦٦، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٣/ ٤٥.
(٤) انظر: المحرر الوجيز: ١٠/ ٣٠٠، وزاد المسير: ٥/ ٣٩.
(٥) انظر: تفسير الطبري: ٨/ ٨٥، والنكت والعيون: ٣/ ٢٤٥، وزاد المسير: ٥/ ٣٩، تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٤٦.

القول الثاني: أنه كل شيء حي ونام دون الجمادات، ومعنى هذا أن الحيوانات والنباتات هي التي تسبح، وأما الجمادات فلا تسبح[١].

واستدل بعضهم لهذا القول بما رواه ابن عباس رضي الله عنهما قال: «مر النبي ﷺ بقبرين، فقال: «**إنهما ليعذبان، وما يعذبان في كبير: أما أحدهما فكان لا يستتر من البول، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة**»، ثم أخذ جريدة رطبة فشقها نصفين، فغرز في كل قبر واحدة. قالوا: يا رسول الله، لم فعلت هذا؟ قال: «**لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا**»»[٢].

قال المستدلون بهذا الحديث على القول المذكور: إن قوله ﷺ: (ما لم ييبسا) إشارة إلى أنهما يسبحان ما داما رطبين، فإذا يبسا صارا جماداً، وانقطع تسبيحهما[٣].

ومعلوم أن الحديث ليس فيه تصريح بما قاله هؤلاء وإنما هو رأي قالوه احتمالاً، ومع الاحتمال لا يقوم الاستدلال.

القول الثالث: أنه كل شيء لم يغير عن حاله، فإذا تغير انقطع تسبيحه[٤].

ويعزى في هذا إلى المقدام بن معدي كرب[٥] قوله: «إن التراب

---

(١) انظر: المحرر الوجيز: ١٠/٣٠٠، وزاد المسير: ٥/٣٩، وتفسير البغوي: ٥/٩٦، والجامع لأحكام القرآن: ١٠/٢٦٦.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ١/٣٢٢، برقم (٢١٨)، ومسلم في صحيحه: ١/٢٤٠ ـ ٢٤١، برقم (٢٩٢).

(٣) انظر: تفسير السمرقندي: ٢/٢٧٠، وشرح صحيح مسلم، للنووي: ٣/٢٠٢، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ١٠/٢٦٦، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٣/٤٦.

(٤) انظر: تفسير السمرقندي: ٢/٢٧٠، وزاد المسير: ٥/٣٩.

(٥) هو المقدام بن معدي كرب بن عمرو بن يزيد بن معدي كرب، أبو كريمة، =

ليسبح ما لم يبتل، فإذا ابتل ترك التسبيح، وإن الخرزة تسبح ما لم ترفع من موضعها، فإذا رفعت تركت التسبيح، وإن الورقة لتسبح ما دامت على الشجرة، فإذا سقطت تركت التسبيح، وإن الثوب ليسبح ما دام جديداً، فإذا توسخ ترك التسبيح، وإن الماء يسبح ما دام جارياً فإذا ركد ترك التسبيح، وإن الوحش والطير تسبح إذا صاحت، فإذا سكنت تركت التسبيح»(١).

وهذه الأقوال ـ كما ترى ـ ليس على شيء منها دليل يجب المصير إليه، فلا يسوغ العدول عن عموم الآية لمجرد هذه الأقوال كائناً من كان قائلوها، لا سيما مع ما سبق بيانه من أن الآية جاءت بأبلغ صيغة دالة على العموم، يبعد في مثلها أن يكون من العام المراد به الخاص، اللهم إلا فيما يتعلق بجاحدي توحيد الله من الإنس والجن، هل هم داخلون في هذا العموم أو لا؟ وسيأتي الكلام فيه لاحقاً ـ في هذا المطلب ـ إن شاء الله تعالى.

وقد ذهب المحققون من المفسرين وغيرهم إلى أن الآية على عمومها في أن كل شيء يسبح بحمد الله تعالى(٢).

وقوله: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ استدراك عقب به تعالى الخبر

= وقيل: أبو يحيى، الكندي، صحابي، وفد على رسول الله ﷺ في وفد كندة، وعداده في أهل الشام، سكن حمص، وتوفي سنة سبع وثمانين من الهجرة، وعمره إحدى وتسعون سنة، رضي الله عنه. انظر: تهذيب الأسماء واللغات، للنووي: ٢/ ١١٢ ـ ١١٣، الإصابة، لابن حجر: ٦/ ٢٠٤.

(١) ذكره ابن الجوزي في: زاد المسير: ٥/ ٣٩، والبغوي في تفسيره: ٥/ ٩٦.

(٢) انظر: تفسير القرآن، لأبي المظفر: ٣/ ٢٤٤ ـ ٢٤٥، وشرح صحيح مسلم، للنووي: ٣/ ٢٠٢، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ١٠/ ٢٦٨، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٣/ ٤٥، وفتح القدير، للشوكاني: ٣/ ٣٢٦، وتيسير الكريم الرحمن، للشيخ عبد الرحمن السعدي: ص٤٥٩.

عن تسبيح الأشياء كلها بحمده، لما قد ينشأ عن هذا الخبر من استغراب تسبيح الأشياء غير العاقلة، من الحيوانات والجمادات، فبين سبحانه أن تسبيح هذه الأشياء مما لا يفقهه الناس، أي: لا يفهمونه ولا يعلمونه؛ لأنه بخلاف لغاتهم(١).

وفي هذا بيان أن تسبيح ما سوى ما يسبح بمثل ألسنة الناس من المخلوقات لا يفقهه إلا الخالق ﷻ، وإن شاء أن يعلم بعض خلقه ذلك التسبيح علمه، كما سبق في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ﴾ [الأنبياء: ٧٩]، وكما قال نبي الله سليمان عليه السلام فيما حكى الله تعالى عنه: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ﴾ [النمل: ١٦]، وكما سيأتي ذكره قريباً ـ إن شاء الله ـ من تسبيح الحصى في كف نبينا محمد ﷺ، وسماع بعض الصحابة رضي الله عنهم تسبيح الطعام، فهذا كله مما لا يفقهه الناس، ولكن شاء الله تعالى أن يعلمه من شاء من الناس، والله تعالى على كل شيء قدير.

وقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ أي: إنه تعالى لا يعاجل من عصاه بالعقوبة، بل يؤجله وينظره، فإن استمر على كفره وعناده أخذه أخذ عزيز مقتدر، وإن تاب إلى الله ورجع عن كفره وعصيانه ستر عليه ذنبه، وأعطاه الثواب الجزيل(٢).

وهذه الآيات التي سبق ذكرها في هذا المطلب أدلة صريحة على تسبيح الكائنات كلها لله ﷻ، وبعضها أدلة على تسبيح أصناف معينة من الكائنات، وهي: تسبيح الرعد، وتسبيح الجبال، وتسبيح الطير، وتسبيح السماوات السبع، وتسبيح الأرض.

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ٨/ ٨٥، وتفسير القرآن، لأبي المظفر: ٣/ ٢٤٤، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٣/ ٤٥، وأضواء البيان، للشيخ محمد الأمين الشنقيطي: ٥/ ٢٥١.

(٢) انظر: تفسير الطبري: ٨/ ٨٥، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٣/ ٤٦.

وفي سنة رسول الله ﷺ أحاديث عديدة أثبتت تسبيح الكائنات ﷺ تعالى موافقة لكتاب الله العزيز، ومن ذلك:

١ ـ تسبيح النمل:

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**قرصت نملة نبياً من الأنبياء فأمر بقرية النمل فأحرقت، فأوحى الله إليه: أفي أن قرصتك نملة أحرقت أمة من الأمم تسبح الله؟**»(١).

والشاهد في هذا الحديث قوله: (أفي أن قرصتك نملة أحرقت أمة من الأمم تسبح الله)، فإن فيه إسناد التسبيح إلى النمل، واعتبار النمل ـ وهي جمع النملة ـ أمة من الأمم، ويدل عليه قول الله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام: ٣٨].

وفي رواية عطاء(٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما ـ في تفسير هذه الآية ـ قال: «﴿إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ يريد: يعرفونني ويوحدونني ويسبحونني ويحمدونني»(٣). وقال ابن قتيبة: «﴿إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ أي: أصناف، وكل صنف من الدواب والطير مثل بني آدم في المعرفة بالله، وطلب الغذاء، وتوقي المهالك، والتماس الذرء، مع أشباه لهذا كثيرة» اهـ(٤).

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ٦/ ١٥٤، برقم (٣٠١٩)، ومسلم في صحيحه: ٤/ ١٧٥٩، برقم (٢٢٤١).

(٢) هو عطاء بن أبي رباح ـ بفتح الراء والموحدة ـ، واسم أبي رباح أسلم، أبو محمد، القرشي مولاهم، المكي، كان ثقة فقيهاً فاضلاً فصيحاً كثير العلم، قال الأوزاعي: مات عطاء يوم مات وهو أرضى أهل الأرض عند الناس، وكانت وفاته بمكة، سنة (١١٤هـ)، رحمه الله، انظر: تذكرة الحفاظ، للذهبي: ١/ ٩٨، وتقريب التهذيب، لابن حجر: ٢/ ٢٢.

(٣) ذكر ابن قيم الجوزية هذه الرواية في شفاء العليل: ١/ ٢٠٥.

(٤) تأويل مشكل القرآن: ص٤٤٥.

٢ ـ تسبيح الحصى:

عن أبي ذر رضي الله عنه قال: «كنت أتبع خلوات رسول الله ﷺ وأتعلم منه، فذهبت يوماً فإذا هو قد خرج، فاتبعته فجلس في موضع، فجلست عنده، فقال: «**يا أبا ذر، ما جاء بك؟**» قال: قلت: الله ورسوله. قال: فجاء أبو بكر فسلم وجلس عن يمين النبي ﷺ، ثم جاء عمر، فسلم وجلس عن يمين أبي بكر، ثم جاء عثمان، فسلم وجلس عن يمين عمر. قال: وبين يدي رسول الله ﷺ سبع حصيات، أو قال: تسع حصيات، فأخذهن في كفه ﷺ فسبحن في يده حتى سمعت لهن حنيناً كحنين النحل، ثم وضعهن فخرسن. ثم تناولهن فوضعهن في يد أبي بكر، فسبحن في يده حتى سمعت لهن حنيناً كحنين النحل، ثم وضعهن فخرسن. ثم تناولهن فوضعهن في يد عمر، فسبحن في يده حتى سمعت لهن حنيناً كحنين النحل، ثم وضعهن فخرسن. ثم تناولهن فوضعهن في يد عثمان، فسبحن في يده حتى سمعت لهن حنيناً كحنين النحل، ثم وضعهن فخرسن» الحديث(١).

وفي رواية أخرى عن أبي ذر رضي الله عنه قال: «إني لشاهد عند النبي ﷺ في حلقة، وفي يده حصى، فسبحن في يده، وفينا أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، فسمع تسبيحهن من في الحلقة، ثم دفعهن النبي إلى أبي بكر فسبحن مع أبي بكر، سمع تسبيحهن من في الحلقة، ثم دفعهن إلى

---

(١) أخرجه البزار في «البحر الزخار المعروف بمسند البزار»: ٩/ ٤٣١ ـ ٤٣٢، برقم (٤٠٤٠)، و٩/ ٤٣٤، برقم (٤٠٤٤). والبيهقي في «دلائل النبوة»: ٦/ ٦٤ ـ ٦٥، وابن أبي عاصم في السنة: ص٥٢٩، برقم (١١٤٦)، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة: ٢/ ٨٠٦، برقم (١٤٨٥)، وذكره الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية: ٦/ ١٣٨ ـ ١٣٩. والحديث صححه الألباني في ظلال الجنة في تخريج السنة لابن أبي عاصم: ص٥٢٩، برقم (١١٤٦).

النبي ﷺ، فسبحن في يده، ثم دفعهن النبي ﷺ إلى عمر فسبحن في يده، وسمع تسبيحهن من في الحلقة، ثم دفعهن النبي ﷺ إلى عثمان بن عفان، فسبحن في يده، ثم دفعهن إلينا فلم يسبحن مع أحد منا»[١].

ولا شك أن تسبيح الحصى في كف رسول الله ﷺ، وفي كف أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم هو من الآيات التي أعطيها الرسول ﷺ[٢]، وهو أعجب من تسبيح الجبال الذي أعطيه داود عليه السلام، فإن صدور التسبيح من الحصى الصغار الصم التي لا تجاويف فيها أعجب من صدور ذلك من الجبال، لما فيها من التجاويف والكهوف، فإنها وما شاكلها تردد صدى الأصوات العالية غالباً[٣].

٣ ـ تسبيح الطعام:

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «كنا نعد الآيات[٤] بركة وأنتم تعدونها تخويفاً، كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فقل الماء، فقال: «**اطلبوا فضلة من ماء**»، فجاؤوا بإناء فيه ماء قليل، فأدخل يده في الإناء، ثم قال: «**حي على الطهور المبارك، والبركة من الله**»، فلقد رأيت الماء ينبع من بين أصابع رسول الله ﷺ، وكنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل»[٥].

---

(١) أخرجه الطبراني في «المعجم الأوسط»: ٢/ ٥٩، برقم (١٢٤٤)، وأبو نعيم في دلائل النبوة: ٢/ ٤٣١ ـ ٤٣٢، برقم (٣٣٨).

(٢) انظر: الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، لابن تيمية: ص٢٩٢.

(٣) انظر: البداية والنهاية، لابن كثير: ٦/ ٢٩٠.

(٤) يريد بالآيات هنا: الأمور الخارقة للعادات [فتح الباري، لابن حجر: ٦/ ٥٩١]. وقد اصطلح المتأخرون على تسمية ما وقع منها للأنبياء بالمعجزات، وما وقع منها للمؤمنين بالكرامات.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه: مع الفتح ـ ٦/ ٥٨٧، برقم (٣٥٧٩).

والشاهد هنا في قوله: «وكنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل».

ويعني بذلك في عهد رسول الله ﷺ، كما وقع التصريح به في رواية أخرى لهذا الحديث، جاء فيها أنه رضي الله عنه قال: «كنا نأكل مع النبي ﷺ الطعام، ونحن نسمع تسبيح الطعام»[١].

فتسبيح الطعام أيضاً من الآيات التي أعطيها النبي ﷺ.

وهذه الأحاديث السابقة صريحة في إسناد التسبيح إلى هذه الكائنات المذكورة فيها، وهي: النمل، والحصى، والطعام.

وفي حكايات الصالحين ما يستأنس به أيضاً في تسبيح الكائنات، مثل ما روي أن أبا الدرداء[٢]، وسلمان الفارسي[٣] رضي الله عنهما، كانا يأكلان في صحفة، فسبحت الصحفة وما فيها، أو بما فيها. وكان أبو الدرداء إذا كتب إلى سلمان، أو كتب سلمان إلى أبي الدرداء، كتب إليه: بآية الصحفة[٤].

---

(١) هذه الرواية عند الإسماعيلي، أوردها الحافظ ابن حجر في فتح الباري: ٦/ ٥٩٢.

(٢) هو عويمر، وقيل: عامر، وعويمر لقب. واختلف في اسم أبيه أيضاً، وهو أنصاري خزرجي، اشتهر بكنيته أبي الدرداء، صحابي جليل، شهد أحداً فما بعدها، وولي قضاء دمشق في خلافة عثمان، وكان فقيهاً عابداً، وحكيماً زاهداً، وتوفي بدمشق، سنة (٣٢هـ)، رضي الله عنه. انظر: تهذيب الأسماء واللغات: ٢/ ٢٢٨، والإصابة: ٤/ ٧٤٧ ـ ٧٤٨.

(٣) هو الصحابي المشهور، يقال له: سلمان ابن الإسلام، وسلمان الخير، أصله من أصبهان، وقيل: من رامهرمز، وكان أول مشاهده الخندق، وشهد بقية المشاهد بعد ذلك، وولي إمرة المدائن، وكان عالماً زاهداً، وتوفي سنة(٣٤هـ)، وقيل: بعد ذلك، رضي الله عنه. انظر: الإصابة، لابن حجر: ٣/ ١٤١ ـ ١٤٢، وتقريب التهذيب، له: ١/ ٣٠٦.

(٤) رواه البيهقي في «دلائل النبوة»: ٦/ ٦٣، وأبو نعيم في «حلية الأولياء»: =

ومثل ما روي أن مطرف بن عبد الله بن الشخير[١] كان إذا دخل بيته سبحت معه آنيته[٢].

وما ثبت من هذه الحكايات فهو معدود في كرامات الأولياء التي تحصل للمؤمنين ببركة اتباع رسول الله ﷺ، ولهذا فهي - في الحقيقة - تدخل في معجزات الرسول ﷺ، كتسبيح الحصى في كفه عليه الصلاة والسلام، وتسبيح الطعام بين يديه ﷺ.

ويتبين بما سبق ذكره في هذا المطلب أن الأدلة من الكتاب والسنة والآثار متضافرة - بما لا يدع مجالاً للشك والتردد - على تسبيح الكائنات كلها لله تعالى تسبيحاً حقيقياً بلسان المقال، فضلاً عن لسان الحال الذي هو دلالتها - بظهور آثار الصنعة الإلهية فيها - على عظمة خالقها وكماله وتنزهه عن العيوب والنقائص والشركاء والأنداد.

ولكن الذي يستغرب له أنه مع تنوع الأدلة ووضوحها في هذا الباب، فإن أصحاب التفسير وغيرهم من المؤلفين قد اختلفوا في التسبيح المسند إلى الكائنات: هل هو بلسان المقال، أو بلسان الحال؟

فذهب قوم إلى أن ما جاء في القرآن من تسبيح ما في السماوات

= ١/ ٢٢٤، وذكره شيخ الإسلام ابن تيمية في الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان: ص٣٠٢.

(١) هو مطرف بن عبد الله بن الشخير العامري الحرشي، أبو عبد الله البصري، أحد أئمة التابعين، كان ثقة عابداً فاضلاً، وكان مجاب الدعوة، وتوفي سنة (٩٥هـ)، رحمه الله. انظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي: ٤/ ١٨٧ - ١٩٥، وتقريب التهذيب، لابن حجر العسقلاني: ٢/ ٢٦٠.

(٢) رواه الإمام أحمد في الزهد: ص٢٤١، وأبو الشيخ في العظمة ٥/ ١٧٣١، برقم (١٢٠١)، وذكره ابن الجوزي في صفة الصفوة: ٣/ ٢٢٢، وشيخ الإسلام ابن تيمية في الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان: ص٣١٨.

والأرض لله تعالى، ومن تسبيح كل شيء لله تعالى، محمول على التسبيح المجازي، أي: على التسبيح بلسان الحال، لا بلسان المقال.

إلا أن منهم من خص ذلك بتسبيح غير العقلاء من الكائنات، فقال: إن تسبيح العقلاء ـ وهم: الملائكة، والإنس، والجن ـ حقيقي بلسان المقال، وتسبيح غير العقلاء ـ من الحيوانات والنباتات والجمادات ـ مجازي بلسان الحال[١].

ومنهم من خصه بتسبيح غير الحيوان، فقال: إن تسبيح الحيوان ـ ناطقاً كان أو غير ناطق ـ حقيقي، أما الناطق فمعلوم، وأما غير الناطق فيمكن التسبيح منه بصوته. وغير الحيوان كالجمادات تسبيحه مجازي بلسان الحال[٢].

وأبى بعضهم هذا التخصيص ـ بنوعيه ـ، فقالوا: ينبغي حمل التسبيح المسند إلى الكائنات على المجاز[٣]، وعدم التفريق فيه بين

---

(١) انظر: البحر المحيط، لأبي حيان: ٦/ ٣٨، وأضواء البيان (تتمته): ٥/ ٢٦٩.

(٢) انظر: المحرر الوجيز، لابن عطية: ١٥/ ٣٩٧، وزاد المسير، لابن الجوزي: ٥/ ٤٠، والبحر المحيط: ٨/ ٢١٦.

(٣) المجاز ـ عند أهله ـ : اسم لما أريد به غير ما وضع له لمناسبة بينهما، وهو مفعل بمعنى فاعل، من (جاز) إذا تعدى. سمي به لأنه جاوز وتعدى عن محله الموضوع له إلى غيره.

انظر: التعريفات، للجرجاني: ص٢٥٧ ـ ٢٥٩.

والمجاز اصطلاح حادث، لم يكن معروفاً لدى العلماء في القرون المفضلة، وقد اختلف العلماء المتأخرون في أصل وقوعه، فذهب جمع من المحققين إلى أنه ليس لاستعماله أصل في اللغة.

ولقد كان القول بالمجاز ذريعة لأهل الأهواء في تحريف نصوص الكتاب والسنة، ونفي صفات الكمال عن الله تعالى، ولذلك اعتنى بعض العلماء الأثبات ببيان بطلانه لغة وشرعاً وعقلاً.

وانظر في ذلك: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٧/ ٨٧ ـ ١١٩، =

العاقل وغير العاقل، أو بين الحيوان وغير الحيوان، لئلا يكون جمعاً بين المجاز والحقيقة(١) بلفظ واحد(٢).

وسلك آخرون منهم مسلك الجمع، فقالوا: إن العاقل يسبح بوجهين: بلسان المقال، وبلسان الحال. وغير العاقل إنما يسبح بلسان الحال، لاستحالة تسبيحه بلسان المقال، فيكون التسبيح بلسان الحال قدراً مشتركاً بين الكائنات(٣).

ثم اختلف هؤلاء القوم في التعبير عن التسبيح المجازي، أو التسبيح بلسان الحال الذي أثبتوه للكائنات، بعد اتفاقهم على نفي التسبيح الحقيقي عنها، أو عن بعضها.

فقال بعضهم: تسبيح الكائنات هو آثار الصنعة فيها، أي: كونها دلائل شاهدة بلطيف تركيبها، وعجيب هيئاتها، على خالقها، وعلى كمال قدرته ووحدانيته وعظمته، وأنه منزه عما لا يليق به، فهذا بمنزلة التسبيح منها، كأنها تنطق بذلك(٤).

= ومختصر الصواعق المرسلة، لابن القيم، اختصار الشيخ محمد بن الموصلي: ٢/ ٢٣١ ـ ٢٩٤، ومنع جواز المجاز في المنزل للتعبد والإعجاز، للشيخ محمد الأمين الشنقيطي ـ وهو مؤلف خاص لإبطال المجاز.

(١) الحقيقة: فعيلة من: حق الشيء، إذا ثبت، والتاء فيه للنقل من الوصفية إلى الاسمية. ومعناه: اللفظ المستعمل فيما وضع له في اصطلاح التخاطب، وهو ضد المجاز.

وانظر: التعريفات، للجرجاني: ص١٢١، والكليات، لأبي البقاء الكفوي: ص٣٦١ ـ ٣٦٣.

(٢) انظر: البحر المحيط: ٦/ ٣٨.

(٣) انظر: التفسير الكبير، للفخر الرازي: ٢٠/ ٢١٨، والبحر المحيط: ٦/ ٤٢٥.

(٤) انظر: معاني القرآن وإعرابه، للزجاج: ٢/ ٢٤٢، و٥/ ١٢١، وتفسير السمرقندي: ٢/ ٢٧٠، و٣/ ٣٢١، وتفسير القرآن، لأبي المظفر: ٣/ ٢٤٤، =

وقال بعضهم: تسبيح الكائنات هو كونها سبباً داعياً إلى التسبيح، أي: أن ما يظهر فيها من آثار الصنعة يوجب على من رآه تسبيح الله تعالى وتقديسه[١].

وقال فريق آخر: تسبيح الكائنات هو خضوعها وخشوعها لله جل وعلا[٢].

وهذه الأقوال كلها تشترك في استبعاد صدور التسبيح عن الكائنات غير العاقلة أو غير الحية على وجه الحقيقة بلسان المقال، وتقرير تسبيحها على وجه المجاز بلسان الحال.

وهذا الاستبعاد ناتج عن تحكيم الحس والعقل في كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ، فإنهم لما لم يشاهدوا ذلك في الواقع، ولم تتصوره عقولهم، نفوا أن يكون تسبيح هذه الكائنات بالنطق والكلام، وحملوه على التسبيح بالحال والدلالة.

وهذا نفسه منهج أهل الكلام في آيات الصفات وأحاديثها، لما ساء فهمهم لها، وتصوروها على غير وجهها، حرفوها عن مواضعها، وأولوها على خلاف ظاهرها، بشبه واهية، ودعاوى باطلة.

ولهذا تجد أن الذين أكثروا الكلام في تسبيح الكائنات، وادعوا أنه تسبيح حال لا تسبيح مقال، هم من رؤوس أهل الكلام المبتدع

= و٥/ ٢٦٤، وزاد المسير، لابن الجوزي: ٥/ ٤٠، ونور المسرى، لأبي شامة: ص٣٩، ٤٢، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ١٠/ ٢٦٦، والبحر المحيط، لأبي حيان: ٦/ ٣٨، ٤٢٥.

(١) انظر: النكت والعيون، للماوردي: ٣/ ٢٤٥، و٥/ ٤٦٨، والمحرر الوجيز، لابن عطية: ١٠/ ٣٠٠، و١١/ ٣١٤، و١٥/ ٣٩٧، وزاد المسير: ٥/ ٤٠، ونور المسرى: ص٤٠، وفتح الباري، للحافظ ابن حجر: ٦/ ٣٥٩.

(٢) انظر: تفسير السمرقندي: ٣/ ٣٢١، وزاد المسير: ٥/ ٤٠.

ـ كابن حزم[١] في فصله[٢]، والزمخشري[٣] في كشافه[٤]، والفخر الرازي[٥] في مفاتيحه[٦] ـ، أو ممن تأثر بهم من المؤلفين في التفسير وغيره.

---

(١) هو علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الفارسيّ الأصل الأندلسي القرطبي، أبو محمد، اليزيدي مولى الأمير يزيد ابن أبي سفيان بن حرب الأموي المعروف بيزيد الخير، رزق ذكاء مفرطاً وذهناً سيالاً، ومهر أولاً في الأدب والأخبار والمنطق والفلسفة، فأثرت فيه تأثيراً ليته سلم من ذلك، وكان أيضاً رأساً في الفقه، متبحراً في النقل، ومن تناقضاته أنه كان في الفقه ظاهرياً مفرطاً، وفي العقيدة جهمياً جلداً، وله تصانيف كثيرة في فنون عديدة، وتوفي سنة (٤٥٦هـ). انظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي: ١٨/ ١٨٤ ـ ٢١٢.

(٢) الفصل في الملل والأهواء والنحل: ١/١٥٣ ـ ١٥٩.

(٣) هو محمود بن عمر بن محمد بن عمر الخوارزمي، أبو القاسم الزمخشري، شيخ العربية والاعتزال، وصاحب المؤلفات العديدة في التفسير، وغريب الحديث، واللغة، والنحو. كان في غاية المعرفة بفنون البلاغة وتصرف الكلام، وكان يظهر مذهب الاعتزال ويصرح بذلك في تفسيره (الكشاف)، وكانت وفاته سنة (٥٣٨هـ). انظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي: ٢٠/ ١٥١ ـ ١٥٦، والبداية والنهاية، لابن كثير: ١٣/ ٢٣٥، ولسان الميزان، لابن حجر العسقلاني: ٦/ ٤.

(٤) الكشاف، بتحقيق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، والشيخ علي محمد معوض: ٣/ ٥٢٢.

(٥) هو محمد بن عمر بن الحسن القرشي، التيمي، البكري، الطبرستاني، المعروف بالفخر الرازي، وبابن خطيب الري، ولد سنة (٥٤٤هـ)، وكان أحد أئمة الأشاعرة الذين مزجوا المذهب بالاعتزال والفلسفة، وله تصانيف عديدة منتشرة. وقال الذهبي: «قد بدت منه في تواليفه بلايا وعظائم وانحرافات عن السنة، والله يعفو عنه، فإنه توفي على طريقة حميدة، والله يتولى السرائر». وكانت وفاته سنة (٦٠٦هـ). انظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي: ٢١/ ٥٠٠ ـ ٥٠١، والبداية والنهاية، لابن كثير: ١٣/ ٦٠ ـ ٦١، ولسان الميزان، لابن حجر: ٤/٤٢٦ ـ ٤٢٩.

(٦) مفاتيح الغيب (التفسير الكبير): ٢٠/٢١٨ ـ ٢٢٠.

وقد رد المحققون من العلماء من المفسرين وغيرهم على مقالة هؤلاء في حمل تسبيح الكائنات على المجاز، وبينوا بطلانها، ورجحوا أن تسبيح الكائنات تسبيح حقيقي بلسان المقال، وذلك لأدلة كثيرة، هي:

أولاً: أن ظاهر الكتاب والسنة يدل على أن التسبيح فعل لهذه الكائنات التي أسند إليها التسبيح في الآيات والأحاديث(١)، وأن تسبيحها عبادة تعبدت بها(٢). «والقاعدة المقررة عند العلماء: أن نصوص الكتاب والسنة لا يجوز صرفها عن ظاهرها المتبادر منها إلا بدليل يجب الرجوع إليه»(٣).

وكون هذه الكائنات دلائل شاهدة على خالقها ليس فيه إسناد فعل إليها، إنما هو كونها مفعولة للرب جل وعلا، وهذا معنى ثابت فيها لازم لها، يتعلق بربوبية الرب لها. وأما كونها مسبحة فيتعلق بتأهلها وعبادتها للرب ﷻ، فهذا غير هذا(٤).

ثانياً: أن قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤] نص في أن تسبيح الكائنات تسبيح غير مفقوه للبشر، وفيه الرد الصريح على من زعم أن تسبيحها هو دلالتها على عظمة خالقها؛ لأن تلك الدلالة يفقهها كل العقلاء، كما صرح الله تعالى بذلك في قوله: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤]، وأمثال ذلك من الآيات كثيرة في القرآن(٥).

---

(١) انظر: جامع الرسائل، لابن تيمية: ١/٤٤.
(٢) انظر: تهذيب اللغة، للأزهري: ٤/٣٤٠.
(٣) مقتبس من: أضواء البيان: ٣/١٥٦.
(٤) انظر: جامع الرسائل، لابن تيمية: ١/٤٤.
(٥) انظر: أضواء البيان: ٥/٢٥١ ـ ٢٥٢.

والذين زعموا أن تسبيح الكائنات هو دلالتها على عظمة خالقها زعموا أن قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ خطاب للكفار، أي: ولكنكم أيها الكفار لا تفقهون أثر الصنعة في هذه المخلوقات(١)؛ لأنكم لم تستوضحوا الدلالة منها على الخالق(٢)، ولم تستدلوا بمشاهدتهما على تعظيم الله(٣).

وهذا التفسير ليس صحيحاً؛ لأنه مبني على الزعم المذكور، وهو فاسد الاعتبار، لما سبق ولما يأتي من الأدلة، ولأنه يمكن القول بأن الكفار استدلوا بأثر الصنعة في هذه المخلوقات على وجود الخالق، وإن لم يوحدوه بالألوهية.

ثالثاً: أن ما أخبر الله تعالى به من تسخير الجبال مع داود يسبحن والطير، ومن أمر الجبال بالتأويب معه والطير، دليل على أن تسبيح هذه المخلوقات تسبيح حقيقي بلسان المقال، ولو كان تسبيحها معه تسبيح دلالة كما يقولون، لما كان لداود عليه السلام خصوصية على غيره(٤).

رابعاً: أن الله تعالى قد أثبت للكائنات غير العاقلة إدراكاً وتمييزاً، فأثبت لها الخشية في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ وَإِنَّ مِنْهَا

---

(١) انظر: معاني القرآن وإعرابه، للزجاج: ٣/ ٢٤٢، والفصل في الملل والأهواء والنحل، لابن حزم: ١/ ١٥٤.

(٢) انظر: الكشاف، للزمخشري: ٣/ ٥٢٢، ونور المسرى، لأبي شامة: ص٤٣.

(٣) انظر: تفسير القرآن، لأبي المظفر: ٣/ ٢٤٥.

(٤) انظر: معاني القرآن وإعرابه، للزجاج: ٥/ ١٢١، وتهذيب اللغة، للأزهري: ٤/ ٣٤٠، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ١٠/ ٢٦٨، وأضواء البيان (التتمة): ٥/ ٢٦٩.

لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾ [البقرة: ٧٤].

وأثبت لها الإباء والإشفاق في قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ [الأحزاب: ٧٢].

وأثبت لها النطق في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [النمل: ١٨].

وهناك آيات أخرى نحو هذه، وليس تسبيح هذه الكائنات بلسان المقال بأعجب مما أخبر الله تعالى عنها في هذه الآيات ونحوها، فكل ذلك مما يعلمه الله ﷻ ولا يعلمه الناس[(١)].

خامساً: أنه ليس لدى من زعم أن تسبيح الكائنات هو دلالتها على عظمة خالقها حجة سوى استبعاد حصول النطق والإدراك من هذه الكائنات، لكون العقل والحس لم يشهد بذلك[(٢)]. وهذه حجة داحضة؛ لأن عدم شهادة العقل والحس بحصول النطق والإدراك من هذه الكائنات ليس دليلاً على عدم حصول ذلك في الواقع، وإنما هو دليل على عجز العقل والحس وقصورهما عن علم ما لم يعلم الله الناس إياه، ومصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥] ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

وهنا مفرق الطرق بين عقل المؤمن وعقل المنكر، فعقل المؤمن

---

(١) انظر: أضواء البيان: ٣/ ١٥٥ ـ ١٥٦، و٤/ ١٢٥. و(التتمة): ٥/ ٢٦٩ ـ ٢٧٣.

(٢) انظر: الفصل، لابن حزم: ١/ ١٥٤ ـ ١٥٦.

يفرق بين كون الشيء مستحيلاً في ذاته لا يمكن تحققه، وبين عجز العقل عن العلم به، وعقل المنكر يجعل معرفته بالشيء دليلاً على وجوده، كما يتخذ من جهله بالشيء دليلاً على عدمه، وهذا هو عين الجهل[١].

فمدافعة تسبيح الكائنات على الحقيقة بلسان المقال ليست من العقل ولا من الإيمان في شيء.

سادساً: أن عدداً من أهل العلم قد نصوا على أن القول بأن تسبيح الكائنات تسبيح حقيقي بلسان المقال هو أشهر القولين[٢]، وهو قول السلف والمحققين من العلماء المتأخرين[٣]. وأن القول بأن تسبيح الكائنات تسبيح مجازي بلسان الحال ليس بمعتمد[٤]، بل هو بعيد، وهو خلاف أقاويل المفسرين[٥]. وما نص عليه هؤلاء العلماء كاف في بيان الحق في تسبيح الكائنات، وأنه بلسان المقال وليس بلسان الحال فحسب كما زعم.

سابعاً: أنه قد جاء في السنة القول الفصل في هذه المسألة، وهو ما رواه عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «**إن نبي الله**

---

(١) انظر: مقدمة تحقيق كتاب التوحيد لشيخ الإسلام ابن تيمية، للدكتور محمد السيد الجليند: ص٤٥ ـ ٤٦.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٣/ ٤٥.

(٣) انظر: تفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني: ٣/ ٢٤٤ و٥/ ٢٦٤، والمحرر الوجيز، لابن عطية: ١١/ ٣١٤، وتفسير البغوي: ١/ ١١١، و٥/ ٩٦، ٣٧٢، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١/ ٤٦ ـ ٤٧.

(٤) انظر: تفسير القرآن، لأبي المظفر: ٣/ ٢٤٥.

(٥) انظر: تفسير السمرقندي: ٢/ ٢٧٠، وجامع الرسائل، لابن تيمية: ١/ ٤٣ و٢/ ٢٠٩.

نوحاً عليه السلام لما حضرته الوفاة، قال لابنه: إني قاص[1] عليك الوصية، آمرك باثنتين، وأنهاك عن اثنتين: آمرك بـ «لا إله إلا الله»، فإن السموات السبع والأرضين السبع لو وضعت في كفة، ووضعت «لا إله إلا الله» في كفة، لرجحت بهن «لا إله إلا الله» ولو أن السموات السبع والأرضين السبع كن حلقة مبهمة، لقصمتهن[2] «لا إله إلا الله». وآمرك بـ «سبحان الله وبحمده»، فإنّها صلاة كلّ شيءٍ، وبها يُرزق كلُّ شيءٍ وأنهاك عن الشرك والكبر»[3].

فقوله ـ في هذا الحديث ـ: «وآمرك بسبحان الله وبحمده، فإنّها صلاة كلّ شيء»، فيه تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ الآية [الإسراء: ٤٤]، وبيان أنّ كلّ شيء ينّزه الله تعالى بلسان المقال، فيقول: (سبحان الله وبحمده)، وهذا نصّ في محلّ النِّزاع يجب المصير إليه، والإعراض عن كلّ قول يخالفه.

ولا يعني هذا نفي تسبيح الكائنات بلسان حالها الذي فسّر بظهور آثار الصنعة فيها، وكونها دلائل شاهدة على عظمة خالقها وعلى تنزيهه عن العيوب والنقائص، فإنّ هذا المعنى صحيح، ولكنّ الاقتصار عليه في تفسير تسبيح الكائنات ليس صحيحاً، بل الصحيح أنّ تسبيحها أمر

---

(١) القاص: اسم فاعل من القص، وهو البيان. والقاص: الذي يأتي بالقصة على وجهها، كأنه يتتبع معانيها وألفاظها. انظر: النهاية في غريب الحديث: ٤/ ٧٠.

(٢) القصم: كسر الشيء وإبانته. وقوله: (لقصمتهن) أي: لكسرتهن. انظر: النهاية في غريب الحديث: ٤/ ٧٤.

(٣) جزء من حديث طويل أخرجه أحمد في المسند: ٢/ ١٧٠، ٢٢٥، والبخاري في الأدب المفرد ـ بتخريجات وتعليقات الألباني: ص١٨٨، برقم (٥٤٨)، وإسناده صحيح. انظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة، للألباني: ١/ ٢٥٩، رقم (١٣٤).

زائد على ذلك، وهو قولها: سبحان الله وبحمده، كما سبق[١].

وإذا ثبت بالأدلة المذكورة أنّ تسبيح الكائنات تسبيح حقيقي بلسان المقال، فهل يدخل الكفّار من الإنس والجنّ في عموم الكائنات المسبّحة أو لا؟.

وهذا السؤال يجاب عنه بما رواه عمرو بن عبسة[٢] رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «**ما تستقلّ[٣] الشمس فيبقى شيء من خلق الله عز وجل إلا سبح الله بحمده، إلا ما كان من الشياطين وأعتى بني آدم**»، فسألت عن أعتى بني آدم؟ فقال: «**شرار الخلق، أو شرار خلق الله عز وجل**»[٤].

فهذا الحديث دليل على استثناء الكفار إنساً وجناً من عموم الكائنات المسبحة بحمد الله تعالى. ومثل استثناء الكفار من تسبيح الله تعالى استثناء كثير من الناس من السجود لله جل وعلا في قوله تعالى:

---

(١) وانظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١/ ٤٧، وجامع الرسائل، له: ١/ ٤٣.

(٢) هو عمرو بن عَبَسة بن عامر بن خالد بن غضرة بن عتّاب بن امرئ القيس السلميّ، أبو نجيح، وقيل: أبو شعيب، صحابيّ جليل أسلم قديماً بمكة، وكان رابع أربعة في الإسلام، ثم رجع إلى بلاده، وقدم المدينة بعد ذلك مهاجراً، ثم نزل الشام، وتوفي بحمص في أواخر خلافة عثمان، رضي الله عنه. انظر: تهذيب الأسماء واللغات، للنووي: ٢/ ٣٢، والإصابة، لابن حجر: ٤/ ٦٥٨ ـ ٦٦١، وتهذيب التهذيب، له: ٨/ ٦٩.

(٣) استقلّ: ارتفع، واستقلّت الشمس: ارتفعتْ. انظر: المعجم الوسيط: مادة (قلّ): ٢/ ٧٥٦.

(٤) أخرجه ابن السني في عمل اليوم والليلة: ص١٠٦، برقم (١٤٩)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٦/ ١١١)، وإسناده حسن، كما قال الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة: ٥/ ٢٦٤ ـ ٢٦٥، رقم (٢٢٢٤)، وفي صحيح الجامع الصغير وزيادته: ٢/ ٩٨٠، رقم (٥٥٩٩).

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾﴾ [الحج: ١٨].

فذكر تعالى ـ في هذه الآية ـ سجود جميع الكائنات له على سبيل العموم، وأما الناس قال: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ﴾ أي: وكثير من الناس يسجد لله تعالى، وهم المؤمنون، وكثير من الناس لا يسجد لله تعالى فحق عليه العذاب لتركه السجود، وهم الكفار[١]. ولفظ الناس يدخل فيه الإنس والجن فيما ذكره طائفة من أهل العربية[٢].

وإنما وقع الاستثناء على الإنس والجن في التسبيح والسجود دون سائر الكائنات؛ لأنهما الكائنان اللذان وهب لهما العقل وترك لهما الخيار، فكان منهما فريقان: فريق مؤمن، يسبح لله تعالى ويسجد له طوعاً مختاراً متعبداً بذلك، وفريق كافر امتنع عن التسبيح لله تعالى والسجود له مستكبراً بذلك عن التعبد لربه وخالقه، كما قال ﷻ: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾﴾ [التغابن: ١، ٢].

ويتبين بهذا أن تسبيح الكائنات على ضربين: تسبيح بالاختيار، وهو تسبيح الملائكة، والأنبياء والرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ، والمؤمنين من الإنس والجن.

وتسبيح بالتسخير، وهو تسبيح سائر الكائنات من الحيوانات،

---

(١) انظر: تفسير القرآن، لأبي المظفر: ٣/٤٢٨، وتفسير البغوي: ٥/٣٧٢.
(٢) انظر: جامع الرسائل، لابن تيمية: ٢/٢١٢.

والنباتات، والجمادات، وغيرها مما يصدق عليه أنه شيء[1].

فجميع الكائنات على اختلاف أنواعها يسبح الله تعالى اختياراً أو تسخيراً تسبيحاً حقيقياً بلسان المقال، كما سبق بيانه بالأدلة.

وجاء إسناد التسبيح إلى هذه الكائنات في صور مختلفة: فجاء ماضياً في نحو قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١﴾ [الحديد: ١]، ومضارعاً في نحو قوله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ۝٤٤﴾ [الإسراء: ٤٤]، وأمراً في نحو قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ۝٧٤﴾ [الواقعة: ٧٤، و٩٦، والحاقة: ٥٢]، وقوله تعالى: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَۖ﴾ [سبأ: ١٠]، ومصدراً في نحو قوله تعالى: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥۗ﴾ [النور: ٤١]، ليدل ذلك كله على دوام التسبيح واستمراره من هذه الكائنات في جميع الأوقات، وأن التسبيح هو شأنها في الماضي والحال والمستقبل[2].

فالتسبيح وظيفة مشتركة بين جميع الكائنات، العاقل منها وغير العاقل، والناطق منها وغير الناطق، وكل منها يسبح الله تعالى بلغته الخاصة، فلا الإنسان يفهم عن الحيوان والطير والجماد ما يقول، ولا كيف يسبح، وكذلك الحيوان والطير والجماد لا يفهم عن الإنسان ما يقول، ولا كيف يسبح، بل الكل متوجه بلغته الخاصة إلى خالقه يسبح بحمده، ولا يفقه نوع منها لغة النوع الآخر[3]، ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ

---

(١) انظر: مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني: ص٣٩٣.

(٢) انظر: فتح القدير، للشوكاني: ٥/٢٣٦، وأضواء البيان: ٥/٢٥٢، و(تتمته): ٥/٢٦٧ ـ ٢٦٨.

(٣) انظر: مقدمة تحقيق كتاب التوحيد لشيخ الإسلام ابن تيمية للدكتور محمد السيد الجليند: ص٤٤.

﴿إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

فيجب على المرء أن يؤمن بتسبيح كل شيء لله تعالى، ويكل علم ذلك إلى خالقه، ويعلم أن لله في مخلوقاته علماً لا يقف عليه غيره[١]، وأنه تعالى لم يخف عن الناس تسبيح سائر الكائنات إلا لحكمة يعلمها، ومنها ما جاء عن الحسن البصري أنه قال: «لو لا ما غم[٢] الله عليكم من تسبيح خلقه ما تقاررتم[٣]»[٤]، وهذا شيء من الحكمة الإلهية في جعل تسبيح الكائنات غير مفقوه للناس، والله تعالى أعلم بحقيقة حكمته في ذلك.

ومعرفة العبد بأن كل شيء في هذا العالم يسبح الله بحمده لا ريب أن ذلك يزيد في شعوره بعظمة الله تعالى وخشيته منه وتوجّهه إليه وحده دون ما سواه، وأن ذلك يكون منهضاً له على التسبيح ومهيجاً له على ذكر الله ﷻ، والله يهدي من يشاء إلى الصراط المستقيم.

❖ المطلب الخامس ❖

تسبيح أهل الجنة فيها لله تعالى

ولا ينتهي التسبيح بانتهاء هذه الحياة الدنيا وانتقال العباد منها إلى الحياة الأبدية في الدار الآخرة، فقد دل الكتاب والسنة على أن أهل

---

(١) انظر: تفسير البغوي: ١/ ١١١، وجامع الرسائل، لابن تيمية: ١/ ٤٢.

(٢) يقال: غم علينا الهلال، إذا حال دون رؤيته غيم أو نحوه، من غممت الشيء، إذا غطيته. النهاية في غريب الحديث والأثر: ٣/ ٣٨٨.

(٣) أي: ما استقررتم، يقال: ما يتقار في مكانه، أي: ما يستقر. انظر: لسان العرب: مادة (قرر): ٥/ ٨٤.

(٤) رواه أبو الشيخ في العظمة: ٥/ ١٧٣١ ـ ١٧٣٢، برقم (١٢٠٢ ـ ١٢٠٣)، وأورده السمرقندي في تفسيره: ٢/ ٢٧٠، والسيوطي في الدر المنثور: ٤/ ١٨٥.

الجنة يسبحون الله تعالى في الجنة، وهذا نوع من أنواع التسبيح باعتبار الفاعل.

والجنة هي الجزاء الكبير، والثواب الجزيل، والفوز العظيم، الذي أعده الله ﷻ لعباده المؤمنين، وأوليائه المتقين، في الحياة الآخرة بعد هذه الحياة الفانية، وهي من الغيب الذي يجب الإيمان به وبما ثبت في صفتها وصفات أهلها في كتاب الله تعالى، وسنة رسول الله ﷺ.

ومما جاء في شأن أهل الجنة في كتاب الله تعالى قوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٩ دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٌۚ وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٠﴾ [يونس: ٩، ١٠].

فقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: جمعوا بين الإيمان ومقتضاه، ففعلوا الإيمان الذي طلبه الله منهم، وعملوا الصالحات التي شرعها لهم على وجه الإخلاص والمتابعة[(١)].

وقوله: ﴿يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم﴾ خبر عن ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بأن الله تعالى يهديهم، وهذه الهداية حملها بعض المفسرين على الهداية في الدنيا، فالمعنى: يزيد ربهم هدى في الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ هُدٗىۗ﴾ [مريم: ٧٦]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى﴾ [محمد: ١٧][(٢)].

وحملها بعضهم على الهداية في الآخرة، فالمعنى: يرشدهم ربهم

---

(١) انظر: فتح القدير، للشوكاني: ٢/ ٥٩٧، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي: ص٣٥٨.

(٢) انظر: المحرر الوجيز، لابن عطية: ٩/ ١٤، وزاد المسير، لابن الجوزي: ٤/ ١٠، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٨/ ٣١٢.

إلى طريق الجنة في الآخرة[١]. وقيل: يهديهم ربهم على الصراط[٢] بالنور إلى الجنة[٣].

وجعلها آخرون شاملة للهداية في الدنيا وفي الآخرة، بمعنى أن الله تعالى يرزقهم الهداية إلى الصراط المستقيم وفي الصراط المستقيم في الدنيا، فيصلون بذلك إلى الجنة في الآخرة[٤].

وهذا المعنى الأخير أولى، لشموله المعنيين السابقين، والله تعالى أعلم.

وقوله: (بإيمانهم) متعلق بقوله: (يهديهم ربهم)، ويحتمل أن تكون الباء ههنا سببية، أي: يهديهم ربهم بسبب إيمانهم[٥]، فمن جعل الهداية في الدنيا، كان المعنى: يهديهم ربهم بسبب ما معهم من الإيمان، فيعلمهم ما ينفعهم، ويمن عليهم بالأعمال الناشئة عن الهداية، ويديمهم ويثبتهم عليها[٦]. ومن جعل الهداية في الآخرة، كان

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ٦/ ٥٣٤، والوسيط، للواحدي: ٢/ ٥٣٩، والمحرر الوجيز: ٩/ ١٤، وزاد المسير: ٤/ ١٠، والبحر المحيط، لأبي حيان: ٥/ ١٣١.

(٢) يعني: الصراط الأخروي الذي هو الجسر الممدود على ظهر جهنم، يمر الناس عليه على قدر أعمالهم، فمنهم من يوبق بعمله، ومنهم من ينجو، ومن مر عليه دخل الجنة. وقد ثبت في هذا الصراط وفي وصفه أخبار صحيحة، فيجب الإيمان به. وانظر: صحيح البخاري ـ مع الفتح ـ: ٢/ ٢٩٢، و١٣/ ٤١٩. وصحيح مسلم ـ بشرح النووي: ٣/ ٢٠. والعقيدة الواسطية، لشيخ الإسلام ابن تيمية، بشرح محمد خليل هراس: ص٢١١ ـ ٢١٢.

(٣) انظر: تفسير السمرقندي: ٢/ ٨٩.

(٤) انظر: فتح القدير، للشوكاني: ٢/ ٥٩٧، وتيسير الكريم الرحمن: ص٣٥٨ ـ ٣٥٩.

(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٢/ ٤٢٢، وفتح القدير: ٢/ ٥٩٧.

(٦) انظر: تيسير الكريم الرحمن: ص٣٥٨ ـ ٣٥٩.

المعنى: يهديهم الله يوم القيامة على الصراط بسبب إيمانهم في الدنيا حتى يجوزوه ويخلصوا إلى الجنة(١).

ويحتمل أن تكون الباء للاستعانة(٢)، وعليه تحمل الهداية ـ في الآية ـ على الهداية في الآخرة، والمعنى ـ كما روي عن مجاهد وغيره ـ: يكون لهم إيمانهم نوراً يمشون به(٣)، وفي هذا المعنى إشارة إلى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾ [الحديد: ١٢].

وقوله: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي: «تجري من تحت هؤلاء المؤمنين الذين وصف جل ثناؤه صفتهم أنهار الجنة»(٤). ومعنى (من تحتهم) أي: تجري الأنهار بين أيديهم وهم يرونها من علو(٥)، وقيل: تجري الأنهار من تحت بساتينهم، وقيل: تجري الأنهار من تحت أسرتهم. قال القرطبي: «وهذا أحسن في النزهة والفرجة»(٦).

وهذه الجملة في إعرابها أقوال:

أحدها: أنها خبر ثان بعد الخبر الأول، وهو قوله: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ﴾، فيكون قد أخبر عنهم بخبرين عظيمين، أحدهما: هداية الله تعالى لهم في الدنيا وفي الآخرة. والآخر: جريان الأنهار من

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٢/ ٤٢٢.

(٢) انظر: المصدر السابق: ٢/ ٤٢٢.

(٣) انظر: تفسير الطبري: ٦/ ٥٣٤، والبحر المحيط: ٥/ ١٣١، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٢/ ٤٢٢ ـ ٤٢٣.

(٤) مقتبس من: تفسير الطبري: ٦/ ٥٣٥.

(٥) انظر: زاد المسير، لابن الجوزي: ٤/ ١٠.

(٦) الجامع لأحكام القرآن: ٨/ ٣١٢.

تحتهم في الآخرة[١].

والثاني: أنها في محل نصب على الحال[٢].

والثالث: أنها جملة مستأنفة[٣].

والرابع: أنها معطوفة على ما قبلها، وفي الكلام واو محذوفة، أي: وتجري من تحتهم الأنهار[٤].

والقول الأول في إعرابها أظهر ـ في نظري ـ والله تعالى أعلم.

وقوله: ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ يجوز أن يكون خبراً ثالثاً عن ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، وأن يكون متعلقاً بـ ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم﴾، أو بـ ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ وأن يكون حالاً في الأنهار[٥]. ومعناه: «في بساتين النعيم الذي نعم الله به أهل طاعته والإيمان به»[٦].

قال العلامة السعدي: «أضافها الله ـ أي جنات ـ إلى النعيم، لاشتمالها على النعيم التام، نعيم القلب بالفرح والسرور والبهجة والحبور، ورؤية الرحمن وسماع كلامه، والاغتباط برضاه وقربه، ولقاء الأحبة والإخوان، والتمتع بالاجتماع بهم، وسماع الأصوات المطربات والنغمات المشجيات، والمناظر المفرحات. ونعيم البدن بأنواع المآكل والمشارب والمناكح، ونحو ذلك مما لا تعلمه النفوس، ولا خطر ببال أحد، أو قدر أن يصفه الواصفون» اهـ[٧].

---

(١) انظر: البحر المحيط: ٥/ ١٣١، وفتح القدير: ٢/ ٥٩٧ ـ ٥٩٨.
(٢) انظر: فتح القدير: ٢/ ٥٩٨.
(٣) انظر: المصدر السابق: ٢/ ٥٩٧.
(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن: ٨/ ٣١٢.
(٥) انظر: البحر المحيط: ٥/ ١٣٢، وفتح القدير: ٢/ ٥٩٨.
(٦) مقتبس من: تفسير الطبري: ٦/ ٥٣٥.
(٧) تيسير الكريم الرحمن: ص٣٥٩.

وقوله: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَـٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ بيان لحال أهل الجنة في الجنة[١]، وأنهم فيها على تنزيه الله تعالى بالتسبيح عما نزه عنه نفسه المقدسة، كما كانوا في الدنيا[٢]، وهذا هو الشاهد على تسبيح أهل الجنة لله تعالى في الجنة.

و﴿دَعْوَىٰهُمْ﴾ مبتدأ[٣]، وأكثر المفسرين على أن معناه: دعاؤهم[٤]، فإن الدعوى يكون مصدر (دعا، يدعو)، كالشكوى مصدر (شكا، يشكو)[٥]، وهو هنا مصدر مضاف للفاعل[٦] الذي هو الضمير (هم) العائد إلى ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾. والدعاء يراد به الثناء، ويراد به السؤال[٧].

وفسر جماعة (دعواهم) بمعنى: عبادتهم[٨]، وهذا موافق للتفسير الأول؛ لأن المراد بالدعاء: دعاء العبادة.

وفسره بعضهم بمعنى: قولهم[٩]، وهذا أيضاً قريب من المعنيين

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٢/ ٤٢٣.
(٢) انظر: مسألة سبحان، لنفطويه: ص٣٩.
(٣) انظر: الدر المصون، للسمين الحلبي: ٦/ ١٥٥.
(٤) انظر: تفسير الطبري: ٦/ ٥٣٥، ومعاني القرآن وإعرابه، للزجاج: ٣/ ٨، وزاد المسير: ٤/ ١٠، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٨/ ٣١٣، والبحر المحيط: ٥/ ١٣٢، وحادي الأرواح، لابن قيم الجوزية: ص٤٥٢، والدر المصون، للسمين الحلبي: ٦/ ١٥٥.
(٥) انظر: الجامع لأحكام القرآن: ٨/ ٣١٣.
(٦) انظر: الدر المصون: ٦/ ١٥٥.
(٧) انظر: حادي الأرواح، لابن القيم: ص٤٥٢، والدر المصون، للسمين الحلبي: ٦/ ١٥٥.
(٨) انظر: البحر المحيط، لأبي حيان: ٥/ ١٣٢، والدر المصون: ٦/ ١٥٥، وتيسير الكريم الرحمن: ص٣٥٩.
(٩) انظر: تفسير السمرقندي: ٢/ ٨٩، وتفسير القرآن، لأبي المظفر: ٢/ ٣٦٨.

السابقين؛ لأن المقصود بالدعاء والعبادة القول المذكور.

وذكر بعضهم أن معنى (دعواهم): طريقتهم وسيرتهم، وذلك أن المدعي للشيء مواظب عليه، فيكون الدعوى هنا كناية عن الملازمة[١]. ولا حاجة إلى جعل (الدعوى) في الآية كناية؛ لأن تفسيره بالدعاء أو العبادة أو القول يتضمن كون ذلك طريقتهم وسيرتهم.

وقيل: (إن دعواهم) هنا بمعنى: تمنيهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ [فصلت: ٣١]، أي: ما تتمنون[٢]. وهذا القيل ليس بظاهر في المراد بـ (دعواهم) في هذه الآية.

و(فيها) متعلق بـ (دعواهم)[٣]، والضمير يعود إلى (جنات النعيم). و﴿سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾ خبر عن (دعواهم)، أي: دعواهم في الجنة هذا اللفظ، فالخبر هنا هو نفس المبتدأ في المعنى[٤]، وجيء به محكياً على نصبه لأنه من باب الإسناد اللفظي[٥].

وجوز بعضهم أن يكون الخبر هنا من باب الإسناد المعنوي، فلا يلزم أن يقولوا هذا اللفظ فقط، بل يقولونه وما يؤدي معناه من الألفاظ الدالة على تنزيه الله تعالى وتقديسه[٦]. وظاهر الآية أنهم يقولون اللفظ

---

(١) انظر: فتح القدير: للشوكاني: ٢/ ٥٩٨.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٨/ ٣١٣.
(٣) انظر: الدر المصون، للسمين الحلبي: ٦/ ١٥٥، وروح المعاني، للآلوسي: ١١/ ٧٥.
(٤) الجملة الواقعة خبراً عن مبتدأ إما أن تكون نفس المبتدأ في المعنى، وهي التي يكون معناها متحداً مع المبتدأ، نحو: نطقي الله حسبي، فإن المراد بالنطق المنطوق به، وإما أن تكون الجملة غير المبتدأ في المعنى، نحو: (الله لا إله إلا هو). وانظر: أوضح المسالك، لابن هشام: ص٢٦.
(٥) انظر: الدر المصون: ٦/ ١٥٥.
(٦) انظر: المصدر السابق: ٦/ ١٥٥.

المذكور فقط، وهو (سبحانك اللهم)، وقد تقدمت الإشارة إلى أن هذا اللفظ يفيد تنزيه الله تعالى بجماع أسمائه الحسنى وصفاته العليا[١].

وللمفسرين في بيان سبب نطق أهل الجنة بهذا التسبيح في الجنة أقوال:

أحدها: أنهم يقولون ذلك عندما يشتهون الشيء، أو عندما يريدون أن يدعوا بالشيء، فكلما اشتهى أهل الجنة شيئاً، أو أرادوا شيئاً، قالوا: ﴿سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾، فيأتيهم ما يشتهون، وما يريدون[٢].

وكأن القائلين بهذا القول فهموا من تسمية هذا التسبيح دعوى أنه يراد به دعاء المسألة، وهذا قصور بمعنى الآية، وليس في الآية ما يدل على ما ذكروه، فلا يليق هذا القول بمعنى الآية، كما أنه لا يليق بحال أهل الجنة[٣].

الثاني: أنهم إذا أرادوا الرغبة إلى الله تعالى في دعاء يدعونه به، كان دعاؤهم له: (سبحانك اللهم)[٤]، ووجه ذلك أن ما هم فيه من النعيم هو غايات الراغبين، بحيث إذا أرادوا أن ينعموا بمقام دعاء ربهم الذي هو مقام القرب، لم يجدوا أنفسهم مشتاقين لشيء يسألونه، فاعتاضوا عن السؤال بالثناء على ربهم[٥].

وهذا القول لطيف جداً في بيان سبب دعاء أهل الجنة بهذا

---

(١) انظر: ص٢٢٨ ـ ٢٣١ من هذا البحث.
(٢) انظر: تفسير الطبري: ٦/ ٥٣٥، وتفسير السمرقندي: ٢/ ٨٩، والنكت والعيون، للماوردي: ٢/ ٤٢٤، والمحرر الوجيز، لابن عطية: ٩/ ١٥، وزاد المسير، لابن الجوزي: ٤/ ١٠، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٢/ ٤٢٣.
(٣) انظر: حادي الأرواح، لابن القيم: ص٤٥٢ ـ ٤٥٣.
(٤) انظر: النكت والعيون: ٢/ ٤٢٤، وزاد المسير: ٤/ ١١.
(٥) انظر: تفسير التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١١/ ١٠٢.

التسبيح، وإن كان لم يذكره أكثر المفسرين، وواضح منه أن تسبيح أهل الجنة للثناء على ربهم، لا لاستدعاء ما يشتهون؛ لأن جميع مشتهياتهم حاصلة بالفعل، فليس بهم حاجة إلى سؤال ولا استدعاء.

الثالث: أنهم يقولون هذا التسبيح على سبيل الابتهاج والالتذاذ والتنعم، وليس على سبيل التكليف، فإن الجنة لا تكليف فيها[١].

ويقوي هذا القول ما سيأتي ذكره قريباً ـ إن شاء الله ـ مما جاء في السنة في تسبيح أهل الجنة، ويقرب منه في المعنى القول الثاني المذكور قبله.

وقوله: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ جملة خبرية معطوفة على قوله: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾، و(تحيتهم) مبتدأ، وهي مصدر قولهم: حياك الله، بمعنى أطال حياتك[٢]، وإضافته إلى الضمير هنا يحتمل أن تكون من باب إضافة المصدر إلى فاعله[٣]، فالمعنى: تحية بعضهم بعضاً في الجنة عند التلاقي والتزاور سلام[٤]، وهذا المعنى ذهب إليه أكثر المفسرين، وأشار بعضهم في تفسير هذه الآية إلى الحديث المروي عن النبي ﷺ في صورة خلق آدم عليه السلام وفيه: «**فلما خلقه قال: اذهب فسلم على أولئك، نفر من الملائكة جلوس، فاستمع ما يحيونك، فإنها تحيتك وتحية ذريتك. قال: فذهب فقال: السلام عليكم. فقالوا:**

---

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٤/ ٣٢٩ ـ ٣٣٠، والبحر المحيط، لأبي حيان: ٥/ ١٣٢، وتفسير الخازن: ٢/ ٤٣٠.

(٢) انظر: الدر المصون: ٦/ ١٥٥.

(٣) انظر: الدر المصون: ٦/ ١٥٥، وروح المعاني: ١١/ ٧٦.

(٤) انظر: تفسير الطبري: ٦/ ٥٣٦، ومعاني القرآن وإعرابه، للزجاج: ٣/ ٨، وتفسير القرآن، لأبي المظفر: ٢/ ٣٦٨، وزاد المسير: ٤/ ١١، وتيسير الكريم الرحمن: ص٣٥٩.

السلام عليك ورحمة الله، فزادوه: ورحمة الله»[١]. ثم قال: «وبين في القرآن ههنا أنها تحيتهم في الجنة، فهي تحية موضوعة من ابتداء الخليقة إلى غير غاية». قال: «وهذا أظهر؛ لأنه ظاهر القرآن، والله أعلم»[٢].

ويحتمل أن تكون الإضافة في (تحيتهم) من باب إضافة المصدر إلى مفعوله[٣]، والفاعل إما الله سبحانه، فالمعنى: تحية الله تعالى إياهم في الجنة سلام[٤]، يدل عليه قوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ۝٥٨﴾ [يس: ٥٨].

وإما الملائكة، فالمعنى: تحية الملائكة إياهم في الجنة سلام[٥]، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۝٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ۝٢٤﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤].

وهذه الاحتمالات كلها صحيحة؛ لأن الأدلة المذكورة شاهدة بها. وذكر بعض المفسرين أن التحية هنا يجوز أن تكون بمعنى الملك؛ لأن العرب تسمي الملك التحية[٦]، فقوله: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ معناه: وملكهم فيها سالم[٧]. ولا أعلم دليلاً يدل على صحة هذا المعنى في هذه الآية، والله تعالى أعلم.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ١١/ ٣، برقم (٦٢٢٧)، ومسلم في صحيحه: ٤/ ٢١٨٣ ـ ٢١٨٤، برقم (٢٨٤١).

(٢) أحكام القرآن، لابن العربي: ٣/ ٧.

(٣) انظر: الدر المصون: ٦/ ١٥٥، وروح المعاني: ١١/ ٧٥.

(٤) انظر: معاني القرآن وإعرابه، للزجاج: ٣/ ٨، وتفسير القرآن، لأبي الظفر: ٢/ ٣٦٨، وزاد المسير: ٤/ ١١، والبحر المحيط، لأبي حيان: ٥/ ١٣٢.

(٥) انظر: تفسير القرآن، لأبي المظفر: ٢/ ٣٦٨، زاد المسير: ٤/ ١١، والبحر المحيط: ٥/ ١٣٢، والدر المصون ٦/ ١٥٥.

(٦) انظر: تفسير الطبري: ٦/ ٥٣٦. (٧) انظر: زاد المسير: ٤/ ١١.

و(فيها) متعلق بـ (تحيتهم)[(١)]. و(سلام) خبر عن (تحيتهم)[(٢)] ومعناه: الدعاء بالسلامة من الآفات[(٣)]، أو: كلام سالم من اللغو والإثم موصوف بأنه سلام[(٤)]، كما قال تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾﴾ [الواقعة: ٢٥، ٢٦].

وقوله: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يعني: «وآخر دعائهم أن يقولوا: (الحمد لله رب العالمين)، ولذلك خففت (أن) ولم تشدد؛ لأنه أريد بها الحكاية» هذا قول ابن جرير الطبري[(٥)] يذهب إلى أن (أن) هنا مفسرة، وقد غلط من جعلها كذلك في هذه الآية؛ لأن من شروط (أن) المفسرة عند مثبتها أن تكون مسبوقة بجملة، وهذا الشرط غير متحقق هنا[(٦)].

وذهب غيره إلى أن (أن) هنا مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير شأن محذوف والتقدير: أنه الحمد لله رب العالمين[(٧)].

فـ (آخر دعواهم) مبتدأ، و(أن) واسمها وخبرها جملة اسمية وقعت خبراً للمبتدأ[(٨)].

وفي هذا إخبار بأن آخر دعائهم: الحمد لله رب العالمين، كما كان أول دعائهم: سبحانك اللهم[(٩)].

---

(١) انظر: الدر المصون: ٦/ ١٥٥، وروح المعاني: ١١/ ٧٥.
(٢) انظر: المصدرين السابقين. (٣) أضواء البيان: ١/ ٥٠٩.
(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن: ص٣٥٩.
(٥) تفسير الطبري: ٦/ ٥٣٦.
(٦) انظر: مغني اللبيب، لابن هشام: ص٤٧ ـ ٤٨.
(٧) انظر: معاني القرآن وإعرابه، للزجاج: ٤/ ٨، والدر المصون: ٦/ ١٥٦.
(٨) انظر: الدر المصون: ٦/ ١٥٦، وروح المعاني: ١١/ ٧٦.
(٩) انظر: النكت والعيون، للماوردي: ٢/ ٤٢٤، وحادي الأرواح، لابن القيم: ص٤٥٢.

قال الزجاج: «أعلم الله أنهم يبتدئون بتعظيم الله وتنزيهه، ويختمون بشكره والثناء عليه»[(١)].

وقال ابن كيسان[(٢)]: «يفتتحون كلامهم بالتوحيد، ويختمونه بالتوحيد»[(٣)]، وقال الحافظ ابن كثير: «قوله: (وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين) هذا فيه دلالة على أنه تعالى هو المحمود أبداً، المعبود على طول المدى، ولهذا حمد نفسه عند ابتداء خلقه واستمراره، وفي ابتداء كتابه، وعند ابتداء تنزيله، حيث يقول تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الكهف: ١]، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ١]، إلى غير ذلك من الأحوال التي يطول بسطها، وأنه المحمود في الأولى والآخرة، في الحياة الدنيا وفي الآخرة، في جميع الأحوال...» اهـ[(٤)].

وذكر بعض المفسرين أن قوله تعالى: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ علامة بين أهل الجنة وبين خدمهم في الجنة، فإذا قالوا هذه المقالة جاءهم الخدام بالموائد بين أيديهم، وأوتوا بما يشتهون، فإذا فرغوا من الطعام قالوا: الحمد لله رب العالمين، فذلك قوله تعالى: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يعني: وآخر قولهم بعدما فرغوا من

---

(١) معاني القرآن وإعرابه: ٣/ ٨. وانظر: تفسير القرآن، لأبي المظفر: ٢/ ٣٦٨، وزاد المسير، لابن الجوزي: ٤/ ١١، والبحر المحيط، لأبي حيان: ٥/ ١٣٢.

(٢) هو علي بن محمد بن أحمد بن كيسان الحربي، أبو الحسن، كان ثقة من جلة النحويين، وتوفي سنة (٣٧٣هـ)، رحمه الله. انظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي: ١٦/ ٣٢٩ ـ ٣٣٠.

(٣) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير: ٤/ ١١، وأبو حيان في البحر المحيط: ٥/ ١٣٢.

(٤) تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٤٢٣.

الطعام أن يقولوا: الحمد لله رب العالمين[١].

وهذا التفسير قد سبق التنبيه على ضعفه، وأنه ليس في الآية ما يدل عليه[٢]، بل الصواب أن الآية إخبار عن اشتغال أهل الجنة في الجنة بالتسبيح والتحميد والتقديس لله ﷻ، والثناء عليه بما هو أهله[٣]، يفتتحون بالتسبيح، ويختتمون بالتحميد، فيقرنون تسبيحهم لله تعالى بحمده جل وعلا، وفي ذلك من الدلالة الواضحة على توحيد الله تعالى وتعظيمه ما قد تقدم بيان شيء منه عند الكلام على مسألة قرن التسبيح بالحمد[٤]، كما أن في قرن الخبر عن تسبيحهم لله تعالى بالخبر عن سلامتهم من الآفات من اللطافة والمناسبة ما لا يخفى على المتأمل.

ونحو هذه الآية قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾ [الصافات: ١٨٠، ١٨٢]، افتتحه بالتسبيح، ثم سلم على المرسلين، وختمه بالتحميد، وتقدم شرح ذلك عند الكلام على قرن التسبيح بالسلام على المرسلين[٥]، والله الموفق.

وقد جاء في السنة المشرفة ما يوضح تسبيح أهل الجنة لله تعالى في الجنة، وذلك في حديثين:

أحدهما: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أول زمرة تلج الجنة صورتهم على صورة القمر ليلة البدر، لا يبصقون فيها ولا يمتخطون ولا يتغوطون، آنيتهم فيها الذهب، وأمشاطهم[٦] من**

(١) انظر: تفسير السمرقندي: ٢/ ٨٩ ـ ٩٠، وتفسير القرآن، لأبي المظفر: ٢/ ٣٦٨.

(٢) انظر: ص٣٧٨ (٣) انظر: تفسير الخازن: ٢/ ٤٣٠.

(٤) انظر: ص١٩٣ ـ ٢٠٧ من هذا البحث.

(٥) انظر: ص٢٤٤ ـ ٢٤٦ من هذا البحث.

(٦) الأمشاط: جمع مشط ـ مثلثة الميم ـ، وهي آلة يمتشط بها، والامتشاط =

الذهب والفضة، ومجامرهم الألوة[(١)]، ورشحهم المسك، ولكل واحد منهم زوجتان يرى مخ سوقهما من وراء اللحم من الحسن، لا اختلاف بينهم ولا تباغض، قلوبهم قلب واحد، يسبحون الله بكرة وعشيا»[(٢)].

والثاني: عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: **«إن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون، ولا يتفلون ولا يبولون ولا يتغوطون ولا يمتخطون»**. قالوا: فما بال الطعام؟ قال: **«جشاء[(٣)] ورشح كرشح المسك، يلهمون التسبيح والتحميد، كما تلهمون النفس»[(٤)].**

ففي هذين الحديثين دلالة صريحة على أن أهل الجنة يسبحون الله تعالى فيها تسبيحاً دائماً مستمراً غير منقطع ولا مقيد بحال معين من الأحوال، وأنهم لا يجدون مشقة في هذا التسبيح ولا كلفة عليهم فيه، ولهذا قال: (يلهمون التسبيح والتحميد كما تلهمون النفس)، و«ووجه التشبيه: أن تنفس الإنسان لا كلفة عليه فيه ولا بد له منه، فجعل تنفسهم تسبيحاً»[(٥)]. ونظير ذلك ما أخبر الله تعالى عن الملائكة من

= ترجيل الشعر أو اللحية. انظر: القاموس المحيط: مادة (مشط): ص٨٨٨.

(١) المجامر: جمع مجمرة، وهي المبخرة، سميت مجمرة لأنها يوضع فيها الجمر ليفوح به ما يوضع فيها من البخور [فتح الباري، لابن حجر: ٦/ ٣٢٤]. الألوة ـ بفتح الهمزة، ويجوز ضمها، وبضم اللام، وتشديد الواو ـ: العود الذي يبخر به [فتح الباري: ٦/ ٣٢٤].

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ٦/٣١٨، برقم (٣٢٤٥)، ومسلم في صحيحه: ٤/ ٢١٨٠، برقم (٢٨٣٤).

(٣) الجشاء ـ ومثله: التجشؤ ـ: تنفس المعدة، وهو صوت يخرج من الفم عند امتلاء المعدة من الطعام. انظر: القاموس المحيط، للفيروز آبادي: مادة (جشأ): ص٤٥، والمعجم الوسيط: مادة (جشأ): ١/ ١٢٣.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه: ٤/ ٢١٨٠ ـ ٢١٨١، برقم (٢٨٣٥).

(٥) مقتبس من: فتح الباري، للحافظ ابن حجر العسقلاني: ٦/ ٣٢٦.

أنهم ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ۝٢٠﴾ [الأنبياء: ٢٠]، وأنهم ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ﴾ [فصلت: ٣٨].

وفي الحديثين أيضاً دلالة على أن هذا التسبيح الذي يلهمه أهل الجنة هو من النعيم الذي تتنعم به الأنفس في الجنة وتتلذذ به، ولولا تمتع أهل الجنة بذلك التسبيح الذي هو لهم كالنفس لم يكن الأمر كذلك[1]، و«سببه أن قلوبهم تنورت بمعرفة الرب سبحانه، وامتلأت بحبه، ومن أحب شيئاً أكثر من ذكره»[2]، ولهذا يكون اشتغالهم بالتسبيح أعظم من كل شيء، وألذ عليهم من المآكل والمشارب والمناكح[3].

وهذا ختام أنواع تسبيح العباد لله تعالى، وهو تسبيح دائم خالد بدوام أهل الجنة وخلودهم فيها، فنسأل الله الرحمن الرحيم أن يجعلنا من عباده المسبحين له في الحياة الدنيا ومن عباده الذين سيتنعمون بتسبيحه في جنات النعيم، إنه سبحانه ولي ذلك والقادر عليه، وبالله التوفيق.

❁ ❁ ❁

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٤/ ٣٣٠، ودرء تعارض العقل والنقل، له: ٦/ ٦٩.
(٢) مقتبس من: فتح الباري، لابن حجر: ٦/ ٣٢٦.
(٣) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٤/ ٣٣٠، و١٠/ ٦٤.





الباب الثاني

حكم التسبيح وفضله ومنزلته في العقيدة

وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول: في حكم التسبيح.

الفصل الثاني: في فضل التسبيح.

الفصل الثالث: في منزلة التسبيح في العقيدة.



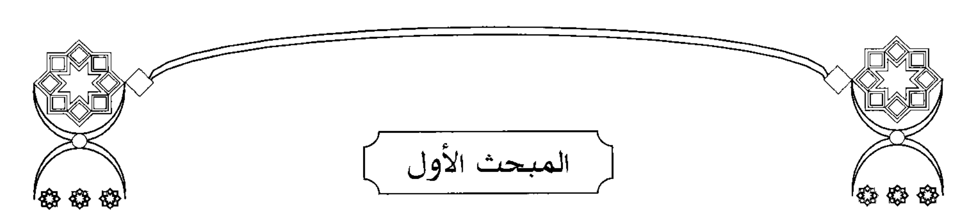
الفصل الأول

حكم التسبيح

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: حكم تسبيح الله تعالى

المبحث الثاني: حكم تسبيح غير الله تعالى



المبحث الأول

حكم تسبيح الله تعالى

لقد شرع الله تعالى تسبيحه وأمر به في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ، وبلغت الآيات القرآنية التي جاء فيها الأمر بالتسبيح ثماني عشرة آية[(١)]، منها قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾﴾ [طه: ١٣٠]، وقوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ [الواقعة: ٧٤، ٩٦ والحاقة: ٥٢]، وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾﴾ [الإنسان: ٢٦]، وقوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾﴾ [الأعلى: ١].

والأمر في هذه الآيات موجه للنبي ﷺ، ولكن الأمر له أمر لأمته إلا ما ثبت تخصيصه به[(٢)]، ومع ذلك فقد جاء الأمر بتسبيح الله تعالى لأمته صريحاً في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱذْكُرُوا ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ [الأحزاب: ٤١، ٤٢].

وجاء في السنة المشرفة الحث على تسبيح الله تعالى والترغيب فيه في أحاديث كثيرة جداً تفوق الحصر، وسيأتي ذكر جملة منها عند

---

(١) سيأتي بيان أرقام هذه الآيات مع سورها في ص٤٢٣ من البحث.

(٢) انظر: روضة الناظر وجنة المناظر، لموفق الدين بن قدامة المقدسي ـ بشرحه نزهة الخاطر العاطر، لابن بدران ٢/ ١٠٠ ـ ١٠٤، وشفاء العليل، لابن القيم: ٢/ ٣٩، ومذكرة أصول الفقه، للشيخ محمد الأمين الشنقيطي: ص١٦٣ ـ ١٦٤.

الكلام على فضل التسبيح[١]، وعند بيان المواضع التي يُشرع فيها التسبيح[٢]، إن شاء الله تعالى.

فالأدلة من الكتاب والسنة متواترةٌ في الأمر بتسبيح الله تعالى والحث عليه، وهذه الأدلة تتناول تسبيح الله تعالى من حيث القول، وتسبيحه من حيث الاعتقاد، وبيان ذلك في المطلبين التاليين:

❖ المطلب الأول ❖

حكم تسبيح الله تعالى من حيث القول

تقدم أنّ التسبيح يفسّر بمعنى قول: (سبحان الله) ونحوه، فيكون مدلوله حينئذٍ قوليّاً[٣]، كما قال ابن عطية في تفسير قوله تعالى ـ لنبيّه زكريا عليه السلام ـ: ﴿وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ [آل عمران: ٤١]. قال: «وقوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ﴾ معناه: قل: سبحان الله، وقال قوم: معناه: صلّ. والقول الأول أصوب؛ لأنّه يناسب الذكر، ويستغرب مع امتناع الكلام مع الناس»[٤].

وقال الزجاج ـ في تفسير قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ [الأعلى: ١] ـ: «أي: نزّه ربّك عن السوء، وقل: سبحان ربّي الأعلى» اهـ[٥].

ومما يدلّ على إرادة اللفظ بالتسبيح قولاً توقيتُه بالوقت، كما في قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٤٢﴾ [الأحزاب: ٤٢]، وقوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٦]، فإنّ الذي يكلّف بتوقيته هو

---

(١) وذلك في الفصل الثاني من هذا الباب، ص٤٣٠.
(٢) وهو موضوع الباب الثالث من هذا البحث. انظر: ص٥٠٩.
(٣) انظر: ص٣٨ ـ ٤٠ من هذا البحث. (٤) المحرر الوجيز: ٣/ ٨١.
(٥) معاني القرآن وإعرابه: ٥/ ٣١٥.

الأقوال والأفعال دون العقائد(١).

وكذلك قرنه بالاسم، كما في قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ [الواقعة: ٧٤ و٩٦، والحاقة: ٥٢]، وقوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾﴾ [الأعلى: ١]. وقد سبق نقل الإمام ابن قيم الجوزية توضيح ذلك عن شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية، إذ قال ـ في تفسير هاتين الآيتين ـ: «المعنى: سبّح ناطقاً باسم ربّك متكلماً به. وكذا (سبح اسم ربك) المعنى: سبّح ربّك ذاكراً اسمه»(٢). وذلك أنّ التسبيح باللسان لا بدّ فيه من ذكر الاسم، فأوقع التسبيح على الاسم تنبيهاً على إرادة اللفظ باللسان(٣).

ويؤيّد إرادة اللفظ بالتسبيح ما ثبت في السنة من تأويل قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ﴾ [النصر: ٣] بالقول، كما في حديث عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: «كان النبي ﷺ يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: «**سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي**»، يتأوّل القرآن»(٤).

فقولها: «يتأول القرآن» أي: يفعل ما أمر به فيه من التسبيح، وتعني بالقرآن: الآية المذكورة ونحوها(٥).

وإذا تبيّن هذا عُلِم أنّ ما جاء في الكتاب والسنة من الأمر بتسبيح الله تعالى يتناول اللفظ بالتسبيح قولاً باللسان، مع ضرورة مطابقة ذلك لاعتقاد الجنان.

---

(١) انظر: تفسير التحرير والتنوير: ٣/ ٢٧٤.
(٢) بدائع الفوائد: ١/ ٢٢، وانظر: ص٢٢٣ من البحث.
(٣) انظر: التسهل لعلوم التنْزيل، لابن جزي: ٢/ ٥٦٢، وبدائع الفوائد: ١/ ٢١ ـ ٢٢، وتفسير التحرير والتنوير: ٣٠/ ٢٧٣.
(٤) سبق تخريجه، في ص. ٢٠٤
(٥) انظر: فتح الباري، للحافظ ابن حجر: ٢/ ٢٩٩.

ولهذا اتّفق العلماء على مشروعية التسبيح من حيث القول، وأنه من أجلّ الألفاظ التي يُتعبّد بها لله تعالى، ويُذكر بها الله ﷻ، بل العلم بذلك من الأمور الظاهرة في الإسلام. ولكنّ العلماء اختلفوا في وجوب التسبيح من حيث القول.

فذهب أكثر الفقهاء من أصحاب المذاهب إلى أنّ التسبيح سنّة مندوبة وليس واجباً[(١)]، ويستوي في ذلك التسبيح في الصلاة، والتسبيح خارج الصلاة.

أما التسبيح في الصلاة فعمدتهم في عدم وجوبه هي حديث المسيء صلاته، وهو ما رواه أبو هريرة ؓ: «أن النبي ﷺ دخل المسجد، فدخل رجل فصلى، ثم جاء فسلم على النبي ﷺ، فرد النبي ﷺ، فقال: «**ارجع فصل، فإنك لم تصل**»، فصلى، ثم جاء فسلم على النبي ﷺ، فقال: «**ارجع فصل فإنك لم تصل (ثلاثاً)**»، فقال: والذي بعثك بالحق، فما أحسن غيره، فعلمني. فقال: «**إذا قمت إلى الصلاة فكبر، ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن، ثم اركع حتى تطمئن راكعاً، ثم ارفع حتى تعتدل قائماً، ثم اسجد حتى تطمئن ساجداً، ثم ارفع حتى تطمئن جالساً، ثم اسجد حتى تطمئن ساجداً، ثم افعل ذلك في صلاتك كلها**»»[(٢)].

---

(١) انظر: معالم السنن، للخطابي: ١/ ١٨٤، وشرح السنة، للبغوي: ٣/ ١٠٣، والمغني، لابن قدامة، بتحقيق الدكتور عبد الله التركي: ٢/ ١٨٠، ورسالة ابن أبي زيد القيرواني ـ بشرحه الثمر الداني، للشيخ عبد السميدح الآبي ـ ص١٠٨، ١١٣، والمجموع شرح المهذب، للنووي، بتحقيق محمد نجيب المطيعي: ٣/ ٣٨٧، وشرح فتح القدير، للكمال ابن الهمام: ١/ ٢٦٠، ٢٦٧، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٦/ ١١٤، ونيل الأوطار شرح منتقى الأخبار، للشوكاني، باعتناء محمد حلاق، وعز الدين خطاب: ٢/ ٢٤٦.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ٢/ ٢٧٦ ـ ٢٧٧، برقم (٧٩٣)، ومسلم في صحيحه: ١/ ٢٩٨، برقم (٣٩٧).

قالوا: فالنبي ﷺ علم هذا الرجل واجبات الصلاة، ولم يذكر فيها التسبيح ولا غيره من الأذكار، مع أنه ﷺ علمه تكبيرة الإحرام والقراءة، فدل ذلك على أن التسبيح وسائر الأذكار ليست واجبة في الصلاة، ولو كانت واجبة لعلمه إياها؛ لأن تأخير البيان عن وقت الحاجة لا يجوز[١]. وجعلوا هذا الحديث قرينة صارفة لما ورد من الأمر بالتسبيح في الصلاة عن الوجوب إلى الاستحباب[٢]، بل جعلوه قرينة صارفة لجميع الأوامر الواردة بأمور خارجة عنه[٣].

ومن ثم قرر بعضهم أن حديث المسيء صلاته هو المرجع في معرفة واجبات الصلاة، فما ذكره النبي ﷺ فيه كان واجباً، وما لم يذكره فيه من الأقوال والأفعال فليس بواجب، وما قامت عليه أدلة تدل على وجوبه مما لم يذكر فيه فهو محل خلاف[٤].

وهذا ملخص ما استدلوا به على عدم وجوب التسبيح في الصلاة. أما التسبيح خارج الصلاة فلم أقف على كلام مفصل لهؤلاء الفقهاء في عدم وجوبه، ولكن يظهر أن القول بعدم وجوب ذلك هو مذهب العلماء عامة، كما سيتبين فيما يلي.

وذهب جماعة من الفقهاء من السلف والخلف إلى أن التسبيح من حيث القول واجب، وخصوا ذلك بالتسبيح في الصلاة، وهو التسبيح

---

(١) انظر: المجموع، للنووي: ٣/ ٣٨٧، والمغني، لابن قدامة: ٢/ ١٨٠، ونيل الأوطار، للشوكاني: ٢/ ٢٤٦.

(٢) انظر: المجموع، للنووي: ٣/ ٣٨٧، ونيل الأوطار، للشوكاني: ٢/ ١٧٦.

(٣) انظر: نيل الأوطار: ٢/ ١٨٩.

(٤) انظر: إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، لابن دقيق العيد، ومعه حاشيته العدة، للأمير الصنعاني، بتحقيق علي بن محمد الهندي: ٢/ ٣٥٨ ـ ٣٦٠، ونيل الأوطار، للشوكاني: ٢/ ١٧٥، ٢٦٧.

في الركوع والسجود على وجه التحديد[١]، فأبطلوا لهذا صلاة من ترك التسبيح في الركوع والسجود عمداً، وأوجبوا سجود السهو على من سها عنه فيهما[٢].

وقد استدل القائلون بوجوب التسبيح في الركوع والسجود في الصلاة بأدلة من الكتاب والسنة والنظر المستند إليهما، وذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أن أدلة وجوبه في الكتاب والسنة كثيرة جداً[٣]، فيدل على وجوب التسبيح من الكتاب:

١ ـ الآيات التي جاء فيها الأمر بالتسبيح، وهي آيات عديدة سبق بيان عددها مع ذكر بعضها[٤].

فهذه الآيات ظاهرها الوجوب[٥]، ولا وجوب في غير الصلاة،

---

(١) انظر: حلية العلماء في معرفة مذاهب الفقهاء، لأبي بكر الشاشي القفال، بتحقيق الدكتور ياسين درادكه: ٢/ ١١٨، ومعالم السنن، للخطابي: ١/ ١٨٤، والمحلى بالآثار، لابن حزم، بتحقيق الدكتور عبد الغفار البنداري: ٢/ ٢٩٠، وشرح السنة، للبغوي: ٣/ ١٠٣، والمغني، لابن قدامة: ٢/ ١٨٠، والمجموع، للنووي: ٣/ ٣٨٧، ونيل الأوطار، للشوكاني: ٢/ ٢٤٦، ومجموع الفتاوى: ١٦/ ١١٤.

(٢) انظر: الصلاة وحكم تاركها، لابن قيم الجوزية، بتحقيق سيد إبراهيم: ص٣١٧، ونيل الأوطار، للشوكاني: ٢/ ٢٤٦.

(٣) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٦/ ١١٦.

(٤) انظر: ص٣٩٠.

(٥) لأن الأصل في أوامر الكتاب والسنة أنها للوجوب، إلا إذا دل الدليل على الاستحباب أو الإباحة. وانظر في تقرير ذلك: قواطع الأدلة في أصول الفقه، لأبي المظفر السمعاني، بتحقيق الدكتور عبد الله بن حافظ الحكمي: ١/ ٩٢ ـ ١٠٨، ورسالة لطيفة جامعة في أصول الفقه المهمة، للشيخ عبد الرحمن السعدي، وبذيلها التعليقات المنيفة، لأبي الحارث نادر آل مبارك: ص٧٣ ـ ٧٥، ومذكرة أصول الفقه، للشيخ محمد الأمين الشنقيطي: ص١٩١ ـ ١٩٢.

فتعين أن يكون فيها[(١)]؛ لأن السنة بينت ذلك كما سيأتي.

٢ ـ الآيات التي أطلق فيها التسبيح على الصلاة، كما سبق بيانه في معاني التسبيح في الشرع[(٢)].

وقد بين شيخ الإسلام ابن تيمية دلالة ذلك على وجوب التسبيح، فقال: «وإذا كان الله ﷻ قد سمى الصلاة تسبيحاً، فقد دل ذلك على وجوب التسبيح، كما أنه لما سماها قياماً في قوله تعالى: ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢﴾ [المزمل: ٢]، دل على وجوب القيام، وكذلك لما سماها قرآناً في قوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ [الإسراء: ٧٨]، دل على وجوب القرآن فيها، ولما سماها ركوعاً وسجوداً في مواضع[(٣)]، دل على وجوب الركوع والسجود فيها، وذلك أن تسميتها بهذه الأفعال دليل على أن هذه الأفعال لازمة لها، فإذا وجدت هذه الأفعال فتكون من الأبعاض اللازمة، كما أنهم يسمون الإنسان بأبعاضه اللازمة له، فيسمونه رقبة، ورأساً، ووجهاً، ونحو ذلك، كما في قوله تعالى: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ [المجادلة: ٣].

ولو جاز وجود الصلاة بدون التسبيح لكان الأمر بالتسبيح لا يصلح أن يكون أمراً بالصلاة، فإن اللفظ حينئذٍ لا يكون دالاً على معناه، ولا على ما يستلزم معناه» اهـ[(٤)].

---

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١١٥/١٦ والصلاة وحكم تاركها، لابن القيم: ص٣١٧، ونيل الأوطار، للشوكاني: ٢٤٦/٢.

(٢) انظر: ص٨٦ ـ ٩٦.

(٣) منها: قوله تعالى: ﴿وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٣]. وقوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٩٨﴾ [الحجر: ٩٨].

(٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٥٥١/٢٢. وانظر أيضاً: المصدر نفسه: ١١٥/١٦.

وهذا الاستدلال في غاية القوة لمن تأمله، وفيه الرد على من زعم من أهل العلم أن صلاة النافلة سميت تسبيحاً ـ كما وقع ذلك في الأحاديث كثيراً ـ؛ لأنها كالتسبيح في الفريضة في أنه غير واجب، وقد تقدم الرد على هذا الزعم أيضاً(١).

٣ ـ قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ۩ ﴿١٥﴾﴾ [السجدة: ١٥].

فهذه الآية تدل على أن التذكير بآيت الله موجب للسجود والتسبيح؛ لأنه تعالى «أخبر أنه لا يكون مؤمناً إلا من سجد إذا ذكر بالآيات وسبح بحمد ربه، ومعلوم أن قراءة القرآن في الصلاة هي تذكير بالآيات، ولذلك وجب السجود مع ذلك، وقد أوجب خرورهم سجداً، وأوجب تسبيحهم بحمد ربهم، وذلك يقتضي وجوب التسبيح في السجود»(٢).

ويدل على وجوب التسبيح من السنة:

١ ـ حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: «لما نزلت ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ [الواقعة: ٧٤، ٩٦، والحاقة: ٥٢]، قال رسول الله ﷺ: «**اجعلوها في ركوعكم**». فلما نزلت ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾﴾ [الأعلى: ١]، قال: «**اجعلوها في سجودكم**»»(٣).

ففي هذا الحديث أمر النبي ﷺ بجعل هذين التسبيحين المأمور بهما في الركوع والسجود، فعين ﷺ بأمره هذا محل التسبيح المأمور به

---

(١) انظر: ص٩٢ ـ ٩٣ من البحث.

(٢) مقتبس من: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٢٢/٥٤٩، وانظر: المصدر نفسه: ٢٣/١٤٩.

(٣) سبق تخريج هذا الحديث مع الكلام على إسناده وبيان درجته في ص٢٢٥.

في الكتاب، وأمره على الوجوب[(١)].

قال الخطابي ـ معلقاً على الحديث المذكور ـ: «في هذا دلالة على وجوب التسبيح في الركوع والسجود؛ لأنه قد اجتمع في ذلك أمر الله وبيان الرسول ﷺ، وترتيبه في موضعه من الصلاة، فتركه غير جائز»[(٢)].

٢ ـ ما رواه ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: **«ألا وإني نهيت أن أقرأ القرآن راكعاً أو ساجداً، فأما الركوع فعظموا فيه الرب عز وجل، وأما السجود فاجتهدوا في الدعاء، فقمن أن يستجاب لكم»**[(٣)].

وفي هذا الحديث أمر ﷺ بتعظيم الرب عز وجل في الركوع، وهذا الأمر للوجوب، وهو موافق لقوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ [الواقعة: ٧٤، ٩٦، والحاقة: ٥٢]، فيكون المراد بالتعظيم المأمور به في الحديث التسبيح المأمور به في الآية، كما في الحديث السابق[(٤)].

وقوله: **«وأما السجود فاجتهدوا في الدعاء»** لا ينافي الأمر بالتسبيح في السجود، كما في الأدلة الأخرى، بل هو أمر بالاجتهاد في الدعاء مع الذي أمر به من التسبيح في السجود، فيكون في ذلك زيادة خير وحسنة لمن فعله[(٥)]. وذكر الخطابي أن النهي عن القراءة راكعاً أو ساجداً في هذا الحديث يشد من القول بإيجاب الذكر في الركوع

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٢٢/ ٥٥٠، والصلاة وحكم تاركها، لابن قيم الجوزية: ص٣١٧.

(٢) معالم السنن: ١/ ١٨٤.

(٣) سبق تخريجه في ص٨٢.

(٤) انظر: المحلى بالآثار، لابن حزم: ٢/ ٢٩٠ ـ ٢٩١.

(٥) انظر: المصدر السابق: ٢/٢٩١، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٢٢/ ٣٧٨.

والسجود، وذلك إنما أخلي موضعها من القراءة ليكون محلاً للذكر والدعاء[١].

٣ ـ قوله ﷺ: «**صلوا كما رأيتموني أصلي**»[٢].

فهذا الحديث يؤيد بعمومه وجوب التسبيح في الصلاة؛ لأنه «يدل على وجوب ما ثبت عنه ﷺ في الصلاة من الأقوال والأفعال، ويؤكد الوجوب كونها بياناً لمجمل قوله: ﴿أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة: ٤٣][٣]، وهو أمر قرآني يفيد الوجوب، وبيان المجمل الواجب واجب، كما تقرر في الأصول»[٤]، إلا أن يثبت دليل بعدم وجوب شيء منه. والتسبيح قد فعله الرسول ﷺ في الصلاة، وثبت الأمر به في الكتاب وفي السنة، فيتأكد وجوبه بعموم هذا الحديث. وقد عد بعض علماء السنة التسبيحات في الركوع والسجود من السنة اللازمة التي لا يجوز تركها، وتركها ضلال لكل عامد راغب عنها[٥].

وبالإضافة إلى ما سبق من أدلة الكتاب والسنة فإن النظر الصحيح يدل على وجوب التسبيح في الصلاة، وبيان ذلك:

١ ـ أن الركوع والسجود ركنان من أركان الصلاة، فكان التسبيح فيهما واجباً، كما تجب القراءة في القيام، والتشهد في الجلوس، والتكبير في الانتقالات، فمواضع هذه الأذكار هي أركان الصلاة، فكان الذكر فيها واجباً[٦].

---

(١) انظر: معالم السنن: ١/ ١٨٤.
(٢) جزء من حديث أخرجه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ٢/ ١١١، برقم (٦٣١).
(٣) جاء هذا القول في مواضع من القرآن، أولها: في سورة البقرة: ٤٣.
(٤) مقتبس من: نيل الأوطار، للشوكاني: ٢/ ١٧٦.
(٥) انظر: الحجة في بيان المحجة، لأبي القاسم التيمي: ٢/ ٣٠٥.
(٦) انظر: المغني، لابن قدامة: ٢/ ١٨١.

٢ ـ أن الذكر هو مقصود الصلاة[١]، كما قال الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ [طه: ١٤] ولهذا كان مبناها على التحميد والتوحيد في القيام، والقعود، والتسبيح في الركوع والسجود، والتكبير في الانتقالات[٢]، فلو خلت الصلاة من الذكر كانت فاقدة لمقصودها، وصارت كالجسد بلا روح.

ويؤيد هذا المعنى قوله ﷺ في حديث معاوية بن الحكم السلمي[٣] ـ: «**إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن**»[٤]. فعبر ﷺ عن الصلاة بهذه الأذكار لبيان أنها هي مقصود الصلاة.

وهذه الأدلة المذكورة من الكتاب والسنة والنظر قاضية برجحان القول بوجوب التسبيح في الصلاة على القول بعدم وجوبه. وحديث المسيء صلاته ـ الذي استدل به القائلون بعدم الوجوب ـ لا يصلح أن يكون صارفاً لهذه الأدلة عما تقتضيه من الوجوب إلى الندب، لاحتمال أن يكون التسبيح مما يعلمه المسيء صلاته، فاقتصر النبي ﷺ على تعليمه ما رآه أساء فيه[٥]، وعليه فالحديث ليس موضوعاً لحصر واجبات الصلاة، بل لحصر ما جهله الرجل، وما أهمله في صلاته[٦]، ويؤيد هذا عدم ذكر بعض الواجبات فيه، كالجلسة الأخيرة، والتشهد الأخير، والصلاة على النبي ﷺ فيه، والسلام في

---

(١) انظر: الصواعق المرسلة، لابن قيم الجوزية: ٤/ ١٤٧٤.

(٢) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٦/ ٣٢٠.

(٣) هو صحابي كان ينزل المدينة ويسكن في بني سليم، ولم تتوفر عنه معلومات كثيرة، رضي الله عنه. انظر: تهذيب التهذيب، لابن حجر: ١٠/ ٢٠٥.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه: ١/ ٣٨١ ـ ٣٨٢، برقم (٥٣٧).

(٥) انظر: المغني، لابن قدامة: ٢/ ١٨١.

(٦) انظر: الإعلام بفوائد عمدة الأحكام، لابن الملقن: ٣/ ١٦٤.

آخر الصلاة[١]، فلم يرد في شيء من روايات الحديث أنه ﷺ علمه هذه الأمور المذكورة[٢]، في حين أنه علمه أموراً جزم بعدم وجوبها أكثر الفقهاء، كالاستفتاح، وتكبيرات الانتقال، ووضع اليدين على الركبتين في الركوع، والتسميع، والافتراش في الجلسة الوسطى[٣].

وبهذا يظهر ضعف ما قرره بعضهم من أن حديث المسيء صلاته هو المرجع في معرفة واجبات الصلاة[٤]، ويظهر كذلك ضعف قول من زعم أنه ﷺ ذكر ما تعلقت به الإساءة من هذا المصلي وما لم تتعلق به إساءته من واجبات الصلاة[٥]، فليس في سياق الحديث ما يبين أنه أساء في موضع دون موضع[٦]. وعلى التسليم بأن التعليم لم يقتصر على ما وقعت فيه الإساءة فحسب، لا يكون عدم ذكر التسبيح دليلاً على عدم الوجوب إلا بدعوى أن عدم الذكر في الرواية يدل على عدم الذكر في نفس الأمر، وهي دعوى مردودة لوجود روايات متعددة لحديث المسيء صلاته، وفي بعضها زيادات بأمور ليست في الأخرى، الأمر الذي يدل على تفاوت الرواة في ضبط الأمور التي ذكرها النبي ﷺ في تعليمه للرجل صفة الصلاة، فكل راو أدى ما تمكن من

---

(١) وهذه الأمور من الواجبات المختلف فيها سوى الجلسة الأخيرة، فهي واجبة بالاتفاق، وانظر: المصدر السابق: ٣/ ١٦٥.
(٢) انظر: فتح الباري، للحافظ ابن حجر: ٢/ ٢٨٠.
(٣) انظر: المصدر السابق: ٢/ ٢٧٨ ـ ٢٧٩، وصفة صلاة النبي ﷺ، للألباني: ص٩١، ١٢٩، ١٣٥، ١٥٧.
(٤) انظر: وبل الغمام على شفاء الأوام، للشوكاني، تحقيق محمد صبحي حلاق: ١/ ٢٦٨.
(٥) انظر: إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، لابن دقيق العيد: ٢/ ٣٦٥.
(٦) انظر: العدة حاشية الصنعاني على إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، لابن دقيق العيد: ٢/ ٣٦٠.

ضبطه، ولا يلزم أن يكون ما وردت به الروايات قد أحاط بجميع ما ذكره النبي ﷺ. نعم، يصلح أن يكون عدم الذكر دليلاً على عدم الوجوب فيما لم يقم دليل آخر على وجوبه؛ لأن الأصل عدم الوجوب، فيقوى بعدم ذكره في الحديث.

وأما إذا قام دليل بإيجاب أمر لم يذكر في حديث المسيء صلاته فالواجب المصير إليه[1]، وإسقاط وجوبه حينئذٍ لعدم ذكره في الحديث المذكور منهج خاطئ في التعامل مع نصوص الكتاب والسنة. وإذا تقرر هذا، فإن عامة الأدلة من الكتاب والسنة قد دلت على وجوب التسبيح في الصلاة، كما سبق بيانه، ولهذا صرح شيخ الإسلام ابن تيمية بأن القول بأن التسبيح ليس بواجب يخالف ظاهر الكتاب والسنة، فإن ظاهرهما مما يدل على وجوبه[2].

ويتلخص مما سبق أن ما جاء في القرآن الكريم من الأمر بالتسبيح ظاهره الوجوب، وهو محمول على التسبيح في الصلاة عند الركوع والسجود؛ لأن السنة النبوية قد بينت ذلك وعينت موضعه من الصلاة، فلزم أن يكون التسبيح واجباً في الركوع والسجود، وأما التسبيح في غيرهما فحكمه الندب؛ لأن الأدلة الواردة بالتسبيح في غير الركوع والسجود ليست دالة على الوجوب، والله تعالى أعلم.

❖ المطلب الثاني ❖

حكم تسبيح الله تعالى من حيث الاعتقاد

تبين مما سبق بحثه في التعريف بالتسبيح أن حقيقة معناه في الشرع واللغة هي التنزيه والتعظيم، أي: تنزيه الله تعالى عن كل ما لا

---

(١) انظر: إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، لابن دقيق العيد: ٢/ ٣٦٢ ـ ٣٦٦.

(٢) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٢٢/ ٥٥٠.

يليق به على جهة التعظيم[١].

فمدلول التسبيح ـ على هذا ـ اعتقادي يقوم بالقلب، ويصدقه القول والعمل، وهو: أن يعتقد العبد براءة الله تعالى عن جميع العيوب والنقائص، واختصاصه بجميع معاني العظمة والجلال، وتكون أقواله وأعماله مطابقة لهذا الاعتقاد غير مناقضة له في الظاهر والباطن.

وهذا المعنى المذكور هو المقصود الأصلي من شرع التسبيح في الإسلام؛ لأنه لا يخفى على من له علم بمقاصد الشريعة أن التسبيح وغيره من ألفاظ الذكر المشروعة، كالتهليل والتحميد والتكبير، إنما شرعت ليتعبد الناس بذكر ألفاظها واعتقاد معانيها، ولم تشرع لمجرد ألفاظها، إذ المقصود من الكلام معناه لا الألفاظ المجردة[٢]؛ ولأن هذا المعنى المذكور إذا تحقق منه العبد علم أن العقيدة في الله تعالى لا تستقيم بدونه، فهو قاعدة من قواعد العقيدة الإسلامية، وأصل من أصولها، كما سيأتي بيانه ـ إن شاء الله ـ عند الكلام على منزلة التسبيح في العقيدة، في الفصل الثالث من هذا الباب[٣].

وفي هذا تمهيد لبيان حكم التسبيح من حيث الاعتقاد؛ لأنه إذا ثبت أن المقصود الأصلي من التسبيح هو معناه لا لفظه فحسب، وأن معناه يعد من أصول العقيدة الإسلامية التي لا تستقيم عقيدة العبد إلا باعتقادها وعدم مناقضتها، تبين عظم شأن التسبيح من حيث الاعتقاد، وأنه من أوجب ما على العبد أن يعلمه ويعتقده ويعمل بمقتضاه.

ويتقرر وجوب تسبيح الله تعالى من حيث الاعتقاد بأدلة، منها:

---

(١) انظر: ص٦٨ ـ ٨٦ من هذا البحث.

(٢) انظر: مدارج السالكين، لابن القيم: ١/ ٣٣٩ ـ ٣٤٠.

(٣) انظر: ص٤٩٢.

١ ـ ما جاء في كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ من الأمر بالتسبيح. وقد تقدم أن هذا الأمر ظاهره الوجوب، وأنه يتناول تسبيح الله تعالى من حيث القول، وتسبيحه من حيث الاعتقاد[١]. وإذا كان العلماء قد اختلفوا في وجوب التسبيح من حيث القول بناءاً على اختلاف اجتهادهم في الجمع بين الأدلة الواردة في ذلك من الكتاب والسنة، فلا مجال لمثل هذا الاختلاف في وجوب التسبيح من حيث الاعتقاد؛ لأنه من مهمات المسائل الاعتقادية التي لا تختلف فيها ظواهر الأدلة من الكتاب والسنة، ولا ينازع في وجوبها عالم بمنزلة التوحيد في الدين، وحكمة التشريع في الإسلام.

٢ ـ ما جاء في كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ من إثبات الأسماء الحسنى والصفات العليا لله ﷻ، فإن على العبد حيال ذلك وظيفتين مهمتين:

الأولى: إثبات الأسماء والصفات على ظاهرها كما وردت في الكتاب والسنة، بلا تعطيل لها ولا تحريف فيها بالتأويلات الباطلة.

الثانية: تنزيه الله تعالى عن كل ما يناقض أسماءه الحسنى وصفاته العليا ويضادها من النقائص والعيوب والأنداد والأمثال.

ومن هنا فآيات الأسماء والصفات وأحاديثها دليل على وجوب تنزيه الله تعالى عما لا يليق به، كما هي دليل على وجوب إثباتها كما يليق بجلاله وعظمته[٢].

٣ ـ ما جاء في كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ من النفي في حق الله تعالى، كما سبق بيانه في مبحث الألفاظ الدالة على معنى

---

(١) انظر: ص٣٩١.

(٢) انظر: ما يأتي بيانه في ٢/ ١٣٣ من البحث.

التسبيح شرعاً[١].

فإن هذا النفي الوارد في حق الله تعالى في الكتاب أو السنة دليل على وجوب تنزيه الله سبحانه عما نفي عنه، لكون ذلك المنفي مما لا يليق به جل وعلا.

٤ ـ ما جاء في كتاب الله تعالى من ذم من خالف التنزيه بنسبة ما لا يليق بالله إليه سبحانه، كذمه تعالى من نسب إليه الفقر، في قوله ﷻ: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾﴾ [آل عمران: ١٨١].

وكذمه تعالى من نسب إليه البخل، في قوله سبحانه: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ﴾ [المائدة: ٦٤].

وذمه تعالى من نسب إليه الشريك في الألوهية، في قوله جل وعلا: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ [المائدة: ٧٣].

وذمه تعالى من نسب إليه الولد، في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [التوبة: ٣٠].

ولما نسبت اليهود الإعياء إلى الله تعالى بزعمهم أنه فرغ من الخلق يوم الجمعة واستراح يوم السبت، أكذبهم الله ﷻ[٢] في قوله

---

(١) ص١٣٣ ـ ١٤٤.

(٢) انظر: تفسير الطبري: ١١/ ٤٣٤ ـ ٤٣٥.

تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾ [ق: ٣٨].

فهذه الآيات ونظيراتها من الآيات التي ذم الله تعالى فيها من خالف مقتضى تنزيهه فنسب إليه ما يتعالى عنه من النقائص المتصلة أو المنفصلة[١]، دليل على وجوب تنزيه الله تعالى، وعلى تحريم كل ما يخالف مقتضى التنزيه والتعظيم من الأقوال والأعمال والاعتقادات.

وتبين بهذه الأدلة المذكورة ونحوها أن تسبيح الله تعالى من حيث الاعتقاد ـ وهو تنزيهه سبحانه عما لا يليق به على جهة التعظيم ـ واجب مقرر وجوبه بأنواع من الأدلة في الكتاب والسنة، وأن عدم تسبيح الله تعالى من حيث الاعتقاد معصية عظمى؛ لأنه يناقض سلامة العقيدة في الله ﷻ وصحتها.

ويناسب هنا بيان ما بين التسبيح من حيث الاعتقاد والتسبيح من حيث القول من الفروق، وذلك في أمور:

• **أحدها**: أن التسبيح من حيث الاعتقاد مسألة عقدية يقوم مسماه بالقلب، ولا بد أن يوافقه القول والعمل.

والتسبيح من حيث القول مسألة عملية يحصل مسماه بقول: (سبحان الله) ونحوه باللسان، ولا بد أن يواطئ القلب فيه اللسان.

• **الثاني**: أن التسبيح من حيث الاعتقاد واجب متفق عليه، فلا يعلم أحد من المسلمين يقول بعدم وجوب تنزيه الله تعالى وتعظيمه[٢]، إلا أن ثمة اختلافاً في مفهوم هذا التنزيه ومنهج تطبيقه قولاً وعملاً بين

---

(١) انظر: ما سبق بيانه في أقسام النقائص: ص١٥١ ـ ١٥٤.

(٢) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٢/١٨٩، ولوامع الأنوار البهية، للسفاريني: ١/١٠٤ ـ ١٠٥.

أهل السنة والجماعة وغيرهم من الفرق المنتسبة إلى الإسلام، كما سيأتي الكلام فيه ـ إن شاء الله تعالى ـ عند بيان المفاهيم الخاطئة في التسبيح والرد عليها في الباب الخامس من هذا البحث.

أما التسبيح من حيث القول فمختلف في وجوبه في الصلاة خاصة، وهو مندوب بالاتفاق في المواضع الأخرى التي يشرع فيها، كما سيأتي ذكرها ـ إن شاء الله تعالى ـ في الباب الثالث من هذا البحث.

• **الثالث**: أن من لم يسبح الله تعالى من حيث الاعتقاد فهو كافر أو على خطر كبير في دينه، لما يلزم من عدم تسبيح الله من حيث الاعتقاد من مخالفة مقتضى تنزيه الله تعالى وتعظيمه، وفساد العقيدة في الله ﷻ.

وأما من لم يسبح الله تعالى من حيث القول، فليس بكافر، وإن كان عاصياً بتركه التسبيح باللفظ في الصلاة، عند من يقول بوجوبه ـ وهو الراجح ـ كما سبق.

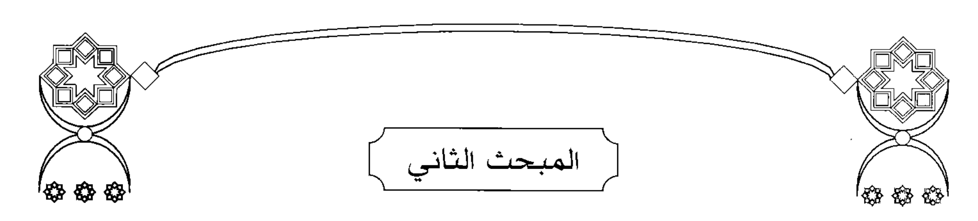
وخلاصة القول في حكم تسبيح الله تعالى: أن التسبيح عبادة قولية اعتقادية ورد الأمر بها في الكتاب والسنة، وعلى العبد تحقيقها لفظاً ومعنى، فيكون عند نطقه بلفظ التسبيح في الصلاة أو خارجها مستحضراً معناه بقلبه معتقداً له، ويكون بذلك قد أتى بالتسبيح على التمام والكمال إن شاء الله تعالى.

وأما الاعتناء بتحقيق التسبيح من حيث القول مع الإخلال به من حيث الاعتقاد فليس بنافع صاحبه؛ لأن صلاح الأقوال والأعمال بصلاح اعتقاد القلب مع سلامة منهج العبادة. وقد ذكر أهل العلم أن ذكر الله تعالى ـ ومنه تسبيحه ـ على ثلاث درجات: «ذكر يتواطأ عليه القلب واللسان، وهو أعلاها. وذكر بالقلب وحده، وهو في الدرجة

الثانية. وذكر باللسان المجرد، وهو في الدرجة الثالثة»[١].

فليبادر من يريد لنفسه الفلاح والسعادة إلى تسبيح الله ﷻ بالقول والاعتقاد وفق ما كان عليه رسول الله ﷺ وصحابته - رضوان الله عليهم - والتابعون لهم بإحسان، والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

(١) انظر: مدارج السالكين، لابن القيم: ٢/ ٤٠٣.



حكم تسبيح غير الله تعالى

قد تبين في المبحث الماضي حكم تسبيح الله تعالى من حيث القول ومن حيث الاعتقاد، ويحتاج مع ذلك إلى بيان ما إذا كان التسبيح بمدلوليه القولي والاعتقادي مما يختص بالله تعالى فلا يجوز تسبيح غيره من المخلوقين، لا من حيث القول ولا من حيث الاعتقاد، وما إذا كان التسبيح مما لا يختص به تعالى فيجوز أن يسبح غيره من المخلوقين قولاً أو اعتقاداً.

وهذه المسألة ذات أهمية في هذا الباب، ليكون المرء على بينة في أمر التسبيح، وليتخلص ـ بإذن الله ـ من الزلل الكبير الذي وقعت فيه بعض الطوائف في هذا الأمر.

وسيكون بيان حكم تسبيح غير الله تعالى بالكلام عليه من حيث القول ومن حيث الاعتقاد، على غرار ما سبق في حكم تسبيح الله تعالى، وذلك في المطلبين التاليين:

❖ المطلب الأول ❖

حكم تسبيح غير الله من حيث القول

المقصود هنا استعمال لفظ التسبيح بمشتقاته مقروناً باسم غير الله تعالى أو ضميره العائد إليه أو المفسر به، كإضافة لفظ (سبحان) إلى اسم مخلوق، نحو: «سبحان فلان»، أو ضميره، نحو: «فلان سبحانه».

وكتعدية فعل (سبح) ماضياً، أو مضارعاً، أو أمراً، إلى اسم المخلوق أو ضميره، نحو: سبح فلان فلاناً، وسبح فلان لفلان، وسبحه، وسبح له.

ونحو: يسبح فلان فلاناً، ويسبح لفلان، ويسبحه، ويسبح له.

ونحو: سبح فلاناً، وسبح لفلان، وسبح باسم فلان، وسبحه، وسبح له.

فهذه أمثلة للصور اللفظية الممكنة في تسبيح غير الله تعالى كما يؤخذ من الصور اللفظية الواردة في تسبيح الله ﷻ.

وقد اتفقت أقوال أهل العلم على أن تسبيح غير الله تعالى من حيث القول لا يجوز شرعاً ولا لغة.

أما لغة فلما ذكره بعض أهل اللغة من أن العرب لا تستعمل لفظ (سبحان) مضافاً إلا إلى الله، أو إلى ضميره، أو إلى الرب، ولم يسمع إضافته إلى غيره[(١)].

ولا يعارض هذا القول ما جاء في قول الشاعر:

«أقول لما جاءني فخره سبحان من علقمة الفاخر»[(٢)]

وإن زعم بعضهم أن (سبحان) في هذا البيت مضاف إلى (علقمة)، وأن تقديره: (سبحان علقمة)، فزاد الشاعر فيه (من) رداً إلى أصله، وأنه أضاف (سبحان) إلى (علقمة) على سبيل التهكم[(٣)(٤)].

---

(١) انظر: المقتضب، للمبرد: ٣/٢١٧، وخزانة الأدب، للبغدادي: ٣/٣٩٨، و٧/٢٤٥.

(٢) سبق تخريجه في ص٥٤ من هذا البحث.

(٣) التهكم: الاستهزاء، انظر: القاموس المحيط: مادة (هكم): ص١٥١١.

(٤) انظر: مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني: ص٣٩٣،

وهذا الزعم مردود لأمرين:

أحدهما: ما سبق ذكره من أن العرب لا تستعمله مضافاً إلى غير الله تعالى.

الثاني: أن حرف (من) لا يزاد في كلام موجب، على قول جمهور أهل العربية[١].

وإذا علم هذا فقد تقدم أن قوله: (سبحان من علقمة) في البيت المذكور، أصله: (سبحان الله من علقمة)، فـ (سبحان) مضاف إلى لفظ الجلالة، ولكن الشاعر حذفه ضرورة للعلم به، ولهذا أبقى لفظ (سبحان) على فتحه غير منون؛ لأنه مضاف حكماً[٢] وهذا البيت قاله الشاعر على سبيل التعجب، وحرف (من) داخل على المتعجب منه، وهو (علقمة)، فالتقدير: (سبحان الله من أجل علقمة الفاخر)، يعجب من فخره[٣].

وذكر بعض المفسرين أن التسبيح من الأسماء التي لا تضاف لغير الله تعالى، وكذلك أسماء المصدر منه، نحو: سبحان الله[٤]، وهذا يؤيد ما سبق ذكره عن بعض أهل اللغة.

وأما شرعاً، فلما جاء في الأثر عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه سئل عن (سبحان الله) فقال: «كلمة رضيها الله عز وجل لنفسه»[٥].

---

(١) انظر: مغني اللبيب، لابن هشام: ص٤٢٥ ـ ٤٢٩، وخزانة الأدب، للبغدادي: ٣/٣٩٧ ـ ٣٩٨، و٧/٢٤٥.

(٢) انظر: ما سبق ذكره في استعمالات (سبحان) في كلام العرب: ص٥٩ من البحث.

(٣) انظر: مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني: ص٣٩٣، والدر المصون، للسمين الحلبي: ١/٢٥٩، وخزانة الأدب، للبغدادي: ٣/٣٩٨.

(٤) تفسير التحرير والتنوير، لابن عاشور: ٣٠/٢٧٣.

(٥) رواه الطبراني في كتاب الدعاء: ٣/١٥٩٣، برقم (١٧٥٨)، وإسناده حسن.

ويروى مثل هذا القول عن علي ﷺ، ولكن بإسناد فيه ضعف[١].

ويدل هذا الأثر على أن لفظ التسبيح مختص بالله تعالى؛ لأنه تعالى قد رضيه لنفسه دون غيره.

وجاء في أثر آخر عن الحسن البصري ﷺ قال: «سبحان الله: اسم لا يستطيع الناس أن ينتحلوه[٢]»[٣].

وفي رواية قال: «اسم ممنوع لم يستطع أحد من الخلق أن ينتحله»[٤].

وهذا الأثر يؤكد اختصاص الله تعالى بلفظ التسبيح، وأن الخلق ممنوعون من انتحاله، لكونه مختصاً بالخالق ﷻ. وجاء عن كثير من أهل العلم أقوال بمضمون هذه الآثار، والتصريح بعدم جواز تسبيح غير الله تعالى:

• قال الماوردي: «ولا يجوز أن يسبح غير الله، وإن كان منزهاً؛ لأنه صار علماً في الدين على أعلى مراتب التعظيم التي لا يستحقها إلا الله تعالى»[٥].

• وقال أبو المظفر السمعاني: «وكلمة (سبحان) كلمة ممتنعة، لا يجوز أن يوصف بها غير الله؛ لأن المبالغة في التعظيم لا تليق لغير الله»[٦].

---

(١) رواه الطبراني في الدعاء: ٣/ ١٥٩٣ برقم (١٧٦٠، ١٧٦١).
(٢) أن ينتحلوه، أي: أن يدعوه، يقال: انتحله وتنحله: إذا دعاه لنفسه وهو لغيره، انظر: القاموس المحيط: مادة (نحل): ص١٣٧١.
(٣) رواه ابن أبي حاتم في تفسير القرآن العظيم، بتحقيق الدكتور أحمد الزهراني: ١/ ١١٧.
(٤) رواه الطبراني في كتاب الدعاء: ٣/ ١٥٩٤، برقم (١٧٦٥).
(٥) النكت والعيون: ١/ ٩٧.
(٦) تفسير القرآن: ٣/ ٢١٢.

• وقال تاج القراء الكرماني[(١)]: «سبحان: كلمة اتخذها الله لنفسه»[(٢)].

• وقال القرطبي - في كلام له على لفظ (سبحان) -: «فهو ذكر عظيم لله تعالى لا يصلح لغيره»[(٣)].

• وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وأصناف العبادات الصلاة بأجزائها مجتمعة، وكذلك أجزاؤها التي هي عبادة بنفسها، من السجود، والركوع، والتسبيح، والدعاء، والقراءة، والقيام، لا يصلح إلا لله وحده»[(٤)].

• وقال السمين الحلبي[(٥)] - في كلام له على لفظ (سبحان) -: «وهو مختص بالباري تعالى»[(٦)].

• وقال الحافظ ابن ناصر الدين[(٧)] - في شرح (سبحان الله

---

(١) هو محمود بن حمزة بن نصر الكرماني، أبو القاسم، برهان الدين، المعروف بتاج القراء، كان مقرئاً مفسراً، وفقيهاً شافعياً، وله مصنفات، وتوفي سنة (٥٠٠هـ)، رحمه الله. انظر: معجم المؤلفين، لكحالة: ٣/ ٨٠٤.

(٢) غرائب التفسير وعجائب التأويل: ١/ ٦١٩.

(٣) الجامع لأحكام القرآن: ١٠/ ٢٠٤.

(٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١/ ٧٤.

(٥) هو أحمد بن يوسف بن عبد الدائم الحلبي، شهاب الدين، المعروف بالسمين، كان مقرئاً مفسراً فقيهاً نحوياً أديباً، وله عدة مصنفات مفيدة، وتوفي سنة (٧٥٦هـ)، رحمه الله تعالى: انظر: الدرر الكامنة، لابن حجر العسقلاني: ١/ ٣٣٩ - ٣٤٠، وشذرات الذهب، لابن العماد: ٦/ ١٧٩.

(٦) الدر المصون: ١/ ٢٥٩.

(٧) هو محمد بن أبي بكر عبد الله بن محمد بن أحمد القيسي، أبو عبد الله، شمس الدين، الدمشقي، المعروف بابن ناصر الدين، كان علامة حافظاً، ذا سيرة حميدة ونصرة للسنة، وله مؤلفات عديدة في الحديث والتاريخ، وتوفي سنة (٨٤٢هـ)، رحمه الله تعالى. انظر: شذرات الذهب، لابن العماد: =

وبحمده، سبحان الله العظيم) الوارد في الحديث[١] ـ: «ولما كان التسبيح والتقديس خالصاً لله ﷻ، لا يستحق ذلك سواه، أضيف في هاتين الكلمتين إلى أخص الأسماء، وهو الله»[٢] اهـ.

وهذه أمثلة لأقوال أهل العلم في حكم تسبيح غير الله من حيث اللفظ، وقد تبين بها وبما قبلها أن أهل اللغة وأهل العلم بالشرع متفقون على أن لفظ التسبيح مختص بالله تعالى كيفما تصرف، وأن الله ﷻ وحده المستحق للتسبيح من حيث اللفظ، فلا يجوز تسبيح غير الله تعالى أيا كان.

ويؤيد هذا الحكم ويقرره قوله تعالى: ﴿لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٩﴾ [الفتح: ٩].

فإن المفسرين من السلف والخلف مجمعون على أن الضمير في قوله: ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ راجع إلى الله تعالى، على الرغم من اختلافهم في مرجع الضميرين اللذين قبله في قوله: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾: فأكثرهم على أنهما يرجعان إلى الرسول ﷺ، وبعضهم على أن الضمائر الثلاثة كلها راجعة إلى الله تعالى[٣].

وفي هذا دليل على اختصاص لفظ التسبيح بالله تعالى دون غيره، وإلا لجاز إرجاع الضمير في قوله: ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ إلى الرسول ﷺ، كما

= ٧/ ٢٤٣ ـ ٢٤٥، والبدر الطالع، للشوكاني: ٢/ ١٩٨ ـ ١٩٩.

(١) هو حديث: «**كلمتان خفيفتان على اللسان... إلخ**». سبق تخريجه في ص(٢٣٦).

(٢) التنقيح في حديث التسبيح: ص١٢١.

(٣) انظر: النكت والعيون، للماوردي: ٥/ ٣١٣، وتفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني: ٥/ ١٩٣ ـ ١٩٤، والمحرر الوجيز، لابن عطية: ١٥/ ٩٤، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ١٦/ ٢٦٦ ـ ٢٦٧.

أرجع الأكثر الضميرين إليه في قوله: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾، وستأتي زيادة إيضاح لهذه الآية في المباحث اللاحقة إن شاء الله تعالى.

ويعلم بما سبق أن التسبيح عبادة قولية وشعيرة لفظية يجب إفراد الله تعالى بها، وعدم إشراك غيره فيها، كسائر العبادات المشروعة في الإسلام[(١)].

❖ المطلب الثاني ❖

حكم تسبيح غير الله من حيث الاعتقاد

لقد ظهر من تعليلات أهل العلم لعدم جواز استعمال لفظ التسبيح في حق غير الله تعالى أن هذا الحكم مرتبط بالمعنى الذي وضع له لفظ التسبيح، فإنه لما دل على التعظيم البليغ، والتنزيه الكامل عن جميع النقائص والعيوب والأمثال لم يجز استعماله في حق غير الله تعالى.

وهذا يعني أن المعنى المذكور لا يستحقه غير الله تعالى، فلذلك لم يستحق اللفظ الدال عليه.

ولا شك أن التسبيح من حيث المعنى إذا تصوره العبد المؤمن المنور العقل بنور الكتاب والسنة، علم أنه لا يمكن أن يتحقق في غير الله تعالى؛ لأن غيره لا يكون إلا مخلوقاً، والمخلوق ـ أيا كان ـ متصف بالنقص، مكافأ بالأمثال والأنداد، وإن كان ذلك النقص، وتلك المكافأة على تفاوت بحسب الأجناس والأنواع والأعيان، ويكفي أن المخلوق مفتقر في وجوده إلى خالقه وإلهه الحق ﷻ، وأنه لا استقلال له بشيء أصلاً إلا أن يشاء الله ﷻ ذلك ويقدره.

ولهذا لما اقترح كفار مكة على الرسول ﷺ ما اقترحوه من

(١) انظر: شرح القصيدة النونية، لهراس: ٢/ ٢٠٣.

الآيات التي يعجز عن مثلها البشر ـ كما ذكر الله تعالى ذلك في قوله: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾﴾ الآيات [الإسراء: ٩٠ ـ ٩٣] ـ أمره الله جل وعلا أن يجيبهم بقوله تعالى: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٣]، فبدأ بتسبيح الله تعالى لإفادة أنه منزه من كل نقص، ومنه أنه لا يعجز عن فعل ما اقترحوه من الآيات، ولكنه تعالى لا ينزل الآيات على ما يقترحه الناس[(١)]. ثم عقب التسبيح بالإقرار بأنه بشر ـ ومن شأن البشر العجز عن فعل مقترحاتهم ـ، غير أنه رسول يبلغ ما أرسل به من عند الله تعالى[(٢)].

وفي هذا دليل على عجز البشر، وأنه ليس بأيديهم شيء من الأمر. ونظير هذا ما أخبر به الرسول ﷺ عن نفسه، عندما سها في الصلاة، فقال: «**إنما أنا بشر مثلكم، أنسى كما تنسون، فإذا نسيت فذكروني**»[(٣)].

قال الحافظ ابن حجر: «وفيه دليل على جواز وقوع السهو من الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ في الأفعال»[(٤)].

ومما يحسن ذكره هنا أيضاً ما سبق بيانه عند الكلام على قرن التسبيح بالاستغفار ـ في نحو قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴿٣﴾﴾ [النصر: ٣] ـ من أن لذلك مناسبة تامة، وهي تضمنه الإقرار بكمال الرب ﷻ، وتنزهه عن النقائص والعيوب،

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ٨/١٤٩، وتفسير البغوي: ٥/١٣٠. وانظر: ما سبق في ص١٨١.

(٢) انظر: المصدرين السابقين، والموضع السابق.

(٣) جزء من حديث أخرجه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ١/٥٠٣، برقم (٤٠١)، ومسلم في صحيحه: ١/٤٠٠، برقم (٥٧٢).

(٤) فتح الباري: ١/٥٠٤.

والإقرار بنقص العبد، وتقصيره في حق ربه، وافتقاره إلى ربه وإلى غفرانه[(١)].

ويؤكد هذا النقص والتقصير والافتقار إلى الله تعالى وإلى غفرانه في العبد، ما حكى الله سبحانه عن أبوي البشر، في قوله ﷻ: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأعراف: ٢٣]، وهذا تعبير منهما عن حالهما وحال بنيهما.

وإذا كان هذا حال سيد ولد آدم، وأكملهم في الصفات الحميدة، محمد ﷺ، وحال أبويهم آدم وحواء، فكيف بمن دون هؤلاء في الكمال البشري؟

فالكمال المطلق المبرأ عن جميع النقائص والعيوب، وعن المماثلة، هو لله تعالى وحده لا شريك له، على حد قوله ﷻ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

وهنا يظهر السر في إجماع المفسرين ـ من السلف والخلف ـ على رجوع الضمير في ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ إلى الله تعالى دون الرسول ﷺ، في قوله تعالى: ﴿لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾﴾ [الفتح: ٩].

قال ابن جرير الطبري: «والهاء في قوله: ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ من ذكر الله وحده دون الرسول»[(٢)].

وقال أبو جعفر النحاس[(٣)]: «يجوز أن يكون ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ لله

---

(١) انظر: ص٢٤٣ من هذا البحث. (٢) تفسير الطبري: ١١/٣٣٨.

(٣) هو أحمد بن محمد بن إسماعيل المرادي، أبو جعفر، المصري النحوي، المعروف بالنحاس، كان لغوياً مفسراً أديباً، وله مصنفات كثيرة في التفسير وغيره، وتوفي سنة (٣٣٨هـ) رحمه الله تعالى. انظر: البداية والنهاية، لابن كثير: ١١/٢٣٦، وشذرات الذهب، لابن العماد: ٢/٣٤٦.

جل وعز وحده، ويجوز أن يكون للنبي ﷺ. فأما قوله تعالى: ﴿وَتُسَبِّحُوهُ بُكۡرَةً وَأَصِيلًا﴾، فلا يجوز أن يكون إلا لله جل وعز؛ لأنه ليس يخلو من أن يكون معناه ـ كما قال جويبر[1] ـ: وتصلوا له، أو يكون معناه: وتعظموه وتنزهوه»[2].

فهذه الآية دليل صريح على أن التعظيم المطلق والتنزيه المطلق الذي هو معنى التسبيح خاص بالله تعالى، لا يجوز أن يشاركه فيه غيره، لا الرسول ﷺ ولا أحد سواه.

وذكر كثير من أهل العلم أن الآية اشتملت على ثلاثة أنواع من الحقوق، هي: الحق المشترك بين الله تعالى وبين رسوله ﷺ، والحق المختص بالرسول ﷺ، والحق المختص بالله وحده.

فالإيمان بالله ورسوله حق مشترك، والتعزير والتوقير حق الرسول ﷺ، والتسبيح حق الله تعالى[3].

وفي بيان هذه الحقوق الثلاثة يقول الإمام ابن قيم الجوزية:

لله حق لا يكون لغيره ... ولعبده حق هما حقان

---

(١) هو جويبر ـ تصغير جابر ـ ابن سعيد الأزدي، أبو القاسم، البلخي، يقال: اسمه جابر، وجويبر لقب، وعداده في الكوفيين، توفي بعد سنة (١٤٠هـ)، رحمه الله تعالى. وعن يحيى القطان قال: «تساهلوا في أخذ التفسير عن قوم لا يوثقونهم في الحديث» ـ وذكر منهم: جويبر ـ قال: «هؤلاء لا يحمل حديثهم، ويكتب التفسير عنهم». انظر: تهذيب التهذيب، لابن حجر العسقلاني: ٢/ ١٢٣ ـ ١٢٤.

(٢) معاني القرآن: ٦/ ٥٠٠.

(٣) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٣/ ٢٧٢، واقتضاء الصراط المستقيم، له: ٢/ ٨٢٩، وطريق الهجرتين، لابن القيم: ص٤٨٢، وتيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للسعدي: ص٧٩٢، وشرح القصيدة النونية، لهراس: ٢/ ٢٠٤.

لا تجعلوا الحقين حقا واحدا ... من غير تمييز ولا فرقان
فالحج للرحمن دون رسوله ... وكذا الصلاة وذبح ذي القربان
وكذا السجود ونذرنا ويميننا ... وكذا متاب العبد من عصيان
وكذا التوكل والإنابة والتقى ... وكذا الرجاء وخشية الرحمن
وكذا العبادة واستعانتنا به ... إياك نعبد ذان توحيدان
وعليهما قام الوجود بأسره ... دنيا وأخرى حبذا الركنان
وكذلك التسبيح والتكبير والتـ ... هليل حق إلهنا الديان
لكنما التعزير والتوقير حق ... للرسول بمقتضى القرآن
والحب والإيمان والتصديق لا ... يختص بل حقان مشتركان
هذي تفاصيل الحقوق ثلاثة ... لا تجهلوها يا أولي العدوان»[(١)]

وإذا ثبت أن التسبيح ـ من حيث القول ومن حيث الاعتقاد ـ حق الله تعالى، فإن تسبيح غيره ـ سواء أكان بالقول أم بالاعتقاد ـ شرك بالله سبحانه، وهو ظلم عظيم.

وعلم العبد بهذا الحكم وأن الله هو المسبح وحده قولاً واعتقاداً، يعرفه بالانحراف الجسيم الذي وقع فيه بعض الطوائف في حق ربهم، حيث عدلوا به بعض خلقه، فسبحوهم ونزهوهم وعظموهم واعتقدوا فيهم الكمال الذي لا يليق إلا بالله ﷻ، ومن ثم صرفوا لهم أنواعاً من العبادة التي هي محض حق الله تعالى الذي لا يصلح ولا ينبغي لسواه من ملك مقرب، أو نبي مرسل، أو عبد صالح.

وسبحان الله وتعالى عن أن يكون له من خلقه عديل، وعن أن يستحق التسبيح أحد سواه.

---

(١) الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية «القصيدة النونية»: ص٢٨٨ ـ ٢٨٩.



الفصل الثاني

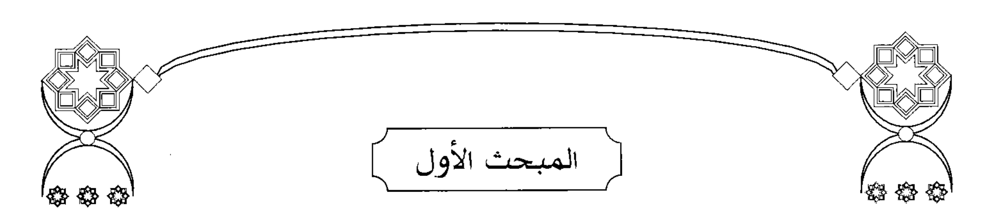
فضل التسبيح

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: الفضل المختص بالتسبيح.

المبحث الثاني: الفضل المشترك للتسبيح.

المبحث الثالث: المفاضلة بين التسبيح وبين التحميد والتهليل والتكبير



الفضل المختص بالتسبيح

تبين من الفصل السابق أن التسبيح حق من حقوق الله تعالى التي يجب إفراده بها، وأنه عبادة عظيمة شرعها الله تعالى في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ، وأمر بها عباده أمر إيجاب تارة، وأمر ندب تارة أخرى.

وقد خص الله تعالى التسبيح بأنواع من الفضل، ووعد عليه أصنافاً من الأجر، ورد في بيانها نصوص كثيرة من الكتاب والسنة. ولا يمكن حصر هذه النصوص ولا استقصاؤها في هذا المبحث، لكثرتها وتعدد مظانها في دواوين السنة المختلفة، لكن هذا المبحث يتضمن جملة طيبة منها، بدءاً بما ورد في كتاب الله تعالى، ثم بما ورد في سنة رسول الله ﷺ، وانتهاء بأفضل صيغ التسبيح الواردة، وذلك في مطالب ثلاثة:

المطلب الأول: ما ورد في كتاب الله تعالى من الفضل المختص بالتسبيح.

المطلب الثاني: ما ورد في سنة رسول الله ﷺ من الفضل المختص بالتسبيح.

المطلب الثالث: أفضل صيغ التسبيح.

وبيانها فيما يلي:

❖ المطلب الأول ❖

ما ورد في كتاب الله تعالى من الفضل المختص بالتسبيح

دل كتاب الله تعالى على فضل التسبيح من أوجه متنوعة في مواضع متعددة، ويمكن إبراز ذلك في الأمور الآتية:

أولاً: كثرة ذكر التسبيح في كتاب الله تعالى مستوعباً من جميع جهات تصريفه[(١)].

فقد ذكر التسبيح بصيغة الماضي أربع مرات، في أربع آيات، من أربع سور[(٢)].

وذكر بصيغة المضارع عشرين مرة، في تسع عشرة آية، من سبع عشرة سورة[(٣)].

وذكر بصيغة الأمر ثماني عشرة مرة، في سبع عشرة آية، من أربع عشرة سورة[(٤)].

---

(١) انظر: غرائب التفسير، لتاج القراء الكرماني: ١/ ٦١٩، وفتح الباري، لابن حجر العسقلاني: ١٣/ ٥٤١.

(٢) هي: سورة السجدة، الآية: ١٥، وسورة الحديد، والحشر، والصف الآية: ١ من كل منها.

(٣) هي: سورة البقرة، الآية: (٣٠)، وسورة الأعراف، الآية: ٢٠٦، وسورة الرعد، الآية: ١٣، وسورة الإسراء، الآية: ٤٤، وسورة طه، الآية: ٣٣، وسورة الأنبياء، الآيتان: ٢٠، ٧٩، وسورة النور، الآيتان: ٣٦ و٤١، وسورة ص، الآية: ١٨، وسورة الزمر، الآية: ٧٥، وسورة غافر، الآية: ٧، وسورة فصلت، الآية: ٣٨، وسورة الشورى، الآية: ٥، وسورة الفتح، الآية: ٩، وسورة الحشر، الآية: ٢٤، وسورة الجمعة، والتغابن، الآية: ١ منهما، وسورة القلم، الآية: ٢٨.

(٤) هي: سورة آل عمران، الآية: ٤١، وسورة الحجر، الآية: ٩٨، وسورة مريم، الآية: ١١، وسورة طه، الآية: ١٣٠، وسورة الفرقان، الآية: ٥٨، =

وذكر بصيغة الوصف (اسم الفاعل) مرتين، في سورة واحدة[١].

وذكر بصيغة المصدر «تسبيح» مرتين، في سورتين[٢].

وذكر بصيغة الاسم «سبحان» إحدى وأربعين مرة، في إحدى وأربعين آية، من سبع وعشرين سورة[٣].

والحاصل من هذا كله: أن التسبيح - بتصاريفه المختلفة - مذكور في كتاب الله تعالى سبعاً وثمانين مرة، في ثلاث وثمانين آية، من سبع وأربعين سورة[٤].

= وسورة الأحزاب، الآية: ٤٢، وسورة غافر، الآية: ٥٥، وسورة ق، الآيتان: ٣٩ - ٤٠، وسورة الطور، الآيتان: ٤٨ - ٤٩، وسورة الواقعة، الآيتان: ٧٤، ٩٦، وسورة الحاقة، الآية: ٥٢، وسورة الإنسان، الآية: ٢٦، وسورة الأعلى، الآية: ١، وسورة النصر، الآية: ٣.

(١) هي: سورة الصافات، الآيتان: ١٤٣، ١٦٦.

(٢) هما: سورة الإسراء، الآية: ٤٤، وسورة النور، الآية: ٤١.

(٣) هي: سورة البقرة، الآيتان: ٣٢، ١١٦، وسورة آل عمران، الآية: ١٩١، وسورة النساء، الآية: ١٧١، وسورة المائدة، الآية: ١١٦، وسورة الأنعام، الآية: ١٠٠، وسورة الأعراف، الآية: ١٤٣، وسورة التوبة، الآية: ٣١، وسورة يونس، الآيات: ١٠، ١٨، ٦٨، وسورة يوسف، الآية: ١٠٨، وسورة النحل، الآيتان: ١، ٥٧، وسورة الإسراء، الآيات: ١، ٤٣، ٩٣، ١٠٨، وسورة مريم، الآية: ٣٥، وسورة الأنبياء، الآيات: ٢٢، ٢٦، ٨٧، وسورة المؤمنون، الآية: ٩١، وسورة النور، الآية: ١٦، وسورة الفرقان، الآية: ١٨، وسورة النمل، الآية: ٨، وسورة القصص، الآية: ٦٨، وسورة الروم، الآيتان ١٧، ٤٠، وسورة سبأ، الآية: ٤١، وسورة يس، الآيتان: ٣٦، ٨٣، وسورة الصافات، الآيتان: ١٥٩، ١٨٠، وسورة الزمر، الآيتان: ٤، ٦٧، وسورة الزخرف، الآيتان: ١٣، ٨٢، وسورة الطور، الآية: ٤٣، وسورة الحشر، الآية: ٢٣، وسورة القلم، الآية: ٢٩.

(٤) اعتمدت في هذا الإحصاء على: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، وضع: محمد فؤاد عبد الباقي.

ومن بين هذه السور سبع سور افتتحت بالتسبيح(١)، وتسمى بالمسبحات.

فورود التسبيح بهذا الكم والكيف في كتاب الله تعالى دليل على فضله وجلالة قدره عند الله ﷻ.

ثانياً: تخصيص التسبيح بالأمر به بعد الأمر بالذكر عموماً مع اندراجه في هذا العموم.

وقد وقع هذا التخصيص في موضعين من كتاب الله تعالى:

١ - في قوله تعالى - لنبيه زكريا عليه السلام -: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ [آل عمران: ٤١].

٢ - وفي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ [الأحزاب: ٤١ - ٤٢].

كما وقع تخصيص التسبيح قبل عموم الذكر في قول الله تعالى - حكاية عن نبيه موسى وهارون عليهما السلام -: ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ [طه: ٣٣، ٣٤]. فتخصيص التسبيح بالنص عليه في هذه الآيات مع اندراجه في عموم الذكر، لا شك أن ذلك دليل على مزيد شرفه وإنافة ثوابه، وأنه عمدة في ذكر الله تعالى(٢).

ثالثاً: إطلاق التسبيح على الذكر عموماً، وعلى الصلاة، وعلى سائر العبادات القولية والعملية.

فقد تقدم في مبحث معاني التسبيح في الشرع أن له مفهوماً واسعاً، حيث ورد في الشرع إطلاقه على الذكر عموماً، وعلى الصلاة،

---

(١) هي: سورة الإسراء، والحديد، والحشر، والصف، والجمعة، والتغابن، والأعلى.

(٢) انظر: تفسير أبي السعود: ١٠٦/٧، وفتح البيان، لصديق حسن القنوجي: ١٠٣/١١.

وعلى العبادة، وغير ذلك من المعاني، وتقدم هناك ذكر الشواهد من كتاب الله عز وجل[١].

ويظهر أن إطلاق التسبيح على هذه المعاني المتعددة هو مما انفرد به من بين ألفاظ الذكر المعروفة، ففي ذلك فضيلة للتسبيح، حيث دخل في معناه جميع أنواع العبادة.

رابعاً: ورود التسبيح معللاً به إرسال النبي محمد ﷺ. وذلك في قول الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾﴾ [الفتح: ٨، ٩]. فإن اللام في قوله: ﴿لِّتُؤْمِنُوا۟﴾ حرف تعليل متعلق بقوله: ﴿أَرْسَلْنَٰكَ﴾، ويفيد أن ما هو مذكور بعد اللام مرتب على إرساله ﷺ، أي: أرسلناك لتقوموا بالإيمان بالله ورسوله[٢]، وقوله: ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ معطوف على قوله: ﴿لِّتُؤْمِنُوا۟﴾ فدل ذلك على أن تسبيح الله تعالى من الأمور الهامة التي أرسل رسول الله ﷺ من أجل القيام بها، وفي هذا دليل واضح على فضل التسبيح.

خامساً: أمر الله تعالى لنبيه محمد ﷺ بالإعلان عن التسبيح. وذلك في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف: ١٠٨].

والشاهد هنا في قوله: ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾، فإنه ـ كما سبق[٣] ـ إما معطوف على قوله: ﴿هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ﴾. وإما معطوف على قوله: ﴿أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ﴾، وأيا كان ذلك ففيه إعلاء لشأن التسبيح وبيان لمكانته العظيمة في دين الرسول ﷺ.

---

(١) انظر: ص٦٧ من البحث.
(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، للسعدي: ص٧٩٢.
(٣) انظر: ص٣١١ من البحث.

سادساً: ثناء الله تعالى على المشتغلين بالتسبيح.

وذلك كما في قوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾﴾ [النور: ٣٦، ٣٧].

وكما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾﴾ [السجدة: ١٥].

ففي هاتين الآيتين بيان لفضل التسبيح وأنه وظيفة المؤمنين بالله تعالى.

سابعاً: حكاية الله تعالى عن الملائكة الكرام تمدحهم بتسبيحهم[(١)].

وذلك كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [البقرة: ٣٠].

وكما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ [الصافات: ١٦٥، ١٦٦].

فتمدح الملائكة بالتسبيح ـ كما في هاتين الآيتين ـ دليل على أهميته وعظيم فضله عند الله تعالى.

ثامناً: أن التسبيح عون على الصبر وسبب لزوال الكرب.

ومما دل عليه كتاب الله من فضل التسبيح أن الله تعالى يعين به على الصبر، وينجي به من الكرب، ولهذا أمر الله تعالى نبيه محمداً ﷺ

---

(١) انظر: ما سبق بيانه في تسبيح الملائكة، ص٢٧٦.

بالتسبيح بعد أمره إياه بالصبر في عدة مواضع من القرآن الكريم، وهي:

١ ـ قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾﴾ [طه: ١٣٠].

٢ ـ وقوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَـٰرِ ﴿٥٥﴾﴾ [غافر: ٥٥].

٣ ـ وقوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾﴾ [ق: ٣٩].

٤ ـ وقوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾﴾ [الطور: ٤٨].

٥ ـ وقوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾﴾ [الإنسان: ٢٤ ـ ٢٦].

فهذه خمسة مواضع من كتاب الله تعالى يأمر فيها نبيه ﷺ بالتسبيح بعد أمره له بالصبر. قال الشيخ العلامة محمد الأمين الشنقيطي: «وأمره له بالتسبيح بعد أمره له بالصبر على أذى الكفار فيه دليل على أن التسبيح يعينه الله به على الصبر المأمور به» اهـ[1].

وهكذا أمر الله تعالى نبيه ﷺ بالتسبيح عند ضيق صدره بما يقوله الكفار من السوء والكفر، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الحجر: ٩٧، ٩٨].

قال الشيخ العلامة محمد الأمين الشنقيطي: «اعلم أن ترتيبه جل

---

(١) أضواء البيان: ٥/ ١٨٠.

وعلا الأمر بالتسبيح والسجود على ضيق صدره ﷺ بسبب ما يقولون له من السوء دليل على أن الصلاة والتسبيح سبب لزوال المكروه، ولذا كان ﷺ إذا حزبه أمر بادر إلى الصلاة» اهـ(١).

ومن قبل نجى الله تعالى نبيه يونس عليه السلام من الكرب بسبب تسبيحه، وقال تعالى ـ في ذلك ـ: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ۝١٤٣ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝١٤٤﴾ [الصافات: ١٤٣، ١٤٤].

وفي هذا كله بيان لفضل التسبيح وما فيه من الآثار العظيمة والعواقب الحميدة.

تاسعاً: أن التسبيح أفضل ما يستعد به العبد للقاء ربه ﷻ.

قال أبو بكر الطرطوشي: «ومن أحسن ما يستدل به على فضيلة التسبيح أن الله سبحانه لما نعى إلى النبي عليه الصلاة والسلام نفسه في سورة النصر، فإنما أمره بالتسبيح والاستغفار، قال: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ۝٣﴾ [النصر: ٣]» اهـ(٢).

وعن الحسن البصري قال: «أعلم الله رسوله ﷺ أنه قد اقترب أجله، فأمره بالتسبيح والتوبة، ليختم له في آخر عمره بالزيادة في العمل الصالح» اهـ(٣).

عاشراً: أن التسبيح عبادة جميع الكائنات.

وهذه المسألة قد سبق بيانها بأدلتها(٤)، وإنها لمن أوضح الأدلة على فضل التسبيح، فإن الله تعالى لحبه هذه الكلمة ألهمها السماوات والأرض ومن فيهما، ورضيها من الملائكة والأنبياء وعباده المؤمنين،

---

(١) أضواء البيان: ٢/ ١١٢، وانظر: ما سبق في البحث: ص٣١٢.
(٢) الدعاء المأثور وآدابه: ص١٧٧.
(٣) ذكره البغوي في تفسيره: ٨/ ٥٧٧.   (٤) انظر: ص٣٣١ ـ ٣٧١.

ومن أهل الجنة في الجنة، كما سبق بيان ذلك كله[١].

حادي عشر: أن التسبيح عبادة لا تتناهى.

ومن فضل التسبيح الذي دل عليه كتاب الله تعالى أنه عبادة لا تتناهى، فقد أخبر الله سبحانه أن التسبيح باق في الجنة في قوله ﷻ: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ [يونس: ١٠].

وثبت في السنة أن أهل الجنة يلهمون التسبيح في الجنة، كما يلهمون النفس[٢]، وأنفاس أهل الجنة وألفاظهم وحركاتهم لا تتناهى، بل هي دائمة بدوامهم فيها[٣]، جعلنا الله من أهلها بفضله ومنه.

فهذه أوجه فضل التسبيح التي دل عليها كتاب الله تعالى.

❖ المطلب الثاني ❖

ما ورد في سنة رسول الله ﷺ من الفضل المختص بالتسبيح

وكما دل كتاب الله تعالى على فضل التسبيح من أوجه متنوعة، كذلك سنة رسول الله ﷺ دلت على فضل التسبيح من وجوه كثيرة، ومن ذلك:

١ ـ أن التسبيح من أحب الكلام إلى الله.

جاء في هذا حديث عن أبي ذر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ألا أخبرك بأحب الكلام إلى الله؟**» قلت: يا رسول الله، أخبرني بأحب

---

(١) أنواع التسبيح باعتبار فاعله، في ص٢٤٧ ـ ٣٨٥.
(٢) سبق الحديث بلفظه وتخريجه في ص٣٨٤.
(٣) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٢٢/٣٩٨ ـ ٣٩٩، ودرء تعارض العقل والنقل، له: ٢/ ٣٥٤.

الكلام إلى الله. فقال: «**إن أحب الكلام إلى الله: سبحان الله وبحمده**»[١].

وجاء في معنى هذا الحديث آثار عن بعض الصحابة رضي الله عنهم، منها:

١ ـ ما رواه ابن عباس رضي الله عنهما قال: «قال عمر لعلي ـ وأصحابه عنده ـ لا إله إلا الله قد عرفناه، فما سبحان الله؟ فقال له علي: كلمة أحبها الله لنفسه، ورضيها، وأحب أن تقال»[٢].

٢ ـ وما رواه ابن عباس أيضاً رضي الله عنهما قال: قال عمر رضي الله عنه: «قد عرفنا ما أراد الله بلا إله إلا الله، والله أكبر، أرأيت سبحان الله، ما أراد؟ قالوا: الله عز وجل أعلم، فقال لابن عباس رضي الله عنهما: ما تقول؟ قال: كلمة رضيها الله تعالى، فأحب أن يقال. قال: صدقت» اهـ[٣].

وإنما كان التسبيح من أحب الكلام إلى الله تعالى لأنه يدل على التعظيم البالغ والتنزيه الكامل لله عز وجل[٤]، كما سبق بيانه في معنى التسبيح.

٢ ـ أن الله تعالى اصطفى التسبيح لملائكته وعباده.

وجاء في هذا حديث عن أبي ذر أيضاً رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل: أي الكلام أفضل؟ قال: «**ما اصطفى الله لملائكته، أو لعباده:**

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه: ٤/ ٢٠٩٣ ـ ٢٠٩٤، برقم (٢٧٣١).

(٢) رواه ابن أبي حاتم في تفسير القرآن العظيم، بتحقيق الدكتور أحمد الزهراني ١/ ١١٧، رقم (٣٤٧)، ورجال إسناده ثقات ما عدا حجاجاً، وهو ابن أرطأة، فإنه صدوق كثير الخطأ والتدليس. وانظر: تقريب التهذيب، لابن حجر: ١/ ١٥٥.

(٣) رواه الطبراني في كتاب الدعاء: ٣/ ١٥٩٢، برقم (١٧٥٦)، إسناده كالذي قبله.

(٤) انظر: الإفصاح عن معاني الصحاح، لابن هبيرة: ٢/ ١٩٤.

سبحان الله وبحمده»[١]. وفي الأثر: «جاء رجل إلى ابن عباس رضي الله عنهما فقال: لا إله إلا الله نعرفها، لا إله غيره، والحمد لله نعرفها، أن النعم كلها منه، وهو المحمود عليها، والله أكبر نعرفها، لا شيء أكبر منه، فما سبحان الله؟ قال: كلمة رضيها الله عز وجل لنفسه، وأمر بها ملائكته، وفزع لها الأخيار من خلقه»[٢].

وتقدم أن التسبيح عبادة جميع الكائنات، في الأرض والسماوات، وأنه عبادة باقية في الجنة، دائمة بدوام أهلها[٣].

٣ ـ أن التسبيح يحط الخطايا وإن كثرت.

وجاء في هذا حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**من قال: سبحان الله وبحمده، في يوم مائة مرة، حطت عنه خطاياه، وإن كانت مثل زبد البحر**[٤]»[٥].

قال الحافظ ابن حجر: «والمراد بقوله: «وإن كانت مثل زبد البحر» الكناية عن المبالغة في الكثرة»[٦].

وأشار بعض أهل العلم إلى مناسبة هذا الثواب المذكور في الحديث للتسبيح، وهي: أن التسبيح: تنزيه الله عز وجل من كل سوء، ومن كل ما لا يجوز عليه، فكان منزهاً لقائله من خطاياه التي تجوز عليه؛ لأنه لما نزه الله عز وجل عما لا يجوز عليه، نزهه الله من خطاياه التي

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه: ٣/ ٢٠٩٣، برقم (٢٧٣١).
(٢) رواه الطبراني في كتاب الدعاء: ٢/ ١٥٩٣، برقم (١٧٥٨)، وإسناده حسن.
(٣) انظر: ص٤٢٩ ـ ٤٣٠.
(٤) زبد البحر: طفاوته وقذاه. انظر: لسان العرب: مادة (زبد): ٣/ ١٩٣.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ١١/ ٢٠٦، برقم (٦٤٠٥)، ومسلم في صحيحه: ٤/ ٢٠٧١ برقم (٢٦٩١)، واللفظ للبخاري.
(٦) فتح الباري: ١١/ ٢٠٦.

تجوز عليه(١). وهذه من الإشارات اللطيفة التي تبين أثر التسبيح على قائله، وأنه منزه للعبد عن خطاياه بإذن الله تعالى.

٤ ـ أن التسبيح وسيلة لكسب الحسنات.

لما جاء في حديث سعد بن أبي وقاص ﵁ قال: «كنا عند رسول الله ﷺ، فقال: «**أيعجز أحدكم أن يكسب كل يوم ألف حسنة؟**» فسأله سائل من جلسائه: كيف يكسب أحدنا ألف حسنة؟ قال: «**يسبح مائة تسبيحة، فيكتب له ألف حسنة، أو يحط عنه ألف خطيئة**»»(٢).

فللعبد بكل تسبيحة يسبحها عشر حسنات، فإن الحسنة بعشر أمثالها، كما قال الله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠]، ومن زاد من التسبيح زاده الله سبحانه من الثواب والأجر، فـ ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ۝٤٠**﴾ [النساء: ٤٠].

٥ ـ أن المسبح تغرس له بكل تسبيحة نخلة في الجنة.

دل عليه حديث جابر(٣) ﵁، عن النبي ﷺ قال: «**من قال:**

---

(١) انظر: الإفصاح، لابن هبيرة: ٦/ ٤١٧.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه: ٤/ ٢٠٧٣، برقم (٢٦٩٨). قال النووي: «هكذا هو في عامة نسخ صحيح مسلم (أو يحط) بأو، وفي بعضها: (ويحط) بالواو» [شرح صحيح مسلم: ١٧/ ٢٠]. فعلى رواية الواو يكون هذا الحديث شاهداً لكسب الحسنات وحط الخطيئات.

(٣) هو جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام الأنصاري السلمي، أبو عبد الله، وأبو عبد الرحمن، وأبو محمد، له ولأبيه صحبة، وكان أحد المكثرين في الرواية عن النبي ﷺ، وغزا تسع عشرة غزوة، وتوفي بالمدينة بعد السبعين من الهجرة، وهو ابن أربع وتسعين سنة، ﵁. انظر: تذكرة الحفاظ: ١/ ٤٣ ـ ٤٤، والإصابة: ١/ ٤٣٤ ـ ٤٣٥.

سبحان الله العظيم وبحمده، غرست له نخلة في الجنة»[١].

وهذا الثواب المترتب على التسبيح في هذا الحديث مناسب لما سيأتي ذكره ـ إن شاء الله ـ من أن غراس الجنة هي: «سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر»[٢]، فلما كان التسبيح من غراس الجنة ناسب أن ينال قائله غرساً من تلك الغراس، والله تعالى أعلم.

٦ ـ أن التسبيح من أفضل ما يأتي به العبد يوم القيامة.

ودليل ذلك حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«من قال ـ حين يصبح، وحين يمسي ـ: سبحان الله وبحمده، مائة مرة، لم يأت أحد يوم القيامة بأفضل مما جاء به، إلا أحد قال مثل ما قال أو زاد عليه»**[٣].

ويفهم من هذا الحديث أن من أكثر من التسبيح في الدنيا كان من أفضل الناس ثواباً وأجراً يوم القيامة، بحيث لا يفضله في الثواب والأجر إلا من كان أكثر منه تسبيحاً في الدنيا، وهذا ميدان تنافس السعداء الراغبين في أعلى الدرجات يوم القيامة.

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه: ٥/ ٤٧٧، برقم (٣٤٦٤، ٣٤٦٥)، بإسنادين، قال في الأول: «هذا حديث حسن صحيح غريب، ولا نعرفه إلا من حديث أبي الزبير عن جابر». وقال في الثاني: «هذا حديث حسن غريب» وأخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه: ١٠/ ٢٩٠، برقم (٩٤٦٥). والحاكم في المستدرك: ١/ ٦٨٠، برقم (١٨٤٧)، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه»، وقال الذهبي في التلخيص: «على شرط البخاري».
والحديث صححه الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم (٦٤)، وفي صحيح الجامع: رقم (٦٤٢٩).

(٢) انظر: ص٤٥٨ من البحث.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه: ٤/ ٢٠٧١، برقم (٢٦٩٢).

٧ ـ أن التسبيح ثقيل في الميزان يوم القيامة.

ثبت ذلك في حديث أبي هريرة أيضاً رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم**»(١).

وهذا الحديث له شأن كبير في بيان فضل التسبيح، حتى إن بعض أهل العلم أفرد فيه مؤلفاً مستقلاً(٢)، وختم به الإمام البخاري كتابه (الجامع الصحيح) الذي هو أصح الكتب المصنفة في الإسلام(٣).

وقد اشتمل على ثلاثة أوصاف لصيغتي التسبيح المذكورتين فيه، فوصفهما بأنهما «كلمتان خفيفتان على اللسان»، وإنما كانتا كذلك لقلة ألفاظهما، وسهولة تعلمها، وسرعة نطق الذاكر بها، ولأن حروفهما عارية عن الحروف الشديدة، وليست متباعدة المخارج، فلا يستثقلها اللسان(٤).

ووصفهما بأنهما «ثقيلتان في الميزان» «أي: بالحسنات المضاعفة لقائلهما، والأجور المدخرة للذاكر بهما»(٥).

---

(١) سبق تخريجه في ص٢٣٦.

(٢) كالحافظ ابن ناصر الدين الدمشقي، في كتابه «التنقيح في حديث التسبيح»، وهو مطبوع.

(٣) انظر: مقدمة شرح صحيح مسلم، للنووي: ١/ ١٤، وهدي الساري مقدمة فتح الباري، للحافظ ابن حجر: ص١٠. وللعلماء أقوال في مناسبة ختمه كتابه بهذا الحديث، انظرها في: التنقيح، لابن ناصر الدين: ١٣٥ ـ ١٤٢، وفتح الباري: ١٣/ ٥٤٢.

(٤) انظر: التنقيح في حديث التسبيح: ص٩٥، والعلم الهيب في شرح الكلم الطيب، لبدر الدين العيني: ١٠١.

(٥) مقتبس من: التنقيح في حديث التسبيح: ص٩٦.

وهناك مقابلة بديعة بين وصفهما بالخفة على اللسان والثقل في الميزان، ووصفهما بذينك لبيان قلة العمل وكثرة الثواب[١].

ووصفهما أيضاً بأنهما «حبيبتان إلى الرحمن» أي: محبوبتان عنده[٢]. وخص (الرحمن) من الأسماء الحسنى بالذكر هنا للتنبيه على سعة رحمة الله تعالى لعباده، حيث يجازي على العمل القليل بالثواب الجزيل[٣].

وهذه الأحاديث المذكورة في هذا المطلب كلها واضحة الدلالة على فضل التسبيح، وبيان ما أعد الله ﷻ لأهله من أجور كريمة، وأفضال عظيمة، وعطايا جمة[٤]، والله ذو الفضل العظيم.

❖ المطلب الثالث ❖

أفضل صيغ التسبيح

لقد ورد في الكتاب والسنة صيغ متنوعة للتسبيح، كما سبق بيانها في أنواع التسبيح باعتبار الصيغة[٥]، وثبت لبعض هذه الصيغ فضل مخصوص، كما يتضح من النصوص الواردة في فضل التسبيح في الكتاب والسنة[٦].

وإذا ورد النص بفضل مخصوص لصيغة معينة من صيغ التسبيح، فالظاهر أن ذلك الفضل لا يحصل إلا بتلك الصيغة، فتكون أفضل من غيرها من هذه الجهة، وهذه أفضلية نسبية.

---

(١) انظر: فتح الباري، لابن حجر: ١٣/ ٥٤٠.

(٢) التنقيح في حديث التسبيح: ص٩٤.

(٣) انظر: فتح الباري، لابن حجر: ٢٠٨/١١، وفقه الأدعية والأذكار، للأستاذ الدكتور عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر: ص٢٠٩.

(٤) انظر: فقه الأدعية والأذكار: ص٢٠٧.

(٥) انظر: ص١٧٦ من البحث.

(٦) انظر: المطلبين السابقين آنفاً.

وكذلك الشأن في ورود النص بذكر صيغة من التسبيح مقيدة بعدد، أو بحال، أو بزمن، فإن الظاهر في هذا أيضاً أن الثواب المترتب على تلك الصيغة لا يحصل إلا بالإتيان بالصيغة نفسها مع مراعاة العدد، أو الحال، أو الزمن؛ لأن للشارع الحكيم حكمة في اختيار تلك الصيغة، وفي تقييدها بذلك العدد أو الحال أو الزمن[(١)].

وأما الحكم على صيغة معينة بأنها أفضل صيغ التسبيح فلم أقف على نص صريح في ذلك من الكتاب ولا من السنة، إلا ما يؤخذ من حديث جويرية أم المؤمنين[(٢)] رضي الله عنها: «أن النبي ﷺ خرج من عندها بكرة حين صلى الصبح، وهي في مسجدها[(٣)]، ثم رجع بعد أن أضحى، وهي جالسة، فقال: **«ما زلت على الحال التي فارقتك عليها؟»** قالت: نعم. قال النبي ﷺ: **«لقد قلت بعدك أربع كلمات، ثلاث مرات، لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن: سبحان الله وبحمده عدد خلقه، ورضا نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته»**»[(٤)].

وفي لفظ: **«سبحان الله عدد خلقه، سبحان الله رضا نفسه،**

---

(١) انظر: فتح الباري، لابن حجر: ٢/ ٣٣٠.

(٢) هي: جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار الخزاعية، من بني المصطلق، سباها النبي ﷺ في غزوة المريسيع - وهي غزوة بني المصطلق - في السنة الخامسة من الهجرة، ثم تزوجها، وكان اسمها برة، فسماها النبي ﷺ جويرية، وتوفيت سنة (٥٠هـ) على الصحيح، وهي بنت خمس وستين سنة، رضي الله عنها. انظر: تهذيب الأسماء واللغات: ٢/ ٣٣٦، والإصابة: ٧/ ٥٦٥ - ٥٦٧.

(٣) قوله: «وهي في مسجدها» أي: موضع صلاتها [شرح صحيح مسلم، للنووي: ١٧/ ٤٤].

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه: ٤/ ٢٠٩٠، برقم (٢٧٢٦).

سبحان الله زنة عرشه، سبحان الله مداد كلماته»[(١)].

فهذا الحديث يدل على أفضلية هذه الصيغة المذكورة، لقوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: (لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن) أي: لرجحت عليهن في الوزن[(٢)].

ولكن ليس في الرواية تصريح بنوع الذكر الذي كانت تقوله جويرية ﵂، فيحتمل أنها كانت تذكر نوعاً آخر غير التسبيح، فيكون الحديث دليلاً على أفضلية التسبيح على ذلك النوع، ولا يقتضي هذا أن تكون هذه الصيغة أفضل صيغ التسبيح.

ويحتمل أنها ﵂ كانت تسبح، فيؤخذ من الحديث أن الصيغة المذكورة فيه هي أفضل الصيغ في التسبيح.

وقد صرح الإمام ابن قيم الجوزية بأفضلية هذه الصيغة على غيرها من صيغ التسبيح، لكونها أجمع للثناء على الله تعالى وأعم وأعظم[(٣)]، ولأن ما يقوم بقلب القائل: (سبحان الله وبحمده عدد خلقه) ـ من معرفة الله تعالى وتنزيهه وتعظيمه من هذا القدر المذكور من العدد، أعظم مما يقوم بقلب القائل: (سبحان الله) فقط. فكانت الصيغة الواردة في الحديث أفضل، وتسمى: الذكر المضاعف[(٤)].

ثم شرح ابن القيم هذه الصيغة مبيناً وجه أفضليتها، فقال: «وهذا إنما يظهر في معرفة هذا الذكر وفهمه. فإن قول المسبح: (سبحان الله

(١) أخرجه مسلم في صحيحه أيضاً: ٤/ ٢٠٩١، بالرقم السابق نفسه.

(٢) انظر: العلم الهيب في شرح الكلم الطيب، لبدر الدين العيني: ص١٠٨.

(٣) انظر: الوابل الصيب من الكلم الطيب، لابن قيم الجوزية، تحقيق محمد عبد الرحمن عوض: ص١١٨، والمنار المنيف في الصحيح والضعيف، له أيضاً، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة: ص٣٥.

(٤) انظر: المنار المنيف في الصحيح والضعيف: ص٣٥.

عدد خلقه) يتضمن إنشاء وإخباراً عما يستحقه الرب من التسبيح عدد كل مخلوق كان أو هو كائن إلى ما لا نهاية له. فتضمن الإخبار عن تنزيه الرب وتعظيمه والثناء عليه هذا العدد العظيم، الذي لا يبلغه العادون، ولا يحصيه المحصون. وتضمن إنشاء العبد لتسبيح هذا شأنه، لا أن ما أتى به العبد من التسبيح هذا قدره وعدده، بل أخبر أن ما يستحقه الرب ﷻ من التسبيح هو تسبيح يبلغ هذا العدد الذي لو كان في العدد ما يزيد لذكره، فإن تجدد المخلوقات لا ينتهي عداً، ولا يحصى الحاضر.

وكذلك قوله: (ورضا نفسه) فهو يتضمن أمرين عظيمين:

أحدهما: أن يكون المراد تسبيحاً هو والعظمة والجلال سيان، ولرضا نفسه[١]، كما أنه في الأول مخبر عن تسبيح مساو لعدد خلقه.

ولا ريب أن رضا نفس الرب لا نهاية له في العظمة والوصف. والتسبيح ثناء عليه سبحانه يتضمن التعظيم والتنزيه.

فإذا كانت أوصاف كماله ونعوت جلاله لا نهاية لها ولا غاية، بل هي أعظم من ذلك وأجل، كان الثناء عليه بها كذلك، إذ هو تابع لها إخباراً وإنشاء. وهذا المعنى ينتظم المعنى الأول من غير عكس.

وإذا كان إحسانه سبحانه وثوابه وبركته وخيره لا منتهى له، وهو من موجبات رضاه وثمرته، فكيف بصفة الرضا؟!

وفي الأثر: (إذا باركت لم يكن لبركتي منتهى)، فكيف بالصفة التي صدرت عنها البركة؟

والرضا يستلزم المحبة والإحسان والجود والبر والعفو والصفح

---

(١) علق المحقق على هذا الموضوع بقوله: «كذا في الأصل، وفيه سقط لم أهتد إليه».

والمغفرة. والخلق يستلزم العلم والقدرة والإرادة والحياة والحكمة، وكل ذلك داخل في رضا نفسه وصفة خلقه.

وقوله: (وزنة عرشه) فيه إثبات للعرش، وإضافته إلى الرب ﷻ، وأنه أثقل المخلوقات على الإطلاق، إذ لو كان شيء أثقل منه لوزن به التسبيح. وهذا يرد على من يقول: إن العرش ليست بثقيل ولا خفيف. وهذا لم يعرف العرش، ولا قدره حق قدره. فالتضعيف الأول: للعدد والكمية. والثاني: للصفة والكيفية. والثالث: للعظم والثقل، وليس للمقدار.

وقوله: (ومداد كلماته) هذا يعم الأقسام الثلاثة ويشملها، فإن مداد كلماته ﷻ لا نهاية لقدره، ولا لصفته، ولا لعدده. قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾ [الكهف: ١٠٩]. وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾ [لقمان: ٢٧].

ومعنى هذا: أنه لو فرض البحر مداداً، وبعده سبعة أبحر تمده كلها مداداً، وجميع أشجار الأرض أقلاماً ـ وهو ما قام منها على ساق، من النبات، والأشجار المثمرة وغير المثمرة، وتستمد بذلك المداد ـ لفنيت البحار والأقلام، وكلمات الرب لا تفنى ولا تنفد. فسبحان الله وبحمده عدد خلقه، ورضا نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته.

فأين هذا من وصف من يصفه بأنه ما تكلم ولا يتكلم، ولا يقوم به كلام أصلاً؟ وقول من وصف كلامه بأنه معنى واحد، لا ينقضي ولا يتجزأ، ولا له بعض ولا كل، ولا هو سور وآيات، ولا حروف وكلمات؟

والمقصود أن في هذا التسبيح من صفات الكمال ونعوت الجلال

ما يوجب أن يكون أفضل من غيره، وأنه لو وزن غيره به لوزنه وزاد عليه.

وهذا بعض ما في هذه الكلمات من المعرفة بالله، والثناء عليه بالتنزيه والتعظيم، مع اقترانه بالحمد المتضمن لثلاثة أصول:

أحدها: إثبات صفات الكمال له سبحانه، والثناء عليه.

الثاني: محبته والرضا به.

الثالث: فإذا انضاف هذا الحمد إلى التسبيح والتنزيه على أكمل الوجوه، وأعظمها قدراً، وأكثرها عدداً، وأجزلها وصفا، واستحضر العبد ذلك عند التسبيح، وقام بقلبه معناه: كان له من المزية والفضل ما ليس لغيره، وبالله التوفيق» اهـ[(١)].

وقد آثرت نقل كلامه هنا بتمامه لاشتماله على بيان وفوائد فيما يتعلق بهذه الصيغة من التسبيح، لم أجدها عند غيره.

وجاء في هذا الباب أيضاً حديث أبي أمامة[(٢)] ﵁ أن النبي ﷺ مر به وهو يحرك شفتيه، فقال: «**ماذا تقول، يا أبا أمامة؟**» قال: أذكر ربي. قال: «**ألا أخبرك بأفضل أو أكثر من ذكرك الليل مع النهار، والنهار مع الليل؟ أن تقول: سبحان الله عدد ما خلق، سبحان الله ملء ما خلق، سبحان الله عدد ما في الأرض والسماء، سبحان الله ملء ما في السماء والأرض، سبحان الله عدد ما أحصى كتابه، سبحان الله عدد كل شيء، وسبحان الله ملء كل شيء. وتقول:**

---

(١) المنار المنيف في الصحيح والضعيف: ص٣٥ ـ ٣٨.

(٢) هو صدي ـ بالتصغير ـ ابن عجلان بن الحارث الباهلي، أبو أمامة، صحابي مشهور بكنيته، سكن الشام، وتوفي سنة (٨٦هـ)، ﵁. انظر: الإصابة ٣/ ٤٢٠ ـ ٤٢١، وتقريب التهذيب: ١/ ٣٥٠.

الحمد لله، مثل ذلك»[(١)].

وجاء في حديث عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه نحو هذه الصيغة، ولفظه: **«سبحان الله عدد ما خلق في السماء، وسبحان الله عدد ما خلق في الأرض، وسبحان الله عدد ما خلق بين ذلك، وسبحان الله عدد ما هو خالق. والله أكبر مثل ذلك، والحمد لله مثل ذلك، ولا إله إلا الله مثل ذلك، ولا حول ولا قوة إلا بالله مثل ذلك»**[(٢)].

---

(١) أخرجه أحمد في المسند: ٥/٢٤٩، والنسائي في عمل اليوم والليلة: ص٢١٤ ـ ٢١٥، برقم (١٦٦)، والطبراني في المعجم الكبير: ٨/ ٢٨٤، برقم (٧٩٣٠)، و٨/ ٣٥٢، برقم (٨١٢٨)، وفي كتاب الدعاء: ٣/ ١٥٨٧، برقم (١٧٤٣)، و٣/ ١٥٨٧ ـ ١٥٨٨، برقم (١٧٤٤)، وابن حبان في صحيحه ـ الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان ـ ٣/ ١١٢، برقم (٨٤٠)، والحاكم في المستدرك: ١/ ٦٩٤، برقم (١٨٩١)، كلهم من طرق عن أبي أمامة، واللفظ للنسائي، والطبراني في الدعاء، وابن حبان، والحديث صححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وقال الهيثمي: «رواه الطبراني من طريقين، وإسناد أحدهما حسن» [مجمع الزوائد: ١٠/ ٩٣]، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٢٦١٥).

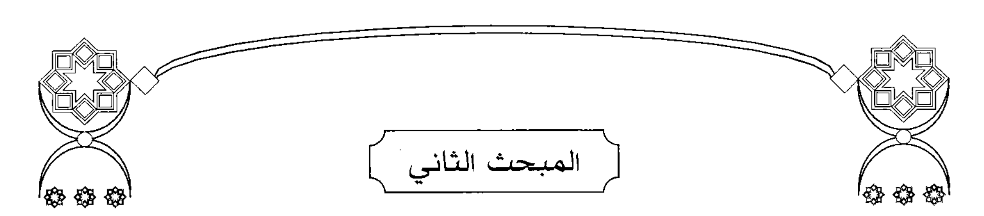
(٢) أخرجه أبو داود في سننه: ٢/ ١٦٩ ـ ١٧٠، برقم (١٥٠٠)، والترمذي في سننه: ٥/ ٥٢٥ ـ ٥٢٦، برقم (٣٥٦٨)، وقال: «هذا حديث غريب من حديث سعد». وأخرجه الطبراني في كتاب الدعاء: ٣/ ١٥٨٤، برقم (١٧٣٨)، وابن حبان في صحيحه ـ الإحسان ـ: ٣/ ١١٨، برقم (٨٣٧)، والحاكم في المستدرك: ١/ ٧٣٢ ـ ٧٣٣، برقم (٢٠٠٩)، وقال الذهبي في التلخيص: صحيح. وفي الحكم له بالصحة نظر؛ لأن في إسناده (خزيمة) غير منسوب، قال عنه الذهبي نفسه: «لا يعرف» [ميزان الاعتدال: ١/ ٦٥٣]، ويروى الحديث بدون ذكر خزيمة هذا في الإسناد، كما هو عند ابن حبان والحاكم، فيحتمل الانقطاع بين سعيد بن أبي هلال الراوي عن خزيمة، وعائشة بنت سعد الراوية عن أبيها سعد بن أبي وقاص. فلا يخلو إسناد هذا الحديث من علة الجهالة أو الانقطاع، وقد أوضح ذلك الشيخ الألباني في السلسلة الضعيفة، تحت رقم (٨٣)، لكن اللفظ المذكور من الحديث =

فهذه الأحاديث تدل على أن ما كان من التسبيح مفيداً للشمول والكثرة التي لا تتناهى ولا تنحصر أفضل مما هو مجرد عن ذلك، مع العلم أن محل هذه الأفضلية في غير المواضع التي شرع فيها التسبيح بصيغ معينة من الشارع؛ لأن مقتضى الاتباع الالتزام بصيغ التسبيح المشروعة في مواضعها التي شرع ذكرها فيها، كما سبقت الإشارة إليه في أول المطلب.

ويحسن أن يذكر هنا أن النظر في الأحاديث الواردة في فضل التسبيح يوصل إلى أن صيغة (سبحان الله وبحمده) لها الحظ الأوفر من الفضل؛ لأن أكثر تلك الأحاديث قد نصت على هذه الصيغة، وتقدم عند الكلام على قرن التسبيح بالحمد بيان ما تدل عليه هذه الصيغة من المعنى الجامع للثناء على الله تعالى[1]، فلا عجب أن يترتب عليها القسط الأكبر من الأجر والثواب، والله تعالى أعلم.

= يشهد له حديث أبي أمامة المذكور قبله، ولعل هذا هو وجه تحسين الحافظ ابن حجر له في (أمالي الأذكار) كما نقله ابن علان في (الفتوحات الربانية على الأذكار النواوية: ١/ ٢٤٥).

(١) انظر: ص١٩٣ـ ٢٠٧.



المبحث الثاني

الفضل المشترك للتسبيح

ولا يقف فضل التسبيح عند الفضل المختص به الذي سبق بيان جملة منه في المبحث الأول، بل قد وردت نصوص أخرى في الكتاب والسنة بإثبات أنواع مختلفة من الفضل للتسبيح منضماً إلى نظيراته من ألفاظ الذكر المشروعة في الإسلام، وهي: التحميد، والتهليل، والتكبير، وتعني قول: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر.

وتذكر مع هذه الأربع ـ أحياناً ـ الحوقلة، وهي قول: لا حول ولا قوة إلا بالله. وتعد هذه الأقوال المذكورة أهم ما شرع لذكر الله تعالى في الشريعة الإسلامية، ولهذا اشتركت في الفضل في أمور عديدة وردت بها النصوص في الكتاب والسنة. وليس من السهل جمع كل ما ورد في الفضل المشترك للتسبيح؛ لأن ذلك يتطلب بحثاً مستقلاً، ولكن المقصود في هذا المبحث ذكر جملة طيبة مما أمكن الوقوف عليه من الفضل المشترك للتسبيح في الكتاب والسنة، وذلك فيما يلي:

١ ـ أن التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير من ذكر الله الذي حث عليه عباده في كتابه، ومدح أهله، ورتب عليه الأثر العظيم والأجر الكريم.

قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢]، «فأمر تعالى بذكره،

ووعد عليه أفضل جزاء، وهو ذكره لمن ذكره»[١]، وجاء إيضاح هذا في الحديث القدسي الذي يرويه النبي ﷺ عن ربه تبارك وتعالى، قال: «**يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملإ ذكرته في ملإ خير منهم**» الحديث[٢].

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد: ٢٨].

وهذا نص على أعظم أثر للذكر في النفوس المؤمنة، فإن قلوبهم تسكن وتستأنس بذكر الله تعالى[٣]، وليس لقلب العبد سكون ولا استئناس بغير ذكر ربه وخالقه سبحانه، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: ١٢٤].

قال الحافظ ابن كثير: «أي: ضنكا في الدنيا، فلا طمأنينة له، ولا انشراح لصدره، بل صدره ضيق حرج لضلاله، وإن تنعم ظاهره، ولبس ما شاء، وأكل ما شاء، وسكن حيث شاء، فإن قلبه ما لم يخلص إلى اليقين والهدى فهو في قلق وحيرة وشك، فلا يزال في ريبة يتردد، فهذا من ضنك المعيشة»[٤].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

---

(١) مقتبس من: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: ص٧٤.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ١٣/ ٣٨٤، برقم (٨٤٠٥)، ومسلم في صحيحه: ٤/ ٢٠٦١، برقم (٢٦٧٥).

(٣) انظر: تفسير الطبري: ٧/ ٣٨٠.

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم: ٣/ ١٧٧. وانظر: الوابل الصيب، لابن القيم: ص٦٨.

قال بعض أهل التفسير: معنى هذه الآية: أنكم في الصلاة تذكرون الله تعالى، وهو ذاكر من ذكره، ولذكر الله تعالى إياكم أكبر من ذكركم إياه[(١)]، وهذا المعنى رجحه ابن جرير الطبري في تفسيره[(٢)].

وقال بعضهم: معنى الآية: ولذكر الله أكبر من كل شيء[(٣)].

ونقل الإمام ابن قيم الجوزية أن شيخ الإسلام ابن تيمية كان يقول: «الصحيح أن معنى الآية: أن الصلاة فيها مقصودان عظيمان، وأحدهما أعظم من الآخر، فإنها تنهى عن الفحشاء والمنكر، وهي مشتملة على ذكر الله تعالى، ولما فيها من ذكر الله أعظم من نهيها عن الفحشاء والمنكر»[(٤)].

ومال إلى ترجيح هذا المعنى الحافظ ابن كثير في تفسيره[(٥)].

وأيّاً ـ من هذه المعاني المذكورة ـ كان هو معنى الآية، فهي دالة على فضل الذكر وعظم مكانته.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾ [الأحزاب: ٣٥].

وهذا في مقام المدح للذاكرين والذاكرات من الرجال والنساء،

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ١٠/ ١٤٥ ـ ١٤٧، والوابل الصيب، لابن القيم: ص١٠٣.

(٢) في: ١٠/ ١٤٨.

(٣) انظر: تفسير الطبري: ١٠/ ١٤٧.

(٤) الوابل الصيب: ص١٠٣، وانظر: تفسير الطبري: ١٠/ ١٤٨.

(٥) تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٤٢٥.

وخبر عنهم بأن الله تعالى هيأ لهم مغفرة منه لذنوبهم، وأجراً عظيماً لا يقدر قدره إلا الذي أعطاه، وهو الجنة(١).

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾﴾ [الأحزاب: ٤١].

وفي هذه الآية يأمر الله تعالى عباده المؤمنين بذكره ذكراً كثيراً، وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «إن الله تعالى لم يفرض على عباده فريضة إلا جعل لها حداً معلوماً ثم عذر أهلها في حال العذر غير الذكر، فإن الله تعالى لم يجعل له حداً ينتهي إليه، ولم يعذر أحداً في تركه، إلا مغلوباً على عقله، فقال: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء: ١٠٣]، بالليل والنهار، في البر والبحر، وفي السفر والحضر، والغنى والفقر، والسقم والصحة، والسر والعلانية، وعلى كل حال»(٢).

وسئل الإمام أبو عمرو بن الصلاح(٣) عن القدر الذي به يصير المرء من الذاكرين الله كثيراً؟ فقال ـ ما ملخصه ـ: إذا واظب على الأذكار المأثورة المثبتة صباحاً ومساء، وفي الأوقات والأحوال

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٣/ ٤٩٧، والعلم الهيب، لبدر الدين العيني: ص٤٦، وتيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: ص٦٦٥.

(٢) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره: ١٠/ ٣٠٦، وأورده الحافظ ابن كثير في تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٥٠٣.

(٣) هو عثمان بن عبد الرحمن بن عثمان بن موسى الكردي، تقي الدين، أبو عمرو، ابن الصلاح، السهرزوري ثم الدمشقي، الإمام الحافظ، مفتي الشام ومحدثها في وقته، كان على طريقة السلف الصالح، وكان متقدماً في فنون كثيرة، من تصانيفه: علوم الحديث (مقدمة ابن الصلاح)، وغيره، وتوفي سنة (٦٤٣هـ)، رحمه الله. انظر: تذكرة الحفاظ، للذهبي: ٤/ ١٤٣٠ ـ ١٤٣١، والبداية والنهاية، لابن كثير: ١٣/ ١٧٩ ـ ١٨٠.

المختلفة ليلاً ونهاراً، كان من الذاكرين الله كثيراً[١].

والآيات الواردة في شأن ذكر الله تعالى كثيرة جداً في القرآن الكريم.

٢ ـ أن هذه الأربع ـ التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير ـ هي أحب الكلام إلى الله تعالى وإلى رسوله ﷺ. دل على ذلك حديث سمرة بن جندب[٢] رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أحب الكلام إلى الله أربع: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، لا يضرك بأيهن بدأت**»[٣].

وحديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لأن أقول: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، أحب إلي مما طلعت عليه الشمس**»[٤].

وقوله: (مما طلعت عليه الشمس) يعني: من الدنيا وما فيها[٥].

وإنما كانت هذه الكلمات أحب إلى الله تعالى لأنها مدح وثناء على الله جل وعلا، وفي الحديث: «**لا أحد أحب إليه المدح من الله**»[٦]. ولذلك أيضاً كانت أحب إلى رسول الله ﷺ.

---

(١) فتاوى ومسائل ابن الصلاح ـ ومعها أدب المفتي والمستفتي، له: تحقيق الدكتور عبد المعطي قلعجي: ١/ ١٥٠.

(٢) هو سمرة بن جندب بن هلال الفزاري، حليف الأنصار، يكنى أبا سليمان، صحابي مشهور له أحاديث، وكان شديداً على الخوارج، وتوفي بالبصرة، سنة (٥٨هـ)، وقيل: في أول سنة (٦٠هـ)، رضي الله عنه. انظر: الإصابة: ٣/ ١٧٨ ـ ١٧٩.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه: ٣/ ١٦٨٥، برقم (٢١٣٧).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه: ٤/ ٢٠٧٢، برقم (٢٦٩٥).

(٥) انظر: المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، للقرطبي: ٧/ ٢٢ ـ ٢٣، وتحفة الذاكرين، للشوكاني: ص٣٦٨.

(٦) سبق تخريجه: في ص٢٧٠.

فما أسعد عبداً وافق الله ورسوله، فأحب هذه الكلمات أكثر من حبه للدنيا وما فيها.

٣ ـ أن الله تعالى اصطفى من الكلام هذه الكلمات الأربع.

كما جاء في حديث أبي هريرة وأبي سعيد الخدري رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله اصطفى من الكلام أربعاً: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر**»(١).

وهذا الفضل مناسب لما قبله؛ لأن الله تعالى أحب هذه الكلمات، فاصطفاها من الكلام، واختارها لعباده أن يذكروه بها.

٤ ـ أن هذه الكلمات من أطيب الكلام.

وثبت ذلك في حديث سمرة بن جندب أيضاً رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أربع هن من أطيب الكلام، وهن من القرآن، ولا يضرك بأيهن بدأت: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر**»(٢).

وأطيب الكلام: أزكاه وأحسنه مبنى ومعنى، والمراد هنا ذكر الله تعالى والثناء عليه، فليس في الكلام أطيب منه، لتعلقه بالباري جل وعلا، ومنه هذه الكلمات الأربع.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند: ٢/٣٠٢، والنسائي في «عمل اليوم والليلة»: ص٤٨٥، برقم (٨٤٠)، والحاكم في المستدرك: ١/٦٩٣، برقم (١٨٨٦)، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم»، ووافقه الذهبي. وصححه الألباني في «صحيح الجامع»: برقم (١٧١٨).

(٢) أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده ـ تحقيق الدكتور محمد بن عبد المحسن التركي ـ: ٢/٢١٩ ـ ٢٢٠، برقم (٩٤١)، وأحمد في المسند: ٥/١١، والنسائي في عمل اليوم والليلة: ص٤٨٧، برقم (٨٤٧). وإسناده صحيح، رجاله كلهم ثقات مشهورون.

وقوله: (هن من القرآن) يريد أن هذه الكلمات موجودة في القرآن[1]، أما الثلاث ـ سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله ـ فباللفظ، وأما (الله أكبر) فبالمعنى؛ لأنها لم ترد في القرآن لفظاً[2].

٥ ـ أنها أفضل الكلام بعد القرآن الكريم.

جاء ذلك في حديث سمرة أيضاً رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«أفضل الكلام بعد القرآن أربع ـ وهي من القرآن ـ، لا يضرك بأيهن بدأت: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر»**[3].

وهذا الحديث يقتضي أن هذه الكلمات أفضل من غيرها من الكلمات سوى القرآن؛ لأنه جعل درجتها دون درجة القرآن في قوله: (بعد القرآن)، وهذا يقتضي أنها ليست من القرآن، ثم قال: (وهي من القرآن)، وكلا قوليه حق وصواب، فهي من القرآن باعتبار، وليست من القرآن باعتبار[4]، فباعتبار ألفاظها هي من القرآن، لوجودها فيه. وباعتبار نظمها ليست بقرآن، وليست آية متلوة[5].

وورد الحديث أيضاً بلفظ: **«خير الكلام أربع لا تبالي بأيتهن**

---

(١) انظر: شأن الدعاء، للخطابي: ص١٦١.

(٢) انظر: العلم الهيب، لبدر الدين العيني: ص١٠٤.

(٣) أخرجه أحمد في المسند: ٥/ ٢٠، وابن ماجه ـ بنحوه ـ في سننه: ٢/ ١٢٥٣، برقم (٣٨١١). وقال الهيثمي: «رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح» [مجمع الزوائد: ١٠/٨٨]. وله شاهد عن بعض أصحاب النبي، أخرجه الإمام أحمد في المسند: ٤/٣٦. وقال عنه الألباني: «وهذا إسناد صحيح، رجاله رجال الشيخين، وجهالة الصحابي لا تضر، كما هو معلوم» [سلسلة الأحاديث الصحيحة: رقم (١٤٩٨)].

(٤) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٢/ ٦٧، ٧٧ و١٦/ ١١٧ و٢٢/ ٣٨٩.

(٥) انظر: شأن الدعاء، للخطابي: ص١٦١، والعلم الهيب، للعيني: ص١٠٤.

بدأت...» فذكرها[١].

٦ ـ أن هذه الكلمات دليل إسلام العبد واستسلامه لله تعالى.

ففي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ يقول: «**من قال: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله. قال الله: أسلم عبدي واستسلم**»[٢].

وفي هذا الحديث زيادة كلمة (لا حول ولا قوة إلا بالله) على الكلمات الأربع، وهي كلمة عظيمة، جاء في فضلها على الخصوص أحاديث عديدة[٣]، ومعنى الاستسلام ظاهر فيها؛ لأنها دالة على التبرؤ من الحول والقوة، والتفويض إلى الله تعالى، وأن العبد لا يملك من أمره شيئاً، وليس له حيلة في دفع شر، ولا قوة له في جلب خير إلا بإرادة الله تعالى[٤].

٧ ـ أنها سبب لتكفير الذنوب وإن كانت كثيرة.

دل على ذلك حديث أنس رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ أخذ غصناً فنفضه فلم ينتفض، ثم نفضه فلم ينتفض، ثم نفضه فانتفض، فقال رسول الله ﷺ: «**إن سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر،**

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ النسائي في عمل اليوم والليلة: ص٤٨٥، برقم (٨٤١).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك: ١/٦٨١، برقم (١٨٥٠) وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد»، ووافقه الذهبي، وفي إسناده الوليد بن مسلم ـ وهو مدلس تدليس التسوية ـ لكنه صرح بالتحديث، فانتفت شبهة التدليس.

(٣) انظر: شيئاً من الكلام على فضلها ومعناها في: فقه الأدعية والأذكار، لفضيلة الشيخ الدكتور عبد الرزاق البدر: ص٢٩٥ ـ ٣٠٥، وله أيضاً ـ حفظه الله ـ رسالة مستقلة في دراسة معنى هذه الكلمة ودلالتها العقدية.

(٤) انظر: شرح صحيح مسلم، للنووي: ١٧/٢٦ ـ ٢٧، وفتح الباري، لابن حجر: ١١/٥٠١.

تنفض الخطايا كما تنفض الشجرة ورقها»»[١].

وفي رواية: «أن رسول الله ﷺ مر بشجرة يابسة الورق، فضربها بعصاه، فتناثر الورق، فقال: «**إن الحمد لله، وسبحان الله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، لتساقط من ذنوب العبد كما تساقط ورق هذه الشجرة**»»[٢].

ودل عليه أيضاً حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما على الأرض رجل يقول: لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله، والحمد لله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، إلا كفرت عنه ذنوبه، ولو كانت أكثر من زبد البحر**»[٣].

٨ ـ أنها وسيلة كسب الحسنات.

وتزيد هذه الكلمات على كونها سبباً لتكفير السيئات بأنها وسيلة

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده: ٣/ ١٥٢، والبخاري في الأدب المفرد: ص٢١٨، برقم (٦٣٤)، وحسنه الألباني في تعليقه على الأدب المفرد، وفي صحيح الجامع، برقم (٢٠٨٩).

(٢) أخرجه بهذا اللفظ الترمذي في سننه: ٥/ ٥٠٨، برقم (٣٥٣٣) من رواية الأعمش عن أنس رضي الله عنه. قال الترمذي: «هذا حديث غريب، ولا نعرف للأعمش سماعاً من أنس، إلا أنه رآه ونظر إليه» اهـ. وهذا يعني أن فيه انقطاعاً، لكن متنه ثابت بالرواية التي قبلها، ولهذا حسن الألباني هذا المتن في صحيح الجامع، برقم (١٦٠١).

(٣) أخرجه الترمذي في سننه: ٥/ ٤٧٥، برقم (٣٤٦٠)، والنسائي في عمل اليوم والليلة: ص٤٧٧، برقم (٨٢٢)، وأحمد في المسند: ٢/ ١٥٨، ٢١٠، وقد اختلف في رفعه ووقفه، قال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب، وروى شعبة هذا الحديث عن أبي بلج بهذا الإسناد نحوه ولم يرفعه». وصحح المرفوع الحاكم في المستدرك: ١/ ٦٨٢، برقم (١٨٥٣)، ووافقه الذهبي. ولكن الموقوف أصح، وله حكم الرفع؛ لأن الثواب المذكور فيه ليس مما يدرك بالعقل.

لكسب الحسنات، فقد جاء في حديث أبي هريرة وأبي سعيد الخدري ﵄ أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله اصطفى من الكلام أربعاً: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر. فمن قال: سبحان الله، كتب الله له عشرين حسنة وحط عنه عشرين سيئة، ومن قال: الله أكبر، فمثل ذلك، ومن قال: لا إله إلا الله، فمثل ذلك، ومن قال: الحمد لله رب العالمين، من قبل نفسه، كتبت له ثلاثون حسنة، وحط عنه ثلاثون سيئة**»(١).

وقد اشتمل هذا الحديث على ثواب عظيم لهذه الكلمات، وهو ثبوت عشرين حسنة وتكفير عشرين سيئة في كل واحدة منها.

ويزيد ثواب الحمد عندما يقوله العبد من قبل نفسه زيادة على الأربع المذكورة، وذلك لأن الحمد يقع غالباً بعد حدوث نعمة من أكل أو شرب أو نحوهما، فكأنه وقع في مقابلة ما أسدي إليه وقت الحمد، فإذا أنشأ العبد الحمد من قبل نفسه، دون أن يدفعه لذلك تجدد نعمة زاد ثوابه(٢)، وإن كان العبد لا يزال في نعمة تتجدد له، والله تعالى أعلم.

٩ ـ أنها أكثر ثواباً من إعتاق الرقاب من ولد إسماعيل.

يدل على ذلك حديث أبي أمامة ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: «**لأن أقعد أذكر الله، وأكبره وأحمده وأسبحه وأهلله حتى تطلع الشمس أحب إلي من أن أعتق رقبتين أو أكثر من ولد إسماعيل، ومن بعد العصر حتى تغرب الشمس أحب إلي من أن أعتق أربع رقاب من ولد إسماعيل**»(٣).

---

(١) سبق ذكر جزئه الأول مع تخريجه في ص٤٤٩.

(٢) انظر: تحفة الذاكرين، للشوكاني: ص٣٧١، وفقه الأدعية والأذكار، لفضيلة الشيخ الدكتور عبد الرزاق البدر: ص١٦١ ـ ١٦٢.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده: ٥/ ٢٥٥، وانظر ما بعده.

وفي رواية: «**لأن أذكر الله من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس أكبر وأهلل وأسبح، أحب إلي من أعتق أربع رقاب من ولد إسماعيل. ولأن أذكر الله من بعد صلاة العصر إلى أن تغيب الشمس أحب إلي من أن أعتق كذا وكذا من ولد إسماعيل**»(١).

ووصف الرقاب في هذا الحديث بكونهم من ولد إسماعيل؛ لأنهم أشرف من غيرهم من العرب فضلاً عن العجم(٢)، ففيه بيان لعظم ثواب التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير، وأنه أعظم من ثواب إعتاق أشرف الرقاب وأعزها.

١٠ ـ أنها تعادل إنفاق المال، وجهاد العدو، ومكابدة الليل.

كما جاء في حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «**إن الله تعالى قسم بينكم أخلاقهم كما قسم بينكم أرزاقكم، وإن الله تعالى يعطي المال من أحب ومن لا يحب، ولا يعطي الإيمان إلا من يحب، فمن ضن بالمال أن ينفقه، وخاف العدو أن يجاهده، وهاب الليل أن يكابده، فليكثر من قول: لا إله إلا الله، وسبحان الله، والحمد لله، والله أكبر**»(٣).

وهذا الحديث موقوف على عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وهو في

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده: ٥/ ٢٥٣ ـ ٢٥٤، والطبراني في المعجم الكبير: ٨/ ٣١٧ برقم (٨٠٢٨). وقال الهيثمي: «رواه كله أحمد، والطبراني بنحو الرواية الثانية، وأسانيده حسنة» [مجمع الزوائد: ١٠/ ١٠٤].

(٢) انظر: فتح الباري، لابن حجر: ١١/ ٢٠٥، وفقه الأدعية والأذكار، لفضيلة الشيخ الدكتور عبد الرزاق البدر: ص١٥٨.

(٣) أخرجه البخاري في الأدب المفرد: ص١٠١، برقم (٢٧٥). وقال الهيثمي: «رواه الطبراني موقوفاً، ورجاله رجال الصحيح» [مجمع الزوائد: ١٠/ ٩٠]. وقال الألباني في تعليقه على الحديث في الأدب المفرد: «صحيح موقوف في حكم المرفوع».

حكم المرفوع[1]، ويشهد له حديث أبي الدرداء رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**ألا أنبئكم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إنفاق الذهب والورق، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟**» قالوا: بلى. قال: «**ذكر الله تعالى**»[2].

وينبغي أن لا يفهم من هذا الحديث ونحوه أن الاشتغال بالذكر أفضل من غيره من الأعمال في كل وقت وفي كل حال، فقد يكون المفضول فاضلاً، وذلك بحسب اختلاف الناس فيما يقدرون عليه من الأعمال، وبحسب اختلاف الأوقات والأحوال[3]، ومعرفة تفاضل الأعمال ومناسباته باب مهم من الفقه في الدين، يؤدي الجهل به أو تجاهله إلى خلل في طريقة التعبد لله تعالى، لكن مما هو كالإجماع بين العلماء أن ملازمة ذكر الله تعالى دائماً هو أفضل ما شغل به العبد نفسه في الجملة، والأدلة على ذلك كثيرة في الكتاب والسنة[4].

١١ ـ أن كل واحدة منها صدقة عن مفصل من مفاصل الذاكر بها.

ويدل على ذلك حديث أبي ذر رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «**يصبح على كل سلامى[5] من أحدكم صدقة، فكل تسبيحة صدقة، وكل**

---

(١) انظر الكلام على المرفوع حكماً من الروايات في: نزهة النظر، لابن حجر العسقلاني ـ ومعه النكت، لعلي بن حسن الحلبي ـ: ص١٤١ ـ ١٤٨.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه: ٥/ ٤٢٨ ـ ٤٢٩، برقم (٣٣٧٧)، وابن ماجه في سننه: ٢/ ١٢٤٥، برقم (٣٧٩٠)، والحاكم في المستدرك: ١/ ٦٧٣، برقم (١٨٢٥)، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي. وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٢٦٢٩).

(٣) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٠/ ٦٦٠ و٢٢/ ٣٤٨.

(٤) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٠/ ٦٦٠.

(٥) سلامى: بضم السين المهملة وتخفيف اللام. قال النووي: «أصله عظام =

تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن المنكر صدقة، ويجزئ من ذلك ركعتان يركعهما من الضحى»(١).

وحديث عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «**إنه خلق كل إنسان من بني آدم على ستين وثلاثمائة مفصل، فمن كبر الله، وحمد الله، وهلل الله، وسبح الله، واستغفر الله، وعزل حجراً عن طريق الناس، أو شوكة أو عظماً عن طريق الناس، وأمر بمعروف، أو نهى عن منكر، عدد تلك الستين والثلاثمائة السلامى، فإنه يمشي يومئذٍ وقد زحزح نفسه عن النار**»(٢).

ومعنى الحديثين أن كل مفصل من مفاصل ابن آدم عليه صدقة؛ لأن تركيبه على هذه المفاصل وسلامتها من أعظم نعم الله تعالى على عبده، فيحتاج كل مفصل منها إلى صدقة يتصدق ابن آدم عنه، ليكون شكراً لهذه النعمة(٣)، فإذا ذكر الله تعالى بهذه الكلمات عدد تلك المفاصل ـ ثلاثمائة وستين ـ، فإنه قد تصدق عن نفسه، ويكون ذلك سبباً لزحزحته عن النار.

١٢ ـ أنها جنة لقائلها من النار.

جاء ذلك في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**خذوا جنتكم**» قالوا: يا رسول الله، أمن عدو قد حضر؟ قال: «**لا،**

= الأصابع وسائر الكف، ثم استعمل في جميع عظام البدن ومفاصله»، وجمعه: سلاميات ـ بفتح الميم وتخفيف الياء ـ انظر: شرح صحيح مسلم للنووي: ٥/ ٢٣٣ و٧/ ٩٣، والقاموس المحيط: مادة (سلم): ص١٤٤٩.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه: ١/ ٤٩٨ ـ ٤٩٩، برقم (٧٢٠).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه: ٢/ ٦٩٨، برقم (١٠٠٧).

(٣) انظر: جامع العلوم والحكم، لابن رجب الحنبلي: ٢/ ٧٥.

ولكن جنتكم من النار، قولوا: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، فإنهن يأتين يوم القيامة مجنبات ومعقبات[(١)]**، وهن الباقيات الصالحات»**[(٢)].

وفي لفظ: «**فإنهن يأتين يوم القيامة منجيات ومقدمات**»[(٣)].

وفي هذا الحديث دليل على أن هذه الكلمات تكون سبباً لنجاة قائلها من النار، وأنها تأتي يوم القيامة مقدمات أمام قائلها، ومعقبات من ورائه تستره وتقيه من النار، وهذا فضل عظيم.

قال الإمام ابن القيم: «الذكر سد بين العبد وبين جهنم، فإذا كانت له إلى جهنم طريق من عمل من الأعمال، كان الذكر سداً في تلك الطريق، فإذا كان ذكراً دائماً كاملاً، كان سداً محكماً لا منفذ فيه، وإلا فبحسبه» اهـ[(٤)].

وفي الحديث السابق أيضاً وصف هذه الكلمات بأنهن الباقيات الصالحات، وسيأتي بيان ذلك قريباً إن شاء الله تعالى.

---

(١) قال الشوكاني: «قوله: (مجنبات) بضم الميم وفتح الجيم، ثم نون مشددة مفتوحة، وبعدها باء موحدة، أي: مقدمات أمامكم. وقيل: هي بكسر النون المشددة، جمع مجنبة، وهي التي تكون في الميمنة والميسرة. والأول أولى بدليل قوله في الحديث: (معقبات) وهي بضم الميم وكسر القاف المشددة، أي: مؤخرات يعقبونكم من ورائكم، ومجنبات من أمامكم» [تحفة الذاكرين: ص٣٦٩].

(٢) أخرجه النسائي في عمل اليوم والليلة: ص٤٨٨، برقم (٨٤٨) ـ وهذا لفظه ـ، والحاكم في المستدرك: ١/ ٧٢٥، برقم (١٩٨٥)، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي. وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٣٢١٤).

(٣) هذا لفظ الحاكم في المستدرك، وانظر: التخريج السابق.

(٤) الوابل الصيب: ص١٠٩.

١٣ ـ أنها غراس الجنة.

يدل على ذلك حديث عبد الله بن مسعود ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لقيت إبراهيم ليلة أسري بي، فقال: يا محمد، أقرئ أمتك مني السلام، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة عذبة الماء، وأنها قيعان**(١)**، وأن غراسها: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر**»(٢).

والمراد بهذا الحديث ـ والله أعلم ـ أن الجنة يزداد غراسها سريعاً بهذه الكلمات، كما ينمو غراس القيعان من الأرض ونبتها(٣).

وجاء تأكيد هذا المعنى في حديث أبي هريرة ﵁ أن رسول الله ﷺ مر به وهو يغرس غرساً، فقال: «**يا أبا هريرة، ما الذي تغرس؟**» قلت: غراساً لي. قال: «**ألا أدلك على غراس خير لك من هذا؟**» قلت: بلى، يا رسول الله. قال: «**قل: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، يغرس لك بكل واحدة شجرة في الجنة**»(٤).

---

(١) جمع قاع. قال ابن الأثير: «القاع: المكان المستوي الواسع في وطأة من الأرض، يعلوه ماء السماء فيمسكه ويستوي نباته» [النهاية في غريب الحديث: ٤/ ١٣٢ ـ ١٣٣].

(٢) أخرجه الترمذي في سننه: ٥/ ٤٧٦، برقم (٣٤٦٢)، وقال: «هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه من حديث ابن مسعود». وفي إسناده عبد الرحمن بن إسحاق، أبو شيبة الكوفي، وقد تكلم فيه. انظر: تهذيب التهذيب: ٦/ ١٣٦ ـ ١٣٧. ولكن الحديث له شاهدان من حديث أبي أيوب الأنصاري، أشار إليه الترمذي عقب الحديث. ومن حديث عبد الله بن عمر، وذكر الشاهدين الألباني في السلسلة الصحيحة، في رقم (١٠) وحسن الحديث بهما، فانظره ـ إن شئت ـ، كما حسنه في صحيح الجامع، برقم (٥١٥٢).

(٣) انظر: جزء في تفسير الباقيات الصالحات، للحافظ العلائي، تحقيق بدر الزمان محمد شفيع: ص٣٦، والوابل الصيب، لابن القيم: ص١٠٩.

(٤) أخرجه ابن ماجه في سننه: ٢/ ١٢٥١، برقم (٣٨٠٧)، والحاكم في =

وجاء نحوه في حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**من قال: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، غرس الله له بكل واحدة منهن شجرة في الجنة**»(١).

وفي هذه الأحاديث دليل على أن هذه الكلمات تورث قائلها الجنة، وأن الساعي في اكتسابها هو الذي لا يضيع سعيه؛ لأن الجنة هي المغرس الذي لا يتلف ما استودع، ولا يخلف ما نبت فيه(٢).

قال الإمام ابن القيم في قصيدته النونية ـ في وصف الجنة ـ:

«أو ما سمعت بأنها القيعان فاغـ ـرس ما تشاء بذا الزمان الفاني
تبا لتارك غرسه ماذا الذي قد فاته من مدة الإمكان»(٣)

١٤ ـ أن الملائكة يذكرون قائليها عند الله تعالى.

جاء ذلك في حديث أبي هريرة رضي الله عنه الذي ذكر فيه الرسول ﷺ أن الملائكة إذا وجدوا قوماً يذكرون الله تعالى جلسوا معهم، ويحفونهم بأجنحتهم، فإذا تفرقوا عرجوا وصعدوا إلى السماء. قال: «**فيسألهم الله عز وجل ـ وهو أعلم بهم ـ: من أين جئتم؟ فيقولون: جئنا من عند عباد لك في الأرض، يسبحونك، ويكبرونك، ويهللونك،**

= المستدرك: ١/ ٦٩٣، برقم (١٨٨٧) وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي. وقال المنذري: «رواه ابن ماجه بإسناد حسن» [الترغيب والترهيب: ٢/ ٤٠٧، برقم (٢٢٩٣)]، وقال البوصيري في الزوائد: إسناده حسن. وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٢٦١٣).

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط: ٨/ ٢٢٦، برقم (٨٤٧٥). وقال المنذري: «رواه الطبراني، وإسناده حسن، لا بأس به في المتابعات» [الترغيب والترهيب: ٢/ ٤٠٨، برقم (٢٢٩٥)]، وقال الهيثمي: «رواه الطبراني في الأوسط، ورجاله موثقون» [مجمع الزوائد ١٠/ ٩١].

(٢) انظر: العلم الهيب، لبدر الدين العيني: ص١١٦.

(٣) القصيدة النونية: ص٣٩٥.

ويحمدونك» الحديث[١].

وفي هذا فضل كبير لمن يذكرون الله تعالى بهذه الكلمات، حيث إن الملائكة ينوهون بهم عند الله العلي الأعلى.

١٥ ـ أنها تفتح لها أبواب السماء فتصعد إلى الله تعالى.

يدل على ذلك حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: «بينما نحن نصلي مع رسول الله ﷺ، إذ قال رجل من القوم: الله أكبر كبيراً، والحمد لله كثيراً، وسبحان الله بكرة وأصيلا. فقال رسول الله ﷺ: **«من القائل كلمة كذا وكذا؟»** فقال رجل من القوم: أنا، يا رسول الله. قال: **«عجبت لها، فتحت لها أبواب السماء»»**.

قال ابن عمر: «فما تركتهن منذ سمعت رسول الله ﷺ يقول ذلك»[٢].

وفي هذا الحديث دليل على أن هذه الكلمات إذا قالها المؤمن صعدت إلى الله تعالى، ولذلك تفتح لها أبواب السماء.

وقد جاء توضيح صعود هذه الكلمات عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، حيث قال لأصحابه: «إذا حدثناكم بحديث أتيناكم بتصديق ذلك من كتاب الله. إن العبد المسلم إذا قال: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، وتبارك الله، أخذهن ملك، فجعلهن تحت جناحيه، ثم صعد بهن إلى السماء، فلا يمر بهن على جمع من الملائكة إلا استغفروا لقائلهن، حتى يحيي[٣] بهن وجه

---

(١) متفق عليه، سبق تخريجه في ص٣٢٥، والمذكور هناك لفظ البخاري، وهذا جزء من لفظ مسلم.

(٢) سبق تخريجه في ص٢١٠.

(٣) يحيي ـ بالحاء المهملة، وتشديد الياء المثناة تحت ـ: من التحية. وفي بعض =

الرحمن. ثم قرأ عبد الله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠]»(١).

وهذه الآية التي استشهد بها عبد الله بن مسعود رضي الله عنه صريحة في صعود الكلم الطيب إلى الله تعالى، والكلم الطيب: هو الذكر والدعاء، كما قاله غير واحد من السلف(٢).

١٦ ـ أنها تتعاطف حول العرش تذكر بقائلها عند الله تعالى.

كما في حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**الذين يذكرون من جلال الله من تسبيحه، وتحميده، وتكبيره، وتهليله، يتعاطفن حول العرش، لهن دوي كدوي النحل، يذكرن بصاحبهن، ألا يحب أحدكم أن لا يزال له عند الله شيء يذكر به؟**»(٣).

فقد دل الحديث على أن هذه الكلمات تدور حول العرش، ويكون منها الدوي، لأجل التذكير بقائلها في المقام الأعلى عند الله تعالى، وفي هذا أعظم حض على الذكر بهذه الكلمات، ولذلك قال: (ألا يحب أحدكم أن لا يزال له عند الله شيء يذكر به؟)(٤).

= الروايات: يجيء ـ بالجيم ـ، من المجيء. وانظر: الترغيب والترهيب، للمنذري: ٣/ ٤١٨، حديث رقم (٢٣١٣).

(١) رواه الطبري في تفسيره: ١٠/ ٣٩٨ ـ ٣٩٩، والحاكم في المستدرك: ٢/ ٤٦١، برقم (٣٥٨٩)، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد»، ووافقه الذهبي، وذكره الذهبي في كتابه «العلو للعلي الغفار» وقال: أخرجه أبو أحمد العسال بإسناد صحيح عن ابن مسعود. وانظر: مختصره، للألباني: ص١٠٤، برقم (٤٩). وقال الهيثمي: «رواه الطبراني، وفيه المسعودي، وهو ثقة ولكنه اختلط، وبقية رجاله ثقات» [مجمع الزوائد: ١٠/ ٩٠].

(٢) انظر: تفسير الطبري: ١٠/ ٣٩٨، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٣/ ٥٥٦.

(٣) سبق تخريجه وشرح كلماته الغريبة في ص٨١.

(٤) انظر: تحفة الذاكرين، للشوكاني: ص٣٧٥، وفقه الأدعية والأذكار: ص١٦٣.

١٧ ـ أنه بالإكثار منها يزداد المؤمن فضلاً عند الله تعالى.

لما جاء في حديث طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**ليس أحد أفضل عند الله من مؤمن يعمر في الإسلام، لتسبيحه وتكبيره، وتهليله**»[(١)].

وفي لفظ: «**يكثر تكبيره وتسبيحه وتهليله وتحميده**»[(٢)].

فهذا الحديث يدل على أن المؤمن كلما كان لهذه الكلمات أذكر، كان لأجلها أفضل عند الله تعالى، فينبغي للمؤمن أن يشغل وقته بذكرها، ويعمر حياته بالإكثار منها لينال هذه المنزلة عند الله تعالى.

١٨ ـ أنها ثقيلات في الميزان يوم القيامة.

وقد دل على ذلك قول الرسول ﷺ: «**بخ بخ**[(٣)] **لخمس ما أثقلهن في الميزان: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، والولد الصالح يتوفى فيحتسبه والده**».

وهذا الحديث جاء عن غير واحد من الصحابة رضي الله عنهم مرفوعاً إلى النبي ﷺ[(٤)]، وفيه تعظيم لهذه الكلمات، وإعجاب بثقلهن في الميزان،

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده: ١/ ١٦٣ ـ وهذا لفظه، وفيه قصة ـ، والنسائي في عمل اليوم والليلة: ص٤٨٤، برقم (٨٣٨)، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٥٣٧١)، وينظر: السلسلة الصحيحة: رقم (٦٥٤).

(٢) هذا لفظه عند النسائي في عمل اليوم والليلة، كما في الهامش السابق.

(٣) يروى بفتح الباء الموحدة وسكون الخاء على أنه مبني، ويروى بالتنوين فيهما، ويروى بتنوين الأولى وسكون الثانية، ويروى بالعكس، وربما شددت. وهي كلمة تقال لتعظيم الأمر وتفخيمه وبيان الرضا به، وتكرر للمبالغة. انظر: النهاية في غريب الحديث: ١/ ١٠١، والقاموس المحيط: مادة (بخ): ص٣١٧، وتحفة الذاكرين: ص٣٧٤.

(٤) جاء من حديث أبي سلمى مولى رسول الله ﷺ ـ رضي الله عنه ـ، أخرجه أحمد في =

وهذا أسلوب من أساليب البيان لفضل هذه الكلمات، والترغيب في الذكر بها والإكثار منها.

١٩ ـ أنهن من الباقيات الصالحات اللاتي ذكر الله تعالى شأنهن في كتابه العزيز، في قوله سبحانه: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾ [الكهف: ٤٦]، وفي قوله ﷻ: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾ [مريم: ٧٦].

فقد سلف في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**قولوا: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، فإنهن يأتين يوم القيامة مجنبات ومعقبات، وهن الباقيات الصالحات**»(١).

وقد وردت أحاديث أخرى في تسمية هذه الكلمات بالباقيات الصالحات، ولكن في أسانيدها كلام.

= مسنده: ٣/٤٤٣، والنسائي في عمل اليوم والليلة: ص٢١٥، برقم (١٦٧)، والطبراني في المعجم الكبير: ٢٢/٣٤٨، برقم (٨٧٣)، وصححه الحاكم في المستدرك: ١/٦٩٢، برقم (١٨٨٥)، ووافقه الذهبي. وقال الهيثمي: «رواه أحمد ورجاله ثقات» [مجمع الزوائد: ١/٤٩]. وجاء من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه: ١٠/٢٩٥، برقم (٩٤٨٥). ومن حديث سفينة رضي الله عنه، أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط: ٥/٢٢٥، برقم (٥١٥٢)، وقال: «لا يروى هذا الحديث عن سفينة إلا بهذا الإسناد، تفرد به النضر بن محمد». وقال الهيثمي: «رواه الطبراني في الأوسط، ورجاله رجال الصحيح» [مجمع الزوائد: ١٠/٨٩]. ومن حديث ثوبان رضي الله عنه أخرجه البزار ـ زوائده (٣٠٧٢) ـ، وقال الهيثمي: «رواه البزار وحسن إسناده، إلا أن شيخه العباس بن عبد العظيم الباساني لم أعرفه» [مجمع الزوائد: ١٠/٨٨]. والحديث خرجه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (١٢٠٤)، وذكره في صحيح الجامع، برقم (٢٨١٧).

(١) سبق تخريجه في ص٤٥٧.

ووردت في تسميتها بالباقيات الصالحات آثار كثيرة عن الصحابة والتابعين، منها:

١ ـ ما ورد أن عثمان بن عفان رضي الله عنه قيل له: ما الباقيات الصالحات؟ فقال: «هن: لا إله إلا الله، وسبحان الله، والحمد لله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله»(١).

٢ ـ وما ورد أن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما سئل عن الباقيات الصالحات؟ فقال: «لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله»(٢).

٣ ـ وما ورد عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ [الكهف: ٤٦، ومريم: ٧٦]، قال: «سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر»(٣).

٤ ـ وما ورد أن سعيد بن المسيب(٤) قال ـ في الباقيات الصالحات ـ: «إنها قول العبد: الله أكبر، وسبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله»(٥).

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده: ١/ ٧١، وابن جرير الطبري في تفسيره: ٨/ ٢٣٠، وقال الهيثمي: رواه أحمد وأبو يعلى والبزار، ورجاله رجال الصحيح، غير الحارث مولى عثمان، وهو ثقة [مجمع الزوائد: ١/ ٢٩٧].

(٢) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره: ٨/ ٢٣١.

(٣) رواه ابن جرير الطبري من عدة طرق عنه في تفسيره: ٨/ ٢٣٠.

(٤) هو سعيد بن المسيب بن حزن بن أبي وهب القرشي المخزومي، أبو محمد، ولد لسنتين مضتا من خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكان من أجل التابعين، وأحد فقهاء المدينة الكبار، وأحد علماء الإسلام الأثبات، وتوفي بعد عام (٩٠هـ)، على خلاف فيما زاد، رحمه الله، انظر: تذكرة الحفاظ، للذهبي: ١/ ٥٤ ـ ٥٦، وتقريب التهذيب، لابن حجر العسقلاني: ١/ ٢٩٧.

(٥) روه مالك في الموطأ: كتاب القرآن: برقم (٢٣)، وابن جرير الطبري في تفسيره: ٨/ ٢٣١ ـ ٢٣٢.

٥ ـ وما ورد عن الحسن وقتادة ـ في قوله تعالى: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ ـ قالا: «لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله، والحمد لله، هن الباقيات الصالحات»[(١)].

فهذه مما ورد من الأحاديث والآثار في تسمية هذه الكلمات بالباقيات الصالحات. وقد اختلف أهل العلم في: هل الباقيات الصالحات محصورة في هذه الكلمات الأربع، أو الخمس، أو لا؟[(٢)].

فبعض الروايات السابقة تفيد بظاهرها الحصر، وهو رأي ذهب إليه بعض العلماء[(٣)].

والتحقيق أنها غير محصورة في هذه الكلمات، بل هي شاملة لها ولغيرها من الطاعات القولية والعملية، الظاهرة والباطنة، كما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ [الكهف: ٤٦، ومريم: ٧٦]، قال: «هي ذكر الله قول: لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله، والحمد لله. وتبارك الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وأستغفر الله، وصلى الله على رسول الله، والصيام، والصلاة، والحج، والصدقة، والعتق، والجهاد، والصلة، وجميع أعمال الحسنات، وهن الباقيات الصالحات التي تبقى لأهلها في الجنة ما دامت السموات والأرض» اهـ[(٤)].

ويستفاد من هذه الرواية وجه تسمية العبادات بالباقيات الصالحات؛ لأنها تبقى لأهلها في الجنة، فسميت بذلك مقابلة لها بالفانيات الزائلات، وهي غير العبادات من الدنيا وما فيها[(٥)]، والعاقل

---

(١) رواه عبد الرزاق الصنعاني في تفسير القرآن: ٢/ ١١، بإسناد صحيح.
(٢) حكى الخلاف في ذلك ابن جرير الطبري في تفسيره: ٨/ ٢٩٩ ـ ٢٣٢.
(٣) منهم العلائي في جزء له في تفسير الباقيات الصالحات: ص١٩ ـ ٢٨.
(٤) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره: ٨/ ٢٣٢.
(٥) انظر: تفسير الطبري: ٨/ ٣٧٤، والكاشف عن حقائق السنن، للطيبي: ٦/ ١٨١٩.

اللبيب يؤثر الباقي على الفاني، والمحروم يعكس. قال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾ [الأعلى: ١٦، ١٧].

ومع القول بعدم حصر الباقيات الصالحات في الكلمات المذكورة ـ كما في رواية ابن عباس، وكما ذهب إليه المحققون من أهل العلم[١] ـ، فإن هذه الكلمات هي أولى ما سميت بالباقيات الصالحات، لما ثبت لها من الفضل الذي لم يثبت مثله لغيرها من العبادات.

٢٠ ـ أنّها تجزئ من القرآن لمن لا يستطيع شيئاً منه.

فقد جاء في الحديث عن ابن أبي أوفى[٢] رضي الله عنهما قال: «جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: إني لا أستطيع أن آخذ من القرآن شيئاً، فعلمني ما يجزئني منه. قال «**قل: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم**». قال: يا رسول الله، هذا لله عز وجل، فما لي؟ قال: «**قل: اللهم ارحمني، وارزقني، وعافني، واهدني**». فلما قام، قال هكذا بيده. فقال رسول الله ﷺ: «**أما هذا فقد ملأ يده من الخير**»»[٣].

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ٨/ ٣٧٤، وتفسير البغوي: ٥/ ٢٥٣، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي: ص٤٧٩، ٤٩٩.

(٢) هو عبد الله بن أبي أوفى علقمة بن خالد بن الحارث الأسلمي، صحابي ابن صحابي، شهد بيعة الرضوان، وما بعدها من المشاهد، ولم يزل بالمدينة حتى توفي رسول الله ﷺ ثم تحول إلى الكوفة، وتوفي بها سنة (٨٧هـ)، وهو آخر من مات من الصحابة بالكوفة رضي الله عنه. انظر: تهذيب الأسماء واللغات، للنووي: ١/ ٢٦١، وتقريب التهذيب، لابن حجر العسقلاني: ١/ ٣٨٣.

(٣) أخرجه أبو داود في سننه: ١/ ٥٢١، برقم (٨٣٢)، والنسائي في سننه: ٢/ ٤٨١، برقم (٩٢٣) مختصراً إلى قوله: «ولا حول ولا قوة إلا بالله» دون =

فجعله ﷺ هذه الكلمات مجزئة من القرآن الكريم في حق من لا يستطيع أخذ شيء منه دليل على عظم موقعها، وزيادة فضلها على غيرها، ومناسب تماماً لما سبق ذكره من أن هذه الكلمات هي أفضل الكلام بعد القرآن الكريم.

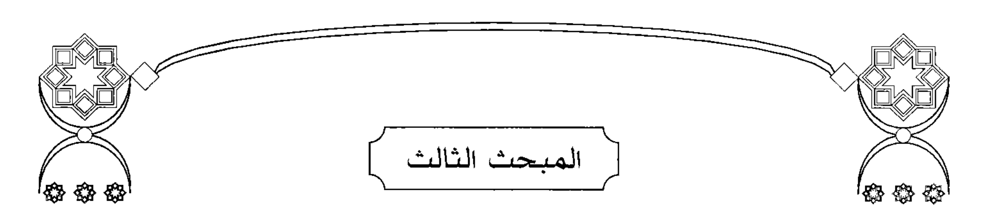
وثبت من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: «جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ، فقال: علمني كلاماً أقوله. قال: «**قل: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، الله أكبر كبيراً، والحمد لله كثيراً، سبحان الله رب العالمين، لا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم**». قال: فهؤلاء لربي، فما لي؟ قال: «**قل: اللهم اغفر لي، وارحمني، واهدني، وارزقني**»»[1].

والحديثان دالان على أن هذه الكلمات الخمس هي أولى ما ينبغي العناية بتعلمه وتعليمه بعد القرآن الكريم، وهذا فضل اختصت به هذه الكلمات، وأنافت به على غيرها من الكلمات الطيبات.

وجميع ما سبق ذكره أنواع من الفضل الوارد في الكتاب والسنة للتسبيح والتحميد والتهليل، والتكبير، مع إضافة الحوقلة إليها أحياناً. وبانضمام هذا الفضل المشترك إلى ما تقدم من الفضل المختص تتجلى جلالة قدر التسبيح، وجزالة فضله، وكثرة ثوابه، وبالله التوفيق.

= «العلي العظيم»، وأحمد ـ بنحوه ـ في مسنده: ٤/ ٣٥٣، ٣٥٦، والحاكم ـ بنحوه ـ في المستدرك: ١/ ٣٦٧ ـ ٣٦٨، برقم (٨٨٠). ومدار الحديث عند جميعهم على إبراهيم السكسكي، وهو من رجال البخاري في صحيحه، إلا أنه متكلم فيه. وانظر: هدي الساري، للحافظ ابن حجر: ص٣٨٨، وتهذيب التهذيب، له: ١/ ١٣٨. وقد حسن الألباني الحديث في إرواء الغليل: ٢/ ١٢، برقم (٣٠٣).

(١) أخرجه مسلم في صحيحه: ٤/ ٢٠٧٢، برقم (٢٦٩٦).



المفاضلة بين التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير

قد علم اشتراك التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير في الفضل من وجوه كثيرة، والنصوص الواردة بالفضل المشترك بين هذه الكلمات الأربع تدل بظاهرها على أنها متساوية في الفضل غير متفاضلة، لكن وردت بشأن كل واحدة من هذه الكلمات نصوص أخرى تدل على أنها متفاضلة.

ومسألة المفاضلة بين الأمور ـ من الأعيان والألفاظ والمعاني ـ معلومة في الشرع[١]، وقد نص أهل العلم على «أن في الذكر شيئاً أفضل من شيء، وشيئاً أعظم أجراً من شيء»[٢].

ومن هنا اختلف العلماء في المفاضلة بين التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير:

فذهب فريق من العلماء إلى أن هذه الكلمات الأربع متساوية في الفضل تمسكا بالنصوص المصرحة باشتراكها في الفضل[٣]، وأما النصوص المفيدة لأفضلية إحدى هذه الكلمات فالمراد أفضليتها منضمة إلى أخواتها الثلاث في اللفظ أو في المعنى.

---

(١) كتبت في موضوع المفاضلة رسالة علمية بعنوان: «مباحث المفاضلة في العقيدة»، لفضيلة الشيخ الدكتور محمد بن عبد الرحمن أبو سيف الشظيفي، وهي مطبوعة منشورة.

(٢) التنقيح في حديث التسبيح، لابن ناصر الدين الدمشقي: ص٩٠.

(٣) انظر: التمهيد، لابن عبد البر: ٦/٤٨.

وممن قرر هذا المذهب أبو العباس القرطبي[١]، حيث قال ـ في شرح حديث: (**أحب الكلام إلى الله أربع: سبحان الله، والحمد لله، ولا إلٰه إلا الله، والله أكبر، لا يضرك بأيهن بدأت**)[٢] ـ: «فقد مضى هذا الحديث بأن الأربعة متساوية في الأفضلية والأحبية، من غير مراعاة تقديم بعضها على بعض ولا تأخيره، وأن التسبيح وحده لا ينفرد بالأفضلية، ولا التهليل وحده أيضاً ينفرد بها.

وإذا ثبت ذلك فحيث أطلق أن أحد هذه الأذكار الأربعة أفضل الكلام أو أحبه، إنما يراد إذا انضمت إلى أخواتها الثلاث المذكورة في هذا الحديث، إما مجموعة في اللفظ، أو في القلب بالذكر؛ لأن اللفظ إذا دل على واحد منها بالمطابقة، دل على سائرها باللزوم. وبيان ذلك: أن معنى (سبحان الله) البراءة له من كل النقائص، والتنزيه عما لا يليق بجلاله، ومن جملتها تنزيهه عن الشركاء والأنداد، وهذا معنى (لا إله إلا الله)، هذا مدلول اللفظ من جهة مطابقته، ولما وجب تنزيهه عن صفات النقص لزم اتصافه بصفات الكمال، إذ لا واسطة بينهما، وهي المعبر عنها بـ (الحمد لله)، ثم لما تنزه عن صفات النقص واتصف بصفات الكمال وجبت له العظمة والجلال، وهو معنى (الله أكبر)، فقد ظهر لك أن هذه الأربعة الأذكار متلازمة في المعنى، وأنها قد شملها لفظ الأحبية، كما جاء في الحديث، فمن نطق بجميعها فقد ذكر الله تعالى بأحب الكلام إلى الله لفظاً ومعنى، ومن نطق بأحدها

---

(١) هو أحمد بن عمر بن إبراهيم الأنصاري، أبو العباس القرطبي، المعروف بابن المزين، المالكي، كان فقيها محدثاً متفنناً، ومن مصنفاته: (المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم)، وهو شرح محرر ومفيد لصحيح الإمام مسلم، وتوفي سنة (٦٥٦هـ)، رَحِمَهُ ٱللَّهُ. انظر: البداية والنهاية، لابن كثير: ١٣/ ٢٢٦، وشجرة النور الزكية، لمحمد مخلوف: ص١٩٤.

(٢) سبق تخريجه، في ص٤٤٨.

فقد ذكر الله ببعض أحب الكلام نطقاً، وبجميعها معنى من جهة اللزوم الذي ذكرناه.

فتدبر هذه الطريقة فإنها حسنة، وبها يرتفع التعارض المتوهم بين تلك الأحاديث[١]، والله تعالى أعلم» اهـ[٢].

وقرر الطيبي[٣] نحواً مما قرره القرطبي، وذلك في تعليقه على حديث أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ سئل: «أي الكلام أفضل؟ قال: **«ما اصطفى الله لملائكته، أو لعباده: سبحان الله وبحمده»**»[٤]، حيث قال الطيبي: «ويمكن أن تجعل هذه ـ يعني (سبحان الله وبحمده) ـ مختصرة من قوله: (سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر)، لما سبق أن (سبحان الله) تنزيه لذاته عما لا يليق بجلاله، وتقديس لصفاته من النقائص، فيندرج فيه معنى قول: (لا إله إلا الله). وقوله: (وبحمده) صريح في معنى (والحمد لله)؛ لأن الإضافة فيه بمعنى اللام في الحمد، ومستلزم لمعنى (والله أكبر)؛ لأنه إذا كان كل الفضل والإفضال لله ومن الله وليس من غيره، فلا يكون أحد أكبر منه» اهـ[٥].

وهذه الطريقة حسنة ـ بلا شك ـ في بيان تلازم الكلمات الأربع في المعنى، لكن التسوية بين هذه الكلمات في الفضل بهذه الطريقة فيها

---

(١) يعني الأحاديث الواردة في الفضل المختص لكل من هذه الكلمات الأربع.
(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم: ٧/ ٥٩ ـ ٦٠.
(٣) هو الحسين بن محمد بن عبد الله الطيبي، شرف الدين، العلامة، كان شديد الرد على الفلاسفة مظهراً فضائحهم، وله تصانيف عديدة، منها: الكاشف عن حقائق السنن ـ شرح فيه مشكاة المصابيح للتبريزي ـ، وتوفي سنة (٧٤٣هـ)، رحمه الله. انظر: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، للحافظ ابن حجر العسقلاني: ٢/ ١٥٦ ـ ١٥٧.
(٤) سبق تخريجه، في ص٢٩٢، ٤٣٢.
(٥) الكاشف عن حقائق السنن: ٦/ ١٨٢١ ـ ١٨٢٢.

نظر. كما أن الأدلة المصرحة باشتراكها في الفضل لا تقتضي تساويها؛ لأن ثبوت الأفضلية لها بالنسبة إلى غيرها من الأذكار لا يمنع أن تكون هي فيما بينها متفاضلة.

وذهب فريق آخر من العلماء إلى أن هذه الكلمات الأربع متفاضلة فيما بينها، ولكنهم اختلفوا في الأفضل من هذه الكلمات، وفي موجب الأفضلية فيها، على ثلاثة أقوال(١):

القول الأول: أن التسبيح أفضل الأذكار؛ لأن في النصوص الواردة بالفضل المختص بالتسبيح ما يدل على مزيد فضله على التحميد والتهليل والتكبير من الأذكار(٢)؛ وقد تقدم ذكر جملة وافرة من هذه النصوص من الكتاب والسنة؛ فلا حاجة لتكرارها هنا(٣).

ولأن التسبيح دال ـ بالتضمن والالتزام ـ على معنى كل من التحميد، والتهليل، والتكبير، كما بينه أبو العباس القرطبي فيما سبق نقله عنه قريباً، وإن جعل هو تلك الدلالة موجبة للتسوية بين هذه الكلمات الأربع، فإن غيره جعلها موجبة لأفضلية التسبيح(٤).

القول الثاني: أن التحميد أفضل من التسبيح من جهة المعنى، بسبب «أن التحميد إثبات المحامد كلها لله، فدخل في ذلك إثبات صفات الكمال ونعوت الجلال كلها، والتسبيح هو تنزيه الله عن

---

(١) هذه بحسب ما اطلعت عليه بالبحث، وهي دائرة في المفاضلة بين التسبيح والتحميد والتهليل، وأما التكبير فلم أطلع على قول بأفضليته على غيره من الثلاث المذكورة، والله تعالى أعلم.

(٢) انظر: التمهيد، لابن عبد البر: ٦/٤٩، ٥٠ ـ ٥١، وتحفة الذاكرين، للشوكاني: ص٣٧٤.

(٣) انظر: ص٤٢٢ ـ ٤٣٦ من البحث.

(٤) انظر: الكاشف عن حقائق السنن، للطيبي: ٦/ ١٨٢٢.

النقائص والعيوب والآفات، والإثبات أكمل من السلب»[١].

كما أن التحميد أفضل من التسبيح والتهليل والتكبير من جهة كثرة الثواب، لما جاء في حديث أبي هريرة وأبي سعيد الخدري رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: **«إن الله اصطفى من الكلام أربعاً: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر. فمن قال: سبحان الله، كتب الله له عشرين حسنة وحط عنه عشرين سيئة، ومن قال: الله أكبر، فمثل ذلك، ومن قال: لا إله إلا الله، فمثل ذلك، ومن قال: الحمد لله رب العالمين، من قبل نفسه، كتبت له ثلاثون حسنة وحط عنه ثلاثون سيئة»**[٢].

فقد جعل ثواب التحميد ـ في هذا الحديث ـ زائداً على ثواب التسبيح والتهليل والتكبير، فدل ذلك على أفضلية التحميد[٣].

وقد سبق إيراد هذا الحديث في الفضل المشترك للتسبيح، مع بيان وجه زيادة ثواب التحميد خاصة إذا قاله العبد من قبل نفسه[٤].

وأما ما ذكر من تفضيل التحميد على التسبيح من جهة المعنى، فيمكن أن يجاب عنه بأن التسبيح وإن كان سلباً إلا أنه يتضمن إثباتاً ويستلزمه، وليس سلباً محضاً[٥]، كما أن التحميد إثبات يستلزم سلباً، وهو سلب المعايب المنافية للمحامد.

---

(١) مقتبس من: جامع العلوم والحكم، لابن رجب الحنبلي: ٢/١٧ ـ ١٨. وانظر: التمهيد، لابن عبد البر: ٦/٤٢، ٤٧، والإعلام بفوائد عمدة الأحكام، لابن الملقن: ١/٨٣ ـ ٨٤.

(٢) سبق ذكر جزئه الأول وتخريجه في ص٤٤٩.

(٣) انظر: التمهيد، لابن عبد البر: ٦/٤٧، وجامع العلوم والحكم، لابن رجب: ٢/٢٠ ـ ٢١.

(٤) انظر: ص٤٥٣ من البحث.

(٥) سبق بيان ذلك عند الكلام على دلالة التسبيح على التعظيم، في ص٧٨ ـ ٨٦ من البحث.

القول الثالث: أن التهليل أفضل من التسبيح والتحميد والتكبير، ومن الذكر كله[١]، لأدلة منها:

حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**أفضل الذكر لا إله إلا الله، وأفضل الدعاء الحمد لله**»[٢].

وحديث أبي ذر رضي الله عنه قال: «قلت: يا رسول الله، أفمن الحسنات لا إله إلا الله؟ قال: «**هي أفضل الحسنات**»»[٣].

وقول الرسول ﷺ: «**أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له**»[٤].

ففي هذه الأحاديث كلها التصريح بأن التهليل أفضل مطلقاً[٥].

وربما قوبل هذا الاستدلال بأن التسبيح وردت فيه أيضاً أحاديث تفيد أنه أفضل مطلقاً، وهذا صحيح، لكن للتهليل ـ بالإضافة إلى هذه الأحاديث المذكورة ـ من الخصائص والمزايا ما يقطع بها أنه أفضل من التسبيح والتحميد والتكبير، ومن ذلك:

---

(١) انظر: التمهيد، لابن عبد البر: ٦/ ٤٢، ٤٩، ٥١، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٠/ ٦٦١، والكاشف عن حقائق السنن، للطيبي: ٦/ ١٨٢٢، وفتح الباري، للحافظ ابن حجر: ١١/ ٢٠٧.

(٢) سبق ذكر جزئه الأخير مع تخريجه في ص١٠٦.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده: ٥/ ١٦٩، والراوي عن أبي ذر أشياخ مبهمون، وبقية رجال الإسناد ثقات، ويشهد له حديث جابر المذكور قبله.

(٤) أخرجه مالك في الموطأ: ١/ ١٨٨، كتاب القرآن، برقم (٣٢)، مرسلاً، وأخرجه الترمذي بنحوه في سننه: ٥/ ٥٣٤، برقم (٣٥٨٥) من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده مرفوعاً، وفي إسناده ضعف.
والمرسل صحيح، وله عدة شواهد تقدم تخريجها في ص١٠٧ من البحث.

(٥) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٢٤/ ٢٣٤ ـ ٢٣٥.

١ ـ أن التهليل هو أول أركان الإسلام، وهو مفتاح الإسلام وبابه الذي لا يدخل إليه إلا منه، وعماده الذي لا يقوم بغيره[١].

٢ ـ أن التهليل هو أفضل شعب الإيمان وأرفعها، كما في حديث أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «**الإيمان بضع وسبعون، أو بضع وستون شعبة، فأفضلها قول: لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان**»[٢]. وفي رواية: «**الإيمان بضع وسبعون بابا، أدناها إماطة الأذى عن الطريق، وأرفعها قول: لا إله إلا الله**»[٣].

٣ ـ أن التهليل هو الذي بعث به جميع الرسل، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥].

٤ ـ أن التهليل يدل على تخصيص الله تعالى بالإلهية، وأنه ليس هناك أحد يتصف بالإلهية الحقة إلا الله تعالى وحده لا شريك له، والإلهية تتضمن أنه سبحانه مستحق لصفات الكمال كلها، منزه عن النقائص كلها، وعن أن يكون كمثله شيء، بل هو فوق كل شيء وأكبر من كل شيء. ويتضح من هذا أن (سبحان الله، والحمد لله، والله أكبر) من معنى (لا إله إلا الله)، لكن فيها تفصيل بعد إجمال[٤]، فمنزلة التهليل الأصل، ومنزلة التسبيح والتحميد والتكبير الفرع[٥].

---

(١) انظر: تحفة الذاكرين، للشوكاني: ص٣٤٧.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه: ١/ ٦٣، برقم (٣٥)، والبخاري في الأدب المفرد: ٢٠٤، برقم (٥٩٨).

(٣) أخرجه الترمذي في سننه: ٥/ ١٢، برقم (٢٦١٤)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح».

(٤) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٤/ ٤٢١.

(٥) انظر: المصدر السابق: ٢٤/ ٢٣٥.

وبهذا كله يرجح القول بأفضلية التهليل على بقية ألفاظ الذكر، وليس هذا المقام لسرد الأدلة لأفضلية التهليل، بل للإشارة إلى بعضها. ومع هذا فينبغي أن يعلم أن تفضيل التهليل على جميع ألفاظ الذكر أمر مطلق، ولا يقتضي أن يكون التهليل أفضل في كل زمان أو مكان أو حال، فإن المفضول من الذكر ـ كالتسبيح والتحميد والتكبير ونحوها ـ قد يعرض له ما يكون به أفضل من التهليل، وهو تفضيل اعتباري لا ينافي كون التهليل أفضل مطلقاً. وقد قعد شيخ الإسلام ابن تيمية لذلك أصلاً عظيماً، فقال: «وهنا أصل ينبغي أن نعرفه، وهو: أن الشيء إذا كان أفضل من حيث الجملة، لم يجب أن يكون أفضل في كل حال ولا لكل أحد، بل المفضول في موضعه الذي شرع فيه أفضل من الفاضل المطلق، كما أن التسبيح في الركوع والسجود أفضل من قراءة القرآن، ومن التهليل والتكبير، والتشهد في آخر الصلاة والدعاء بعده أفضل من قراءة القرآن...» اهـ[1].

فالحاصل في مسألة المفاضلة بين التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير أن هذه الكلمات الأربع تشترك في الفضل في مواضع عديدة، وينفرد كل منها بالفضل في مواضع أخرى يكون فيها أفضل مما سواه بمقتضى الشرع، ولكن التهليل أفضل على الإطلاق، لما له من الخصائص والمزايا في الدين.

والمنهج القويم في التعبد لله تعالى والثناء عليه بهذه الأذكار أن يأتي العبد في كل زمان وفي كل مكان وفي كل حال بما هو أفضل منها مفرداً أو مجموعاً مع غيره، وفق ما دلت عليه النصوص من الكتاب والسنة، والله تعالى أعلم.

---

(١) المصدر نفسه: ٢٤/٢٣٦ ـ ٢٣٧.



الفصل الثالث

منزلة التسبيح في العقيدة

❑ **توطئة:**

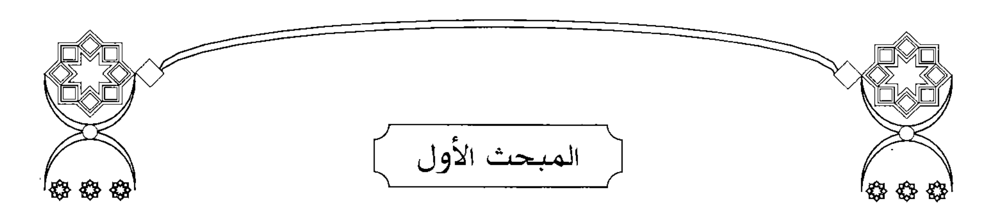
وإذا كانت للتسبيح منزلة في الدين على وجه العموم، يعرف ذلك بما سبق بيانه من حكمه وفضله في الكتاب والسنة، فإن للتسبيح منزلة عظمى في العقيدة على وجه الخصوص. وإن كان ما سبق بحثه ـ من معاني التسبيح، وأنواعه، وحكمه ـ قد تضمن بياناً لصلة التسبيح بالعقيدة، إلا أن التنويه بالمنزلة التي يحتلها التسبيح في العقيدة الإسلامية مهم جداً، لترسيخ المفهوم الصحيح للتسبيح، وتوضيح صلته الوثيقة بالعقيدة، وذلك من خلال المباحث الأربعة الآتية:

المبحث الأول: التسبيح دال على وصف لله تعالى.

المبحث الثاني: التسبيح من شواهد الإيمان بالله تعالى.

المبحث الثالث: التسبيح من أصول توحيد الله تعالى.

المبحث الرابع: التسبيح من دلائل حسن العقيدة الإسلامية.


المبحث الأول

التسبيح دال على وصف لله تعالى

من أعظم أوصاف الله تعالى التي قررها الكتاب والسنة نزاهته سبحانه من النقائص والعيوب كلها، وبراءته من الأقوال السيئة والأفعال الذميمة جميعها، وتعاليه عن أن يكون له مماثل أو مساو أو معاون.

والتسبيح ـ كما علم من بيان معناه اللغوي والشرعي ـ موضوع للدلالة على هذا المعنى بألطف لفظ وأجمله وأبلغه، ومن هنا كان التسبيح دالا على أعظم وصف لله ﷻ.

ويؤيد ذلك أنه قد اشتق من التسبيح اسم من أسماء الله تعالى الحسنى، وهو: (السبوح)[١].

وقد ثبت هذا الاسم فيما روته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: «أن رسول الله ﷺ كان يقول ـ في ركوعه وسجوده ـ: «**سبوح قدوس، رب الملائكة والروح**»»[٢].

قال ابن قتيبة[٣]: «ومن صفاته (سبوح)، وهو مبني على (فعول)

---

(١) انظر: كتاب التوحيد ومعرفة أسماء الله ﷻ وصفاته على الاتفاق والتفرد، للإمام الحافظ ابن منده، تحقيق الأستاذ الدكتور علي بن ناصر الفقيهي: ٢/ ١٣٧، ونور المسرى، لأبي شامة: ص٤٦.

(٢) سبق تخريجه في ص١١٨.

(٣) هو عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، أبو محمد، الإمام العلامة اللغوي، كان ثقة دينا فاضلا، وله تصانيف عديدة ومفيدة، منها: تأويل مشكل القرآن، =

من (سبح الله) إذا نزهه وبرأه من كل عيب»[(١)].

وقال ابن فارس: «وفي صفات الله جل وعز (سبوح)، واشتقاقه من الذي ذكرناه ـ يعني من التسبيح ـ أنه تنزه من كل شيء لا ينبغي له»[(٢)].

وقال الخطابي: «السبوح: المنزه عن كل عيب. جاء بلفظ (فعول) من قولك: سبحت الله، أي: نزهته»[(٣)].

وقال أبو القاسم التيمي: «السبوح: المستحق للتنزيه والتعظيم» اهـ[(٤)].

ونقل عن بعض العلماء في معنى (السبوح) أيضاً أنه: «الذي جل عن التشبيه والتعطيل، وبعد عن كل نقص وعيب، فيكون من أوصافه الذاتية التي لم يزل موصوفاً بها» اهـ[(٥)].

وفي هذا كله بيان أن (السبوح) اسم من أسماء الله الحسنى، اشتق من التسبيح للدلالة على صفة من صفات الله الذاتية، وهي النزاهة والبراءة من كل نقص وعيب، ومن أن يكون معطلاً عن كماله، وأن يكون كمثله شيء. وبني على (فعول) لإفادة المبالغة في هذه الدلالة؛ لأن بناء (فعول) من أبنية المبالغة[(٦)].

= وتأويل مختلف الحديث، وأدب الكاتب، وغيرها. وتوفي سنة (٢٧٦هـ)، رحمه الله. انظر: تذكرة الحفاظ، للذهبي: ٢/ ٦٣١ ـ ٦٣٣، والبداية والنهاية، لابن كثير: ١١/ ٥٢، ٦١.

(١) تفسير غريب القرآن: ص٨.
(٢) مقاييس اللغة: ٣/ ١٢٥.
(٣) شأن الدعاء: ص١٥٤.
(٤) إعراب القرآن: ١٩٧.
(٥) نور المسرى، لأبي شامة: ص٤٦.
(٦) انظر: النهاية في غريب الحديث، لابن الأثير: ٤/ ٢٣، والمفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، للقرطبي: ٢/ ٩١.

وعلى هذا فالسبوح اسم الله تعالى ووصفه، ولا تنافي اسميته وصفيته، كسائر أسماء الله الحسنى، فهي أسماء، وهي أوصاف؛ لأنها دالة على صفات كماله، وبذلك كانت حسنى، إذ لو كانت ألفاظاً لا معاني فيها لم تكن حسنى، ولا كانت دالة على مدح ولا كمال[(١)].

* وكما اشتق من لفظ التسبيح اسم الله (السبوح)، اشتق من معناه أسماء حسنى لله تعالى، وهي الأسماء التي ترجع إلى التنزيه، كالقدوس، والسلام، والمتعالي[(٢)].

وقد تقدم ذكر هذه الأسماء الثلاثة والكلام عليها ضمن الألفاظ الدالة على معنى التسبيح[(٣)].

* وكذلك يندرج في التسبيح كل نفي ورد في حق الله تعالى، كما سبق أيضاً الكلام عليه في الألفاظ الدالة على معنى التسبيح[(٤)].

* ومما له صلة باشتقاق وصف لله تعالى من التسبيح ما ثبت في السنة النبوية من نسبة (السبحات) إلى وجه الله ﷻ، كما في حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: «قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات، فقال: «**إن الله ﷻ لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام. يخفض القسط ويرفعه. يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل. حجابه النور ـ وفي رواية: النار ـ، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه**»»[(٥)].

---

(١) انظر: بدائع الفوائد، لابن القيم: ١/ ٢٧، ومدارج السالكين، له: ١/ ٥١ ـ ٥٢.

(٢) انظر: بدائع الفوائد، لابن القيم: ١/ ١٧٦، وجزء في تفسير الباقيات الصالحات، للعلائي: ص٤١.

(٣) انظر: ص١١٣ ـ ١٢٩.

(٤) انظر: ص١٣٣ ـ ١٤٤.

(٥) سبق تخريجه وشرح بعض ألفاظه في ص٢٦٠.

فالسبحات ـ بضم السين والباء ـ: جمع، واحدتها سبحة[١].

قال أبو عبيد الهروي[٢]: «يقال في السبحة: إنها جلال وجهه ونوره.

ومنه قيل: سبحان الله، إنما هو تعظيم الله وتنزيهه.

وهذا الحرف ـ قوله: (سبحات وجهه) ـ لم نسمعه إلا في هذا الحديث»[٣].

وقال أبو بكر الأنباري[٤]: «ويكون التسبيح النور، ومنه الحديث الذي يروى: (لولا ذلك لأحرقت سبحات وجهه ما أدركت من شيء)[٥]»[٦].

وفي هذين القولين بيان لما بين السبحات والتسبيح من التناسب

---

(١) انظر: المخصص، لابن سيده: ١٦/ ١٦٣، والنهاية في غريب الحديث، لابن الأثير: ٢/ ٣٣٢.

(٢) هو القاسم بن سلام ـ بالتشديد ـ البغدادي، أبو عبيد الهروي، الإمام الحافظ المشهور، واللغوي الفقيه المجتهد، ولي قضاء الثغور مدة، وكان ثقة فاضلا مأموناً، وله مصنفات مفيدة في القراءات، والناسخ والمنسوخ، وغريب الحديث، والأموال، وغيرها، وتوفي سنة (٢٢٤هـ)، رحمه الله تعالى. انظر: تذكرة الحفاظ، للذهبي: ٢/ ٤١٧، وتقريب التهذيب، لابن حجر: ٢/ ١٢٤.

(٣) غريب الحديث: ٣/ ١٧٣.

(٤) هو محمد بن القاسم بن محمد بن بشار الأنباري، أبو بكر، الحافظ العلامة، كان صدوقا دينا من أهل السنة، وكان من أفراد الدهر في سعة الحفظ، ومن أعلم الناس بالنحو والأدب، وله مصنفات كثيرة، في القراءات، والغريب، والمشكل، والوقف والابتداء، وغير ذلك، توفي سنة (٣٢٨هـ)، رحمه الله. انظر: تذكرة الحفاظ، للذهبي: ٣/ ٨٤٢ ـ ٨٤٤، وبغية الوعاة، للسيوطي: ١/ ٢١٢ ـ ٢١٤.

(٥) لم أقف على الحديث بهذا اللفظ، وهو قريب مما عند ابن ماجه بلفظ: «حجابه النور، لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه كل شيء أدركه بصره» [سنن ابن ماجه: ١/ ٧١، برقم (١٩٦)].

(٦) الزاهر في معاني كلمات الناس: ١/ ١٤٥.

في اللفظ والمعنى، أما الهروي فبين أن كلمة (سبحان الله) مأخوذة من (السبحة) بمعنى جلال وجه الله ونوره. وأما الأنباري فبين أن لفظ (سبحات) مأخوذة من التسبيح، بمعنى النور.

ولا تناقض بين قوليهما؛ لأن المقصود بيان أن كلا من التسبيح والسبحات مناسب للآخر لفظاً ومعنى.

وتجدر الإشارة هنا ـ توضيحاً لهذا التناسب ـ إلى أن السبحات والتسبيح يجتمعان ـ من حيث اللفظ ـ في مادة لغوية واحدة، هي مادة (سبح) المكونة من السين والباء والحاء.

وأما من حيث المعنى، فقد ذكر الإمام النووي أن جميع الشارحين للحديث من اللغويين والمحدثين قالوا: «معنى سبحات وجهه: نوره وجلاله وبهاؤه»[١].

وقبله قال القاضي عياض[٢] ـ في معنى السبحات ـ: «هي النور والجلال ـ كما قالوا ـ وما في معناها من البهاء والجمال والكبرياء والعظمة ونعوت التعالي»[٣].

---

(١) شرح صحيح مسلم: ٣/ ١٣ ـ ١٤. وانظر ـ لتثبيت ما ذكر ـ: كتاب العين، للفراهيدي: ٣/ ١٥١، وتهذيب اللغة، للأزهري: ٤/ ٣٣٩، والمحكم والمحيط الأعظم في اللغة، لابن سيده: ٣/ ١٥٥، ولسان العرب، لابن منظور: ٢/ ٤٧٣.

(٢) هو عياض بن موسى بن عياض اليحصبي، أبو الفضل السبتي الأندلسي، العلامة الحافظ القاضي المالكي، أحد الأعلام من علماء المغرب، له تصانيف بديعة، منها: الشفا في التعريف بحقوق المصطفى، ومشارق الأنوار على صحاح الآثار، وغيرهما، وتوفي سنة (٥٤٤هـ)، رحمه الله. انظر: تذكرة الحفاظ، للذهبي: ٤/ ١٣٠٥ ـ ١٣٠٦، وشجرة النور الزكية في طبقات المالكية، للشيخ محمد بن محمد مخلوف: ص١٤٠ ـ ١٤١.

(٣) إكمال المعلم بفوائد مسلم: ١/ ٥٣٦.

وقال أبو العباس القرطبي: «والسبحات: جمع سبحة، وأصله: جمال الوجه وبهاؤه، ثم يعبر بها عن العظمة والجلال»(١).

ونقل ابن الأثير(٢) أقوالاً في معنى (سبحات وجهه) نحو ما سبق، ثم قال: «وأقرب من هذا كله أن المعنى: لو انكشف من أنوار الله التي تحجب العباد عنه شيء، لأهلك كل من وقع عليه ذلك النور، كما خر موسى عليه السلام صعقاً، وتقطع الجبل دكاً، لما تجلى الله سبحانه وتعالى(٣)» اهـ(٤).

وكأنه يرجح في معنى (سبحات وجهه) أنها أنوار وجهه، وهذا المعنى صحيح، ولكنه لا ينافي المعاني الأخرى التي قيلت، بل يوافقها، فإن أنوار وجه الله تعالى التي لو كشف الحجاب عنها لتدكدك العالم كله، دليل على جمال الله سبحانه وكماله وجلاله وعظمته وكبريائه وبهائه وتعاليه عن النقص والمثيل.

وعن هذا عبر الإمام ابن القيم حيث قال: «من أعز أنواع المعرفة معرفة الرب سبحانه بالجمال، وهي معرفة خواص الخلق، كلهم عرفه بصفة من صفاته، وأتمهم معرفة من عرفه بكماله وجلاله وجماله سبحانه، ليس كمثله شيء في سائر صفاته، ولو فرضت الخلق كلهم على أجملهم صورة، وكلهم على تلك الصورة، ونسبت جمالهم الظاهر

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم: ١/ ٤١١.

(٢) هو المبارك بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني، مجد الدين، أبو السعادات، المعروف بابن الأثير الجزري، كان محدثا ولغويا بارعا، من مصنفاته: جامع الأصول من أحاديث الرسول، والنهاية في غريب الحديث والأثر. توفي سنة (٦٠٦هـ)، رحمه الله. انظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي: ١/ ٤٨٨ ـ ٤٩١.

(٣) انظر: ما سبق في ص٣٠٢.

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر: ٢/ ٣٣٢.

والباطن إلى جمال الرب سبحانه، لكان أقل من نسبة سراج ضعيف إلى قرص الشمس، ويكفي في جماله (أنه لو كشف الحجاب عن وجهه لأحرقت سبحاته ما انتهى إليه بصره من خلقه)[١].

ويكفي في جماله أن كل جمال ظاهر وباطن في الدنيا والآخرة فمن آثار صنعته، فما الظن بمن صدر عنه هذا الجمال؟!» اهـ[٢].

ومعلوم أن ما دل عليه التسبيح من التنزيه البليغ لله تعالى من كل وجه وبكل اعتبار، هو من معاني جمال ذاته، وجمال أسمائه، وجمال صفاته، وجمال أفعاله، ومن معاني كماله وجلاله وعظمته، وبذلك كان التسبيح تعظيماً لله ﷻ، وثناء عليه بما يليق به، كمال سبق بيانه مراراً، فظهر بهذا التناسب التام بين سبحات الله تعالى وتسبيحه في اللفظ والمعنى، وصح أن يقال: إن كلا منهما مشتق من الآخر.

وبمعرفة ما بين التسبيح والسبوح وسبحات وجه الله تعالى من المناسبة في اللفظ وفي المعنى، يتبين ما للتسبيح من منزلة في العقيدة، لكونه قد اشتق منه أوصاف عظيمة مما يلزم العبد اعتقاده، وإثباته لله سبحانه على ما يليق بكماله وجلاله وجماله.

فالله ﷻ يسمى بالسبوح. ويوصف بأن لوجهه سبحات، لو كشفها لاحترق ـ من عظمة أنواره ـ جميع الخلق. ويذكر بكلمة: سبحان الله، تنزيها له وتعظيماً. ويخبر عنه بأنه ذو السبحان ـ أي: ذو النزاهة والبراءة من كل ما لا يليق به ـ، كما قال الراجز:

«سبحانك اللهم ذا السبحان»[٣].

---

(١) مقتبس من الحديث السابق. (٢) الفوائد: ص٣١٨ ـ ٣١٩.

(٣) سبق ذكر هذا الرجز مع التعليق عليه عند الكلام على لفظ (سبحان)، في ص٦١. وقد اقتبسه الإمام ابن قيم الجوزية في عدة مواضع في قصيدته النونية المسماة: الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية: ص٥١، ١١٨، ٣٢٦.

وقال الناظم السني:

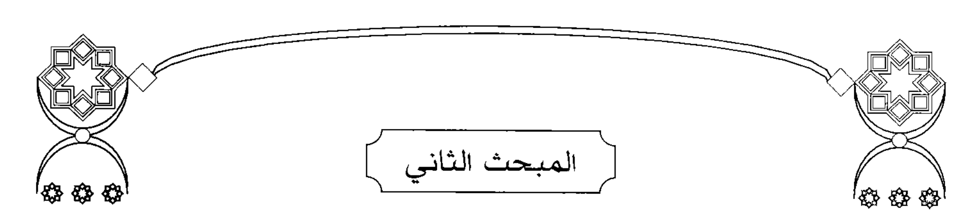
«سبحان ذي الجبروت والملكوت والـ إجلال والإكرام والسبحان»[(١)]

كما يخبر عنه بأنه المسبح في ذاته، وفي أسمائه وصفاته، وفي أقواله وأفعاله، عن كل نقص وعيب، وتمثيل وتعطيل. كما قال الناظم المسبح لله تعالى:

«وهو الموحد والمسبح والممجـ ـد والحميد ومنزل القرآن
والأمر من قبل ومن بعد له سبحانك اللهم ذا السلطان»[(٢)]

(١) بيت من القصيدة النونية، لابن قيم الجوزية: ص٣٥٢.

(٢) المصدر السابق: ص٣٥٢.



التسبيح من شواهد الإيمان بالله تعالى

قد علم مما سبق بيانه في حكم التسبيح أنه لا يقع شرعاً ولا لغة إلا متعلقاً بالله تعالى مختصاً به، كما علم من بيان معناه أنه ثناء على الله تعالى بالتنزيه والتعظيم له على وجه الاختصاص عن كل ما لا يليق بكماله وعظمته.

ولهذا لا يتصور أن يصدر التسبيح على وجهه شرعاً ولغة إلا ممن يؤمن بالله تعالى رباً خالقاً، وإلهاً معبوداً، منزهاً عن العيوب والنقائص، وعن الأمثال والشركاء.

وهذا الاستلزام بين التسبيح والإيمان هو مما فارق فيه الثناء الدعاء ـ أعني دعاء المسألة ـ، فإن الثناء المشروع ـ كالتسبيح والتحميد والتكبير ـ يستلزم الإيمان بالله تعالى، بخلاف الدعاء، فقد لا يستلزمه، إذ الكفار أيضاً يسألون الله تعالى كما يسأله المؤمنون، وقد أخبر الله تعالى عن نفسه فقال: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الرحمن: ٢٩].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «ومما يبين فضل الثناء على الدعاء أن الثناء المشروع يستلزم الإيمان بالله، وأما الدعاء فقد لا يستلزمه، إذ الكفار يسألون الله فيعطيهم، كما أخبر الله بذلك في القرآن في غير موضع، فإن سؤال الرزق والعافية ونحو ذلك من الأدعية المشروعة هو مما يدعو به المؤمن والكافر، بخلاف الثناء، كقوله: (سبحانك اللهم

وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدك، ولا إله غيرك)[1]، و(التحيات لله والصلوات والطيبات، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته)[2]، فإن هذا لا يثني به إلا المؤمن. وكذلك قوله: (اللهم ربنا ولك الحمد، ملء السماوات وملء الأرض وملء ما بينهما، وملء ما شئت من شيء بعد)[3]. لكن قد يكون بعض الثناء يقر به الكفار، كإقرارهم بأن الله خالق السموات والأرض، وأنه يجيب المضطر إذا دعاه، ونحو ذلك. لكن المشركون لم يكن لهم ثناء مشروع يثنون به على الله، حتى في تلبيتهم كانوا يقولون: (لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك)، وكذلك النصارى ثناؤهم فيه الشرك، وأما اليهود فليس في عبادتهم ثناء، اللهم إلا ما يكون مأثوراً عن الأنبياء، وذلك من ثناء أهل الإيمان، وكذلك النصارى إن كان عندهم شيء من ذلك. وأما ما شرعه من ثنائه فهو يتضمن الإيمان» اهـ[4].

وهذا في الثناء المشروع عموماً، وأما في التسبيح المشروع خصوصاً، فإن الله تعالى جعل التسبيح من شواهد الإيمان في قوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾﴾ [السجدة: ١٥]، فأخبر تعالى أن المؤمن

---

(١) هذا الثناء ورد في أحاديث عديدة أن النبي ﷺ كان يقوله في افتتاح الصلاة، وانظر تخريجه مفصلاً في مبحث التسبيح في افتتاح الصلاة، ص٥١٥.

(٢) هذا جزء من التشهد المشروع في الصلاة، ورد به حديث متفق عليه: أخرجه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ١١/ ١٣، برقم (٦٢٣٠)، ومسلم في صحيحه: ١/ ٣٠١ ـ ٣٠٢، برقم (٤٠٢).

(٣) ورد هذا فيما كان يقوله رسول الله ﷺ بعد الرفع من الركوع في الصلاة، وأخرجه مسلم في صحيحه: ١/ ٣٤٦ ـ ٣٤٧، برقم (٤٧٦ ـ ٤٧٨) من حديث ابن عباس، وأبي سعيد الخدري، وعبد الله بن أبي أوفي.

(٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٢٢/ ٣٨٢ ـ ٣٨٣.

هو الذي يسبح بحمد ربه إذا ذكر بآياته، بل دلت الآية على أنه لا يكون مؤمناً إلا من إذا ذكر بآيات ربه سجد وسبح بحمد ربه[1]، وهذا يتحقق بالتسبيح في الصلاة في الركوع والسجود بعد القراءة، لهذا كانت هذه الآية مما استدل به على وجوب التسبيح في الركوع والسجود داخل الصلاة[2]، وعلى فضل التسبيح أيضاً[3].

وقرن الله تعالى بين التسبيح والإيمان في قوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ [غافر: ٧]، وفي قوله تعالى: ﴿لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكۡرَةً وَأَصِيلًا ٩﴾ [الفتح: ٩].

وهذا ـ والله تعالى أعلم ـ لما للتسبيح من التأثير في الإيمان بالزيادة والتقوية والتصفية مما يناقض الإيمان الصحيح.

وقد جاء في الأثر عن عمير بن حبيب[4] رضي الله عنه قال: «الإيمان يزيد وينقص. فقيل: وما زيادته وما نقصانه؟ قال: إذا ذكرنا الله فحمدناه وسبحناه، فتلك زيادته، وإذا غفلنا وضيعنا ونسينا فذلك نقصانه»[5].

---

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٢٢/ ١٤٩.

(٢) انظر: ما سبق في حكم التسبيح ص٣٩٧.

(٣) انظر: ص٤٢٧.

(٤) هو عمير بن حبيب بن خماشة بن جويبر بن عبيد الأنصاري الخطمي، صحابي ممن بايع تحت الشجرة، ولم تذكر سنة وفاته رضي الله عنه. انظر: الإصابة، للحافظ ابن حجر العسقلاني: ٤/ ٧١٤ ـ ٧١٥.

(٥) أخرجه أبو بكر الآجري في كتاب الشريعة، تحقيق الدكتور عبد الله بن عمر الدميجي: ٢/ ٥٨٤، برقم (٢١٦)، وأبو القاسم اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة: ٣/ ٩٤٩، برقم (١٧٢١)، وأبو عثمان الصابوني في عقيدة السلف أصحاب الحديث، تحقيق بدر بن عبد الله البدر: ٨٢، برقم (١٠٥).

ومصداق هذا الأثر حديث يسيرة رضي الله عنها قالت: قال لنا رسول الله ﷺ: «**عليكن بالتسبيح والتهليل والتقديس، ولا تغفلن فتنسين التوحيد**»[(١)].

فإن هذا الحديث يدل على أن ملازمة التسبيح والتهليل والتقديس ذكر للتوحيد واستحضار له، وأن الغفلة عن ذلك نسيان للتوحيد.

ويوضح هذه المسألة: أن المؤمن صادق في قوله: (**سبحان الله**)، وكلما كرر ذلك زاد إيمانه وقوي، وتحقق قلبه بالتنزيه والتعظيم والتوحيد لله تعالى، وذلك أن المؤمن إذا سبح الله تعالى فهو مسبح له بإيمانه به ومعرفته إياه، وهو ما في قلبه من جلال الله وإكرامه وعظمته، وتنزهه عن النقائص والعيوب، وتعاليه عن الأمثال والشركاء[(٢)].

فإذا قال المؤمن: (سبحان الله)، فقد نزه الله تعالى، فنزه بذلك قلبه ولسانه عن أن يصف الله تعالى بما لا ينبغي له، وزكى نفسه وعمله عن الشرك بالله سبحانه، وكلما سبح الله ﷻ تنزهت نفسه عن أن يصف الله تعالى بشيء من السوء أو أن يشرك به شيئاً[(٣)].

ولا شك أن المسلمين يشتركون في الإتيان بالتسبيح في الصلاة وخارج الصلاة، ويتفاوتون في معرفتهم بمضمون هذا التسبيح وفي قيامهم بمقتضاه ظاهراً وباطناً تفاوتاً لا يحصيه إلا الله تعالى.

فأصح الناس تسبيحاً وأكملهم فيه الأنبياء والرسل عليهم السلام الذين هم أعلم الناس بالله تعالى وأكثرهم قياماً بمقتضى العبودية، ثم أتباعهم

---

(١) سبق تخريجه ص٢٠٨.

(٢) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٣٥/ ٢٧٥.

(٣) انظر: قاعدة حسنة في الباقيات الصالحات، لشيخ الإسلام ابن تيمية: ص٣٤ ـ ٣٦.

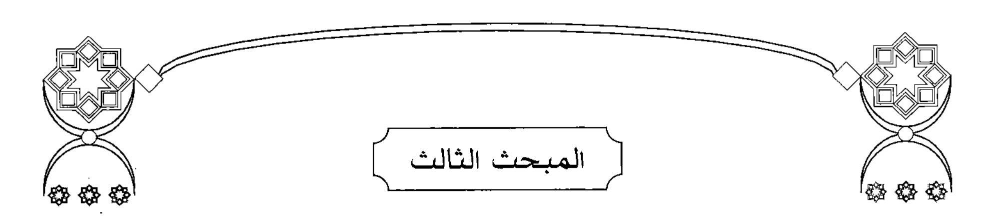
المؤمنون الذين تلقوا علمهم بالله تعالى من مشكاة النبوة، وكانوا في عقيدتهم وعبادتهم على هدي الأنبياء والمرسلين، من الإيمان بالله تعالى وإثبات ما أثبته لنفسه وأثبته له أنبياؤه ورسله من صفات الكمال، ونفي ما نفاه الله تعالى عن نفسه ونفاه عنه أنبياؤه ورسله مما يضاد كماله وينافي وحدانيته من النقائص والأمثال والشركاء.

فكل تسبيح لله تعالى قام على هذا الاعتقاد الصحيح كان تسبيحاً مؤثراً في نفس صاحبه إيماناً وتوحيداً وزكاة، بإذن الله تعالى.

وأبخس الناس حظاً في التسبيح أولئك الذين يلوكون التسبيح بأفواههم وقلوبهم خاوية من معناه الصحيح، إما لغفلتهم عن هذا المعنى بعدم استحضاره وترك التأمل فيه، وإما لعدم عنايتهم بتعلمه وتفهمه كما ينبغي.

والأسوأ من ذلك أن ينطوي القلب على اعتقاد فاسد مخالف لما جاءت به الأنبياء والرسل، كمن ينفي صفات الله تعالى، أو يمثل الله ﷻ بخلقه، أو يصرف شيئاً من العبادة لغير الله تعالى، فإن من هذا حاله ليس عنده علم بالله تعالى، ولم يؤمن به سبحانه كما يجب، فلا يكون لتسبيحه تأثير في نفسه ولا في إيمانه؛ لأن ما قام بقلبه من الاعتقاد الفاسد يحول دون ذلك، فليصحح اعتقاده أولاً.

وبالجملة فإن التسبيح القائم على العلم بمعناه الصحيح الموافق لهدي الكتاب والسنة من شواهد الإيمان بالله تعالى ومقوماته وأسباب زيادته وسلامته مما ينافي تنزيه الله تعالى وتوحيده، وبالله التوفيق.



التسبيح من أصول توحيد الله تعالى

توحيد الله تعالى يتناول توحيده في الاعتقاد والقول، وتوحيده في الإرادة والعمل.

فالأول يسمى: التوحيد الاعتقادي القولي؛ لأنه يتعلق باعتقاد القلب وقول اللسان، وهو الإيمان بحقيقة ذات الله تعالى وأسمائه وصفاته، وأقواله وأفعاله، وبأنه سبحانه منزه عن العيوب والنقائص، والأمثال والأنداد، والثناء عليه ﷻ بوصفه بما يستحقه من الكمال والجلال والجمال، وبتنزيهه عما لا يليق بوحدانيته وعظمته.

ويسمى هذا النوع أيضاً: التوحيد العلمي الخبري، لتعلقه بالعلم بالله تعالى المستفاد من الخبر الصادق: من كتاب الله تعالى، أو سنة رسوله ﷺ.

وربما سمي أيضاً: توحيد المعرفة والإثبات؛ لأن المقصود منه المعرفة بالقلب، والإثبات باللسان.

والثاني يسمى: التوحيد الإرادي العملي؛ لأنه يتعلق بإرادة العبد وعمله، وهو عبادة الله تعالى وحده بما شرع من أعمال القلوب والجوارح، لا يشرك به شيء في شيء من أنواع العبادة، فيكون الله وحده هو مراد العبد بجميع أعماله التي يقوم بها على وجه التقرب.

ولهذا يسمى هذا النوع أيضاً: توحيد القصد والطلب؛ لأن معناه توحيد الله ﷻ بالقصد والطلب في جميع أنواع العبادة.

كما يسمى: توحيد العبادة، وتوحيد الألوهية؛ لأن معناه إفراد الله تعالى بالعبادة. والألوهية: هي كونه الإله المألوه ـ أي المعبود ـ الذي ينبغي أن يعبده الخلق وحده، ولا يشركوا به شيئاً.

وقد دخل في ما سبق ذكره أنواع التوحيد الثلاثة المعروفة عند أهل السنة والجماعة، وهي: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات.

فتوحيد الربوبية، وتوحيد الأسماء والصفات، مدلولهما اعتقادي قولي، فهما داخلان في التوحيد الاعتقادي القولي.

وتوحيد الألوهية مدلوله إرادي عملي، فهو التوحيد الإرادي العملي. فهذه أنواع التوحيد التي دل عليها الكتاب والسنة، واتفق عليها أهل السنة والجماعة[١].

وهي أنواع متلازمة، كل نوع منها مرتبط بالآخر، دال عليه لزوماً[٢]، ولا يتحقق توحيد الله تعالى إلا بالإتيان بها جميعاً، فمن أتى بنوع منها ولم يأت بالآخر، فما ذاك إلا أنه لم يأت بالتوحيد على وجه

---

(١) انظر: الكلام على أنواع التوحيد في: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٧/ ١٠٧ ـ ١٠٨، وبيان تلبيس الجهمية، له: ١/ ١٣٤، ٤٧٩. ومدارج السالكين، لابن قيم الجوزية: ١/ ٤٨ و٣/ ٤١٧. وبدائع الفوائد، له: ١/ ١٥٣. وشرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز: ١/ ٢٤، ٤٢ ـ ٤٣. ومجموعة التوحيد، بتحقيق بشير محمد عيون: ١/ ٥ ـ ٧، وتيسير العزيز الحميد، للشيخ سليمان بن عبد الله: ٣٣ ـ ٣٦. والقول السديد في مقاصد التوحيد، للشيخ عبد الرحمن السعدي: ص١١ ـ ١٤. ومعارج القبول، للشيخ حافظ الحكمي: ١/ ٩٨. ودعوة التوحيد، للشيخ محمد خليل هراس: ص١٠ ـ ٣٣، وشرح القصيدة النونية للإمام ابن القيم، له: ٢/ ٥٥ ـ ٥٦، وأضواء البيان، للشيخ محمد الأمين الشنقيطي: (٣/ ٤١٠ ـ ٤١٤).

(٢) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٧/ ١٠٧ ـ ١٠٨.

الكمال المطلوب[(١)].

ولهذا لما كان الكفار يقرون بتوحيد الربوبية في الجملة، وبجنس توحيد الأسماء والصفات، وينكرون توحيد الألوهية، لم يكونوا موحدين، بل مشركين، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يوسف: ١٠٦].

قال طائفة من السلف ـ في معنى هذه الآية ـ: «تسألهم: من خلقهم؟ ومن خلق السماوات والأرض؟ فيقولون: الله، فذلك إيمانهم بالله. وهم مع هذا يعبدون غيره»[(٢)].

وقال ابن زيد: «ليس أحد يعبد مع الله غيره إلا وهو مؤمن بالله، ويعرف أن الله ربه، وأن الله خالقه ورازقه، وهو يشرك به، ألا ترى كيف قال إبراهيم: ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الشعراء: ٧٥ ـ ٧٧]، قد عرف أنهم يعبدون رب العالمين مع ما يعبدون. قال: فليس أحد يشرك به إلا وهو مؤمن به. ألا ترى كيف كانت العرب تلبي تقول: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك، تملكه وما ملك؟ المشركون كانوا يقولون هذا» اهـ[(٣)].

وهكذا الشأن في كل من قصد غير الله تعالى بشيء من أنواع العبادة، فإنه لا يكون موحداً، وإن أقر ببعض أنواع التوحيد؛ لأنه لم يأت

---

(١) انظر: تيسير العزيز الحميد، للشيخ سليمان بن عبد الله: ص٣٣.

(٢) قد روى ابن جرير الطبري في تفسيره آثاراً كثيرة في هذا المعنى عن عدد من الصحابة والتابعين. انظر: تفسير الطبري: ٧/ ٣١٢ ـ ٣١٣، ودرء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية: ١/ ٢٢٦ ـ ٢٢٧، وتيسير العزيز الحميد، للشيخ سليمان بن عبد الله: ص٣٣ ـ ٣٤.

(٣) رواه الطبري في تفسيره: ٧/ ٣١٣ ـ ٣١٤.

بالتوحيد المطلوب إذ أشرك مع الله سبحانه غيره في شيء من العبادة.

ولهذا أيضاً لما كان بعض الفرق الضالة من المسلمين يقرون بتوحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية ـ في الجملة ـ، ويجحدون صفات الله تعالى أو بعضها، ويلحدون في أسمائه أو بعضها، لم يكونوا موحدين، بل ضالين في التوحيد، واشتد إنكار علماء السلف عليهم، مع بيان مخالفتهم للتوحيد.

فتوحيد الله تعالى لا يتحقق إلا باجتماع أنواعه السابق ذكرها على الوجه الذي بينه الله تعالى في كتابه، وبينه الرسول ﷺ في سنته، وفهمه السلف الصالح رضوان الله عليهم.

يتضح مما سبق بيانه أن التوحيد الاعتقادي القولي المتضمن توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات مبني على أصلين عظيمين:

أحدهما: إثبات صفات الكمال التي وصف الله تعالى بها نفسه في كتابه، أو وصفه بها رسوله ﷺ في سنته، بألفاظها ومعانيها على وجهها، والتحقق بها تصديقاً ومعرفة وتعبداً لله تعالى بها.

الثاني: تنزيه الله ﷻ عما لا يليق بجلاله وعما ينافي كماله من النقائص والعيوب ومشاركة أحد من المخلوقين في شيء من الصفات والخصائص والحقوق[1].

وهذا الأصل الثاني هو مدلول تسبيح الله تعالى، كما أن الأصل الأول هو مدلول حمده سبحانه. وفي بيان ذلك قال العلامة أبو بكر الطرطوشي: «جماع التوحيد في ركنين: أحدهما: نفي النقائص والآفات. والثاني: إثباته على أعلى صفات الجلال ونعوت الكمال

---

(١) انظر: الصواعق المرسلة، لابن قيم الجوزية: ٢/ ٤٠٢ ـ ٤٠٣، وتوضيح الكافية الشافية، للشيخ عبد الرحمن السعديّ: ص١١٥ ـ ١١٦.

والعظمة والكبرياء. فاختار الله سبحانه لنفي النقائص والآفات لفظ التسبيح، واختار لإثبات المحامد وصفات الجلال لفظ الحمد.

فإذا قال القائل: (سبحان الله وبحمده) فتقديره: براءة لك من النقائص والآفات، والحمد لله على ما أنت أهله من صفات الجلال ونعوت الكمال، وتحقيق الألوهية وثبوت الربوبية» اهـ[(١)].

وعلى هذين الركنين والأصلين العظيمين قام الاعتقاد الصحيح الذي كان عليه السلف الصالح من هذه الأمة في توحيد الله تعالى بأسمائه وصفاته، كما بين ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية حيث قال: «فقولهم في الصفات مبني على أصلين:

أحدهما: أن الله ﷻ منزه عن صفات النقص مطلقاً، كالسنة، والنوم، والعجز، والجهل، وغير ذلك.

والثاني: أنه متصف بصفات الكمال التي لا نقص فيها على وجه الاختصاص بما له من الصفات، فلا يماثله شيء من المخلوقات في شيء من الصفات» اهـ[(٢)].

وتقريراً لهذين الأصلين وتفصيلاً لهما جاءت صفات الله تعالى في الكتاب والسنة على نوعين: صفات إثبات، وصفات تنزيه[(٣)].

فصفات الإثبات: تتمثل فيما أثبته الله تعالى لنفسه، وفيما أثبته له رسوله ﷺ، من صفات الكمال اللائقة بجلاله وعظمته، كالعلم، والسمع، واليد، والرحمة، والملك، والعلو، وغير ذلك من صفات الله الثابتة في الكتاب والسنة.

---

(١) الدعاء المأثور وآدابه: ص١٦٥.
(٢) منهاج السنة النبوية: ٢/٥٢٣.
(٣) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٧/١٠٧، والقواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى، للشيخ ابن عثيمين: ص٣١ ـ ٣٢.

وصفات التنزيه: تتمثل فيما نزه الله تعالى نفسه عنه، وفيما نزهه عنه رسوله ﷺ، مما لا يليق بكماله وجماله ووحدانيته.

وصفات التنزيه هذه يجمعها معنيان، وهما: تنزيه الله تعالى عن النقائص، وتنزيهه سبحانه عن التمثيل بشيء من خلقه(١).

وهذان المعنيان قد سبق الكلام عليهما بالتفصيل في مبحث أنواع التسبيح باعتبار المعنى(٢).

فصفات التنزيه داخلة ـ بالجملة ـ في معنى التسبيح.

ووفقاً للأصلين المذكورين أيضاً صرح بعض العلماء بتقسيم التوحيد الاعتقادي القولي إلى نوعين: توحيد الإثبات، وتوحيد التنزيه(٣).

ونظير ذلك تقسيم الثناء على الله تعالى إلى قسمين:

أحدهما: ثناء التنزيه والتسبيح، وهو سلب النقائص والتمثيل عن الله تعالى.

والثاني: ثناء الحمد والتمجيد، وهو إثبات صفات الكمال لله تعالى(٤).

وقد تجلى تنوع صفات الله تعالى إلى صفات تنزيه وصفات

---

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٠٨/١٧.
(٢) انظر: ص١٤٦ ـ ١٧٥.
(٣) انظر: الكافية الشافية (القصيدة النونية)، لابن القيم: ص٢٣٨ ـ ٢٣٩، وشرح العقيدة الواسطية، لهراس: ص٨٣، والكواشف الجلية، للشيخ عبد العزيز السلمان: ص١١٦.
(٤) انظر: نور المسرى، لأبي شامة: ص٢٧، ٣٢ ـ ٣٣، وبدائع الفوائد، لابن القيم: ٤٢٦/١.

إثبات، وتنوع الثناء عليه إلى ثناء تسبيح وتنزيه، وثناء حمد وتمجيد فيما ذكره الإمام ابن القيم من الأصول التي اتفقت عليها النبوات في وصف الله تعالى، حيث قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «النبوات من أولها إلى آخرها متفقة على أصول:

- أحدها: أن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ قديم واحد. لا شريك له في ملكه، ولا ند ولا ضد ولا وزير ولا مشير ولا ظهير ولا شافع إلا من بعد إذنه.
- الثاني: أنه لا والد له، ولا ولد، ولا كفؤ ولا نسيب بوجه من الوجوه، ولا زوجة.
- الثالث: أنه غني بذاته، فلا يأكل، ولا يشرب، ولا يحتاج إلى شيء مما يحتاج إليه خلقه بوجه من الوجوه.
- الرابع: أنه لا يتغير، ولا تعرض له الآفات من الهرم، والمرض، والسنة، والنوم، والنسيان، والندم، والخوف، والهم، والحزن، ونحو ذلك.
- الخامس: أنه لا يماثل شيئاً من مخلوقاته، بل ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله.
- السادس: أنه لا يحل في شيء من مخلوقاته، ولا يحل في ذاته شيء منها، بل هو بائن عن خلقه بذاته، والخلق بائنون عنه.
- السابع: أنه أعظم من كل شيء، وأكبر من كل شيء، وفوق كل شيء، وغالب على كل شيء، وليس فوقه شيء البتة.
- الثامن: أنه قادر على كل شيء، فلا يعجزه شيء يريده، بل هو الفعال لما يريد.

- التاسع: أنه عالم بكل شيء، يعلم السر وأخفى، ويعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ﴾ [الأنعام: ٥٩] ولا ساكن ولا متحرك إلا وهو يعلمه على حقيقته.
- العاشر: أنه سميع بصير، يسمع ضجيج الأصوات باختلاف اللغات على تفنن الحاجات، ويرى دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء. قد أحاط سمعه بجميع المسموعات، وبصره بجميع المبصرات، وعلمه بجميع المعلومات، وقدرته بجميع المقدورات، ونفذت مشيئته في جميع البريات، وعمت رحمته جميع المخلوقات، ووسع كرسيه الأرض والسموات.
- الحادي عشر: أنه الشاهد الذي لا يغيب، ولا يستخلف أحداً على تدبير ملكه، ولا يحتاج إلى من يرفع إليه حوائج عباده أو يعاونه عليها، أو يستعطفه عليهم ويسترحمه لهم.
- الثاني عشر: أنه الأبدي الباقي الذي لا يضمحل ولا يتلاشى ولا يعدم ولا يموت.
- الثالث عشر: أنه المتكلم المكلم الآمر الناهي، قائل الحق، وهادي السبيل، ومرسل الرسل، ومنزل الكتب، والقائم على كل نفس بما كسبت من الخير والشر، ويجازي المحسن على إحسانه، والمسيء بإساءته.
- الرابع عشر: أنه الصادق في وعده وخبره، فلا أصدق منه قيلاً، ولا أصدق منه حديثاً، وهو لا يخلف الميعاد.
- الخامس عشر: أنه تعالى صمد بجميع معاني الصمدية، فيستحيل عليه ما يناقض صمديته.

- السادس عشر: أنه قدوس سلام، فهو المبرأ من كل عيب ونقص وآفة.
- السابع عشر: أنه الكامل الذي له الكمال المطلق من جميع الوجوه.
- الثامن عشر: أنه العدل الذي لا يجور ولا يظلم، ولا يخاف عباده منه ظلماً.

فهذا مما اتفقت عليه جميع الكتب والرسل، وهو من المحكم الذي لا يجوز أن تأتي شريعة بخلافه، ولا يخبر نبي بخلافه أصلاً» اهـ[١].

ويستفاد مما سبق أن معرفة الله تعالى لا تتم إلا بمعرفة صفاته الثبوتية مع صفاته التنزيهية؛ لأن الله سبحانه قد دل على نفسه بهذه وبهذه[٢]، وأن كمال الإيمان بالله ﷻ يتضمن إثبات ما أثبته لنفسه، وتنزيهه عما نزه نفسه عنه[٣]، ولهذا كان معرفة ما يستحقه الله تعالى وما ينزه عنه من أجل أمور الدين وأعظم أصوله التي أرسلت الرسل لبيانها، وأنزلت الكتب لتقريرها[٤].

وقد تبين بهذا أن التسبيح أصل عظيم من أصول توحيد الله تعالى، وبالله التوفيق.

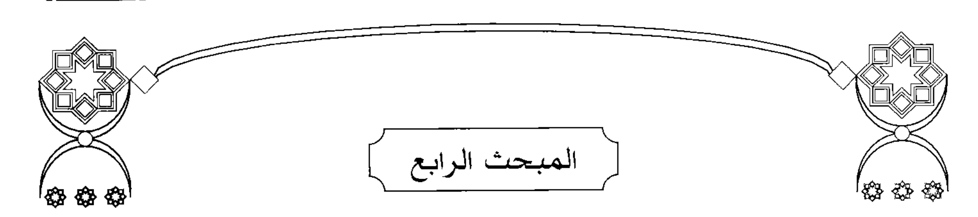
---

(١) هداية الحياري في أجوبة اليهود والنصارى، تحقيق الدكتور محمد أحمد الحاج: ص٥٢٢ ـ ٥٢٥.

(٢) انظر: مدارج السالكين، لابن القيم: ٣/ ٢٢١.

(٣) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٤/ ١٣٥ ـ ١٣٦.

(٤) انظر: المصدر السابق: ٥/ ١٧٤.



التسبيح من دلائل حسن العقيدة الإسلامية

يعد تسبيح الله تعالى وتنزيهه عن النقائص والعيوب، وعن التمثيل والتعطيل، وعن الشرك به في العبادة، من خصائص العقيدة الإسلامية ودلائل حسنها واستقامتها.

وقد جاء ذلك صريحاً في قول الله تعالى ـ لرسوله محمد ﷺ ـ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف: ١٠٨].

فقوله ـ في هذه الآية ـ: ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ دليل على أن التسبيح من الأصول العظام التي أمر الرسول ﷺ بإعلانها والدعوة إليها[1]. و(سبحان الله) ـ كما سبق ـ: كلمة يعظم الله تعالى بها ويحاشى بها عن كل ما يخالف كماله، ويناقض توحيده، من سوء ونقص وعيب، وتمثيل وتعطيل وشرك.

وهذا المعنى من الأصول التي اتفقت عليها جميع الرسالات السماوية، كما سبق بيانه قريباً ـ في المبحث الثاني ـ، ولكن كثيراً من طوائف بني آدم قد خالفوا هذا الأصل العظيم، فوصفوا الله ﷻ بما يتعالى عنه من النقائص والعيوب، إما مع العلم بأنها نقائص وعيوب،

---

(١) انظر ما سبق من الكلام على الآية المذكورة في: ص١٧٩، ٣١١، ٤٢٦ من هذا البحث.

كما وقع من اليهود من قولهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٨١]، وقولهم: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾، وقولهم: «إنه ـ سبحانه ـ بكى على الطوفان حتى رمد، وعادته الملائكة. وإنه ندم على ذلك حتى عض أصابعه. وإنه تبدى لإسرائيل وصارعه»[١]، سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون.

وإما مع الجهل بكونها نقائص وعيوباً، كما وقع من النصارى، من قولهم: إنه اتخذ مريم زوجة، وأولدها عيسى، فهي صاحبته، وعيسى ابنه»[٢]، تعالى الله عما يقولون علوا كبيراً.

وكما وقع من مشركي العرب، من زعمهم أن الله صاهر الجن، فولدت له الملائكة، وهو ما ذكره الله في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًاۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [الصافات: ١٥٨ ـ ١٥٩][٣].

وأمثال ذلك من الأقوال التي تتضمن تنقص رب العالمين ووصفه بما لا يليق بكماله وعظمته ووحدانيته.

ولهذا يذكر عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال ـ في أهل الكتاب الذين سبق ذكر بعض أقوالهم من اليهود والنصارى ـ: «أهينوهم، ولا تظلموهم، فلقد سبوا الله عز وجل مسبة ما سبه إياها أحد من البشر»[٤].

---

(١) انظر: هداية الحياري في أجوبة اليهود والنصارى، لابن القيم: ص٤١٨ ـ ٤٢٠، ٤٦٧، والصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، له: ٣/ ٨٣١، وأحال محقق الكتاب بهذا الكلام على: الكتاب المقدس، سفر التكوين، الإصحاح/٨، فقرة/ ٢١، والإصحاح/ ٣٢، فقرة/ ٢٤ ـ ٢٨.

(٢) الصواعق المرسلة، لابن القيم: ٣/ ٨٣١. وانظر: هداية الحياري، له: ص٤٨٠ ـ ٤٨٣.

(٣) وقد سبق الكلام فيها في: ص١٨٨ ـ ١٨٩.

(٤) ذكره ابن قيم الجوزية في هداية الحياري: ص٤٨٢، وإغاثة اللهفان: ٢/ ٣٤١.

ولا ريب أن وصف الله تعالى بشيء من النقائص والعيوب مسبة عظيمة في حقه سبحانه، لا يقع فيها إلا من كان عدواً لله أو جاهلاً به أشد الجهل.

ومن حسن العقيدة الإسلامية ونقائها واستقامتها أنها بريئة من هذه القبائح، خالصة من هذه الشوائب، قائمة على التنزيه التام لله تعالى عن جميع النقائص والعيوب، وعن التمثيل والتعطيل. وبرهان ذلك: أن التسبيح والتنزيه جاء في القرآن الكريم بأساليب متنوعة، وعبارات مختلفة، في آيات كثيرة جداً، لا يمكن حصرها إلا بكلفة ومشقة، وقد تضمنت هذه التسبيحات والتنزيهات تبرئة الله ﷻ وتقديسه من نقائص وعيوب قالها عليه أعداؤه والجاهلون به، ومن نقائص وعيوب ما قالها عليه أحد، تحذيراً من وقوعها، كما قال الإمام ابن القيم:

«ولقد أتى التنزيه عما لم يقل ... كي لا يدور بخاطر الإنسان
فانظر إلى التنزيه عن طعم ولم ... ينسب إليه قط من إنسان
وكذلك التنزيه عن موت وعن ... نوم وعن سنة وعن غشيان
وكذلك التنزيه عن نسيانه ... والرب لم ينسب إلى نسيان»[1]

«يعني أنه سبحانه كما نزه نفسه عما قاله المبطلون ووصفوه به، نزه نفسه عما لم يقله أحد، ولم ينسبه إليه حتى لا يقع بخاطر أحد، فنزه نفسه عن الطعم مع أن أحداً لم يصفه به، قال تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ [الأنعام: ١٤]، وقال سبحانه: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾﴾ [الذاريات: ٥٧]. وكذلك نزه نفسه عن الموت، وعن السنة والنوم، وعن الغشيان الذي هو الجماع، وعن النسيان الذي هو ضد الذكر، مع أن أحداً لم ينسبه

(١) الكافية الشافية (القصيدة النونية): ص١٣٥.

إلى شيء من ذلك، قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]، وقال: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤]»[1].

فهذا كله مما يدل على أهمية شأن التنزيه، وشدة العناية به، وأن العقيدة لا تصلح ولا تستقيم إلا به.

وينبغي أن يعلم أن التسبيح أو التنزيه في كتاب الله تعالى وفي سنة رسوله ﷺ ليس مقصوده مجرد نفي النقائص والعيوب عن الله تعالى، وإنما مقصوده تقرير توحيد الله سبحانه، وحفظ كماله عن الظنون السيئة والخواطر الباطلة، وجميع ما نزه الله تعالى نفسه عنه، أو نزهه عنه رسوله ﷺ هو مما يخالف توحيده، ويضاد كماله، ولهذا كان في تنوع تنزيهه عن ذلك من العلم والمعرفة بتوحيده وكماله ما في بيان محاسن الشيء وكماله عند معرفة ما يضاده ويخالفه[2].

وهذا توضيح لحقيقة التسبيح الذي تكون به العقيدة حسنة ومستقيمة، وأنه التسبيح الذي يتلقى معناه ومفهومه من هدي الكتاب والسنة وما كان يعتقده سلف هذه الأمة وأئمتها من إثبات صفات الكمال لله تعالى، وتنزيهه عن أن يلحقه فيها نقص أو عيب، وعن أن يكون له فيها مماثل أو شريك.

فهذا هو التسبيح الذي حسنت به العقيدة الإسلامية، وباينت به عقائد الملل والنحل والأديان المحرفة.

وأما من جعل تعطيل صفات الله تعالى أو تمثيلها بصفات المخلوقين من مفهوم التسبيح، فقد ابتدع في التسبيح معنى يخالف ما دل

---

(١) شرح القصيدة النونية، لهراس: ١/ ٢٦٧.

(٢) انظر: طريق الهجرتين، لابن القيم: ص٢٥١.

عليه الكتاب والسنة، وما فهمه السلف الصالح، وقال على الله سبحانه ما يجب تنزيهه عنه، كما سيأتي بيانه ـ إن شاء الله ـ عند الكلام على المفاهيم الخاطئة في التسبيح، في الباب الخامس من هذا البحث.

• ولما كان التسبيح ـ بالمفهوم الصحيح الموافق لهدي الكتاب والسنة وفهم السلف الصالح ـ دليلاً على حسن العقيدة الإسلامية وصفائها، حسن إطلاق التسبيح على ما كان رمزاً لتوحيد الله تعالى، أو دالاً عليه قولاً أو حالاً، كإطلاق التسبيح على الصلاة(١)، وعلى الذكر(٢)، وعلى العبادة(٣).

ومن ذلك تسمية الأصبع التي يشير بها المصلي في تشهده: المسبحة أو السباحة، أخذاً من التسبيح(٤).

قال الإمام النووي: «والمسبحة ـ بضم الميم، وفتح السين، وكسر الباء المشددة ـ: الأصبع السبابة، وهي التي تلي الإبهام، سميت بذلك لأن المصلي يشير بها إلى التوحيد والتنزيه لله ﷻ عن الشرك»(٥).

وقال أيضاً: «ويقال لها: السبابة؛ لأنهم كانوا يشيرون بها إلى السب في المخاصمة ونحوها»(٦).

• ولما كان التسبيح كذلك متضمناً تبعيد الله تعالى من الشرك(٧)،

---

(١) سبق بيانه، في ص٨٦ ـ ٩٦. (٢) سبق بيانه، في ص٩٦ ـ ٩٩.
(٣) سبق بيانه، في ص١٠٣ ـ ١٠٤.
(٤) انظر: مشارق الأنوار على صحاح الآثار، للقاضي عياض اليحصبي: ١/ ٢٠٣ ـ ٢٠٤.
(٥) تهذيب الأسماء واللغات: ٣/ ١٤٤، ونحوه في: تحرير ألفاظ التنبيه، له، بتحقيق عبد الغني الدقر: ص٦٩.
(٦) تحرير ألفاظ التنبيه: ص٦٩.
(٧) انظر: الزاهر في غريب ألفاظ الإمام الشافعي، لأبي منصور الأزهري: ص١٦٣.

حسن سلب التسبيح عما كان رمزاً للشرك بالله تعالى مما اتخذ إلهاً من دون الله سبحانه، كما جاء في الخبر أن رسول الله ﷺ بعث خالد بن الوليد رضي الله عنه لهدم العزى ـ إحدى أشهر أصنام العرب في الجاهلية[(١)] ـ، فلما أتاها خالد خرج عليه الشيطان الذي يتلاعب بعقول المشركين داخل هذا الصنم في صورة امرأة حبشية ناشرة شعرها واضعة يديها على عاتقها، تصرف بأنيابها، وخلفها سادنها.

فقال خالد:

«يا عزى كفرانك لا سبحانك إني رأيت الله قد أهانك»

ويحكى البيت أيضاً بلفظ:

«كفرانك اليوم لا سبحانك إني رأيت الله قد أهانك»

ثم ضربها خالد رضي الله عنه ففلق رأسها، فإذا هي حممة.

وقتل سادن الصنم[(٢)].

فنفى رضي الله عنه التسبيح عن هذا الصنم بقوله: «لا سبحانك»، ويتضمن ذلك نفي الألوهية عنه؛ لأن التسبيح لا يستحقه إلا الإله الحق ـ جلّ جلاله ـ المتصف بكل كمال على الحقيقة، المنزه التنزيه التام من كل وجه وبكل اعتبار، عن كل نقص متوهم. وأما الآلهة المزعومة بأنواعها، فإن فيها من النقائص والعيوب ما ينفي استحقاقها التسبيح،

---

(١) وهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾ [النجم: ١٩ ـ ٢٠].

(٢) هذه القصة أوردها ابن قيم الجوزية في إغاثة اللهفان: ٢/ ٢٦٢ ـ ٢٦٣، نقلاً عن هشام بن السائب الكلبي، بإسناده عن ابن عباس رضي الله عنهما. واللفظ الثاني للبيت ذكره ابن القيم في مدارج السالكين: ٣/ ٢٣٠.

وأصل القصة أخرجه النسائي في السنن الكبرى: ٦/ ٤٧٤، برقم (١١٥٤٧).

وإنما اتخذها المشركون آلهة من دون الله ظلماً وزوراً، وسبحان الله وتعالى عما يشركون.

وتأمل التناسب العكسي بين هذا البيت وأمره تعالى لرسوله ﷺ بأن يقول: ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨]، يظهر لك بجلاء حسن التوحيد الذي دعا إليه رسول الله ﷺ، وآمن به صحابته الكرام ـ رضوان الله عليهم ـ، لكونه إفراد الله تعالى بالعبادة، وتنزيهه عن النقص والشرك، لانفراده بصفات الإلهية التي لا تكون لغيره. ويظهر لك كذلك قبح الشرك الذي نهى عنه رسول الله ﷺ وتبرأ من أهله، لكونه تمثيل الناقص بالكامل، وتمثيل الكامل بالناقص، مما يؤدي إلى تنقص الكامل الذي له الكمال المطلق تبارك وتعالى(١).

وبكل ما سبق يتبين أن أحسن الناس عقيدة، وأكملهم توحيداً، هم أهل السنة والجماعة الذين تمسكوا بالعقيدة الإسلامية النقية من آراء المتكلمين وأقاويل المتفلسفين، وسبحوا الله رب العالمين تنزيها لربوبيته وإلهيته وأسمائه وصفاته عما لا يليق به من كل ما نسبه إليه الجاهلون الظالمون، ومن كل ما يناقض كماله ويخالف توحيده(٢)، والله يهدي من يشاء إلى الصراط المستقيم.

❁ ❁ ❁

---

(١) انظر: كتاب التوحيد، للإمام محمد بن عبد الوهاب، بتعليق الشيخ أحمد شاكر، وتخريج إبراهيم الحازمي: ص١٥، وتيسير العزيز الحميد، للشيخ سليمان بن عبد الله: ص١٢٤، والتوضح المفيد لمسائل كتاب التوحيد، للشيخ عبد الله الدويش: ص٢١، والقول المفيد على كتاب التوحيد، للشيخ محمد بن صالح العثيمين: ١/ ١٣٩ ـ ١٤٠.

(٢) انظر: شفاء العليل، للإمام ابن القيم: ٢/ ٨١.





المواضع التي يُشرع فيها التّسبيح ومناسباتها العقديّة

❑ مدخل:

قد وَضُح من البابين السابقين عظم شأن التسبيح في معناه وفي حكمه وفي فضله، ولذا لا يكون مستغرباً أن يُشرع التسبيح في مواضع كثيرة من الأوقات والأحوال، ليكون العبد المؤمن مسبّحاً لربّه ﷻ ومستحضراً نزاهته وجلالته وعظمته في أكثر أوقاته وأحواله.

فقد بلغ المواضع التي شرع فيها التسبيح ـ بحسب البحث ـ ثلاثين موضعاً تقريباً، منها مواضع شرع فيها التسبيح مفرداً، ومواضع أخرى شرع فيها التسبيح مقروناً بغيره من ألفاظ الذكر والثناء والدّعاء.

ولمّا كانت الغاية العظمى من التّسبيح أن يأتي به العبد قولاً واعتقاداً وعملاً، حسن الحرص على معرفة المناسبات العقديّة للتسبيح في المواضع التي شرع فيها، ليعمر القلب بمشاهدة تلك المناسبات العقدية، كما يعمر اللسان بلفظ التسبيح والنطق به.

ولهذا اجتهدت في التعبير عن المناسبات العقدية في هذه المواضع مسترشداً بما تيسر الاطلاع عليه من أقوال أهل العلم، وبما ظهر لفهمي القاصر.

ويشتمل هذا الباب على ثلاثة فصول:

الفصل الأول: مواضع يشرع فيها التّسبيح في الصلاة ومناسباتها العقدية.

الفصل الثاني: مواضع يشرع فيها التّسبيح مفرداً ومناسباتها العقدية.

الفصل الثالث: مواضع يشرع فيها التّسبيح مقروناً ومناسباتها العقدية.

الفصل الأول

مواضع يشرع فيها التّسبيح
في الصلاة ومناسباتها العقدية

❐ **تمهيد:**

يحظى التّسبيح بأهمية خاصّة في الصلاة؛ لأن الصلاة هي عمود الدين، وأعظم شرائع الإسلام ـ بعد الشهادتين ـ، وهي قرّة عيون المؤمنين، وسلوة عباد الله الصالحين، فيها يناجون ربّهم العليّ الأعلى، وبها يتقربون إليه زلفى.

ومما يدلّ على خصوصية التّسبيح بالصلاة:

١ ـ أنّ الصلاة تسمّى تسبيحاً، كما سبق بيان ذلك[١].

٢ ـ وأن النبي ﷺ قد جعل التسبيح من أهمّ ما يشتغل به المصلّي في صلاته، فقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنما هو التّسبيح والتكبير وقراءة القرآن**»[٢].

٣ ـ وأنّ التسبيح قد شرع في أكثر من موضع في الصلاة: فشرع في افتتاح الصلاة، وفي الركوع والسجود، ويشرع للمصلّى التسبيح عند قراءة آية فيها تسبيح الله تعالى، وعند ما يحتاج إلى تنبيه غيره في الصلاة لأمر طارىء، ويشرع لمن لا يحسن قراءة القرآن أن يسبّح في الصلاة بدلاً من القرآءة، كما شرع التسبيح أيضاً في دبر الصلاة.

---

(١) انظر: ص٨٦ ـ ٩٦ من هذا البحث.

(٢) سبق ذكره وتخريجه في ص٤٠٠.

فهذه سبعة مواضع يشرع فيها التّسبيح في الصلاة، وذلك لأن المقصود الأكبر من الصّلاة هو ذكر الله تعالى، كما قال الإمام ابن قيم الجوزية: «ولمّا كان حمده والثّناء عليه وتمجيده هو مقصود الصلاة التي هي عماد الإسلام ورأس الطّاعات، شرع في أوّلها ووسطها وآخرها وجميع أركانها، ففي دعاء الاستفتاح يحمد ويثنى عليه ويمجّد، وفي ركن القراءة يحمد ويثنى عليه ويمجّد، وفي الركوع يثنى عليه بالتّسبيح والتّعظيم، وبعد رفع الرأس منه يحمد ويثنى عليه ويمجّد... وفي السجود يثنى عليه بالتسبيح المتضمن لكماله المقدّس، والعلو المتضمّن لمباينته لخلقه، وفي التّشهّد يثنى عليه بأطيب الثّناء من التحيّات، ويختم ذلك بذكر حمده ومجده» اهـ[(١)].

ويتناول هذا الفصل المواضع التي شرع فيها التسبيح في الصلاة في ستة مباحث مرتّبة كما يلي:

المبحث الأول: التّسبيح في افتتاح الصلاة.

المبحث الثاني: التّسبيح عند قراءة آية فيها تسبيح الله تعالى.

المبحث الثالث: التّسبيح بدلاً من القراءة لمن لا يحسن شيئاً من القرآن.

المبحث الرابع: التّسبيح في الركوع والسجود.

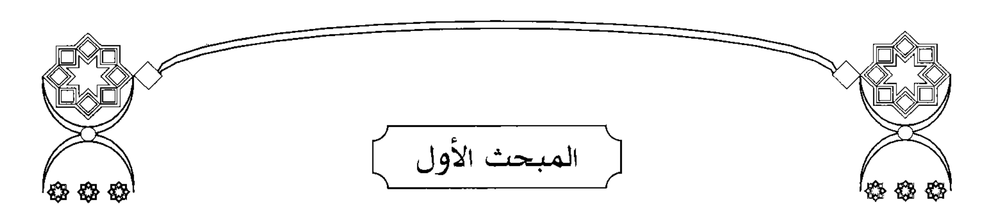
المبحث الخامس: التّسبيح في الصلاة لأمر طارىء.

المبحث السادس: التّسبيح في دبر الصلاة.

وإليك بيان ذلك مبحثاً مبحثاً:

---

(١) الصواعق المرسلة: ٤/ ١٤٧٤ ـ ١٤٧٥.



المبحث الأول

التّسبيح في افتتاح الصّلاة

يشرع التّسبيح في افتتاح الصلاة، بعد تكبيرة الإحرام وقبل قراءة الفاتحة.

وقد استُدِلّ على مشروعية التّسبيح في هذا الموضع بقول الله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ [الطور: ٤٨].

فعن سعيد بن المسيب قال: «حقّ على كلّ مسلم حين يقوم إلى الصلاة أن يقول: (سبحان الله وبحمده)؛ لأن الله يقول لنبيه: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾»[١].

وعن الضحّاك بن مزاحم ـ في تفسير الآية ـ قال: «حين تقوم إلى الصلاة تقول هؤلاء الكلمات: (سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدّك، ولا إله غيرك)»[٢].

وفي رواية أخرى عنه قال: «حين تقوم للصلاة تقول: (الله أكبر كبيراً، والحمد لله كثيراً، وسبحان الله بكرة وأصيلاً)»[٣].

ووردت روايات في هذا المعنى أيضاً عن الرّبيع بن أنس[٤]،

---

(١) أورده السيوطي في الدر المنثور: ٦/ ١٥١، وعزاه إلى أبي عبيد، وابن المنذر.

(٢) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره: ١١/ ٥٠٠، وعزاه السيوطي أيضاً ـ في الدر المنثور: ٦/ ١٥١ ـ إلى سعيد بن منصور، وابن المنذر.

(٣) رواه عبد الرزاق الصنعاني في تفسير القرآن: ٢/ ٢٤٩.

(٤) هو الربيع بن أنس البكري الحنفي البصري ثم الخراساني، كان صدوقاً في =

وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغيرهما[١].

ولكنّ الآية المذكورة ليستْ نصّاً في التّسبيح في افتتاح الصلاة؛ لأن قوله تعالى: (حين تقوم) ليس مقيَّداً بقيام معين بل هو مطلق، ولهذا اختلفت أقوال المفسّرين في معناها، وتبلغ الأقوال فيها ستة[٢].

ودلّت السنّة النّبويّة على مشروعية التّسبيح في افتتاح الصلاة، ووردت في ذلك أحاديث كثيرة مشتملة على صيغ متنوّعة للتسبيح في افتتاح الصلاة، وبيان ذلك كما يلي:

١ ـ (سبحانك اللهمّ وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جَدُّك، ولا إله غيرك).

ورد عن النبي ﷺ أنه كان يفتتح الصلاة بهذه الصيغة من التّسبيح، وروى ذلك عدد من الصحابة ﷺ منهم:

عائشة[٣]، وعبد الله بن مسعود[٤]، وعبد الله بن عمر[٥]، وأنس بن

= الحديث، ورمي بالتشيّع، وتوفي سنة (١٣٩هـ) أو (١٤٠هـ)، رحمه الله. انظر: تهذيب التهذيب، لابن حجر العسقلاني: ٣/ ٢٣٨ ـ ٢٣٩.

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٤/ ٢٦٢.

(٢) انظر هذه الأقوال في: زاد المسير، لابن الجوزي: ٨/ ٦٠.

(٣) حديث عائشة رضي الله عنها أخرجه أبو داود في سننه: ١/ ٤٩١، برقم (٧٧٦)، والترمذي في سننه: ٢/ ١١، رقم (٢٤٣)، وابن ماجه في سننه: ١/ ٢٦٥، برقم (٨٠٦)، وصححه الحاكم في المستدرك: ١/ ٣٦٠، برقم (٨٥٩)، ووافقه الذهبي.

(٤) حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ١٠/ ١٣٣، برقم (١٠١١٧)، وفي كتاب الدعاء: ٢/ ١٠٣٣، برقم (٥٠٤)، وفي إسناده راو مجهول. وانظر: مجمع الزوائد، للهيثمي: ٢/ ١٠٦.

(٥) حديث عبد الله عمر رضي الله عنهما أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ١٢/ ٣٥٣، وفي كتاب الدعاء: ٢/ ١٠٣١، برقم (٥٠٠)، و٢/ ١٠٣٥، برقم (٥٠٨). =

مالك[١]، وأبو سعيد الخدريّ[٢].

وبهذه الروايات يتبيّن أن افتتاح الصلاة بهذا التسبيح ثابت بلا ريب[٣]. وكان عمر ﷺ يفتتح الصلاة بهذا التسبيح، ويجهر به[٤].

٢ ـ (الله أكبر كبيراً، والحمد لله كثيراً، وسبحان الله بكرة وأصيلاً).

ورد افتتاح الصلاة بهذا التسبيح في حديث عبد الله بن عمر ﷺ قال: «بينما نحن نصلّي مع رسول الله ﷺ، إذ قال رجل من القوم: (الله أكبر كبيراً، والحمد لله كثيراً، وسبحان الله بكرة وأصيلاً)، فقال رسول الله ﷺ: **«من القائل كلمة كذا وكذا؟»** قال رجل من القوم: أنا، يا رسول الله. قال: **«عجبت لها، فتحت لها أبواب السماء»**. قال ابن

= وقال الهيثمي: «فيه عبد الله بن عامر الأسلمي، وهو ضعيف» [مجمع الزوائد: ٢/ ١٠٧].

(١) حديث أنس بن مالك ﷺ أخرجه الطبراني في كتاب الدعاء: ٢/ ١٠٣٤، برقم (٥٠٥) و(٥٠٦)، والدارقطني في سننه: ١/ ٣٠٠، وهو صحيح.

(٢) حديث أبي سعيد الخدري ﷺ أخرجه أبو داود في سننه: ١/ ٤٩٠، برقم (٧٧٥)، والترمذي في سننه: ٢/ ٩ ـ ١٠. برقم (٢٤٢)، والنسائي في سننه: ٢/ ٤٦٨، برقم (٨٩٨) و(٨٩٩)، وابن ماجه في سننه: ١/ ٢٦٤، برقم (٨٠٤). وقال الحافظ ابن حجر: «هذا حديث حسن» [نتائج الأفكار: ١/ ٤٠٢].

(٣) انظر: صفة صلاة النبي ﷺ، للشيخ محمد ناصر الدين الألباني: ص٩٣.

(٤) روى ذلك مسلم في صحيحه: ١/ ٢٩٩، برقم (٣٩٩)، وفي إسناده انقطاع، وإنما ذكره مسلم هكذا لأنه سمعه مع غيره وليس هو على شرطه، فأدّاه كما سمعه. وانظر: شرح صحيح مسلم، للنووي: ٤/ ١١١ ـ ١١٢، والمحرر في الحديث، لابن عبد الهادي المقدسي، تحقيق الدكتور يوسف المرعشلي: ١/ ١٨٢ ـ ١٨٢.

وقد رواه موصولاً عن عمر: ابن أبي شيبة في مصنفه: ١/ ٢٣٠، و٢/ ٥٣٦، والحاكم في المستدرك: ١/ ٣٦١، برقم (٨٦٠)، وصححه هو والذهبيّ.

عمر: فما تركتهنّ منذ سمعت رسول الله ﷺ يقول ذلك»[١].

٣ ـ عن عاصم بن حميد[٢] قال: «سألت عائشة: بأيِّ شيء كان يفتتح رسول الله ﷺ قيام الليل؟ فقالت: لقد سألتني عن شيء ما سألني عنه أحد قبلك، كان إذا قام كبّر عشراً، وحمد الله عشراً، وسبّح عشراً، وهلّل عشراً، واستغفر عشراً، وقال: «**اللهم اغفر لي واهدني وارزقني وعافني**»، ويتعوذ من ضيق المقام يوم القيامة»[٣].

فهذه أهمّ صيغ التّسبيح الثابتة عن النبي ﷺ في افتتاح الصلاة[٤]، مع العلم بأنّ السنّة النبويّة قد وردت أيضاً بأدعية وأذكار أخرى في افتتاح الصلاة، ولكنها ليست مشتملة على كلمة التّسبيح، ولهذا لم يرد ذكرها في هذا المبحث[٥].

وقد استدلّ أهل العلم بما ثبت في السنة من الأدعية والأذكار في

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه: ١/ ٤٢٠، برقم (٦٠١).

(٢) هو عاصم بن حميد السّكوني الحمصيّ، تابعيّ من أصحاب معاذ بن جبل رضي الله عنه، ولم تذكر سنة وفاته، رحمه الله. وانظر: تهذيب التهذيب، لابن حجر العسقلاني: ٥/ ٤٠ ـ ٤١.

(٣) أخرجه أبو داود في سننه: ١/ ٤٨٦ ـ ٤٨٧، برقم (٧٧٦)، والنسائي في سننه: ٣/ ٢٣٠، برقم (١٦١٦)، وابن ماجه في سننه: ١/ ٤٣١، برقم (١٣٥٦)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود: ١/ ٢١٩، برقم (٧٦٦)، وفي صحيح سنن النسائي: ١/ ٥٢٦، برقم (١٦١٦)، وفي صحيح سنن ابن ماجه: ١/ ٤٠٣، برقم (١١٢٣).

(٤) هناك صيغ أخرى في التسبيح تركت ذكرها لأن الأحاديث الواردة بها لا تخلو من ضعف في أسانيدها.

(٥) انظر: أنواع ما ورد في افتتاح الصلاة في: كتاب الدعاء، للطبراني: ٢/ ١٠٢٦ ـ ١٠٤٢، وزاد المعاد، لابن القيم: ١/ ٢٠٢ ـ ٢٠٥، وصفة صلاة النبي ﷺ، للألباني: ٩١ ـ ٩٥.

افتتاح الصلاة على أن الافتتاح سنة من سنن الصلاة[١] ـ فرضاً كانت أو نفلاً[٢] ـ بل تنازعوا في وجوبه[٣]، وأكثرهم على أنه مستحبّ وليس بواجب، وفي هذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «وأما كونه واجباً، فمذهب الجمهور أنه مستحبّ وليس بواجب، وهو قول أبي حنيفة والشافعي، وهو المشهور عن أحمد، وفي مذهبه قول آخر يذكره بعضهم رواية عنه: أنّ الاستفتاح واجب، والله أعلم» اهـ[٤].

وقد خالف المالكية جمهور العلماء في هذه المسألة، فلم يروا افتتاح الصلاة بذكر ولا دعاء، وإنما يكبر ويقرأ.

قال أبو عمر بن عبد البر: «ولا تستفتح المكتوبة بشيء من الذّكر غير تكبيرة الإحرام والقراءة بآخرها، ثم يركع» اهـ[٥].

ولا شكّ أنّ مذهب الجمهور هو الحقّ، لثبوت ذلك في السنة النبوية.

ومع تنوّع الأذكار والأدعية الواردة في افتتاح الصلاة، فإنّ كثيراً من أهل العلم اختاروا الافتتاح بصيغة: (سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جَدُّك، ولا إله غيرك)، وفضّلوا هذه الصيغة على غيرها مما ورد في هذا الباب.

قال الإمام الترمذي: «وأمّا أكثر أهل العلم فقالوا بما روي عن

---

(١) انظر: المغنى، لابن قدامة، تحقيق التركي: ٢/١٤١، وشرح صحيح مسلم، للنووي: ٥/٩٦ ـ ٩٧.

(٢) انظر: الأذكار، للنووي: ص١٠٣، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٢٢/٣٣٨، ٣٤٤.

(٣) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٢٢/ ٢٧٥، ٣٨٨.

(٤) المصدر السابق: ٢٢/ ٤٠٤.

(٥) كتاب الكافي في فقه أهل المدينة المالكي: ١/٢٠٦.

النّبيّ ﷺ أنه كان يقول: «**سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جَدُّك، ولا إله غيرك**». وهكذا روي عن عمر بن الخطاب، وعبد الله بن مسعود. والعمل على هذا عند أهل العلم من التابعين وغيرهم» اهـ[١].

ونقل عن الإمام أحمد بن حنبل أنه قال: «أمّا أنا فأذهب إلى ما روي عن عمر، ولو أنّ رجلاً استفتح ببعض ما روي عن النبي ﷺ من الاستفتاح كان حسناً، أو قال: جائزاً»[٢].

وإنما كانت هذه الصيغة من التّسبيح أفضل من غيرها في افتتاح الصلاة لعدة أمور:

أحدها: جهر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه بها في الصلاة، على ملأ من أصحاب رسول الله ﷺ وإقرارهم له، فإنّ هذا يدلّ على أنّ الافتتاح بهذا التسبيح كان من سنن الصلاة الظاهرة[٣].

مع العلم أنّ أهل العلم متّفقون على أن الجهر بالافتتاح ليس بسنة راتبة في الصلاة؛ لأن النبي ﷺ لم يجهر به، وإنما جهر به عمر رضي الله عنه في الصلاة ليعلّم الناس، ولهذا يجوز الجهر به ـ أحياناً ـ إذا دعت الحاجة إلى ذلك، ليعلم أنّه سنة، دون أن يتّخذ الجهر به سنة راتبة في الصلاة، والله تعالى أعلم[٤].

---

(١) سنن الترمذي، بتحقيق أحمد محمد شاكر: ٢/ ١٠ ـ ١١.

(٢) ذكره ابن قدامة في المغنى: ٢/ ١٤٢ ـ ١٤٣، وابن القيم في زاد المعاد: ١/ ٢٠٥.

(٣) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٢٢/ ٣٤٤، ٣٩٤، وزاد المعاد، لابن القيم: ١/ ٢٠٥.

(٤) انظر: المغني، لابن قدامة: ٢/ ١٤٥، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٢٢/ ٢٧٤ ـ ٢٧٥، ٣٤٤.

الثاني: أنّ أنواع الافتتاح الواردة في السنة النبويّة عامّتها في قيام الليل، وهذا الافتتاح كان عمر ﵁ يقوله في الفرض ويعلّمه الناس[(١)].

الثالث: أنّ طائفة من أهل العلم يوجبون الذكر الذي هو ثناء في الصلاة، كهذا الافتتاح ونحوه ممّا هو ثناء محض، بخلاف ما كان من أذكار الصلاة من جنس الدّعاء فإنه لا يجب عند أحد من العلماء[(٢)].

الرابع: أنّ هذا الافتتاح فيه من الثناء على الله تعالى ما ليس في غيره من أنواع الافتتاح الواردة[(٣)]، وبيان ذلك كالآتي:

الخامس: أنّ هذا الافتتاح قد اشتمل ـ مع تكبيرة الإحرام ـ على الباقيات الصالحات التي هي أفضل الكلام بعد القرآن: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر[(٤)].

وتضمّن الإخبار عن صفات كمال الله تعالى ونعوت جلاله في قوله: (تبارك اسمك، وتعالى جَدُّك)[(٥)].

السادس: أنّ هذا الافتتاح ورد بشأنه فضل خاصّ، في حديث عبد الله بن مسعود ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن أحبَّ الكلام إلى الله أن يقول العبد: سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى**

---

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٢٢/٣٤٧، ٤٠٣، وزاد المعاد، لابن القيم: ١/٢٠٦.

(٢) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٢٢/٣٤٢، ٣٨٨.

(٣) انظر: المصدر السابق: ٢٢/٣٩٤، وزاد المعاد، لابن القيم: ١/٢٠٦.

(٤) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٢٢/٣٩٤، ٣٩٦، وزاد المعاد، لابن القيم: ١/٢٠٥، ٢٠٦.

(٥) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٢٢/٣٩٤.

جَدُّك، ولا إله غيرك»[١].

السابع: أنّ الله تعالى قد أمر بالتّسبيح بحمده، وعبّر بذلك عن الصلاة في عدة مواضع من القرآن[٢]، فكان ابتداء الامتثال بهذا الافتتاح أولى[٣].

وقد تقدّم في أوّل المبحث أنّ بعض أهل العلم من المفسرين فسّروا قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ [الطور: ٤٨] بهذا الافتتاح.

فمجموع هذه الأمور المذكورة يقضي بأفضلية هذا الافتتاح على غيره من أنواع افتتاح الصلاة، والله تعالى أعلم.

ومع أفضلية هذا التّسبيح في افتتاح الصلاة، فإنّ الإتيان بالأنواع الأخرى الواردة في الافتتاح أحياناً أفضل من المداومة على نوع وهجر نوع[٤]؛ لأن لكلّ افتتاح ـ وإن كان مفضولاً ـ مناسبة ليست لغيره، فيأخذ العبد بحظّه من ذلك[٥]، والأهمّ في ذلك موافقة هدي رسول الله ﷺ الذي ثبتت عنه هذه الأنواع من الافتتاح في الصلاة، ممّا يدلّ على أنّه ﷺ كان يأتي بهذه الأنواع كلّها، ولم يكن يداوم على افتتاح واحد في الصلاة، والله تعالى أعلم.

◻ المناسبة العقديّة لافتتاح الصلاة بالتّسبيح:

وإذا تبين أنّ التّسبيح في افتتاح الصلاة سنة من سنن الصلاة

---

(١) أخرجه النسائي في عمل اليوم والليلة: ص٤٨٨ ـ ٤٨٩، برقم (٨٤٩)، وابن منده في كتاب التوحيد: ٣/٢١٧ ـ ٢١٨، برقم (٧٠١)، وصححه الألباني وخرّجه في السلسلة الصحيحة، برقم (٢٩٣٩).

(٢) سبق بحث ذلك في ص٨٦ ـ ٩٦.

(٣) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٢٢/٣٩٧.

(٤) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٢٢/٣٣٧، ٣٤٧ و٢٤/٢٤٨.

(٥) انظر: المصدر السابق: ٢٢/٣٤٦.

الثابتة عن رسول الله ﷺ، وأنّ أفضل صيغه هي صيغة: «سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جَدُّك، ولا إله غيرك»، فإنّ مما ينبغي معرفته أنّ للتّسبيح في هذا الموضع مناسبة عقديّة تتجلّى في أمرين:

الأمر الأول: أنّ التّسبيح في افتتاح الصلاة تمهيد لتحصيل المعنى الذي تتمّ به حياة الصلاة وكمالها، وهو التعظيم لله تعالى، والخشوع له، فإنّ هذا التعظيم والخشوع يتولّد من معرفة عظمة الله تعالى وجلاله وكماله، ومعرفة حقارة النّفس، وأنها مستعبدة لله ﷻ[(١)].

وملاحظة ما تدلّ عليه صيغة التّسبيح في افتتاح الصلاة من المعاني توجب للمصلّي هذه المعرفة في قلبه، فإنه «إذا قال: (سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جَدُّك، ولا إله غيرك)، شاهد بقلبه ربّاً منزّهاً عن كلّ عيب، سالماً من كل نقص، محموداً بكل حمد، فحمده يتضمّن وصفه بكلّ كمال، وذلك يستلزم براءته من كل نقص. تبارك اسمه، فلا يُذكر على قليل إلا كثّره، ولا على خير إلا أنماه وبارك فيه، ولا آفة إلا أذهبها، ولا على شيطان إلا ردّه خاسراً داحراً. وكمال الاسم من كمال مسمّاه، فإذا كان هذا شأن اسمه ـ الذي لا يضرّ معه شيء في الأرض ولا في السماء ـ فشأن المسمّى أعلى وأجلّ. وتعالى جَدُّه، أي: ارتفعت عظمته، وجلّت فوق كلّ عظمة، وعلا شأنه على كل شأن، وقهر سلطانه على كلّ سلطان، فتعالى جدُّه أن يكون معه شريك في ملكه وربوبيته، أو في إلهيته، أو في أفعاله، أو في صفاته، كما قال مؤمن الجنّ: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً

---

(١) انظر: مختصر منهاج القاصدين، للإمام أحمد بن محمد المقدسي، تحقيق زهير الشاويش: ص٣٣، والخشوع في الصلاة ـ ضمن مجموعة رسائل الإمام الحافظ ابن رجب الحنبلي: ١٥٠.

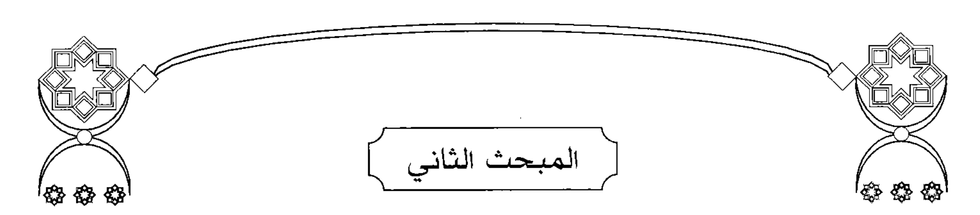
وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ [الجن: ٣]. فكم في هذه الكلمات من تجلّ لحقائق الأسماء والصّفات على قلب العارف بها، غير المعطّل لحقائقها!»[١].

وهكذا سائر صيغ التّسبيح في افتتاح الصلاة، فإنّ ملاحظتها توجب المعرفة بالله تعالى، والتعظيم والخشوع له في الصلاة.

الأمر الثاني: أنّ هيئة القيام في الصلاة فيها ارتفاع واستعلاء، يحتاج معه المصلّي إلى الخضوع لله الكبير المتعال، وإلى الشعور بعظمة الله تعالى، وهيبة الوقوف أمامه، ولهذا شُرِع في هيئة القيام التكبير، ثم التسبيح مقروناً، بالحمد والتهليل والتمجيد، ثم تلاوة كلام الله جلّ وعلا، ليكون المصلّي على خضوع تامّ في هذه الهيئة، وليقوم بقلبه من معاني هذه الأذكار ما يوجب له الخشوع التامّ لله تعالى في الصلاة، بتوفيق الله ﷻ[٢].

---

(١) مقتبس من: الصلاة وحكم تاركها، للإمام ابن قيم الجوزية: ص٣٠٨ ـ ٣٠٩.
(٢) انظر: المصدر السابق: ص٣١٦.



المبحث الثاني

التّسبيح عند قراءة آية فيها تسبيح الله تعالى

من المواضع التي يشرع فيها التّسبيح: التسبيح عند قراءة آية من القرآن الكريم فيها تسبيح الله تعالى وتنزيهه إذا مرّ بها القارىء في الصلاة أو في غير الصلاة.

ويدلّ على مشروعية التسبيح في هذا الموضع ما ثبت في السنة من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: «صليت مع النبي ﷺ ذات ليلة، فافتتح البقرة، فقلت: يركع عند المائة، ثم مضى. فقلت: يصلي بها في ركعة، فمضى. فقلت: يركع بها. ثم افتتح النساء، فقرأها. ثم افتتح آل عمران، فقرأها. يقرأ مترسّلاً، إذا مرّ بآية فيها تسبيح سبّح، وإذا مرّ بسؤال سأل، وإذا مرّ بتعوّذ تعوّذ» الحديث(١).

وفي رواية: «أنّ النبي ﷺ صلّى، فكان إذا مرّ بآية رحمة سأل، وإذا مرّ بآية عذاب استجار، وإذا مرّ بآية فيها تنزيه لله سبّح»(٢).

والمفهوم من هذه الرواية الثانية أنّ هذا التسبيح لا يختصّ بالآيات التي فيها لفظ التسبيح فقط، بل يشمل كلّ آية فيها تنزيه لله تعالى بأيّ لفظ كان، بلفظ التسبيح أو بغيره من الألفاظ الدّالة على

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه: ١/٥٣٦، برقم (٧٧٢)، وسبق ذكره مختصراً في ص٧٢.

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه: ١/٤٢٩، برقم (١٣٥١)، وإسناده صحيح. وقد سبق مختصراً في ص٧٢.

معناه من التنزيه[١].

ويؤيّد هذا المفهوم ما جاء في الحديث عن موسى بن أبي عائشة[٢]، قال: «كان رجل يصلّي فوق بيته، وكان إذا قرأ: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۝٤٠﴾ [القيامة: ٤٠].

قال: سبحانك، فبلى[٣]. فسألوه عن ذلك، فقال: سمعته من رسول الله ﷺ»[٤].

فالآية المذكورة في هذا الحديث ليس فيها لفظ التسبيح، ولكنها تتضمّن معنى التسبيح ـ وهو التنزيه ـ، ولهذا سبّح الله تعالى عقب قراءتها، فقال: «سبحانك»، «أي: تنزيهاً لك أن يقدر أحدٌ على إحياء الموتى غيرك»[٥].

وممّا جاء في السنّة أيضاً دالاً على مشروعية التسبيح عند قراءة آية فيها تسبيح حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «أنّ النبي ﷺ كان إذا قرأ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ [الأعلى: ١] قال: «**سبحان ربي الأعلى**»»[٦].

---

(١) سبق بيان الألفاظ الدالة على معنى التسبيح، في ص١١٢.

(٢) هو موسى بن أبي عائشة الهمدانيّ مولاهم، أبو الحسن الكوفي، ثقة عابد، وكان يرسل، ولم تذكر سنة وفاته.
انظر: تقريب التهذيب، لابن حجر العسقلاني: ٢/ ٢٨٩.

(٣) قال الشوكاني: «قوله: (فبلى) في نسخة من سنن أبي داود: فبكى، بالكاف.
قال ابن رسلان: «وأكثر النسخ المعتمدة باللام بدل الكاف. وبلى: حرف لإيجاب النفي، والمعنى: أنت قادر على أن تحيي الموتى» [نيل الأوطار: ٢/ ٣٣٠].

(٤) أخرجه أبو داود في سننه: ١/ ٥٤٩، برقم (٨٨٤). وصحّحه الألباني في «صحيح سنن أبي داود»: ١/ ٢٥٠، برقم (٨٨٤). والرجل المذكور وإن كان مبهماً، فجهالة الصحابي لا تضرّ.

(٥) مقتبس من «نيل الأوطار»، للشوكاني: ٢/ ٣٣٠.

(٦) أخرجه أبو داود في سننه: ١/ ٥٤٩، برقم (٨٨٣)، وأحمد في المسند: =

وهذا الحديث مطلق، فيشمل القراءة في الصلاة وخارجها، والحديثان قبله مقيّدان بالقراءة في الصلاة.

فهذه الأحاديث الثابتة في السنة النبوية ظاهرة في أنه يُشرع للقارىء في الصلاة وفي غير الصلاة، إذا قرأ آية فيها تسبيح أو تنزيه الله تعالى أن يسبّح.

وقد جاء عن جماعة من الصحابة والتابعين ـ رضي الله عنهم ورحمهم ـ أنهم كانوا يسبّحون عند قراءة الآيات التي فيها تسبيح الله تعالى وتنزيهه[1].

ونصّ كثير من أهل العلم على أنّ هذا التسبيح سنة مستحبّة لكل قارىء، سواء كان في الصلاة أو خارجاً عنها[2]، غير أنّ أبا حنيفة

= ١/ ٢٣٢، والحاكم في المستدرك: ١/ ٣٩٥ ـ ٣٩٦، برقم (٩٧٠) وصحّحه ووافقه الذهبي. وكذا صحّحه الألباني في «صحيح سنن أبي داود»: ١/ ٢٥٠، برقم (٨٨٣)، وفي صحيح الجامع، برقم (٤٧٦٦).

قال الإمام أبو داود ـ عقب إخراجه الحديث ـ: «خولف وكيع في هذا الحديث، رواه أبو وكيع وشعبة، عن أبي إسحاق، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، موقوفاً».

قلت: هذه المخالفة ليست علة قادحة في صحّة الحديث، فإن وكيعاً ـ وهو ابن الجراح الرؤاسي ـ إمام ثقة حافظ، فروايته الحديث مرفوعاً من باب زيادة الثقة، وهي مقبولة.

(١) روى ابن أبي شيبة آثاراً بذلك عن علي بن أبي طالب، وابن عباس، وابن الزبير، وأبي موسى الأشعري، وعمران، وسعيد بن جبير، وعروة بن المغيرة ﷺ. انظر: الكتاب المصنّف في الأحاديث والآثار: ٢/ ٢٤٧ ـ ٢٤٨. وانظر أيضاً: تفسير الطبري: ١٢/ ٥٣٢، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٢٠/ ١٣ ـ ١٤.

(٢) انظر: شرح السنة، للبغوي: ٣/ ١٠٤، وشرح صحيح مسلم، للنووي: ٦/ ٦٢، والأذكار، له: ص١١١، ونيل الأوطار، للشوكاني: ٢/ ٢٣١.

جعله مستحبّاً في غير الصلاة، أما في الصلاة فكرهه[١].

والذين استحبّوه في الصلاة منهم من استحبّه في كلّ صلاة: فرضاً كانت أو نفلا، إماماً كان المصلّي أو مأموماً أو منفرداً، كالشافعية[٢]، والحنابلة[٣].

ومنهم من قصر استحبابه على صلاة النافلة، دون الفريضة، كالمالكية[٤].

والصواب: أنّ هذا التسبيح سنة مستحبّة في كل صلاة، ولكل مصلّ؛ لأن ما ثبت لصلاة ثبت لأخرى، وهذا ضابط جيّد ينطبق على أحكام الصلاة بنوعيها، ولا يخرج عن عموم النّصوص إلا ما خصّص[٥]، وعلى المخالف أن يأتي بدليل التّخصيص[٦].

وإذا كان يسنّ للقارىء أن يسبّح عند هذا الموضع وهو في الصلاة، فلأن يسنّ له وهو في غير الصلاة من باب الأولى.

ولهذا أشار بعض العلماء إلى أنّ التسبيح عند قراءة آية فيها تسبيح أو تنزيه لله تعالى، وكذا السؤال عند قراءة آية رحمة، والتعوذ عند قراءة

---

(١) انظر: التبيان في آداب حملة القرآن، للنووي: ص٧٢، والكاشف عن حقائق السنن، للطيبي: ٣/ ١٠١٠، وعون المعبود شرح سنن أبي داود، للعظيم آبادي: ٣/ ٩٧.

(٢) انظر: شرح صحيح مسلم، للنووي: ٦/ ٦٢، والتبيان في آداب حملة القرآن، له: ص٧٢.

(٣) انظر: المغنى، لابن قدامة: ٢/ ٤٥٨.

(٤) انظر: حاشية الخرشي على مختصر خليل: ١/ ٥٤٣.

(٥) انظر: توضيح الأحكام من بلوغ المرام، للشيخ عبد الله بن عبد الرحمن البسام: ٢/ ٥٨.

(٦) انظر: الكاشف عن حقائق السنن، للطيبي: ٣/ ١٠١٠، ١٠١١.

آية عذاب، كل ذلك من آداب قراءة القرآن في الصلاة وخارجها[1].

وأما صيغة التسبيح في هذا الموضع، فقال الإمام النووي: «وإذا مرّ بآية تنزيه لله سبحانه وتعالى نزّه، فقال: سبحانه وتعالى، أو تبارك الله ربّ العالمين، أو جلّت عظمة ربّنا، أو نحو ذلك» اهـ[2].

وكلامه هذا يبين أنه ليس لهذا التسبيح صيغة توقيفية، وأنه لا يلزم أن يكون بلفظ التسبيح نفسه، بل به وبكل لفظ دلّ على التنزيه والتعظيم لله ﷻ.

ولكن يظهر من الأحاديث التي سبق الاستدلال بها في هذا المبحث أن صيغة التسبيح في هذا الموضع تكون من لفظ التسبيح نفسه، كقوله: «سبحانك» و«سبحان ربّي الأعلى».

ولعل الأحسن ـ إذا كانت الآية المقروءة من الآيات التي فيها أمر بالتسبيح ـ أن يسبح القارىء بصيغة مطابقة للأمر، كما في حديث ابن عباس المتقدّم، وكما في حديث عائشة رضي الله عنها: أنّ رسول الله ﷺ كان يكثر من قول: «سبحان الله وبحمده، أستغفر الله وأتوب إليه»، امتثالاً لأمر الله تعالى له بقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾ [النصر: ٣][3].

وإذا كانت الآية المقروءة من الآيات التي فيها معنى التسبيح دون لفظه، فليسبّح القارىء بصيغة مناسبة للمقام، والله تعالى أعلم.

☐ المناسبة:

وإذا ثبتت مشروعية التسبيح عند قراءة آية فيها تسبيح أو تنزيه لله

---

(١) انظر: إكمال المعلم بفوائد مسلم، للقاضي عياض اليحصبي: ٣/ ١٣٧، والتبيان في آداب حملة القرآن، للنووي: ص٧١.

(٢) الأذكار: ص١١١، والتبيان في آداب حملة القرآن: ص٧١.

(٣) سبق نصّ الحديث وتخريجه في ص٢٤٢.

تعالى، داخل الصلاة أو خارجها، فإنّ لهذا التسبيح مناسبة عقدية ينبغي ملاحظتها، وهي:

أن العبد ـ وهو يقرأ القرآن ـ يجب أن يعلم أنّه يقرأ كلام الله ﷻ الذي أنزله على عبده ورسوله محمد ﷺ ليبلّغه إلى الناس جميعاً، ويعلم أن هذا الكلام خطاب من الله تعالى له بواسطة رسوله محمد ﷺ، فيكون علمه بذلك حاملاً له على إجماع قلبه وإلقاء سمعه عند تلاوة القرآن الكريم، وعند سماعه، كما قال الإمام ابن قيم الجوزية: «إذا أردت الانتفاع بالقرآن فأجمع قلبك عند تلاوته وسماعه، والق سمعك، واحضر حضور من يخاطبه به من تكلّم به سبحانه منه إليه، فإنّه خطاب منه لك على لسان رسوله، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ۝٣٧﴾ [ق: ٣٧]» اهـ[(١)].

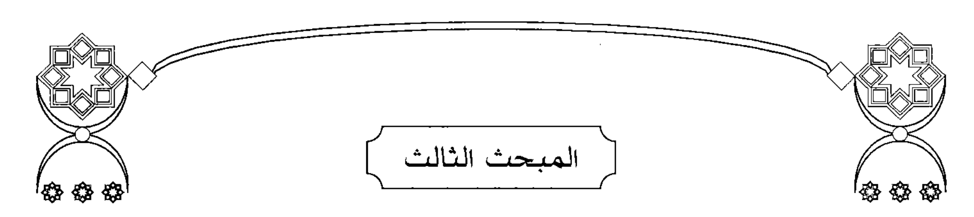
ولهذا المعنى ـ والله تعالى أعلم ـ شرع لقارىء القرآن التسبيح عند قراءة آية فيها تسبيح وتنزيه لله تعالى، لكي يهتمّ بتدبّر تلك الآية وتفهّمها واعتقاد معناها، مؤكّداً ذلك بنطق لسانه، فيطابق لسانه قلبه، ويوافق قوله عقيدته.

ولا شكّ أن من يحرص على الإتيان بهذه السنة في صلاته، فإنه «غالباً يكون حاضر القلب، متخشّعاً خائفاً راجياً، يظهر افتقاره بين يدي مولاه، والصلاة مئنّة ذلك ومظنّته»[(٢)]، والله تعالى الموفّق.

---

(١) الفوائد: ص٥.

(٢) مقتبس من: الكاشف عن حقائق السنن، للطيبي: ٣/ ١٠١٠ ـ ١٠١١.



المبحث الثالث

التّسبيح في الصّلاة بدلاً من القراءة لمن لا يُحسن شيئاً من القرآن

يُشرع لمن لا يحسن قراءة شيء من القرآن أن يسبّح مكان القراءة في الصلاة تسبيحاً مقروناً بالتحميد، والتهليل، والتكبير، والحوقلة.

ويدلّ على مشروعية هذا التسبيح حديث عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه قال: «جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: إنّي لا أستطيع أن آخذ من القرآن شيئاً، فعلّمني ما يجزئني منه، قال: «**قل: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قول إلا بالله العلي العظيم**». قال: يا رسول الله، هذا لله عز وجل، فما لي؟ قال: «**قل: اللهم ارحمني، وارزقني، وعافني، واهدني**». فلما قام قال هكذا بيده، فقال رسول الله ﷺ: «**أما هذا فقد ملأ يده من الخير**»»[1].

وفي رواية أنه قال: «إني لا أقرأ القرآن، فمرني بما يجزئني منه، فقال له النبي ﷺ: «**قل: الحمد لله، وسبحان الله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله**». قال: فقالها الرجل، وقبض كفّه، وعدّ خمساً مع إبهامه. فقال: يا رسول الله، هذا لله تعالى، فما لنفسي؟ قال: «**قل: اللهم اغفر لي، وارحمني، وعافني، واهدني، وارزقني**». قال: فقالها، وقبض على كفّه الأخرى، وعدّ خمساً مع إبهامه، فانطلق الرّجل وقد قبض كفّيه جميعاً، فقال النبي ﷺ: «**لقد ملأ**

(١) سبق تخريجه ص٤٦٦.

كفّيه من الخير»[(١)].

فهذا الحديث دليل على أنّ هذا التسبيح المقرون بالتحميد والتهليل والتكبير والحوقلة يُجزىء من لا يُحسن شيئاً من القرآن من القراءة في الصلاة[(٢)].

وليس في الحديث تصريح بتكرار هذا التسبيح في الصلاة، ولكنّ جعله بدلاً من القراءة يقتضي قوله في كلّ ركعة من الصلاة، كما تكون القراءة في كل ركعة[(٣)].

وقد استدلّ العلماء بهذا الحديث على أنّ صلاة الأمّيّ ـ الذي لا يحسن قراءة شيء من القرآن ـ تصحّ بلا قراءة اتّفاقاً[(٤)].

قال الخطّابي: «الأصل أنّ الصلاة لا تجزىء إلا بقراءة فاتحة الكتاب، لقوله ﷺ: «**لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب**»[(٥)] ومعقول أنّ وجوب قراءة فاتحة الكتاب إنما هو على من أحسنها دون من لا يحسنها، فإذا كان المصلّي لا يحسنها، وكان يحسن شيئاً من القرآن غيرها كان عليه أن يقرأ منه قدر سبع آيات؛ لأن أولى الذكر بعد فاتحة الكتاب ما كان مثلاً لها من القرآن. فإن كان رجل ليس في وسعه أن يتعلّم شيئاً من القرآن لعجز في طبعه، أو سوء حفظه، أو عجمة لسان، أو آفة تعرض له، كان أولى الذكر بعد القرآن ما علّمه النبي ﷺ من

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده: ٤/ ٣٨٢.

(٢) انظر: نيل الأوطار، للشوكاني: ٢/ ٢٣٧.

(٣) انظر: المصدر السابق، الموضع نفسه.

(٤) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٢٣/ ٧٥.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ٢/ ٢٣٦، برقم (٧٥٦)، ومسلم في صحيحه: ١/ ٢٩٥، برقم (٣٩٤)، كلاهما من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه.

التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير» اهـ[١].

ويتبّين ـ بهذا ـ أن التسبيح في الصلاة بدلاً من القراءة ليس مشروعاً لكلّ أحد، ولا في كل حال، بل هو مشروع في حالة نادرة؛ فقد نصّ العلماء على أن الذّكر في الصلاة بدلاً من القراءة لا يجوز الانتقال إليه إلا عند العجز عن القراءة، بمنزلة التيمّم مع الوضوء، وبمنزلة صيام الشهرين مع العتق[٢]، والصيام مع الهدي[٣][٤].

واستبعد بعض العلماء أن تكون حالة العجز عن القراءة مستمرة مع الإنسان في جميع الأوقات؛ لأنه إذا قدر على تعلّم هذه الكلمات الواردة في الحديث، فإنه ـ لا محالة ـ قادر على تعلّم الفاتحة.

ولهذا قال هؤلاء: إنّ قول الرجل ـ في الحديث ـ: «لا أستطيع أن آخذ من القرآن شيئاً» أو «لا أقرأ القرآن»، تأويله: «لا أستطيع أن أتعلّم شيئاً من القرآن في هذه الصلاة، وقد دخل عليّ وقت الصلاة، فإذا فرغ من تلك الصلاة لزمه أن يتعلّم»[٥].

وما استبعدوه ليس ببعيد، ولكنه نادر، وليس في الحديث ما يشير إلى توقيت هذا التسبيح حتّى يتعلّم الرجل القرآن.

كما أن الأئمة الذين أخرجوا هذا الحديث من أصحاب السنن بوّبوا له بالإطلاق من دون تقييد ذلك بوقت معيّن، فبوّب له الإمام أبو داود بـ(باب ما يجزىء الأمّيّ والأعجميّ من القراءة)[٦]. وبوّب له

---

(١) معالم السنن: ١/ ١٧٩.
(٢) يعنى في كفارة الجماع عمداً في نهار رمضان مع العلم، وفي كفارة الظهار.
(٣) يعنى في حقّ المتمتع بالعمرة إلى الحج.
(٤) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٢٤/ ٢٣٨.
(٥) انظر: الكاشف عن حقائق السنن، للطيبي: ٣/ ١٠١٠.
(٦) سنن أبي داود، كتاب الصلاة، باب رقم (١٣٩).

الإمام النسائي بـ (ما يجزىء من القراءة لمن لا يحسن القرآن)[1].

فالظاهر أنّ الرجل الذي علّمه النبي ﷺ هذا التسبيح ليقوله في الصلاة بدلاً من القراءة كان عاجزاً عن القراءة لسبب ما لا يتمكّن معه من تعلّم القرآن وإتقان قراءته، وهذا الذي يفهم من قوله: «إنّي لا أستطيع أن آخذ من القرآن شيئاً»، وفي الرواية الأخرى: «إنّي لا أقرأ القرآن».

وعليه فكلّ من كان بهذه الحالة من العجز عن قراءة القرآن أجزأه منها في الصلاة أن يسبّح الله تعالى بالصيغة الواردة في الحديث.

وهناك مناسبة عقدية لجعل التسبيح المقرون بالتحميد والتهليل والتكبير والحوقلة بدلاً من القراءة في الصلاة لمن لا يحسن شيئاً من القرآن، فإن القرآن كلام الله ﷻ، وهذه الكلمات الأربع أو الخمس هي أفضل الكلام، وأطيبه، وأحبّه إلى الله تعالى بعد القرآن، وإن الله تعالى قد اصطفاها من الكلام لذكره والثناء عليه بها، كما تقدّم بيانه بالأدلة عند الكلام على الفضل المشترك للتسبيح[2]. وذلك لأن هذه الكلمات ـ كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ: «تتضمن معاني أسماء الله الحسنى وصفاته العليا، ففيها كمال المدح»[3].

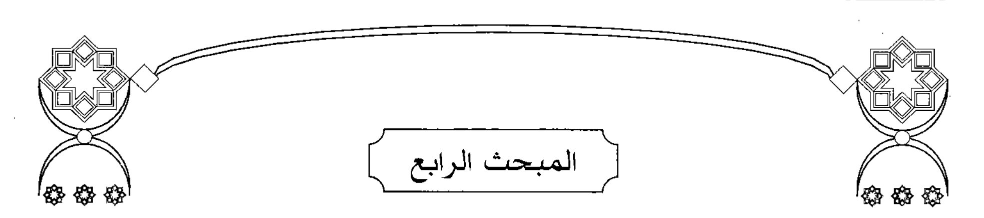
فظهرت بهذا المناسبة التامّة لجعل هذه الكلمات بدلاً من القراءة في الصلاة لمن لا يحسن شيئاً من القرآن، لما اشتملت عليه من المعاني العظيمة المؤكّدة لتوحيد الله تعالى الذي هو لبّ القرآن وغاية مقصوده، والمقوّمة لعقيدة العبد المثني على الله سبحانه بها، مع تفهّم لمعانيها وتدبّر فيها، وبالله التوفيق.

---

(١) سنن النسائي، كتاب الافتتاح، باب رقم (٣٢).

(٢) انظر: ص٤٤٤ ـ ٤٦٧.

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٠/ ٢٥٤.



المبحث الرابع

التّسبيح في الرّكوع والسّجود

الرّكوع والسّجود ركنان عظيمان من أركان الصلاة، أوجبهما الله تعالى في الكتاب والسنة، فقال سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾﴾ [الحج: ٧٧]. ومدح تعالى المؤمنين الممتثلين لهما فقال: ﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ ٱلْحَـٰمِدُونَ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ ٱلْـَٔامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [التوبة: ١١٢].

وبيّنت السنة النبوية أنّ في كلّ ركعة من الصلاة ركوعاً واحداً وسجودين مفصولين بجلسة بينهما، وأجمع المسلمون على وجوب ذلك كلّه في الصلاة[١].

وإذا كانت الصّلاة هي أجلّ المواضع التي شرع فيها التسبيح في الإسلام ـ كما سبق ـ، فإن الرّكوع والسّجود هما أجلّ المواضع التي شرع فيها التسبيح في الصلاة. ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «والصلاة مبناها على التّسبيح في الرّكوع والسّجود، والتحميد والتوحيد في القيام والقعود، والتكبير في الانتقالات»[٢].

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٢٢/ ٥٦٥ ـ ٥٦٧.

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٦/ ٣٢٠.

❐ أدلّة مشروعية التّسبيح في الرّكوع والسّجود:

وقد دلّ على مشروعية التسبيح في الرّكوع والسّجود أدلّة كثيرة من الكتاب والسنة، تقدّم ذكر جملة وافرة منها عند الكلام على حكم تسبيح الله تعالى من حيث القول(١).

ومن تلك الأدلّة أيضاً: ما وقع في كتاب الله تعالى من ذكر السّجود مقروناً بالتسبيح، وذلك في خمس آيات، من خمس سور:

أولاها: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ۩ ﴿٢٠٦﴾﴾ [الأعراف: ٢٠٦].

وهذا خبر عن الملائكة الذين عند ربهم في الملأ الأعلى، جمع الله تعالى في وصفهم بين التسبيح والسجود جميعاً، وقد تقدّم تناول هذه الآية عند الكلام على تسبيح الملائكة لله تعالى(٢).

والثانية: قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الحجر: ٩٨].

وفي هذه الآية يخاطب الله تعالى نبيه محمداً ﷺ، ويأمره بالتسبيح مع السجود، كما تقدّم بيانه أيضاً عند الكلام على تسبيح صالحي البشر لله تعالى(٣).

والثالثة: قوله تعالى: ﴿قُلۡ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ سُجَّدٗا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا ﴿١٠٨﴾﴾ [الإسراء: ١٠٧ ـ ١٠٨].

وهذا خبر عن مؤمني أهل الكتاب، ومدحٌ لهم بخرورهم للأذقان

---

(١) انظر: ص٣٩١ ـ ٤٠٢.

(٢) انظر: ص٢٧٣. وانظر: أيضاً: ص٤٨.

(٣) انظر: ص٣١١.

سجّداً لله تعالى عند سماع القرآن، وقولهم: (سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولاً)[١].

وهذه الآية هي مما سبق تناوله عند الكلام على صيغة الإفراد في التسبيح[٢]، وعند الكلام على تسبيح صالحي البشر لله تعالى[٣].

وقد استدلّ بها بعض العلماء على مشروعية التسبيح في السّجود[٤]؛ لأن ظاهر الآية أنهم يقولون هذا التسبيح حال خرورهم للأذقان سجّداً.

والرابعة: قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾﴾ [السجدة: ١٥].

وهذه الآية تقتضي أنه لا يؤمن بآيات الله تعالى إلا من إذا ذكّر بها خرّ ساجداً، وسبّح بحمد ربه، وهو لا يستكبر[٥]، فهي من أبلغ الأدلة على مشروعية التّسبيح في السجود، كما سبق بيان ذلك عند الكلام على حكم التسبيح من حيث القول[٦].

والخامسة: قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾﴾ [الإنسان: ٢٦].

وفي هذه الآية أيضاً خطاب للنبي ﷺ، وأمر له بالجمع بين السّجود والتّسبيح في قيام الليل.

---

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٢٣/ ١٤١.
(٢) انظر: ص١٨١ من هذا البحث.
(٣) انظر: ص٣١٨ ـ ٣١٩ من هذا البحث.
(٤) انظر: أحكام القرآن، للجصاص: ٥/٣٦، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ١٠/ ٤٣١.
(٥) انظر: مجموع شيخ الإسلام ابن تيمية: ٢٣/ ١٤١.
(٦) انظر: ص٣٩٧.

فهذه الآيات المذكورة هنا كلها ظاهرة في مشروعية التسبيح في الركوع والسجود. وإن قيل: إنّ هذه الآيات نصّت على السجود ولم تذكر الركوع!، فالجواب: أنّ الركوع أول السّجود، ومقدمته، ولذلك قال الله تعالى ـ عن نبيه داود ﷺ ـ: ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [ص: ٢٤]. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «لا ريب أنه سجد، كما ثبت بالسنة[١]، وإجماع المسلمين أنه سجد لله، والله سبحانه مدحه بكونه خرّ راكعاً، وهذا أول السّجود، وهو خروره، فذكر سبحانه أوّل فعله، وهو خروره راكعاً، ليبيّن أنّ هذا عبادة مقصودة وإن كان هذا الخرور كان ليسجد» اهـ[٢].

وقد اتّفق علماء المسلمين على مشروعية التسبيح في الركوع والسجود غير أنهم اختلفوا في وجوبه: فذهب بعضهم إلى أنّه سنّة مستحبّة وليس واجباً، وذهب آخرون إلى أنه واجبٌ، فمن تركه عمداً بطلت صلاته، ومن تركه سهواً، جبره بسجدتي السهو.

وتقدّم ذكر هذا الاختلاف، وترجيح القول بالوجوب على القول بعدم الوجوب، مع بيان الأدلة المفيدة لوجوب التسبيح في الرّكوع والسجود من الكتاب والسنة والنظر الصحيح[٣].

ومن القائلين بوجوب التسبيح في الرّكوع والسجود إمام أهل السنة والجماعة أحمد بن حنبل رحمه الله[٤]، وروي عنه أيضاً أنه ركن، ذكره شيخ

---

(١) جاء في الحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما: «أن النبي ﷺ سجد في ص، وقال: **«سجدها داود توبة، ونسجدها شكراً»**. أخرجه النسائي في سننه: ٢/ ٤٩٨، برقم (٩٥٦)، وأخرجه البخاري نحوه في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ٨/ ٥٤٤، برقم (٤٨٠٧).

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٢٣/ ١٤٥.

(٣) انظر ذلك في: ص٣٩٤ ـ ٤٠٢.

(٤) انظر: المغنى، لابن قدامة: ٢/ ١٨٠.

الإسلام ابن تيمية، وقوّاه، من دون جزم بترجيحه، فقال ـ بعد أن ذكر أن الإمام أحمد يوجب التسبيح في الركوع والسجود ـ: «وروي عنه أنه ركن، وهو قويّ، لثبوت الأمر به في القرآن[١] والسنة[٢]. فكيف يوجب الصلاة على النبي ﷺ ولم يجيء أمر بها في الصلاة خصوصاً، ولا يوجب التّسبيح مع الأمر به في الصلاة، ومع كون الصلاة تسمّى (تسبيحاً)؟ وكل ما سمّيت به الصلاة من أبعاضها فهو ركن فيها، كما سُمّيتْ (قياماً) و(ركوعاً) و(سجوداً) و(قراءة)، وسميت أيضاً (تسبيحاً)[٣].

ولم يأت عن النبي ﷺ ما ينفي وجوبه في حال السهو، كما ورد في التشهّد الأوّل أنه لما تركه سجد للسهو[٤]، لكن قد يقال: لما لم يأمر به المسيء في صلاته[٥] دلّ على أنه واجب ليس بركن. وبسط هذه المسائل له موضع آخر» اهـ[٦].

وبهذا يتبيّن أنّ التسبيح في الركوع والسجود إن لم يكن ركناً في الصلاة، فلا أقلّ من أن يكون واجباً فيها، لكثرة الأدلة في ذلك وقوّتها.

❑ صيغ التّسبيح في الرّكوع والسّجود:

وأمّا ما يجب قوله من التسبيح في الرّكوع والسّجود، فقد ورد في

---

(١) سبق بيان آيات الأمر بالتسبيح في القرآن، ص٤٢٣.

(٢) ثبت الأمر بالتسبيح في الركوع والسجود من جهة السنة، في حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه، وقد سبق تخريجه في ص٢٢٥. وانظر: ص٣٩٧.

(٣) انظر: ما سبق بيانه في ص٣٩٦.

(٤) جاء ذلك في حديث عبد الله بن بحينة الأسدي رضي الله عنه، أخرجه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ٣/ ٩٩، برقم (١٢٣٠)، ومسلم في صحيحه: ١/ ٣٩٩، برقم (٥٧٠).

(٥) سبق ذكر حديث المسيء صلاته، في: ص٣٩٣.

(٦) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٦/ ١١٨.

السنة النبوية صيغٌ متعددة للتسبيح في الركوع والسجود، بلغت سبعاً، وهي كما يلي:

١ ـ (سبحان ربي العظيم) في الركوع، و(سبحان ربي الأعلى) في السجود.

وردت هذه الصيغة في حديث حذيفة رضي الله عنه قال: «صلّيت مع النبي ﷺ ذات ليلة... فذكر الحديث» وفيه: «ثم ركع، فجعل يقول: **«سبحان ربي العظيم»**، فكان ركوعه نحواً من قيامه. ثم قال: **«سمع الله لمن حمده»**، ثم قام طويلاً قريباً مما ركع. ثم سجد، فقال: **«سبحان ربي الأعلى»**، فكان سجوده قريباً من قيامه»[(١)].

ووردت أيضاً في حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: «بتّ عند خالتي ميمونة[(٢)]، قال: فانتبه رسول الله ﷺ من الليل... فذكر الحديث»، قال: «ثم ركع، فرأيته قال في ركوعه: **«سبحان ربي العظيم»**، ثم رفع رأسه، فحمد الله ما شاء أن يحمده، قال: ثم سجد، قال: فكان يقول في سجوده: **«سبحان ربّي الأعلى»**...»[(٣)].

وفي كلا الحديثين أنّ النبي ﷺ قال هذه الصيغة في صلاة الليل، وقد سبق أن ما ثبت لصلاة ثبت لأخرى ما لم يقم دليل بالتخصيص[(٤)].

---

(١) سبق ذكر طرفه الأول وتخريجه في ص٧٢.

(٢) هي ميمونة بنت الحارث الهلالية، زوج النبي ﷺ، وهي أخت أمّ الفضل لبابة بنت الحارث الهلالية، زوج العباس بن عبد المطلب، وأمّ عبد الله بن عباس راوي الحديث، رضي الله عنهم أجمعين.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده: ١/ ٣٧١، ورجال إسناده ثقات، غير كامل ـ وهو ابن العلاء التميمي ـ، فإنه صدوق يخطىء. كما في «تقريب التهذيب»، للحافظ ابن حجر: ٢/ ١٣٩، فالحديث به حسن.

(٤) انظر: ص٥٢٧.

٢ ـ (سبحان ربّي العظيم وبحمده) في الركوع، و(سبحان ربّي الأعلى وبحمده) في السجود.

ولا تختلف هذه الصيغة عن الصيغة السابقة إلا بزيادة (وبحمده) في الموضعين، وقد وردت هذه الصيغة في أحاديث برواية عدد من الصحابة رضي الله عنهم[1]، ولكن لا يخلو واحد منها من مقال في إسناده، ولهذا اختلف العلماء في زيادة (وبحمده) في صيغة التسبيح في الركوع والسجود: فردّ بعض العلماء هذه الزيادة، لكونها وردت في أحاديث لا تخلو من مقال.

وقبلها بعضهم، لكونها وردت في أحاديث متعددة وقد تعاضدت وتقوّت بكثرة الطرق[2].

---

(١) وردت هذه الصيغة في: ١ ـ حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه، أخرجه أبو داود في سننه: ١/ ٥٤٢ ـ ٥٤٣، برقم (٨٧٠)، وقال: «وهذه الزيادة ـ يعني: (وبحمده) ـ نخاف أن لا تكون محفوظة». وفي إسناد هذا الحديث راو مبهم لم يسمّ، وهو الراوي عن عقبة.

٢ ـ وحديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه، أخرجه أحمد في مسنده: ٥/ ٣٤٣، وفي إسناده شهر بن حوشب، وهو صدوق كثير الإرسال والأوهام، كما في (تقريب التهذيب، لابن حجر: ١/ ٣٤١).

٣ ـ حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه، أخرجه الطبراني في كتاب الدعاء: ٢/ ١٠٥٠، برقم (٥٤٢)، والدارقطني في سننه: ١/ ٣٤١، وفي إسنادهما محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى، وهو صدوق سيّىء الحفظ جدّاً، كما في (تقريب التهذيب: ٢/ ١٩٣ ـ ١٩٤).

٤ ـ حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، أخرجه الدارقطني في سننه: ١/ ٣٤١ ـ ٣٤٢، وفي إسناده السريّ بن إسماعيل، وهو متروك الحديث، كما في (تقريب التهذيب: ١/ ٢٧٨).

(٢) انظر هذا الخلاف في: نيل الأوطار، للشوكاني: ٢/ ٢٤٧، ووبل الغمام على شفاء الأوام، له أيضاً: ١/ ٢٨١.

وقد سئل الإمام أحمد بن حنبل عن تسبيح الركوع والسجود، فقيل له: (سبحان ربي العظيم) أعجب إليك، أو (سبحان ربي العظيم وبحمده)؟ فقال: «قد جاء هذا، وجاء هذا، وما أدفع منه شيئاً»(١).

وما قاله الإمام أحمد هنا هو الراجح ـ إن شاء الله ـ؛ لأن الأحاديث التي وردت بزيادة (وبحمده) صالحة للاحتجاج بمجموعها، ولأنّ زيادة (وبحمده) موافقة لظاهر القرآن في الأمر بقرن التسبيح بالحمد، كما في بعض الآيات التي سبق ذكرها قريباً.

٣ ـ (سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي)، (سبحانك اللهم وبحمدك، اللهم اغفر لي)، (سبحانك ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي)، (سبحانك ربي وبحمدك، اللهم اغفر لي)، (سبحان ربّي وبحمده، اللهم اغفر لي).

وهذه الصيغة وردت في حديث عائشة رضي الله عنها بهذه الألفاظ الخمسة على اختلاف الروايات عنها، والحديث هو: أنّ رسول الله ﷺ كان يقول ذلك في الركوع والسجود، بعد أن نزلتْ عليه سورة النصر، هذا معناه(٢).

---

(١) ذكره ابن قدامة في (المغني: ٢/ ١٧٩). وانظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٦/ ١١٥.

(٢) حديث عائشة رضي الله عنها أخرجه ـ باللفظ الأول ـ البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ٢/ ٢٨١، برقم (٧٩٤)، ومسلم في صحيحه: ١/ ٣٥٠، برقم (٤٨٤)، وقد سبق أيضاً في ص٢٠٤.
وأخرجه ـ باللفظ الثاني ـ أحمد في مسنده: ٦/ ٢٣٠. وأخرجه ـ باللفظ الثالث ـ البخاري أيضاً في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ٨/ ٧٣٣، برقم (٤٩٦٧).
وأخرجه ـ باللفظ الرابع ـ مسلم أيضاً في صحيحه: ١/ ٣٥١، برقم (٤٨٤).
وأخرجه ـ باللفظ الخامس ـ الطبراني في كتاب الدعاء: ٢/ ١٠٧٠، برقم (٦٠٤)، ورجاله كلهم ثقات.

وفي حديث عبد الله بن مسعود ﷺ قال: «لما أنزل الله على رسول الله ﷺ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١﴾[(١)]، كان يكثر ـ إذا قرأها وركع ـ أن يقول: «**سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي إنك أنت التوّاب الرّحيم**» ثلاثاً»[(٢)].

٤ ـ (سبحانك وبحمدك، أستغفرك وأتوب إليك).

وردت هذه الصيغة في حديث عبد الله بن مسعود ﷺ قال: «كان نبيّكم ﷺ إذا كان ساجداً قال: «**سبحانك وبحمدك، أستغفرك وأتوب إليك**»»[(٣)].

٥ ـ (سبحانك وبحمدك، لا إله إلا أنت) أو (سبحانك اللهم وبحمدك، لا إله إلا أنت)، في الركوع والسجود.

وردت هذه الصيغة في حديث عائشة ﷺ قالت: «افتقدت النبي ﷺ ذات ليلة، فظننت أنه ذهب إلى بعض نسائه، فتحسّست[(٤)]، ثم رجعت، فإذا هو راكع أو ساجد، يقول: «**سبحانك وبحمدك، لا إله إلا أنت**»، فقلت: بأبي أنت وأمي، إني لفي شأن وإنك لفي آخر»[(٥)].

وفي رواية: «فإذا هو راكع أو ساجد يقول: «**سبحانك اللهم**

---

(١) يعنى سورة النصر كلها.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده: ١/٣٨٨، من طريق أبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود، عن أبيه. والراجح في قول المحدثين أنه لم يسمع من أبيه، كما قال الحافظ ابن حجر في (تقريب التهذيب: ٢/٤٣٩)، فالحديث ـ بهذا الإسناد ـ منقطع.

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ١٠/١٩٢، برقم (١٠٣٠٢)، وفي كتاب الدعاء: ٢/١٠٦٦ ـ ١٠٦٧، برقم (٥٩٣) وإسناده حسن.

(٤) هو بمعنى: افتقدت. وانظر: شرح صحيح مسلم، للنووي: ٤/٢٠٣.

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه: ١/٣٥١ ـ ٣٥٢، برقم (٤٨٥).

وبحمدك، لا إله إلا أنت»»[١].

٦ ـ (سبحان ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة) في الركوع والسجود.

وردت هذه الصيغة في حديث عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه، وقد تقدّم ذكره عند الكلام على قرن التسبيح بأسماء الله تعالى وصفاته[٢].

٧ ـ (سبّوح قدّوس، ربّ الملائكة والرّوح) في الركوع والسجود.

وردت هذه الصيغة في حديث عائشة رضي الله عنها، وقد سبق ذكره، عند الكلام على الألفاظ الدالة على معنى التسبيح[٣].

فهذه ما أمكن الاطّلاع عليه من صيغ التسبيح في الركوع والسجود الواردة في السنة النبوية، وهي ـ باعتبار ألفاظها ـ أربع عشرة صيغة.

ومع ورود هذه الصيغ المتعدّدة فقد اختلف العلماء فيما يحصل به التسبيح في الركوع والسجود على ثلاثة أقوال:

القول الأول: أنّه يتعيّن التسبيح بلفظ (سبحان ربّي العظيم) في الركوع، وبلفظ (سبحان ربي الأعلى) في السجود، ولا يجزىء غيرهما. وهو قول كثير من أصحاب الإمام أحمد[٤].

وحجتهم: أنّ هذين اللفظين ورد الأمر بهما في الركوع والسجود،

---

(١) أخرجه النسائي في سننه: ٢/ ٥٧٢، برقم (١١٣٠)، ورجال إسناده كلهم ثقات.

(٢) انظر: ص٢٣٩ من البحث. (٣) انظر: ص١١٨.

(٤) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٦/ ١١٤ ـ ١١٥ و٢٣/ ١٥٠.

ولم يرد الأمر بغيرهما[١]، وذلك في حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه: لمّا نزلت ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ [الواقعة: ٧٤، ٩٦، والحاقة: ٥٢]، قال رسول الله ﷺ: «**اجعلوها في ركوعكم**». فلما نزلت ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾﴾ [الأعلى: ١]، قال: «**اجعلوها في سجودكم**»»[٢].

فالله تعالى أمر العباد بهاتين الصيغتين من التسبيح، وبيّن الرسول ﷺ المبلّغ عنه أنّ محلّهما الركوع والسجود[٣]، فتعيّن فيهما هذان التسبيحان دون غيرهما.

وقد ثبت في حديث حذيفة رضي الله عنه وغيره أن رسول الله ﷺ كان يقول في ركوعه: «**سبحان ربي العظيم**»، وفي سجوده: «**سبحان ربي الأعلى**»[٤]، فتأكد تعيّن هاتين الصيغتين من التسبيح في الركوع والسجود بالأمر والفعل.

القول الثاني: أنّه يتعيّن التسبيح في الركوع والسجود بإحدى صيغ التسبيح الواردة في السنة، أو نحوها من التسبيح، كـ(سبحان الله)، أو (سبحان ربّي)، أو (سبحان الأحد)، أو غير ذلك من صيغ التسبيح الجائزة[٥].

---

(١) انظر: المصدر السابق: ١٦/ ١١٥، والصلاة وحكم تاركها، للإمام ابن قيم الجوزية ص٣٢٦.

(٢) سبق تخريجه في ص٢٢٥. وانظر أيضاً: ص٣٩٧.

(٣) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٠/ ٢٢٩، و١٦/ ١١٥، والصلاة وحكم تاركها، لابن القيم: ص٣١٧.

(٤) سبق حديث حذيفة مراراً، في ص٢٢٧، ٣١٣، ٥٣٩، وسبق نحوه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما في ص٥٣٩.

(٥) انظر: المجموع شرح المهذّب، للنووي: ٣/ ٣٨٣، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٦/ ١١٥، و٢٣/ ١٥٠، ونيل الأوطار، للشوكاني: ٢/ ٢٤٦.

ومقصود هذا القول: أن الذي يتعيّن في الركوع والسجود هو جنس التسبيح، لا صيغة بعينها، فيحصل أصل التسبيح في الركوع والسجود بقول: (سبحان الله) مثلاً، ونحوه.

وقد قوّى هذا القول شيخ الإسلام ابن تيمية، وقرّره في مواضع، منها:

قوله: ـ وهو يذكر الخلاف في المسألة ـ: «والأقوى أنه يتعيّن التسبيح، إما بلفظ (سبحان)، وإما بلفظ (سبحانك)، ونحو ذلك»[١].

وقوله: «قد علم أنه ﷺ كان يداوم على التسبيح بألفاظ متنوعة.

وقوله: (اجعلوها في ركوعكم، وفي سجودكم)[٢] يقتضي أن هذا محلّ لامتثال هذا الأمر، لا يقتضي أنه لا يقال إلا هي، مع ما قد ثبت أنه كان يقول غيرها...

وأيضاً قوله: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ [الأعلى: ١] و﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ۝٧٤﴾ [الواقعة: ٧٤، ٩٦، والحاقة: ٥٢] أمر بتسبيح ربه، ليس أمراً بصيغة معيّنة، فإذا قال: (سبحان الله وبحمده) (سبحانك اللهم وبحمدك)، فقد سبّح ربّه الأعلى والعظيم، فإن الله تعالى هو الأعلى وهو العظيم. واسمه (الله) يتناول معاني سائر الأسماء بطريق التضمن، وإن كان التصريح بالعلو والعظمة ليس هو فيه. ففي اسمه (الله) التصريح بالإلهية، واسمه (الله) أعظم من اسمه (الربّ)»[٣].

وقوله: «وقوله: (اجعلوها في سجودكم) فيه كلام ليس هذا موضعه، إذ قد يقال: المسبّح لربّه، بأي اسم سبّحه فقد سبّح اسم ربه

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٦/ ١١٥.

(٢) يشير إلى حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه، الذي سبق ذكره آنفاً، في ص٥٤٤.

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٦/ ١١٦ ـ ١١٧.

الأعلى، كما أنه بأي اسم دعاه فقد دعا ربّه الذي له الأسماء الحسنى. كما قال: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠]، وقال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

فإذا كان يُدعى بجميع أسمائه الحسنى، وبأيّ اسم دعاه، فقد دعا الذي له الأسماء الحسنى، وهو يُسبَّح بجميع أسمائه الحسنى، وبأيّ اسم سبّح، فقد سبّح الذي له الأسماء الحسنى، ولكن قد يكون بعض الأسماء أفضل من بعض، وبسط هذا له موضع آخر»[1].

وقوله: «عامة أدلة الشريعة من الكتاب والسنة تدلّ على وجوب جنس التسبيح، فمن لم يسبّح في السجود، فقد عصى الله ورسوله، وإذا أتى بنوع من أنواع التسبيح المشروع أجزأه»[2].

فهذه بعض كلام شيخ الإسلام ابن تيمية في تقرير تعيّن التسبيح في الركوع والسجود جنساً، لا نوعاً معيّناً.

وقد اشتمل كلامه على بيان المراد من الحديث الذي احتجّ به، القائلون بتعيّن صيغتي (سبحان ربي العظيم) و(سبحان ربي الأعلى) في الركوع والسجود، وهو حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه.

القول الثالث: أنه لا يتعيّن التسبيح في الركوع والسجود، وأن ليس فيهما ذكر مخصوص يقوله المصلّي، لا تسبيح ولا غيره.

وهذا القول منقول عن الإمام مالك[3]، وهو غريب جدّاً؛ لأن

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٢٣/ ١٥٠.

(٢) المصدر السابق: ٢٣/ ١٤٩.

(٣) انظر: بداية المجتهد، لابن رشد الحفيد، تحقيق محمد صبحي حلاق: ١/ ٣١٤، والتاج والإكليل لمختصر خليل، لمحمد بن يوسف المواق، بهامش مواهب الجليل لشرح مختصر خليل، للحطاب: ٢/ ٢٤٢.

أدلة تعيّن التسبيح في الركوع والسجود من الكتاب والسنة كثيرة جدّاً وظاهرة، وإن كان هناك نزاع في وجوب ذلك أو استحبابه، كما سبق بيانه.

وأشار بعضهم إلى أن حجّة الإمام مالك في هذا القول هي حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**ألا وإني نهيت أن أقرأ القرآن راكعاً أو ساجداً، فأما الركوع فعظموا فيه الربّ، وأما السجود فاجتهدوا في الدعاء، فقمن أن يستجاب لكم**»(١). حيث جاء الأمر فيه بمطلق التعظيم في الركوع، وبمطلق الدّعاء في السجود، ولم يذكر التسبيح فيه(٢).

ولا حجة في هذا الحديث للقول بعدم تعيّن التسبيح في الركوع والسجود، فقد تقدّم ذكر الحديث نفسه فيما يدلّ على وجوب التسبيح في الركوع خاصّة من السنة(٣)؛ لأن قوله ﷺ: «**فأما الركوع فعظّموا فيه الربّ**» معناه: «سبّحوه ونزّهوه ومجّدوه»(٤)، وقد بيّن ﷺ أن هذا التعظيم يكون بالتسبيح، كما في حديثي عقبة بن عامر وحذيفة بن اليمان رضي الله عنهما المتقدّم ذكرهما(٥)، وغيرهما من الأحاديث التي تدلّ على أن النبي ﷺ كان يداوم على التسبيح في الركوع والسجود.

وقوله ﷺ: «**وأما السجود فاجتهدوا في الدعاء**»، تقدم أنه وإن جاء بلفظ الدعاء، فلا يختص ذلك بدعاء المسألة، بل يتناول نوعي الدعاء: دعاء الثناء، ودعاء المسألة.

---

(١) سبق تخريجه في ص٨٢.
(٢) انظر: بداية المجتهد، لابن رشد: ١/ ٣١٤ ـ ٣١٥.
(٣) انظر: ص٣٩٨.
(٤) شرح صحيح مسلم، للنووي: ٤/ ١٩٧.
(٥) انظر: ص٥٤٤.

والتسبيح من دعاء الثناء، فيتناوله الأمر بالاجتهاد في الدعاء في السجود، مع ما يتناوله من دعاء المسألة[١]. والنبي ﷺ كان يكثر في سجوده من النوعين[٢]، كما تدلّ عليه الأحاديث الصحيحة الورادة بما كان يقوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ في السجود[٣].

وإذا تبيّن هذا عُلم أن القول بأنه لا يتعين في الركوع والسجود تسبيحٌ ولا ذكرٌ مخصوص قول مردود، لمخالفته للأدلة من الكتاب والسنة.

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية ما نقل عن الإمام مالك في هذه المسألة، مع إبداء توجيه محتمل له، فقال: «وجمهور العلماء على أنه يشرع التسبيح في الركوع والسجود، وروي عن مالك أنه كره المداومة على ذلك، لئلّا يُظنّ وجوبُه»[٤].

وقال بعد ذلك: «فإن كان كراهة المداومة على (سبحان ربي الأعلى، والعظيم)، فله وجه. وإن كان كراهة المداومة على جنس التسبيح، فلا وجه له، وأظنّه الأول.

وكذلك المنقول عنه إنما هو كراهة المداومة على (سبحان ربي العظيم)، لئلا يُظنّ أنه فرض، وهذا يقتضي أن مالكاً أنكر أن تكون فرضاً واجباً. وهذا قويّ ظاهر[٥]، بخلاف جنس التسبيح، فإن أدلة وجوبه في الكتاب والسنة كثيرة جدّاً، وقد عُلم أنه ﷺ كان يداوم على التسبيح بألفاظ متنوّعة» اهـ[٦].

---

(١) انظر: ص٣٩٨.
(٢) انظر: زاد المعاد، للإمام ابن قيم الجوزية: ١/ ٢٣٥.
(٣) انظر ذلك في: زاد المعاد، لابن القيم: ١/ ٢٣٣ ـ ٢٣٤، وصفة صلاة النبي ﷺ، للألباني: ص١٤٥ ـ ١٤٧.
(٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٦/ ١١٤.
(٥) يعنى عدم وجوب الصيغة المذكورة بعينها.
(٦) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٦/ ١١٦.

ويُعلم مما سبق بيانه أن التسبيح في الركوع والسجود يحصل ـ على القول الراجح ـ بالمجيىء بصيغة من صيغ التسبيح الثابتة عن النبي ﷺ في الركوع والسجود. والصواب في هذا التقيّد بالصيغ الواردة فحسب دون غيرها من التسبيح؛ لأن الصلاة عبادة مشروعة بأفعالها وأقوالها، والعبادات توقيفية، فيلتزم فيها ما ثبت بالدليل من كتاب أو سنة أو إجماع، لا غير.

❐ حكم الجمع بين صيغ التسبيح في الركوع والسجود:

وذهب بعض العلماء إلى أنه يشرع للمصلّي أن يجمع بين صيغ التسبيح المختلفة في الركوع الواحد، أو السجود الواحد(١).

وأبى ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية، فقال ـ في الكلام على تسبيح الركوع والسجود ـ: «والجمع بين صيغتي التسبيح بعيد، بخلاف الجمع بين التسبيح والتحميد، والتهليل، والدعاء، فإن هذه أنواع، والتسبيح نوع واحد، فلا يجمع فيه بين صيغتين» اهـ(٢).

وعدم الجمع بين صيغ التسبيح في الركوع والسجود هو الحقّ ـ إن شاء الله ـ؛ لأنه لا دليل على الجمع ـ فيما أعلم ـ، وإنما يأتي المصلّي بهذه الصيغة مرّة، وبتلك الصيغة مرة أخرى، كما دلّت عليه سنة النبي ﷺ، والله تعالى أعلم(٣).

❐ أفضل صيغ تسبيح الركوع والسجود:

ومع أن المصلّي يشرع له أن يسبّح الله في ركوعه وسجوده بأيّة صيغة من صيغ التسبيح الواردة في الركوع والسجود، فإن أفضل ما

---

(١) انظر: الأذكار، للإمام النووي: ص١١٤، ١٢٠.

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٦/١١٦.

(٣) انظر: صفة صلاة النبي ﷺ، للألباني: ص١٣٤ (الهامش).

يقوله المصلّي في الركوع هو: (سبحان ربي العظيم)، وأفضل ما يقوله في السجود هو: (سبحان ربي الأعلى)[1].

وإنما كانت هذه الصيغة أفضل صيغ التسبيح في الركوع والسجود، للأمور الآتية:

١ ـ أن هذه الصيغة مطابقة تمام المطابقة للأمر في قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ [الواقعة: ٧٣، ٩٦، والحاقة: ٥٢]، وقوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾﴾ [الأعلى: ١] وقد قال رسول الله ﷺ ـ لما نزلت الآية الأولى ـ: «**اجعلوها في ركوعكم**». وقال ـ لما نزلت الآية الثانية ـ: «**اجعلوها في سجودكم**»[2].

وهذا الجعل المأمور به في الحديث وإن كان يتحقّق بأية صيغة من صيغ التسبيح الواردة في الركوع والسجود، لكنه بهذه الصيغة خاصّة أكثر تحققّاً، لمطابقتها للأمر لفظاً ومعنى.

٢ ـ أنّ هذه الصيغة فيها تخصيص الركوع بالتعظيم، وتخصيص السجود بالعلوّ، فهي ـ بهذا ـ موافقة كذلك لقوله ﷺ: «**فأما الركوع فعظّموا فيه الربّ، وأما السجود فاجتهدوا في الدّعاء**»[3]. فجعل التعظيم في الركوع أخصّ منه في السجود[4].

وهذا التعظيم المأمور به في الركوع وإن كان يحصل بكلّ تسبيح؛ لأن التسبيح يتضمّن التعظيم، فإن حصوله بهذه الصيغة خاصّة أتمّ؛ لأنها مشتملة على التسبيح المتضمن للتعظيم، وعلى التعظيم بلفظه الخاصّ، فهي موافقة للحديث تضمّناً وتصريحاً.

---

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٢٣/ ١٥٠، والصلاة وحكم تاركها، للإمام ابن قيم الجوزية: ص٣١٧، ٣٢٦.

(٢) سبق من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه. وانظر: ص٥٤٤.

(٣) سبق من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. وانظر: ص٥٤٧.

(٤) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٠/ ٢٥٣.

٣ ـ أن هذه الصيغة بها تكون المناسبة العقدية للتسبيح في الركوع والسجود أظهر فهماً ونظراً، وأوفر علماً ومعرفةً، كما سيأتي بيانه قريباً إن شاء الله تعالى.

فبهذه الأمور مجتمعة كانت هذه الصيغة أفضل صيغ التسبيح في الركوع والسجود. ولعلّ هذا هو الذي حمل بعض العلماء على القول بتعيّن هذه الصيغة في الركوع والسجود، مع ثبوت صيغ أخرى فيهما، كما سبق بيانه، والله تعالى أعلم.

❐ المناسبة العقديّة للتّسبيح في الرّكوع والسّجود:

وإن مما ينبغي الاهتمام بأمره، والاعتناء بشأنه العلمَ بالمناسبة العقدية للتسبيح في الركوع والسجود، وما فيه من المعاني الإيمانية، والمظاهر التعبّدية لله ﷻ، ليأتي العبد المسلم بهذا التسبيح في ركوعه وسجوده على التمام ظاهراً وباطناً، وصورةً وحالاً.

فإنّ الله تعالى شرع الركوع والسجود ليَخضع بهما العبد لربّه سبحانه ويتواضع، ويَذِلّ له ويخشع، وخضوع العبد وذلّه لا يتمّ إلا بالرّكوع والسّجود المعروفين، وهما فرضان ـ في الجملة ـ على كلّ أحد، والرّبّ ﷻ لا يرضى من العباد بدون هذا الخضوع والذّلّ، إذ هو غاية خضوع العبد وذلّه[1].

أما الرّكوع فهو أول السجود ـ كما تقدم في أول المبحث ـ، وهو كالمقدّمة بين يدي السجود والتّوطئة له، فينتقل العبد من خضوع إلى خضوع أكملَ وأتمَّ منه وأرفعَ شأناً[2].

---

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٢٣/١٥٢.
(٢) انظر: الصلاة وحكم تاركها، للإمام ابن القيم: ص٣٢٦. وشفاء العليل، له: ٢/١٦٩.

«وتمام الركوع أن يخضع القلب لله ويذلّ له، فيتمّ بذلك خضوع العبد بباطنه وظاهره لله ﷻ، لهذا كان النبي ﷺ يقول في ركوعه: «**خشع لك سمعي وبصري ومخّي وعظمي وعصبي**»[(١)]، إشارة إلى أن خشوعه في ركوعه قد حصل بجميع جوارحه، ومن أعظمها القلب الذي هو ملك الجوارح، والأعضاء كلّها تبع له ولخشوعه»[(٢)].

وأما السجود فهو أعظم ما يظهر فيه ذلّ العبد لربه ﷻ، حيث جعل العبدُ وجهَه ـ الذي هو أشرف أعضائه وأعلاها وأعزّها عليه حقيقة ـ أوضعَ ما يمكنه، فيضعه في التراب متعفّراً، وقد أخذ كلُّ عضو من البدن حظّه من هذا الخضوع حتى أطراف الأنامل ورؤوس الأصابع، ويتبع ذلك انكسار القلب وتواضعه وخشوعه لله العليّ الأعلى[(٣)].

ولما كان هذا غايةَ ذلِّ العبد وخضوعه وانكساره، كان أقربُ ما يكون الربّ تعالى منه في هذه الحال، فأُمر أن يكثر فيها الدعاء، لقربه من القريب المجيب، وقد قال تعالى: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ [العلق: ١٩][(٤)]، وقال رسول الله ﷺ: «**أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فأكثروا الدعاء**»[(٥)].

والمراد بالقرب ـ في الآية والحديث ـ قرب الله تعالى من الداعي في سجوده[(٦)]، والكلام في هذا القرب من جنس الكلام في نزوله جلّ

---

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم في صحيحه: ١/ ٥٣٤ ـ ٥٣٥، برقم (٧٧١).

(٢) مقتبس من رسالة: «الخشوع في الصلاة» ـ ضمن مجموعة رسائل الحافظ ابن رجب الحنبلي: ص١٦١.

(٣) انظر: شفاء العليل، لابن القيم: ٢/ ١٦٨، والمصدر السابق قبله: ص١٦٠.

(٤) انظر: شفاء العليل، لابن القيم: ٢/ ١٦٩.

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه: ١/ ٣٥٠، برقم (٤٨٢) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٦) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٥/ ٢٣٦.

وعلا كل ليلة، ودنوّه إلى الحجاج عشية عرفة[١]، ومذهب سلف الأمة الصالح في ذلك معروف، وهو الإثبات على الوجه اللائق بذي الجلال والكمال، من غير تأويل ولا تعطيل، ولا تكييف ولا تمثيل.

وفي بيان ما يشتمل عليه السجود من معاني التوحيد والإيمان، ومظاهر الذلّ والعبودية، يقول الإمام ابن القيم: «شرع السجود على أكمل الهيئة وأبلغها في العبودية وأعمّها لسائر الأعضاء، بحيث يأخذ كل جزء من البدن بحظّه من العبودية، والسجود سرّ الصلاة، وركنها الأعظم، وخاتمة الرّكعة، وما قبله من الأركان كالمقدمات له، فهو شبه طواف الزيارة[٢] في الحجّ، فإنه مقصود الحجّ، ومحلّ الدخول على الله وزيارته، وما قبله كالمقدمات له، ولهذا أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، وأفضل الأحوال له حالٌ يكون فيها أقرب إلى الله، ولهذا كان الدعاء في هذا المحل أقرب إلى الإجابة.

ولما خلق الله سبحانه العبد من الأرض، كان جديراً بأن لا يخرج عن أصله، بل يرجع إليه إذا تقاضاه الطّبع والنّفس بالخروج عنه، فإن العبد لو تُرك لطبعه ودواعي نفسه، لتكبَّر وأشر وخرج عن أصله الذي خلق منه، ولوثب على حقّ ربّه من الكبرياء والعظمة فنازعه إياهما، وأُمر بالسجود خضوعاً لعظمة ربّه وفاطره، وخشوعاً له وتذلُّلاً بين يديه، وانكساراً له، فيكون هذا الخشوع والخضوع والتذلّل ردّاً له إلى حكم العبودية، ويتدارك ما حصل له من الهفوة والغفلة والإعراض الذي خرج به عن أصله، فتمثل له حقيقة التّراب الذي خلق منه، وهو يضع أشرف شيء منه وأعلاه وهو الوجه، وقد صار أعلاه أسفله خضوعاً بين يدي ربّه الأعلى، وخشوعاً له وتذلّلاً لعظمته، واستكانة

---

(١) انظر: المصدر السابق: ٥/ ٢٤٢.

(٢) يعنى طواف الإفاضة الذي يأتي به الحاج في يوم النحر.

لعزّته، وهذا غاية خشوع الظاهر، فإن الله سبحانه خلقه من الأرض التي هي مذلّلة للوطء بالأقدم، واستعمله فيها وردّه إليها ووعده بالإخراج منها[١]، فهي أمّه وأبوه، وأصله وفصله، فضمته حيّاً على ظهرها وميتاً في بطنها، وجعلت له طهراً ومسجداً، فأمر بالسجود إذ هو غاية خشوع الظاهر، وأجمع العبودية لسائر الأعضاء...، ولهذا كان من كمال السجود الواجب أنه يسجد على الأعضاء السبعة: الوجه، واليدين، والركبتين، وأطراف القدمين، فهذا فرض أمر الله به رسوله، وبلّغه الرسول لأمته[٢]، ومن كماله الواجب أو المستحب مباشرة مصلّاه بأديم وجهه، واعتماده على الأرض بحيث ينالها ثقل رأسه، وارتفاع أسافله على أعاليه، فهذا من تمام السجود» اهـ[٣].

وهذا الكلام والذي قبله إذا تأمّله العبد تجلّتْ له الحكمة العليا من الركوع والسجود في الصلاة، ولهذا شرع فيهما من التسبيح ما يناسب هيئتهما[٤]، فإن التسبيح قد خُصّ به حال الانخفاض، كما جاء في حديث عبد الله بن عمر ﵄ قال: «كان النبي ﷺ وجيوشه إذا علوا الثّنايا[٥]

---

(١) يعني في قوله تعالى: ﴿۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ [طه: ٥٥].

(٢) وذلك فيما رواه ابن عباس ﵄ أن رسول الله ﷺ قال: **«أمرت أن أسجد على سبعة أعظم: على الجبهة ـ وأشار بيده على أنفه ـ، واليدين، والركبتين، وأطراف القدمين. ولا نكفت الثياب ولا الشّعر»**.
أخرجه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ ٢/٢٩٧، برقم (٨١٢)، ومسلم في صحيحه: ١/٣٥٤، برقم (٤٩٠).

(٣) الصلاة وحكم تاركها: ص٣٢١ ـ ٣٢٤.

(٤) انظر: المصدر السابق: ص٣١٧.

(٥) الثنايا: جمع ثنيّة. والثنية: العقبة، أو طريقها، أو الجبَل، أو الطريقة فيه أو إليها. [القاموس المحيط، للفيروزآبادي/ مادة (ثنى) : ص١٦٣٦].

كبّروا، وإذا هبطوا سبّحوا، فوضعت الصلاة على ذلك»[١].

يقصد بقوله: «فوضعت الصلاة على ذلك»: التكبير في حال الارتفاع في الصلاة، والتسبيح في حال الانخفاض فيها في الركوع والسجود[٢].

فيذكر العبد في حال انخفاضه وذلّه ما يتّصف به الربّ جلّ وعلا مقابل ذلك، فيقول في الركوع: (سبحان ربي العظيم)، ويقول في السجود: (سبحان رب الأعلى)[٣].

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي: «ومن تمام خشوع العبد لله ﷻ، وتواضعه له في ركوعه وسجوده أنه إذا ذلّ لربه بالركوع والسجود وصف ربّه حينئذ بصفات العزّ والكبرياء والعظمة والعلوّ، فكأنه يقول: الذّل والتواضع وصفي، والعلوّ، والعظمة والكبرياء وصفك. ولهذا شرع للعبد في ركوعه أن يقول: (سبحان ربي العظيم)، وفي سجوده: (سبحان ربي الأعلى)» اهـ[٤].

وذكر بعض العلماء أن الحكمة في تخصيص الركوع بالتعظيم، والسجود بالأعلى هي: «أن السجود لما كان فيه غاية التواضع، لما فيه من وضع الجبهة التي هي أشرف الأعضاء على مواطىء الأقدام، كان أفضل من الركوع، فحسُن تخصيصه بما فيه صيغة أفعل التفضيل، وهو (الأعلى) بخلاف (العظيم)، جعلا للأبلغ مع الأبلغ، والمطلق مع المطلق» اهـ[٥].

---

(١) أخرجه أبو داود ـ ضمن حديث طويل ـ في سننه: ٣/ ٧٥، برقم (٢٥٩٩).
(٢) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٦/ ١١٣.
(٣) انظر: المصدر السابق: ١٦/ ١١٨ ـ ١١٩.
(٤) الخشوع في الصلاة ـ ضمن مجموعة رسائل الحافظ الإمام ابن رجب الحنبلي ـ: ص١٦١.
(٥) نيل الأوطار، للشوكاني: ٢/ ٢٤٧.

والأولى من هذا: أن الركوع قد خصّص بالتعظيم؛ لأن الركوع يقع في الصلاة بعد ركن القيام الذي خصّص بقراءة فاتحة الكتاب المشتملة على الحمد والتوحيد، والثناء والتمجيد. والتعظيم تابع لذلك؛ فإن التحميد والتوحيد مقدّم على مجرّد التعظيم، ولهذا شرع تعظيم الرب في الركوع بعد حمده وتوحيده في القيام. فدلّ على أن التعظيم المجرّد تابع لكونه تعالى محموداً، وكونه معبوداً. فإنه يجب أن يُحمد ويُعبد، ولا بدّ مع ذلك من التعظيم، فإن التعظيم لازم لذلك[1].

والحاصل: أنّ المصلّي يَحني ظهره في الركوع خضوعاً لعظمة ربه عزّ وجلّ، فيسبّحه بذكر اسمه العظيم، تنزيهاً لعظمته سبحانه عن حال العبد وذلّه وخضوعه، فكان الركوع بذلك ركن تعظيم وإجلال للرّبّ جلّ جلاله بالقلب والقالب والقول، كما قال النبي ﷺ: «**أما الركوع فعظّموا فيه الربّ**»[2][3].

وخصّص السجود بالعلوّ؛ لأن السجود غاية الخضوع والذلّ من العبد، وغاية تسفيله وتواضعه بأشرف شيء فيه لله تعالى ـ وهو وجهه ـ بأن يضعه على التراب. فناسب في غاية سفوله أن يصف ربّه بأنه الأعلى ـ والأعلى أبلغ من العليّ ـ، فإن العبد ليس له من نفسه شيء، وليس له من الكبرياء والعظمة نصيب.

فلما كان السجود غاية سفول العبد وخضوعه، سبّح ربّه الأعلى، فهو سبحانه الأعلى، والعبد الأسفل، كما أنه الربّ، والعبدُ العبدُ،

---

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٦/ ٣٢١.

(٢) جزء من حديث، سبق تخريجه في ص٨٢.

(٣) انظر: شفاء العليل، لابن القيم: ٢/ ١٦٨، والصلاة وحكم تاركها، له: ص٣١٧.

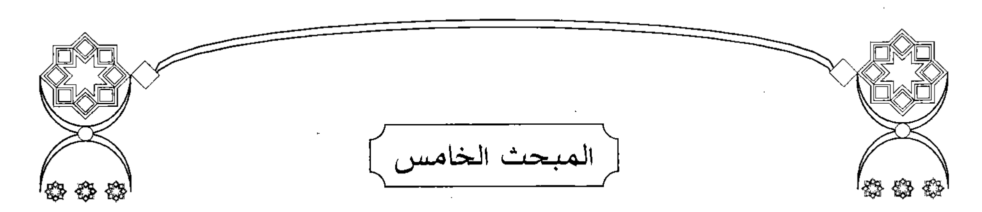
وهو الغنيّ، والعبد الفقير، وليس بين الربّ والعبد إلا محض العبودية، فكلما كمّلها العبد قرب إليه؛ لأنه سبحانه برّ جواد مُحسن، يعطي العبد ما يناسبه، فكلما عظم فقره إليه كان أغنى، وكلما عظم ذلّه له كان أعزّ، فإن النفس ـ لما فيها من أهوائها المتنوعة، وتسويل الشيطان لها ـ تبعد عن الله، حتى تصير ملعونة بعيدة من الرحمة. ومن أعظم ذنوبها إرادة العلوّ في الأرض، والسجود فيه غاية سفولها[1]، فأمر أن يسبّح ربه الأعلى، فيذكر علوّه سبحانه في حالة سفوله هو، وينزهه عن مثل هذه الحال. وإنّ من هو فوق كلّ شيء، وعال على كل شيء ينزّه عن السفول بكلّ معنى، بل هو الأعلى بكلّ معنى من معاني العلوّ[2].

فكان وصف الرّبّ بالعلوّ في حال السجود في غاية المناسبة لحال الساجد الذي قد انحطّ إلى السفل على وجهه، فذكر علوّ ربه في حال سفوله في سجوده، كما ذكر عظمته في حال خضوعه في ركوعه، ونزّه ربّه العظيم الأعلى عمّا لا يليق به مما يضادّ عظمته وعلوّه[3].

وبالجملة فإن التسبيح في الركوع والسجود قد اجتمع فيه تنزيه الله تعالى وتعظيمه بالقول والفعل، فالتسبيح باللسان تنزيه وتعظيم بالقول، والركوع والسجود تنزيه وتعظيم بالفعل، فاقترن في هذه العبادة العظيمة أثر التنزيه الفعليّ بأثر التنزيه القولي[4].

---

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٥/ ٢٣٧ ـ ٢٣٨.
(٢) انظر: شفاء العليل، لابن القيم: ٢/ ١٦٨ ـ ١٦٩. وانظر: ما سبق بيانه من معاني العلوّ الذي يوصف به الله تعالى في ص١٢٨ ـ ١٢٩.
(٣) انظر: الصلاة وحكم تاركها، لابن القيم: ص٣٢٧.
(٤) انظر: تفسير التحرير والتنوير، لابن عاشور: ٣/ ٢٧٥، والشرح الممتع على زاد المستقنع، للشيخ محمد بن صالح العثيمين: ٣/ ١٣٠.



المبحث الخامس

التّسبيح في الصّلاة لأمر طارىء

ومن المواضع التي يُشرع فيها التسبيح في الصلاة: التسبيح فيها لأمر يطرأ على المصلّي، فيحتاج معه إلى الكلام لمعالجته.

وقد دلّ على مشروعية هذا التسبيح داخل الصلاة عدّة أحاديث من السنة النبوية، أهمها:

١ ـ حديث سهل بن سعد[(١)] رضي الله عنهما في قصة تقديم الصحابة أبا بكر الصديق رضي الله عنه ليصلّي بهم عند ما ذهب رسول الله ﷺ ليصلح بين قوم فحانت الصلاة، ثم جاء رسول الله ﷺ وهم في الصلاة، فتخلّص حتّى وقف في الصفّ. فصفّق الصحابة رضي الله عنهم حتّى أكثروا التصفيق، لينبّهوا أبا بكر الصديق رضي الله عنه بمجيء رسول الله ﷺ. وتمام القصة: «فقال رسول الله ﷺ: **«ما لي رأيتكم أكثرتم التصفيق؟ من رابه شيء في صلاته فليسبّح، فإنه إذا سبّح اُلتفت إليه، وإنما التصفيق للنساء»**»[(٢)].

وفي رواية: **«يا أيها الناس، ما لكم حين نابكم شيء في الصلاة**

---

(١) هو سهل بن سعد بن مالك بن خالد الأنصاري، الخزرجي الساعديّ، أبو العباس، له ولأبيه صحبة، وتوفي رسول الله ﷺ وهو ابن خمس عشرة سنة، وكان من مشاهير الصحابة، توفي سنة (٩١هـ) أو قبلها، وهو آخر من مات بالمدينة من الصحابة، رضي الله عنه وعنهم أجمعين.
انظر: الإصابة، لابن حجر العسقلاني: ٣/ ٢٠٠.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ٢/ ١٦٧، برقم (٦٨٤)، ومسلم في صحيحه: ١/ ٣١٦ ـ ٣١٧، برقم (٤٢١).

أخذتم بالتصفيح[١]**؟ إنما التصفيح للنساء. من نابه شيء في صلاته فليقل: سبحان الله»**[٢].

وفي رواية أخرى: «**فإنه لا يسمعه أحد حين يقول: سبحان الله، إلا التفت»**[٣].

وفي رواية أخرى أيضاً: «**إذا نابكم أمرٌ فليسبّح الرجالُ، ولْيصفح النساءُ»**[٤].

٢ ـ وحديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**التسبيح للرّجال، والتصفيق للنساء»**[٥].

وفي رواية: «**التسبيح للرجال والتصفيق للنساء في الصلاة»**[٦].

وحديث سهل بن سعد السابق قد جاء ـ في رواية ـ بمثل لفظ حديث أبي هريرة هذا[٧].

٣ ـ وحديث أبي هريرة رضي الله عنه أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا استؤذن على الرّجل وهو يصلّي فإذنه التسبيح، وإذا استؤذن على المرأة**

---

(١) جاء في بعض روايات الحديث: «قال سهل ـ وهو الصحابي الراوي ـ: هل تدرون ما التصفيح؟ هو التصفيق». أخرجه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ٣/ ٧٥، برقم (١٢٠١).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ٣/ ٨٧ ـ ٨٨، برقم (١٢١٨)، وسبق مختصراً في ص١٩١.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ٣/ ١٠٧، برقم (١٢٣٤).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ١٣/ ١٨٢، برقم (٧١٩٠).

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ٣/ ٧٧، برقم (١٢٠٣)، ومسلم في صحيحه: ١/ ٣١٨، برقم (٤٢٢).

(٦) أخرجه مسلم في صحيحه: ١/ ٣١٩، برقم (٤٢٢).

(٧) أخرجه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ٣/ ٧٧، برقم (١٢٠٤).

وهي تصلّي فإذنها التصفيق»[١].

٤ ـ وحديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال: «صلّى بنا رسول الله ﷺ، فنهض في الركعتين، فسبّحنا به، فمضى، فلما أتّم الصلاة، سجد سجدتي السّهو».

وقال مرة: «فسبّح به من خلفه، فأشار أن قوموا»[٢].

وجاء هذا الحديث برواية أخرى من طريق زياد بن علاقة[٣] قال: «صلّى بنا المغيرة بن شعبة، فنهض في الركعتين، قلنا: سبحان الله، قال: سبحان الله، ومضى، فلمّا أتمّ صلاته وسلّم، سجد سجدتي السّهو، فلمّا انصرف قال: رأيت رسول الله ﷺ يصنع كما صنعت»[٤].

فهذه الأحاديث كلّها دآلة على مشروعية التسبيح في الصلاة لأمر طارىء. واتفق علماء المسلمين على مشروعية هذا التسبيح ـ في الجملة ـ في الصلاة[٥]، وإن كانوا مختلفين في بعض مسائله، كما سيأتي.

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى: ٢/ ٢٤٧، وصحّحه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٣٢٠). وانظر: السلسلة الصحيحة، له: رقم (٤٩٧).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده: ٤/ ٢٥٣، وهو حديث صحيح، كما يأتي في الرواية الأخرى بعده.

(٣) هو زياد بن علاقة بن مالك الثعلبيّ، أبو مالك الكوفي، تابعي ثقة، رمي بالنصب، وتوفي سنة (١٣٥هـ)، وقد قارب المائة أو جاوزها، رحمه الله.
انظر: تهذيب التهذيب، لابن حجر العسقلاني: ٣/ ٣٨٠ ـ ٣٨١، وتقريب التهذيب، له: ١/ ٢٦٣.

(٤) أخرجه أبو داود في سننه: ١/ ٦٢٩، برقم (١٠٣٧)، والترمذي في سننه: ٢/ ٢٠١، برقم (٣٦٥)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، وصححه الشيخ أحمد شاكر في تعليقه على سنن الترمذي، والشيخ الألباني في صحيح سنن أبي داود: ١/ ٢٨٦، برقم (١٠٣٧).

(٥) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٢٢/ ٥٤٩.

❐ حكم التسبيح في حقّ الرّجال والنّساء:

وهذه الأحاديث الواردة في هذا الباب، وبخاصّة حديث سهل بن سعد رضي الله عنه، وحديثا أبي هريرة رضي الله عنه، صرّحتْ بتخصيص هذا التسبيح للرجال في الصلاة، كما صرّحت بتخصيص التصفيق للنساء في الصلاة.

ولهذا اتفق العلماء على أن المشروع في حقّ الرّجال ـ عند ما يطرأ عليهم شيء في الصلاة ـ هو التسبيح[١].

وأما المشروع في حقّ النساء في هذه الحالة، فاختلفوا فيه ـ حسب ما اطّلعت عليه ـ على أربعة أقوال:

القول الأول: أنّ النساء والرّجال سواء في هذه الحالة، فالمشروع في حقّهن هو التسبيح، ولا يجوز التصفيق في الصلاة، لا للرّجال ولا للنساء.

وهذا القول ذهب إليه الإمام مالك وجماعة من أصحابه[٢]، واحتجّوا في ذلك بحجج ذكرها أبو عمر بن عبد البر، فقال: «ذهب مالك وأصحابه إلى أنّ التسبيح للرّجال والنساء جميعاً، لقوله ﷺ: **«من نابه شيء في صلاته فليسبّح»**[٣]، ولم يخصّ رجالاً من نساء[٤]. وتأولوا قول النبي ﷺ: **«إنما التصفيق للنساء»**[٥]، أي: إنما التصفيق

(١) انظر: معالم السنن، للخطابي: ١/ ٢٠١، والتمهيد، لابن عبد البر: ٢١/ ١٠٦، وبداية المجتهد، لابن رشد: ١/ ٤٦٠.
(٢) انظر: المدوّنة الكبرى، للإمام مالك: ١/ ١٣١، وبداية المجتهد لابن رشد: ١/ ٤٦٠.
(٣) هو جزء من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه، سبق تخريجه قريباً.
(٤) يعنون أن نصّ الحديث عام في الرجال والنساء.
(٥) هو جزء من حديث سهل أيضاً، سبق قريباً.

من فعل النساء، قال ذلك على جهة الذمّ[١]، ثم قال: «**من نابه شيء في صلاته فليسبّح**»، وهذا على العموم للرجال والنساء. وهذه حجة من ذهب هذا المذهب»[٢].

واحتجّ لهذا القول أيضاً بحديث أسماء[٣] بنت أبي بكر الصديق ﵄ قالت: «أتيت عائشة زوج النبي ﷺ حين خسفت[٤] الشمس، فإذا الناس قيام يصلّون، وإذا هي قائمة تصلّي. فقلت: ما للناس؟ فأشارت بيدها نحو السماء، وقالت: (سبحان الله)، فقلت: آية[٥]؟ فأشارت، أي: نعم...» الحديث[٦].

قال ابن عبد البر ـ تعقيباً على هذا الحديث ـ: «وفيه أنّ النّساء يسبّحن إذا نابهنّ شيء في الصلاة، لقول عائشة حين سألتها أسماء: ما للنّاس؟ فقالت: سبحان الله، وأشارت بيدها ولم تصفّق. وفي هذا حجّة لمالك في قوله: إن النساء والرجال في هذا المعنى سواء، من

---

(١) كما يقال: «كفران العشير من فعل النساء». وانظر: شرح ابن القيم لسنن أبي داود: ٦/١٥٦.

(٢) التمهيد: ٢١/١٠٦.

(٣) هي أسماء بنت أبي بكر الصديق، زوج الزبير بن العوام، ووالدة عبد الله بن الزبير، من كبار الصحابة، أسلمت قديماً بمكة، وكانت تلقّب بذات النطاقين، وقد عاشت مائة فلم يسقط لها سنّ ولم ينكر لها عقل، وتوفيت سنة (٧٤هـ). انظر: الإصابة، لابن حجر: ٧/٤٨٦ ـ ٤٨٨.

(٤) خسفت الشمس، وخسف القمر: أي ذهب نورهما. والأكثر ـ في اللغة ـ استعمال (خسف) للقمر، و(كسف) للشمس، ومعناهما واحد. انظر: النهاية في غريب الحديث، لابن الأثير: ٢/٣١، والقاموس المحيط، للفيروزآبادي/ مادة (خسف): ١٠٣٩.

(٥) آية: أي علامة وعبرة، وجمعها آي وآيات. وآيات الله: عجائبه. انظر: لسان العرب، لابن منظور/ مادة (أيا): ١٤/٦٢ ـ ٦٣.

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ١/٢٨٨، برقم (١٨٤).

نابه شيء في صلاته سبّح، ولم يصفّق رجلاً كان أو امرأة» اهـ[١].

وما زعمه أصحاب هذا القول من أن قوله ﷺ: «**إنما التصفيق للنساء**» جاء على طريق الذمّ مردود، وهو وإن كان محتملاً في لفظ هذه الرواية التي ذكروها، فإنّه يتعذّر في الرواية التي جاءت بلفظ الأمر، حيث قال ﷺ: «**إذا نابكم أمر فليسبّح الرجال، وليصفح النساء**»[٢]. فلفظ هذه الرواية نصّ يدفع المعنى الذي ذهبوا إليه؛ لأنه ﷺ أمر النساء بالتصفيح ـ وهو التصفيق ـ إذا نابهنّ أمر في الصلاة، ولو كان التصفيق في حقهنّ مذموماً لما أذن لهنّ فيه[٣].

ولهذا صرّح بعض كبار علماء المالكية بضعف هذا القول وردّه[٤]. وقال ابن عبد البر ـ بعد ذكر الرواية التي فيها أمر النساء بالتصفيق ـ: «فهذا قاطع في موضع الخلاف يرفع الإشكال»[٥].

القول الثاني: أن المشروع في حقّ النساء ـ إذا طرأ عليهنّ أمرٌ في الصلاة ـ هو التصفيق، ولا يشرع لهنّ التسبيح في هذه الحالة.

وهذا قول جمهور العلماء من المتقدّمين والمتأخرين[٦].

---

(١) التمهيد: ٢٢/ ٢٤٧.

(٢) سبق تخريجه من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه. في ص٥٥٩.

(٣) انظر: شرح سنن أبي داود، للإمام ابن القيم ـ مع عون المعبود ـ: ٦/ ١٥٧ ـ ١٥٨، وفتح الباري، للحافظ ابن حجر: ٣/ ٧٧، وطرح التثريب في شرح التقريب، لزين الدين أبي الفضل العراقي: ٢/ ٢٤٥.

(٤) انظر: المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، لأبي العباس القرطبي: ٢/ ٥٦.

(٥) التمهيد: ٢١/ ١٠٧.

(٦) انظر: معالم السنن، للخطابي: ١/ ٢٠٠، والتمهيد، لابن عبد البر: ٢١/ ١٠٦، وبداية المجتهد، لابن رشد: ١/ ٤٦٠، والمغني، لابن قدامة: ٢/ ٤١٠ ـ ٤١٢، والمجموع شرح المهذب، للنووي: ٤/ ١٣، وشرح سنن أبي داود، لابن القيم: ٦/ ١٥٥ ـ ١٥٦.

وحجتهم في ذلك ما سبق إيراده من الأحاديث في هذا الباب، فإنّها صريحة في تخصيص التصفيق للنساء في الصلاة، إذا طرأ عليهنّ أمر.

وعلّل بعضهم اختصاص النساء بالتصفيق، ومنعهنّ من التسبيح في الصلاة، بأن صوت المرأة عورة، ولذلك أمرت بخفض صوتها مطلقاً، لما يخشى عليه من الافتتان[1].

ولهذه العلة نفسها مُنعت المرأة من الأذان، ومن الجهر بالإقامة والقراءة في الصلاة[2].

وقد صرّح أبو العباس القرطبي ـ وهو من المالكية ـ بأنّ هذا القول هو الصحيح نظراً وخبراً[3]، وهو كذلك.

القول الثالث: أن حكم المرأة إن نابها شيء في صلاتها أن تصفّق بيديها، فإن سبّحت فحسن.

وهذا قول ابن حزم، ونسبه أيضاً إلى الشافعي وداود[4]، وعلّل ذلك بقوله: «وإنما جاز التسبيح للنساء؛ لأنه ذكرٌ لله تعالى، والصلاة مكان لذكر الله ﷻ» اهـ[5].

---

(١) انظر: التمهيد: لابن عبد البر: ٢١/١٠٨، والمفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، لأبي العباس القرطبي: ٢/٥٦، وشرح سنن أبي داود، لابن القيم: ٦/١٦٥، وفتح الباري، للحافظ ابن حجر: ٣/٧٧.

(٢) انظر: إكمال المعلم بفوائد مسلم، للقاضي عياض: ٢/٣٣٢، والمفهم، لأبي العباس القرطبي: ٢/٥٦.

(٣) انظر: المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم: ٢/٥٦.

(٤) هو داود بن علي الأصبهاني ثم البغدادي، أبو سليمان، الفقيه المجتهد، إمام أهل الظاهر، توفي سنة (٢٧٠هـ)، رحمه الله. انظر: تذكرة الحفاظ، للذهبي: ٢/٥٧٢، والبداية والنهاية، لابن كثير: ١١/٥١.

(٥) انظر: المحلّى بالآثار، لابن حزم: ٢/٣٩٥ ـ ٣٩٦.

ولا شك أنّ مَن قال من العلماء بعدم جواز التسبيح للنساء في الصلاة لا ينازعون في كون التسبيح ذكراً لله تعالى، وإنما ينازعون في كونه مشروعاً للنساء عند ما ينوبهنّ شيء في الصلاة؛ لأن السنة وردت بالتفريق بينهن وبين الرجال في هذه الحالة، فشُرعتْ لهنّ التصفيق دون التسبيح، لحكمة في ذلك ـ كما تقدّم ذكره ـ، فلا سبيل إلى الخروج عن ظاهر السنة بمجرّد الرأي، وإن بدا لصاحبه أنه قويّ.

ولهذا ردّ الحافظ العراقي[(١)] على ابن حزم في مذهبه هذا، فقال: «وما قاله من أنّ تسبيحها حسن ليس بجيّد؛ لأن المراد هنا تسبيحها جهراً للتنبيه، لا تسبيحها في نفسها سرّاً، فإن ذلك حسن. فأمّا رفعها صوتها بالتسبيح لتنبيه الإمام أو غيره فليس بحسن،... والمرأة لا ترفع صوتها بما يُشرع لها الإتيان به من التكبير ونحوه، فكيف ترفع صوتها بما لم يُؤذن لها فيه؟!» اهـ[(٢)].

وابن حزم المنسوب إلى الظاهر ـ أي: الأخذ بظاهر النصوص ـ كان جديراً بموافقة الجمهور في القول بمنع النساء من التسبيح في الصلاة إذا نابهنّ شيء؛ لأن ذلك هو مقتضى ظاهر النصوص من السنة. وقد ذكر هو نفسه أنّه لا يُعرف من الصحابة ﷺ مخالف لمن قال: التّسبيح للرّجال، والتّصفيق للنّساء[(٣)].

---

(١) هو عبد الرحيم بن الحسين بن عبد الرحمن المهراني المولد، العراقي الأصل، الكردي، زين الدين، أبو الفضل، الشهير بالعراقي، كان محدّثاً حافظاً، انتهت إليه رياسة علم الحديث في وقته، وله مصنفات عديدة منها: الألفية في علم الحديث، والتقييد والإيضاح، وغير ذلك، وتوفي سنة (٨٠٦هـ)، رحمه الله.
انظر: إنباء الغمر بأنباء العمر، للحافظ ابن حجر العسقلاني: ٢/ ٢٧٥ ـ ٢٧٩، والضوء اللامع لأهل القرن التاسع، للسخاوي: ٤/ ١٧٥ ـ ١٧٧.

(٢) طرح التثريب في شرح التقريب: ٢/ ٢٤٧.

(٣) انظر: المحلّى بالآثار: ٢/ ٣٩٦.

القول الرابع: أن المرأة إن كانت تصلّي بحضرة رجال أجانب فالمشروع في حقّها - عند ما ينوبها شيء - هو التصفيق، ولا يجوز لها التسبيح. وإن كانت تصلّي بحضرة نساء أو رجال من محارمها، جاز لها التسبيح إذا نابها شيء في الصلاة.

وهذا قول بعض العلماء(١)، وقد احتجّوا من جهة الخبر بقول النبي ﷺ: «**إذا نابكم شيء في الصلاة فليسبح الرجال، ولْيُصفّق النساء**»(٢). قالوا: فظاهر الحديث أن هذا فيما إذا كانت المرأة مع الرجال، فوظيفة الرجال حينئذ التسبيح، ووظيفة النساء التصفيق(٣). فحملوا الأمر بالتصفيق على حالة صلاة النساء مع الرجال، وقالوا: هي الحالة الكائنة وقت ورود هذا الحديث(٤).

كما احتجّوا من جهة النظر بأن التسبيح ذكر مشروع جنسه في الصلاة، بخلاف التصفيق، فإنه فعل غير مشروع جنسه في الصلاة، ولجأت إليه المرأة فيما إذا كانت مع رجال؛ لأن ذلك أصون لها، وأبعد عن الفتنة(٥).

وهذا القول له حظّ من النظر، ولكن يُضعفه أن الأحاديث الواردة في هذا الباب دالة على أن التصفيق هو المشروع في حقّ النساء في كلّ حالة، فالقول بأن التصفيق مشروع لهنّ في حالة صلاتهنّ مع الرجال

---

(١) انظر: طرح التثريب في شرح التقريب: ٢/ ٢٤٧، والشرح الممتع على زاد المستقنع، للشيخ محمد بن صالح العثيمين، بعناية الدكتور سليمان أبا الخيل، والدكتور خالد المشيقح: ٣/ ٣٦٢.

(٢) سبق تخريجه من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه، في ص٥٥٩.

(٣) انظر: الشرح الممتع على زاد المستقنع: ٣/ ٣٦٢ ـ ٣٦٣.

(٤) انظر: طرح التثريب في شرح التقريب: ٢/ ٢٤٧.

(٥) انظر: المصدر السابق، نفس الموضع، والشرح الممتع على زاد المستقنع: ٣/ ٣٦٢.

فحسب تخصيص من غير دليل من الشرع[(١)].

ولهذا انفصل بعض من ذهب هذا المذهب، فقال: «ولسنا نريد بذلك أنها في هذه الحالة ـ حالة صلاتها بحضرة النساء أو المحارم ـ يكون المشروع لها التسبيح، وإنما نقول: «إنها لو نبّهتْ بالتسبيح لم يكره، وإن كان المشروع في حقّها والأفضل لها التصفيق» اهـ[(٢)].

وهذا أقرب إلى الصواب، ويقوّيه حديث أسماء ﵂ في قول عائشة أم المؤمنين ﵂: «سبحان الله» وهي في الصلاة تنبيهاً لأسماء أنها في الصلاة[(٣)].

فإن هذا الحديث يدلّ على أنّ المرأة يجوز لها التسبيح في الصلاة إذا طرأ عليها أمرٌ، ولم تكن بحضرة رجال أجانب يسمعون صوتها. ولقد كان هذا الحديث بعينه ممّا احتجّ به للإمام مالك في قوله: إنّ النساء يسبّحن في الصلاة كالرجال، ولا يصفّقن، كما سبق ذكره[(٤)]. ولا يخفى أن غاية ما في هذا الحديث بيان جواز التسبيح للنساء في الصلاة إذا نابهنّ شيء، أمّا منعهنّ من التصفيق فلا دلالة فيه على ذلك.

وابن حزم الذي قال: إن حكم المرأة ـ إن نابها شيء في صلاتها ـ أن تصفّق بيديها، فإن سبّحت فحسن[(٥)]، لو قيّد قوله: «فإن سبّحت فحسن» بحالة كونها مع نساء أو محارم، دون رجال أجانب، لكان أقرب إلى الصواب، ولكان حديث أسماء ﵂ مقوّياً له، كما سبق بيانه آنفاً.

---

(١) انظر: المصدرين السابقين/الأول: ٢/٢٤٧ ـ ٢٤٨، والثاني: ٣/٣٦٣.
(٢) طرح التثريب في شرح التقريب: ٢/٢٤٧.
(٣) سبق تخريجه في ص٥٦٢.
(٤) انظر: ص٥٦٢.
(٥) انظر: ص٥٦٤.

وبالجملة فإن المشروع في حقّ النساء إذا طرأ عليهنّ أمرٌ في الصلاة هو التصفيق، سواء كنّ مع رجال أو لا، ويجوز لهنّ التسبيح في هذه الحال إذا لم يكنّ بحضرة رجال أجانب. هذا ما دلّ عليه مجموع الأحاديث الواردة في هذا الباب، والله تعالى أعلم.

□ الأمور التي يُشرع من أجلها التسبيح في الصلاة:

والأحاديث الواردة في هذا الباب أيضاً ليس فيها تخصيص أمور لبيان مشروعية التسبيح عند حدوثها في الصلاة، سوى أحد حديثي أبي هريرة ﵁ الذي جاء فيه أن الرجل يسبّح إذا استؤذن عليه وهو في الصلاة(١). وسوى حديث المغيرة ﵁ الذي جاء فيه تسبيح المأمومين بالإمام إذا سها في الصلاة(٢).

وقد جاء النصّ عامّاً في حديث سهل بن سعد ﵁ بجميع رواياته، وذلك في قوله ﷺ: «**من رابه شيء في صلاته**». وفي لفظ: «**من نابه شيء في صلاته**». وفي لفظ آخر: «**إذا نابكم أمر**»(٣).

فإن هذه الألفاظ مفيدة للعموم؛ لأن (شيء) وكذلك (أمر) نكرة في سياق الشرط، وهي من ألفاظ العموم(٤)، فتعمّ أيّ شيء يكون، وكلّ أمر يقع، سواء كان هذا الشيء وذلك الأمر مما يتعلق بالصلاة، أو مما يتعلق بأمر خارج عنها(٥).

فمما يتعلق بالصلاة: أن يسهو الإمام في الصلاة، فيسبح به

---

(١) سبق لفظ الحديث وتخريجه في ص٥٥٩.
(٢) سبق لفظه وتخريجه في ص٥٦٠.
(٣) انظر: تخريج الحديث بألفاظه في ص٥٥٨ ـ ٥٥٩.
(٤) انظر: مذكرة أصول الفقه، للشيخ محمد الأمين الشنقيطي: ص٢٠٥ ـ ٢٠٦.
(٥) الشرح الممتع على زاد المستقنع، للشيخ محمد بن صالح العثيمين: ٣/ ٣٦١.

المأمومون، كما في حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.

ومما يتعلق بأمر خارج الصلاة: أن يستأذن شخص على المصلّي، فيسبّح، للإذن له بالدخول، أو لإعلامه أنه يصلّي، كما في أحد حديثي أبي هريرة رضي الله عنه.

وبهذا العموم المستفاد من أحاديث هذا الباب أخذ جمهور العلماء من السلف والخلف، فقالوا: إذا طرأ على المصلّي في صلاته ما يقتضي إفهام غيره بشيء، فإنه يشرع له التسبيح لذلك، مثل: أن يسهو إمامه فيسبّح به ليذكّره، أو يستأذن عليه إنسان، أو يكلمه فيسبح ليعلم أنه في صلاة، أو يخشى على إنسان الوقوع في شيء يضرّه فيسبّح به لينبّهه، أو يرى إنساناً يتلف شيئاً فيسبّح به ليتركه، أو غير هذه من أمثلة لا يمكن حصرها.

فهذه الأمور مما يشرع التسبيح من أجلها في الصلاة في قول جمهور العلماء[١]. وقال الإمام أبو حنيفة وبعض أصحابه: إذا سبّح المصلّي في صلاته مريداً بذلك جواباً، أو تنبيهاً لغير إمامه بأمر ما، بطلت صلاته؛ لأنه خطاب آدمي، فيدخل في عموم أحاديث النهي عن الكلام في الصلاة. وإذا سبّح المصلّي في صلاته مريداً بذلك تذكير إمامه، أو إعلام غيره بأنه في الصلاة، لم تبطل صلاته[٢].

فحملوا التسبيح المذكور في الأحاديث على ما كان القصد به تذكير الإمام، أو الإعلام بأنه في الصلاة.

---

(١) انظر: المغني، لابن قدامة: ٢/ ٤٥٤، وطرح التثريب في شرح التقريب، لزين الدين العراقي: ٢/ ٢٤٢ ـ ٢٤٣، ونيل الأوطار، للشوكاني: (٢/ ٣٢٨).

(٢) انظر: المبسوط، للسرخسي: ١/ ٢٠٠ ـ ٢٠١، والمغني، لابن قدامة: ٢/ ٤٥٤، وطرح التثريب: ٢/ ٢٤٢ ـ ٢٤٣.

وحمل هذا التسبيح على الأمرين المذكورين دون غيرهما تخصيص له بغير دليل يجب المصير إليه، بل إنّ الواقعة التي هي سبب ورود حديث سهل بن سعد رضي الله عنه لم يكن القصد فيها شيئاً من الأمرين اللذين ذكروهما، وإنما كان القصد فيها تنبيه أبا بكر الصديق رضي الله عنه على حضور رسول الله ﷺ، فأرشدهم ﷺ إلى أن المشروع في مثل هذه الواقعة وفي كلّ واقعة تنوب في الصلاة هو التسبيح للرجال، والتصفيق للنساء.

وليس في هذا الحديث ما يدع مجالاً لحمل التسبيح المذكور على ما كان القصد به تذكير الإمام أو الإعلام بأنه في الصلاة دون غيرهما من الأمور؛ لأن ذلك مخالف لما ورد به من العموم.

وأما قولهم: إن التسبيح في الصلاة لغير الأمرين اللذين ذكروهما يدخل في عموم أحاديث النهي عن الكلام في الصلاة، فالجواب عنه من ثلاثة أوجه:

أحدها: أنّه لو كان كما قالوا، لكان التسبيح للأمرين اللذين ذكروهما كذلك، إذ لا فرق بين التسبيحين في حقيقة الأمر[(١)].

والثاني: أن التسبيح ليس من الكلام الذي منع منه المصلّي في صلاته، بل هو مما أمر به في الصلاة، فكيف يُسوّى بين المأمور والمحظور؟![(٢)].

والثالث: أن الذي حرّم الكلام في الصلاة هو الذي شرع التسبيح المذكور في الصلاة، فلا تعارض بين سنن رسول الله ﷺ بوجه، بل لكل ممّا شرعه ومما حرّمه وجه ينبغي فهمه وامتثاله[(٣)].

---

(١) انظر: المغني، لابن قدامة: ٢/ ٤٥٤.
(٢) انظر: إعلام الموقعين، للإمام ابن قيم الجوزية: ٢/٤٠٦.
(٣) انظر: المصدر السابق، الموضع نفسه.

وبهذا يتبين أن الأمور التي شرع من أجلها التسبيح في الصلاة ليست منحصرة في أمر أو أمرين، بل هي عامة في كل ما يطرأ على المصلّي في صلاته فيحتاج بسببه إلى إفهام غيره بشيء، سواء كان ذلك الشيء متعلّقاً بصلاته، أو بخارج عنها، والله تعالى أعلم.

□ حكم التّسبيح في الصلاة لأمر طارىء على التّفصيل:

وإذا تبيّن أن التسبيح المشروع في الصلاة لأمر طارىء أسبابه متعددة، فإن حكمه يختلف تبعاً لتعدد أسبابه.

ولهذا ذكر بعض العلماء أن التسبيح ينقسم إلى ما هو واجب، وإلى ما هو مندوب، وإلى ما هو مباح، بحسب ما تقتضيه الحال، ويتطلّبه المقام[١].

فمن الصور التي يكون التسبيح فيها واجباً: أن يسهو الإمام في الصلاة فيترك ركناً أو واجباً، أو يأتي بفعل في غير موضعه. فإن تنبيهه في هذه الحالات واجب على المأمومين، فإن كانوا رجالاً سبّحوا به، وإن كانوا نساء صفّقن[٢].

ومنها: أن يشاهد ـ وهو يصلّي ـ أعمى يريد أن يقع في بئر، فإنه يجب أن يسبّح به وهو في الصلاة، إن كان يحصل بالتسبيح إنذاره وتنبيهه[٣].

ومن الصور التي يكون فيها التسبيح مندوباً: أن يكلّم المصلّي شخص في أمر، أو يسأله عن أمر، أو يناديه لأمر غير عالم بأنه يصلّي، فيسبّح لإعلامه بأنه في الصلاة.

---

(١) انظر: طرح التثريب في شرح التقريب: ٢/ ٢٤٥.
(٢) انظر: المغني، لابن قدامة: ٢/ ٤١٠.
(٣) انظر: طرح التثريب في شرح التقريب: ٢/ ٢٤٥.

ومن الصور التي يكون التسبيح فيها مباحاً: أن يكون في الصلاة فيستأذن عليه إنسان، فإنه يباح له أن يسبّح للإذن لمن استأذن، أو لإعلامه بأنه في الصلاة.

☐ صيغة التّسبيح في الصّلاة لأمر طارىء:

ويكون التسبيح في الصلاة لأمر طارىء في جميع الصّور بلفظ (سبحان الله) كما جاء ذلك صريحاً في حديث سهل بن سعد رضي الله عنه، في قول النبي ﷺ: «**من نابه شيء في صلاته، فليقل: سبحان الله**»[1].

ففي هذا دليل على أن هذه الصيغة هي المشروعة للمصلّي إذا نابه شيء في صلاته، فلا يقوم غيرها مقامها، ولا يحصل بغيرها المقصود، كما جاء تأكيد ذلك في حديث سهل أيضاً رضي الله عنه في قول النبي ﷺ: «**فإنه لا يسمعه أحد حين يقول: سبحان الله إلا التفت**»[2]. وهذا لأن التسبيح ـ بهذه الصيغة ـ قد صار شعاراً للأمر الطارىء في الصلاة، فإذا أتى به المصلّي عند قيام سببه، أفهم من بحضرته، وحصل به المقصود[3].

☐ حكم الجهر بهذا التسبيح وحكم تكراره:

والسنة في هذا التسبيح هي الجهر، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «**فإنه لا يسمعه أحد حين يقول: سبحان الله إلا التفت**». وذلك لأنه تسبيح مشروع للإفهام والتنبيه حين يطرأ أمر في الصلاة، وهذا المقصود لا يحصل بالتسبيح سرّاً. ولهذا صرّح العلماء بأن الرجل يسبّح إذا نابه شيء في صلاته، ويجهر بالتسبيح جهراً يسمعه من يريد

---

(١) سبق تخريجه في ص٥٥٨. (٢) سبق تخريجه في ص٥٥٩.

(٣) انظر: طرح التثريب في شرح التقريب: ٢/ ٢٤٨.

إفهامه أو تنبيهه[١].

ولما كان شأن هذا التسبيح هو الجهرَ لم يكن مشروعاً في حقّ النساء في صلاتهنّ، لا سيما إذا كنّ مع رجال أجانب، كما سبق بيانه.

وإذا سبّح المصلّي في صلاته لأمر طارىء، فحصل المقصود بالتسبيح مرة واحدة، لم يُعد التسبيح مرة أخرى؛ لأنه ذكر مشروع في الصلاة لسبب، فيزول بزوال السبب. فإن لم يحصل بالتسبيح مرة واحدة كرّره، فيسبّح ثانية وثالثة حتى يحصل المقصود[٢]، والله تعالى أعلم.

❑ المناسبة العقدية لهذا التسبيح:

وينبغي للمصلّي أن لا يغفل عن المناسبة العقدية لهذا التسبيح إذا أتى به لأمر نابه في صلاته، ويمكن إدراك هذه المناسبة العقدية من وجهين:

أولهما: أن الصلاة محلّ لذكر الله تعالى ومناجاته، ولذلك أُبعد عنها ما يَشغل العبدَ عن هذا المطلب العالي، فحرّم فيها كلام الناس ومخاطبتهم، كما قال رسول الله ﷺ: «**إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن**»[٣].

فلما دعت الحاجة إلى الكلام فيها لأمر طارىء، شرع لذلك ما هو من جنس ما شرع فيها من الذكر، وهو التسبيح، فإنه ذكر الله

---

(١) انظر: المجموع شرح المهذب، للنووي: ٤/ ١٣، وطرح التثريب في شرح التقريب: ٢/ ٢٤٧.

(٢) انظر: الشرح الممتع على زاد المستقنع، للشيخ محمد العثيمين: ٣/ ٣٦١.

(٣) سبق تخريجه في ص٤٠٠.

تعالى، مشروع في الصلاة في مواضع، وليس من جنس مخاطبات الناس[١].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «ومعلوم أن السكوت عن خطاب الآدميين واجبٌ في جميع الصلاة، فاقتضى ذلك الأمر بالقنوت[٢] في جميع الصلاة[٣]، ودلّ الأمر بالقنوت على السكوت عن مخاطبة الناس؛ لأن القنوت هو دوام الطاعة، فالمشتغل بمخاطبة العباد تارك للاشتغال بالصلاة التي هي عبادة الله وطاعته، فلا يكون مداوماً على طاعته، ولهذا قال النبي ﷺ ـ لما سُلِّم عليه ولم يردّ، بعد أن كان يردّ ـ: «**إن في الصلاة لشغلاً**»[٤]، فأخبر أن في الصلاة ما يشغل المصلّي عن مخاطبة الناس، وهذا هو القنوت فيها، وهو دوام الطاعة. ولهذا جاز ـ عند جمهور العلماء ـ تنبيه الناسي بما هو مشروع فيها، من القراءة، والتسبيح؛ لأن ذلك لا يشغله عنها، ولا ينافي القنوت فيها» اهـ[٥].

الوجه الثاني: أن الأمور التي يطرأ في الصلاة فيحتاج بسببها

---

(١) انظر: شرح صحيح مسلم، للنووي: ٥/٢١، وتوضيح الأحكام، للشيخ عبد الله البسام: ١/٥١٦.

(٢) القنوت: يرد بمعان متعددة، كالطاعة، والخشوع، والصلاة، والدعاء، والعبادة، والقيام، والسكوت، فيصرف في كل واحد من هذه المعاني إلى ما يحتمله لفظ النص الوارد فيه. انظر: النهاية في غريب الحديث، لابن الأثير: (٤/١١١).

(٣) كما قال الله تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾﴾ [البقرة: ٢٣٨].

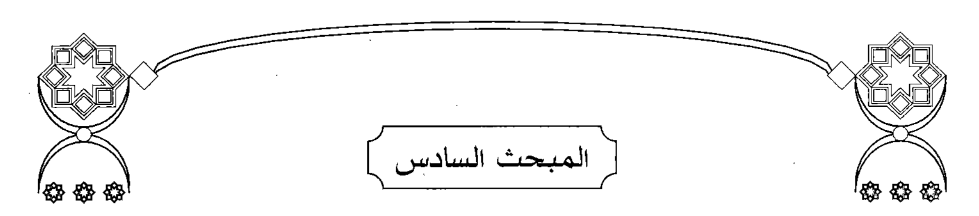
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ٣/٧٢، برقم (١١٩٩)، ومسلم في صحيحه: ١/٣٨٢، برقم (٥٣٨).

(٥) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٢٢/٥٤٨ ـ ٥٤٩.

المصلّي إلى إفهام غيره أو تنبيهه غالبها ناشىء عن السهو، والغفلة، والنسيان، وخفاء الأمور عن الإنسان، فناسب أن يأتي المصلّي في هذا المقام بلفظ التسبيح الذي يقتضي تنزْيه الله ﷻ عمّا هو جائز على البشر من هذه النقائص والعيوب[1]، فسبحان من لا يسهو ولا يغفل ولا ينسى، ولا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وهو بكل شيء عليم.

---

(١) طرح التثريب: ٢/٢٤٨.



المبحث السادس

التّسبيح في دُبُر الصّلاة

ومن المواضع التي جاء الشرع بالتسبيح فيها دُبُرُ الصلاة.

والدليل على ذلك قول الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ۝٤٠﴾ [ق: ٤٠].

فقد جاء في الأثر عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «أمره أن يسبّح في أدبار الصلوات كلها، يعني قوله: ﴿وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾»(١).

وقوله: «أمره أن يسبّح» يعنى: أمر الله تعالى نبيه ﷺ(٢).

وفي رواية أخرى عن ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية، قال: **«هو التسبيح بعد الصلاة»**(٣).

وفي رواية أيضاً عن مجاهد ـ في قوله: ﴿وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ ـ قال: «كان ابن عباس يقول: التسبيح في إثر الصلوات كلها»(٤).

وهذه الروايات تبيّن أن الآية دالة على الأمر بالتسبيح في دبر الصلاة. ولكن الآية ورد فيها قولان آخران غير ما سبق.

ـ فورد أن التسبيح الذي أمر الله نبيه أن يسبّحه أدبار السجود هو صلاة الركعتين بعد صلاة المغرب.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ٥٩٧/٨، برقم (٤٨٥٢).
(٢) انظر: فتح الباري، لابن حجر العسقلاني: ٥٩٨/٨.
(٣) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره: ٤٣٨/١١.
(٤) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره: ٤٣٨/١١.

وهذا القول مروي عن جماعة من الصحابة والتابعين[(١)]، وجاء مرفوعاً من حديث ابن عباس رضي الله عنهما[(٢)]، ولكنه لا يصحّ.

ـ وورد أن التسبيح أدبار السجود يعنى النوافل في أدبار المكتوبات[(٣)].

فتحصّل في التسبيح المأمور به في أدبار السجود ثلاثة أقوال للمفسّرين:

القول الأول: أنه التسبيح باللسان في أدبار الصلوات.

والقول الثاني: أنه الركعتان بعد صلاة المغرب.

والقول الثالث: أنه النوافل بعد المفروضات[(٤)].

وذهب إلى اختيار القول الأول عدد من العلماء، منهم الحافظ ابن العربي، حيث قال ـ بعد حكاية هذا القول ـ: «**وهو الأقوى في النظر**»[(٥)].

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ١١/ ٤٣٧، وتفسير البغوي: ٧/ ٣٦٤ ـ ٣٦٥، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٤/ ٢٤٦.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه: ٥/ ٣٦٦، برقم (٣٢٧٥)، والحاكم في المستدرك: ١/ ٣٦٥ ـ ٣٦٦، برقم (١١٩٨). قال الترمذي: «هذا حديث غريب، لا نعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه».

وقال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه». وتعقبه الذهبي فقال: «رشدين ضعّفه أبو زرعة والدارقطني». ورشدين هذا هو ابن كريب، أحد رجال الإسناد، وقد ضعفه الأئمة، كما في «تهذيب التهذيب»: ٣/ ٢٧٩ ـ ٢٨٠.

(٣) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره: ١١/ ٤٣٨، من قول ابن زيد.

(٤) انظر: النكت والعيون، للماوردي: ٥/ ٣٥٧، وزاد المسير، لابن الجوزي: ٨/ ٢٤، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ١٧/ ٢٦.

(٥) أحكام القرآن: ٤/ ١٦٢.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ في كتابه (الكلم الطيب) ـ: «فصل فيما يقال أدبار السجود»[(١)].

قال شارحه: «هذا فصل في بيان الأذكار التي في أدبار السجود، وهي جمع دُبُر، وهو آخر أوقات الشيء، والسجود يذكر ويراد به الصلاة، ويكون المعنى: التسبيحات التي في أدبار الصلاة، لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ۝٤٠﴾ [ق: ٤٠]»[(٢)].

وقال الإمام ابن قيم الجوزية ـ في كتابه (الوابل الصيب) ـ: «الفصل الثالث عشر في الأذكار المشروعة بعد السلام، وهو أدبار السجود»[(٣)].

وبهذا يكون التسبيح في دبر الصلاة مشروعاً بكتاب الله تعالى، في قوله ﷻ: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ۝٤٠﴾ [ق: ٤٠].

وقد جاءت السنة النبوية مؤيّدةً للتسبيح في دبر الصلاة، ومبيّنةً لصيغه وأعداده، وذلك كما يلي:

١ ـ التسبيح والتحميد والتكبير ثلاثاً وثلاثين مرة.

جاء ذلك في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: «جاء الفقراء إلى النبي ﷺ فقالوا: ذهب أهل الدثور[(٤)] من الأموال بالدرجات العلى والنعيم المقيم، يصلّون كما نصلّي، ويصومون كما نصوم، ولهم فضل من أموال يحجّون بها ويعتمرون، ويجاهدون ويتصدّقون. قال: «**ألا**

---

(١) الكلم الطيب ـ بشرحه العلم الهيب: ص٣١٤.

(٢) العلم الهيب في شرح الكلم الطيب، لبدر الدين العيني: ٣١٤.

(٣) الوابل الصيب من الكلم الطيب: ص١٥١.

(٤) الدثور ـ بضم الدال والثناء ـ: جمع دَثْر، وهو المال الكثير. انظر: شرح صحيح مسلم، للنووي: ٥/٩٢، والقاموس المحيط، للفيروزآبادي/ مادة (دثر): ص٥٠٠.

أحدّثكم بأمر إذا أخذتم به أدركتم من سبقكم، ولم يدرككم أحد بعدكم، وكنتم خير مَن أنتم بين ظهرانيه، إلا من عمل مثله: تسبّحون، وتحمدون، وتكبرون، خلف كل صلاة ثلاثين وثلاثين»»(١).

٢ ـ مثل ما سبق، مع زيادة: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير».

جاء ذلك في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ، قال: «**من سبّح الله في دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين، وحمد الله ثلاثاً وثلاثين، وكبّر الله ثلاثاً و ثلاثين، فتلك تسعة وتسعون. وقال: ـ تمام المائة ـ: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير. غفرت له خطاياه، وإن كانت مثل زبد البحر**»(٢).

وفي حديث آخر عن أبي هريرة رضي الله عنه: «أن أبا ذرّ قال: يا رسول الله، ذهب أصحاب الدثور بالأجور: يصلّون كما نصلّي، ويصومون كما نصوم، ولهم فضول أموال يتصدّقون بها، وليس لنا ما نتصدّق به. فقال رسول الله ﷺ: «**أفلا أدلك على كلمات إذا عملت بهنّ أدركت من سبقك، ولا يلحقك إلا من أخذ بمثل عملك؟**» قال: بلى، يا رسول الله، قال: «**تكبّر دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين، وتسبّح ثلاثاً وثلاثين، وتحمد ثلاثاً وثلاثين، وتختمها بلا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير**»»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ٢/ ٣٢٥، برقم (٨٤٣)، ومسلم في صحيحه: ١/٤١٦ ـ ٤١٧، برقم (٥٩٥).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه: ١/٣١٨، برقم (٥٩٧).

(٣) أخرجه أبو داود في سننه: ٢/١٧٢، برقم (١٥٠٤)، وأحمد في مسنده: ٢/ ٢٣٨، واللفظ له، وإسناده صحيح. وانظر: صحيح سنن أبي داود، للألباني: ١/٣١٢، برقم (١٥٠٤).

ـ وجاء مثل ذلك أيضاً في حديث أمّ الحكم، أو ضباعة ابنتي الزبير بن عبد المطلب[(١)] رضي الله عنهما قالت: «أصاب رسول الله ﷺ سبيا[(٢)]، فذهبت أنا وأختي وفاطمة بنت رسول الله ﷺ، فشكونا إليه ما نحن فيه، وسألناه أن يأمر لنا بشيء من السبي، فقال رسول الله ﷺ: **«سبقكنّ يتامى بدر، لكن سأدلكنّ على ما هو خير لكنّ من ذلك: تكبرين الله على إثر كلّ صلاة ثلاثاً وثلاثين تكبيرة، وثلاثاً وثلاثين تسبيحة، وثلاثاً وثلاثين تحميدة، ولا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير»»**[(٣)].

٣ ـ التسبيح ثلاثاً وثلاثين مرة، والتحميد ثلاثاً وثلاثين مرة، والتكبير أربعاً وثلاثين مرة.

جاء ذلك في حديث كعب بن عجرة[(٤)] رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ

---

(١) شكّ الراوي في أيتهما صاحبة الحديث، وهما ابنتا عمّ النبي ﷺ.
أما أمّ الحكم: فهي بنت الزبير بن عبد المطلب القرشية الهاشمية، ويقال لها أيضاً: أم حكيم، ويقال: اسمها صفيّة. وقيل: عاتكة، وهي صحابية، لم تذكر سنة وفاتها، رضي الله عنها. وانظر: الإصابة، لابن حجر: ٨/١٩١ ـ ١٩٢، وتقريب التهذيب، له: ٢/ ٥٣٣.
وأما ضباعة: فهي أيضاً بنت الزبير بن عبد المطلب القرشية الهاشمية، صحابية، كانت تحت المقداد بن الأسود رضي الله عنه، ولم تعرف سنة وفاتها، رضي الله عنه. وانظر: الإصابة، لابن حجر: ٨/ ٣ ـ ٤، وتقريب التهذيب، له: ٢/ ٥٢٦.

(٢) السّبْي: ما يُسبَى ـ أي: يُؤسر ـ في الجهاد، ويقال ذلك للنساء؛ لأنهن يسبين فيملكن. انظر: القاموس المحيط، للفيروزآبادي/ (سبي): ص١٦٦٨.

(٣) أخرجه أبو داود في سننه: ٣/ ٣٩٣، برقم (٢٩٨٧)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود: ٢/ ٢٤٦، برقم (٢٩٨٧).

(٤) هو كعب بن عجرة بن أميّة بن عديّ البلويّ. ويقال: ابن خالد بن عمرو بن زيد القضاعي، حليف الأنصار، أبو محمد، وأبو إسحاق، وأبو عبد الله، المدني، صحابي مشهور، شهد عمرة الحديبية، ونزلت فيه قصة الفدية =

قال: «**معقّبات**[1] **لا يخيب قائلهنّ، ـ أو فاعلهنّ ـ دبر كل صلاة مكتوبة: ثلاث وثلاثون تسبيحة، وثلاث وثلاثون تحميدة، وأربع وثلاثون تكبيرة**»[2].

وفي لفظ: «**يسبّح الله في دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين، ويحمده ثلاثاً وثلاثين، ويكبّره أربعاً وثلاثين**»[3].

وجاء مثله في حديث أبي ذرّ رضي الله عنه قال: «قلت: يا رسول الله، سبقنا أصحاب الأموال والدثور سبقاً بيّناً: يصلّون ويصومون كما نصلّي ونصوم، وعندهم أموال يتصدقون بها، وليست عندنا أموال. فقال رسول الله ﷺ: «**ألا أخبرك بعمل إن أخذت به أدركت من كان قبلك، وفتّ من يكون بعدك، إلا أحداً أخذ بمثل عملك؟ تسبّح خلاف كلّ**

= وقطعت يده في بعض المغازي، ثم سكن الكوفة، وتوفي سنة (٥٣هـ) أو قبلها، رضي الله عنه.
انظر: الإصابة، لابن حجر: ٥/٥٩٩ ـ ٦٠٠.

(١) في معنى هذه الكلمة أقوال:
١ ـ أي: تسبيحات تفعل أعقاب الصلاة.
٢ ـ سميت معقبات لأنها تفعل مرة بعد مرة.
٣ ـ اسم فاعل من التعقيب، أي: أذكار يعقب بعضها بعضاً، أو تعقب لصاحبها عاقبة حميدة.
٤ ـ أنها من التعقيب، وهو الجلوس بعد انقضاء الصلاة للدعاء ونحوه.
وهذه كلها معان محتملة، والله تعالى أعلم. انظر: شرح صحيح مسلم، للنوي: ٥/٩٥، وحاشية السندي ـ بهامش سنن النسائي ـ: ٣/٨٣، وتحفة الذاكرين، للشوكاني: ص١٨٠.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه: ١/٤١٨، برقم (٥٩٦).

(٣) أخرجه ـ بهذا اللفظ ـ الترمذي في سننه: ٥/٤٤٦، برقم (٣٤١٢)، والنسائي في سننه: ٣/٨٤ ـ ٨٥، برقم (١٣٤٨). وقال الترمذي: «هذا حديث حسن».

صلاة ثلاثاً وثلاثين، وتحمّد ثلاثاً وثلاثين، وتكبّر أربعاً وثلاثين»[(١)].

وجاء مثله أيضاً في حديث أبي الدرداء رضي الله عنه قال: «قلت: يا رسول الله، ذهب أهل الأموال بالدنيا والآخرة: يصلون كما نصلّي، ويذكرون كما نذكر، ويجاهدون كما نجاهد، ولا نجد ما نتصدّق به. قال: «**ألا أخبرك بشيء إذا أنت فعلته أدركت من كان قبلك، ولم يلحقك من كان بعدك، إلا من قال مثل ما قلت؟: تسبّح الله في دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين تسبيحة، وتحمده ثلاثاً وثلاثين تحميدة، وتكبّره أربعاً وثلاثين تكبيرة**»[(٢)].

٤ ـ التسبيح خمساً وعشرين مرة، والتحميد خمساً وعشرين مرة، والتكبير خمساً وعشرين مرة، والتهليل خمساً وعشرين مرة.

جاء ذلك في حديث زيد بن ثابت[(٣)] رضي الله عنه قال: «أُمرنا أن نسبّح دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين، ونحمد ثلاثاً وثلاثين، ونكبّر أربعاً

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده: ٥/١٥٨، وابن ماجه في سننه: ١/٢٩٩، برقم (٩٢٧)، واللفظ لأحمد، وفي لفظ ابن ماجه شكّ الراوي في أية هذه الكلمات تقال أربعاً وثلاثين.
والحديث صححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه: ١/٢٧٨ ـ ٢٧٩، برقم (٧٦٤).

(٢) أخرجه النسائي في عمل اليوم والليلة: ص٢٠٥ ـ ٢٠٧، برقم (١٤٧ ـ ١٥١) من عدة طرق، وأحمد في مسنده: ٥/١٩٦، و٦/٤٤٦، وهو صحيح بمجموع طرقه وشواهده.

(٣) هو زيد بن ثابت بن الضحاك بن لَوْذان الأنصاري الخزرجي، أبو سعيد، وأبو ثابت، وأبو خارجه، صحابي مشهور، استصغر يوم بدر، وكان أول مشاهده الخندق، وكتب الوحي للنبي ﷺ، وكان من علماء الصحابة، وهو الذي جمع القرآن في عهد أبي بكر الصديق، ومناقبه ومواقفه كثيرة، وتوفي سنة (٤٥هـ) على قول الأكثر، رضي الله عنه. انظر: الإصابة، لابن حجر: ٢/٥٩٢ ـ ٥٩٥، وتقريب التهذيب، له: ١/٢٦٦.

وثلاثين. قال: فرأى رجل من الأنصار في المنام، فقال: أمركم رسول الله أن تسبّحوا في دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين، وتحمدوا ثلاثاً وثلاثين، وتكبّروا أربعاً وثلاثين؟ قال: نعم، قال: فاجعلوها خمساً وعشرين، واجعلوا التهليل معهنّ. فلما أصبح أتى النبي ﷺ، فذكر ذلك له، فقال: «**اجعلوها كذلك**»[1].

وجاء مثله في حديث ابن عمر رضي الله عنهما: «أنّ رجلاً رأى فيما يراه النائم، قيل له: بأي شيء أمركم نبيّكم ﷺ؟ قال: أمرنا أن نسبّح ثلاثاً وثلاثين، ونحمد ثلاثاً وثلاثين، ونكبّر أربعاً وثلاثين، فتلك مائة. قال: سبّحوا خمساً وعشرين، واحمدوا خمساً وعشرين، وكبروا خمساً وعشرين، وهلّلوا خمساً وعشرين، فتلك مائة. فلما أصبح ذكر ذلك للنبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «**افعلوا كما قال الأنصاري**»»[2].

٥ ـ التسبيح عشر مرات، والتحميد عشر مرات، والتكبير عشر مرات.

جاء ذلك في أحاديث:

أحدها: حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: «قالوا: يا رسول الله، قد ذهب أهل الدثور بالدرجات والنعيم المقيم. قال: «**كيف ذلك؟**». قال: صلوا كما صلينا، وجاهدوا كما جاهدنا، وأنفقوا من فضول أموالهم، وليست لنا أموال. قال: «**أفلا أخبركم بأمر تدركون من كان قبلكم،**

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه: ٥/ ٤٤٧، برقم (٣٤١٣)، والنسائي في سننه: ٣/ ٨٥، برقم (١٣٤٩). وقال الترمذي: «هذا حديث صحيح»، وصححه الحاكم في المستدرك: ١/ ٣٨٣، برقم (٩٢٨)، ووافقه الذهبي، وكذا صححه الألباني في صحيح سنن الترمذي: ٣/ ٤٠٢، برقم (٣٤١٣).

(٢) أخرجه النسائي في سننه: ٣/ ٨٥، برقم (١٣٥٠)، وقال فيه الألباني: «حسن صحيح» [صحيح سنن النسائي: ١/ ٤٣٤، برقم (١٣٥٠)].

وتسبقون من جاء بعدكم، ولا يأتي أحد بمثل ما جئتم به إلا من جاء بمثله: تسبّحون في دبر كل صلاة عشراً، وتحمدون عشراً، وتكبّرون عشراً»[١].

والثاني: حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«خصلتان أو خلّتان لا يحصيهما[٢] رجل مسلم إلا دخل الجنة، وهما يسير، ومن يعمل بهما قليل: الصلوات الخمس يسبّح أحدكم في دبر كل صلاة عشراً، ويحمد عشراً، ويكبّر عشراً، فذلك خمسون ومائة باللسان[٣]، وألف وخمسمائة في الميزان[٤]»**. فلقد رأيت رسول الله ﷺ يعقدها بيده.

«وإذا أوى أحدكم إلى فراشه أو مضجعه سبّح ثلاثاً وثلاثين، وحمد ثلاثاً وثلاثين، وكبّر أربعاً وثلاثين، فذلك مائة باللسان، وألف في الميزان. فأيّكم يعمل في كلّ يوم وليلة ألفين وخمسمائة سيئة؟».

قالوا: يا رسول الله، وكيف لا نحصيها؟ قال: **«يأتي أحدكم الشيطان وهو في صلاته، فيقول: اذكر كذا، اذكر كذا، حتى ينتقل فلا يقولها. ويأتيه في مضجعه، فلا يزال ينوّمه حتى ينام قبل أن يقولها»**[٥].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ١١/ ١٣٢، برقم (٦٣٢٩).

(٢) لا يحصيهما، أي: لا يحافظ عليهما، كما في الرواية الأخرى المذكورة بعده.

(٣) يعنى: إذا أتى بالعشرات الثلاث في دبر كل صلاة من الصلوات الخمس يكون مجموع ذلك: مائة وخمسين باللسان؛ لأن الثلاثين في الخمسة مائة وخمسون.

(٤) باعتبار أن لكل واحدة من الكلمات الثلاث عشراً من الحسنات، والمائة والخمسون في العشر: ألف وخمسمائة.

(٥) أخرجه أبو داود في سننه: ٥/ ٣٠٩، برقم (٥٠٦٥)، والترمذي في سننه: ٥/ ٤٤٥، برقم (٣٤١٠)، والنسائي في سننه: ٣/ ٨٣ ـ ٨٤، برقم (١٣٤٧)، =

وفي رواية: «**خلتان من حافظ عليهما أدخلتاه الجنة، وهما يسير، ومن يعمل بهما قليل**». قالوا: وما هما ـ يا رسول الله ـ ؟ قال: «**أن تحمد الله، وتكبره، وتسبحه، في دبر كل صلاة مكتوبة عشراً عشراً، وإذا أويت إلى مضجعك تسبح الله، وتكبره، وتحمده، مئة مرة، فتلك خمسون ومئتان باللسان، وألفان وخمسمائة في الميزان، فأيكم يعمل في اليوم والليلة ألفين وخمسمائة سيّئة؟**» قالوا: كيف من يعمل بهما قليل؟ قال: «**يجيء أحدكم الشيطان في صلاته، فيذكّره حاجة كذا وكذا، فلا يقولها. ويأتيه عند منامه، فينوّمه، فلا يقولها**». قال: ورأيت رسول الله ﷺ يعقدهنّ بيده»[1].

والثالث: حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما يمنع أحدكم أن يسبّح دبر كل صلاة عشراً، ويكبّر عشراً، ويحمد عشراً، فذلك في خمس صلوات خمسون ومائة باللسان، وألف وخمسمائة في الميزان**»[2].

والرّابع: حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «أنّه وزوجه فاطمة رضي الله عنها سألا رسول الله ﷺ أن يخدمهما من السبي، فقال رسول الله ﷺ: «**ألا أخبركما بخير مما سألتماني؟**» قالا: بلى. فقال: «**كلمات علّمنيهنّ جبريل، فقال: تسبحان في دبر كل صلاة عشراً، وتحمدان عشراً، وتكبران عشراً. وإذا أويتما إلى فراشكما فسبّحا ثلاثاً وثلاثين، واحمدا**

= وابن ماجه في سننه: ١/ ٢٩٩، برقم (٩٢٦). وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود: ٣/ ٢٤٥، برقم (٥٠٦٥)، وفي صحيح سنن الترمذي: ٣/ ٤٠٠ ـ ٤٠١، برقم (٣٤١٠)، وفي صحيح سنن النسائي: ١/ ٤٣٣، برقم (١٣٤٧).

(١) أخرجه أحمد في مسنده: ٢/ ١٦٠ ـ ١٦١، وإسناده حسن لغيره.

(٢) أخرجه النسائي في عمل اليوم والليلة: ص٢٠٨، برقم (١٥٣)، والطبراني في كتاب الدعاء: ٢/ ١١٣١، برقم (٧٢٤).

ثلاثاً وثلاثين، وكبّرا أربعاً وثلاثين». قال علي رضي الله عنه: فوالله ما تركتهنّ منذ علّمنيهنّ رسول الله ﷺ»[(١)].

والخامس: حديث أنس رضي الله عنه قال: «جاءت أمّ سليم[(٢)] إلى النبي ﷺ، فقالت: علّمني كلمات أدعو بهنّ في صلاتي. قال: **«سبّحي الله عشراً، واحمديه عشراً، وكبّريه عشراً، ثم سليه حاجتك يقل: نعم نعم»**[(٣)].

وفي رواية: «أتى رسول الله ﷺ أمّ سليم في بيتها، فصلّى تطوّعاً، ثم قال: **«يا أمّ سليم، إذا صلّيت المكتوبة فقولي: سبحان الله، عشراً، والحمد لله، عشراً، والله أكبر، عشراً. ثم سلي ما شئت، فإنه يقال لك: نعم نعم»**»[(٤)].

٦ ـ التسبيح إحدى عشرة مرة، والتحميد إحدى عشرة مرة، والتكبير إحدى عشرة مرة.

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده: ١/ ١٠٦ ـ ١٠٧، بإسناد حسن.

(٢) هي أمّ سليم بنت ملحان بن خالد بن زيد بن حرام الأنصارية، والدة أنس بن مالك، اشتهرت بكنيتها، واختلف في اسمها، فقيل: سهلة، أو رميلة، أو رميثة، أو مليكة. وقيل غير ذلك. صحابية أسلمت مع السابقين إلى الإسلام من الأنصار، وكانت من الصحابيات الفاضلات، توفيت في خلافة عثمان، رضي الله عنها.
انظر: الإصابة، لابن حجر: ٨/ ٢٢٧ ـ ٢٢٩، وتقريب التهذيب، له: ٢/ ٥٣٤.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه: ٢/ ٣٤٧، برقم (٤٨١)، والنسائي في سننه: ٣/ ٥٩، برقم (١٢٩٨). وقال الترمذي: «حديث حسن غريب»، وصححه الحاكم في المستدرك: ١/ ٣٨٥ ـ ٣٨٦، برقم (٩٣٧)، ووافقه الذهبي، وحسّنه الألباني في صحيح سنن الترمذي: ١/ ٢٧١، برقم (٤٨١)، وفي صحيح سنن النسائي: ١/ ٤١٦، برقم (١٢٩٨).

(٤) أخرجه الطبراني في كتاب الدعاء: ٢/ ١٣٣٢، برقم (٧٢٥).

جاء ذلك في قول سهيل بن أبي صالح[(١)] فسّر به قول رسول الله ﷺ ـ للفقراء ـ: «**تسبّحون، وتحمدون، وتكبّرون، خلف كل صلاة ثلاثاً وثلاثين**»[(٢)]، فإن هذا الحديث زيد فيه ـ في بعض الروايات ـ: «يقول سهيل: إحدى عشرة، إحدى عشرة، فجميع ذلك كلّه ثلاثة وثلاثون»[(٣)].

والظاهر أنّ هذا من تصرّف سهيل نفسه، وليس جزءاً من الحديث.

وقد نبّه على ذلك الحافظان: ابن قيم الجوزية، وابن حجر العسقلاني؛ لأن سهيلاً حمل الحديث على أنّ العدد المذكور مقسوم على الأذكار الثلاثة، فروى الحديث بلفظ: (إحدى عشرة)، وإنما المراد بالحديث أن يكون العدد المذكور لكلّ واحد من الأذكار الثلاثة[(٤)]، كما جاء بيان ذلك في بعض روايات الحديث[(٥)].

ويقوّي كون رواية (إحدى عشرة) من تصرف سهيل أمران:

أحدهما: أنه لم يرد في شيء من طرق الحديث كلّها التصريح بإحدى عشرة، إلا من طريق سهيل بن أبي صالح، ولم يتابع على ذلك[(٦)].

---

(١) هو سهيل بن أبي صالح ذكوان السّمّان، أبو يزيد المدنيّ، صدوق تغيّر حفظه في آخر عمره، وتوفي في خلافة أبي جعفر المنصور، رحمه الله. انظر: تهذيب التهذيب، لابن حجر العسقلاني: ٤/ ٢٦٣ ـ ٢٦٤، وتقريب التهذيب، له: ١/ ٣٢٥ ـ ٣٢٦.

(٢) سبق من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، في رقم (١) من التسلسل.

(٣) هذه الرواية عند مسلم في صحيحه: ١/ ٤١٧، برقم (٥٩٥).

(٤) انظر: زاد المعاد، لابن القيم: ٢/ ٣٠٠، وفتح الباري، لابن حجر: ٢/ ٣٢٨، و١١/ ١٣٤.

(٥) انظر: صحيح البخاري ـ مع الفتح ـ: ٢/ ٣٢٥، حديث رقم (٨٤٣)، وصحيح مسلم: ١/ ٤١٧، حديث رقم (٥٩٥).

(٦) انظر: فتح الباري، لابن حجر العسقلاني: ٢/ ٣٢٨.

والآخر: أن الذكر (إحدى عشرة مرة) لا نظير له في شيء من الأذكار النبوية الثابتة عنه[١].

ومع هذا كلّه، فقد اعتبر بعض العلماء التسبيح إحدى عشرة مرة، والتحميد كذلك، والتكبير كذلك، وجهاً من أوجه التسبيح في دبر الصلاة، بناء على هذه الرواية[٢]، والعلم عند الله تعالى.

٧ ـ (سبحان الملك القدّوس) ثلاث مرات، في دبر صلاة الوتر.

جاء ذلك في حديث أبيّ بن كعب رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ إذا سلّم في الوتر قال: «**سبحان الملك القدّوس**»»[٣].

وفي رواية: «كان رسول الله ﷺ يقرأ في الوتر بـ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ و﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝١﴾ و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾، فإذا سلّم قال: «**سبحان الملك القدّوس**» ثلاث مرات»[٤].

وفي رواية أخرى: «ثلاث مرات، يطيل في آخرهنّ»[٥].

وجاء ذلك أيضاً في حديث عبد الرحمن بن أبزى[٦] رضي الله عنه: «أنّ

---

(١) انظر: زاد المعاد، لابن قيم الجوزية: ٢/ ٣٠٠، ٣٠٢.

(٢) انظر: شرح صحيح مسلم، للنووي: ٥/ ٩٤، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٢٢/ ٤٩٤، ٥١٦.

(٣) سبق تخريجه، ص١١٦.

(٤) أخرجه النسائي في سننه: ٣/ ٢٧٠ ـ ٢٧١، برقم (١٧٢٨)، وصحّحه الألباني في صحيح سنن النسائي: ١/ ٥٥٥، برقم (١٧٢٨).

(٥) أخرجه النسائي في سننه: ٣/ ٢٦١، برقم (١٦٩٨)، وصحّحه الألباني في صحيح سنن النسائي: ١/ ٥٤٧ ـ ٥٤٨، برقم (١٦٩٨).

(٦) هو عبد الرحمن بن أبزى ـ بفتح الهمزة وسكون الباء الموحدة وبعدها زاي، مقصورا ـ الخزاعي مولاهم، صحابي صغير، وكان في عهد عمر رجلاً، وكان قارئاً فقيها عالماً بالفرائض، وسكن الكوفة، وكان على خراسان لعليّ، =

رسول الله ﷺ كان يوتر بـ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ و﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾ و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾، وكان يقول ـ إذا سلّم ـ: «**سبحان الملك القدوس**» ثلاثاً، ويرفع صوته بالثالثة»[1].

وفي رواية: «ويمدّ في الثالثة»[2].

فهذه أهم الأحاديث الواردة في السنة النبوية لبيان التسبيح في دبر الصلاة.

وتتبين من خلال هذه الأحاديث مسائل تتعلق بهذا الباب، وهي:

المسألة الأولى: أن التسبيح في دبر الصلاة يكون مقروناً بالتحميد والتكبير أحياناً، ويضاف التهليل مع هذه الثلاثة أحياناً.

وأن الصيغة اللفظية لهذه الأذكار هي: (سبحان الله) و(الحمد لله) و(الله أكبر). وأما التهليل فيكون بصيغة: (لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير).

ويكون التسبيح بصيغة: (سبحان الملك القدوس) في دبر صلاة الوتر خاصّة.

المسألة الثانية: أن الإتيان بالتسبيح في دبر الصلاة يكون على كيفيّات تؤخذ من الأحاديث السابقة، وهي كما يلي:

الكيفية الأولى: أن يأتي المسلم بالتسبيح والتحميد والتكبير

= ولم تذكر سنة وفاته، رضي الله عنه.

انظر: الإصابة، لابن حجر: ٤/ ٢٨٢ ـ ٢٨٣، وتقريب التهذيب، له: ١/ ٤٤٠.

(١) أخرجه النسائي في سننه: ٣/ ٢٧١ ـ ٢٧٢، برقم (١٧٣١)، وصحّحه الألباني في صحيح سنن النسائي: ١/ ٥٥٦، برقم (١٧٣١).

(٢) أخرجه النسائي في سننه: ٣/ ٢٧٤، برقم (١٧٤٠)، وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي: ١/ ٥٥٨، برقم (١٧٤٠).

مجموعة، ثلاثاً وثلاثين مرة، فيقول: (سبحان الله، والحمد لله، والله أكبر) حتى يبلغ من جميعهنّ العدد المذكور.

الكيفية الثانية: أن يأتي بالتسبيح (سبحان الله)، ثلاثاً وثلاثين مرة، والتحميد (الحمد لله)، ثلاثاً وثلاثين مرة، والتكبير (الله أكبر)، ثلاثاً وثلاثين مرة.

قال الحافظ ابن حجر: «والذي يظهر أن كلاًّ من الأمرين حسن، إلا أنّ الإفراد يتميّز بأمر آخر، وهو أنّ الذاكر يحتاج إلى العدد، وله على كل حركة لذلك ـ سواء بأصابعه أو بغيرها[(١)] ـ ثواب لا يحصل لصاحب الجمع إلا الثلث» اهـ[(٢)].

وهذا منه ترجيح للكيفية الثانية على الكيفية الأولى، من جهة أن الكيفية الثانية تكثر فيها حركة الأصابع، فيكون للذاكر ثواب على كلّ حركة، والله أعلم.

الكيفية الثالثة: أن يأتي المسلم بالتهليل ـ مرة واحدة ـ مع إحدى الكيفيّتين السابقتين، ليصير العدد مائة.

الكيفية الرابعة: أن يأتي بالتسبيح، ثلاثاً وثلاثين مرة، والتحميد، ثلاثاً وثلاثين مرة، ويأتي بالتكبير، أربعاً وثلاثين مرة، فيكون العدد مائة.

وهذه الكيفية تستدعى الإتيان بهذه الألفاظ على الإفراد، نظراً لتفاوت العدد، وبذلك جاءت الأحاديث.

الكيفية الخامسة: أن يأتي بالتسبيح خمساً وعشرين مرة، والتحميد، خمساً وعشرين مرة، والتكبير خمساً وعشرين مرة، والتهليل، خمساً وعشرين مرة، وجميع ذلك مائة مرة.

---

(١) قوله: (أو بغيرها) إشارة إلى جواز عدّ التسبيحات بغير الأصابع، وسيأتي الكلام فيه قريباً في المسألة الخامسة.

(٢) فتح الباري: ٢/ ٣٢٩.

الكيفية السادسة: أن يأتي بالتسبيح، عشر مرات، والتحميد، عشر مرات، والتكبير، عشر مرات، وجميع ذلك ثلاثون مرة.

الكيفية السابعة: أن يأتي المسلم بالتسبيح بلفظ (سبحان الملك القدوس)، ثلاث مرات، ويمدّ صوته بالتسبيح في المرة الثالثة.

وهذه الكيفية الأخيرة تختصّ بدبر صلاة الوتر. والكيفيات الستّ قبلها تختصّ بأدبار الصلوات الخمس.

وهذا الاختلاف في كيفية التسبيح في دبر الصلاة هو من اختلاف التنوّع، جمع بينه الإمام البغوي باحتمال أن يكون ذلك صدر من النبي ﷺ في أوقات متعددة، أو أن يكون ذلك على سبيل التخيير، أو يفترق بافتراق الأحوال[1]، وكل هذه الاحتمالات ظاهرة.

وقد تقدّم ـ في مبحث التسبيح في افتتاح الصلاة ـ أن العبادة الواردة في السنة على أنواع مختلفة يشرع فعلها على تلك الأنواع، ولا يكره منها شيء. وأن مقتضى الاتباع أن يأتي المسلم بنوع تارة، وبنوع آخر تارة أخرى[2].

وفي هذا التنوع فوائد ـ أشار إليها بعض العلماء[3] ـ منها: إحياء السنن والحفاظ عليها حتى لا تكون مهجورة، واستحضار الذاكر ما يقوله بالقلب، فإن العبد إذا لازم نوعاً واحداً من الذكر أو العبادة، صار يأتي به على العادة، بدون استحضار، إلا من رحم الله.

المسألة الثالثة: أنّ السنة أن يتقيّد المسلم بالصيغ اللفظية الواردة

---

(١) انظر: شرح السنة، للبغوي: ٣/ ٢٣٠، و٥/٤٦، وفتح الباري، لابن حجر العسقلاني: ٢/ ٣٢٩.

(٢) انظر: ص٥٢١ من البحث.

(٣) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٢٤/ ٢٤٧ ـ ٢٥٢، والشرح الممتع على زاد المستقنع، للشيخ ابن عثيمين: ٣/ ٣٧ ـ ٣٨، ٣٠٩.

للتسبيح والتحميد والتكبير والتهليل في هذا الموضع؛ لأن العبادات توقيفية.

وبالنسبة للترتيب بين هذه الألفاظ في الذكر، لا يظهر أن فيه توقيفاً، بل الأحاديث جاءت ـ أحياناً ـ بالتقديم والتأخير فيها.

قال الحافظ ابن حجر: «وهذا الاختلاف دالّ على أن لا ترتيب فيها، ويستأنس لذلك بقوله ـ في حديث الباقيات الصالحات ـ: **«لا يضرّك بأيهنّ بدأت»**[(١)]» اهـ[(٢)].

لكن وقع في أكثر الأحاديث تقديم التسبيح على التحميد، وتأخير التكبير عنهما[(٣)]، وكذا التهليل وقع مؤخراً ـ بعد هذه الألفاظ الثلاثة ـ في جميع الأحاديث التي تيسّر لي الوقوف عليها في هذا الباب.

ولهذا كان الأولى ـ في هذا الموضع ـ: البدء بالتسبيح، فالتحميد، ثم التكبير، فالتهليل[(٤)].

وهذا الترتيب في غاية المناسبة؛ لأن النّظم الطّبيعيّ يقتضي تقديم التخلية على التحلية، فقدّم التسبيح الدالّ على التخلّي، على التحميد الدالّ على التحلّي. ثم إذا وصف العبد ربّه تعالى بالنزاهة عن النقص والعيب التي هي مدلول قوله: (سبحان الله)، ووصفه بالكمالات التي هي مدلول قوله: (الحمد لله)، جاءت صفات التكبير والتعظيم المستحقة لمن تنزّه عن النقائص والعيوب، واتّصف بالكمالات والمحامد، فيصفه العبد باللفظ الدالّ على ذلك، وهو (الله أكبر). ثم يختم بالتهليل الدالّ على

---

(١) وردت هذه العبارة في عدة أحاديث، سبق ذكرها عند بيان الفضل المشترك للتسبيح في ص٤٤٨ ـ ٤٥٠.

(٢) فتح الباري: ٢/ ٣٢٨.

(٣) انظر: المصدر السابق، الموضع نفسه.

(٤) انظر: المصدر والموضع نفسه.

انفراده بالألوهية، لانفراده بجميع الكمال المقدّس عن جميع النقص[١].

المسألة الرابعة: أن السنة أن يتقيّد المسلم أيضاً بالأعداد الواردة للتسبيح والتحميد والتكبير والتهليل في دبر الصلاة ـ بحسب الكيفيات التي سبق بيانها ـ، فلا يزيد عليها، ولا ينقص منها؛ لأن مراعاة العدد المخصوص في الأذكار معتبرة، وقد كان بعض العلماء يقول: إن الأعداد الواردة كالذكر عقب الصلوات، إذا رتّب عليها ثواب مخصوص، فزاد الآتي بها على العدد المذكور لا يحصل له ذلك الثواب المخصوص، لاحتمال أن يكون لتلك الأعداد حكمة وخاصيّة تفوت بمجاوزة ذلك العدد[٢].

ومثّله بعض العلماء بأنه كدواء زيد على قانونه، أو مفتاح زيد على أسنانه[٣]، فإنه لا ينتفع به.

وقال الحافظ ابن حجر: «يؤيّد ذلك أن الأذكار المتغايرة إذا ورد لكلّ منها عدد مخصوص مع طلب الإتيان بجميعها متوالية لم تحسن الزيادة على العدد المخصوص، لما في ذلك من قطع الموالاة، لاحتمال أن يكون للموالاة في ذلك حكمة خاصة تفوت بفواتها» اهـ[٤].

ولهذا لا يحسن ـ مثلاً ـ أن يأتي العبد في دبر صلاته بثلاث وثلاثين تسبيحة، ومثلها تحميدات، وأربع وثلاثين تكبيرة، ويقول معها: (لا إله إلا الله وحده لا شريك له... إلخ)، خلافاً لما ذهب إليه

---

(١) انظر: المصدر السابق: ٣٢٨/٢، و١٣/٥٤١، وتوضيح الأحكام من بلوغ المرام، للشيخ عبد الله بن عبد الرحمن البسام: ٢/١٢٨.

(٢) انظر: فتح الباري، للحافظ ابن حجر: ٢/٣٣٠.

(٣) انظر: حاشية ردّ المحتار على الدر المختار، لابن عابدين: ١/٥٣١.

(٤) فتح الباري: ٢/٣٣٠.

الإمام النووي من استحسان ذلك احتياطاً وجمعاً بين الروايات[١].

وقد تعقبه غيره في ذلك، فقال: «بل يجمع بأن يختم مرة بزيادة تكبيرة، ومرة بلا إله إلا الله، على وفق ما وردت به الأحاديث» اهـ[٢].

المسألة الخامسة: أنّ عقد التسبيح بالأنامل (عدّه بأصابع اليد) ـ في دبر الصلاة ـ هو السنة، كما أنّه هو السنة في جميع الأذكار المشروعة بالأعداد المخصوصة؛ لأن ذلك هو الثابت عن رسول الله ﷺ فعلاً وقولاً.

أما فعلاً، فلحديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: «رأيت رسول الله ﷺ يعقد التّسبيح بيده»[٣].

وفي رواية أخرى: «ولقد رأيت رسول الله ﷺ يعدّ هكذا، وعدّ بأصابعه»[٤].

وأما قولاً فلحديث يسيرة رضي الله عنها قالت: «قال لنا رسول الله ﷺ: **«عليكنّ بالتسبيح والتهليل والتقديس، واعقدن بالأنامل، فإنهنّ مسؤولات ومستنطقات»**»[٥].

وفي هذا الحديث كذلك إشارة إلى العلة في عقد التسبيح وغيره من الأذكار بالأنامل، وهي أنهنّ مسؤولات ومستنطقات، يعني يوم القيامة، فمن عقد بهنّ التسبيح والذكر كنّ له شواهد في ذلك اليوم، فعُلم ـ بهذا ـ أن عقد التسبيح بالأنامل أمر مقصود في الشرع، ليكون

---

(١) انظر: شرح صحيح مسلم، للنووي: ٥/ ٩٤.
(٢) ذكره الحافظ ابن حجر في فتح الباري: ٢/ ٣٢٩.
(٣) سبق تخريجه في ص٩٨.
(٤) أخرجه عبد الرزاق الصنعاني في مصنفه: ٢/ ٢٢٣. وانظر: ما سبق أيضاً في حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما في ص٥٨٤ ـ ٥٨٥.
(٥) سبق تخريجه، في ص٢٠٨.

العبد متعبّداً لله تعالى بلسانه بالنطق بلفظ التسبيح، وبأنامله بضبط العدد المطلوب في التسبيح.

فعلى العبد المسلم أن يحرص على الإتيان بهذه السنة في التسبيح في دبر كل صلاة، اقتداءً برسول الله ﷺ، وامتثالاً لأمره الحكيم.

وأما ما اعتاده بعض المسلمين من عدّ التسبيح وغيره من الأذكار بما يعرف باسم (السّبْحة) أو (المِسْبحة) أو (التسبيح)(١)، فإنه عدول عن السنة، واستبدال للذي هو أدنى بالذي هو خير. ولو لم تكن في السّبحة إلا أنها قضت على سنة العدّ بالأصابع أو كادت لكفى(٢)، بل وصل الأمر ببعض المسلمين إلى اعتقاد أنها من شعائر الإسلام، مع أنها ليس لها أصل في كتاب الله تعالى، ولا في سنة رسوله ﷺ(٣).

فحقيق بالمسلم أن يجتنب التسبيح بالوسائل المحدثة، وأن يسبّح الله سبحانه بأنامله، كما أرشد إليه رسول الله ﷺ.

❏ المناسبة العقديّة للتسبيح في دبر الصّلاة:

وإذا عُلمت الصورة القولية والعملية للتسبيح في دبر الصلاة، فينبغي أن يعلم أن لهذا التسبيح مناسبةً اعتبارية في العقيدة الإسلامية تتبيّن بأمور ثلاثة:

---

(١) السبحة والمسبحة والتسبيح: أسماء لخرزات أو حبات منظومة في خيط يعدّ بها المسبّح تسبيحه، وهي أسماء مولّدة، وليست من اللغة في شيء، ولا تعرفها العرب. وانظر: تهذيب اللغة، للأزهري: ٤/ ٣٤١، والمصباح المنير، للفيومي: ص٢٦٣، وتاج العروس، للزبيدي: ٦/ ٤٤٨ ـ ٤٤٩.

(٢) انظر: سلسلة الأحاديث الضعيفة، للألباني: ١/ ١٩٢، تحت حديث رقم (٨٣).

(٣) انظر كلاماً مفصّلاً في موضوع السبحة في رسالة: «السبحة/ تاريخها وحكمها»، للشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد. وفي كتاب: «دفاعاً عن السلفية»، للشيخ عمرو عبد المنعم سليم: ص٢١٧ ـ ٢٢٨.

أحدها: أن دبر الصلاة هو وقت انصراف المصلّي إلى الناس من مناجاة الله تعالى، فشرع فيه التسبيح مقروناً بالتحميد والتكبير والتهليل، ليصل العبد مناجاته مع ربّه بالذكر والثناء على الله بما هو أهله، ولتنزل عليه الرحمة، وهو ذاكر لربّه سبحانه، وليكون العبد في حال انصرافه إلى الناس مستحضرا كمال ربه ﷻ، وعظمته ونزاهته من كل نقص وعيب، ومن كل مثيل وشريك، فيظلّ موحّداً له، ذاكراً إياه سائر وقته(١).

والثاني: أن الصلاة ـ بما اشتملت عليه من مظاهر العبودية القولية والعملية والاعتقادية ـ نور تزكو به النفس وتطهُر مما يكون قد دنّسها من الغفلة والخطايا، والتسبيح والذكر في دبر الصلاة بمثابة مسح المرآة بعد صقالها، كما جاء في الأثر عن عائشة ﵂ في الذكر بعد الانصراف من الصلاة، قالت: «هو مثل مسح المرآة بعد صقالها، فإن الصلاة نور، فهي تصقل القلب كما تصقل المرآة، ثم الذكر بعد ذلك بمنزلة مسح المرآة» اهـ(٢).

والثالث: أن التسبيح مشروع في افتتاح الصلاة، كما سبق الكلام فيه، فشرع أيضاً في دبرها، كما شرع في أثنائها أيضاً، ليُعلم أن ذكر الله تعالى بتوحيده وتنزيهه وتمجيده هو مقصود الصلاة أوّلاً وآخراً، كما أنه مقصود الدين أوّلاً وآخراً.

وهذا من الفواتح والخواتم التي أوتيها نبينا ﷺ، فإنه أوتي فواتح الكلم وجوامعه وخواتمه، صلّى الله عليه وعلى آله وسلّم تسليماً، والحمد لله ربّ العالمين(٣).

---

(١) انظر: الإفصاح عن معاني الصحاح، لابن هبيرة: ٣/ ١٣٢، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٢٢/ ٥١٨، والعلم الهيب في شرح الكلم الطيب، لبدر الدين العيني: ص٣١٦.

(٢) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٢٢/ ٤٩٥.

(٣) انظر: المصدر السابق: ٢٢/ ٤٨٠.

فهرس موضوعات المجلد الأول

الموضوع الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع الصفحة